

مساقات

فني اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية

مجلة علمية دولية محكمة

تصدر كل ستة أشهر عن جامعة يحيى فارس بالمدية - الجزائر

عدد خاص بأعمال المؤتمر الدولي المتخصص
الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية
بين التأصيل والإنجاز

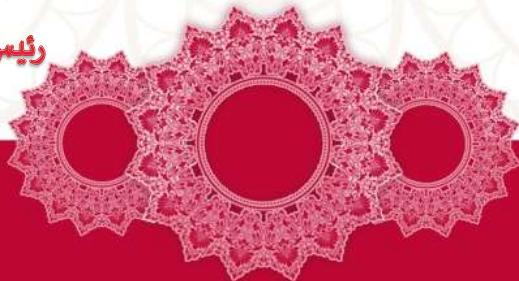
المنعقد بجامعة المدية
بتاريخ 27-28 فبراير 2019

المجلد الثاني - العدد الثاني - فبراير 2020

الجزء الأول

جمع وتقديم: د. محمد مكي

رئيس المؤتمر ورئيس تحرير مجلة مساقات



مساقات

فني اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



مجلة علمية دولية محكمة

تصدر كل ستة أشهر عن جامعة المدية بالجزائر



عدد خاص بأعمال المؤتمر الدولي المتخصص

الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية بين التأصيل والإنجاز

رقم الإيداع القانوني ISSN: 2676-1182

المجلد الثاني – العدد الثاني – الجزء الأول

جمادى الآخرة 1441 هـ الموافق لـ: فبراير 2020م

جمع وتقديم: د. محمد مكي

رئيس المؤتمر ورئيس تحرير مجلة مساقات

منشورات جامعة يحي فارس بالمدية

مطبعة الجودة _ المدية _ الجزائر



مسابقات

فك اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



الهيئة الاستشارية

أ.د. عبد المالك مرتاض

رئيس المجلس الأعلى للغة العربية سابقا خبير ومحكم دولي في عديد الهيئات والمجلات العلمية.

أ.د. جمعي لخضر

أستاذ تحليل الخطاب-جامعة أبوالقاسم سعد الله-الجزائر.

أ.د. هادي حسن حمودي

مستشار الدراسات العليا - جامعة بورتسموث لندن بريطانيا.

أ.د. حبيب موني

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر.

أ.د. ماهر مهدي هلال

الكلية الجامعية للأم والعلوم الأسرية عجمان الإمارات العربية المتحدة.

أ.د. عيد بلبع

أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية الآداب سابقا - جامعة المنوفية مصر.

أ.د. محمد السعيد عبدلي

جامعة البليدة 2 الجزائر.

أ.د. عبد الحميد علاوي

عميد كلية الآداب والدراسات الشرقية-جامعة أبوالقاسم سعد الله-الجزائر.

أ.د. فليح مضحي السامرائي

عميد كلية اللغات جامعة المدينة العالمية كوالمبور ماليزيا

أ.د. الطيب لعروسي

معهد العالم العربي باريس.

هيئة تحرير المجلة

الرئيس الشرفي

أ.د. يوسف حميدي رئيس الجامعة

مدير النشر ورئيس التحرير

أ.د. مكي محمد

نائب رئيس التحرير التنفيذي

أ.د. سالم صغير

نائب رئيس التحرير الإداري

أ. ولد العزازي خيرة

أمانة التحرير

أ.د. حنطابلي زوليخة أ.د. عماد سهام

الإخراج الفني والتصميم

أ. فؤاد حلوان

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. دوالي بلخير أ.د. مدان حورية

أ.د. رحماني أم هاني أ.د. بشير حورية

أ.د. دويقي سهام أ. برادي علي

مساقات

فـن اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



أعضاء اللجنة العلمية المحكمة

لجنة القراءة والتحكيم دورية ويتم إضافة أسماء أخرى في كل تحيين لأعداد المجلة

- أ.د. نسبية العرفي - جامعة أبوالقاسم سعد الله-الجزائر.
أ.د. تومي السعيد - جامعة البليدة 2 - الجزائر.
أ.د. بن عطية كمال - جامعة الجلفة - الجزائر.
أ.د. مريم الترك - كاتبة وإعلامية - لبنان.
أ.د. عبد القادر شارف - جامعة الشلف - الجزائر.
أ.د. عواطف القاسمي الحسني - جامعة المدية-الجزائر.
أ.د. الشادلي سعدودي - جامعة المدية-الجزائر.
أ.د. طيبي أحمد فايزة - جامعة الشلف-الجزائر.
أ.د. عائشة جمعي - جامعة المدية-الجزائر.
أ.د. فايزة حريزي - المركز الجامعي تيبازة-الجزائر.
أ.د. العرابي مراد - جامعة البليدة2-الجزائر.
أ.د. خليدة بن عياد - جامعة بومرداس-الجزائر.
أ.د. بوراس سليمان - جامعة المسيلة-الجزائر.
أ.د. العربي ركي - جامعة المدية-الجزائر.
أ.د. محمد خريش - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. رضا رافع - جامعة محمد بوقرة بومرداس-الجزائر.
أ.د. جمعي لخضر - جامعة أبوالقاسم سعد الله-الجزائر.
أ.د. عيد بلع - أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية الآداب جامعة المنوفية مصر.
أ.د. أحمد طوران أرسلان - جامعة محمد الفاتح اسطنبول تركيا.
أ.د. محمد زوقاي - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. شنوف ناجي - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. خليفاتي محمد - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. أسامة سليم - جامعة قناة السويس - مصر.
أ.د. عماد أحمد الزين - جامعة الإمارات العربية المتحدة.
أ.د. مريم جبر فريجات - جامعة البلقاء إربد - الأردن.
أ.د. محمد زيدان : ناقد أدبي وكيل وزارة الثقافة سابقا - مصر.
أ.د. نصيرة الغماري - المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر.
أ.د. أمينة أوردور - جامعة الناظور - المغرب.
أ.د. ثناء عياش - الجامعة الهاشمية الأردن.
أ.د. مسعود ناهلية - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. كمال بخوش - جامعة المدية - الجزائر.

مساقات

فك اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



هوية مساقات

هي مجلة علمية أكاديمية دولية محكمة، تصدر كل ستة أشهر عن جامعة يحي فارس بالمدينة بدولة الجزائر تعنى باللغة وآدابها وعلومها، وبالأنساق المرتبطة بالدراسات اللغوية والبيئية وتلتزم في هذا السياق بنشر الإنتاج المعرفي المتسم بالجودة والإتقان وتمكين الباحثين والأكاديميين والكتاب من مختلف الدول في العالم من التعبير عن منجزاتهم العلمية، وكذا التواصل المعرفي مع القراء والدارسين، وتطمح المجلة في مسارها الملتزم بالجودة والأداء المتميز أن تحقق اعترافا دوليا يؤهلها إلى مرتبة متقدمة طبقا لمواصفات ومؤشرات التصنيف الدولي وتضع في هذا السياق استراتيجية منهجية مدروسة ومحددة.

اللغات المعتمدة في المجلة

تقبل المجلة المقالات باللغات : العربية، الإنجليزية والفرنسية مع التأكيد على أولوية المساحة المخصصة للدراسات باللغة العربية.

خط المجلة ووجهتها المعرفية

تهتم المجلة بالحقول المعرفية المتاحة في الأنساق اللغوية والأدبية والنقدية والآداب العالمية وتعتمد المرجعيات التراثية وتنفتح على ابتكارات المنجز الحداثي وما بعد الحداثي. وتؤمن المجلة بمبدأ الحوار بكل محدداته ومستوياته وكذا التعدد الثقافي، و التسامح الفكري والتواصل مع الآخر في تشاركية تفضي إلى تنوع المخرجات التي تسهم في بناء المعرفة وترقية القيم الحضارية والإنسانية.

مسؤولية المجلة

- 1/ الأفكار والآراء الواردة بالمجلة تعبر عن رأي الكاتب صاحب المقال ولا تعبر عن رأي إدارة المجلة .
- 2/ تلتزم المجلة بحظر نشر أي مادة تحرض على العنصرية وتدعو إلى ثقافة الكراهية وتتعرض للأديان وتروج للفكر الطائفي ، وتمس بحقوق الإنسان وتجرح في الأشخاص والهيئات ، ولا تتعامل المجلة مع كل مؤلف توجي منشوراته بهذه المواصفات.
- 3/ تنشر المجلة المقالات والأبحاث مجانا ولا تفرض أية رسوم نقدية على المؤلفين بأي حال من الأحوال.

مساقات

فك اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



أهداف المجلة

- نشر الدراسات العلمية الجيدة والمتقنة في الحقول المحددة وتوفير منصة علمية جادة للباحثين والأكاديميين من مختلف الدول.
- استثمار الكفاءات العلمية وتوجيهها في السياق الذي يمكن من الاستفادة الجماعية من المعارف المتاحة.
- إعادة قراءة المنجزات التراثية العربية واستقراء المدونات القديمة وتعميق مقولاتها وتثمين موادها
- مواكبة المنجزات اللغوية والأدبية والنقدية الراهنة وتمثلها ، وتشخيص الفرضيات والنظريات المعرفية ووضعها موضع النقاش المنهجي الهادف.
- التطلع المدروس لتحقيق موقع في التصنيفات العالمية التي تعتمد مؤشرات الجودة والتميز.

إجراءات التحكيم في المجلة

- 1/ يرصد لتحكيم المواد العلمية المقدمة للمجلة كفاءات علمية متخصصة من مختلف الدول.
- 2/ تكون لجنة القراءة والتحكيم دورية وقد يتم إضافة أسماء أخرى في كل تحيين لأعداد المجلة.
- 3/ تلتزم المجلة بسرية صاحب المقال بعدم الكشف عنه للمحكمن.
- 4/ يتولى تحكيم المادة العلمية محكمان اثنان من ذوي الاختصاص و قد تلجأ المجلة للفصل إلى محكم ثالث.
- 5/ يطلب من المحكم إرسال تقرير الخبرة في أجل لا يتجاوز العشرين (20) يوماً.
- 6/ يتم الرد على صاحب المقال فور تلقي المادة على أن يتم الرد بالقبول أو التعديل أو الرفض في مدة لا تتجاوز الشهرين.
- 7/ في حال عدم قبول نشر المادة المرسلة يتم توضيح الأسباب والمبررات لصاحب المقال.
- 8/ يتم التواصل في كل المراحل السابقة مع رئيس التحرير فحسب.
- 9/ لأسباب ما تقدرها هيئة المجلة قد يؤجل نشر مقال ما لأعداد قادمة على أن يُعلم صاحب المقال بذلك.
- 10/ يتم الإعلان في كل عدد عن أسماء المحكمن لهذا العدد.

مساقات

فك اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



شروط وقواعد النشر في المجلة



1. للتواصل والاستفسار عبر البريد الإلكتروني massakette@gmail.com أو هاتف: +213 541764326
2. ترسل المقالات بنسختين word و pdf إلى هذا البريد massakette@gmail.com
3. ولاحقا يتم إرسال المقالات عبر المنصة الجزائرية للمجلات العلمية www.asjp.cerist.dz/en وسيتم الإعلان عن ذلك في الأعداد القادمة
4. تمتنع المجلة نشر المادة العلمية التي سبق نشرها في مجلات أو دوريات أخرى. ويلتزم المؤلف بهذا الشرط ويعد الإخلال به إذا تبين مانعا لنشر مقالات هذا المؤلف مستقبلا.
5. يلتزم المؤلف بالأمانة العلمية وفي حال تبين بعد نشر المقال الإخلال بهذا الشرط فلا تتحمل المجلة التبعات التي تترتب عن هذه المخالفة وتمتنع المجلة مستقبلا نشر أي عمل لهذا المؤلف
6. يرفق المقال بسيرة ذاتية موجزة تبدأ بهذه المحددات (الاسم واللقب، الوظيفة، الرتبة العلمية، المؤسسة الجامعية، البلد، البريد الإلكتروني، رقم الهاتف.
7. لا يتجاوز عدد صفحات المقال (25) خمس وعشرين صفحة بما في ذلك الملاحق، ولا يقل عن عشر 10 صفحات ويلتزم الكتاب والمؤلفون بالشروط التقنية التالية:
8. يُكتب عنوان المقال وتحت مياشرة اسم المؤلف بخط (16) (Sakkal Majalla)
9. يُكتب الملخص باللغة العربية ولا يتجاوز عشرة أسطر وتحت مياشرة الكلمات المفتاحية يلي ذلك الملخص باللغة الانجليزية مع الكلمات المفتاحية باللغة الانجليزية بخط (11) (Times New Roman).
10. يُكتب متن البحث كله بخط (14) (Sakkal Majalla) بقياس 2.00 سم في الجهات الأربع .
11. في حال الكتابة باللغة الأجنبية داخل المتن يستعمل خط (11) (Times New Roman).
12. مع نمط التباعد بين الأسطر قياس 1.15
13. بالنسبة للأشكال والصور يجب استخدام تقنية التجميع (group) حتى تحفظ على شكلها الأصلي.
- يُكتب الهامش تحت كل صفحة في متن المقال بخط (Majalla Sakkal) مقاس (10) ويتحرى فيه المؤلف شروط المنهجية المعمول بها والمشار إلى كفياتها في ضبط قائمة المصادر والمراجع.
14. ضبط قائمة المصادر والمراجع:
- يلتزم المؤلف بهذه الشروط في ضبط المراجع والمصادر وكذا في الهامش
- الكتب والمؤلفات: المؤلف، عنوان الكتاب، الناشر، رقم الطبعة، بلد النشر: سنة النشر، الصفحة.
- المجلات والدوريات: المؤلف، عنوان المقال، اسم المجلة، المجلد، العدد، السنة، الصفحة.
- الأوراق البحثية في المؤتمرات والملتقيات والندوات العلمية: المؤلف، عنوان البحث، عنوان المؤتمر أو الملتقى أو الندوة، تاريخ تنظيم الفعالية، الهيئة المنظمة: جامعة، مركز بحث، مختبر، البلد.
- منشورات المواقع الإلكترونية والفضاءات التفاعلية: اسم المؤلف، عنوان المادة المنشورة في الموقع، اسم الموقع ورابطه.
15. الملاحق: تكتب الملاحق بالنمط نفسه في كتابة متن المقال وتكون في آخر المقال قبل قائمة المصادر والمراجع.

محتويات الجزء الأول

9	د. محمد مكي – جامعة المدية - الجزائر	كلمة التحرير
12	د. عيد بلبع - جامعة المنوفية مصر	مركزية النص وأثرها في توجيه منهجيات القراءات نحو الممارسة النصية
28	د. ماهر مهدي هلال - الكلية الجامعية للأم والعلوم الأسرية - الإمارات العربية المتحدة	الرؤية البلاغية في قراءة النص
45	د. نصيرة الغماري - المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر	الممارسة التداولية في الدرس الأصولي. مقارنة تأصيلية
58	د. كمال بن عطية- جامعة الجلفة - الجزائر	آليات الإنتاج المعرفي والاستقصائي في التراث النقدي العربي
70	د. بركاهم العلوي - المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر	التماسك النصي في الخطاب النحوي عند سيبويه قراءة في بعض آليات الكلام
86	د. بلعربي هبية - جامعة الجزائر(2) - الجزائر	آليات التماسك النصي من خلال علوم القرآن التفسير الكبير ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي
98	د- رشيد عمران - جامعة بشار - الجزائر	إستراتيجيات الانسجام النصي في علوم القرآن - علم المناسبة أنموذجا
110	د. شميمسة خلوي - جامعة الجزائر(2) - الجزائر	آليات التناص الشعري في بكائية مالك بن الرب (ت:60هـ)
122	د. صحرة دحمان - جامعة الجزائر(2) - الجزائر	قراءة للمقولة التراثية «لكل مقام مقال» في إطار نظرية الوضع والاستعمال العربية
138	د.عبد الكريم جيدور. مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية ورقلة الجزائر.	الأسس المعرفية لقراءة النص القرآني لدى علماء الأصول: قراءة في المميزات الأساسية لاقتراح "جواهر القرآن" للإمام أبي حامد الغزالي.
151	د. عبد الكريم حمو المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران- الجزائر	التراث التفسيري في الجزائر : مخطوط "الابريز والاكسير في علم التفسير لأبي راس الناصري المعسكري" -دراسة لغوية بلاغية -
171	د. عقيلة لعشي - جامعة مولود معمري بتيزي وزو. الجزائر	إرهاصات نحو النص في التراث العربي القديم.
183	د. علي عبد النبي إبراهيم فرحان - الجامعة الأهلية – مملكة البحرين	الخطاب التداولي في مقامات الحريري
195	د. عمارة حاكم - جامعة الدكتور مولاي الطاهر بسعيدة - الجزائر	نظرية النحو العربي في ضوء التداولية والحجاج (كتاب سيبويه نموذجاً)
216	د. فاطمة حجّاري مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية - الجزائر	معيّار السبّك الصوتي في المدوّنات النقدية التراثية - دراسة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ
230	د. فايزة طيبي أحمد - جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف - الجزائر	أسلوب الفنّلة في المنجز الأصولي " التأصيل والانجاز" -رسالة الشافعي نموذجاً-
243	د. فتيحة بلغدوش بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة-الجزائر	التراث اللساني ومعايير التماسك النصي قراءة في كتاب " تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان " لحميد الدين الفراهي ت(1349).
256	د. لبصير نور الدين جامعة امحمد بوقرة بومرداس - الجزائر	تمفصلات التماسك النصي و جذوره في مدونات علوم القرآن - خلفيات المقاربة وإشكالات التأسيس
274	د. ليلي قاسحي - جامعة الجزائر(2) - الجزائر	جماليات التناص الديني في ديوان "ترجمان الأشواق " لابن عربي
289	د. مختار بن قويدر جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر- الجزائر	نظرية السنج على المنوال لدى ابن خلدون؛ من منظور التعالقات النصية
304	د. مريم بوجناح المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر	الآتساق و الانسجام النصي في التراث اللساني البلاغي - كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي أنموذجا-
313	د. مسعودة سليمانني جامعة مولود معمري تيزي وزو - الجزائر	البلاغة العربية: من الجملة إلى النص
325	د. نسبية العرفي- جامعة الجزائر(2) - الجزائر	بين البلاغة الأدبية والبلاغة الحجاجية - مجالات التقابل والتقاطع في مصنفات البلاغة العربية-
334	د. نعيمة بوزيدي جامعة البليدة2- الجزائر	إستراتيجية التناول البلاغي عند عبد الله بن المعتز - قراءة في كتاب البديع
347	د. رواق هادية - جامعة سطيف 2- الجزائر	الفصول الكلامية رؤية تراثية مبكرة في استراتيجيات - التكامل النصي (حازم القرطاجي نموذجاً)
359	د. هندة بوسكين - جامعة الجزائر(2) - الجزائر	الشعر العربي: حقيقته و جوهره - قراءة محمد العمري لتصور ابن وهب الكاتب. المنظر البلاغي.
368	د. يوسف مقران المركز الجامعي مرسلني عبد الله. تيبازة - الجزائر	لسانيات المدونة (المتون) وفضلها التوثيقي وعلى البحث السياقي - فاعلية النص المترابط .
381	د. عبد الرشيد شادي جامعة محمد بوضياف بالمسيلة - الجزائر	آليات المساءلة النصية والتداولية في التراث البلاغي العربي القديم - منهاج البلاغ وسراج الادباء لحازم القرطاجني – أنموذجا
391	د.محمد بن حجر - جامعة المدية - الجزائر	أصول تحليل الخطاب في رسالة (غاية الأحكام في آداب الفهم والإفهام) للطحلاوي.
406	د. سليمان بوراس جامعة المسيلة - الجزائر	التماسك النصي بين القدماء والمحدثين.
417		برنامج المؤتمر

مساقات

فك اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



د. مكي محمد مدير المجلة رئيس التحرير

كلمة التحرير



ها نحن الآن نفي بما قطعناه من التزام مع أنفسنا ومع أخواننا المشاركين في المؤتمر الدولي المتخصص في الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية بين التأصيل والإنجاز الذي عقد بجامعة المدية 27/28 فبراير 2019 لنجعل من المواد المعرفية التي تم تدارسها وإدارة النقاش حولها في يومين متتاليين حافلين بفعالية الإلقاء والتلقي بين نخبة من الباحثين المتميزين من البلاد العربية _ لنجعل من هذه المواد _ موضع التدوين في سجل ضخيم يمتد عبر أزيد من ألف (1000) صفحة في أجزاء ثلاثة ليكتمل فعل الإفادة بتمكين المشاركين في المؤتمر _ بوصفهم أصحاب هذه المنجزات المتخصصة في قضايا الممارسة النصية في التراث العربي أولا ثم تمكين الباحثين في قضايا التراث العربي القديم في العالم كله ثانيا والذين يشتغلون على مقولات النص والنصية والتناص والتعالقات النصية والإشكالات التي ترتبط بهذه المقولات من ذلك : التفكير التداولي وقضايا الحجاج ومباحث التأويل _ تمكين أولئك وهؤلاء _ من الانتفاع بهذه البحوث الأكاديمية التي عكف عليها متخصصون في سياق معرفي متميز جدا هو فعاليات المؤتمر الدولي المتخصص حول الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية بين التأصيل والإنجاز جامعة المدية الجزائر..

هاهي مجلة مساقات الدولية المحكمة البارة بقراءها تضع ما طال ترقيبه عملا منجزا وما كان ليكون هذا الإنجاز لو لا مشيئة الله تعالى التي هيأت الأسباب والإمكانات ثم جهود المخلصين في هذه المجلة الذي آثروا أن يكون صدور هذا العدد الخاص بفعاليات المؤتمر في صورة تحاكي نجاح المؤتمر وتعكس قيمة المشاركين فيه مثلما تكرر ما دأبت عليه مساقات وألزمت نفسها به من الجودة والأداء المتميز .

إذن تعيد مساقات توجيه تلك الحوارات العلمية الماتعة والنافعة التي دارت بين مساحات جامعة المدية وأروقها ذات فبراير 2019 إلى مساحات نصية تمتد عبر أزيد من ألف 1000 صفحة وتعيد معها تدارس إمكانات التراث العربي القديم _ بمرجعياته المتنوعة _ وتعاين موادها التي اشتغلت على قضايا النص بكل مفرداته ومقولاته ومدى قدرتها على تأسيس منظومة منهجية إجرائية بكل الملامح والقسمات

وتنقل لنا المجلة تلك النقاشات العلمية التي انبنت على الموضوعية والنزاهة والمقاربة الجادة والتي تنأى عن المناقبية وتلميع الذات مجيبة عن سؤال محوري ومحدد فيما تكمن قيمة المنجز التراثي في سياق الدرس اللساني النصي وقضايا النصية والتناص والتداولية والحجاج ؟ وأين يمكن أن نرصد المظان التي تمدنا

مسابقات

في اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



بهذه المادة المؤهلة لإنجاز منظومة نظرية بكل المحددات وما هي مجالاتها التطبيقية

في في الدرس نفسه _ أي الدرس النصي التراثي _ ؟

و ما الذي يمنع الدارس العربي الحديث من الوصول إلى هذه الينابيع العذبة التي

نهبنا إليه الكثير من الدارسين الغربيين المنصفين ؟

إنها بعض من الأسئلة التي تحفز البحث في تراثنا الفذ الذي استثمره غيرنا

للأسف الشديد وبنى عليه منجزات معرفية أعاد تسويقها لنا بلبوسه الواهم ولسنا نقول ذلك بمحض التجني على الآخر بل أنه هو نفسه أي الآخر من شهد ذلك وليس السياق هاهنا سياق الحديث عن هذا الموضوع

إن مشروع المؤتمر _ بهذا الوصف _ محاولة جديدة لبعث سؤال قديم . هل استنفذ التراث العربي بمرجعياته ومفرداته ومكوناته وإمكاناته وظيفته أم أنه مازال قادرا على الإجابة عن أهم إشكالات الدرس النصي الحديث ؟

وفي مستوى ثان ، تنزع محاور المؤتمر إلى استثمار مقولات القدامى ، في تأسيس بعض إجراءات البحث والدراسة ، وقد يوفق الباحثون في موضع ، ويجانبهم الصواب في موضع آخر ، على أن المقصد الأساس هو تعميق طروحات التراث ، ما أمكننا السبيل الى ذلك ، وهو منزع لا يعني إطلاقا انهارا بالتراث ، كلا ولا إجحافا للحديث ، ولكنها المساءلة والمصارحة والمصالحة مع الذات العربية التي أعيها الاحتكام الى المناهج الغربية الحديثة ، هذا الاحتكام الذي يعبر بصدق عن خلخلتها إزاء ما ينتجه الفكر الغربي بسرعة الضوء ، نتاج متلاحق بعضه وراء بعض ، لم يترك لهذه الذات مجالا للإبداع ، فركنت إلى الاتباع ، وفوتت على نفسها فرصة الارتداد إلى التراث قصد قراءته قراءة جديدة قد تعينها في اختزال المسافات ، وإن كانت لا تعفيها ضرورة الأخذ عن الغير ، الأخذ الواعي المتماسك ، الهادئ والهادف ،

وإن هذا الوعي بالتراث العربي الذي يقف على مقربة من الحاضر دون خصام وصدام هو الذي يحدد قيمة موروثنا ، مثلما يحدد موقفنا من الغير

و من المهم أن يتضح في هذا السياق أن الإشكالات التي يقارنها المؤتمر إذ تنأى عن تنظير المنجز الغربي فليس لموقف فكري أو ثقافي رافض ، بل لأن هذا المؤتمر أراد لنفسه أن يتنزل في حقل المنجز التراثي العربي ، وهو لأجل ذلك يطمح _ والطموح مشروع _ أن يستثمر ما يتيح هذا التراث الغني من مقولات _بصرف النظر عن مرجعيته، حجمها وقدرتها_ لتؤسس للممارسة النصية سواء تلك التي انطلقت من المدونات الشعرية والنثرية أو التي انطلقت من المدونة القرآنية مع الوعي بذلك الاختلاف البين بين المقاربتين بخلفياتهما المعرفية وبأدواتهما الناجزة ..



مساقات

فك اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



والفضاء أرحب من أن يضيق بمن تصغر في عيونهم قيمة المنجز التراثي فيصادرون مشروعا من حقه أن يعبر عن نفسه ، وإن خالف بعضا من المترددين أو المشككين أو من لم يُقدّر لهم إلماما كافيا بتفاصيل تلك المواد المعرفية المتنوعة التي أُودعت آلاف المدونات والمصنفات التراثية .



إذن تبدو الصورة واضحة المعالم ، بينة القسّمات بأن هذا المحفل المعرفي الذي سندسميه بكل تجرد محاولات تستقرئ تراثنا _ الذي لا نملك سوى أن نجله ونقدره وننتصر له _ وتبدو _ مع وضوح الصورة بهذا الشكل _ ثقتنا كباحثين ومشتغلين من كل أنحاء العالم العربي تبدو ثقتنا الواعية بأن هذا التراث قادرٌ على الاستجابة ، حمالٌ لفنائس نادرة ، دل على ذلك الاستقراء في أكثر من سياق .

إننا مثلا ونحن نعاين ظاهرة الاتساق في المدونات التراثية ونبحث في آلياتها وتفاصيلها لسنا ملزمين بأي حال من الأحوال ، تحت أي مسوغ منهجي ، معرفي ، أو فكري أن يكون المفهوم مطابقا بالضرورة كل التطابق لمفهوم (مايكل هاليداي) (وحسن رقية) مثلما أننا حين نحاول رصد مظاهر التماسك النصي كما يفهمه العقل العربي التراثي في تعامله مع النص لسنا مطالبين على وجه الإلزام أن تكون بالمعيار نفسه الذي يقرره به (فان ديك) ، وبالكيفية ذاتها حين نبحث في المعايير النصية في تراثنا فلن يكون محك المصادقية هو مدى مطابقتها لمعايير (دي بونجراند) مثلا وليس التناص هو نسخة واحدة تفرضها منجزات (جوليا كريستيفا) أو (جيرار جينات) أو (رولان بارث) بل إن من التعالقات النصية بكل أشكالها في تراثنا ما قد يتجاوز محددات الدرس الغربي ..

على أنه يجب أن يُفهم بفكر موضوعي منصف أن هذه الاختيارات والتوجه نحو التراث لا تعني مطلقا قدحا في المنجز الغربي أو تقليل من قيمته ، لسببين وجهين أولهما أننا نؤمن بقيمة هذا الانجاز الغربي وحدوده المعرفية وجدواه وثانيهما أننا نؤمن بمبدأ التراكم المعرفي وهو الإيمان نفسه الذي يحفزنا بالتأكيد لكي نخوض تجربة القراءة والاستقراء في المدونات التراثية العربية القديمة كي نستجلي منها أفقا رحبا ينبض بالمسارات الجادة ونستلهم من منابعها بعضا من العلامات الدالة .

د. محمد مكي

مدير المجلة، رئيس التحرير

مركزية النص و أثرها في توجيه منهجيات القراءات نحو الممارسة النصية

د. عيد بلبع

جامعة المنوفية مصر

الملخص بالعربية

الممارسات النصية إجراء منهجي ناضج، ولهذا يستلزم حضوره سياقاً معرفياً ناضجاً، ولهذا كان من الطبيعي غيابه في البدايات الأولى للنشاط العقلي العربي، وقد ناقشت هذه المداخلة إسهام القرآن العظيم في الدفع إلى نشأة التفكير المنهجي العلمي وتخطي الانطباعية التي ناسبت تلقي الشعر، كما رصدت الممارسة النصية في العلوم والمعارف التأسيسية وعلاقتها بالرؤية البلاغية، ثم رصدت الغياب وطموح الحضور في المدونة البلاغية.

Abstract

Textual practice is a mature methodology, that is why, its presence requires the availability of a mature cognitive context. And as a result, it was logical that this context was absent during the first stages of the Arabic mental activities. This study analyzed the effects of the Holy Quran in forming the scientific methodology and neglecting the impressionism that used to serve poetry. This study also focused the light on the textual practice in both foundational science and knowledge from one side and their relationship with the rhetorical vision from another side. Finally, this study spotted the absence of the textual practice and the eagerness for presence in the rhetorical corpus

العقل العربي عقلٌ لغويٌّ، نشأ تفكيره العلمي على النص، ويتحدد النص في الشعر العربي قبل الإسلام، وفي القرآن العظيم بعد الإسلام، أما العقل الغربي فهو عقل فلسفي قام على التفكير والتأمل المجرد.

تتماسك هذه المداخلة مع فلسفة العلوم بما تحمله بين طياتها من مقدمات تناقش الجذور المعرفية لنشأة العلوم العربية، وتتأسس هذه المداخلة على أثر القرآن العظيم في نشأة العقل المعرفي العربي متمثلاً في هذه العلوم، وينحصر اهتمامنا هنا في مناقشة الخلفية التأسيسية التي وجه بها القرآن العظيم علوم العربية إلى النصية منذ نشأتها الأولى، تأسيساً على حتمية الارتكاز على الأبعاد السياقية، وموقف الدرس البلاغي من هذا الحراك المعرفي، وكيف يعكس هذا موقفاً مبانياً من الشعر العربي قبل الإسلام بوصفه مرحلة إعداد للتفوق في استعمال اللغة، وتشرب خصائصها في النسيج الذوقي للعربي الذي كان بها مهياً لإدراك خصوصية النص القرآني مهما عاند وأنكر، فجاءت الممارسات النصية من إملاءات النص واقتراحات ظواهره الخاصة المرتبطة بغاياته شديدة الخصوصية، وفي الحالين معاً: حال الإنتاج والتلقي للشعر وحال التلقي للقرآن العظيم تشكل العقل العربي تشكلاً لغوياً.

لا تنطلق هذا الدراسة من كون الممارسات النصية اختياراً منهجياً، بل تنطلق من كونها ضرورة منهجية حتمية فرضتها خصوصية سلطة النص المركز (القرآن العظيم)، في مقارباته التي اتسعت لرؤى علوم ومعارف تعددت بتعدد غاياتها ومنهجياتها، وتتحدد في النحو والقراءات وأصول الفقه والتفسير والفقه والبلاغة، على تفاوت حظها من النضج المنهجي.

وليس ثمَّ من شك في أن الممارسات النصية إجراء منهجي ناضج، ولهذا يستلزم حضوره سياقاً معرفياً ناضجاً، وهذا يدفعنا إلى سؤال الغياب والحضور في تأمل البدايات الأولى لولادة النشاط العقلي البحثي العربي، وهذا ما حاولنا استجلاءه في المبحث الأول التمهيدي، الممارسات النصية ونشأة التفكير المنهجي بين القرآن والشعر.

ولا نسعى في المبحث الثاني (الممارسة النصية في المعارف التأسيسية) إلى استقصاء البحث عن الممارسات النصية في العلوم والمعارف العربية والإسلامية بشكل عام، ولكننا نهدف إلى استجلاء أثر النشاط العقلي البحثي في توجيه موقف البلاغة من انتهاج الممارسة النصية سلبيًا وإيجابيًا، في محاولة لاستجلاء الأسباب التي وجهت البدايات نحو الممارسات النصية أو حالت دونها، وذلك في مناقشة الرؤى المعرفية المتواشجة مع البلاغة وأثرت في نشأتها وتوجيهها المنهجي.

أما المبحث الثالث (النصية في المدونة البلاغية، رصد الغياب وطموح الحضور) فقد أفردناه لرصد السلبيات المنهجية التي عاقت التفكير النصي وتحليل الخطاب في الدرس البلاغي بغرض الانطلاق من هذه المراجعة المنهجية إلى اقتراح رؤية منهجية للبلاغة الخاصة تتفاوت فيها المداخل وفق خصوصية الخطاب المرتبطة بمنطلقاته وسياقات وجوده وغاياته التواصلية الخاصة.

المبحث الأول: الممارسات النصية ونشأة التفكير المنهجي بين القرآن والشعر

(1)

لا تسعى هذه المحاولة إلى الاستقصاء في تتبع مظاهر الرؤى النصية في المدونات التراثية، ولكنها تسعى إلى تدبر أثر النص في حفز العقل العربي إلى الرؤية النصية، ويأتي توجيهنا هذا مؤسسًا على حقائق:

تتحدد الحقيقة الأولى في أن الممارسات النصية في التراث العربي الإسلامي لا تنطلق من رؤية نظرية منهجية للمؤلفين يطمحون إلى تطبيقها على القرآن العظيم، ولكنها إجراء منهجي فرضه النص العظيم أساسًا منهجيًا يؤسس لعمق الرؤية في الحاجات المعرفية التي أسست ما انبثق حوله من علوم ومعارف.

وأما الحقيقة الثانية فتتحدد في أن الممارسة النصية في المدونات التراثية ليست نتيجة ناضجة لمحاولات عقلية سابقة، بل هي بداية ناضجة بتأثير النص القرآني، فالقرآن العظيم هو الحافز لوجود الممارسات العلمية المنهجية في العربية بشكل عام، فالعقل البحثي العربي مدين بوجوده للقرآن العظيم، ومن ثم فهو الذي أوجد الضرورة الحتمية للممارسة النصية في مقارباته من منظور خاص فنتج عن هذا تأسيس علومٍ عربيةٍ على غير مثال سابق، وعلى غير الأسس المعرفية السابقة في الأمم الأخرى.

ومن ثمَّ لا تنطلق هذا الدراسة من كون الممارسات النصية اختيارًا منهجيًا، بل تنطلق من أن مركزية النص (سلطة النص المركز) هي التي فرضت حتمية الممارسة النصية، لا نقول في رؤية مقارنة علم بعينه، ولكن في مقارباته التي اتسعت لرؤى علوم ومعارف تعددت بتعدد غاياتها ومنهجياتها، ومع هذا ربط بينها نهج الممارسات النصية.

ليس هذا من قبيل الإبحار ضد التيار، ولكنه في الحقيقة موقف معرفي نطمح أن يحقق توازنًا في وعي العقل العربي المعاصر بذاته، ثم وعيه في انطلاقاته الرؤيوية في العلوم والمعارف التي تقوم على الظاهرة اللغوية.

أما النص فهو القرآن العظيم، وأما العلوم فهي النحو والقراءات وأصول الفقه وعلوم الحديث النبوي الشريف الذي تأسس صواب رواياته بعرضها على القرآن العظيم، وأما المعارف فهي التفسير والفقه والبلاغة وشروح الحديث النبوي الشريف. وتتحدد الحقيقة الثالثة في أن واقع التلقي المتجدد للنص القرآني المستعصي على الإحاطة البشرية بعلمه يشهد بأنه ليس نصًا متوقفًا، أو منتهيًا على مستوى إحاطة العقل البشري به علماء، ولكنه نص حيٌّ قائم في امتداداته وديمومة وجوده الحافز على التَّعَرُّف على استثناءاته التي تتحقق فيها خصوصيته، ومن أظهرها البحث المتجدد - الذي لا ينتهي - في التفسير وما يتعلق به من جهود البحث في تناسب الآيات والسور، والذي يمثل الرؤية النصية الأولى والأهم بلا منازع في العقل البحثي العربي، والواقع يشهد بديمومة هذا البحث في طواعية المداخل المنهجية الحديثة لقراءات متجددة، كما يشهد بحضور البلاغة في هذا النشاط المعرفي.

(2)

لست بحاجة إلى أن أقيم الحجة على أن القرآن العظيم حوّل العقل العربي من رهافة الإحساس وهشاشته الانطباعية الارتجالية إلى رصانة العقل وصلابة الرّويّة، ومن قيمة الجمال والمبالغة إلى قيمة الحقيقة والصدق، فقد كان العرب أمة شعريّة تأنس للقول الجميل، وتقيم للمبالغات التي تعلم أنها مغايرة للحقيقة شأنًا عظيمًا يتحدد معه تفوق شاعر وإخفاق آخر، فقد احتفظ بخطاب المواءمة والتزلف في المديح وبخطاب المغالبة والمنافرة في الهجاء، كما احتفظ بسياقات البوح والمفاخرة، وغير هذا مما يحمل معنى المغالبة القولية التي تتكى على الجميل من القول وتغض الطرف عما قد يتخلى عنه من الحقيقة أو ما قد يتحلى به من الكذب، فتغيب الحقيقة لصالح الجمال، وتغيب الرّويّة لصالح الارتجال.

وما وصف المتروين من الشعراء بالعبيد سوى مسلك طبقي أو على أقل تقدير يخلص بنا إلى تحديد التأكيد هذا الملمح من ملامح العقل العربي الشعريّ، فمن صفات المتروي أنه يديم فيه النظر بعد النظر، وما إدامة النظر بعد النظر سوى الرّويّة. وقد استند الجاحظ في معرض المفاضلة بين العرب والشعوبية على هذا المسلك الارتجالي في قوله: "فكل شئ للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجاله فكر ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراخ أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالًا، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر."¹

فبقدر ما يحمل الوصف بالقدرة على الارتجال من تفوق وتمكن يحمل أيضًا حُكما موازيا على ارتجالية أمة لا تتروى، يعني لا تفكر ولا تمنع النظر، ومن ثمّ يأتي الوجه الآخر لهذه المقولة منافيا لما أراد الجاحظ نفسه إذا خرجنا بها من سياق الشعري الخالص في المقارنة بين العرب والشعوبية، وقد ذهب ابن قتيبة في تعريف الشاعر المتكلف بأنه "هو الذي قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة، وكان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ... وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولى المنقح المحكك."²

وقد خلط ابن قتيبة بين مفهوم التكلف ومفهوم تنقيح الشعر بجعله التنقيح مقابلا للطبع، ثم عاد وخلط مرة أخرى عندما حاول تحديد بعض سمات الشعر المتكلف: "والمتكلف من الشعر (وإن كان جيدا محكما) فليس به خفاء على ذوى العلم، لتبينهم فيه مانزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه."³

وممكن الخلط هنا في وصف الشعر المتكلف بالجودة والإحكام، مع توفر أسباب سقوطه التي أشار هو إليها من كثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه، أما الجهد العقلي الذي يعد أحد مقومات الصنعة الفنية فلم يُشر ابن قتيبة إلى فرق بينها وبين التكلف، يبدو من خلال النص الذي أشرنا إليه.

يأتي حكم ابن قتيبة هذا شاهدا على قدر من التسامح في رؤى وأحكام نقد الشعر، فهو إلى التلقي الاحتفالي الجمالي الإمتاعي أقرب، بما يحمل هذا النمط من نسبية الرؤى المؤسسة على الإدراك الذوقي.

لقد تبوأ القرآن العظيم المركز في تكوين العقل المعرفي العربي وتحول الشعر إلى الهامش، فالحقيقة التاريخية التي لا جدال فيها أن الشعر الذي هو ديوان العرب، ومعدن حكمتها وكتز أدها

معدن علم العربية

علم قوم لم يكن لهم علم منه
- الذي لا يعرفون لهم علما غيره -

لم يُفلح في توجيه العقل العربي نحو العلمنة، ومن ثم لم يُفلح في التأسيس لعلوم عربية، ولكنه أفلح في تأسيس الإحساس باللغة، وبهذا يظل الشعر العربي هو الذي أسس للإبلاس في استقبال العرب للقرآن العظيم فأكد خصوصيته، وأكد عجزهم وانقطاعهم عن أن يأتوا بسورة من مثله.

وكم أعجب من بعض الباحثين الذين بذلوا الوقت والجهد في تلمس متكآت دفاعية يتكثرون عليها للدفاع عن قضية ضعف الشعر بعد نزول القرآن العظيم، وكأنها سلبية تستوجب النفي والتذرع له بتكُلف الحجج واختلاقها، وكأنهم يسدون للقرآن العظيم قربة أو يدفعون عنه اتهاماً، وما دروا أن المعنى الخفي لهذا الصنيع هو إعلاء من شأن الشعر - لا القرآن - في مسلك مغالطيّ وكأن الشعر - في ظن من يقول بهذا - بلغ من السلطة مبلغاً ما يكون للقرآن العظيم أن يؤثر بالسلب عليه مع هذا المبلغ، وليس هذا بغريب عن قوم يمثل لهم الشعر علمهم الذي لم يكن لهم علم غيره⁴؛ ولأسباب تقل أو تكثر، تصح أو تخطئ انتحى العقل العربي هذا المنحى الدفاعي، بين قائل بأن الشعر قد ضعف بعد الإسلام وقائل بأنه لم يضعف، ويذهب البعض مذاهب شتى في تبرير القول بالضعف من التشاغل بالفتوحات وغير هذا من الأسباب والعلل.⁵

وليس لنا هنا أن ننحو بموقف العرب المصدوم المتزلزل بين الشعر والقرآن العظيم هذا المنحى من المقارنة، ولكنها مقدمة أولى تمهيدية ضرورية منهجياً لما لها من ملاسبات في تحولات صدمة التلقي بين موقف التسليم والإبلاس وموقف العناد والمكابرة، إنها المقارنة بين طفولية العقل ونضجه، بين هشاشة التلقي العاطفي التأثري وولادة رصانة العقل العلمي المنهجي.

(3)

النصية منهج العقل والرؤية الذي يقوم على التفكير والتدبر وما يناسبه من الكتابية وتجاوز الشفاهية الجزئية، وليس ثمّ من شك في حقبة العبارة القائلة "الشعر ديوان العرب"، فقد ذاعت في المدونات التراثية لتشير إلى أن الشعر أثنى ما بلغه العقل العربي من المعرفة، فكان علمهم الذي بلغ اهتمامهم به إلى حد التقديس، يقول ابن قتيبة (ت 276هـ) في عيون الأخبار: "الشعر معدن علم العرب وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النفار، والحجة القاطعة عند الخصام، ومن لم يقم عندهم على شرفه وما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة، والفعال الحميدة، بيت منه شذت مساعيه، وإن كانت مشهورة، ودرست على مرور الأيام وإن كان جسماً، ومن قيدها بقوافي الشعر، وأوثقها بأوزانه، وأشهرها بالبيت النادر، والمثل السائر، والمعنى اللطيف، أخلدها الدهر، وأخلصها من الجحد، ودفع عنها كيد العدو، وغض عين الحسود"⁶، نخلص من هذا الخبر وأشباهه في التراث العربي إلى أن أقصى تفوق لهذه الأمة الأمية يتحدد في استعمال اللغة، فالشعر استعمال خاص للغة، ومن ثم جاء استعمالهم للغة ذاتياً فطرياً يمثل أرق إحساس باللغة وأدقه.

وبمزيد من التأمل لا نقول نزل القرآن بالعربية ليتحدى القوم فيما تفوقوا فيه من فن القول الشعري، ولكن نقول شاء الله أن يتفوق القوم في استعمال اللغة ليتهيؤوا لإدراك أسرار القرآن العظيم الذي شاء الله أن ينزل بلغتهم، وكانت أسباب التواصل هي نفسها أسباب الصدمة المعرفية التي تولد منها اتجاهان متضادان: اتجاه التسليم والإيمان، واتجاه المقاومة والإنكار، لتبقى حالة الحرب والمعاندة في نفوس المنكرين بين عقيدة ولغة، عقيدة في آلهة - بزعمهم - يؤمنون بها ويصلون بين يديها ويقدمون لها القرابين، ولغة يدركون أسرارها عن فطرة وسليقة، ومن ثم تتمثل قوام هذه الحرب الداخلية في نفوس المنكرين في حالة من

المقاومة لما أدركوه من خصوصية القرآن العظيم واستثنائيته في أنفسهم، فذهبوا مذاهب شتى في تبرير إنكارهم وعجزهم في أن واحد، فترددوا بين افتراءات مختلفة متفاوتة، منها: "قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا" (الأنفال 31)، ومنها: "أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِيلِهِ" (هود 15)، ومنها: "لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ" (الزخرف 31)، فكان نزول القرآن العظيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدمة للعقل العربي على مستوى الوعي بالأشياء من عمق المعتقد وجذريته إلى صدمة على مستوى الوعي والإحساس باللغة التي ظنوا أنهم أتوا على أقصى قدراتها.

ومهما جد النقاد المحدثون ودارسو الأدب في استخلاص استنتاجات تذهب إلى أن الوحدة النصية كانت خاصة من خصائص الشعر العربي قبل الإسلام، فإن مدونات النقد الأدبي التراثية وأخبار الشعراء تشهد بوقوف العقل العربي آنذاك عند فراند الأبيات، وما قولهم: أمدح بيت، وأهجى بيت، إلا شاهد صدق على ما نذهب إليه هنا من انحسار الرؤية النصية عن النقد القديم، وإن ظهرت فإنها تظهر استثناءات وسط زخم الاحتفاء بالبيت المفرد؛ فقد قامت القضايا النقدية الكبرى على الاحتفاء بالبيت، ومنها قضية اللفظ والمعنى وقضية الأخذ والاحتذاء التي عُرفت بالسرقات الشعرية وقضية الطبع والتكلف، وأمثلة هذه التعليقات الموجزة والتوقعات الانطباعية السريعة كثيرة في التراث النقدي العربي يضيق عن ذكرها هذا المقام.

ونخلص من هذا إلى حقيقة أن الشعر فن وليس علما على مستوى الإبداع والنقد معا، ومن ثم فإن هذه الحقيقة تشهد بتفوق الإبداعي السليبي في العقل العربي على العقل العلمي المنهجي إذا قارناها بأهم أخرى كاليونان مثلا.

وتسليمنا هذه الحقيقة إلى حقيقة ثانية لصيقة بها نرى لها أهميتها تتحدد في أن الشعر كان خطابا شفاهيا، والشفاهية تصلح لخطاب الانفعال والبساطة، والكتابية تصلح لخطاب التروي والتأمل والتدبر، ومن ثم تصلح الإجراءات الجزئية والاجتزائية للشعر ولا تصلح لخطاب التدبر (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء 82)، وأي شيء يوقفنا على انتفاء الاختلاف أكثر من الرؤية النصية الكلية؟

لقد ارتبطت المعرفة العربية في بداياتها بالرواية الشفاهية التي تتلاءم مع الرؤية الجزئية، ثم جاء الاهتمام بالكتابة (التدوين) فكان القرآن العظيم مؤسسا للنقطة الحضارية: (لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه" (مسلم 3004)، وكانت بداية (مركزية القرآن) في تأسيس العقل البحثي العربي حضاريا بالانتقال من العفوية اللغوية الشفاهية الارتجالية إلى الوعي وحالة التفكير المنظم.

وقد بدأ تدوين العلم عام 143هـ في عهد الخليفة العباسي المنصور (136، 158هـ)، وقد كانت كلمة العلم تعني وقتها علم الحديث، وقد كانت كلمة العلم تُستعمل في مقابل الرأي، وكان يعتمد اعتمادا كاملا على المرويات من الحديث والتفسير وغيرهما، وقد كان الأمر آنذاك متعلقا بجمع الموروث الفكري العربي الإسلامي وتصنيفه، ثم انتقل الاهتمام من تدوين الشفاهي إلى التأليف، فكانت مؤلفات الخليل 170 هـ وسيبويه 180 هـ، إذ جاء إغلاق النسق اللغوي إغلاقا محكما لا يسمح بأي جديد إلا ما له أصل داخل النسق الذي يمثل مادته قاموس العين، وأما التععيد النحوي في كتاب سيبويه فيمثل النظام⁷، وليس ثمَّ من شك في اعتماد الكتّابين على الرؤية النصية في رصد المعنى وتحديد احتمالاته سياقيا في القاموس، ثم الترجيح بين الاحتمالات الإعرابية سياقيا أيضا في الكتاب.

ثم جاء كتاب الرسالة للإمام الشافعي رضي الله عنه ٢٠٤ هـ الأظهر والأوفي في الممارسة النصية حتى كان موقف الشافعي من العقل العربي الإسلامي يشبه قواعد المنهج التي وضعها ديكرت من العقل الأوربي.⁸

ومن المؤكد الذي لا جدال فيه أن موقف الشافعي الذي أعلنه هنا ليس مدفوعا بهشاشة عاطفية تملحها روابط العقيدة والعرق وشتى أشكال الانتماء، على الرغم من أن هذه أمور لا تنكر، وإن كنت لا أخفي أنني محفوز بها، فإنني في الحقيقة مدفوع بموقف معرفي

يتجاوز خصوصية الانتماء وينطلق من أن خصوصية الظواهر هي التي تقترح النظريات والمناهج والمقاربات، واللغة بشكل عام ظاهرة إنسانية لها خصوصياتها وانفراداتها، وليس ثم من شك في أن اللغات المتعددة تتمتع بخصوصيات وفروق نوعية، ومن ثم تفرض نظريات ومناهج مقاربات ظواهرها، ولا تخرج العربية عن هذه الرؤية المعرفية التأسيسية.

وليست ثمّ مندوحةً من الاعتراف الكوني بخصوصية اللغة العربية إذ يأتي السلوك الاستشراقي اعترافاً قوياً بها، لأن الحافز في هذا السلوك الاستشراقي ليس شيئاً سوى القرآن العظيم مهما كان الموقف الاعتقادي فيه ومنه، فهو في كل حال عندهم نص قوي، تحولت قوته إلى وجود فاعل في المواجهات المسلحة العسكرية مع الدعوة الصليبية الأوربية، التي لا ينكرها التاريخ، والتي كان لها أكبر الأثر في توجيه الغرب إلى حركة الاستشراق بشكل أو بآخر، وقد كان النص (القرآن العظيم) هو الحافز في كل الأحوال.

نستخلص من هذا أن القرآن العظيم كان الحافز للقراءة النصية السياقية وإحلالها محل الاجتزائية الشفاهية الشعرية، يشهد بهذه الحقيقة موقف العلوم والمعارف الأولى، ولقد اشتملت هذه العلوم والمعارف أيضاً على جنينية البحث البلاغي الذي شهد مستوى من النضج في الممارسة النصية فيما بعد، ولهذا نقف عند إرهاصات الممارسة النصية من الوجهة البلاغية في العلوم والمعارف الأولى.

المبحث الثاني: الممارسة النصية في المعارف التأسيسية

إن تكن البلاغة قد تأخرت في الظهور - بوصفها حقلاً معرفياً مستقلاً تأخرت تخطى القرون الأولى للعقل المعرفي العربي - فإن تأخرها لا يعني غياب الرؤية البلاغية تماماً، فقد كان لهذه الرؤية حضورها في قراءات العلوم والمعارف العربية والشعرية، النحو واللغة والنقد الأدبي وأصول الفقه والتفسير وتراث علوم القرآن ومؤلفات إعجاز القرآن والمتشابه اللفظي، أما فيما يتعلق بالممارسات النصية في الرؤية البلاغية فنجد أن جل الممارسات البلاغية المتجاوزة للمسلك الاجتزائي لم تأت في المدونات البلاغية المتأخرة (بعد عبد القاهر والزمخشري)، ولكنها جاءت في هذه المدونات التي أشرنا إليها. ونهدف في هذا المبحث إلى استجلاء الممارسات النصية في منهجيات العلوم والمعارف التأسيسية السابقة للبحث البلاغي، المُحمّلة بإرهاصاته السخية الثرية.

إن الرؤية النصية هي بشكل ما رؤية سياقية، فالروابط والعلاقات النصية هي في الحقيقة روابط السياق اللغوي الداخلي للنص وربما لمجموعة من النصوص التي ترتبط بروابط سياقية، والنظر إلى النص نظرة كلية بروابطها الداخلية والخارجية لا يقتصر على فكرة المقام عند البلاغيين، ولكن البلاغيين مسبقون برؤية تكاد تمثل نظرية سياقية تامة في أصول الفقه وفي النحو العربي، وتأتي جهود التفسير حراكاً عقلياً دائماً دائماً في التبع والمراجعة منفتحة على رؤى التأويل انفتاحاً عقلياً رحباً خارج نسق الرواية وداخله، بانفتاح العقل على الترجيح العقلي بين الروايات الذي اعتمد على أبعاد نصية مشوبة بتعليل بلاغي أحياناً.

اتخذ البحث النصي - في البدايات الأولى - في القرآن العظيم اتجاهات متعددة بتعدد العلوم والمعارف التي انبثقت عن تدبره وتأمله، إذ لا يقتصر البحث النصي في المدونات التراثية على المؤلفات التي تعرضت بشكل مباشر للمناسبات والتناسق من كتب تناسب الآيات والسور وتراث المتشابه اللفظي، وما يدخل ضمنها من المؤلفات التي عرضت للفروق بين المتشابه بمحاولات بيان مناسبتها في مواضعها من آيات القرآن العظيم وسوره، فقد تعرضت مدونات التفسير بتعدد اتجاهاتها على مر العصور إلى حد كبير للتناسب النصي، وقد تعدى رصد التناسب النصي في القرآن العظيم التفسير إلى الفقه وأصوله، فالأحكام في الباب الواحد قد وردت في غير موضع في القرآن العظيم، وليس ثم من شك في ضرورة تتبع المواضع جميعها لتتشكل الرؤية الكلية في مدونة الأصول، ثم في مدونة الفقه.

النحو

لقد تأسس النحو العربي على الحاجة إلى الضبط ومعرفة الفروق بين الاحتمالات الإعرابية مما جعل علم النحو أول العلوم العربية، ولا ينفصل الاهتمام بنحو النص وارتباط التوجيه النحوي بالقراءات عن الممارسة النصية. وإذا كان أبو الأسود الدؤلي 69 هـ هو السابق إلى الملاحظات النحوية الأولى فإن سيبويه 180 هـ هو المؤسس الحقيقي للنحو العربي في نشأته الأولى، وقد أولى النظرة النصية أهميتها في تحليل معنى الجملة، مما يجعل معالجته المتقدمة سبقاً في الممارسة النصية، إذ جعل معنى الجملة وصوابه واستقامته متعلقاً بالسياق الذي وردت فيه هذه الجملة. فإذا كانت نظرية أفعال الكلام ارتبطت في نشأتها على يد الفيلسوف الإنجليزي (جون أوستن Austin J.L) بتسجيل موقف ضد اتجاه المنطق الوضعي الذي نظر إلى معنى الجملة مجردة من سياق خطابها⁹ فإن النحو العربي في نشأته الأولى قد أولى السياق أهميته في تحليل معنى الجملة، مما يجعل معالجات سيبويه المتقدمة رداً على متأخرى النحاة الذين جردوا الجملة من سياقها¹⁰، يقول سيبويه: "... وذلك أن رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقاً، وهو زيد منطلقاً، كان محالاً؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو وأنا حتى استغنيت عن التسمية، لأن هو وأنا علامتان للمضمر، وإنما يضمّر إذا علم أنك عرفت من يعنى، إلا أن رجلاً لو كان خلف حائط، أو في موضع تجهله فيه، فقلت من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك، كان حسناً"¹¹ فجعل سيبويه معنى الجملة وصوابه واستقامته متعلقاً بالسياق الذي وردت فيه هذه الجملة.

وقد لفت د. عبد الفتاح البركاوي في المبحث الخاص بالسياق في المفهوم العربي في كتابه "دلالة السياق" إلى المعاني المعجمية للسياق، ثم تناول مفهوم السياق عند اللغويين، وأشار إلى التفات الزمخشري إلى المعنى المجازي لكلمة السياق التي تعنى السياق الذي ورد فيه الكلام¹²، ثم استخلص من هذا العرض أن السياق يتوزع بين المفاهيم الآتية: تتابع الكلمات في الجمل، أو الجمل في النصوص، والمقام الذي يصاحب الكلام، والقصة أو الظرف الخارجى الذي يمكن فهم الكلام على ضوءها مستنداً في ذلك كله إلى روايات عن ابن جني والسيوطي.¹³

نؤكد على حقيقة الاتصال الوثيق بين النحو والبلاغة التي طالما أشرنا إليها عندما نتعرض للجذور المعرفية وتكوّن العلوم العربية، فالبلاغة بالنسبة للنحو ضرورة منهجية أعانت وتعين على استكشاف الفروق، والوقوف على غايات التراكيب النحوية، والنحو بالنسبة للبلاغة هو المفجر للتصورات البلاغية من وفرة التراكيب في صياغة المعاني المتقاربة، ووفرة الاحتمالات الإعرابية في التركيب، وقد قامت الرؤية البلاغية في هذين الموقفين على الترجيح بالبحث في الوظائف والمقاصد، والبحث في الوظيفة والمقصد هو في الحقيقة بحث في المعاني الثواني البلاغية.

هذه بلا شك رؤية بلاغية قام بها النحاة ثم استأثر بها البحث البلاغي فيما بعد وتخلّى عنها الدرس النحوي إلى حد كبير، ولا نجادل في الأثر الإيجابي لهذه الرؤية النحوية المبكرة للمقاصد والوظائف المضاعفة، ونقر بأنها من أهم ركائزه، بيد أن وجهها آخر سلبياً التبس بهذا الأثر الإيجابي يتمثل في الاستقراء الجزئي أو استقراء الجزئيات معزولة عن سياقها. وقد اعتمدت مدونات التفسير على هذه الرؤية النحوية البلاغية في التفسير والترجيح في محاولاتها الحسم النسبي للمقاصد في زخم الاحتمالات النحوية في الموضوع الواحد، وفي المواضيع المتشابهة مهما تعددت في النص القرآني.

وبهذا يأتي النحو فاعلاً مزدوجاً في الموقف من الممارسات النصية في المؤلفات النحوية المتخصصة وفي المعارف الأخرى ومنها البلاغة والتفسير، فبينما جاءت الرؤية النحوية باعتبارها للبحث البلاغي وداعماً للتفسير مسجلة بهذا أثراً إيجابياً، نجدتها في الوقت نفسه تؤسس - دون أن تقصد - للرؤية الجزئية الاجتزائية لأن غايتها تنحصر في الجملة ولا تغادرها إلا في مكاشفة ظواهر محددة

ومحدودة خصوصاً عند النحاة المتأخرين الذين "غفلوا عن دراسة الظواهر النحوية متصلة بالتركيب اللغوي، وقصروا مهمتهم على البحث في ضبط أواخر الكلمات، ولم ينتهوا إلى البناء وقيمتها النحوية الفنية"¹⁴ فثبتت العزلة بين النحو والرؤية السياقية إذ انتهت مهمته "مادام قد حقق لنا صحة العبارة في ذاتها بصرف النظر عن صلتها بالقراء والسماعين"¹⁵، وبهذا خفتت الممارسات النصية في مدونة النحو العربي عند متأخري النحاة، ثم أثر هذا الخفوت على البحث البلاغي بشكل ملحوظ في مرحلتها التراثية الثانية كما سيأتي في المبحث الثالث، ومن ثم يعد هذا من آثار النحو السلبية على الدرس البلاغي؛ لارتباط الأصول النظرية للبلغة بالنحو في استلهام منهجيته في التصنيف الاجتزائي وصياغة القواعد.

أصول الفقه

لقد فرض القرآني العظيم بإحكامه المطلق التام الرؤية النصية بوصفها ضرورة معرفية لا مناص من انتهاجها في منهجيات مقارباته على تعددها وتنوعها ووفرة غاياتها، وتأتي المقاربة الأصولية بحثاً في استخلاص المقاصد والأحكام من الهدي القرآني الشريف؛ فالكيفية التي جاءت بها آيات الأحكام وما يرتبط بها من قضايا فرضت القراءة النصية فرضاً، لا نقول في النص / السورة، ولكن النص القرآني كاملاً بوصفه نسيجاً واحداً، وبهذا حفز القرآن العظيم العقل العربي إلى الاستنباط واستخلاص الأحكام من الهدي.

وقد جاءت محاولات التقعيد والتقنين محاولة انضباط نسبية الصواب لرحابة الهدي وانفساحه إلى تعدد التأويلات التي هي سمة من أهم سمات حيوية النص ونضارة استمراره وديمومته، وقد كان لآيات الأحكام خصوصيتها في ارتباطاتها النصية بسياقات ورودها التي تتأسس على سياقين أساسيين:

- سياق رأسي على مستوى السورة التي وردت فيها، وارتباطها بالمناسبات الخاصة لقضايا السورة، وما قبلها وما بعدها.
- وسياق أفقي على مستوى عرض القضية أو جوانب منها في بعض السور في مجمل القرآن العظيم، وهذا المستوى يمثل أهم أبعاد الضوابط النصية السياقية للأحكام، فما أُطلق في موضع فُيِّد في آخر، وما أُجْمِل في موضع فُصِّل في آخر، وقد يُستند إلى حكم في باب ليكشف غامضاً في باب آخر، بين الإباحة والإلزام، وبين التحذير والنهي.

ومن هنا كان التعرض للسياق في قراءة أصول الفقه النصية بحثاً في الأثر النصي على توجيه المعنى، منطلقاً من بحثهم في القرينة التي اتخذوها أساساً لتحديد الدلالة - التي انبنى عليها تحديد الأحكام - مؤسساً على رؤية نصية رحبة، فكان من أول وأدق الرؤى وأهمها في انتهاج الممارسة النصية خصوصاً الذين بحثوا منهم في حقلٍ دلالات الألفاظ ومعاني الأساليب وما يترتب عليها من قواعد وأحكام، وتعرضوا للثنائيات الدلالية التي وضعوها تحت عناوين: العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصل، والمحكم والمتشابه¹⁶ ... فقد كان السادة الأصوليون جامعين للشروط العلمية والأدوات التحليلية التي تحققت لها "كفاية علمية" ممتازة في البحث النصي. وهذه الثنائيات تشمل الشروط الجوهرية والوظيفية والمعرفية للنص القرآني العظيم.

وبهذا يتضح أن أصول الفقه كان من أول الرؤى وأدقها وأهمها في انتهاج النصية السياقية لأن الحاجة إليه كانت ماسة لارتباطها بالشريعة، ولهذا تقدمت على البحث البلاغي على الرغم من التقائهما في مسارات مهمة إلى حد يقترب من التطابق، فلقد اجتمعت الرؤيتان على معالجة الأمر والنهي، كما اجتمعتا على الالتفات إلى السياق وتوجيه دلالة الأمر والنهي، بيد أن الأصوليين شغلهم الأمر بصورة أكثر عمقاً، ربما لتعلق المبحث عندهم، كما ذكرنا بقضايا كبرى هي: الشرك والتوحيد، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والثواب والعقاب، والجنة والنار، أما الرؤية البلاغية فربما كانت شاحصة إلى البعد الجمالي ولا تكاد تتجاوزه، ومن ثم

يأتى تعرضنا إلى معالجة الأصوليين للسياق محاولة لإثراء الرؤية البلاغية بمعطيات علم الأصول وما طرح من أفكار يمكن أن تتلاقى مع الرؤية البلاغية، وتتعلق بمبحث الأمر والنهي.

لقد جاء التعرض للسياق في أصول الفقه وأثره في توجيه دلالة النص منطلقاً من بحثهم في القرينة التي اتخذوها أساساً لتحديد المعنى، نجد ذلك واضحاً عندهم - مثلاً - في التعرض لبيان المقصود من الأمر والنهي على سبيل الحقيقة أو المجاز، وقد جاء هذا المظهر في كتاب الرسالة للإمام الشافعي حيث أفرد باباً أطلق عليه: الصنف الذى يبين سياقه معناه.¹⁷

وتمتد الرؤية النصية لتشمل مجموع النصوص التي تمثل المنظومة التي ينتهي إليها النص، وذلك بأن يكون بين النص وغيره من النصوص في هذه المنظومة بعض أوجه التشابه الأسلوبى مما يفيد في تحليل كلا النصين، أو اشتراك بعض النصوص في بيان موضوع واحد، ومن ثم تتصافر النصوص لإتمام كل ما يتعلق بهذا الموضوع، أو اشتغال بعض النصوص على المعانى نفسها التي جاءت في النص موضوع التحليل، أو النصوص التي تناولت الموضوع نفسه ولكن جاء بها بعض الاختلاف عن النص موضوع التحليل، ويتمثل عمل الأصوليين هنا في عرض النصوص على بعضها البعض، واستنباط دلالة النص من النصوص مجتمعة في الباب الواحد وليس من نص واحد.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الممارسة النصية لم تقف عند استنباط الأحكام من القرآن العظيم فحسب، بل تعدت إلى الربط النصي بين القرآن العظيم والحديث النبوي الشريف؛ لأنهما يمثلان السياق العام للخطاب التشريعي في الإسلام، ومن ثم جعل الإمام الشافعي عرض متن الحديث على النص القرآني والمقارنة بالأحاديث من المحددات السياقية للدلالة، بل لقبول هذه الدلالة أو رفضها، وفق ما يقتضيه موافقتها أو مخالفتها للسياق الأكبر¹⁸، كما أن من تحدثوا في نقد المتن جعلوا هذا السياق العام نفسه المتمثل في القرآن الكريم وصحيح السنة مرجعاً يبنى عليه الحكم على متن الحديث موضوع الدراسة في نقد المتن.

ودون أن يقصد الشافعي رحمه الله إلى البحث البلاغي جاءت نظرته المبكرة إلى مبحث الأمر والنهي، أو قل مبحث الخبر والطلب في كتابه الرسالة، والحق أنه ناقش في وقفته الثاقبة هذه الرؤية التداولية المبكرة لجذلية الملفوظ والمقصود، والحق أيضاً أنه قدم رؤية ناضجة وافية لمباحث الخبر والإنشاء في إطار فكرة المقاصد.

ولم يقف الأمر بالإمام الشافعي رضي الله عنه عند هذا الحد بل تخطاه إلى بناء المواقف المعرفية في الأصول على القراءة النصية على مستوى آيات القرآن العظيم، وعلى مستوى الترجيح بين نصوص الحديث النبوي الشريف رابطاً بينها وبين منظومة الحديث النبوي الشريف والسياق القرآني¹⁹، فالقرآن والأحاديث الشريفة يمثلان السياق العام للخطاب التشريعي في الدين الإسلامي، ومن ثم جعل الإمام الشافعي عرض متن الحديث على النص القرآني والمقارنة بالأحاديث من المحددات السياقية للدلالة، بل لقبول هذه الدلالة أو رفضها، وفق ما يقتضيه موافقتها أو مخالفتها للسياق الأكبر، ولعل هذا العرض هو ما عناه ابن عباس. رضي الله عنهما. في مقولته التي أشرنا إليها قبل قليل، كما أن من تحدثوا في نقد المتن جعلوا هذا السياق العام نفسه المتمثل في القرآن الكريم وصحيح السنة مرجعاً يبنى عليه الحكم على متن الحديث موضوع الدراسة في نقد المتن.²⁰

ويأتي حديث ابن حزم الأندلسي في النسخ من العمق بمكان في الممارسة النصية التي يبنى الترجيح عليها، "فإن قال قائل: إن البيان يقع موصولاً ببعضه ببعض، والنسخ لا يقع موصولاً، فالجواب هنا وباللغة تعالى التوفيق: إننا قد قلنا في هذا ما يقع فيه من أنه ليس كل بيان نسخاً، فما كان من البيان نسخاً لم يقع موصولاً، وما كان منه غير نسخ لكن تفسيراً لمراده تعالى في جملة ما، فجائز أن يقع موصولاً، وجائز أن يقع في مكان آخر من القرآن والسنة"²¹

وبهذا نرى أن الممارسة النصية من أهم القواعد رسوخا في أصول الفقه؛ لأنها أخطر المرجحات التي تتحدد بها مقاصد الشريعة. وقد تعاقبت مؤلفات أصول الفقه في تناول هذه القضية بالمناقشة مما زادها ثراء، حتى أصبحت أعمق رؤية في مقارنة الظاهرة اللغوية على الإطلاق.

ولنا أن ننبه هنا إلى أن اتفاق أصول الفقه والبلاغة في البحث في المقاصد والاعتماد على الرؤية السياقية النصية لا يعني تطابقهما في الغاية والإجراءات التحليلية، بل يستقل كل حقل معرفي في رؤيته امتثالا لغاياته المعرفية، فبينما يبحث أصول الفقه في تحديد مقاصد الشريعة في الأحكام تبحث البلاغة في المعاني الثواني المضمنة اتكاء على التوجيهات النصية، لتستشف الضواغط الأسلوبية التي تُمكن للمقصود في نفس المخاطب.

التفسير

وليس ثم من شك في الإسهام السخي الذي لا يُنكر لمؤلفات تفسير القرآن في الإبانة عن العلاقات الداخلية بين آيات القرآن العظيم وسوره، فقد التفتت مؤلفات التفسير إلى الإبانة والإيضاح والإتمام والتفصيل وغيرها من الغايات التي تتم بقراءة آيات في ضوء آيات أخرى، وهذا يوضح حفز القرآن العظيم للعقل البحثي نحو الممارسة النصية لإدراك العلاقات الداخلية والاعتماد عليها، وقد اهتم علماء المسلمين بهذا الجانب حتى أفردوا له المؤلفات التي انشغلت بالوقوف على أسرار العلاقات الممتدة بين الآيات والسور، فكان لمؤلفات الأشباه والنظائر والمتشابه اللفظي وأسرار ترتيب الآيات والسور إسهامها الأكبر في إثراء جانب من الأهمية بمكان في بحث الوحدة النصية للقرآن العظيم، على حين جاء الادعاء الاستشراقي مدفوعا بحضور عنصر مشفوعا بغياب معرفي حاملا اتهامها بغياب التماسك والانسجام النصي.

لعل مقولة تفسير القرآن بالقرآن من أوفى المقولات التأسيسية للرؤية السياقية التي تنطلق في تدبرها التأويلي للقرآن العظيم من القرآن إلى القرآن بوصفه نصا واحدا، ومن ثم يأتي الاحتكام بالنص في موضع على تأويل نص آخر في سياق آخر استكشافا متجددا لكون القرآن العظيم نسيجا واحدا محكما، ثم لكونه هو الباعث على منهجية قراءته التأويلية في العلوم والمعارف التي نشأت حوله.

وقد جاء في تفسير الطبري ما يفيد أن طاووس بن كيسان (ت 106 هـ) قد استند إلي السياق في تحديد المراد بالنفس في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ بقوله: "إنما يراد بهذا الكافر، اقرأ ما بعدها يدل على ذلك"²²، ونجد مسلم بن يسار البصري (ت 100 هـ) الذي روى عن ابن عباس وتلمذ عليه ينبه إلى ضرورة الرؤية النصية السياقية بقوله: "إذا حدثت عن الله؛ فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده"²³

وقد جاء في تفسير ابن كثير "فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر"²⁴.

وقد انطلقت رؤية د. تمام حسان من مقولات علم النص وتحليل الخطاب التي تنظر إلى التوافقات بين العلاقات الداخلية التي تمثل نوعا من الانسجام النصي، ثم ربط بين فكرة النصية ومفاهيم المفسرين مشيراً إلى مقولة أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وقد ضرب مثلا لهذا الترابط النصي بين قوله تعالى: (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهَرِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ

إِنْسِيًّا (26) (مريم 22. 26)، وقوله جل شأنه : (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) (المؤمنون 50)، فسجد عند أخذ مبدأ التناص في الحسبان ما يلي :

1. أن الكلام في آية المؤمنون يشمل عيسى عليه السلام وأمه معاً، ولا يخص عيسى بالذكر.
 2. أن شأنهما معاً يمثل آية من آيات الله، ومعنى ذلك أن لمريم جانباً من المعجزة.
 3. أن للمعجزة صلة ببايوائهما إلى ربوة فيها شجر مثمر يعين على القرار، وفيها ماء معين.
 4. أن آيات سورة مريم تشرح أحداث المعجزة، ومنها بطبيعة الحال:
- أ. أن عيسى لم يولد لأب كما يتضح من آيات سابقة على ما اقتبسناه (الآيات 21. 216)
- ب. أنه لم يكد يولد حتى كلم أمه بقوله: (لا تحزنى ...)

وبهذا تكون آيات سورة مريم بيانا لما تشير إليه الآية المقتبسة من سورة المؤمنون، وتكون الربوة المشار إليها هي المكان الذي تمت فيه ولادة عيسى عليه السلام²⁵

والواقع أننا إذا رجعنا إلى تفسير الآيتين عند ابن كثير، صاحب مقولة: القرآن يفسر بعضه بعضاً، وجدناه يقوم بهذا بالفعل، بل يشير أيضاً إلى مقولته هذه، ففي تفسير الآية 50 من سورة المؤمنون يورد أقوال السابقين ثم يعقب عليها بقوله: "... إلى ربوة ذات قرار ومعين، هو بيت المقدس، فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار"²⁶، وبهذا يتضح أن ابن كثير لم يغفل الربط بين الآيتين بل رجح في نهاية الروايات التي ذكرها هذا الترجيح مشيراً إلى حضور مقولته منهجاً التزم به في تفسير الآية.

أما أن تندرج هذه المعالجة تحت عنوان التناص فهو أمر يعوزه الدقة وتوضيح اختلاف الرؤية بين المنظور اللغوي لعلم النص وتحليل الخطاب، من ناحية، وما قالت به كريستيفا وبارت، من ناحية أخرى.²⁷

ولا يتسع المقام لاستقصاء القول وتتبع الدلائل في هذه الحقيقة ولكننا فقط نؤكد على وجود هذه الرؤية النصية.

ولم يكن تراث إعجاز القرآن بمنأى عن التعرض للأبعاد النصية في القرآن العظيم، فقد كانت رؤى المتكلمين في الإعجاز الأقرب إلى الدرس البلاغي، بل إن الرؤية البلاغية هي الأقرب للحسم حين تعدد احتمالات اللغة في تحديد المعنى "وإذا كان اللفظ لغة يحتمل أكثر من معنى ... فإن البلاغة لا تُجيز إلا معنى واحداً في المقام الواحد، يقوم به لفظ بعينه لا يقوم به سواه"²⁸، وبهذا تتجاوز الرؤية البلاغية مستوى النظر إليها على أنها ترف معرفي لا يرتبط إلا بالبُعد الجمالي التحسيني التزييني، لتتأكد أهميتها في مقارنة خطاب الحقيقة الذي يتأسس على مبدأ ضرورة انتهاج البلاغة الخاصة التي تركز على الرؤية الوصفية لكل خطاب في حدود ضوابط خصوصية غاياته.

المبحث الثالث : النصية في المدونة البلاغية، رصد الغياب وطموح الحضور

عندما نتكلم عن الممارسة النصية في المدونات التراثية للبلاغة فإننا نتحدث عن الغياب لا الحضور، وليس الحديث عن الغياب ضرباً من جلد الذات وإصاق الاتهامات، ولكنه حديث التبصُّر بأسباب الغياب وتحليلها ومحاولة تحليلها، طموحاً إلى طرح رؤى استشرافية من شأنها أن تتحول بالعقل العربي من التوقع الاستهلاكي في رصد أوجه القصور والنضج إلى الانطلاق الإيجابي نحو إنتاج المعرفة.

لعل أهم الرؤى التأسيسية الإيجابية في البحث البلاغي وقضاياها تقع خارج المدونة البلاغية، فقد تأخر ظهور البلاغة بوصفها درسا منظما، وربما كان هذا التأخر موقفا طبيعيا ليس بحاجة إلى دفاع أو تبرير وإن كان بحاجة إلى تعليل، فإن البلاغة هي عصاره علوم انسربت في رؤاها وتشعبت في مقارباتها واتحدت في بعض أهدافها، فقد انبثقت بوجودها النسبي في العلوم الأكثر صرامة ودقة وإحكاما فيما يُطلق عليه العلوم المنضبطة الضابطة كالنحو وأصول الفقه، ولأنها علوم ضابطة كانت الأنسب لوعي العقل العربي بنفسه في مواجهة امتصاص النص (القرآن العظيم) الذي فاجأ هذا العقل بصدمة الوعي التي حتمت عليه أن ينتج علوما منضبطة ضابطة لهذا الوعي نفسه، والذي لم يقتصر عند حدود العقل العربي العربي (بالانحصار في البُعد العرقي) بل تخطاه إلى العقل العربي الإسلامي، ونقصد بهذا الأخير مساهمات غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام وأتقنوا العربية ثم أسهموا في علومها ومعارفها، ونفصل هنا بين تأخر البلاغة بوصفها معرفة مستقلة ووجود الرؤية البلاغية بشكل عام في المدونات العربية الأولى، ذلك الوجود الذي عرضنا له في المبحث السابق، إلى وجود أكثر تحديد عندما استقلت البلاغة بالمباحث في مؤلفات من مثل الصناعتين لأبي هلال العسكري 395هـ.

ثم يأتي البحث البلاغي متناثرا في مؤلفات القرن الثالث عند الجاحظ وغيره، متحررا من صرامة انضباط التععيد للأحكام (الحلال والحرام) (الصواب والخطأ) إلى رحابة احتمال التتبع الوصفي التحليلي ونسبته التي نحيا بها - دون أن نقبض عليها - حياتنا بالروح التي لا نراها ولكنها تشكل إحساسنا في مقابل انضباط العلم الذي يشكل وعينا، فالبلاغة تبحث في التأثيرات المصاحبة لعمليات التواصل، وليس ثمَّ من شك في اتسام مستويات التأثير والتأثر برحابة النسبية وتفاوت مستوياتها.

إن الاعتراف المُهم الذي ذاع في كتب تاريخ البلاغة عن تأثر الدرس البلاغي بالعلوم المختلفة يبين مقدار التآرجح الذي تغلغل جذريا في الرؤية البلاغية للنصية بين الوجود والغياب، إن هذا التآرجح لم يقف عند حدود حضور النصية وغيابها بل تجاوزها إلى التآرجح بين مرحلتين تنتسبان معا إلى القَدَم، ولكنهما متضادتان في اتجاه النصية السياقية: مرحلة ما قبل السكاكي والمرحلة التي تأسست على كتابه (مفتاح العلوم)، وبهذا تنقسم المدونة البلاغية التراثية إلى قسمين، يمثل كل قسم مرحلة مختلفة عن المرحلة الأخرى، وتُوصف البلاغة في المرحلتين بالبلاغة القديمة لأنهما تنتمي إلى التراث، وليس من الصواب أن نعمم الحكم على المرحلتين خصوصا فيما يتعلق بالأساس النصي الذي يهدف إلى استجلائه في هذه الوقفة العجلى، وقد كان للعلوم والمعارف أثرها في الممارسة النصية سلبا وإيجابا بين المرحلتين التراثيتين، فإن جل الممارسات البلاغية المتجاوزة للمسلك الاجتزائي لم تأت في المدونات البلاغية، ولكنها جاءت في مدونات التفسير، ومدونات تراث البحث في إعجاز القرآن، ومدونات المتشابه اللفظي والأشباه والنظائر.

إن المعيارية التععيدية لم تكن سمة البلاغة العربية بشكل مطلق، فقد انطلق بعض البلاغيين - عبد القاهر الجرجاني والزمخشري، مثلاً - من التحليل الوصفي الذي يمثل أقصى إيجابيات الدرس البلاغي في مرحلته الأولى، لتبدأ مظاهر الجمود والإجداب في تسلطها على العقل البلاغي العربي على يد السكاكي أول أعلام المرحلة الثانية "فتحجرت قواعد البلاغة وتجمدت وبدا كأنه أصبح من المتعذر أن تعود إلى سيولتها القديمة ... وسرعان ما شاع فيها العقم، وعجل به استقلال مباحثها عن الأدب، فإذا هي تصبح مجموعة من القواعد الجافة كقواعد النحو والصرف".²⁹ وفق رؤية د. شوقي ضيف 1965م التي اعترض عليها د. سعد مصلوح 1989م في موقف شديد الغرابة، إذ جعل هذا الرأي مأخذاً على د. شوقي ضيف والأغرب ألا يقدم سبباً واحداً على اعتراضه هذا سوى انطلاقه من محاولة ربط نموذج السكاكي بتناول اللسانيات الأسلوبية الحديثة، فيذكر هذه التعليقات غاضباً الطرف عن تحليلها، ودونما التفات إلى ملاحظة د. شوقي ضيف الجوهرية التي ذيل بها هذه التعليقات في قوله: "وحقاً استطاع السكاكي أن يسوى من نظرات عبد القاهر والزمخشري علمي المعاني والبيان، ولكن بعد أن أخلاهما من تحليلاتهما الممتعة البارعة للنصوص

الأدبية.³⁰، ودونما تفريق بين ما يصلح للبحث البلاغي وما يصلح للبحث اللغوي.

واللافت في ملاحظة د. شوقي ضيف هو تنبئه إلى التناول التحليلي الوصفي الذي انمازت به البلاغة العربية عند عبد القاهر والزمخشري آخر أعلام المرحلة الأولى، وأن التععيد المعياري بدأ عند المتأخرين، فقد باتت البلاغة بين أيديهم مجموعة من القواعد الجافة القاصرة عن الإحاطة بالظاهرة البلاغية؛ مما شكل انفصاماً بين القاعدة والظواهر المتجددة فخلف جموداً في الدرس البلاغي العربي ما يزال يعانيه "فالأستاذة يدرسون هذه القواعد لتلاميذهم، وقد يؤلفون فيها، دون عناية بالنصوص إلا ما يجلبونه من لدن عبد القاهر والزمخشري، ولا تظن أنهم يحتفظون بتحليلاتها البديعة لنصوص الشعر والنثر وأي الذكر الحكيم."

31

والذي يهمننا هنا هو تلك النصوص المجتزأة من سياقاتها المبتورة من مقاماتها، فإذا كان التععيد يمثل سلبية انتهاك الوصفية التبعية فإنه يمثل سلبية مضاعفة بأن القاعدة كانت تحتتم اجتزاء الظواهر على أنها شواهد كشواهد النحو التي لا يعياً المحلل بارتباطاتها النصية في الغالب الأعم، وبهذا نرى بما لا يدع مجالاً للشك أن المنحى التععيدي هو الذي أسس للممارسات الاجتزائية بقيامه على بلاغة الشاهد والمثال.

لا يُعد ما نطرحه هنا جديداً في مقارنة مدونات التراث البلاغي إذ تعرض له غير واحد من البلاغيين المحدثين، ولكن ما نهدف إلى تحقيقه هنا هو استجلاء موقف البحث البلاغي من الممارسات النصية في محاولة للضبط المنهجي في قراءة المدونة التراثية البلاغية. فقد غامت الرؤية المنهجية في كثرة القراءات الارتجالية التي لم يفرق بعضها بين مرحلتي التراث، كما أن هذه المحاولات الحديثة في معظمها ليست محاولات للتجاوز ولكنها محاولات لرصد الغياب، فلم تقدم رؤية بديلة ولكنها اكتفت بالدعوة إلى رؤية بديلة في لهجة وعظية استعلائية.

وقد ارتبطت هذا المنحى الوعظي ببدايات ظهور محاولات التجديد على يد أمين الخولي الذي رأى في النموذج النظري الذي قدمه بوصفه الصيغة الجديدة التي يقترحها "توسعة دائرة البحث وبسط أفقه، فلا يقصر على الجملة كما كان في القديم، من عمل المدرسة الكلامية، الذي لم تأت المدرسة الأدبية بعده بشئ ذى غناء، فإننا اليوم نمد البحث بعد الجملة إلى الفقرة الأدبية، ثم إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر، ننظر إليها نظرنا إلى كل متماسك، وهيكل متواصل الأجزاء، تقدر تناسقه ومجال أجزائه، وحسن ائتلافه، ونتحدث فيما لا بد منه في هذه النظرات من شئون فنية"³²، وكرر الدعوة نفسها في إشارته إلى انحصار البحث البلاغي القديم في حدود الجملة، فنبه إلى أن "البحث في علم المعاني إنما هو بحث في طرفي الجملة - المسند والمسند إليه - وتوابعهما... وفي أبحاث البيان لا تجوز دائرة الجملة أيضاً، إلا أن تكون جملاً متماسكة في أداء معنى واحد... أما وراء بحث الجملة فلا تجد شيئاً"³³، وقد أشار في فن القول إلى أن "دائرة بحث البلاغة محدودة بالألفاظ مقصورة على الجمل، ومهما كثرت الجمل فإنها تكمل معنى يجتمع في جملة واحدة"³⁴ ولا يتجاوز هذا الإسهام جهد التنبيه على السلبات³⁵، دون تقديم تصور منهجي لإجراءات الدراسة البلاغية النصية.

وقد سجل د. شوقي ضيف موقفاً من سلبات الدرس البلاغي العربي القديم، وكان غياب الرؤية النصية والاعتماد على اجتزاء الظواهر من سياقاتها من الملاحظات التي ناقشها وتبع وجودها في التفكير البلاغي تنظيراً وتطبيقاً، راصداً إرهابات إيجابياتها التي بشرت بها بعض الرؤى. إذ أخذ د. شوقي ضيف في بيان هذه السلبية مشيراً إلى أن البلاغيين القدماء "صبوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة"³⁶، ثم إنه ربط هذه الرؤية الاجتزائية بالشعرية العربية القائمة على الشفاهية ومقولة البيت وحدة القصيدة إذ صرح بأنه "من الأسباب التي دفعتهم في هذا الاتجاه طبيعة شعرنا القديم، إذ كان في جملته وجدانياً غنائياً يجرى في أسلوب عام

واحد سواء في معانيه أو في صورته وأخيلته وصيغ تعبيره وتعارف الشعراء على أن كل بيت في القصيدة وحدة مستقلة ، وهذه الوحدة هي أساس البلاغة والجمال الفني، وبذلك لم توجد في محيط الشعراء ولا في محيط البلاغيين نظرة شاملة عامة للقصيدة، بل ظلت نظرتهم تنصب على الجزئيات وأفراد الأبيات والعبارات.³⁷

ومن الإيجابيات التي أشار إليها د. شوقي ضيف سبق عبد القاهر الجرجاني إلى ملاحظة الربط بين الفقر وبحث الصلة بينها، ولكن البلاغيين لم يستغلوها بعده³⁸ ، ولنا أن نضيف أن البلاغيين أيضاً لم يستغلوها بعد إشارة د. شوقي ضيف هذه على مستوى تحليل الظواهر، وإن راح كثير منهم يردد المأخذ نفسه³⁹، دون إشارة تُذكر إلى شوقي ضيف أو أمين الخولي. وعلى الرغم من تنبيهه د. محمد عبد المطلب على قصور البلاغة العربية عن إدراك النص في بنيته المتكاملة المترابطة، وأنها لم تحاول الوصول إلى بحث العمل الأدبي الكامل، ودراسة الهيكل البنائي لهذا العمل⁴⁰، فإنه في موضع آخر يشير إلى "صلاحية البلاغة القديمة لأداء مهمة نقدية لاتقل أهمية عن الدراسة الأسلوبية، مع بعض الإجراءات التعديلية التي تعطى لأدوات البلاغة طاقة تحليلية ... مع إعطاء هذه الأدوات طاقة شمولية بجانب إجراءاتها الجزئية"⁴¹

نخلص من هذا إلى أن الممارسة النصية في الدرس البلاغي العربي - التي تعني رؤية النص على أنه وحدة واحدة - قد تراوحت بين الظهور والغياب، والحقيقة أن مصطلح النصية لم يكن مطروحا في التفكير البلاغي العربي بلفظه وإن كان مطروحا بقوة في مصطلحات أخرى كالمقام والسياق، فلعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن دراسات العلوم العربية والإسلامية التي قامت حول السياق كانت من السبق والعمق معاً بحيث تتفوق على نظيرتها التي قامت في العصر الحديث في المعرفة الغربية، وأن النظريات العربية التي أسست لدراسة السياق كانت أوفى من النظريات الغربية الحديثة التي قامت على يد مالينوفسكي، وفرث وغيرهما، وقد تنبه إلى هذه الحقيقة غير واحد من المحدثين، يقول د. تمام حسان: "لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم؛ لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال بوصفهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعد الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"⁴²، ويقول في موضع آخر: "و حين قال البلاغيون: (لكل مقام مقال) و(لكل كلمة مع صاحبها مقام) وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات، لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء.

ولم يكن (مالينوفسكي) وهو يصوغ مصطلحه الشهير (Context of situation) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها، إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح المقام، ولكن كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح (مالينوفسكي) من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات، وبراعة الدعاية الغربية الدائبة.⁴³

ولنا أن نشير هنا إلى أن نموذج حازم القرطاجني قد سبق إلى الرؤية السياقية بإدراكه عناصر الاتصال اللغوي التي قال

بها فيما بعد رومان ياكوبسون، وقد حددها القرطاجني على النحو التالي:

1. ما يرجع إلى القول نفسه : الرسالة

2. ما يرجع إلى القائل : المرسل

3. ما يرجع إلى المقول فيه : السياق

4. ما يرجع إلى المقول له : المرسل إليه "⁴⁴

إن نموذج حازم القرطاجني قد اشتمل على عناصر عملية الاتصال الستة عند ياكوبسون جميعها إذا أخذنا في حسابنا أن القول يتضمن الوسيلة والشفرة، وأن ياكوبسون فصل بين هذه العناصر، وأن حازم القرطاجني قد ضمنها في المقول.

الخاتمة

تؤسس البلاغة القرآنية نمطا فريدا من البلاغة الخاصة، إذ تقوم على تتبع خصوصية الظواهر في سياقاتها اللغوية الداخلية، وتنطلق من محاولة الكشف عن خصوصية الظواهر البلاغية في تأديتها لغايات الخطاب القرآني الشريف، وتنتج المنهج التبعي الوصفي الذي يقوم على رصد الظواهر وتحليلها وتعليلها، ويعتمد التبع الوصفي على الرؤية النصية التي تفتن إلى التوافقات والاختلافات، وإبراز المقاصد والوظائف البلاغية الخاصة في حراك نصي.

ويمكننا بهذا المنحى أن نقدم بعدا أعمق للدرس البلاغي يتجاوز نظرة الاجتزاء التي قامت على ظواهر الجُمَل، إلى التأسيس لبلاغة النص (المركز) التي تنطلق من خصوصيات ظواهره إلى المقارنة الأسلوبية التي تراعي الأبعاد السياقية من المناسبات والمقامات، وأطراف الخطاب، والسياق العام للسورة التي وردت فيها الظاهرة، والفروق الأسلوبية وأوجه اتفاقها واختلافها، فإن مركزية النص القرآني تدفعنا إلى إعادة النظر في المنحى الاجتزائي الذي اتسمت به الإجراءات البلاغية وتجاوزه إلى آفاق أرحب تأسيسا على ما يلي:

1- أن تتجاوز المحاولات البحثية الحديثة مرحلة رصد غياب البحث البلاغي النصي لتقدم رؤية بديلة.
2- استثمار المنطلقات القديمة التي تراعي خصوصيات النص في تراث التفسير وعلوم القرآن والمتشابه اللفظي ومؤلفات الإعجاز.

3- استثمار ما يتواءم منهجيا من المناهج الغربية الحديثة في خطواتنا الطامحة إلى تجديد الدرس البلاغي العربي.
4- الانفتاح على الدراسات البيئية للإفادة بمعطيات الحقول المعرفية المتصلة بالبحث البلاغي واستثمار إيجابياتها.
5- الاعتداد بالممارسات المنهجية التطبيقية الحديثة التي قدمت البديل الإيجابي، ومراجعتها بالإضافة إليها وفق متطلبات الظواهر.

المصادر والمراجع :

- ¹ الجاحظ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، بيروت (بدون تاريخ) ج 2 ص 13
- ² ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر ط 3، دار إحياء الكتب العربية 1977م ج 1 ص 78
- ³ المرجع السابق نفسه ج 1 ص 88
- ⁴ ابن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر ص 10، وابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ج 1 ص 9
- ⁵ ابن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، مرجع سابق ص 10
- ⁶ ابن قتيبة، عيون الأخبار، القاهرة 1965م، ج 2 ص 185
- ⁷ د. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار النشر المغربية. الدار البيضاء 2000م ص 61
- ⁸ السابق نفسه.
- ⁹ Austin J.L.: How to do things with words, University Press, Oxford, 1962
- ¹⁰ د. نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، بيروت 1980م ص 88
- ¹¹ سيويوه: الكتاب ط 3 الخانجي، القاهرة 1988م، تحقيق عبد السلام محمد هارون ج 2 ص 80، 81
- ¹² الزمخشري: أساس البلاغة، بيروت 1965م

- ¹³ د. عبد الفتاح البركاوي : دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث ، ط1 القاهرة دار المنار 1411هـ ص 25 ، 26 ، 27 ، ابن جني : الخصائص ، ت محمد على النجار ، ط3 الهيئة المصرية العامة للكتاب ج 1 ص 228 ، والسيوطي : الإتيقان في علوم القرآن ، بيروت 1973م جت 1 ص 90
- ¹⁴ د. رجاء عيد، فلسفة البلاغة ط 2 ، منشأة المعارف ، الاسكندرية (بدون تاريخ) ص 143
- ¹⁵ د. محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، القاهرة 1403هـ ص 178 ، 179
- ¹⁶ د. مسعود صحراوي، الأفعال الكلامية عند الأصوليين، دراسة في ضوء اللسانيات التداولية، بحث ألقى في ملتقى "علم النص والتداولية" المنعقد بتاريخ: 9-10-11/ ديسمبر 2003م، بجامعة الجزائر، قسم اللغة العربية وآدابها.
- ¹⁷ الإمام الشافعي، الرسالة ، تحقيق أحمد محمد شاکر ، ط مكتبة دار التراث بالقاهرة 1979م ص 285
- ¹⁸ الإمام الشافعي، الرسالة، مرجع سابق ص 63
- ¹⁹ الإمام الشافعي : الرسالة ، تحقيق أحمد محمد شاکر ، ط مكتبة دار التراث بالقاهرة 1979م ص 381
- ²⁰ د. عيد بليغ، السياق وتوجيه دلالة النص، مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، دار بلنسية القاهرة 1429هـ 2008م
- ²¹ ابن حزم الأندلسي، الأحكام في أصول الأحكام، تحقيق د. محمود حامد عثمان، دار الحديث القاهرة 1998م ج 4 ص 487
- ²² الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن. تحقيق محمود شاکر. القاهرة: دار المعارف، د.ت. ج 26 ص 162
- ²³ ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل. تفسير القرآن العظيم. ط2. الرياض: دار طيبة، 1420هـ ج1، ص 17
- ²⁴ ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل. تفسير القرآن العظيم. ط2. الرياض: دار طيبة، 1420هـ ج1، ص 23
- ²⁵ د. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2002م ص 403 ، 404
- ²⁶ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، تفسير الآية 50 من سورة المؤمنون
- ²⁷ د. عيد بليغ، جدل المنهج والظاهرة من ص 60 إلى 63
- ²⁸ د. عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة ط7 1977م، طبعته الأولى 1962م، ص 29
- ²⁹ د. شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ، مرجع سابق ص 272
- ³⁰ البلاغة تطور وتاريخ ص 313 ويراجع د. سعد مصلوح : مشكلة العلاقة بين البلاغة العربية واللسانيات الأسلوبية ، مرجع سابق
- ³¹ المرجع السابق نفسه ص 272
- ³² أمين الخولي، فن القول، ص 186
- ³³ أمين الخولي، مناهج تجديد، القاهرة 1961م ص 267
- ³⁴ أمين الخولي، فن القول ، القاهرة 1947م ص 52
- ³⁵ وقد تناولنا هذه القضية بالتفصيل في خداع المرايا
- ³⁶ د. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ص 376
- ³⁷ د. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ص 376
- ³⁸ البلاغة تطور وتاريخ ص 180
- ³⁹ د. رجاء عيد، فلسفة البلاغة ص 125، د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية ص 259، د. صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص ص 110
- ⁴⁰ د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الطبعة الأولى، القاهرة 1994م ص 259
- ⁴¹ د. محمد عبد المطلب : هكذا تكلم النص ، استنطاق الخطاب الشعري لرفعت سلام ، ص 7
- ⁴² د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط دار الثقافة، الدار البيضاء 1994م ص 337
- ⁴³ المرجع السابق نفسه ص 372
- ⁴⁴ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط دار الكتب الشرقية، تونس 1966م ص 346.

الرؤية البلاغية في قراءة النص

Rhetorical vision in reading the text

د. ماهر مهدي هلال

الكلية الجامعية للأم والعلوم الأسرية

عجمان الإمارات العربية المتحدة

الرؤية البلاغية (بنية معرفية) تستقصي مكونات النص اللغوية وبنيتها الأسلوبية وأنواع الصور وأنساق تشكيلها لتكوين منظور متماسك للنص. فهي تستجلي مختلف جهات النظر حول حدث ما، يمكن أن يكون نصا شعريا أو ظاهرة أدبية. والنص في هذه الرؤية (مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة) تتيح للقارئ (فهم كيفية أداء المعنى لوظيفته بوضعها وضعها مجازيا دالا الى سياقات إبداعية تولد معاني الشعر) وتتميز الرؤية بأنها موضوعية تعتمد الاستقراء والوصف للنص على أساس أن النص ينتج معايير له ولذلك تتميز القراءة البلاغية بموضوعيتها العلمية في استقراء النص الأدبي لأن البلاغة مقوم الأدب وسمة إبداعه (والأدب مادتها تعلم صنعه وتبصر بنقده) ويقرر هذه الرؤية حازم القرطاجني بقوله (ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة) وعليه فالبلاغة هي علم النص الكلي وقوام مستويات بنيته الأسلوبية: الصوتية والتركيبية والدلالية، ولا محيص لأي قارئ حصيف من الوعي بتنامي الفعل البلاغي والتحويلات المحدثة في تراكيب اللغة قصدية الشاعر في ضروب النسيج اللغوي وأجناس التصوير في صيغ التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل (وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية) وعلى هذا قرر الأمدى في موازنته (إن الشعر أجوده أبلغه) وهذا يعني أن عناصر بنية الشعر البلاغية في العملية الإبداعية ليست عارضة وإنما جوهرية لأنها (الإبداع ذاته) وهي خاصية أدركها النقاد منذ وقت مبكر في إقامة عمود الشعر وتقرير معايير التناسب البلاغي في نقد النص (فالصور البيانية وأنواع البديع ليست صيغا تالية يؤتى بها للتزيين والتحسين، وإنما هي جوهرية في لغة الشعر لا تتحقق اللغة الشعرية إلا بها) وهذا ما تعنى به نظرية القراءة حين تحكم العلاقة بين (المبدع والنص والقارئ) وأصبح للقارئ دور كبير في تجسيد شفرات القراءة التي تجمع بين وعيه وثقافته في أن واحد.

Abstract:

Rhetorical vision means (cognitive structure) in investigates the set of linguistic techniques at stylistic text levels, types of images, and their formation patterns to form a coherent perspective of text, and the text in the vision (blog of a verbal event with multiple functions) allows the reader (to understand how meaning performs its function set of linguistic techniques at stylistic text levels, types of images, and their formation patterns to form a coherent perspective of text, and the text in this vision (blog of a verbal event with multiple functions) allows the reader (to understand how meaning performs its function.

The rhetorical reading is distinguished by its scientific objectivity in extrapolating the literary phenomenon, because rhetoric is the basis of artistic literature and the feature of its creativity (and literature is its material learning to make and foresight with its criticism) This vision is decided by Hazem Al-Qaratajmi by saying: knowing the methods of proportionality in the audiences and understandings is not connected to anything from the tongue science except The total science in that which is the science of rhetoric)Therefore, eloquence is the science of the total text, This means that the values of rhetoric in the creative process are not casual but are essential because they are (creativity itself) and it is a characteristic that critics have realized in establishing a pillar of poetry and determining its critical criteria, graphic images, and types of buddies are not a property realized by the following formulas brought to decorate and improve, but rather fundamental to the language of poetry and the poetic language is only realized by it.

تعني الرؤية البلاغية (بنية معرفية)¹ تستقصي مجموعة التقنيات اللغوية في مستويات النص الأسلوبية وأنواع الصور وأنساق تشكيلها لتكوين منظور متماسك للنص، والنص في هذه الرؤية (مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة)² تتيح للقارئ (فهم كيفية أداء المعنى لوظيفته)³

وتتميز القراءة البلاغية بموضوعيتها العلمية في استقراء الظاهرة الأدبية، لأن البلاغة مقوم الأدب الفني وسمة إبداعه (والأدب مادتها تعلم صنعه وتبصر بنقده)⁴ ويقرر هذه الرؤية حازم القرطاجي بقوله: (ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشئ من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة)⁵

وعليه فالبلاغة هي علم النص الكلي، (لأن الشعر أجوده أبلغه)⁶ ولا محيص لأي منظر حصيف من الوعي بتنامي الفعل البلاغي والتحويلات المحدثة في تراكيب اللغة بوضعها وضعا مجازيا دالا إلى سياقات كلية تولد معاني الشعر وتحقق قصيدة الشاعر في ضروب النسيج وأجناس التصوير في صيغ التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل (وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية)⁷ وهذا يعني أن قيم البلاغة في العملية الإبداعية ليست عارضة وإنما جوهرية لأنها (الإبداع ذاته)⁸ وهي خاصية أدركها النقاد في إقامة عمود الشعر وتقرير معايير النقدية، (فالصور البيانية، وأنواع البديع ليست صيغا تالية يؤتى بها للترزين والتحسين، وإنما هي جوهرية في لغة الشعر لا تتحقق اللغة الشعرية إلا بها)⁹

وعلى هذا فبنية النص البلاغي تزوج بين المقومات الحسية والعقلية لتبني تصورا جديدا باقامة علاقات إسنادية تذيب شيئية الجزئيات ودلالاتها المباشرة لتحتويها كلية المدلول النصي التي تقرر شرعية توليد العلاقات (بالتوهم) (والتخييل)، وهذا يعني أن الأحكام النقدية التي ارتكزت على معايير البلاغة لتقرير حدي الجودة والرداءة اكتسبت ماهية جديدة حولت ثبوت القياس إلى قياس احتمالي متغير بمتغيرات الأسلوب وتنوعه، فأسس النقد بذلك منعي جديدا يستقرئ النص بمنظور المثال البلاغي وإمكانياته البنائية على توليد أنساق جديدة للغة، على أساس أن ثبوت أحكام النقد بين حدي الجودة والرداءة يكسبها فلسفيا قوة الجوهر، في حين تبني البلاغة فلسفتها الجمالية على المفارقة بين الأنساق المؤددة، وجعل هذا التفاوت قوة لها التأثير في مفهوم الجودة والرداءة، والإحتكام إلى الصيغ البلاغية المتفردة في التمثيل للمعنى في ضوء القياس البياني للصورة البلاغية القاضي (بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة) فالقيمة البلاغية في حكم البيان كائنة في المتغير النوعي للصورة البلاغية في (التشبيه والاستعارة والكناية) بينما ينظر القارئ إلى المتغير الأسلوبي في النوع البلاغي الواحد كقوة مائزة لتفاوت الشعراء في أحكام الصنعة وقدرة التوليد، ويدلل القاضي الجرجاني على هذا المتغير في أسلوب التشبيه بقوله: ((ولم تزل العامة والخاصة تشبه الورد بالحدود والحدود بالورد، نثرا ونظما، ويقول فيه الشعراء فتكثر، وهو من الباب الذي لا يمكن ادعاء السرقة فيه إلا بزيادة تضم إليه أو معنى يشفع به كقول علي بن الجهم:

عشية حياني بورد كأنه خدود أضيفت بعضهم إلى بعض

فإضافة بعضهم إلى بعض له، وإن أخذ فممنه يؤخذ وإليه ينسب، وكقول ابن المعتز:

بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

والخجل إنما يحمر وجنتاه، فأما منبت الأصداغ، ومخط العذار فقليل ما يحمران، فهذا التمييز مسلم له، وإن لم يكن يسبق إليه، ولو اتفق له أن يقول، حمرة في جوانبها بياض لكان قد طبق الفصل، وأصاب الغرض، ووافق شبه الخجل، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان فجعل الاحمرار في جوانب البياض فراغ عن موقع التشبيه.

ثم قال أبو سعيد المخزومي:

والورد فيه كأنما أوراقه نزعته ورد مكانهن حدود

فلم يزد على ذلك التشبيه المجرد، ولكن كساه هذا اللفظ الرشيقي فصرت إذا قسته إلى غيره، وجدت المعنى واحدا، ثم أحسست في نفسك عنده هزة، ووجدت طرية تعلم لها أنه انفراد بفضيلة لم ينازع فيها)¹⁰ فقد تناول الشعراء الثلاثة في هذه الأبيات معنى واحدا، وتفاوتت بلاغة التشبيه فيها لتفاوت الصنعة الشعرية، فقد رأى القاضي الجرجاني أن أبا سعيد المخزومي تميز عنهم بزيادة اهتدى لها دون غيره.

ولكن عبد القاهر الجرجاني خالف هذا الرأي لأن قول ابن المعتز ((بياض في جوانب احمرار)) هو الذي استوجب الفضل والخروج من التشبيه العامي وأن يقال: قد زاد زيادة لم يسبق إليها إلا بالتركيب والجمع، وبأنه ترك أن يراعي الحمرة وحدها... ولعله وجد الأمر كذلك في الورد فشبّه على طريق العكس فقال:

هذا بياض حوله الحمرة ها هنا كالحمرة حولها البياض هناك... لأن تشبيه البياض على الانفراج لا معنى له، وأما تشبيه الحمرة وإن كانت تصح على الطريقة الساذجة - أعني تشبيه الورد الأحمر بالخد - فإنه يفسد من حيث أن القصد إلى جنس من الورد مخصوص وهو ما فيه بياض تُحدّق به حمرة فيجب أن يكون وصف المشبه به على هذا الشرط.

وحجة عبد القاهر في هذا أن بيت ابن المعتز من التشبيه المركب ولأن التشبيه إذا كان معقودا على الجمع دون التفريق كان حال أحد الشئيين من الآخر حال الشئ في صلة الشئ وتابعا له ومبني عليه حتى لا يتصور إفراده بالذكر، فإذا فرقت البياض عن الحمرة (يتفرق عنك الحسن والإحسان ويحضر العي ويذهب البيان)¹¹ وذلك أمر أوجبته المعرفة في هذه الصناعة وقوانينها البلاغية كما يقول حازم القرطاجي¹²

فالصياغة الشعرية كينونة عامة في الشعر، والتجويد خاصية الشعراء، وحده: أن يريك المعنى المشترك في صورة المبتدع المخترع كقول لبيد:

وجلا السيول عن الطلول كأنها زير تجد متونها أقلامها

فأدى إليك المعنى الذي تداولته الشعراء، ومنه قول امرئ القيس:

لمن الطلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني

وقول حاتم:

أتعرف أطلالا ونؤيا مهديا كخطك في رق كتابا منمنما

وقول الهذلي:

عرفت الديار كرسم الكتا ب يزبره الكاتب الحميري

قال القاضي الجرجاني: (وبين بيت لبيد وبينهما ما تراه من الفضل، وله علمها ما تشاهد من الزيادة والشف)¹³

فالتشبيه الذي أصله (الدلالة على مشاركة أمر لآخر في المعنى)¹⁴ محكوم بمنطق التناظر في الصفات بين المشبه والمشبّه به، وأحسن التشبيه كما يقول قدامة: (ما أوقع بين الشئيين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها)¹⁵ ولكنه وبحكم مغايرة النصوص لمنطق القاعدة يستدرك فيقول: (وقد يقع في التشبيه تصرف إلى وجوه تستحسن... ومن أبواب التصرف في التشبيه

أن يكون الشعراء قد لزموا طريقة واحدة من تشبيهه شئ بشئ فيأتي الشاعر من تشبيهه بغير الطريق التي أخذ فيها عامة الشعراء... وربما كان الشعراء يأخذون في تشبيهه شئ بشئ والشبه بين هذين الشئيين من جهة ما، فيأتي شاعر آخر في تشبيهه من جهة أخرى فيكون ذلك تصرفاً أيضاً¹⁶ وهذا يعني أيضاً أن المنظور البلاغي في النقد يوسع من دلالة القاعدة البلاغية ليحتوي المعاني المتداولة بين طرفي التشبيه في النص الشعري، وفي هذا الاتجاه عمد الأمدي في موازنته إلى جعل أبنية النص اللغوية وسيلة استدلال للتصرف البلاغي وإصابة المعنى وإدراك الغرض، فأخذ على أبي تمام قوله:

إذا ما رحي دارت أدرت سماحة رحي كل إنجاز على كل موعد

قال: وهذا إتلاف الموعد وإبطاله، لأنه جعله مطحوناً بالرحى، إنما ذهب إلى أن الإنجاز إذا وقع بطل الموعد، وليس الأمر كذلك، لأن الموعد ليس بضد للإنجاز، فإذا صح هذا بطل ذلك، بل الوعد الصادق طرف من الإنجاز... ألا ترى إلى البحري كيف كشف عن هذا المعنى وجاء بالأمر من فصبه فقال:

يوليك صدر اليوم ما فيه الغنى بمواهب قد كن أمس مواعدا
شيم السحائب: ما بدأ بوارقا في عارض إلا انثنين رواعدا

فجعل البوارق مثالا للمواعد، وجعل الرواعد التي هي البوارق على الحقيقة... مثالا للغيث الذي هو العطايا، فالرواعد ليست بمبطله للبوارق... فالبرق يرى أولاً والرعد يسمع آخراً... وذلك أن العين أسبق إلى الإبصار من الأذن للاستماع لأن العين ترى الشئ في موضعه، والأذن لا تسمع الأصوات إلا إذا وصل إليها، فشبهها بالمواعد التي تجر المواهب وهذا أحسن ما يكون من التمثيل وأوضحه، وإنما أقام الرواعد مقام المواهب، لأنه قد يكون برق ولا مطر فيه، ولا يكاد يكون رعد إلا ومعه مطر، ثم إن التشبيه صح بأن صار الرعد بعد البرق، وأبو تمام فيما يذهب إليه، غالط لأنه وضع الاستعارة في غير موضعها¹⁷ وفي مثل هذا التوجيه للنص، والاستدلال بمعطياته التصويرية للوصول إلى الغرض من عقد المشابهة، رد الأمدي من ينكر على البحري قوله:

وفواق مثل الدموع ترددت في صحن خد الكاعب الحسناء

يقولون إن الدموع لا تتردد في الخد كما يتردد الحباب في الكأس، وإنما الدمع يجري ويتتابع.

قال: والمعنى صحيح، ولا عيب فيه، لأن التردد قد يكون الجولان وقد يكون التتابع والتواتر... فكذلك الدمع حسن أن يقال: قد تتابعت دموعه على خده وترددت... والحباب وإن جال في القدر دائراً فيه، فإنه جرى فيه على جهة واحدة، كما يجري الدمع على جهة واحدة، وهذا من أحسن التشبيه وأليقه، لأن الخمر قد يكون منها ما هو أحمر إلى التوريد الخفيف كحمره الخد... فإذا شبهت الخمر بالخد وذكر الحباب، فمن أليق ما شبه به وأحسنه وأصححه، الدمع، لأن الدمع قد يقف في الخد كوقوف الحباب في صحن الكأس - مع الإقرار - باختلاف حركة الحباب وحركة الدمع، فليس كل شئ يشبهه بشئ يقع التشبيه فيه من جميع الجهات¹⁸ فالتشبيه في منظور الأمدي ملمح نظري لخاصية تجمع طرفي التشبيه ولا يعني التماثل في جميع الخواص، لأن قرار القاعدة: (أن الشئ لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات)¹⁹ وقد استدل إلى مكن التشابه بحداقة، فحدّه بالخاصية اللونية المتحققة في طرفي التشبيه، وسلم بتباين الحركة لأنها ليست الغرض الذي يحقق وجه الشبه، وبذلك أجرى النص مجرى بلاغياً يضي على القاعدة سمة تجلي أدبية المنظور البلاغي في تحليل النصوص.

وأخذ القاضي الجرجاني بهذا الاتجاه الأدبي في محاجة من يتوهم أن المعنى بظاهر النص الشعري، لأنه يرى: (أن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة، وأخرى بالحال والطريقة)²⁰ وهي رؤية توسع القاعدة البلاغية بتعدد الطرق التي تصوّر المعنى.

فاذا قال المتنبي:

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قالوا: أراد التناهي في إطالة الوقوف فبالغ في تقصيره، لأن الوقوف اقترن بالشح، فأولوه بالقصر على الظاهر.

ولكن القاضي الجرجاني يرى ان المتنبي: (لم يرد التسوية بين الوقوفين في القدر والزمان والصورة وإنما يريد وقوفا زائدا على القدر المعتاد خارجا عن حد الاعتدال، كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف في أمثاله، وعلى ما جرت به العادة في اضرابه وقال: فهذا وجه لا أرى به بأسا في تصحيح المعنى)²¹

وعليه فأغراض الشعراء في تشبيه الحالات وتمثيلها أغراض خاصة تستمد أوجه الشبه من ملحظ عميق يتعدى ظاهر الأشياء الى أمر يقع في التصور والتخييل ويتحصل (بضرب من التأويل)²² كقول المتنبي:

يفضح الشمس كلما زرت الشم س بشمس منيرة سوداء

قالوا: الشمس لا تكون سوداء، والإنارة تضاد السواد، فقد تصرف - الشاعر - في المناقضة كيف شاء.

وقد أجاب القاضي الجرجاني متناولا وجه الشبه: بأنه لم يكن غرض الشاعر أن يجعل المشبه شمسا في لونه فيستحيل عليه السواد، وإنما أراد المشابهة في العلو والنباهة والاشتهاء قال: (وللشعراء في التشبيه أغراض، فإذا شبهوا بالشمس في موضع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضيء، ونصوع اللون والتمام، وإذا ذكروه في الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموما مطلعها وانتشار شعاعها... وإذا قرنوه بالجلال والرفعة أرادوا به أنوارها وارتفاع محلها... ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد، وطريق متميز، فقد يكون المشبه بالشمس في العلو، والنباهة، والنفع والجلالة أسود)²³ وهو تأويل قوم به بناء العلاقة بين طرفي التشبيه فأصاب الغرض، وبمثل هذا التأويل لعلاقة المشابهة يعمد القاضي الجرجاني الى لغة النص لتقويم بلاغة التشبيه في قول المتنبي:

أط عنك تشبيهي بما وكأنه فلا أحد فوق ولا أحد مثلي

فقالوا: إنما يشبه من الأسماء بمثل، وشبه ونحوهما، ومن الأدوات بالكاف، وكأن، وقد تقرب العرب التشبيه بان تجعل أحد الشئيين هو الآخر، فتقول: زيد الأسد عاديا، والسيف مسلولا، فأما - ما - فلها مواقع معروفة وليس للتشبيه في أبوابها مدخل، وهذا مما سئل أبو الطيب عنه، فذكر أن - ما - تأتي لتحقيق التشبيه، تقول: عبد الله الأسد وما عبد الله إلا الأسد و إلا كالأسد، تنفي أن يشبهه بغيره قال الشاعر:

وما هند إلا مهرة عربية سلية أفراس تجلّ لها بغل

وقد تجى مع الكاف كقول لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

قال القاضي: (إن التشبيه بما محال وإنما يقع التشبيه في هذه المواضع التي ذكرها، بحرفه، فإذا قال: ما المرء إلا كالشهاب، فإنما المفيد للتشبيه الكاف، ودخلت ما للنفي، فنفت أن يكون المرء إلا كالشهاب، فهي لم تتعد موضعها من النفي، لكنها نفت الاشتباه سوى المستثنى منها وإذا قال: ما هند إلا مهرة فان - ما - دخلت على المبتدأ والخبر، وكأن الأصل: هند مهرة، وهو في تحقيق المعنى عائد إلى تقريب الشبه وإن كان اللفظ مباينا، ثم نفى أن يكون كذلك، فأدخل حرفي النفي والاستثناء، فليس بمنكر أن ينسب التشبيه إلى ما إذا كان له هذا الأثر، وباب الشعر أوسع من أن يضيق عن مثله)²⁴.

وباب السعة في الشعر في منظور القاضي البلاغي يرتكز على الإفادة من علاقات التركيب اللغوية المبنية على وجه من وجوه النحو، كإفادته من اقتران ما النافية بالاستثناء لتحقيق المقاربة في التشبيه بقصر المشبه به على المشبه، وقد دلل بالشواهد

على أن اتساق أبنية التراكيب النحوية يحقق معنى بلاغيا (في صحة النظم)²⁵ وإن اختلال هذه التراكيب يؤدي إلى التعقيد الذي يفقد النص قيمته ويتبين ذلك في (سوء الترتيب واختلال النظم)²⁶ كقول المتنبي:

وفاؤكما كالربع أشجاء طاسمُهُ بأن تُسعدا والدمعُ أشفاه ساجمُهُ

قال: فما هذا من المعاني التي يضيع لها حلاوة اللفظ، وهاء الطبع، ورونق الاستهلال... حتى يهلهل لأجلها النسج، ويفسد النظم، ويفصل بين الباء ومتعلقها بخبر الإبتداء قبل تمامه، ويقدم ويؤخر ويعي ويغوص، ولو احتمل الوزن ترتيب الكلام على صحته فقيل: (وفاؤكما بأن تسعدا أشجاء طاسمه كالربع) أو ((وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاء طاسمه)) لظهر هذا المعنى المضمون به، فأما قوله: ((والدمع أشفاه ساجمه)) فخطاب مستأنف وفصل منقطع عن الأول²⁷ وكقوله:

يدي لمن شاء رهن لم يذق جرعا من راحتك درى ما الصاب والعسل

فحذف عمدة الكلام ((وأخل بالنظم)) وإنما أراد: يدي لمن شاء رهن ((إن كان)) لم يذق، فحذف ((إن كان)) من الكلام، فأفسد الترتيب وأحال الكلام عن وجهه²⁸

ولابد من الإشارة هنا إلى أن القاضي الجرجاني قد أدار مصطلح النظم في نقده الشعر بوصفه (معيارا من معايير البلاغية)²⁹ وقيد مفهوم المصطلح في التطبيق بأن أجرى التراكيب البلاغية مجرى قواعد النحو ومعانيه، وهو حد المفهوم الذي قرره عبد القاهر الجرجاني بقوله: أعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه ((علم النحو)) وتعمل على قوانينه وأصوله.. فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت ترى مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله³⁰ وبهذا جعل عبد القاهر من النظم مقصدا بلاغيا تتفاعل فيه مقاصد النحو ومجاريه، وتشكل هذه المقاصد في التراكيب اللغوية كينونة مؤتلفة في وضعها الدلالي الذي (يقتضيه العقل)³¹ وإن النص الشعري في منظوره النقدي تحكمه الصورة النظامية التي تشكل في سياقاتها التعبيرية تشكلا تكامليا كأضلاع المثلث، تأتلف في تكوينها للصورة وتختلف في قياسها، لذلك عمد في تحليله إلى عزل المكونات التركيبية ودلالاتها لتخصيص قيم النص البلاغية وتمثل ذلك بقول بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

قال: (هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذا الكلام بباله أفرادا عارية من معاني النحو التي تراها فيها، وأن يكون قد وقع ((كأن)) في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكر في ((مثار النقع)) من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني وفكر في ((فوق رؤوسنا)) من غير أن يكون قد أراد أن يضيف ((فوق)) إلى الرؤوس وفي الأسياف من دون أن يكون قد أراد عطفها على ((مثار))... وأن يكون كذلك فكر في ((الليل)) من دون أن يكون قد أراد أن يجعله خبرا ((لكأن)) وفي ((تهاوى كواكبه)) من دون أن يكون قد أراد أن يجعل ((تهاوى)) فعلا للكواكب ثم يجعل الجملة صفة لليل ليتم الذي أراد من التشبيه؟) وجواب عبد القاهر على ذلك يقرر تواشج أبنية التراكيب بمعاني النحو لتشكيل الصورة في بيت بشار قال: (فبيت بشار إذا تأملته وجدته كالحلقة المفرغة التي لا تقبل التقسيم ورأيته قد صنع في الكلم التي فيه ما يصنعه الصائغ حين يأخذ كسرا من الذهب فيذيبها ثم يصبها في قالب ويخرجها لك سوارا أو خلخالا، وإن أنت حاولت قطع بعض ألفاظ البيت عن بعض، كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار، وذلك أنه لم يرد أن يشبه ((النقع)) بالليل على حدة و((الأسياف)) بالكواكب على حدة، ولكنه أراد أن يشبه النقع والأسياف تجول فيه بالليل في حال ما تنكدر الكواكب وتهاوى فيه. فالمفهوم من الجميع مفهوم واحد،

والبيت من أوله إلى آخره كلام واحد)³² وعليه يقرر عبد القاهر حدود النظم بخاصية الإسناد وضم الكلم بعضها إلى بعض بطريق الاختيار المخصوص، وإن أزيلت هذه الخاصية بتغيير مواضع الألفاظ يفقد النظم خاصيته البلاغية، ومثل لذلك بقول أبي تمام:

لعابُ الأفاعي القاتلات لِعابه وأرئى الجنى اشتارته أيد عواسل

قال: إن الغرض أن يشبه مداد قلمه بلعاب الأفاعي، على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات أتلف به النفوس، وكذلك الغرض أن يشبه مداده بأرئى الجنى على معنى أنه إذا كتب في العطايا و الصلات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها وأدخل السرور واللذة عليهما، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان ((لعابه)) مبتدأ ((ولعاب الأفاعي)) خبراً، فأما تقديره أن يكون ((لعاب الأفاعي)) مبتدأ و((لعابه)) خبراً فيبطل ذلك ويمنع منه البتة، ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكون مراداً في مثل غرض أبي تمام وهو أن يكون أراد أن يشبه ((لعاب الأفاعي)) بالمداد ويشبه كذلك ((الأرئى)) به³³...

لذلك إن قدرت أن ((لعاب الأفاعي)) مبتدأ و((لعابه)) خبراً، كما يوهمه الظاهر أفسدت عليه كلامه وأبطلت الصورة التي أرادها فيه.

وفي ضوء هذا المنظور يندرج قول عبد القاهر: (إعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة، وأن تتفاوت التفاوت الشديد، أفلا ترى أنك تجد في الاستعارة العامي المبتذل، كقولنا: ((رأيت أسداً، ووردت بحراً، ولقيت بدرًا)) والخاصي النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال، كقوله:

((وسالت بأعناق المطي الأباطح))³⁴

أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة، وكانت سرعة في لين وسلاسة حتى كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها... وليست الغرابة في قوله (هذا) على هذه الجملة وذلك أنه لم يغرب لأن جعل المطي في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح فإن هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللفظ في خصوصية أفادها بأن جعل (سال) فعلاً للأباطح، ثم عداه بالباء، بأن أدخل الأعناق في البيت فقال: ((بأعناق المطي)) ولم يقل ((بالمطي)) ولو قال: ((سالت المطي في الأباطح لم يكن شيئاً))³⁵ ولا يني عبد القاهر يدلل بالشواهد على أن البلاغة تشريع للنقد وان احتمالية التجويد قائمة في كل صنعة شعرية ولكن المتفرد (موضع يدق الكلام فيه)³⁶ وفضيلة تنماز عن كل صنعة وملاحة لا تخفى وهي سمة تتيح للناقد تقرير حد الإبداع قال:

(ومن سر هذه الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحه لا تجدها في الباقي، مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة الجسر في قول أبي تمام:

لا يطمع المرء أن يجتاب لجته بالقول ما لم يكن جسراً له العمل

وقوله: بصرت بالراحة العظمى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

فترى لها في الثاني حسناً لا تراه في الأولى، ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرقي:

قولي نعم، ونعم إن قلت واجبة قالت عسى، وعسى جسر إلى نعم

فترى لها لطفاً وخلاصة، وحسناً ليس فيه الفضل بقليل)³⁷ وهذه الأنساق الاستعارية مهّد عبد القاهر للقول بإمكانية توليد المثال البلاغي الذي حاز المثالية في صياغته، قال:

(ومما هو أصل في شرف الاستعارة ان ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات، قصداً إلى أن يلحق الشكل بالشكل، وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد، كقول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلل

فانه لما جعل لليل صلبا قد تمطى به، ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب، وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به، فاستوفي له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراه الناظر من سواده، إذا نظر قُدَّامه وإذا نظر إلى خلفه، وإذا رفع البصر، ومدته في عرض الجو³⁸

ولكن تلاحق الاشكال في استعارة امريء القيس لم تحقق المثالية كما يرى قدامة بن جعفر، لأنه أخرجها مخرج التشبيه قال: (فكأنه أراد إن هذا الليل في تطاوله كالذي يتمطى بصلبه، لا أن له صلبا وهذا مخرج لفظه إذا تؤمل)³⁹، وكأنه بذلك يقرر إن حسن الاستعارة في خفاء التشبيه ولكن هذه الاستعارة عند الأمدي غاية في الحسن والجودة والصحة، قال: وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه نحو قول امريء القيس... (البيت).

وقال وهو يرد على قدامة بن جعفر: وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لا يعرف موضوعات المعاني ولا المجازات وهو في غاية الحسن والجودة والصحة، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل فذكر امتداد وسطه، وتناقل صدره للذهاب والانبعاث، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا، وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويتقرب تصرمه، فلما جعل له وسطا يمتد وأعجازا رادفه للوسط وصدرًا متناقلا في نهوضه، حسن أن يستعير للوسط اسم صلب وجعله متمطيا من أجل امتداده، لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة، وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه، وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة، وأشد ملائمة لمعناها لما استعيرت له⁴⁰

وقد اعترض ابن سنان الخفاجي على استحسان الأمدي لبيت امريء القيس بقوله: (وهذا الذي قاله أبو القاسم لا أرضى به غاية الرضى، ولو كنت أسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظر وتأمل لم أعدل عما يقوله أبو القاسم، لصحة فكره، وسلامة نظره، وصفاء ذهنه، وسعة علمه، لكنني أغلَّب الحق عليه، ولا اتبع الهوى فيما يذهب إليه، وبيت امريء القيس عندي ليس من جيد الاستعارة ولا رديتها، بل هو من الوسط بينهما... وإنما قلت ذلك لأن أبا القاسم قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده، وذكر الكلكل من أجل نهوضه، فكل هذا إنما يحسن بعضه لأجل بعض، فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز، والوسط والتمطي لأجل الصلب، والكلكل لمجموع ذلك، وهذه الاستعارة المبنية على غيرها، فلذلك لم أر أن اجعلها أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد والوصف⁴¹ ويرى ابن الأثير في بيت امريء القيس رأيا آخر فقد عدّه من التشبيه المضمّر الأداة، وبين أن ابن سنان الخفاجي قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمّر الأداة ولم يفرق بينهما، قال:

(وهذا البيت من التشبيه المضمّر الأداة، لأن المستعار له مذكور وهو الليل، وعلى الخطأ في خلطه بالاستعارة، فان ابن سنان اخطأ في الرد على الأمدي، ولم يوفق للصواب.

وقد بين ابن الأثير ان الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له، فإنها لا تجيء إلا ملائمة مناسبة، ولا يوجد فيها مباينة ولا تباعد، لأنها لا تذكر مطوية إلا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له، ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها، ولم يبن المراد منها... وقال: وأنا أتكلم على ما ذكره - ابن سنان - ولا أضايقه في الاستعارة والتشبيه بل أنزل معه على ما رآه من أنه استعارة ثم أبين فساد ما ذهب إليه... وإذا حددنا الاستعارة بهذا الحد فيه يُفرق على رأي ابن سنان بين الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحة، فإذا وجدنا استعارة في كلام ما عرضناها على هذا الحد، فما وجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه حكمنا له بالجودة، وما لم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة.

وبيت امرئ القيس من الاستعارات المرضية لأنه لو لم يكن لليل صدر، أعني أولاً، ولم يكن له وسط واخر لما حسنت هذه الاستعارة.

ولما كان الأمر كذلك استعار لوسطه صلها، وجعله متمطياً، واستعار لصدره المتثاقل - أعني أوله - كلكلا، وجعله نائياً، واستعار لآخره عجزاً، وجعله رادفاً لوسطه، وكل ذلك من الاستعارات المناسبة. ثم قال:

وأما قول ابن سنان الخفاجي: ((إن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى بعيدة مطرحة)) فإن في هذا القول نظراً، وذلك أنه قد ثبت لنا أصل نقيس عليه في الفرق بين الاستعارة المرضية والمطرحة... ولا يمنع ذلك أن تجيء استعارة مبنية على استعارة أخرى، وتوجد فيها المناسبة المطلوبة في الاستعارة المرضية... فكيف يذم ابن سنان الخفاجي الاستعارة المبنية على استعارة أخرى؟ وما أقول إن ذلك شدّ عنه، إلا لأنه لم ينظر إلى الأصل المقيس عليه، وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول إليه، بل نظر إلى التقسيم الذي هو قسمة في القرب أو البعد، ورأى أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى تكون بعيدة، فحكم عليها بالاطراح.

وإذا كان الأصل هو التناسب فلا فرق بين أن يوجد في استعارة واحدة، أو في استعارة مبنية على استعارة، ولهذا أشباه ونظائر في غير الاستعارة، ألا ترى أن المنطقي يقول في المقدمة والنتيجة: كل إنسان حيوان وكل حيوان نام، فكل إنسان نام، وهكذا أقول أنا في الاستعارة: إذا كانت الاستعارة الأولى مناسبة، ثم بنى عليها استعارة ثانية وكانت أيضاً مناسبة، فالجميع متناسب، وهذا أمر برهاني لا يتصور انكاره⁴²

ومن الطريف في محاجة ابن الأثير هذه أنها لم تكن للرد على ابن سنان حسب، وإنما كانت محاجة في أصول بناء الاستعارة وتقدير حدها فقد قرر أن المناسبة بين طرفي الاستعارة شرط في بنائها، إنها لا تكون إلا بحيث يطوى المستعار له، لذلك كان يرى أن التشبيه في بيت امرئ القيس أظهر من الاستعارة لأن المستعار له ظاهر وهو الليل، ولكن المناسبة بين الليل ((والجسم المستعار)) بعيدة خفية، لذلك كان إظهار المستعار له أنسب من طيه، وأحلى لخفائه وعليه جاء قول الرازي: (وبالجملة فكلمة كان وقوع الشبه أخفى كان التصريح بالتشبيه أحسن، ويخرج منه أن الاستعارة لا تحسن إلا حيث كان التشبيه متقراً بين الناس ظاهراً، فأما ما يكون خفياً يستخرجه الشاعر أو غيره بذهنه فلا بد فيه من التصريح بالتشبيه).

ويرى الرازي خلافاً لما ذهب إليه ابن سنان - أن الأصول التي تزداد بها الاستعارة حسناً (أن يجمع بين عدة من الاستعارات قصداً لإلحاق الشكل بالشكل وإتمام التشبيه فيما أريد)⁴³

وعليه فبلاغة الاستعارة ليست قيمة ذاتية في اللفظ إنما هي قيمة تصويرية مولدة تخصصها كينونة المتشابهين في متغيرات السياق الشعري، لأن التشبيه هو أصل فيها، وتظل الاستعارة أسيرة هذا الأصل في أي اتجاه وجهتها لأن المتغير قيمة حادثة وليست ذاتية، وحدت الاستعارة كينونة مجازية بحذف أحد طرفي التشبيه، ويجلي معنى الحدث تفرد إحدى الخصائص الوصفية في عقد أصرة التقبل في ذهن المتلقي بوضوح المناسبة أو المقاربة في وجه الشبه.

لذلك وقف عبد القاهر الجرجاني طويلاً عند التشبيه والتمثيل وكأنه بذلك يؤسس منطلقاته النقدية بنسق المنطلقات البيانية التي تعد التشبيه أصلاً في الاستعارة، وهو معيار عام في البلاغة (والتشبيه كأصل في الاستعارة وهي شبيهة بالفرع له أو صورة مقتضبة من صورته)⁴⁴ ولكنه استدرك فقال: (وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها)⁴⁵

وقد يدفع هذا الرأي بمقولة إن مبنى الاستعارة على هذه الصيغة يضعف صيرورتها اللغوية ويعلق إبداعها على هاجس التأويل بطرفي التشبيه الذي يعرض لمحلل النص الشعري ودارسه.

وهذا صحيح في عملية النقل المجازي العامي كقولك: رأيت أسدا وانت تعني رجلا شجاعا ((وعنت لنا ظبية)) وأنت تعني امرأة ((ابديت نورا)) وأنت تعني هدى وبيانا وحجة وما شاكل ذلك، فهذا كما تراه قد أجري في أمر سهل بأن تجعل الاسم المستعار متناولا (تناول الصفة مثلا للموصوف) ((فالاسم في هذا كله كما تراه متناولا شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه فيقال إنه عني بالاسم وكني به عنه ونقل عن مسماه الأصلي فجعل اسما له على سبيل الاعارة والمبالغة في التشبيه))⁴⁶

أما خاصية الإبداع في الاستعارة فلا تكون إلا حيث (يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شئ يشار إليه فيقال هذا هو المراد بالاسم... ومثاله قول لبيد:

وغداة ربح قد كشفت وُقُرةً إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجري اليد عليه كأجراء الأسد على الرجل والنور على الهدى والبيان... وإنما غايتك التي لا مُطَّلَع وراءها أن نقول: أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفا كتصرف الانسان في الشئ يقبله فاستعار لها (اليد) حتى يبالغ في تحقيق الشبه، وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه ولكنه وفي المبالغة شرطها من الطرفين فجعل على الغداة زماما ليكون أتمَّ في إثباتها مصرِّفة كما جعل للشمال يدا ليكون أبلغ في تصييرها مصرِّفه)⁴⁷.

يبين هذا الملمح النقدي دقة المنظور البلاغي في تأويل النص الشعري ومدى عمق البصيرة النقدية لإقرار شيئية الاستعارة التعبيرية بالاستدلال والتمويه على التشابه المبتذل لأنه مفرغ من خصوصيته البلاغية، والنزوع إلى خاصية التماثل بالفعل لإحلال المعاني في صيغ تعبيرية ما كان يمكن أن تصحح إلا (بالتخييل والوهم) لاستحالة أن يقوم التشابه بالشكل المحسوس بين (الشمال) و(الإنسان) في قول لبيد (بل ليس أكثر من أن تُخَيَّل إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير المصروف لزمامه بيده، ومقادته في كفه، وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم والتقدير في النفس، من غير أن يكون هناك شئ يُحسَّ وذات تتحصَّل)⁴⁸ كما يقول عبد القاهر.

ويعد هذا التأويل لقول لبيد وعيا بالنص الشعري لا بالقاعدة البلاغية أو المعيار لأن النص ينتج معاييره التي تأسس عليها والاستعارة فيه خصوصية أسلوبية تلغي حد التشابه بحد الفعل الذي يقوم مقام التشابه أو بالهيئة المتحصلة من التصرف بصياغة المعاني وتصويرها. وسبيل هذا التشكيل البلاغي: (سبيل الشئيين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الأفراد، لا سبيل الشئيين يجمع بينهما وتحفظ صورتها)⁴⁹ ولذلك عدَّ النقاد الاستعارة (أحد أعمدة الكلام وعلمها المعول في التوسع والتصرف)⁵⁰

وتبعاً لما يحتمله (التوسع والتصرف) من صيغ مجازية (وكل ما كان فيه على الجملة... عدول باللفظ عن الظاهر)⁵¹ يطور الناقد منظوره البلاغي في قراءة النصوص للتوصل إلى بيان أمر المعاني. كيف تتفق وتختلف ومن أين تجتمع وتفترق، وتفصيل أجناسها وأنواعها، وتتبع خاصها ومشاعها (وأول ذلك وأولاه، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة، فهذه أصول كبيرة - كأن جل محاسن الكلام - إن لم نقل كلها متفرعة عنها وراجعة إليها - وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها)⁵² وتبلور في تراكيها لغة الشعر وبها تتفاوت أساليب الشعراء وتميز وعلمها اعتماد النقاد في امتياع منابع الشعر الفنية لتكوين منظورهم النقدي ومادته الموضوعية في التطبيق.

ويدلل عبد القاهر على أن النظم البلاغي هو صورة متحصلة من قرائن الأحوال الكائنة في أنماط التراكيب، وأن حسن الكلام فيه مزية (من لفظه ونظمه) فلا مظنة لظان أن حسن الكلام كله للفظ من دون النظم، وكقول ابن المعتز:

واني على إشفاق عيني من العدا لتجمع مني نظرة ثم أطرق

فإن الطلاوة والظرف فيه لأنه جعل النظر (يجمع) وليس هو كذلك، كما ترى، بل لأن قال في أول البيت ((وإني)) حتى دخل اللام في قوله (لتجمع) ثم قوله ((مني)) ثم لأن قال ((نظرة)) ولم يقل النظر مثلا، ثم لمكان ((ثم)) في قوله ((ثم أطرق)) ولطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف وهي اعتراضه بين اسم ((إن)) وخبرها بقوله: ((على إشفاق عيني من العدى)) قال: وإن أردت أعجب من ذلك فيما ذكرت لك فانظر إلى قول الشاعر:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن... بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها، وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف، فأزل كلا منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل: (سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره) ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة، فخصوصية الاستعارة في النظم البلاغي تركيبية دلالية، لا تتحقق في اللفظ دون النظم ولا في النظم دون اللفظ وإنما الحسن فيها من الجهتين ومزيتهما وجبت لكلا الأمرين لأن (في الإستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته)⁵³ ألا ترى إلى قول البحري:

وصاعقة من نصله ينكفي لها على رأس الأقران خمس سحائب

عنى بخمس السحائب، أنامله، ولكنه لم يأت بهذه الاستعارة دفعة، ولم يرمها إليك بغتة، بل ذكر ما ينبىء عنها، ويستدل بها عليها فذكر أن هناك صاعقة وقال: ((من نصله)) فبين أن تلك الصاعقة من نصل سيف ثم قال: ((أرؤس الأقران)) ثم قال: ((خمس)) فذكر الخمس التي هي عدد أنامل اليد، فبان من مجموع هذه الأمور غرضه. قال: وأنشدوا لبعض الشعراء:

فإن تعافوا العدل والإيمان فإن في إيماننا نيرانا

يريد فإن في إيماننا سيوفا نصربكم بها، ولولا قوله أولا: ((فإن تعافوا العدل والإيمان)) وأن في ذلك دلالة على أن جوابه أنهم يحاربون ويقسرون على الطاعة بالسيف ثم قوله ((فإن في إيماننا)) لما عَقِل مراده، ولما جاز له أن يستعير النيران للسيوف، لأنه كان لا يعقل الذي يريد لأننا وإن كنا نقول ((في أيديهم سيوف تلمع كأنها شعل نار))... فإن هذا التشبيه لا يبلغ مبلغ ما يعرف على الإطلاق، كمعرفتنا إذا قال:

((رأيت أسدا)) أنه يريد الشجاعة، وإذا قال ((لقيت شمسا وبدرا)) إنه يريد الحسن، ولا يقوى تلك القوة⁵⁴، وبذلك ميّز عبد القاهر بين أسلوبين من أساليب الإستعارة: استعارة مبنية على طريق المجاز اللغوي وذلك بأن تذكر الكلمة وأنت لا تريد معناها، ولكن تريد معنى ما هو ردف له أو شبيهه فتجوزت لذلك في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه، واستعارة تبنى على حكم التجوز في الاسناد (ولكن لا في ذوات الكلم وأنفس الألفاظ ولكن في أحكام أجريت عليها)⁵⁵.

لقد تجاوز عبد القاهر برؤيته البلاغية هذه مبنى الاستعارة الحسي القائم على المناسبة بين المستعار والمستعار له، ومقاربة التشبيه في علائقية الاستعارة، وركز على فاعلية السياق في بناء مقاربات دلالية تسوّغ انتقال المعاني واستبدالها بحكم أبنية النظم البلاغي لا بحكم المقاربات الحسيّة: (واعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلما زدت إرادتك التشبيه إخفاء ازدادات الاستعارة حسنا، حتى أنك تراها أغرب ما تكون إذا كان الكلام قد أُلّف تأليفا إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شيء تعافه النفس ويلفظه السمع، ومثال ذلك قول ابن المعتز:

أثمرت أغصان راحته لجناة الحسن عنابا

قال: لو حملت نفسك على أن تظهر التشبيه وتفصح به احتجت إلى أن تقول: ((أثمرت أصابع يده التي هي كالأغصان لطالبي الحسن، شبيه العناب من أطرافها المخضوبة)) وهذا ما لا تخفى غثائته، من أجل ذلك كان موقع العناب في هذا البيت أحسن منه في قوله:

((وعضت على العُناب بالبرد))

(وذلك لأن إظهار التشبيه فيه لا يقبح هذا القبح المفرط لأنك لو قلت: ((وعضت على أطراف أصابع كالعناب بثغر كالبرد)) كان شيئاً يتكلم بمثله وإن كان مردولاً، وهذا موضع لا يتبين سره إلا من كان ملتهب الطبع حاد القريحة)⁵⁶ ولذلك يرى ابن سنان الخفاجي في قول الشاعر:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت وردا وعضت على العُناب بالبرد

تشبيها محضاً وليس باستعارة، وإن لم يكن فيه لفظ من الفاظ التشبيه⁵⁷، على أن ابن الأثير خالف ابن سنان ووافق عبد القاهر، وعدّ قول الشاعر هذا من الاستعارة لأن التشبيه المضمّر الأداة يحسن إضمار أداة التشبيه فيه، والاستعارة لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيها، ويرى في هذا البيت (من الحسن والرونق ما لا خفاء به، قال: فإذا أظهرنا المستعار له صرنا إلى كلام غث، وذلك أنا نقول: ((فأمطرت دمعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس، وسقت خدا كالورد، وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد)) والفرق بين الإظهار والإضمار واضح، وهكذا يجري الحكم في قول الشاعر:

فرعاء إن نهضت لحاجتها عجل القضيب وأبطأ الدعص

فإن الشاعر قد أضمر المستعار له، وهو القد والردف وإذا أظهر قيل: ((عجل قدّ كالقضيب وإبطاء ردف كالدعص)). قال: فإن هذا البيت لأخفاء بما عليه من الحسن، وإذا ظهر فيه المستعار له زال ذلك الحسن عنه، لا بل تبدل بضده، وليس كذلك التشبيه المضمّر الأداة، فإننا إذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء⁵⁸.

ولأن النص ينتج قيمه البلاغية واحكامه باختلاف قرائن إسناده، فقد وجد ابن الأثير أن بعض النصوص تحتمل أن تجربها مجرى الاستعارة أو التشبيه المضمّر الأداة، (واعلم أنه قد ورد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة، وعلى التشبيه المضمّر الأداة معاً، باختلاف القرينة، وذلك أن يرد الكلام محمولاً على ضمير من تقدم ذكره، فينتقل عن ذلك إلى غيره، ومن ذلك قول البحترى:

إذا سفرت أضواء شمسٍ دجن ومالت في التعطف غصنٌ بان

فلما قال ((أضواء شمسٍ دجن)) بنصب الشمس، كان ذلك محمولاً على الضمير في قوله ((أضواء)) كأنه قال أضواء هي، وهذا تشبيه، لأن المشبه مذکور وهو الضمير في ((أضواء)) الذي نابت عنه التاء، ويجوز حمله على الاستعارة بان يقال ((أضواء شمسٍ دجن)) برفع الشمس، ولا يعود الضمير حينئذ إلى من تقدم ذكره، وإنما يكون الكلام مرتجلاً ويكون البيت:

إذا سفرت أضواء شمسٍ دجن ومال من التعطف غصنٌ بان

وهذا الموضوع فيه دقة وغموض، وحرف التشبيه يحسن في الأول دون الثاني⁵⁹ وفي هذا وجه ابن الأثير تحقق الاستعارة أو التشبيه اعتماداً على عود لازم القرينة وحكم إسناده في نظم الكلام، فالتفت إلى طبيعة تركيب السياق الشعري في إجراء الصورة البلاغية مجرى الأصل والفرع قال: (إذا حققنا النظر في الاستعارة والتشبيه وجدناهما أمراً قياسياً في حمل فرع على أصل لمناسبة بينهما، وإن كانا يفترقان بحددهما وحققيتهما)⁶⁰. فالتقى بذلك مع عبد

القاهر الذي كان يرى (إن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدهما من مقتضيات النظم وعنه يحدث وبه يكون)⁶¹.

إن هذا التواضع الإصطلاحي في الرؤية البلاغية يشكل اتجاها متميزا في دراسة الشعر وبحث في كينونة المفردات اللغوية دالاً مشحونا بالمعاني المجازية وقادرا على خلق تفاعل تحريضي يصل الى حد الفعل ورد الفعل في تأويل النص وتوزيع مدلولاته بين طرق البيان المختلفة التي هي (التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية) وهذا يقتضي وعيا معرفيا في (المعجم اللغوي) وتوجيه مستويات التراكيب الدلالية نحو مدلولاتها لتحديد أبعاد الصورة البلاغية التي تعززها القرائن ولوازم الحال. وقد اتسمت الإنجازات التطبيقية في موازنة الأمدي (والوساطة) للجرجاني ودراسات عبد القاهر في (الأسرار والدلائل) بهذه السمة الأدبية في التعامل مع المصطلح البلاغي، ونهج بعض شراح الدواوين هذا النهج في تحليل أبنية الشعر وتوصيف مكوناته البلاغية، وبذلك يكون القارئ قد تجاوز جدلية الجودة والرداءة التي شغلت النقاد، وبلغ مداه في احتواء فنية النص، وتوجيه أبنية الشعر توجهها بلاغيا، كما في قول أبي تمام:

فسقاه مسك الطل كافور الندى وانحل فيه خيط كل سماء

قال الصولي: يقول طيب الصبا يجمع الغيم ويجلب الطل. فاستعار المسك والكافور لطيهما واختلافهما في شدة الحرارة والبرودة، ولا أعرف في وصف كثرة المطر أحسن من قوله، وتشبيهه المطر بخيوط متصلة من السماء إلى الأرض وهو قوله: ((وانحل فيه خيط كل سماء)) قالوا: لا معنى لقول الصولي: ((وتشبيهه المطر بخيوط متصلة من السماء إلى الأرض)) وإنما أراد أبو تمام حسن الاستعارة، فجعل لكل مطر خيطا معقودا، ثم جعله منحلا فيه، يعني سقاه كل مطر، كما يقال: حل السماء عزاليه، والعزلاء فم الزمادة السفلى، وإنما تكون مشدودة بخيط،...يقول: جاءتنا السماء بمطر كأفواه القرب والعزالي، وقالوا المسك أسود، ويسمى الماء ((الأسود))..كنى بالمسك عن الماء، لأن الماء عند العرب أسود، و((كافور الصبا)) سحابة بيضاء ينشؤها الصبا، والسماء المطر، اي: الوسي والولي والعهاد⁶²

قال أبو العلاء: في هذا البيت ثلاث استعارات: المسك، والكافور والخيط، والطل أضعف المطر، وإنما خصه بالمسك لأن المطر الضعيف إذا أصاب التراب فاحت له رائحة طيبة، فكيف إذا أصاب الروض؟ وجعل الكافور مستعارا للصبا لأنه أراد بردها، وجعلها سببا لمجيء الطل، فجمع بين شيئين متضادين من الطيب، وهما الكافور والمسك، لأن أحدهما بارد والآخر حار. وقيل أراد بهما سحابة بيضاء كالكافور⁶³

فالصورة البلاغية في هذا كينونة سياقية وليست جزئية محدودة بطرفي التشبيه أو الاستعارة، وعلى هذا حسن توجيه أبنية الانساق البلاغية في بيت أبي تمام لأنه مهد لها بمشهد كلي للمطر يحتمل تأويل تلك الأنساق، لتضافر عناصر المحاكاة الطبيعية والتخييل في تصويره، حيث قال:

ومعرس للغيث تخفق بينه رايات كل دجنة وطفاء

ومعرس الغيث: المكان الذي يمتطر به: وتخفق رايات: هذا مثل، أراد به كثرة المطر بهذا الموضع..وشبه البرق بالرايات لأنه يخفق خفقانها ويضطرب اضطرابها عند هبوب الريح. وجعل للغيث معرسا، وهو نزول آخر الليل على الاستعارة، ويقال لنفس المنزل معرس: قال زهير:

((اثافي سفعا في معرس مرجل))⁶⁴

قال أبو العلاء: والوظفاء: من صفة الغمامة، يراد بها المتدللية الهيدب، أخذت من الجفن الاوظف، وهو الكثير الشعر الطويل الهدب، ويقال: سحابة وطفاء: ((أراد أن لهذه السحابة من دنوها كالأهداب إلى الأرض)) وقال: ولا يمتنع أن توصف الليلة بهذه

الصفة إذا كانت فيها سحابة ذات وطف، ويكون هذا مثل قولهم: نام الليل، وإنما ينام فيه)⁶⁵ وهذا ما يسميه عبد القاهر (بالمجاز الحكيم) قال: وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المغلق، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وإن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً وإن يضعه بعيد المرام قريباً من الأفهام... فليس يشتهه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه في قوله:

((فنام ليلى وتجلى هي))

كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت ((فنامت في ليلى وتجلى هي))⁶⁶ ولأن الليلة موصولة المطر صح وصفها بالوظفاء بحكم السياق، ودلل على هذا التواصل بقوله:

نشرت حدائقه فصرن مألفاً لطرائف الأنواء والأنداء

قال الصولي: ((يعني الحدائق مألّف هذه الأمطار من كثرة ترددها عليه)).

يقال: نشرت الأرض نشورا: إذا أصابها مطر الربيع فأنبئت، وقوله: فصرن مألفا: أي مألّف لمعان تثيره فيها).

وقال الأمدى: أراد أن هذه الحدائق حييت بالغيث الذي ذكره. وقال أبو العلاء: المعروف في الحدائق ان تستعمل في النخل والكرم، واستعار هذا اللفظ لما ينبته السحاب، ولا يمتنع أن يعني بالحدائق التي هي معروفة عند العامة، ثم اضافها الى الغيث لأنه أمطرها وأرواها، ويروي ((نشرت حدائقه)) على أنه فعل لما لم يُسمى فاعله. حتى إذا تحددت أبعاد مشهد المطر: سحب ثقيل مطبقة بأهدابها على الأرض وبرق يخفق خفق الرايات المضطربة في مهب الريح، عزز المشهد بعناصر صورية مولدة ومنتزعة من واقع الحال فقال:

فسقاه مسك الطل كافور الندى... (البيت)

((فجعل نسيم الصبَا كافورا، ورائحة الأنواء مسكا))⁶⁷

وبهذا يلتقي قرآء الشعر وشرحة على توسل الدلالة في مجريات التراكيب لتكوين الصورة البلاغية، فعمدوا إلى النص في دراستهم التحليلية لا إلى القاعدة، لذلك تداخلت أنساق التشبيه والاستعارة والكناية حسب صحة التأويل ومقتضيات السياق الدلالية، أي أنهم جعلوا نظم الكلام وقواعد اسناده تبني علاقات المجاز، (بين النص ومعناه من جهة، والحقيقة الواقعة خارج النص من جهة أخرى)⁶⁸ بدلالة القرائن واللوازم على المعنى المقصود، وعلى أساس أن الإتصال الأدبي كما يقول (إيزر): هو (نشاط مشترك بين القارئ والنص)⁶⁹ وعليه فإن فاعلية العمل الأدبي المستمرة تكمن في الخبرة بعملية القراءة وتعتمد على إدراك (القارئ) العالم الذي يحيل إليه النص.

المصادر والمراجع:

- أسرار البلاغة/ عبد القاهر الجرجاني/ ت - محمود محمد شاكر/ مطبعة المدني/ القاهرة/ 1991.
- الإيضاح في علوم البلاغة/ الخطيب القزويني/ ت - لجنة بالأزهر/ أوفست.
- البلاغة والأسلوبية/ د.محمد عبد المطلب/ مطابع الهيئة المصرية للكتاب/ 1984.
- تحليل الخطاب الشعري/ د.محمد مفتاح/ ط3/ المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء/ 1992.
- التركيب اللغوي للأدب/ د.لطفى عبد البديع/ الطبعة الأولى ب.ت.
- التعريفات/ الشريف الجرجاني/ دار الشؤون الثقافية/ بغداد ب.ت.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور/ ضياء الدين بن الاثير/ ت - د.مصطفى جواد ود.جميل سعيد/ مطبعة المجمع العلمي العراقي/ 1956.
- دلائل الإعجاز/ عبد القاهر الجرجاني/ علق عليه- محمود محمد شاكر/ القاهرة/ 1984.
- سر الفصاحة/ ابن سنان الخفاجي/ شرح/ عبد المتعال الصعيدي/ 1969.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر/ ابن الاثير/ ت- د.احمد الحوفي ود.بدوي طبانة/ ط1/ 1960.
- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب/ أمين الخولي/ ط1/ القاهرة 1961.
- منهاج البلغاء وسراج الادباء/ حازم القرطاجني/ ت- محمد الحبيب ابن الخوجة ط2/ بيروت/ 1981.
- الموازنة بين الطائيين/ الأمدي/ ت- محمد معي الدين عبد الحميد/ ط3/ 1959.
- النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام/ ابن المستوفي/ ت- د.خلف رشيد نعمان/ دار الشؤون الثقافية/ بغداد/ 1989.
- نظرية التلقي/ روبرت هولب/ ترجمة د.عز الدين اسماعيل/ النادي الأدبي الثقافي/ جدة/ 1415هـ/ 1994م.
- نظرية المصطلح النقدي/ د.عزة محمد جاد/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ 2000.
- النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق/ د.حسن إسماعيل/ ط1/ 1983.
- نقد الشعر/ قدامة بن جعفر/ ت- محمد عبد المنعم خفاجي/ بيروت/ ب.ت.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز/ فخر الدين الرازي/ ت- بكري الشيخ أمين/ ط1/ بيروت/ 1985.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه/ ت- محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي/ مطبعة الحلبي وشركاه/ القاهرة، ب.ت.

الهوامش:

- ¹ نظرية المصطلح النقدي/ د.عزة محمد جاد/ 376
- ² تحليل الخطاب نظرية المصطلح النقدي/ د.عزة محمد جاد/ 376
- ³ -نظرية التلقي/ روبرت هولب/ ترجمة عز الدين ايماعيل/ 253
- ⁴ منهاج تجديد/ أمين الخولي/ 180
- ⁵ منهاج البلغاء/ 226.
- ⁶ الموازنة/ 380.
- ⁷ دلائل الإعجاز/ 430.
- ⁸ البلاغة والاسلوبية/ 270.
- ⁹ التركيب اللغوي/ 79.
- ¹⁰ الوساطة/ 187-188.
- ¹¹ أسرار البلاغة/ 198.
- ¹² منهاج البلغاء/ 36
- ¹³ الوساطة/ 187.
- ¹⁴ الإيضاح/ ج2/ 213.
- ¹⁵ نقد الشعر/ 124
- ¹⁶ نفسه/ 127-129.
- ¹⁷ الموازنة/ 206-208.
- ¹⁸ نفسه/ 366.
- ¹⁹ نقد الشعر/ 124.
- ²⁰ الوساطة/ 471.
- ²¹ نفسه 471-473
- ²² أسرار البلاغة/ 90.
- ²³ الوساطة/ 474.
- ²⁴ نفسه 442-443
- ²⁵ نفسه 192
- ²⁶ نفسه 417
- ²⁷ نفسه 98
- ²⁸ نفسه 79
- ²⁹ النظم البلاغي/ 67.
- ³⁰ دلائل الإعجاز/ 82.
- ³¹ التعريفات/ 132.
- ³² دلائل الإعجاز/ 411-414
- ³³ نفسه/ 372.
- ³⁴ صدر البيت: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا.
- ³⁵ دلائل الإعجاز/ 74-75/ ت- محمود محمد شاكر.
- ³⁶ نفسه/ 76.
- ³⁷ نفسه 78-79
- ³⁸ نفسه 79
- ³⁹ نقد الشعر/ 175.
- ⁴⁰ الموازنة/ 334.

- 41 سر الفصاحة/ 112.
- 42 المثل السائر ج2/ 114-120/ والجامع الكبير/ 87-88
- 43 نهاية الإعجاز في دراية الإعجاز/ 249
- 44 أسرار البلاغة/ 29.
- 45 نفسه/ 41.
- 46 نفسه 42
- 47 أسرار البلاغة/ 44-46.
- 48 نفسه 46
- 49 نفسه 101
- 50 الوساطة/ 428.
- 51 دلائل الاعجاز/ 430.
- 52 أسرار البلاغة/ 27.
- 53 دلائل الإعجاز/ 98-100.
- 54 نفسه/ 300.
- 55 نفسه 294
- 56 نفسه 450-451
- 57 سر الفصاحة/ 110
- 58 المثل السائر/ ج2/ 76.
- 59 نفسه/ 78.
- 60 نفسه/ 83.
- 61 دلائل الإعجاز/ 393.
- 62 الوسي: مطر اول الربيع، وهو بعد الخريف لانه يسم الارض بالنبات ثم يتبعه الولي في صميم الشتاء/ والعهد والعهد: المطر الاول. وقيل: هو كل مطر بعد مطر/ اللسان/ ج3/ 15.
- 63 النظام/ ج1/ 233-235.
- 64 تنمة البيت (ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم).
- 65 النظام/ 232.
- 66 دلائل الإعجاز/ 294-295
- 67 النظام/ 232.
- 68 نظرية التلقي/ 253.
- 69 نفسه 254

الممارسة التداولية في الدرس الأصولي .مقاربة تأصيلية

د. نصيرة الغماري

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر

ملخص:

تندرج هذه المداخلة في إطار إعادة قراءة المنجز اللغوي التراثي الذي تضمّنته المباحث الفقهية؛ ومن ثمة نطمح إلى وصف آليات القراءة التي أبدعها الأصوليون في استنباط الأحكام الشرعية، من خلال تصفح بعض المصنفات الأصولية؛ فمنها ما تناولته الأقلام كرسالة الشافعي والموافقات للشاطبي والبحر المحيط للزركشي فدخل في إطار التداول؛ ومنها ما لا تزال مغمورة، (و الوصف هنا يخصّ حقل الدراسة اللغوية و ليس الفقهية فهي وأصحابها أعرف من أن تعرّف) كالمفتاح للتلمساني ومسالك الوصول للخطابي، وإحكام الأحكام لابن دقيق العيد، لذا علمها يكون التعويل؛ إذ لم يحظوا بما يستحقونه من العناية لدى دارسي اللسانيات التداولية المهتمين بقضايا التأصيل.

لقد أثمرت جهود هؤلاء. وهم غيض من فيض. في قراءة النص الشرعي منهجا فريدا لم يسبقوا إليه، لم يكن يهمهم إذ ذاك تقديم مصطلح يصف منهجهم لأن التنظير لأفعال الخطاب لم يكن شاغلهم؛ غير أنّ فلاسفة اللغة في القرن العشرين قد تكفّلوا بهذا الضبط المنهجي، فقدّموا مصطلح " التداولية " باعتباره دراسة علاقة العلامات بمستعملها في سياق معيّن وفق تعريف موريس. وهو تعريف ينسجم مع المفاهيم الإجرائية الأصولية. لذا جاز لنا اقتراض المصطلح وهي دعوى نعمل في هذه المداخلة على الاحتجاج لها. في إطار ما يسمح به المقام. قصد التأصيل العلمي المنهجي للدرس اللغوي الأصولي.

الكلمات المفتاحية:

التداولية، الدرس اللساني الأصولي، الاستلزام الحوارية، نظرية أفعال الكلام، التداولية في التراث العربي

Abstract :

This research paper is part of the re-reading of the linguistic achievements of fundamentalist works, especially in the field of linguistic studies that preceded their era in the textual practice. We therefore aspire to describe the reading mechanisms created by the fundamentalists in the development of Islamic rulings by browsing certain fundamental works; Some of which are referred to as the letter of Shafi'i and approvals for the inhabitants and the sea surrounding the Zarkashi, including what is still hidden as the key to Tlemceni and access to speech. The efforts of these and others to read the legal text have resulted in a unique approach that they have never before experienced, even if they are not concerned with presenting a term that describes their approach because the theorizing of the acts of speech was not their concern Therefore, we may borrow the term, which we are working in this intervention to protest in the context of what is permitted by the denominator in order to systematically rooting the fundamental pragmatism linguistic study.

Keywords: pragmatism, fundamentalist linguistic research, discourse invocation, the theory of verbs, pragmatism in Arab heritage

المباحث اللغوية في كتب الأصول:

حرص الأصوليون بحكم تعاملهم مع النصوص الشرعية على ضبط المفاهيم اللغوية عملا بقاعدة "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" ولهذا أخذت هذه المباحث اللغوية التي تتصدّر مصنفاتهم بعدا إجرائيا؛ الأمر الذي أثمر تصوّرات نظرية أخذت منحى توجيهيا خادما للنشاط الاستنباطي الذي تضمّنته مصنفاتهم. وإن تفاوتت درجاته كما سنبين. وقد أرجع ابن خلدون ورود هذه المقدمات إلى العامل الثقافي العام الذي طبع مرحلة التأليف ممثلا في فساد لسان العرب بسبب الفتوحات الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من الأمم وانتشار اللحن؛ فتعيّن على الأصولي " النظر في دلالة الألفاظ وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق،

يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة. والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف و البيان، وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علومًا ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها لأنها جيلة وملكة، فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهادة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علومًا يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى. ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه، ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق. بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجاهدة العلم من ذلك، وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة".¹

لهذه الأسباب وجد الأصولي نفسه ملزمًا بالتطرق إلى المباحث اللغوية قبل الخوض في القضايا الفقهية لأن الأحكام تبنى على أساسها.

وكانت رسالة الإمام الشافعي الموضوعية في أصول الفقه منعرجا حاسما في توجيه الأنظار إلى إجرائية هذه المباحث، حيث نصت صراحة على الشروط الواجب على الأصولي مراعاتها للوصول إلى الحمل السليم ومن ثم نجاح القراءة التأويلية "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها آساع لسانها. وأن فطرته أن يخاطب بالشيء، منه: أما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره. و عاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه. و عاما ظاهرا يراد به الخاص وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره. وتبتدئ الشيء يُبين آخر لفظها منه عن أوله. و تكلم الشيء تُعرّفه من بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تُعرّف الإشارة، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، لانفراد أهل علمها به، دون أهل جهالتها".²

ويبدو أن هذا النص المؤسس لشروط قراءة الخطاب الشرعي (القرآن والسنة) قد حظي باستحسان جماعة من الأصوليين أهمهم السرخسي وفخر الدين الرازي و ابن دقيق العيد و الشاطبي والزركشي حيث زخرت مصنفاتهم الفقهية بالمقدمات اللغوية وهدفهم من ذلك تتبع "معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف، فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه"³

من هذا المنطلق، لم ينصب اهتمام الأصوليين على النص فحسب بل تعداه إلى كل العناصر الحافة بالعملية التلفظية التي ينتج في إطارها، من حيث أن "كل خبر يقتضي.. أمورا خادمة لذلك الإخبار، بحسب الخبر والمخبر والخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار في الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك"⁴. إن هذه الأمور الخادمة التي يقصدها الإمام الشاطبي (ت 790 هـ) هي ما يصطلح عليه في الدرس اللغوي الحديث بسياق الموقف الذي نعمل على بسطه فيما يأتي.

و يحسن بنا، قبل الخوض في المدونة الأصولية أن نقدّم عرضا مقتضبا لأهم ما أنجزته نظرية الأفعال اللغوية، ابتداء من مؤسسها أوستين و التطوير الذي لحقها على يدي فلاسفة اللغة كسيرل وغرايس وديكروحتى يستقيم التأصيل فالمقدمات الصحيحة تؤدي إلى النتائج صحيحة، كما أنّ الحكم على الشيء فرع عن تصوّره.

1. ثنائية الملفوظ الخبري والملفوظ الإنجازي في نظرية الأفعال الكلامية عند أوستين

¹ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: المقدمة، دار الكتاب العربي 2008 ص ص 419-420.

² محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة تح خالد السبع العلمي /زهير شفيق الكبي دار الكتاب العربي، بيروت 2008 ص 67.

³ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي: الموافقات تح مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، 1997 ج 1 ص 131.

⁴ المرجع نفسه: ج 1، ص 105.

في المحاضرة الثانية عشر قدّم أوستين تلخيصاً لنظريته في أفعال الكلام المنبثقة من تمييزه بين الخبر والإنشاء، التي صرح أنه أخرجها إلى النور بتنبهه إلى بعدين حاسمين هما:

1. بعد نجاح / إخفاق

1. أ. قيمة متضمنة في القول (لاقولية)

2. بعد صدق / كذب

2. دلالة قولية (معنى ومرجع)

وأهم ما نتهت إليه النظرية الأوستينية أن فعل الكلام يتألف من عنصرين هما: المضمون القضوي و قوة متضمنة فيه force illocutoire تصاحب المعنى الصريح و الحر في يعمل السياق على الإرشاد إليها وتحديدها؛ ذلك أننا ونحن ننجز فعلاً قولياً نقوم في ذات الوقت بإنجاز تلفظات تعطي بعداً دلالياً أساسياً لهذا الفعل كالتأكيد والتحذير والإعلان والتساؤل.. إلخ ومن هذا المنطلق، فالملفوظ الخبري والإنجازي يتساويان من حيث القوة الإنجازية فكما ينجز المتكلم أمراً بصيغة الأمر مثلاً، فإنه ينجز تأكيداً بالملفوظ الخبري لأنه وهو يخبر يؤكد مضموناً قضوياً أو ينفيه، وفي هذه الحالة استخلص أوستين أن الملفوظ الخبري هو كذلك فعل إنجازي يتعدى معيار الصدق والكذب إلى معيار النجاح والإخفاق.

و يمكننا إجمال أهم ما طمحت إليه نظريته بعد أن أثبتت أهمية الملفوظات الإنجازية فيما يلي:

➤ التركيز على ظاهرة فعل الخطاب العام في سياق الموقف الكلي للخطاب .

➤ اعتبار أفعال التأكيد و الوصف و غيرها من الكلمات أفعالاً متضمنة في القول مثلها مثل الأفعال الإنشائية و لا تتميز عنها في شيء .

➤ جرد الأفعال الإنجازية الصريحة.

➤ تقديم قائمة تضبط القيم المتضمنة في القول لعمليات التلفظ " وقد حصرها في خمسة طبقات واقترح لها تسميات، اعترف أن بعضها يستعصي تعريفه :جاءت وفق مايلي: الحكميات / التنفيذيات / الوعديات / السلوكيات / العرضيات¹ و نظراً لعدم دقتها أعاد تلميذه سيرل ضبطها وصياغتها وفق ما يلي :

(1) الإخباريات : Assertifs

والهدف المتضمن في القول لأفعال هذه الطبقة بيان درجة مسؤولية المتكلم من القضية المتلفظ بها التي تصف حالة الواقع مثل أكد أو استنتج أو استخلص أو ظن.. إلخ

(2) الطلبيات Directifs: والهدف المتضمن في القول لأفعال هذه الطبقة يتمثل في محاولة المتكلم إلزام المخاطب بدرجات متباينة) هناك فرق بين طلب و أمر والتمس وألح .. بفعل شيء في المستقبل واتجاه

(3) الوعديات Promissifs: وهي أفعال متضمنة الهدف منها التزام المتكلم (بدرجات متفاوتة) بالقيام بسلوك مستقبلي معين.

(4) التعبيرات Expressifs: هدف الفعل المتضمن فيها هو التعبير عن حالة نفسية مخصصة للمتكلم والملاحظ على هذه الطبقة أن لا اتجاه مطابقة لها كفعل شكر واعتذر وعزى ورحب.. إلخ

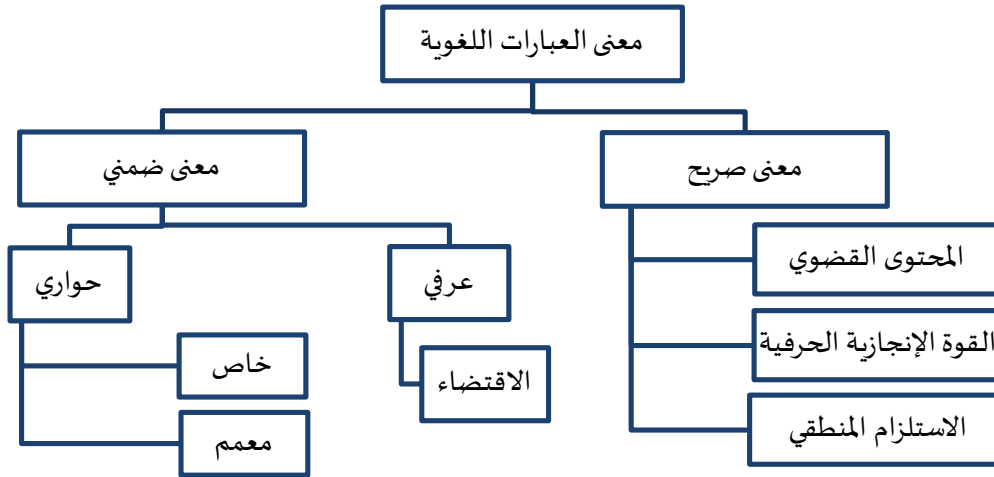
J. L.AUSTIN : Quand dire ,c'est faire , Editione du Seuil 1970 :p151 et suite¹

(5) الإيقاعيات: Déclaratifs: إن ما يميز هذه الطبقة هو أن الإنجاز الناجح لأحد عناصرها، يحدث تطابقاً بين محتواها القضي والواقع؛ إذ تحدث تغييراً في الوضع القائم كفعل التعيين وإعلان الحرب والبيع والقران. وينبه سيرل أن للإيقاعيات وضعا خاصا، حيث اتجه المطابقة فيها مزدوج، فهو من الكلمات إلى الواقع و من العالم إلى الكلمات، كما أن شرط الصدق فيها يغيب.¹

أما غرايس H.P. Grice، فقد اهتم في محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد سنة 1967 إلى الاستلزام الحوارية ورأى أنه من أهم أنواع المضمرة السياقية؛ ذلك أن ملفوظات المتخاطبين قد تتطابق مع ما تعنيه و قد تقول أكثر مما تعنيه وقد تقول عكس ما تعنيه، لهذا اقترح ضوابط لرصد الاختلاف بين ما يقال حرفياً على مستوى البنية السطحية وما يقصد بتفعيل كل عناصر التلفظ من قرائن وأعراف واستدلال. وقد انضوت هذه الضوابط فيما أسماه بمبدأ التعاون الذي خضع لانتقادات وتطويرات ليس هذا مجال الخوض فيها، حيث نصّ على أربع حكم أو قواعد:

1. حكمة الكمية maxime de quantité "اجعل خطابك غنيا بالمعلومات لكن لا تزد عما هو مطلوب لبلوغ الهدف التواصلي"
 2. حكمة الكيفية maxime de qualité "لا تقل ما تعتقده خاطئاً و لا مالا تستطيع برهنته".
 3. حكمة العلاقة maxime de relation "ليكن كلامك ملائماً لموضوع الحديث"
 4. حكمة الصيغة maxime de modalité "كن واضحاً دون تناقض و موجزاً و منظماً"²
- و قصد الإيجاز، نعرض تصنيف المعاني المكوّنة للدلالة لملفوظات اللغات الطبيعية حسب غرايس الذي نستعيده من أحمد المتوكل³.

معنى العبارات اللغوية (شكل 1)



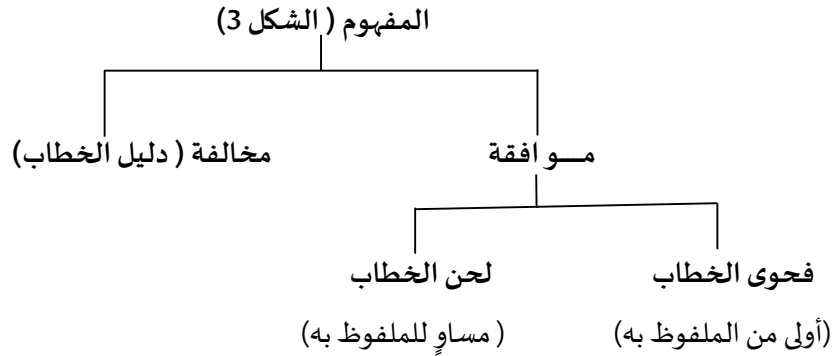
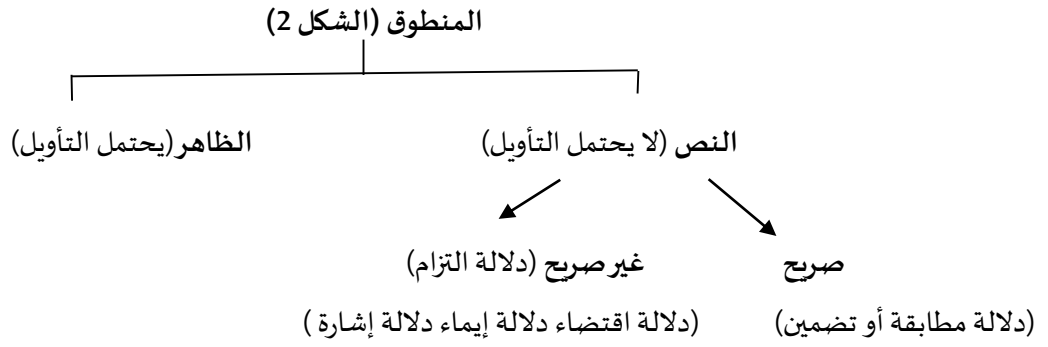
إنّه لمن اللافت للانتباه تقسيم غرايس للمعاني التي يقوم عليها الفعل اللغوي في المقام التواصلي؛ ذلك أن أنواع الدلالة التي حدّها بها الأصوليون النص يتجاوز مجرد التوافق، بل إنهم عدوا القياس الإضماري الذي يقوم عليه الاستلزام الحوارية الغرايسية مستوى من مستويات الدلالة السياقية، فمن بين الدلالات الخمسة التي أحصاها الزركشي في توظيف مصطلح "النص"؛ "ما يذكر في باب القياس، وهو مقابل الإيماء"⁴. كما عدّه التلمساني قرينة خارجية كما سيأتي بيانه:

ونحرص على تقديم تصور عام لأصناف الدلالة عند الأصوليين على غرار الشكل 1 للوقوف على درجة التشابه:

et suite 511 -J- R- Searle: Sens et expression, études de théorie des actes de langage, traduction et préface par Joëlle Proust, Les Editions de Minuit, 1992 p

²-Jacques Moeschler/ Anne Anne Reboul. Dictionnaire encyclopédique de pragmatique ; Editions du Seuil 1994 p22-24

³. نقلا عن أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 2، لبنان، 2010، ص 29



ما يلاحظ على الأشكال المقترحة تمييزها بين مستويات فعل الكلام، من حيث التجلي والخفاء؛ وارتباط كل من المنطوق والمفهوم بشروط التلفظ.

وما يعيننا في المقام الأول التعامل الأصولي مع الخطاب الديني، ومن الواضح أنهم قد أولوا قضية ارتباط اللفظ بالمعنى اهتماما كبيرا، فميزوا بين المعنى اللغوي المستفاد من التركيب والمعنى الكلي المستنتج بإعماله السياق . وعلى هذا الأساس فلا اعتبار للكلام إلا بمراعاة السياق الوارد فيه .

مفهوم الكلام عند الأصوليين

يظهر التوجه التداولي عند علمائنا في عدّهم الكلام مرادفا للخطاب كونه "يشترط القصد في الكلام عند سيوييه والجمهور ، فلا يسمى ما نطق به النائم والساهي وما تحكيه الحيوانات المتعلّمة كلاما ..والكلام النفسي لا بدّ وأن يكون مع قصد الخطاب: إما مع النفس أو مع الغير، والعلم لا يكون فيه قصد الخطاب ولو كان لصار كلاما ..والكلام في العرف هو صوت مقطوع مفهوم يخرج من الفم لا تدخل فيه القراءة والتسبيح في الصلاة أو خارجها لأنه يسمى قارئاً ولا يسمى متكلماً ..وكذا قراءة الكتب ظاهراً وباطناً .. والكلام المعهود هو المفهم المفيد المحصل للمقصود، والكلام ما تضمّن الإسناد الأصلي وكان مقصوداً لذاته..¹ أي إن الكلام من حيث ارتباطه بقيد الإفادة يجعله دالاً على معنى يحسن السكوت عليه ، فالإسناد الأصلي المتكون من مبتدأ وخبر في الجملة الاسمية يعدّ كلاماً لتوفر القيود الآتية: قصد الخطاب سواء أكان مع النفس أم مع الغير ، و الإفهام ، وحصول الفائدة .

فيترتّب عن هذا التصوّر أن المراد من هذه القيود أو الشروط خلو الكلام من اللغو وتوخي الفائدة .

وقد أكّد صاحب الكليات هذه الاشتراطات بوصفه الكلام ب "المعهود" أي المتعارف عليه طلباً للتواصل الناجح، يقول : الكلام المعهود " هو المفهم المفيد المحصل للمقصود"² وهو بهذا ينقسم إلى خبر وإنشاء و" سمي الخبر خبراً لأنه يتضمن قضية إخبارية وهو إخبار عن أمر خارجي وبهذا تحتتمل الصدق كما تحتتمل الكذب بالنسبة إلى هذا المرجع "

¹ أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي: الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، ت عدنان درويش، محمد المصري ، دار الرسالة ط 1 ، 1998 ص 57

² المصدر نفسه ص 75

و بناء عليه، يكون الإنشاء طلب إنشاء أو إيقاع النسبة الخارجية، باعتباره تنجيز معنى لا يتحقق إلا بتنفيذ المطلوب كما ميّز الأصوليون بين الإنشاء الطلبي و الإنشاء غير الطلبي فعَدّوا الأول تنجيزاً لمعنى بينما الثاني فعلاً تنجيزياً*، حيث إن الأول يرتبط بالتنفيذ سواء أكان المنفذ المتكلم أو المخاطب أي هو معلق بإيقاع التنفيذ في حين يقترن الثاني بتلفظه. وعلى هذا النحو يكون الأصوليون قد سبقوا فلاسفة اللغة في أوكسفورد المؤسسون لنظرية الأفعال الكلامية في اهتدائهم إلى مفهوم فعل الكلام و اشتراطهم المقتضى في الخبر والإنشاء وساواها بينهما في الأهمية بل جعلوه شرطاً لاستقامة الكلام، وإلا كان خالياً من الفائدة والمثال التطبيقي الذي نركن إليه تمييز ابن دقيق (625 . 702) بين فعلين تنجيزيين وهما فعل الطلاق والنذر وما يوحدهما من مقتضى الملك في الفعلين في قوله: "التصرفات الواقعة قبل الملك للشيء على وجهين: أحدهما: تصرفات التنجيز كما لو أعتق عبد غيره أو باعه أو نذر نذراً متعلقاً به . فهذه تصرفات لاغية اتفاقاً .."¹ وهو مثال يشبه المثال الذي ساقه أوستين في إطار سعيه إلى إلغاء الحدود الفاصلة بين الملفوظ الخبري والملفوظ الإنشائي: "إذا صحَّ شخص أنَّ ملك فرنسا الحالي أصلع فإنَّ الإشكال لا يتعلّق بما إذا كان فعلاً أصلعاً" بل في كون هذا الإخبار لاغياً تماماً كقولي أبيعك شيئاً لا أملكه أو احترق فلم يعد موجوداً، وعليه تكون العقود لاغية لأن الأغراض المرتبطة بها لا وجود لها، فيختفي بذلك المرجع ويسود الغموض"². إن الممارسة النصية لابن دقيق تبيّن لنا بما لا يدع مجالاً للاعتراض أنّ مفهومه للكلام لا يمكن أن يستقلّ عن سياقه فلا اعتبار للكلام من دون سياق، إذ لا يمكن للمقاصد أن تنكشف إلا في إطار عملية التلفظ ومن ثمة التوصل إلى استنباط الحكم الشرعي الصحيح.

أنواع القرينة في الدرس الأصولي :

تعدّ القرينة عند الأصوليين . كما هو الحال عند التداوليين أداة إجرائية لا يمكن الاستغناء عنها كما سبق ذكره، إذ على أساسها قامت ثنائيات الحقيقة/المجاز، والدلالة الأصلية / الدلالة التبعية، والمعنى الإفرادي / المعنى التركيبي و المنطوق والمفهوم إلى غير ذلك من أصناف الدلالة.

ومن الكتب الهامة التي صرّحت بأهمية السياق والقرينة الإجرائية في فقه الخطاب كتاب إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ، حيث كان البعد التداولي حاضراً بقوة فيه ، كان صاحبه حريصاً على لفت أنظار الأصوليين والمفسرين إليه واصفاً إياه بـ"القاعدة" التي يُعول عليها قبل أي قراءة تأويلية في أكثر من موضع في مؤلفه الأصولي " ..أما السياق والقرائن : فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه. وهي المرشدة إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات. فاضبط هذه القاعدة، فإنها مفيدة في مواضع لا تحصى"³ كان "ابن دقيق" من أكثر الأصوليين تنبهاً إلى وجوب الاحتكام إلى سياق الخطاب لتحديد المراد فهناك مقام يطلق فيه العام ويراد به الخاص كما قد يوجد مقام يطلق فيه الخاص ويراد به العام، على عادة العرب في مخاطباتهم، يقول: " وإنما ننبه فيها على شيء رأيت بعضهم يغلط بسببه، وذلك أن السؤال والجواب قد يكون اتساقهما وسياقهما مقتضياً للتخصيص وقد لا يكون، فإن كان الأول اقتضى ذلك التخصيص، لأن السياق ميّن للمجملات، مرجح لبعض المحتملات، مؤكداً للواضحات .."⁴، ويقول في موضع آخر: " ويجب أن تنتبه للفرق بين دلالة السياق والقرائن الدالة على تخصيص العام، وعلى مراد المتكلم، وبين مجرد ورود العام

* يجب التنبيه هنا إلى أن استقرار الأصوليين على مصطلح التنجيز لوصف أفعال العقود والفسوخ يتطابق مع المنجز التداولي على مستوى المصطلح والمفهوم وإن كان المعالجة الأصولية لهما كانت أدق .

¹ تقي الدين ابن دقيق العيد : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ص 282

J . LAUSTIN : Quand dire ,c'est faire , Edition du Seuil 1970 :p142²

³ تقي الدين ابن دقيق العيد : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تع أحمد محمد شاكر ، مكتبة السنة، 1994، ص 405

⁴ تقي الدين ابن دقيق العيد : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ص 273

على سبب، ولا تجريهما مجرى واحدا.¹ " وقد تناول الإمام الشوكاني في إرشاد الفحول هذه المسألة بدقة أكبر، حيث ذهب إلى أن العموم يخصّص بالسياق مستشهدا بما أورده ابن دقيق في شرح الإمام، بما يورث بأنه ينتهج منهجه: " نص بعض الأكابر من الأصوليين أن العموم يخصّ بالقرائن القاضية بالتخصيص، قال: ويشهد له مخاطبات الناس بعضهم بعضا، حيث يقطعون في بعض المخاطبات بعدم العموم، بناء على القرينة، و الشرع يخاطب الناس بحسب تعارفهم"² وهو إذ يجيز تخصيص العام بالسياق، فإنه يشير إلى أن حضور القرينة هي الموجهة لهذا الحمل ولا يخفى ما في هذا من عدول عن الحقيقة إلى المجاز كون " العام الذي أريد به الخصوص، هو ما كان مصحوبا بالقرينة عند التكلم به على إرادة المتكلم به بعض ما يتناوله بعمومه. وهذا لا شك في كونه مجازا، لا حقيقة؛ لأنه استعمال اللفظ في بعض ما وضع له، سواء كان المراد منه أكثره، أو أقله"³ وهو ما بحث في إطار الحقيقة والمجاز.

ثنائية المعنى الحقيقي والمعنى المجازي

من أهم المباحث التي نبّه إليها الخطاب الأصولي مبحث الحقيقة والمجاز، ذلك أن الأصل الكلام على الحقيقة، غير أنّ واقع التخاطب يشهد بخرق هذا الأصل التخاطبي الذي لا يبتعد كثيرا عن قوانين الخطاب التي أنشأها غرايس بمبادئه (حكمه) المثالية الأربعة ممثلة في مبدأ التعاون .

وقد عرض الإمام السرخسي في أصوله خمسة ضوابط يتم بموجبها ترك الحقيقة واعتبار المجاز عند الحمل وهي مرتبة كالآتي:

● **دلالة الاستعمال عرفا:** والمقصود به الحقيقة العرفية والحقيقة الشرعية؛ حيث " تترك الحقيقة بدلالة الاستعمال عرفا؛ لأن الكلام موضوع للإفهام والمطلوب به ما تسبق إليه الأوهام، فإذا تعارف الناس استعماله لشيء عينا كان ذلك بحكم الاستعمال كالحقيقة فيه وما سوى ذلك . لانعدام العرف . كالمهجور لا يتناوله إلا بقرينة؛ ..وبيان هذا في اسم الصلاة فإنها للدعاء حقيقة..وهي مجاز للعبادة المشروعة بأركانها."⁴

● **دلالة اللفظ:** وهو يشترك مع الأول من حيث انتشار الدلالة العرفية، غير أنه أخص من الأول، فإذا كان لفظ الصلاة مثلا يطلق في عرف الشرع على العبادة ذات الأقوال والأفعال المخصوصة فإنه عند إطلاقه لا ينصرف فهم السامع إلى صلاة الجنائز إذا قال المتكلم أنا ذاهب للصلاة لأن دلالة اللفظ الأخير " قاصر فيما يتناوله مطلق اسم الصلاة من حيث إنه لا يذكر إلا بالقرينة، فلا يتناوله الاسم بدون القرينة"⁵ وتأتي أهمية هذا الضابط عند إرادة استخراج الحكم الشرعي فيما إذا حلف شخص " أن لا يأكل لحما فأكل لحم السمك أو الجراد لم يحنث في يمينه؛ لأنه أطلق اللحم في لفظه و لحم السمك أو الجراد لا يذكر إلا بقرينة فكان قاصرا فيما يتناوله اسم مطلق للحم"⁶

● **سياق النظم:** وقد سبقت الإشارة إليه في حديثنا عن أنواع القرينة، والمقصود به مراعاة العناصر السياقية التي تسبق وتلي الفعل الكلامي وهو يقابل المعنى التركيبي عند الشاطبي حيث المعتبر عند التخاطب المعنى ككل ف" في قوله تعالى: فمن شاء فليؤمن

1. المصدر نفسه: ص 405

2. محمد بن علي الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ج2 ص701

3. المصدر نفسه: ص 613

4. أحمد بن أبي سهل السرخسي: أصول السرخسي، ج 1، ص 190.

5. المصدر نفسه ج 1 ص 191

6. المصدر نفسه ص 191

ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا" فإن سياق النظم يتبين أن المراد هو الزجر والتوبيخ دون الأمر والتخيير.. ولو قال لغيره لي عليك درهم فقال الآخر لك علي ألف درهم ما أبعدك من ذلك ، لم يكن إقرارا. فعرفنا أنه بدليل سياق النظم تترك الحقيقة¹:

• دلالة من وصف المتكلم: و المقصود به المعرفة القبلية بصفات المتكلم ف"في قوله تعالى: واستفز من استطعت منهم بصوتك" فإن كل واحد يعلم بأنه ليس بأمر لأنه لا يجوز أن يظن ظان بأن الله تعالى يأمر بالكفر بحال، فتبين بأن المراد الإقذار والإمكان لعلمنا أن ما يأتي به اللعين يكون بإقذار الله تعالى عليه إياه²

• من محل الكلام: حيث يهتدي المتلقي بموضوع الخطاب في كليته لينتقي الدلالة المقصودة إذا كان اللفظ عاما ف"في قوله تعالى: وما يستوي الأعمى والبصير" فإن بدلالة محل الكلام يعلم أنه ليس المراد نفي المساواة بينهما على العموم بل فيما يرجع إلى البصر فقط.³

ومن أكثر التعاريف المتقدمة وضوحا التي وقفت عليها لمفهوم القرينة المرجحة لأحد الاحتمالين فيما لم تتضح دلالته تعريف التلمساني، فقد عرفها تعريفا بالتقسيم فحصرها في ثلاثة أنواع:

1) القرينة اللفظية: ويتعلق الأمر ههنا بالخطاب المتضمن لفظا مشتركا في المعنى المفرد وهو ما اتفق لفظه واختلف معناه ، غير أن من هذه الألفاظ ما خالف عرف اللغة بينهما في الجمع فيصبح بهذا الجمع قرينة هادية للقصد "والجمع قد يختلف باختلاف المعاني ، وإن كان اللفظ المفرد مشتركا ، ألا ترى أن العود مشترك بين الخشبة وجمعه إذ ذاك أعواد وبين آلة الغناء وجمعه إذ ذاك عيدان..⁴ وعلى أساس هذه القرينة اللفظية حملت كلمة قروء الواردة في قوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء" (البقرة م 228) على الطهر لا الحيض كون لفظ القراء تجمع على قروء للدلالة على الطهر وعلى أقراء للدلالة على الحيض

القرينة السياقية: وتعرف كذلك بالقرينة المقالية ، حيث غلب عليها استعمال لفظ سياق أو مساق أو نظم في كتب علم الأصول ، وقصدوا بها العناصر النصية التي تسبق أو تلي اللفظ، وهنا نجدنا منقادين إلى الحديث عن مراعاة نظم الخطاب (فعل الخطاب العام) الذي انبثقت عنه نظرية النظم واستوت على أيدي اللغويين نظرية متماسكة في اتساق النص وانسجامه؛ ذلك أن رسوم النظم كما يقول الخطابي (388 هـ) " فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني و به تنتظم أجزاء الكلام و يلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكّل بها البيان"⁵

2) القرينة الحالية، يقول التلمساني " والقرائن الحالية قريبة من السياقية وهي لا تنضبط "⁶ وقد غلب لفظ القرينة بإطلاق اللفظ. على هذه القرائن و قصدوا بها مقام التلفظ. أو سياق الموقف ولعلّ انتباه التلمساني إلى أنها قريبة من السياقية إشارة إلى كون كل منهما يحتاج إلى مراعاة القصد العام من الخطاب والاستدلال البلاغي وكلاهما مرهون بحذق المؤول بتعبير الخطابي للوصول إلى المعنى الراجح وهو ما لا تتيحه القراءة السطحية الظاهرية.

وقد كان ابن دقيق من أوائل من صرّحوا بأهمية التمييز بين فعل الكلام الجزئي وفعل الخطاب العام بتعبير أوستين في جملة تنبيهاته التوجيهية المؤسسة للقواعد الأصولية ، فقد أكد أن المعبر في الخطاب هو القصد العام ؛ ف" فهم مقاصد الكلام نافع

1. المصدر نفسه: ص 192

2. المصدر نفسه: ص 193

3. المصدر نفسه: ص 194

4. أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي التلمساني: (771.710هـ) مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ، مؤسسة الريان، ط 1 ، لبنان ، 1998 ص 454

5. أبو سليمان حمد الخطابي: بيان إعجاز القرآن في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ، ت محمد خلف

الله ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ط 3، مصر 1976 ، ص 36

6. المصدر نفسه ص 456

بالنسبة إلى النظر، وللأصوليين في أصل هذا الكلام بحث، ولم يُنبه على هذا حق التنبيه أعني اعتبار مقاصد الكلام.. وهو عندي قاعدة صحيحة نافعة للناظر في نفسه..¹ إن نص ابن دقيق وإن كان يلح على أعمال هذه القاعدة في استخراج الأحكام، فإنه يشير ضمناً إلى أنه لم يكن أول من احتكم إليها، فقد سبقه إليها آخرون ومن بينهم الغزالي بأزيد من قرن غير أن العمل بها (أي القاعدة) لم يكن متداولاً بالشكل المطلوب وكمثال عن هذا التوجيه السياقي الاختلاف الحاصل بين الفقهاء الخاص بصحة عقد البيع الواقع في وقت صلاة الجمعة أو بطلانه؛ فقد ورد في شفاء الغليل للغزالي قاعدة: "النهي عما يمنع من الواجب، تنبيهاً على أن تحريمه لكونه مانعاً من الواجب كقوله تعالى: فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ فإنه أوجب السعي، والتعريض على البيع مانع، فكان تحريمه لكونه مانعاً، فلا جرم انعقد البيع وفارق البيع المنهي عنه لعينه، فإن قيل: وبم عرف هذا، وهلاً قيل: السعي إلى الجمعة مقصود بالإيجاب، والمنع من البيع أيضاً مقصود؟ قيل: فهم ذلك من سياق الآية فهما لا يتمارى فيه، فإن قيل: "السياق عبارة مجملة، فما معنى السياق؟ وما مستند هذا الفهم؟" قلنا: المعنى به: أن هذه الآية في سورة الجمعة إنما نزلت وسيقت لمقصد وهو بيان الجمعة، قال تعالى: يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا... ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ [سورة الجمعة: 9]، وما نزلت الآية لبيان أحكام البياعات ما يحل منها وما يحرم، فالتعرض للبيع. لأمر يرجع إلى البيع في سياق هذا الكلام. يخبط الكلام ويخرجه عن مقصوده، ويصرفه إلى ما ليس مقصوداً به"²، ويمكن إدراج عناصر الدلالة الحالية في العناصر الآتية:

1) استحضار مناسبة الخطاب:

ومن أهم عناصر القرينة الحالية مراعاة المناسبة التي سيق لأجلها أو في إطارها الخطاب. لهذا لم يغفل الأصوليون دراسة أسباب نزول بعض آيات القرآن الكريم والوقائع التي سيقت لأجلها الأحاديث النبوية لما لها من أهمية في الكشف عن المقصود الأصلي من الخطاب، ولذا كثر التنبيه في كتب الأصول إلى ضرورة مراعاة المفسر والفقهاء لأسباب النزول باعتبارها قرينة هادية لقصد الشارع لأن "بيان سبب النزول: طريق قوي في فهم معاني كتاب الله العزيز، وهو أمر يحصل للصحابة بقرائن تحف بالقضايا"³ وما يدل على اهتمامهم بأسباب النزول استحداث علم المناسبة وكثرة المؤلفات في هذا العلم بغية فقه الخطاب الديني مثل العُجاب في بيان الأسباب لابن حجر ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي وأسباب النزول للمديني وأسباب النزول للواحد وغيرها..

وقد أشار الغزالي إلى إجرائية المناسبة و الدور الحاسم الذي تؤديه في استنباط الحكم من خلال تتبعها في الصيغة التي يأتي وفقها الحديث؛ ذلك أنه من خصائص المناسبة أنها ظرفية وغير لغوية؛ مما يعرضها للتغيب إذا لم تسجل لغويا، الأمر الذي يصعب الوصول إلى الحمل السليم، ومن ثم فهي "تنتهز قرينة للمشاهد الحاضر.. فمن شاهد الحال يُحكم عقله وذهنه، وإنما النظر فينا، فإننا نعتصم بالمنقول والقرائن لا تنقل ومع هذا فيجوز التعلق بمثل هذه الواقعة في التعليل لأن الراوي شاهد الحال وعرفه، فإذا روى لنا: "أن أعرابياً قال: هلكت وأهلكت، واقعت أهلي في نهار رمضان، فقال عليه السلام: أعتق رقبة، ففهم من أنه فهم الجواب، إذ نقله بهذه الصيغة وهو ترتيب كلامه على كلامه بفاء التعقيب (...). أشعر قوله "فقال" أنه قال جواباً فهمه بقرينة الحال، فصار كما قال الراوي: فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال كقر ولو نقل صريح الجواب لفهم التعليل، فإذا قال:

¹ تقي الدين ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ص 644

² شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل: أبو حامد الغزالي ص ص 51.50

³ تقي الدين ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ص 643

"فقال كفر" نبه على أن ما ذكره جواب .. فإن المناسبة إذا انتهت قرينة¹؛ ولا يخفى ما لهذه المناسبة وأمثالها من تأثير في بيان رتبة التعليل من حيث علاقة الفعل بالحكم الذي يليه مباشرة، "إذ الغلام المنصوب لإسراج الدابة قد يقول لسيدته: دخل فلان، فيقول السيد: أسرج الدابة، أي انشغل بشغلك؟ فما لك وذكر ما لا فائدة لك في ذكره، وليس من شغلك؟ وذلك يفهم منه بقرينة الحال فبقرينة الحال يعلم أن المذكور مُسبب ما ذكره المبتدي. وقد تكون المناسبة قرينة ظاهرة². إن ما ينبه إليه الغزالي في هذا المثال هو القوة المتضمنة في الفعل الكلامي الذي يتوصل إليه المتلقي مسترشدا بالقرينة، حيث يؤدي غيابها (أي مناسبة إطلاق السيد للملفوظ الطلي) إلى فهم جواب السيد أنه مجرد أمر للغلام بإسراج الدابة، بخلاف ما هو المقصود عند اعتبار القرينة وهو النهي عن التدخل في ما لا يعنيه. وهذا التحليل الأصولي يتطابق مع الفعل الإنجازي المباشر (الصريح) والفعل الإنجازي غير المباشر (المتضمن) عند مؤسسي نظرية أفعال الكلام.

القرينة الخارجية: جاء في المفتاح "وهي موافقة أحد المعنيين لدليل منفصل من نص أو قياس أو عمل"³ ومن الواضح أن الحديث هنا عن القراءة الكلية للنص الشرعي، حيث ينظر إليه بوصفه نصا موسعا تعضد نصوصه بعضها البعض في إطار انسجام الخطاب واتساقه، فباستثناء دليل العمل الذي يخرج عن إطار النشاط اللغوي ويرتبط أكثر بالسنة الفعلية، فإن اللجوء إلى القياس قياس التمثيل باعتباره قرينة خارجية توصل إلى الحمل الصحيح وأداة لاستنباط الأحكام حيث يؤمن أمر "انتقال الذهن من حكم معين إلى حكم معين لاشترائهما في ذلك المعنى المشترك الكلي"⁴ وهو بهذا مثله مثل القرائن الأخرى في الترجيح و لخصوصيته في تداولية غرايس ودوكرو نخصه بنوع من التوسيع.

قياس التمثيل (الاستلزام الحوارية):

لئن رفض السيوطي القياس المنطقي لتنافره مع العقل العربي والثقافة الإسلامية، فإنه كشف عن الأهمية الإجرائية لقياس التمثيل لأنه ليس إلا صورة من صور التفكير السليم القائم على الدربة العقلية التي تنمو مقترنة بتعلم اللغة بشكل طبيعي، لذا ف "إن صورة (القياس) إذا كانت مواده معلومة لا ريب أنه يفيد اليقين إذا قيل كل أ ب وكل ب ج وكانت المقدمتان معلومتين فلا ريب أن هذا التأليف يفيد العلم بأن كل أ ج ... والفطرة تتصور القياس الصحيح من غير تعليم. وإن الناس بفطرتهم يتكلمون بالأنواع الثلاثة: التداخل، والتلازم و التقسيم .."⁵ وما يعضد هذا المنع التداولي. الحجاجي في الممارسة النصية التراثية قول ابن دقيق الذي يمنح النشاط التأويلي بجميع آلياته مكانته الصحيحة: "وبالجملة فما لنا طريق إلى إثبات الأحكام إلا نصوص تدل عليها، أو قياس على المنصوص عند القياسيين، ومن شرط ذلك: أن يكون الأصل المقيس عليه حكما. أما ما كان فعلا لله تعالى فلا. وهذا ظاهر جدا"⁶ وقد أدت طبيعة القراءة إلى نعت المهملين للسياق والقرينة بالظاهرية، حيث يكتفون بظاهر النص وهو الأمر الذي قد يعرض فهمهم للنصوص إلى الحمل غير السليم لقد كان منهج ابن دقيق واضحاً وصارماً في ذات الوقت، ذلك أن تكراره لقوة السياق والقرينة لدى ممارسته النصية يجعل منه "قاعدة" بالمفهوم الأصولي لها، من حيث "هي الأساس والأصل لما فوقها، وهي تجمع فروعا من أبواب شتى"⁷، و الأصولي وفق هذا القيد مطالب بتفعيلها في فعله الاستدلالي والاستنباطي للوصول إلى القصد.

¹ أبو حامد الغزالي: شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل (505.450) تح حمد الكبيسي، مطبعة الإرشاد بغداد 1981 ص 35-36.

² المصدر نفسه: ص 33

³ أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي التلمساني: (771.710هـ) مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 456

⁴ صون المنطق والكلام عن فتي المنطق والكلام، تح علي سامي النشار، سعاد علي عبد الرازق، سلسلة إحياء التراث الإسلامي ج 2، ص 4648 www.moswarat.com

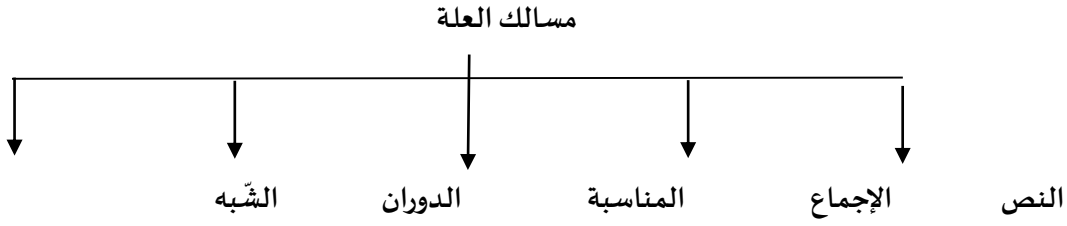
⁵ جلال الدين السيوطي صون المنطق والكلام عن فتي المنطق والكلام، تح علي سامي النشار، سعاد علي عبد الرازق، سلسلة إحياء التراث الإسلامي ج 2، ص 135-136.

www.moswarat.com

⁶ تقي الدين ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ص 281

⁷ أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي: الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ت عدنان درويش، محمد المصري، دار الرسالة ط 1، 1998 ص 278

وشاهدنا على ذلك على سبيل الاستئناس دراستهم لمسالك العلة " التي " هي الأدلة الدالة على أنّ الوصف علة في الحكم"¹ حيث أوصلهم اجتهادهم إلى حصرها في خمسة



ولأن المقام لا يسمح بالإسهاب والتوسع في البحث ، فإننا نكتفي بالمسلك الأول لعلاقته المباشرة مع نظرية الأفعال اللغوية خاصة مع مقترحات غرايس وارتباطه بتعريف الفعل الكلامي والقوة المتضمنة في القول، حيث عرّف التلمساني هذا المسلك بالآتي: " النص، وهو قسمان : صريح وإيماء فالصريح أن يأتي الشارع بصيغة العلة كقوله سبحانه " كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم" ...وأما الإيماء: فهو مراتب: أن يذكر صلى الله عليه وسلم مع الحكم وصفا يبعد أن يأتي به لغير التعليل .. ومنه الاستنطاق : وهي المرتبة الثانية: بوصف يعلمه خاليا من التنازع ليرتب عليه الجواب، ولو لم يكن للتعليل لكان استنطاقه عن وصف يعلمه خاليا على الفائدة. وهذا كما سئل صلى الله عليه وسلم : عن بيع الرطب بالتمر، فقال: أو ينقص الرطب إذا جف؟ قالوا: نعم، قال: فلا إذن."² وقد يكون من المفيد إجرائيا تحليل الشاهد الوارد في النص لتأكيد ما أثبتناه أعلاه وليس المقصود في الشواهد المحللة تقرير المسائل الشرعية وإنما تمثل صورة التحليل التي تتطابق مع الاستلزام الحواري لغرايس كون قياس التمثيل الذي اعتمده جمهور الأصوليين يستمد قوته من الاستدلال اللغوي الذي وصفه السيوطي بالفطري حيث لا ينفصل عن لغة الخطاب اليومي (الحوار) وهو ما دفع غرايس إلى تسميته بالاستلزام الحواري.

فعل الكلام القولي: أ. أو ينقص الرطب إذا جف؟

المحتوى القضوي: ما يفيد الإِسناد

الفعل المتضمن في القول :

1. القوة الإنجازية الصريحة: الاستفهام وترتبط بالبنية السطحية للقول أي استفاد من الصيغة الصريحة للاستفهام (أو هو فعل إنجازي مباشر بتعبير سيرل) دون تفعيل السياق.
 2. القوة الإنجازية المستلزمة أو الإيماء (فعل إنجازي غير مباشر بتعبير سيرل): هي الاستنطاق، لتعليل حكم التحريم ويهتدى إليه بواسطة المقام فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن جاهلا الجواب فالقرينة المقامية تؤكد ذلك؛ فهو منهم ويقاسمهم الخلفية المعرفية نفسها، فيكون فعل الاستفهام الصريح غير مقصود والفعل المتضمن ممثلا في الاستنطاق هو الفعل المقصود لإثبات علة حكم التحريم . وهو ما يقابل الاستلزام الحواري المعتم بمصطلح غرايس .
- تحيلنا هذه القاعدة إلى ثنائية المعنى الأصلي والمعنى التبعية التي ناقشها الشاطبي في الموافقات، حيث يقصد بالأول ما سيق لأجله الخطاب ابتداء، ويقصد بالثاني الدلالة الإضافية المستفادة من الخطاب زيادة على المعنى الأصلي .
- والإشكال الذي طرحه هو: " إذا ثبت أن للكلام من حيث دلالته على المعنى اعتبارين: من جهة دلالته على المعنى الأصلي و من جهة دلالته على المعنى التبعية الذي هو خادم للأصلي، كان من الواجب أن ينظر في الوجه الذي تستفاد منه الأحكام، وهل يختص بجهة

¹. أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي التلمساني: (771.710هـ) مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ، مؤسسة الريان ، ط 1 ، لبنان ، 1998 ص 689

². أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي التلمساني: (771.710هـ) مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ، مؤسسة الريان ، ط 1 ، لبنان ، 1998 ص 690. 694

المعنى الأصلي؟ أو يعم الجهتين معا؟¹ وجملة الحجج التي ساقها للمانعين لم تخرج عن الحجة التي قدمها الغزالي ليحسم المسألة لصالح المانعين مرجحا بذلك حججهم؛ غير أنه صونا لكلام الله من خلوه من الفائدة نبّه إلى أن المعاني التبعية الزائدة وإن لم يترتب عليها أحكام شرعية ف" هي آداب شرعية و تخلقات حسنة، يقر بها كل ذي عقل سليم، فيكون لها اعتبار في الشريعة، .."² وهو بهذا قد منحها بعدا تداوليا تأثيريا يتلاءم مع تقسيم أوستين فعل الكلام إلى ثلاثة مستويات أي فعل الكلام القولى والفعل المتضمن في القول والفعل التأثيري الناتج عن القوة المتضمنة.

بناء على ما تم تقديمه نخلص إلى أن المنهج التي اتبعه الأصوليون في مقاربتهم للخطاب الشرعي (الديني) كان تداوليا في عمومه؛ حيث نظروا إلى اللغة من زاوية الاستعمال وليس الوضع و الذي يقوم شاهدا على هذه الممارسة كثرة الثنائيات التقابلية التي بنوا على أساسها حملهم للنص الشرعي والتي عملنا في هذا البحث على عرض بعضها.

لم ير الأصوليون في النص مستواه السطحي الذي يستفاد من تتابع الجمل، بل كانت نظرتهم إليه باعتباره ملفوظا أي متتالية من الجمل لا يمكن أن تعزل عن سياقها المقالي و المقامي (سياق الموقف) لأن التخاطب كما نصوا عليه غايته الإفهام ومنطلقه القصد، ولا يمكن للمخاطب أن يتوصل إلى قصد المتكلم ما لم تكن لهما كفاءة لغوية وتواصلية.

في ختام هذه الورقة، وبناء على ما أوردناه من نصوص حرصنا على أن تستخرج من مصادرها، يمكننا القول بكثير من الثقة أنّ الحدود الفاصلة بين الممارسة الأصولية للخطاب الشرعي والنظرية التداولية و الحجاجية من حيث التصور لا تكاد تصمد، كون هذه الأخيرة لا تخرج عن هذا الإطار مع وعينا بمقدار التمايز الذي يضيفه التنظير والمنهج من ضبط اصطلاحي للجهاز المفاهيمي

وتأسيسا على ما ذكر أعلاه نخلص إلى صياغة التوصيات الآتية:

✓ ضرورة توسيع دائرة قراءة كتب التراث وقراءتها قراءة استقصائية شاملة، وهذا يتجاوز ما هو مطروق صونا للجهد وتحقيقا للفائدة.

✓ الاستفادة من جهود العلماء الأوائل الذين برزوا في القرون الوسطى الهجرية للنهوض بالحركة النقدية واللسانية بالاستناد إلى منجز أصيل نابع من صميم الثقافة العربية الإسلامية و ليس وافدا دخيلا.

✓ إحياء المصطلحات العربية التراثية و انتقاء ما هو الأنسب من الحقل المعرفي التراثي عند الترجمة .

✓ بتفعيل المنهج التداولي الأصولي بقدر الإمكان في تحليل الخطاب الأدبي، كونه يتوفر على أدوات إجرائية صالحة لأن تطبق على الخطاب عموما خاصة فيما يتعلق بالدلالة الأصلية والتبعية وأنواع المقاصد والمنطوق والمفهوم وتعميمها على أنواع الخطاب بما يكون مناسبا .

مصادر البحث

(1) أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي: الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، ت عدنان درويش، محمد المصري ، دار الرسالة ط 1، 1998

(2) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي: الموافقات تح مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، 1997

(3) أبو حامد الغزالي: شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل (505.450) تح حمد الكبيسي ، مطبعة الإرشاد بغداد 1981

1. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي: الموافقات، ج 2، ص 151

2. المصدر نفسه: ج 2، ص 163

- 4) أحمد بن أبي سهل السرخسي: أصول السرخسي، ت أبو الوفا الأفغاني، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1993
- 5) أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي التلمساني: (771.710هـ) مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ، مؤسسة الريان ، ط 1 ، لبنان ، 1998
- 6) أبو سليمان حمد الخطابي : بيان إعجاز القرآن في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ، ت محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ط 3 ، مصر 1976
- 7) جلال الدين السيوطي: صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام ، تح علي سامي النشار ، سعاد علي عبد الرازق، سلسلة إحياء التراث الإسلامي ج 2 ، ص 4648 www . moswarat.com
- 8) تقي الدين ابن دقيق العيد : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تح أحمد محمد شاكر ، مكتبة السنة، 1994.
- 9) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: المقدمة ، دار الكتاب العربي 2008
- 10) فخر الدين الرازي : المحصول في علم الأصول ، ت محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ط 1 1999
- 11) محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة تح خالد السبع العلمي /زهير شفيق الكبيّ دار الكتاب العربي، بيروت 2008
- 12) محمد بن علي الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، تح أبو حفص سامي بن العربي الأثري، عبد الله بن عبد الرحمن السعد و سعد بن ناصر الشثري، دار الفضيلة الطبعة الأولى 2000

المراجع

أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية مدخل نظري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط 2 ، لبنان، 2010

J . L.AUSTIN : Quand dire ,c 'est faire , Editione du Seuil1970 :p151 et suite¹

¹ -J- R- Searle: Sens et expression, études de théorie des actes de langage, traduction et préface par Joëlle et suite51Proust, Les Editions de Minuit, 1992 p

¹ -Jacques Moeschler/ Anne Anne Reboul . Dictionnaire encyclopédique de pragmatique ; Editions du Seul 1994 p22-24

آليات الإنتاج المعرفي والاستقصائي في التراث النقدي العربي

د. كمال بن عطية

جامعة الجلفة - الجزائر

ملخص :

تحاول هذه الدراسة أن تستعرض الآليات وطرائق التفكير التي قامت عليها الجهود النقدية في تراثنا العربي، وأن تبحث في الأطر الاجتماعية والبواعث الدينية واللغوية والبلاغية والأدبية التي أدت إلى تكوين ما يمكننا أن نسميه بالنظرية النقدية العربية التي تناولت القرآن الكريم والنص النبوي الشريف والمنجز الشعري والخطابة آنذاك. وقد كان لمسألة التعليل اللغوي و تحقيق النصوص وقضية الصراع بين القديم والحديث والجانب البلاغي والحس الجمالي، الحيز الأكبر من المدارس والتنظير والتدقيق في تراثنا العربي الذي أسس فعلا لمشهد علمي نحتمى به اليوم وغدا، ونستعيد من خلاله ذواتنا المعرفية في سبيل مواجهة واقنا المعرفي المتسم بالتبعية للآخر في كل مناحي حياتنا.

كلمات مفتاحية :

التراث، النقد، الأطر، اللغة، البلاغة، التحليل، النظرية، الإعجاز، الشعر، الخطابة.

English summary:

This study attempts to review the mechanisms and methods of thinking that underpin the monetary efforts in our Arab heritage and to examine the social frameworks and religious, linguistic, rhetorical and literary motivations that led to the formation of what we can call the Arab monetary theory which studied the Koran, text of the Prophet. Time, the question of linguistic reasoning and the production of texts and the question of the conflict between the old and the modern and the rhetorical and aesthetic sense, constitute the essence of the study, the theorization and the control of our Arab heritage, which actually created a scientific scene celebrated today and tomorrow, and restored. Through which the knowledge of ourselves to cope and Aguenta cognitive excellence by extension, the other at all levels of our lives.

Keywords:

Heritage, criticism, language, rhetoric, analysis, theory, miracles, poetry, rhetoric.

توطئة :

استطاع النقد العربي القديم، أن يحقق تأسيسا نظريا وتقعيدا شموليا لمجموعة من القضايا والظواهر التي كانت المنجز الشعري آنذاك، متجها بخطا ثابتة نحو إنتاج صيغة علمية للنقد، انطلاقا من رؤية داخلية مراعية للخصوصية الثقافية العربية ولسياقاتها التاريخية وتشكلها الحضاري « عرف النقد في العصر العباسي نقلة نوعية في جوهر النقد بانتقاله من الغنائية إلى الموضوعية، ومن التأثير إلى التعليل، أو من التأثير دون التعليل إلى التعليل والتأثر وقد حاول بعض النقاد أن يجعلوا من النقد علما، كابن سلام في طبقاته وابن المعتز في بديعه وقدامة في نقده، والأمدي في موازنته والجرجاني في وساطته¹، محاولا بذلك استنباط مجموعة من القوانين المجردة والصارمة في كثير من الأحيان، التي تحكم الخطاب الشعري، بغية سبر أغواره والوقوف على مكانه الدلالية ومما - مثلا - " عمود الشعر " بالرغم مما قيل فيه، إلا دليل واضح على تلك الصرامة

1 - عصام قصبجي، أصول النقد العربي القديم، منشورات جامعة حلب، 1991، سورية، ص30

النقدية والمنهجية « فقد كان عندهم يشبه عمود الدين ، والحياد عنه بدعة أو ضلال ينبغي أن يتناول بكراهة ، والتي تبلغ أحيانا حدَّ التحريم »¹.

ساير هذا الالتفاف حول الذات العربية . رافد شكل حضورا قويا داخل التراث النقدي العربي، متمثلا في استقبال الفكر اليوناني عموما والأرسطي خصوصا ، مما ولد أو دفع إلى إعادة النظر في العديد من القضايا والمفاهيم والمصطلحات، وقد اعتبر حازم القرطاجني ممثلا لهذا الفكر الوافد أحسن تمثيل . هذا الاستقبال في مدونة النقد العربي القديم ، لم يكن أبدا من باب التسليم والانهار المعرفي بالفكر اليوناني والنزوع إلى الاعتماد على جاهزيته ، أو بدعوى التجاوز والاستغناء ، بل اعتبر هذا الاستقبال كظاهرة صحية ، لاستكمال الصرح المعرفي الذي تبناه المشروع النقدي العربي القديم ، " إن التأثر بالفكر اليوناني ونقله إلى العربية في فترة كانت منابع ذلك الفكر مجهولة ومعطلة في عصور أوروبا المظلمة ، يحسب للعقل العربي لا عليه ... بل إن تأثر البعض لإنتاج الفكر اليوناني عامة و أفكار أرسطو بصفة خاصة ، دفع البلاغين العرب ، ليس بالضرورة إلى رفض التأثير اليوناني ، بل إلى مقاومته بإنتاج بديل عربي ... ومن ثم تحركوا في إنتاج نظرية شعر عربية"².

المؤسسة التراثية وإنتاج المعرفة :

نقصد بالمؤسسة التراثية تحت هذا العنوان ، الأطر الاجتماعية والسياسية المدعمة للإنتاج المعرفي ، ابتداء بالبواعث الفردية من نقد فردي موجه من شاعر إلى آخر وبواعث قبلية تمثلت فيتعصب كل قبيلة لشاعرها أو شعرائها ، كما أنها بواعث اجتماعية ، فرضها الواقع الاجتماعي لمجموعة من القبائل ، التي تجمعها عادات وتقاليد تكاد تكون واحدة . وكما هو معلوم أن للبيئة الجاهلية أثر في نشوء النقد ، فالمجتمع القبلي بعاداته وتقاليد ينشط العداء بين القبائل ويكثر النزاع والتناحر والتنافس ، ويصبح الهجاء والفخر عاملين أساسيين في نشاط النقد ، إذ تنشأ أحكام نقدية تقوم على المفاضلة والموازنة بين شعر الشعارين وأي الشعارين أقوى وأيه أكثر وأكثر ايلاما للخصم³.

وبجانب هذه البواعث الفردية والقبلية والاجتماعية ، كانت هناك بواعث فنية منها : التنبيه إلى الإقواء الذي يعد آخر الأخطاء التي وقع فيها الجاهليون . والتنبيه له يعد أولى خطوات النقد الشكلي . وهو طور من أطوار تهذيب الشعر ، وتنقيته من بعض أسباب القبح ، والظاهر أن أهل المدن والحضر ، أول من تنبه إلى هذا ، فقد ذكروا أن أهل يثرب ، نهبوا النابغة الذبياني ، حين قدم المدينة على الأوس ، فأنشدتهم من شعره فقالوا له : أنك تكفئ الشعر . وأعلموه ذلك على لسان جاريه غنته شعره . ويقال انه قال : قدمت الحجاز وفي شعري ضعف ، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس . وقد جاءتنا أحكام نقدية فنية موضوعية ، على لسان النابغة الذبياني نفسه ، من حكمه على حسان بن ثابت وغيره.

وقويت نهضة الشعر في القرن الأول للهجرة ، وكان هذا باعنا من بواعث نشوء النقد الأدبي في هذه الحقبة ، لأن مثل هذا الجو المشحون بالعواطف والمشاعر ، يساعد على نهضة الشعر ، تتبعها نهضة في النقد . وساعدت هذا عوامل أخرى منها : تمدد البيئات وتعدد المذاهب ، ولذلك قوي النقد الأدبي ، وتوسع وتناول جوانب أخرى ، وقام نوع آخر منه ، هو النقد اللغوي والنقد النحوي ، نهض به اللغويون والنحويون . وهذا النوع من النقد يقوم على الصلة بين الأدب ، وأصول النحو واللغة والعروض ، مع اشتراك الذوق

¹ - مصطفى ناصف ، قراءة ثانية في شعرنا القديم ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، 1989 ، ليبيا ، ص 41/42.

² - عبد العزيز حمود ، المرايا المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية) ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، أكتوبر ، 2001.

ص 313/314 .

³ - انظر : هند طه حسين، النظرية النقدية عند العرب، دار الرشيد للنشر، دط، العراق، 1981، ص 25.

الفني الذي كان معروفاً في الجاهلية. وكما شجع الرسول، الشعر والشعراء، شجعهم الخلفاء الراشدون أيضاً.¹ وفيما يلي توضيح أكثر لدعامة ما يعرف بالأطر الاجتماعية للمعرفة، إذ احتكمت الجهود النظرية والتطبيقية الكامنة آنذاك داخل المتون النقدية التراثية، إلى العديد من البواعث المشجعة ومنها:

أ- الباعث الاجتماعي والديني²:

بالنسبة للباعث الاجتماعي فقد تمثل في الاحتفاء بالشعراء ونقادهم، فالقبائل العربية كانت تحتفل وتقيم الأفراح عندما يولد لها شاعر، وكانت الأسواق والمجالس العامة ملتقى الخطباء والشعراء للقبول أو الرد وبالتالي المفاضلة والموازنة. أما الباعث الديني، فبعد ظهور الإسلام كان القرآن الكريم باعثاً مهماً من بواعث نشوء النقد الأدبي عند العرب، فقد حظيت النصوص القرآنية بعناية كبيرة وفي وقت مبكر وحظيت الأحاديث النبوية الشريفة باهتمامهم وعنايتهم أيضاً وقد أعتبر فيما بعد الباعث المباشر لنشأة علوم اللغوية كلها، فالقرآن الكريم هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، تلك المعجزة التي تحدى بها الناس وأخرس بها ألسنة المعاندين من قريش. ولهذا فلا عجب أن يعكف المسلمون على دراسة القرآن ويعنون بضبط لغاته وتحليل كلماته، ومعرفة حروفه وعددها، وعدد كلماته وآياته وسوره، وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجدياته.

من البواعث المهمة التي ساعدت على نشوء النقد الأدبي، اختلاف المسلمين في تفسير بعض آيات قرآنية. ومن هذا الخلاف ظهرت لنا آراء وأحكام واجتهادات في صورة مذاهب وفرق، بضرب بعضها بعضاً، في فهم النصوص القرآنية. وهذا الاختلاف برأينا يمكن أن يكون باعثاً من بواعث النقد الأدبي ونشوئه، وذلك للمنافسة الشديدة التي حصلت بين رجال تلك المذاهب والفرق، في فهم نصوص القرآن والحديث، تلك المنافسة التي تؤدي إلى المناقشات والمجادلات، وتؤدي إلى آراء وأحكام معارضة، وربما تؤدي إلى الطعن أحياناً في آراء بعضهم البعض، وكل هذا ما هو إلا نواة وبواعث لنشوء النقد الأدبي.

أ- الباعث اللغوي والنحوي³:

هذا الباعث قديم في النقد، وقد شهد العصر الجاهلي نوعاً من النقد اللغوي، مما يدخل في الصياغة وهو الإقواء، وبه تكون قافية مرفوعة وأخرى مجرورة أو منصوبة، وهو في شعر الإعراب أكثر منه في شعر المولدين، الذين عرفوه عيباً فابتعدوا عنه. ومثل هذا العيب من عيوب القافية الكفاء وهو اختلاف حروف الروي أيضاً لتقارب مخرج بعض الحروف العربية وتشابهها على اللسان مثل السين والصاد والذال والطاء والنون والميم وغيرها.

ومن النقد اللغوي في هذه الفترة، نقد النابغة الذبياني، لحسان بن ثابت. ولا ننسى ما كان لقريش من أثر كبير في تهذيب اللغة. روي حماد الراوية، أن القبائل كانت تعرض عليها أشعارها فتتنظر فيها، وتقبل بعضها وترد بعضها الآخر. وهذا النوع من النقد النقد اللغوي - نهض نهضته على أيدي اللغويين والنحويين. وقد ذكرنا فيما سبق أن النقد الأدبي، في العصر الجاهلي، كان يتسم بروح التذوق الذاتي، دون التعمق إلى فهم الارتباط، بين السبب والمسبب، والعلة والمعلول، ولذلك فقد كان احساساً فردياً، وانطباعات خاصة، كل همها أن تنتبه للبيت في القصيدة، والكلمة في البيت، والجرس الموسيقي في القافية. ثم للواقع الملموس المحسوس. والمعروف أن العلوم العربية، لم تنشأ إلا في الإسلام، فالتحو من وضع أبي الأسود الدؤلي. والعروض من وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي. والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني. والنقد اللغوي مثلاً، في أواخر القرن الأول الهجري، وبدايات القرن

¹ - المرجع نفسه، ص 55/68.

² - المرجع نفسه، ص 51/58.

³ - انظر: هند طه حسين، النظرية النقدية عند العرب، مرجع سابق، ص 79/120.

الثاني الهجري

والذي نراه أن هذه العلوم ، كانت لما بذور في العصر الجاهلي ، وأنها خدمت أو قلت . ثم تجددت بنهضة جميع العلوم وازدهارها ، فهي على هذا علوم محددة وليست مبتكرة . ومع هذا فقد ظل النقد بجميع أنواعه في القرن الأول الهجري ، ناشئاً يافعا . وفي أواخر هذا القرن تبدلت الحال ، وتعمق الناس في نظرتهم إلى النتاج الأدبي، فأخذوا يوازنون بين شعر وشعر ، وبين شاعر وشاعر . وهذا انتقلت نظرتهم إلى الأدب ، وأحكامهم فيه من النظرة السريعة ، إلى النظرة الفاحصة الدقيقة المتقصة. والحقيقة أن الحجاز في هذه الفترة ، كان يموج بالشعر والشعراء ، والمجالس العامة والخاصة ، كان الشعر يقال في الأسواق في موسم الحج ، في المسجد الحرام في كل مكان يمكن أن يقال فيه شعر .

في القرن الثاني للهجرة ، وجدنا الكثير من النقاد اللغويين ، والنقاد النحويين وقد صرف هؤلاء عنايتهم إلى لغة الشعراء ، ومتابعة ما في شعرهم من مواطن الخطأ ، التي تشير إلى الخروج على أسس اللغة الصحيحة ، وبذلك نستطيع القول أن النقد اللغوي عند لغوي هذا القرن ، كان نقداً لغوياً محضاً ، ركزوا فيه على مدى صلاحية الشعر المحدث للاحتجاج اللغوي ، ومن هنا كان اعتناؤهم بهذا العامل اعتناء كبيراً : لأنهم أرادوا من وراء ذلك التحقق من صحة استعمالهم لغةً ونحواً وصرفاً.

وكان طبيعياً أن يثار الشعراء ضد اللغويين والنحويين ، لأنهم اعتبروا نقدهم لهم تجريحاً وازية وخطأً من مكانتهم الشعرية . وكثيراً ما كان عبد الملك بن اسحاق النحوي ، ينتقد الفرزدق ، ويكلمه في شعره حتى ضجر منه الفرزدق وهجاه ، وهو في هجائه إياه قد خرج في بيت من قصيدته ، على قواعد النحو المألوفة ، وأظنه تعمد هذا ليغيظ ابن اسحاق ، قالوا : إن ابن اسحاق غصب لخطأ الفرزدق ، أكثر من غضبه لهجائه له.

وقد استطاع اللغويون أن يقودوا الحركة الأدبية ويتزعموها ، وسيطروا على الأصول العامة ، ويحروا الشعراء المهيم ، حتى صار طابع شعر بعضهم شبيها بطابع الشعر الجاهلي . وأخذ النقاد يفاضلون بين المذهب القديم والمحافظ على أسلوبه المتبع في الجاهلية وصدر الإسلام ، وبين المذهب الحديث مع المقتضيات التي يتطلبها تطور الحياة الإسلامية الجديدة.

الحقيقة أن تأثير هذا الباعث اللغوي ، كان تأثيراً مباشراً ، ركز النقاد فيه على مدى صلاحية الشعر للاحتجاج اللغوي ، الذي ازدهر في هذا القرن . نتيجة للحن ومسبباته، وقد أسرف اللغويون في هذا حتى لم ينج الشعر الجاهلي من حكمهم ، فهذا عدي بن زيد ، وأبو داود ، لم يحتج بشعرهما لأن لغتهما ليست بنجدية .

وكما كان العامل اللغوي في الاحتجاج ، كان العامل الخلفي . قد أثر هذا العامل في مكانة بعض الشعراء ، لدى بعض نقاد هذا القرن، ويتداخل مع العامل اللغوي عامل آخر ، هو العامل الحضاري ، وقد أثر هذا العامل كما أثر العامل اللغوي ، والعامل الخلفي في الاحتجاج بشعر الشاعر ، فقد رفضوا أن يحتجوا بشعر الكميت لأنه (حضري مؤلد)، أو لأنه جرمقاني من هذا الموصل على حد تعبير الأصمعي

في العصر العباسي وهو- كما نعلم - عصر اتساع الحضارة الإسلامية ، وعصر اتصال العرب بثقافات أخرى وتعرفهم على حضارات أمم قديمة كالليونان والفرس ، وعصر تجديد في جميع مرافق الحياة . وقد كان لهذا التجديد دور مهم في حياة النقد الأدبي ، وكان له أثر ايجابي في نشوء النقد الأدبي وازدهاره . ولم يقتصر النقد في هذه الحقبة على اللغويين والنحويين ، وإنما تعداهم إلى الشعراء ، فقد كان منهم نقاد ، مثل بشار بن برد ، وابن المعتز ، وأبي الطيب المتنبي ، وأبي العلاء المعري وغيرهم .

وفي الثالث الهجري ، برزت فئة جديدة من الأدباء حاولت أن تضع النقد الأدبي ، للتفكير القائم على الفلسفة والمنطق ، وعلوم البلاغة . فسارت جنباً إلى جنب مع الفئات الأخرى ، اللغوية والنحوية والأدبية . وكان القرن الرابع الهجري ، ونهايته عصر ازدهار هذا الفن وبلوغه القمة في التطور والصعود . وإذا كان الشعر العربي قد بلغ ذروته في هذه الحقبة ، فإن النقد الأدبي قد بلغ الذروة أيضاً

، وانتهى إلى غايه سواء في سمعته وشموله ، أو في عمقه ودقته ، أو في براءته من الحدود الفلسفية التي حاول بعض أعلام القرن الثالث تحديده بها ، وذلك لنضح ملكة الذوق عند الأدباء النقاد من كثرة ما درسوا ووازنوا وقارنوا ، ولجمعهم بين جمال الطبع نتيجة لتضلّعهم في الأدب القديم ، وحس الصنعة من ممارسة الأدب

في هذا العصر كانت المعركة على أشدها بين النقاد ، وكانت رحاها تدور حول أبي تمام والبحري ، وبين المتنبي وخصومه ، وكان لهذه المعارك صداها الايجابي ، قد كسب النقد من ورائه ، عدة كتب ورسائل مثل : كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي الجرجاني ، ورسالة الحاتمي فيها توارد من المعاني بين المتني وأرسطو ، وكتاب الموازنة للأمدي ، وأخبار أبي تمام للصولي ، ورسالة الصاحب بن عباد في الكشف عن مساوي شعر المتني ، ومن هذا نرى أن هناك عوامل كثيرة ، أثرت في النقد اللغوي ، وساعدت على ازدهاره ، وأهمها الرواية والتعصب للقديم ، والتطور اللغوي وغير ذلك .

وأخيراً نستطيع القول ، أنه كان للنحاة العرب واللغويين ، اليد الطولى ، في عملية النضح الفني للنقد الأدبي ، وذلك عن طريق مدارسهم وتقويمهم للنصوص النحوية واللغوية ، وبخاصة في مجالسهم العلمية ، التي امتازت بالتعليقات والأحكام البعيدة عن الذاتية ، لأنها تهدف إلى التقويم . وعلى هذا ففكرة النقد نتلمسها في كتب اللغة وفي كتب النحو ، كما نتلمسها في كتب أخرى . أما بالنسبة للبلاغة فقد اختلط النقد بالقواعد البلاغية في القرن الرابع الهجري اختلاطاً ملموساً ، وسيتولى العنوان القادم أهمية البلاغة والبلاغيين ، باعتبارهما باعثاً له أثره في نشوء النقد الأدبي عند العرب .

ب- الباعث البلاغي¹:

هذا الباعث من أهم البواعث التي ساعدت على نشوء النقد الأدبي ، وعملت على ازدهاره . عاش النقد والبلاغة مختلطين منذ أقدم عصورهما ، لاتفاقها في الغرض وهو : تحقيق القوة والصدق والجمال في الأداء والتعبير الأدبي . وعلى هذا فموضوع هذين الفنين وهدفها واحد .

والحقيقة أن البلاغة العربية ملازمة للنقد ، وهو ملازم لها ، يؤكد هذا أن و المتقدمين يشيرون إلى تسمية علم البلاغة وتوابعها ، بعلم « نقد الشعر » ، و « صنعة الشعر » و « نقد الكلام » . وكما برزت آثار النحويين واللغويين ، في بواعث نشوء النقد الأدبي عند العرب ، برزت آثار البلاغيين ، فكان لأرائهم ثمرات من الأحكام الذوقية ، تساندها المعرفة بطبيعة الفن الشعري ، وما يعرف من عيوب فنيه له : عيوب في الاستعارات والكنائيات وفي فن البديع عامة ، وفي جوانب أخرى أدخلوها في علمي البيان والبديع . وذكروا فيها عيوباً ، كما ذكروا في غيرها . ومن الجدير بالذكر أن نشير ، إلى أن الأحكام البلاغية ، هي أحكام صادرة عن الذوق . ونعني بها كما عني ابن خلدون حيناً قال : « حصول ملكة البلاغة للسان » .

وبعد هذا نستطيع القول : لعل البلاغة هي التي تكون جزءاً من النقد . وأن كثيراً من كتب البلاغة الجيدة تعطينا صوراً واضحة ، لامتزاج العواطف والأحاسيس ، بتصورات العقل ومنطقه ، كما نستشف منها أن النقد يحمل صورة فردية ، وصورة تركيبية ، أي أنه إذا درس بمفرده فهو فردي في هذه الحالة ، وإذا درس في ظل البلاغة ، فهو يحمل السمتين : الفردية والجماعية ، وعلى هذا يكون هنا جزءاً من كل وتكون البلاغة الكل الذي يحتضن الجزء ويرعاه ، خلافاً للدراسات الحديثة ، لا سيما الغربية منها ، التي تنظر إلى البلاغة على أنها جزء من النقد ، شأنها شأن دراسة النحو واللغة وغيرهما . ولنتساءل الآن عن حذور هذا الباعث ، وعن مدى أهميته ف حياة النقد .

يعرض علينا كتاب البيان والتبيين للجاحظ صوراً من نظراتهم إلى الكلام ، ودقتهم في تمييز القول ، ووصفهم لخطبائهم بأنهم

¹- انظر : هند طه حسين، النظرية النقدية عند العرب، مرجع سابق، ص 100/79

"مصارع لسن" ، ، كما وصفوهم باللودعية والرمي بالكلام بالعضب القاطع ، كما كانوا يصفون كلامهم في شعرهم وخطابهم ببرود العصب الموشاة ، وبالحلل والديباج والوشي واشباه ذلك . وجند المسلمون أنفسهم لخدمة القرآن الكريم ، وكانت خدمتهم هذه مدعاة إلى البحث في اللغة العربية عامة وفي البلاغة خاصة ، يدلنا على هذا أقوال كثيرة رأيناها عندهم ، فقد قالوا : إن أحق العلوم بالتعلم ، وأولها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - على البلاغة ، ومعرفة الفصاحة . وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل على البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن ، من جهة ما خصه الله به من حسين التأليف ، وبراعة التراكيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار من جهة ما خصه الله به حسن التأليف ، وبراعة التراكيب ، وما شحنه به من الانجاز البديع .

في كتاب البيان والتبيين ، أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، كان يُغني عناية كبيرة بتخيير لفظه ، من سهولة في المخرج ، وفصاحة في المعنى ، وحلاوة ومهابة . . . ولننظر إليه وهو يقول "لا يقول أحدكم خُبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقسست نفسي " كأنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد ، بوجه من الوجوه . وهذا وغيره جعل الجاحظ يقول فيه : « فلم يُنطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة . . . وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . . . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعَمّ نفعاً ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فَحْوَى من كلامه .

يعتبر العصر الأموي عصر ازدهار الخطابة بجميع ألوانها ، من سياسية ودينية ووعظية وتعليمية وخطب احتفال إلى غير ذلك من أنواع الخطب المعروفة . وقد اشتهر في هذا العصر ، خطباء مفوهون ، أجادوا في بلاغهم ، كما أجادوا في صنعتهم ، واشتهر كل منهم في مجال خاص به ، ففي الخطب السياسية اشتهر كثير من ولاة هذا العصر ، ولا سيما زياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفي .

ترى الدراسة هند طه حسين ، أن لعامل الحضارة دوراً مهماً في تطور اللغة ، وفي نشوء النقد وتطوره ، وأن العرب الذين تحضروا في هذا العصر ، وسكنوا المدن والأمصار ، وحصلوا على حياة الاستقرار ، ورقبت أفكارهم برقي حياتهم ، الاجتماعية والاقتصادية ، والعقلية والفكرية والأدبية ، ونتج عن تحضرهم ورقمهم هذا ، نشاط فكري في ملاحظاتهم البيانية ، التي كثرت في هذا العصر ، بسبب هذا الباعث الحضاري الجديد . وقلنا أيضاً إن الصراع بين الأحزاب والفرق ، في هذا العصر ، والذي كان على أشده وهو من البواعث المهمة التي ساعدت على نشوء النقد الأدبي ، وهي أيضاً كانت كذلك في هذا المجال ، فقد أخذ كل من هذه الفرق ، يجادل بعضهم بعضاً ، مما أدب إلى نمو العقل العربي نمواً واسعاً ، وهذا بدوره أدى إلى نمو النظر في بلاغة الكلام ، فكثرت الملاحظات المتصلة بحسن البيان .

ولم يقتصر هذا على الخطباء فحسب ، وإنما تعداهم إلى الشعراء ، فراج الشعر وأصبحت المنافسة على أشدها بين الشعراء ، وهذا التنافس من جانب الشعراء قابله تشجيع من جانب الخلفاء والولاة والقواد ، وأجواد الناس فنتج عن هذا ميل كبير إلى الاهتمام بالفن الشعري ، وسعي حثيث إلى اتقانه وجودته ، وكان محور هذه المنافسات بين الشعراء ، المرید في البصرة ، وسوق الكناسة في الكوفة ، وعرف من شعراء السوق الأول ، كل من جرير والفرزدق . وعلى هذا فقد كان لهذه الفرق ، من خوارج وشيعة ، وزبيرين ، وأمويين ، ومرجئة ، وجبرية ، ومعتزلة وغيرها ، دورها الفعال في هذا .

وهذه المحاولات المتفرقة ، كانت نواة على جديد ، من علوم العربية ، أو العلوم اللسانية ، وهو على البلاغة ، فإن هذه الملاحظات ، وتلك الآراء مع ما ستطرق إليه في العصر العباسي ، استحالت فيما بعد إلى قوانين علمية ، تهدي الكتاب والشعراء ، إلى ما يجب أن

يتبعوه في تعابيرهم ، الناتجة عن العقل والشعور ، وتلك القوانين هي قوانين البلاغة ، وأبوابها المعروفة من بيان وبديع . والملاحظات البلاغية ، توسعت في العصر العباسي ، بتوسع المعارف الانسانية ، وتطورت بتطور الحياة العقلية . وتطور فن الشعر وفن النثر ، على أيدي الكثيرين من العرب وغير العرب ، من الفرس والموالي ، الذين اتقنوا اللغة العربية وحذقوا أساليبها وتعابيرها ، وتكلموا في بلاغتها مستندين في ذلك إلى ثقافتهم المختلطة ، الناتجة عن معرفتهم بلغاتهم الأصلية ، وبرجعهم إلى الأصول العربية الخالصة . وخير مثال لنا في هذا ابن المقفع ، الذي يقال إنه أول من تكلم البلاغة منهم . ويذكر الرواة أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها قال " البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . وكما عرف ابن المقفع بلاغته ، عرف الوزير جعفر بن يحيى البرمكي بفصاحته وبلاغته ، مما جعل الجهشيري يقول فيه : كان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته ، وتدورست بلاغته .

وأخبار الشعراء ومحاوراتهم ، دلالة واضحة على اهتمامهم بدراسة وجوه البيان والبلاغة . فما رواه الأصفهاني في كتابه الأغاني ، وما رواه ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء ، وما رواه غيرهم في كتب الأدب ، يدل على أن الشعراء كانوا كلما ضمهم مجلس ، أخذوا يتناشدون ويتجادلون ويتحاورون ، ويستخرجون لبعضهم الأخطاء ، ويبدون الملاحظات في الألفاظ وغرابتها ، وفي المعاني وفسادها .

والذي نريد أن نخلص إليه- كما ترى صاحبة كتاب " النظرية النقدية عند العرب " هو أن أبحاث النقد بحكم هذا التطور الذي أصاب الشعر والنثر ، أخذت تعنى عناية شديدة ، في معاني الشعراء ، وفي صورهم البيانية والبديعة ، وبذلك اختلطت أبحاث النقد بالبلاغة كما هي الحال في كتاب عبار الشعر ، لابن طباطبا ، وكتاب الموازنة للأمدي ، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، لعلي بن عبد العزيز الجرجاني .

تأكد هند طه حسين ، أن الباعث البلاغي كانت نتيجة بيئات متعددة ، وفئات متعددة أيضا ، وتدرجت تدرجاً تاريخياً مع البيئات في تطورها ، وتكلمت على فئتين من الفئات التي عملت على انعاش هذا الباعث البلاغي ، وهما فئة الكتاب وفئة الشعراء ، وتعرضت إلى الفئة المختصة ، من البلاغيين والنقاد من غير البلاغيين ، الذين امتزجت جهودهم ، نتيجة امتزاج الجزء في الكل . على أن دراسة وجوه البيان والبلاغة ، لم تقتصر على هؤلاء وحدهم ، وإنما شاركهم طائفة المتكلمين ، وطائفة النحويين واللغويين الذين كان همهم اللغة ومقاييسها واشتقاقاتها واعرابها . ومن هنا أخذوا برواية الشعر القديم ، وبشرح ما يروون ، ودراسته دراسة دقيقة لتبيين أساليبه وخصائصه التعبيرية ، كما كانوا يعنون بعرض قواعدهم اللغوية والنحوية ، التي يعرضون من خلالها ، ومن خلال شروحيهم ، شيئاً من الخصائص البيانية ، وخير ما تتمثل به هنا . كتاب البديع لأبن المعتز ، الذي يتحدث عن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، في بداية حديثه عن التجنيس والمطابقة ، فهو يقول : « قال الخليل : الجنس لكل ضرب من الناس ، والظير والعروض ، والنحو ، ومنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها » ، ونراه أيضا حينما يتكلم على المطابقة ، يتكلم على الخليل ضمن هذا فيقول : « قال الخليل - رحمه الله - بقال : طابقت بين الشينين اذا جمعتهما على حذو واحد » ، واشتقاقاتها واعرابها . ومن هنا أخذوا برواية الشعر القديم ، وبشرح ما يروون ، ودراسته دراسة دقيقة لتبيين أساليبه وخصائصه التعبيرية ، كما كانوا يعنون بعرض قواعدهم .

ومن هذا وما شابه ، نستطيع القول إنّ اللغويين والنحاة كانوا ينثرون ملاحظاتهم مختلفة التي تدور على بلاغة الكلام ، وصوره البيانية والتعبيرية ، في تضاعيف مؤلفاتهم شروحهم للشعر ، وآي الذكر الحكيم ، وهذه الملاحظات البلاغية المنفردة ، التي كان يسجلها بعضهم على بعض ، كانت من أهم البواعث التي أغنت البلاغيين في القرن الرابع الهجري ، وما تلاه من قرون . وإلى جانب

هؤلاء كانت طبقة المتكلمين ، الذين عنوا بمسائل البلاغة والبيان ، لارتباطها بفن الخطابة ، وفن المناظرة ، وهما الحرفتان الرئيسيتان لهذه الفئة من الناس فمنذ أواخر القرن الأول للهجرة ، أخذت بعض الفرق الإسلامية ، تنشق عن بعضها ، وتكون فرقا كثيرة ، أخذت تتجادل وتتناظر ، وتتجاوز في نظرياتها العقيدية . وأشهر من برز من رؤساء هذه النحل ، الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) ، إمام أهل البصرة ، وأحد العلماء الفقهاء الفصحاء . واشتهر تلميذه عمرو بن عبيد ، الذي دعاه استاذة لمناظرة واصل بن عطاء ، في المسألة الشهيرة .

وأما كتاب البيان والتبيين نفسه ، فغني عن أن يعرف بأهميته في هذا المجال . في هذا الكتاب تكلم الجاحظ على الألفاظ والمعاني ، وزاد على ما بينه بشر ابن المعتمر . وتكلم على الإطناب والإيجاز ومواضعها . وذكر الترداد والتكرار ، وبخاصة في القصص القرآني ، وفي مواعظ الوعاظ . وتنبه لما سماه البلاغيون بعده باسم " الإحتراس " . وأشار في أكثر من موضع إلى الكناية والتعريض ، وتكلم على الاستعارة وأعطى الأمثلة عليها . ومن يتصفح هذا الكتاب ، يرى أن الجاحظ قد ألمّ تماماً محموداً في كتاباته بالصور البيانية المختلفة ، كما ألمّ بكثير من فنون البديع دون أن يضع لها التعريفات والتحديدات . أما كتابة الحيوان ففيه إشارات كثيرة ، إلى الاستعارات والتشبيهات ، التي أشار إليها في ثنايا كشفه عن الدلالات الدقيقة للآيات ، وفي ثنايا تعليقاته على الأشعار . وتختتم هند طه حسين عن الجاحظ ، وملاحظاته في البيان والبلاغة ، بأنه معيناً للأجيال التي تلت ، وما زالت كذلك إلى وقتنا الحاضر ، وعلى هذا فهي تؤيد شوقي ضيف ، الذي عده وبدون منازع ، مؤسس البلاغة العربية .

ومن الدراسات المنهجية التي جاءت إلينا من هذه الفترة ، كتاب البديع لابن المعتز ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وكتاب نقد الشعر لقدماء بن جعفر ، ورسالة النكت في اعجاز القرآن للرماني ، وكتاب اعجاز القرآن للباقلاني . ومن هذا يتبين لنا أن بينات كثيرة ، اهتمت بالبحث البلاغي في ذلك القرن ، فنما وازدهر بمصاحبة هذه الدراسات التطبيقية ، وخير من مثل هذه الدراسات كتاب الشريف الرضي المعروف بتلخيص البيان في مجازات القرآن ، ومثله كتابه الآخر " المجازات النبوية " .

كل قضايا النقد الأدبي المطروحة في ذلك العصر ، كان لها الأثر الكبير في تكوين النظرية النقدية عند العرب وهناك نوع آخر من هذه الدراسات ، اهتم بدراسة الصناعتين ، صناعة الشعر صناعة النثر . ومثل هذا كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، وكتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق القيرواني . وهؤلاء فتحوا الباب واسعا لمن جاء بعدهم ، يؤلف على نهجهم وطريقتهم . ويمثل هذا ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة ، الذي درس فيه فصاحة الكلام درساً منهجياً دقيقاً ، وعالج فيه فنون البلاغة والبديع في ثنايا حديثه عن سر الفصاحة أما عبد القاهر الجرجاني فله مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة العربية ، في كتابه و دلائل الاعجاز » و أسرار البلاغة اللذين جاء فيهما بنظريتي علمي المعاني والبيان .

وفرت هذه الدعائم الاجتماعية والدينية والمعرفية نوعاً من المناعة الثقافية التي عززت الذات النقدية العربية في تراثنا بالرغم من الاستفادة الحاصلة مما أنجزه الآخرون إيماناً بضرورة تلاحق الفكر وتوسيعه ، فقد سائر هذا الالتفاف حول الذات العربية رافداً شكل حضوراً قويا داخل تراثنا النقدي ، مُتمثلاً في الفكر اليوناني عموماً والأرسطي خصوصاً . ولم يكن هذا الاستقبال في مدونة النقد العربي القديم من باب التسليم والانهار المعرفي بالفكر اليوناني والنزوع إلى الاعتماد على جاهزيته أو بدعوى التجاوز والاستغناء ، بل اعتبر ظاهرة صحية « فالتأثر بالفكر اليوناني ونقله إلى العربية في فترة كانت منابع ذلك الفكر مجهولة ومعطلة في عصور أوروبا المظلمة ، يحسب للعقل العربي لاعليه ، بل إن تأثر البعض لإنتاج الفكر اليوناني عامة و أفكار أرسطو بصفة خاصة ، دفعت

بالبلاغيين العرب ليس بالضرورة إلى رفض التأثير اليوناني، بل إلى مقاومته بإنتاج بديل عربي (...). ومن ثم تحركوا في إنتاج نظرية شعر عربية»¹، وقد أثبتت هذه النظرية تواجدها الكبير فيما ظهر من نظريات حديثة عند الغرب وبخاصة في دراستهم للجمال².

يعد كتاب "نقد الشعر" لابن قتيبة أول كتاب يُنظر للشعر العربية على غرار كتاب "فن الشعر" لأرسطو لوجود التعييد الفلسفي والتنظير المنطقي لمفهوم الشعر وتفرعاته التجريدية بينما يعدُّ أبو بكر الباقلاني أول من حلل قصيدة شعرية متكاملة (قصيدة امرئ القيس) في كتابه "إعجاز القرآن" بعدما كان التركيز النقدي على البيت المفرد أو مجموعة من الأبيات الشعرية المتقطعة. وفي هذه الفترة عرف النقاد المنهج الطبقي والمنهج البيئي والمنهج الأخلاقي والمنهج الفني مع ابن سلام الجمعي صاحب كتاب "طبقات فحول الشعراء في الجاهلية والإسلام" والأصمعي صاحب "كتاب الفحوالة" والشعرية الإنشائية خاصة مع قدامة بن جعفر في كتابيه "نقد الشعر" و"نقد النثر". واعتمد عبد القاهر الجرجاني على نظرية النظم والمنهج البلاغي لدراسة الأدب وصوره الفنية رغبة في تثبيت إعجاز القرآن وخاصة في كتابيه "دلالات الإعجاز" و"أسرار البلاغة". بيد أن النقد سيبلغ أوجه مع حازم القرطاجني الذي اتبع منهجا فلسفيا في التعامل مع ظاهرة التخيل الأدبي والمحاكاة وربط الأوزان الشعرية بأغراضها الدلالية في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" والسجلماسي في كتابه "المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع" وابن البناء المراكشي في كتابه "الروض المرعب في صناعة البديع". ومن أهم القضايا النقدية التي أثرت ضمن هذا المسار النقدي والتي كان لها دور تكويني كبير في النظرية النقدية العربية في التراث ما يلي:

- قضية اللفظ والمعنى «فلقد كان لها دور مهم في تكوين النظرية، وشغلت النقاد والبلاغيين العرب منذ عهد مبكر وأثارت اهتماما خاصا في الدراسات البلاغية والدراسات القرآنية، ويبرز "الجاحظ" كأهم علم خاض في هذا فقد إهتم بالفصاحة وبحث في المعاني والألفاظ ثم تناولها "ابن طباطبا" و"قدامة بن جعفر" و"أبو هلال العسكري" و"عبد القاهر الجرجاني" و"السكاكي" و"ابن الأثير"³.

- قضية الطبع والصنعة «وهي قاعدة نقدية قوية في تكوين النظرية، فقد سايرت الأدب في نشأته وتطوره وخضعت لآراء النقاد وتباين آرائهم، حتى صارت عندهم مشكلة يقفون عندها، واختلقت الآراء في هذه القضية من مؤيد للصنعة ومنكر لها، كما اختلفت وجهات النظر في مفهوم الطبع فهو عند بعضهم؛ أن يكون الكلام فيه عفو الخاطر وعند الآخرين يعني تثقيف العبارة وتهذيبها، وهكذا يمكن القول بأن الطبع والصنعة كانا مصدر الأحكام النقدية، لذلك أثرًا تأثيرًا عميقًا في كيان النظرية النقدية لتأثيرهما في نواحي النقد كافة»⁴، إضافة إلى قضية السرقات الشعرية وأفضلية الشعر والنثر والإعجاز القرآني وعمود الشعر العربي وقضايا المقارنة والموازنة كما عند الأمدي والصوليوقضايا بناء القصيدة عند ابن طباطبا وابن قتيبة وقضية الفن والدين عند الأصمعي والصولي وغيرهما وقضية التخيل الشعري والمحاكاة كما عند فلاسفة النقد أمثال: الكندي والفارابي و ابن سينا وابن رشد والقرطاجني وابن البناء المراكشي والسجلماسي... إلخ⁵.

¹ - عبد العزيز حمود، المرآة المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001.

ص 313/ 314.

² - انظر: هند طه حسين، النظرية النقدية عند العرب، مرجع سابق، ص 369.

³ - هند طه حسين، النظرية النقدية عند العرب، مرجع سابق، ص 249.

⁴ - المرجع نفسه، ص 248/245.

⁵ - المرجع نفسه، ص 257.

كانت هذه القضايا مجتمعة مسرحاً لتفاعل المؤثرات والعوامل في النظرات والآراء النقدية التي ظهرت أثارها واضحة في تكوين النظرية النقدية آنذاك، ومن يعيد النظر في هذه القضايا يرى فيها أكثر من دعوة صريحة للقول بنظرية نقدية منفردة قائمة بذاتها» إن من يتدبر هذه القضايا النقدية ويمعن النظر فيها، يجد نفسه أمام نظرات نقدية تركيبية يتولد من كل قضية منها قضية نقدية أخرى، وربما قضايا يجد فيها الناظر المتمعن بذور نظرات نقدية تؤلف مجتمعة كيان نظرية نقدية متكاملة في القرنين الثالث والرابع الهجريين عامة والقرن الرابع خاصة لأن النقاد جعلوا النقد فيه محورا ومجالا في الحدود النظرية والتطبيقية»¹.

عموماً إن تراثنا العربي تراث متمايز، أنتجته عقلية ذات خصوصية مستمدة من خصوصية الواقع الذي تعاملت معه. هذه العقلية العربية عبارة عن نسق فكري مركب أنتج حضارة متميزة عليها بصمات تلك العقلية. وفي الجدال الحضاري الذي خاضته الحضارة العربية مع الحضارات الأخرى مؤثرة ومتأثرة، تعاملت مع تلك الحضارات على أرضية العقلية العربية مستخدمة منطلقاتها ومبادئها ووسائلها².

إن الجهود العربية في مجال التنظير للأدب ونقده كانت جهوداً عظيمة، وهي تضع المفكرين العرب القداماء في طليعة مفكري العالم في هذا المجال، على الرغم من أن كثيراً من المؤرخين كانوا يربطون كثيراً من القضايا الرئيسية التي أثارها أولئك النقاد بما ورد إليهم من الفكر وبخاصة أرسطو، الذي أصبح في التراث العربي والعالمي على حد سواء وكأنه الرجل الذي لم تنشأ قضية في العقل الإنساني إلا وتعرض لها فإن الحقيقة الظاهرة هي أن المفكرين العرب كانوا أكثر وعياً بظروفهم الخاصة، وتعرضوا إلى كثير من القضايا الأدبية والنقدية في غير قليل من الأصالة³.

لكن هذا النقد سيتراجع نشاطه مع عصر الانحطاط لمهتم بالتجميع وكتابة التعليقات والحواشي ويستمر هذا العقل النقدي في التراجع نتيجة الانكسارات المتعاقبة إلى الوصاية العثمانية ثم الاستعمار المتعدد، الذي عمل على هدم كل مقومات ومؤسّسات التفكير الموجودة والتي يمكن أن توجد، وبهذا أحيل العقل النقدي العربي على مرحلة ضعفت فيها طموحاته وخضع إلى غسيل أفقده القدرة على تبني أي نوع من الرؤى والأطروحات التي من شأنها أن تصلح من حاله وأصبح هذا العقل في شتى المجالات «يواجه عصراً جديداً تماماً بعقل قديم غاية في القدم، وقد أوضحت مطالب للحاق بركب هذا العصر مدى العجز الذي يعانيه العقل العربي في مواجهة التعقد الشديد الذي أصبح السمة الغالبة للمجتمع الإنساني المعاصر، وأبرزت

مدى قصور أدواتنا الذهنية ووسائلنا التقنية في مواجهة ظاهرة الانفجار المعرفي التي تتفاقم حدتها يوماً بعد يوم»⁴. على مستوى الإنتاج النقدي انسحبت معاناة العقل العربي لغيابه المستمر، لاسيما وتعاضم سؤال الهوية والتراث والوفاة الغربي، الذي طُرح بشدة منذ العقد الأخير من القرن العشرين بشكل عميق «ولئن كان صحيحاً هذا الغياب المعرفي العربي، أفلا يكون الإنسان العربي هو نفسه غائباً بمعنى ما؟ ألن تكون هويته ذاتها غائبة في نوع من النفي أو التهميش الذي يمارس حضوره الآخر المعرفي؟ واستطراداً، ألن تكون المعرفة كما تنتج اليوم في المجتمع العربي، دليلاً ساطعاً على هذا الغياب أي دليلاً على شكل من أشكال إمعاء الذات إزاء الآخر»⁵.

¹ - المرجع نفسه، ص 257.

² - المرجع نفسه، ص 56.

³ - انظر: يوسف نور عوض، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط 01، القاهرة، 1994، ص 136.

⁴ - نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ج 01، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2009، ص 07.

⁵ - أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، ط 01، بيروت، 2002، ص 05.

أفرز هذا الواقع الجديد غيابا تاما للإنسان العربي، وفقد دوره في إنتاج المعرفة واستكناه عالمه المعاصر، وعجز عن الإجابة عن مجموعة من الأسئلة الملحة، لعل أهمها البحث عن كيفية الخروج من هذا الغياب ومن ثمّ البحث عن أسباب هذا الغياب بتفحص جوانب النقص ومن ثمّ مراجعة مواقفنا من مسألة العقل ومسألة وسائل التفكير «فموقف العرب من مسألة وسائل التفكير من منظور مجتمع المعرفة، فلا تتوافر بيئة مواتية لتنمية التفكير النقدي إضافة إلى قضية الإجماع الثقافي ورفض الاختلاف»¹، فنجاح الحضارة العربية في الانتشار في العالم القديم - وهذا ما نفتقده اليوم - كان بسبب الاتساق بين الذات والعقل والمعرفة والعالم، مما أهلها لتحقيق تقدم معرفي على مستويات متعددة، هذا التقدم المعرفي الذي نعاها أدونيس في الوقت الراهن، بأن نفى وجود معرفة عند العرب بالمعنى الذي يمكن أن نسميه معرفة عند الغرب، والمعرفة المقصودة في هذا السياق هي المعرفة التي نصوغ من خلالها أسئلتنا الحياتية المحورية التي تؤهلنا أيضا إلى سبر أغوار عالمنا المعاصر بغية فهمه والمشاركة فيه، ولن يكون الخروج من هذه الوضعية إلا بالتعامل مع هذا الغياب باستيعابه وتمثله تمثلا نقديا مع توفير سياق اجتماعي وثقافي وفكري من دون إلغاء للتاريخ بكل محطاته، وأن تخرج الممارسة المعرفية من تأكيد الحقائق المؤكدة سلفا أو من التكرارية المفروضة إلى «المعرفة من طبيعة الأشياء أو من شيئية الأشياء وتاريخيتها»².

عموما؛ بعد هذه المعاناة في سياق المعرفة لدى الناقد الأدبي المعاصر بشكل خاص تأسست دعوى إلى بعث نظرية نقدية عربية نستطيع الخروج بها إلى العالم من أجل المشاركة النقدية العالمية بتطوير بعض منجزات تراثنا النقدي وإعادة الثقة في ظل استيعاب واع للحدثة الغربية وماتلاها «من الضروري إذن أن نحول وجهة القصد المنهجية التي يتم البحث في التراث العربي عما بوسعها أن يمثل إضافة على مستوى النظرية الكلية لكي يتم تقديم ثمراته على الصعيد الإنساني من حيث هي عطاء عربي إسلامي أصيل من حق الإنسانية أن تتطلع إليه وما كان لشيء من هذا أن يتيسر لولم يقع الخروج بمفهوم التراث من دائرة العلوم اللغوية المخصصة، نعني النحو والصرف والبلاغة والعروض والمعاجم إلى دائرة العلوم العربية الإسلامية قاطبة بشمول الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتفسير وأصول الفقه وعلوم القرآن»³.

خاتمة :

هذه الورقة محاولة لإستكناه النصوص النقدية التي أطرت لمرحلة الإنتاج الفكري في تراثنا العربي وهي مرحلة ثرية شكلت فيها النظرية النقدية في هذا التراث مكتملة منهجا و أدوات الإجرائية وجهدا نظريا مؤطرا ولعل الأسئلة التي قدمها محمود أمين العالم في كتابه مواقف نقدية من التراث ، تمثل المفاتيح الأساس لكل باحث في المنظومة الفكرية لتراثنا العربي والنقدي منه خاصة ومن الأسئلة المحورية هاته مايلي : ماهو التراث على امتداده التاريخي وفي تجلياته المختلفة : الدينية والفلسفية والعلمية والأدبية والفنية والسلوكية ؟ هل هو كينونة موضوعية قائمة بذاتها في الماضي، ذات دلالة جاهزة نهائية ؟ أم هو قراءة لواقع مضى ضمن واقع حي بحسب ماتستند إليه هذه القراءة من إيديولوجيات أو أهداف عملية نفعية أو تطلعات سيادية سلطوية أو مناهج وأدوات موضوعية علمية ؟ ماذا يعني تعدد القراءات؟ وبالتالي تعدد المواقف من التراث بل احتدام المعارك الفكرية على أرض التراث في تجلياته المختلفة التي تختلط فيها المعايير وتتلبس الأحكام بل ترتفع بسببها أسلحة الإقصاء والتكفير والاعتقالات الجسدية والمعنوية .

¹ - نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، ج 01، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009، ص 61.

² - أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق، مرجع سابق، ص 07.

³ - عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط 01، بيروت 2004، ص 65.

قائمة المراجع المعتمدة:

1. أدونيس ، موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، ط01، بيروت، 2002.
2. عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد،، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط01، بيروت 2004.
3. عبد العزيز حمود ، المرايا المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية) ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ، 2001،
4. عصام قصبجي ، أصول النقد العربي القديم ، منشورات جامعة حلب ، 1991 ، سورية .
5. محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997.
6. مصطفى ناصف ، قراءة ثانية في شعرنا القديم ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، 1989 ، ليبيا ،
7. نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة ، ج01، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009.
8. هند طه حسين، النظرية النقدية عند العرب، دار الرشيد للنشر، دط، العراق، 1981.
9. يوسف نور عوض، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط01، القاهرة، 1994.

التّماسك النَّصِّيّ في الخطاب النَّحْوِيّ عند سيبويه قراءة في بعض آليات الكلام

The Textual Coherence in Sibawaih's Grammatical Discourse: A study of the Main Mechanisms of Discourse.

د. بركاهم العلوي

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر

الملخّص :

تهدف هذه الورقة لاستعراض مظاهر التّماسك النَّصِّيّ في خطاب سيبويه. وهي وإن كانت خطوة جريئة في بحر المعرفة واقتفاء الأثر فإنّ حظّها من المتعة خفّ خطر المغارة وجرأة المناورة؛ ذلك أنّ السّؤال الدائم عند قراءة الكتاب هو:

1. ما الذي جعل هذا السّفْر مقاوما موجة التّغيير والتّبديل؟

2. ما السّر وراء استغراقه زمن الخطاب ومداوله النّظر فيه؟

3. ما القانون اللّغويّ بعناصره: متكلّم ، ومخاطب وكلام الذي مدّ حبل الوصل وجذّر الاستعمال وعمّم الإحالة ؟

إنّ هذا الثّالوث الاستفهاميّ جعل هذه الورقة تتّجه نحو النَّصِّيّة ، وتحوار مبادئها، وتكتنف أغوارها، وتكتشف أنّ من مبادئ الإجابة . بتبعيض دلالتها وتقليل وسمها. هي عناصر التّماسك النَّصِّيّ عند سيبويه بتألفها ودلالاتها وتداوليّتها : إضمارا، وذكرًا، حذفًا وإشارة، وصلًا وفصلًا، تقديمًا وتأخيرًا...

الكلمات المفتاحية: سيبويه/ الكتاب/ التّماسك النَّصِّيّ/الخطاب/ المعنى النَّحْوِيّ/

Abstract :

This study aims at identifying the main aspects of the textual coherence in Sibawaih's book. It attempts to follow the footsteps of the earliest analyses of the book with a new textual vision. It tries to answer three important questions that cross one's mind whenever the book is being read. First, why is this book mysteriously resisting to all kinds of change and modification? Second, what is the secret that makes this book over lasting and challenging the current textual studies? Third, how can the linguistic law, including the speaker, the receiver, and the context make this book a reference in the field of textual studies? The questioning triangulation in this paper serves as a framework for the present study as far as textual analysis is concerned. It also tried to draft its major principles according to Sibawaih's grammatical discourse. The findings of this study revealed that most of the textual principles are the result of reviewing and analysing Sibawaih's grammatical discourse. These principles represent functional grammar pragma-linguistics, and socio-pragmatics, including coherence, cohesion, deletion as well as cataphoric and anaphoric variations.

Key words: grammatical discourse, textual coherence, Sibawaih's book

المقدّمة:

من دواعي الأمانة أن يجهر الإنسان بفضل السّابقين؛ فقد ترك سيبويه إرثًا كثيرة فوائده ، عظيمة مأخذه ، جمّة محاسنه، دقيقة أحكامه، لم يستغن عنه مرید، ولا شريد. ولئن أثر في المتقدّمين والمتأخّرين حتّى لم يشدّ منهم مؤلّف نقداً وشرحا وتتمّة واستدراكا وإحافا ونكتا، فلم يخرج عن ثلاث صور: كتابا، وشرحا، وحاشية مع ما اعترأها من نسب، وفهم، وتوجيه، وتغليط أحيانا. لكنّ المدّ السيّبويّ بقي ملازما إياها بله متجاوزا : إثباتا ونفيا وتحقيقا. ولعلّ ما قام به مازن عبد الرّسول سليمان في رسالته : نحو سيبويه في كتب النّحاة من قبيل الرّدّ الإيجابيّ والمساهمة التّقويمية لما نسب للكتاب وليس فيه، أو فهم وهما وهو فيه، كذا النّكت للأعلم، والرّدّ على سيبويه للمبرّد، وأقوال ابن خروف والرّماني، والسّيرافيّ في تأويل ما جاء ، وتفسير ما شاء.

وتعدّ هذه الورقة امتدادا، واعتمادا. أمّا الأوّل فهو حديث عن جوانب نصيّة في هيكل هذا البناء، والتي رسمت شموخه، وأرست رسومه، وحدّدت مقاصده وفتونه. وأمّا الثّاني فهو المحكّ الذي انطلقنا منه لتحديد معايير التّماسك النّصيّ من خلال المفاهيم التّراثيّة، وما يقابلها عند المحدثين لفظا ومعنى. فما هو مفهوم التّماسك النّصيّ؟ وما هي آيّاته ومظاهره في الكتاب؟

(1) مفهوم التّماسك النّصيّ:

لا يعدّ التّماسك النّصيّ جزءا من مجموع، ولا لفظا عازبا عنه، إنّه ضالّة النّصّ، وظهره الرّآكب، يرتقي بها إلى القبول والاستجابة. وإنّما يتفاضل النّاس فيه بحسن تتبّعه وإدمان ارتياده. ولّمّا كان كذلك حصل عند المتكلّم وجوب، وعند المتلقّي طروب، يعنمل في التّماس فائدته حسنُ نظمه، وانسجامُ مواقعه ورتبه.

وموضوع أهمّيته ممتدّ بين الحديث والقديم؛ لأنّ حضوره واجب كما أسلفنا في كلّ نصّ على شكل سلسلة من العلاقات داخل الجملة، ومنه إلى الجمل فالنّصّ. وإذا اختلّت علاقة منها سهوا، أو جهلا، أو ضعفا فقد النّصّ نصّيته، وانزاحت منه علاقته، وأصبحت تراكيبه خطيّة متجاوزة، لا يحكمها أيّ رابط قلّ أو كثر.

ويكتسب التّماسك معناه الاصطلاحيّ من أحد معانيه اللّغويّة؛ إذ يحمل معنى الارتباط والاحتباس والاعتدال¹. وهو بالأوّل الصّق. ويقابله معنى التّفكّك، فهو بذلك يعني: الالتصاق التّام، والتّضام الذي يمنع الانفصال جزئيّا وكليّا. ويعرّفه محمّد خطّابي بـ " ذلك التّماسك الشّديد بين الأجزاء المشكّلة لنصّ/ خطاب ما، ويهتمّ بالوسائل اللّغويّة الشّكليّة التي تصل بين العناصر المكوّنة لجزء من خطاب أو خطاب برمّته..."².

فالتّماسك عنده قوّة تحدّدها أدوات ووسائل من اللّغة، أكثرها قرائن خارجيّة، مهمّتها الوصل بين الوحدات اللّسانيّة، أي الكلمات. وقد اهتدى النّحاة القدامى إلى هذا المعنى بصنيعهم وصناعتهم. فالأوّل كان في تطبيقاتهم النّحويّة على القرآن والحديث والشّعر، مجتمعة ومنفصلة، والثّاني كان الآلة الواسطة للعمل؛ ذلك أنّ العلوم إمّا آليّة أو غير آليّة. وتنقسم على قسمين: متصوّرة في ذاتها وغير متصوّرة في ذاتها.

فالمقصودة هي المعرفيّة الصّرفيّة، والثّانيّة هي الأداة الفاعلة لغيرها، أي المساعدة لعمل غيرها. وعلم النّحو آليّة غير مقصودة لذاتها، بل علم راغب في تذليل اللّغة، يتوصّل بها إلى فهمها، وبيان إعرابها، وتوجيهها، والحجاج بها وعنها³. ولقد تفتنّ النّحاة الأوائل إلى جانب العلاقات بين الجمل وأهمّيّتها، فوقفوا عليها في كتاباتهم، ولمسناها في فكر سيّويه ومن جاء بعده كالرّماني في تعايقاته، والفراء في معانيه، وابن السّراج في أصوله، وابن هشام في مغنيه، وقد نضج واستوى عوده عند الجرجاني في دلائله، حين عرض اتّحاد أجزاء الكلام، وارتباط أولّها بثانيتها، حالها حال البناء المنسجم المنتظم⁴.

وقد صرّح بذلك واضحا حين قال: " اعلم أن ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها"⁵.

وهو يحيل أيضا إلى هذا التّطامن بين المعنى في النّفس والواقع اللفظي، وأنّ تلك المعاني تنظم انتظامها في النّفس، وترتّب وفقها أيضا. ويستقبلها المتلقّي بعد ذلك إعجابا أو يمجّها رفضا. لعلّ هذا ما يشاركه فيه دي بوجراند Robert Alain De

¹ ابن منظور: لسان العرب مادة (ح ب س).

² ينظر محمّد خطّابي: لسانيات النّصّ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثّقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط2، 2006، ص 5.

³ ينظر إدريس مقبول: سيّويه معزليا حفريات في ميتافيزيقا النّحو العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 2015، ص.

⁴ ينظر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز تحق محمود محمد شاكر مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004، ص 39.

⁵ نفسه ص 81.

Beaugrand حين يذكر منتج النصّ وخطته بين المحتوى والمعنوي، والعدّة العلائقية، والمنتج النصّي، ويستقبلها بعد ذلك المتلقّي بطريق معكوسة ليحلّ شفرات النصّ أولاً ثمّ ينتقل إلى المقبولة بعد ذلك.¹

وقد أكد هارفنج harweng على قيمة التّنظيم الدّاخلي للنصّ من خلال بعض العلاقات، كالإحالة والحذف والاستبدال والعطف والتّقديم والترتيب. وإلى ذلك ذهب هاليداي ورقية حسن ف بحثهما لعلاقات النصّي في اللّغة الانجليزية.²

وأتسعت دائرة الدّراسة بعد ذلك لتمثيل المستويات الثلاثة: الجملي، وغير الجملي، وفوق الجملي. ويتحقّق اتّساق النصّ بعد ذلك بمجموعة من المبادئ: التّرايط الموضوعي، التّدريج، الاختتام، والانتماء.

فالأوّل هو الوحدة المعنويّة للموضوع وعلاقاته الدّاخلية، والثّاني هو المسار الخطّي المنتظم للمعاني، والثّالث هو خاتمة الثّاني، أي نهاية المسار الخطّي المتوقّع أو الحقيقي، والرّابع هو هوية النصّ الأدبيّة.³

ومع هذا المرّيع الوجودي وأهميته، لا يمكن الفصل إطلاقاً عن التماسك الدّي يغنيه بخاصيّة الانسجام. ولذلك نجد صلاح فضل يجعل منه خاصيّة الخطاب عن طريق أدوا مياشرة كالعطف، والوصل والترقيم وأسماء الإشارة.

وينقسم التماسك النصّي إلى شكلي ومعنوي: فالأوّل الإحالة بأنواعها القبليّة والبعدية والمقامية، والتكرار المعجبي والمرادفي أو المطلق، أو الجزئي، أو التأمّ، والحذف بأنواعه: اللّفظي والجملي. والمعنوي بأوجهه: المقارنة والزمنيّة، والإجمال، ويعينه التّفصيل والسببيّة.⁴

إنّ النصّ حين يتعيّن في الوجود اللّسان الخطابي خطياً أو صوتياً يتقيّد بروابطه النصّيّة الخاصّة التي تحدّها. كما أسلفنا. معانيه النّفسيّة، " فالنصوص صامته في دواخلنا حتّى يخرجها بالنطق على شفاهنا سلطان البيان الشّفوي، ويؤيدها بالحروف والكتابة سلطان البيان الخطّي".⁵

وعليه تصبح هذه الآليات شكلا تشاركيّا عند العامّة، وطابعا خاصّا عند الخاصّة، تعرّف الكاتب أو المتكلّم فضلا على قدرتها على تحليل معانيه، وتأويل ما أشكل منها قصدا.

فإذا تأملنا كتاب سيبويه أقرنا أنّه ليس كتابا نحويّا فحسب، إنّهُ اللّسان العربيّ باللّسان العربيّ، ونظام من الأبنية بظواهره واستعمالاته التّداوليّة، وقيدده العقديّ أيضا؛ إذ إنّهُ مبنيّ عليه.⁶ ولذلك نجده مميّزه من خلال مصطلحاته وغاياته.

فأمّا الأوّل فتتلّمسه في أحكامه من: حسن، وقبيح، واستحسان، واستقامة، ومباح ومستغن، وكذب، ومحال، وابتداء... وأمّا الثّاني فهو المنظومة المعرفيّة المحدّدة لتلك المفاهيم وغيرها. وهي في حقيقتها تنزّل "" منزلة البناء اللّغويّ المسيطر على عامّة التفكير اللّغويّ حتّى إنّهُ يكاد ينفرد ظاهريّا بحق الاحتكام وأمر التّقييم".⁷

إنّه عقد لا ينفرد، وناموس لا ينقرض، وهو ليس خصيصة عند سيبويه وحده، بل منطلق غيره والعائد إليه، وإن كان ميزته معلّمه. فهاو ابن جني يعقد بابا في الخصائص يسميه: "باب فيما يؤمّنه علم العربيّة من الاعتقادات الدّينيّة". وبعد... فما هي مظاهر التماسك النصّي في خطاب سيبويه النّحويّ؟

¹ ينظر دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، دار عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998، ص 421.

² ينظر سالم بن محمد المنطري: الترابط النصي في الخطاب السياسي، دراسة في المعاهدات الدينية، بيت الغشام للنشر والترجمة، عمان ط1، ص 34. ونعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عالم الكتاب الحديث، عمان، 2009، ص 30.

³ ينظر محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم، ناشرون ط1، 2008، ص 82.

⁴ ينظر خايل بن ياسر البطاشي: الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، دار جرير للنشر، ط1، 2009، ص 79.57.

⁵ ينظر إدريس مقبول: التّساق في تداوليات أبي إسحاق الشاطبي، مجلة العلوم الكلام والاتصال، العدد1، رقم 1، 2017، ص 2.

⁶ ينظر بشير إبرير: آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، جوان 2012، ص 14.

⁷ ينظر عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس ليبيا، 1981، ص 100.

(2) .مظاهر التماسك النصي عند سيبويه :

قد ألمحنا سابقا أنّ آليات التماسك خصيصة مميزة ، ونؤكد دون قيد أنّ خطاب سيبويه دقيق مأخذه وموجز لفظه، ومحددة دلالته، فهو لا يومئ، ولا يكرز ، ولا يردف، ويتميز بالإحالة والتعليل والتّمثيل والشّرط والتّقابل، والتّقديم ..وهذا أوان تفصيلها.

(1.2) العتبات النصية:

ونقصد بها هاهنا المقدمات النحوية ، وهي في جوهرها مداخل للمتكلّم، تأخذ بالمخاطب حيناً، وتنهيه حيناً، وتوجّهه حيناً آخر. وقد برزت في خطاب سيبويه على شكل عناوين هي حدود العلم في أغلبها. وانظر إذا شئت إلى قوله : " هذا باب ما يعي من المصادر مثني منتصبا على إضمار الفعل المتروك إظهاره"¹.

إنّه قد استفتح الباب بالإشارة ثمّ أردفه بإضافة معرفة له على سبيل الإطالة والاندساع بصلة الموصول " ما " مع استخدام المضارع للاستغراق ، محدداً لفظ المصدر جمعا للدلالة على التنوع والتكثير في الاستعمال ، ومقيداً نوع المصدر بالعدد تثنيةً، وبالإعراب نصباً، وبالعامل المتروك إضماراً، المقدّر إظهاره وجوباً في ذهن السّامع، وإلّا قبح واستحال، وذلك نحو : حنانيك، فإنّه قال : تحننا بعد تحنن، أي : أنّ الدلالة هنا عن التثنية تنبيهية لا حقيقية، فهي معزوة للإكثار. يقول الأعلام الشنتمري: "اعلم أنّ التثنية في هذا الباب الغرض منها التكثير ، وأنّه شيء بعده مرة بعد أخرى، ولا يراد بالتثنية اثنان فقط"².

وهو في موضع آخر يحاكي هذا التثنية ويخالفه في وجه فيقول : " هذا باب ما ينتصب فيه المصدر المشبه به على إضمار الفعل المتروك إظهاره"³. إنّه تنبيه بالإشارة وإضافة. مع اتّساع وتحليل للحذف المقصود ، بقوله : " إظهاره " ، ولكنّه يصف المنصوب بأنّه مشبه بالمصدر بتحديد العامل المحذوف وهو الفعل في قولك : مررتُ به فإذا له صوتٌ صوتَ حمار.

ومصطلح التّشبيه هنا دقيق : لأنّه لا يخلو أن يكون إمّا : مصدرا من الفعل نفسه، أي: يصوتُ مثل صوت الحمار، فهو مصدر منه تقديراً، أو حالاً تقديره : فإذا هو يصوتُ مشبهاً صوت حمار ، أو مخرجا مثل صوت حمار ، أو ممثلاً صوت حمار.⁴

وهو في غير هذا الموضع يشير إلى إعراب الرفع لعلّة دلالية أخرى: " هذا باب ما يختار فيه الرفع إذا ذكرت المصدر الذي يكون علاجاً"⁵. نحو : له صوت صوتٌ حسنٌ، ويعلّل سيبويه استحسان الرفع بأنّ الاسم الأول مذكور ، والثاني مردوف فيحمل عليه وصفاً أو بدلا، مع جواز نصبه . ودليله قوله يُختار، تقديره: يصوتُ صوتا حسنا على الحال ، والمصدر أيضاً، مستدلاً بقول رؤبة:

فيها ازدهافٌ أيما ازدهاف.

فالتّصّب في أيما على تقدير تزدهف أيما ازدهاف، ولكنّه يرجّح الرفع في قوله :. هذا باب ما الرفع فيه الوجه مع جواز التّصّب أيضاً نحو : هذا صوت صوت حمار ، وعلّة الفرق هنا هي علّة الدلالة في له وهذا : فالأول التصاق الصوت بصاحبه وهو فاعل فيه، دليل التصويت، وأمّا الإشارة بهذا فهو تنبيه على أنّ الثاني هو الأول لا غير ، فقوي الرفع وبعُد التّصّب مع جوازه.⁷ فالأمر إذن على الإجماع في الأول وعلى الاختيار في الثاني ، والاستحسان في الثالث. ويتحتم الرفع في صورة رابعة في قوله : " هذا باب ما لا يكون

¹ ينظر سيبويه : الكتاب...ج1، ص 174 ، والسرافي: شرح كتاب سيبويه، تحق أحمد حسن مهدي، وعلي سيد رضا، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط1، 2008، ج3، ص 130. والأعلام الشنتمري : النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه، دراسة وتحقيق رشيد بلحبيب، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1999، ج1، ص 517.

² الأعلام الشنتمري " النكت ، ج1، ص 517.

³ سيبويه : الكتاب ، ج1، ص 177.

⁴ ينظر الأعلام : النكت ، ج1، ص 522.

⁵ سيبويه : الكتاب ، ج1، ص 182.

⁶ سيبويه : الكتاب ، ج1، ص 183.

⁷ الأعلام : النكت ، ج 1 ، ص 527.

فيه إلا الرّفع" ¹ فهو حصر صريح بعدم وجود جواز غيره ، وهو تقييد واضح ، ويمثّل له : وذلك قولك لم يدُ يدُ الثّور ، وله رأس رأس لحمار. وعلة الرّفع هنا انعدام المصدرية ؛ فليس له فاعل متروك إظهاره؛ " لأنّه جوهر ، وليس بمصدر يتوهّم فيه فاعل يفعله كالصّوت ونحوه" ²

إنّ هذه المقدمات الأربع التي ذكرناها هي فواتح الكلام ومنهاته، وإن شئت قلت هي اختصار لما يكون بعد طال أو قصر ، وانظر إلى وقوفه المحدّد في باب التعدية واللّزوم: " هذا باب الفاعل الذي لم يتعدّه فعله إلى مفعول" ³. ثمّ يقول: باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعول. ⁴ وهو يحوي هنا كلّ المفاعيل التي تجعل المفعول متجاوزا الفاعل إلى حيّز آخر دالّ عند التّوسّع ، كالتّقديم في المفعول نحو : ضرب ويدا عبد الله، أو المصدر نحو : ضُرب زيد ضربا ، أو العدد نحو : ضُرب ضربتين ، أو الكيفية : قعد القرفصاء ، أو قعد قعدة السّوء بالكسر ، أو الضّرفية ، وكلّ ذلك مذکور في جملته التّنبيهيّة التي ذكرناها بثلاثة أوجه :

الأول : تنكير المفعول للتّكثير ، وتعريف الفاعل للتّقليل والتّوحيد. والثّاني: بناء الجملة بتقديم الفاعل، ثمّ الإحالة إليه بضميرين : ضمير المفعول في الفعل " يتعدّاه" ، وضمير الإضافة في " فعله" ، والثّالث : التعدية بحرف الجرّ إلى التي تفيد الغاية. ولتقديم الفاعل مزية أخرى دلالية غير التركيبية التي ذكرناها. وهي التّأكيد على دوران الجملة الفعلية على جزأين أساسيين : المسند والمسند إليه ، والفاعل مفتقر إليه الفعل، متّصل به ترتيبا، لا يفارقه، فإن تقدّم المفعول عليه رتبة ، فهو تقدّم إعراب لا تقدّم افتقار ، ولذلك عدّه توسّعا يقول : " فإن قدّمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأوّل ، وذلك قولك : ضرب زيدا عبد الله، لأنك إنّما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدّما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأوّل منه" ⁵.

ويستمرّ الاستدلال بأحقية الفاعل للرتبة دلالة وتركيبا وافتقارا في جميع ما سيأتي بعده : في تعدّي الفعل إلى مفعولين ممّا يجوز فيه الاقتصار، وممّا لا يجوز فيه الاقتصار نحو : دعوتُه زيدا أي سمّيته، وقولك : حسبت زيدا منطلقا، وفي تعديته إلى ثلاثة مفعولين نحو : أرى ، وأعلم و نيا.

وباب المقابلة هنا وارد ودقيق حين ينتقل للبناء للمفعول فيُجري المفعول مُجرى الفاعل في الصّيغة السّابقة ، وينسبك عليه ما انسبك على الآخر، يقول : باب المفعول الذي تعدّاه فعله إلى مفعول، فيكون المفعول الذي يقع رتبة الفاعل لبنائه للمجهول ، ويتعدّى إذّاك الفعل المفعول. كما تعدّى الفاعل من قبل إلى مفعول ومفعولين ، ويستخدمه بصيغة التّكرة كما في الأوّل، فالأوّل نحو : يا مضروب اللّيلة الضّرب الشّديد، والثّاني: نبيئت أبا فلان ⁶

فالعبّات التّصيّة الموجودة في مقدّمة الموضوع عند سيبويه ، والتي تسبق الطّرح والمطارحة في مثال الفاعل والمفعول هنا توجيه منه للقارئ إلى تفاصيل لخطاب الآتي، أو لأهميّة عناصر الخطاب ، وكلاهما تنبيه وتقضية أثر .

(2) خطاب الفنقلة :

الفنقلة لغة هي كلمة منحوتة من جملة شرطية ، فعل الشّروط فيها قال ، وجوابه موضوع العلم ، وهي أسلوب منتشر عند النّحاة والفقهاء وجمهور المفسّرين، وأصول العلمين لما فيها من ضبط للأدوات وتنبيه للسّامع إلى أهميّة الموضوع باستعمال

¹ سيبويه : ج 1، ص 183.

² الأعلام نكت ، ج 1، ص 528.

³ سيبويه : الكتاب ، ج 1، ص 13.

⁴ نفسه ، ج 1، ص 14.

⁵ نفسه .

⁶ سيبويه : الكتاب ج 1، ص 19.

الشَّرط والجزاء، ولغته كالاتي: فإن قلت ... ، فإن قال...، فإن قيل...، ولا تكون إلا عند افتراض السؤال بتقرير الفاعل كما في الأولين غيبةً وخطاباً، أو بتعدّي فعله إلى مفعول كما في الثالث، وقد تجيء بإذا ولو تجوزاً عند سيبويه.

والغرض من الفنقلة عنده خاصّة لا يخرج على أربع: الأول: تقعيد القاعدة النحويّة الثاني: تعليلها. الثالث: تحليلها. الرابع:

التمثيل لها.¹

(2.1) التّقييد : فالتّقييد يشمل الحكم بالوجوب والجواز والمنع على التّرتيب. وهي أحكام نحويّة وصرفيّة خاضعة للسان الاستعمال، افتراضيّة أحياناً للقياس، كذا تكون للتفاضل والتّرجيح. من ذلك قول سيبويه في الوجوب: " وإذا قلت مررتُ بزيد الرّاع ثمّ السّاجد أو الرّاع فالسّاجد، أو الرّاع لا السّاجد، أو الرّاع أو السّاجد، أو أمّا الرّاع وأمّا السّاجد، وما أشبه ذلك، لم يكن وجه كلامه إلاّ الجرّ، كما كان ذلك في النّكرة، فإن أدخلت بل ولكن جاز فبهما ما جاز في النّكرة. فعلى فقس المعرفة"².

ألا ترى إلى استخدام الشَّرط بإذا مع الخطاب، وافتراض جملة على القياس بكسر الرّاع والسّاجد على الإتيان بالصّفة في الأوّل، والعطف في الثّاني وهو القصد، مع التّمثيل لأدوات العطف على اختلاف دلالاتها. فالحكم النّحويّ هنا وجوب الجرّ لا غير لقوله: لم يكن وجه كلامه إلاّ الجرّ. ويقيسه على النّكرة وجهها بوجه.

ومنه في باب النّصب ب إذن والرّفْع بها. يقول: "...ولو قلت: إذن أظنّك، تريد أن تخبره أنّ ظنّك سيقع لنصبك، وكذلك إذن بضرّك، إذا أخبرت أنّه في حال ضربٍ لم ينقطع"³. وهو يريد هنا دلالة الفعل الواقع بعدها على الظنّ والخيلة مع احتمال الوقوع فيتعين النّصب. وأمّا إذا وقع الظنّ مع عدم الوقوع تعين الرّفْع بعدها. و" تقول إذا حدّثت بالحديث إذن أظنّك فاعلا، وإذن إخالك كاذبا، وذلك لأنّك تخبر أنّك تلك السّاعة في حال ظنّ وخيلة فخرجت من باب أنّ وكَيْ..."⁴

فأنت ترى بتقعيد قاعدة الوجوب افتتح خطابه بالشَّرط مبتدئا ليقود السّامع إلى الجواب بحثا، فلا ينقطع الخطاب ولا يضيع الجواب.

ومنه في الجواز قول سيبويه في باب ما يكون فيه الاسم مبنيا على الفعل قدّم أو آخر وما يكون فيه الفعل مبنيا على الاسم: " فإن قلت: زيد مررتُ به، فهو من النّصب أبعد من ذلك؛ لأنّ الضّمير قد خرج من الفعل وأضيف الفعل إليه بالباء، ولم يوصل إليه الفعل في اللفظ فصار كقولك: زيدٌ لقيت أخاه، وإن شئت قلت: زيدا مررتُ به، تريد أن تفسّر به مضمرا، كأنّك قلت إذا مثلت ذلك: جعلتُ زيدا على طريقي مررتُ به، ولكنك لا تُظهر هذا الأوّل لما ذكرتُ لك"⁵.

يريد أنّ الفعل عامل في الاسم نحو: ضرب زيد عمرا، فإن قلت بني الفعل على الاسم فمعناه أنّك تجعل الفعل وتوابعه خبرا عن المبتدأ، نحو: زيد ضربته، وهو موضوعنا، ولك فيه الرّفْع والنّصب، ورجّح النّصب لكثرتّه، وجوّد الرّفْع.⁶ وأمّا مثاله: زيدٌ مررتُ به فقد أجاز فيه الرّفْع، ولم يجوّد النّصب على جوازه لتعدية الفعل بالباء، فكأنّ الوصل قد انفرط وصار مثل: زيدٌ لقيت أخاه، وهو تفاعل جميل داخل الوحدات يقوّي التماسك خارجها، ويؤهل الكلمة لتقود غيرها أو تُقتاد ضمن قانون لغويّ متين. فمثلما لا يجوز في زيد هذا النّصب كذلك لا يجوز في زيد ذاك إلاّ إذا قدّرت الفعل مع بعض التّوجيه والإضمار.

¹ للاستادة ينظر رضا هادي حسون العقيدي، وأحمد علي حيوي: أغراض الفنقلة عند سيبويه، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة

بابل، العدد 24، آب 2017، ص 581، 580.

² سيبويه: الكتاب ج 2، ص 8.

³ سيبويه: الكتاب، ج 3، ص 16.

⁴ السرياني: شرح الكتاب، ج 3، ص 202، 206.

⁵ سيبويه: الكتاب، ج 1، ص 83.

⁶ الأعلام: النكت، ج 1، ص 312، 311.

وأما مثال المنع فقولك: هذا رجلٌ أبٌ، وهذا رجلٌ أفضلٌ، وهذا رجلٌ خيرٌ، امتنع فيها الكلام ولم يستقم ، ولم يجز أفرادها بل تعيّن الإضافة أو الوصل بالجملة نحو : هذا رجل أفضل منه أخوه، ولا يجوز تشبيها بحسن الوجه، والحسن الوجه. يقول: " ولو قلت: هذا رجل خير، وهذا رجل أفضل وهذا رجل أب ، لم يستقم، ولم يكن حسنا، وكذلك أي، لا تقول : هذا رجل أي ، فلما أضفهنّ وأوصلت بهنّ شيئا حسُن، وتمنن به، فصارت الإضافة ، وهذه اللواحق تحسنه..."¹.

ومنه أيضا ردّه الابتداء بالتركّة في باب الفعل الذي يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول، واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد، في نحو قولك: كان حليمٌ أو رجلٌ، لنكتة تواصلية بالغة الأهمية ، وهي أنّ المتكلم إذا قال: كان زيد قائما، فالوجه رفع زيد ونصب قائم، فالرفع للأول لأنه معرفة، والنصب للثاني لأنه نكرة، والخبر لا يتم إلا إذا أخبر عمّن يعرف بما لا يعرف. فقولك : كان زيد إنّما ابتدئ بما هو مشترك المعرفة بين المتخاطبين، وأفق الانتظار عند السامع هو الخبر ، ولا يتشبع إلا إذا ذكر المنصوب: قائماً أو حليماً أو رجلاً... فيكون بذلك قد أفاده علم ما لا يعرف، أي نقل ما يعرف لمن لا يعرف، فتتمت الفائدة . يقول : " فإذا قلت: كان زيدٌ، فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك، فإنّما ينتظر الخبر. فإذا قلت: حليماً، فقد أعلمته مثل ما علمت"².

ووجه الشاهد في مثالنا يلحق السابق تبعاً في قوله: " فإن قلت: كان حليمٌ أو رجلٌ فقد ابتأت بنكرة ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور... فكرهوا أن يقربوا باب لبس. " فهل تبينّت درجة الرّبط بالفتنقة؟

2.2) التعليل: إنّ سيبويه يلجأ للفتنقة لغرض التعليل على حكم سابق أو التوضيح لللاحق، وهو بهذا الصنيع يوسّع كلامه بحجج عقلية أو نقلية على السواء، رابطاً إياها بافتراض شرطي كما ذكرنا، ونصّه في ذا عظيم السبك ، يستوي في ذلك ذكر الحكم أولاً أو تركه.

ومما نمثل به في هذا المقام قوله في باب حتّى متى يجوز فيما بعدها النصب والرفع على السواء. ذلك أنّ حتّى لا تنصب ما بعدها إلا إذا كانت غاية . تقول: سرت حتّى أدخلها بالرفع ، وحتّى أدخلها بالنصب ، إذا جعل الدخول غايةً. وتحليل ذلك كما ذكر السيرافي³ أنّ وجه الرفع بعد حتّى هو إثبات السير الذي أدى إلى الدخول، أما وجه النصب فهو كحال التحقير في قولنا: إنّما تكلمت وسكت أي كأنك لم تتكلم، فهو غير مثبت ، فكأنه منفي ولم يعتد به ، فوجب فيه النصب فقال: فأدخلها، وقبح الرفع ؛ " لأنك لم تجعل السير مؤدياً إلى الدخول ، فيكون منقطعاً بالدخول". ونظيره ما سرت حتّى أدخلها بالرفع ، وغيره كثير .⁴ هذا قوله في القول. وينتقل بعد ذلك للحكم مع التعليل في قوله: "كان سيرى أمس حتّى أدخلها ليس إلا لأنك لو قلت: كان سيرى أمس فإذا أنا أدخلها لم يجز ؛ لأنك لم تجعل لك خبراً"⁵. فجعل لهذا الحكم تعليين : الأول امتناع فإذا أنا أدخلها بالرفع، والثاني : فراغ الجملة من الخبر، ثمّ ينتقل بالمثل نحو الفتنقة بتعليل تواصلية مغاير ، وهو أن تجعل الظرف مستقراً أي ثابتاً، فتحول الحكم من هذه الحال في النصب إلى الرفع بعدما تحول من النفي إلى الإثبات ، وهذه نكتة مائزة. يقول سيبويه: " جاز الرفع لأنه استغنى فصارت كسرت لو قلت فأدخلها حسُن ولا يحسن كان سيرى فدخل إلا أن يجيء بخبر كان".

¹ سيبويه: الكتاب، ج2، ص25.

² نفسه، ج1، ص48.

³ سيبويه: الكتاب ج3، ص21، هامش 4.

⁴ نفسه ج3، ص21، 22.

⁵ سيبويه: الكتاب ج3، ص23.

(3.2) التّحليل: إنّما يلجأ سيبويه للتّحليل منفرداً دفعاً للّبس، أو إلزاماً للقاعدة.¹ وعمله في ذلك عمل المطرّز أو الصّانع الماهر، لا يرجع عما قاله إلّا وقد استكمل المعنى والإفهام إعجاماً وإحكاماً. فأما دفع اللّبس فله في كتابه حظوظ، وهو ناموس التّواصل عليه يبني، وعلة المتكلم في العدول، وفي الوجوب والامتناع. من ذلك قوله في باب إجراء الصّفة فيه على الاسم في بعض المواضع أحسن.² والوضع هنا يحتمل النّصب والرّفْع نحو: مررت برجل معه صقر صائد به، إن شئت جعلت صائدا منصوباً على الحاليّة، ورددت الضّمير إلى الفعل، وإن شئت جعلته مرفوعاً على الوصفيّة. ويمضي سيبويه بعد ذلك شارحاً ممثلاً أوضاع المسألة، ذاكرة مواطن القلب فيها إلى أن يصل إلى استحسان الوصف دون الحال في مثل قولنا: هذا رجل عاقل لبيب، وامتناع النّصب ضعفاً؛ لأنّه أراد إثبات الصّفة لرجل. ومنه أيضاً امتناع القلب في نحو: زيد أخو عبد الله مجنون به، بجعل الأخ صفة لا خبراً، والمجنون خبراً. ولا يستقيم زيد مجنون به أخو عبد الله. كما لا يصحّ إلّا الرّفْع في: مررت برجل معه كيسٌ مختوم عليه، إتباعاً بالصّفة، لعود الضّمير عليه. ومثله: مررت برجل معه امرأة ضاربتة. هذا هو الوجه.

وفي مثاله هذا يفترض من المخاطب تركيباً آخر، فيقول: "فإن قلت: مررت برجلٍ معه امرأةٌ ضاربتُها جررتُ ونصبتُ عل ما فسرتُ لك، وإن شئت قلت: ضاربتُها هو، فنصبتُ، وإن شئت جررتُ ويكون هو وصف الضّمير في ضاربتُها حتّى تكون كأنك لم تذكرها".³

والذي علّم من سيبويه هنا أنّ الجرّ والنّصب سواء، فالأول على الصّفة من رجل، وإن بعد، والثاني على الحال منه، وصاحبها معرّف بالوصف والضّمير من ضاربٍ للمرأة، فأمن اللّبس.⁴

وأما مثال إلزام القاعدة فهو تحليل غرضه الاحتكام إليها دون أن ننسى مع هذا أنّ الاستعمال يعضده أولاً. من ذلك امتناع الوصف بالنفس من غير ذكر الضّمير، فهذا حكم. وانظر إليه كيف يوسّع الكلام فيه حتّى كأنّه يستوجب على المخاطب مجّه. يقول: "واعلم أنّه قبيح أن تصف المضمّر في الفعل بنفسك وما أشبهه، وذلك أنّه قبيح أن تقول فعلتَ نفسك".⁵ وهو هنا يكرّر لفظ قبيح استنكاراً. فلا يحسن بالمتكلم توكيد الفاعل من غير إعادة الضّمير. وصوابه فعلتَ أنت نفسك. ويعزّز القبح منفرداً بجواز العموم في أجمعون نحو: فعلتم أجمعون، يقول: "فإن قلت فعلتم أجمعون حسن لأنّ هذا يعمّ به". فنفسك إثبات للفاعل وتوكيد له. وهنالك علة أخرى أنّ لفظ أجمعون لا يكون إلّا صيغة، أمّا نفس فيقع مبتدأً ومجروراً بالحرف، ومنصوباً نحو نفس الجبل مقابلي ونزلت بنفس الجبل. فقيح هنا وحسن هناك.

وأنت تلاحظ كيف جعل سيبويه المنع مقابلاً للجواز وكيف سعى حجاجاً لإثبات قاعدة إعادة الضّمير في الأوّل بعدم حاجة الثّاني لها.

(4.2) التّمثيل: وإنّما يلجأ إليه سيبويه شارحاً، فهو يحقّق القول في الموضوع، ثمّ يفترض تركيباً مشابهاً أو مكّماً لا استشهاداً ولا توكيداً. فالغرض هنا مختلف، والحاجة إليه ماثرة. من ذلك قوله في التّنازع: "فإن قلت: ضربتُ وضربوني قومك، نصبتُ إلّا في قول من قال: أكلوني البراغيث، أو تحمله على البدل فتجعله بدلاً من المضمّر، كأنك قلت: ضربتُ وضربني ناس بنو فلان".⁶

¹ رضا هادي وأحمد علي: أغراض الفنقلة عند سيبويه، ص 584.

² سيبويه: الكتاب، ج 2، ص 49.

³ سيبويه: الكتاب، ج 2، ص 52.

⁴ الأعلام: النكت ج 2، ص 63، 64.

⁵ سيبويه: الكتاب ج 2، ص 283.

⁶ نفسه ج 1، ص 78.

ألا ترى كيف جمع سيويه بين المستعمل "أكلوني البراغيث، وبين الافتراض ضربت وضربوني؟ ثم كيف جعل الأول استدراكا للثاني، وجعل الأول لغة حملها الصّحة ولو بوجه، وحمل البدايّة بمثال نظيره حتّى يكتمل الكلام، وتمثيله هذا لم يأت سهلا، لا ترتيبا ولا دلالة، ونعني بذلك جعل المثال استهلالا، وتعقيب اللّغة استكمالاً؛ لأنّه ليس في معرض إثبات الاستعمال، ولكن التّمثيل له، بدليل قوله: "نصبت: دون ذكر العلة؛ فقد تحدّدت قبل هذا الموضوع.

ومجمل الحديث أنّ العامل في قومك هو الفعل ضربتُ، وفي ضربوني مفعول مظهر، وقد ذهب الفراء إلى أنّ العامل الفعلان معا.¹ وأبطله السيرافي، كما ذهب سيويه أنّ الاختيار إعمال الثاني لقربه في مثل قولنا: ضربتُ وضربني زيد، وهو غير مثالنا.

فأمّا مثالنا فهو حمل الكلام على الآخر، أي على إعمال الأول، فوجب النّصب، ولو لم يحمل لقليل: ضربتُ وضربني قومك بالرفع على أصل القاعدة عند سيويه. ولما تمّ إضمار الجماعة في الثاني وجب نصب المفعول.²

فسيويه كما رأينا يرى إعمال الثاني أوجب، ويمضي في توضيحه وتمثيله، وهو الذي قصدناه بتحقيق القاعدة، ثمّ يعقبه بأمثلة أخرى استكمالاً، ومعللاً دون مساس بأصل القاعدة الأولى. فيجاء كلامه متّصلاً، له إحالته الأولى وإن طال.

(3) حضور المخاطب: لا نكاد نقرأ الكتاب حتّى نجد صاحبه مخاطباً بالفعل: الماضي غالباً؛ قلت، أعملت، أضمرت، الحاضر ألا ترى، المستقبل: اعلم أنّ. أو بالحرف في نحو كأنك، وكما أنك، دون إغفال الفعل المبنيّ لما لم يسمّ فاعله تأكيداً للأول نحو: علم، ويُعلم، ويُضمر.

واعلم أنّ هذا الإضمار وإن كان يفهم منه الغياب إلاّ أنّه يكثر توارده في الكتاب لدلالة المخاطب المعلوم، وإلاّ لم يضمّر. كما يفعل في نحو قوله: يعملون في الحاضر، وقالوا في الماضي، وقال بضمير الغائب المفرد، لكنّه لا يستعمله إلاّ للدلالة على الاطراد أو الاستعمال. ومنه: "ومن قال كيمه جعلها بمنزلة اللّام".³ فتكون إذّاك بمنزلة فإن قلت.

فالمخاطب عنده نوعان: الحقيقي بصيغه المعهودة، وغير الحقيقي بصيغة الذي لم يسمّ فاعله، والغائب المفرد، والجماعة الغائبة، وكلّهما تأكيد لحضور المستعمل أولاً، ثمّ حضور خطاب المستعمل ثانياً.

ومثال ذلك الجمع بين الضّميرين والضّمائر، وبين الفعلين بصيغتي: الحاضر والماضي كما في قوله: "ومثل ذلك عسى يفعل ذاك، فصارت كدتُ ونحوها بمنزلة كنتُ عندهم، كأنك قلت: كدتُ فاعلاً".⁴ فقوله كأنك قلت يقابلها في اللاحق "ألا ترى أنّك تقول: بلغني أنّ زيدا جاء، فأنّ زيدا جاء كلّ اسم، وتقول: لو أنّ زيدا جاء لكان كذا وكذا. فمعناه لو مجيء زيد". ثمّ يختتم الكلام بالمضارع المبنيّ لما لم يسمّ فاعله منفيّاً: "ولا يقال لو مجيء زيد". وانظر إلى استعمال كأنك قلت، وألا ترى أنّك تقول، وقلت وتقول ولا يقال. وميزة أنّ الفاعل غير المسّمّى في يقال إنّما جيء به للدلالة على استعمال الجماعة نظير قوله: يقولون، يستعملون، منعهم أن يستعملوا، يضطّرون، تركوا، أجروا، فلمّا كان الضّمير يعود إليهم إفراداً وجمعاً، كان التّرك كذلك لا يضير و يلبس.

وذكر المخاطب أو غيابه في خطاب سيويه حضوراً، تعزّزه الرّوابط الجمليّة من نحو العطف بالواو، والفاء، وثمّ والإشارة بهذا، والتّفصيل بلما. يقول: "فلما كان المعنى فيهنّ ذلك تركوا الأسماء لئلاّ يكون ما هذا معناه كغيره..."⁵ هذا تمثيله فقس عليه.

1 السيرافي: شرح الكتاب، ج 1، ص 363.

2 نفسه ج 1، ص 366.

3 سيويه: الكتاب، ج 3، ص 6.

4 نفسه، ج 3، ص 11.

5 نفسه ج 1، ص 12.

وقد وجدنا في شرح الكتاب ما يدلّ صراحة على هذا . يقول الأعلام: " اعلم أنّ التعريف معلق بمعرفة المخاطب دون المتكلم ، وقد يذكر المتكلم ما يعرفه هو ، ولا يعرفه المخاطب فيكون منكورا . كقولك للمخاطب في داري رجلٌ ، ولي بستانٌ"¹ . وتصدير كلامه باعلم دلالة تنبيهه ، وتعريف الاسم أعني التعريف دلالة خصوص ، والخبر هو القصد؛ ذلك أنّ تعريف الاسم بينيه المتكلم وفق معرفة المخاطب ، فتكون إذاك دلالة التعريف تابعة له لا للمتكلم ، وتحصل الفائدة بشرط التعريف عند السامع . وفيها تأكيد على الحضور الذي وسمناه . وقد جاء عند السيرافي فضل شرح ، مجمله أنّ المتكلم يجوز أن يكون هو أيضا لا يعرف كقولهم: أنا في طلب غلام أشتريه . ويتحقق التعريف عنده بالنداء ؛ لأنه يفيد ، وإن كان نكرة ، نحو : يارجلٌ ، يا غلامٌ² .

(4) إنّما: جعل سيبويه إنّما حرفا تتعلّق به الدلالة حصرا ، وهو في حقيقته خاصّة إنّما في الرّبط مع دلالات أخرى ليس المقام ذكرها . ويكاد لا يخلو باب منها . وتفيد إنّما التعليل والتفسير عنده . ويحدّدها في مقام آخر بمنزلة أنّ ، أي مع ما بعدها بمنزلة المصدر صناعةً ، وامتناعها عن العمل يفرّقها . ولذلك قال الخليل: " هي بمنزلة فعل ملغى"³ . ويعدها غير عاملة في صلتها كما لا يعمل الذي في صلته ، فهي شبيهة أنّ في وجهه ، وشبيهة الذي في وجه آخر .

ولا تكون إلا مبتدأة ومثال سيبويه : وجدتك إنّما أنت صاحب كلّ خنى قيد في عموم قاعدة . إنّ مع إنّما ، فهي هي حيث كانت إلا في الابتداء فلا يجوز في مثالنا: وجدتك أنك صاحب خنى؛ وذلك أنّ الفعل متعدّد إلى مفعولين: الأوّل الكاف ، والثاني أنّ وصلتها ، وهي بمثابة الجملة المستأنفة ، وإنّما لاتصحّ إلا أن تكون ابتداءً . فلو قلت: جئت أنّما أنت صاحب خنى بفتح الهمزة امتنع لكونه مصدرا ، ولا يكون خبرا ، فلا يصحّ : جئت زيدا فسقّه على المصدر بل على الصّفة أي فاسقا⁴ .

فإنّما جعلت رابطة وهي كذلك عند سيبويه . ولم يتحدّث عنها مبتدأة ك : إنّما أنت مسلم ، وإنّما هو أخوك وإن كان الابتداء شرطا فيها هنا وهناك . ووجه استعمالها عنده موضحةً لحديث سابق غالبا ، ولذلك يتقدّمها كلام سابق دائما طال أو قصر . مثاله : " وذلك قولك : حتّى تفعل ذلك ، فإنّما انتصب هذا بأن وأن هنا مضمرة ، ولو لم تفسرها لكان الكلام محالا"⁵ .

ومراد سيبويه نصب الفعل بعد حتّى بأن المضمرة وجوبا . ويستأنف موضحةً علّة النّصب في أنّ اللام وحتّى حرفان مختصّان بالأسماء في الجرّ ، وما يختصّ بالاسم فيجرّ لا يعمل في الفعل فيجرّه ، فكان إضمار العمل بأن توجيها لعدم الخروج عن الأصل . وأنت تراجع كلام سيبويه تراه استعمل إنّما الأولى تحليلا والثانية تعليلا . وكذلك يفعل في جواز حذف لام الأمر الجازمة في الشّعور تشبيها لها بأن . فكما جاز حذف أنّ جاز حذف اللام أيضا مع إعمالها . واستشهد بقول الشاعر : محمّد تفد نفسك كلّ نفس إذا ما خفت من شيء تبالا

الشاهد حذف حرف العلة من تفد ؛ إذ تقديره لتفد ، واستخدم إنّما معلّلا : " فإنّما ههنا بمنزلة لم"⁶ .

وأما قوله في باب ما جرى من الأسماء التي تكون صفة مجرى الأسماء التي لا تكون صفة ، فهو مثال على تقديم الحكم مفصّلا ، ثمّ تحليله وتعليقه بعد ذلك بوساطة إنّما . ذلك أنّه ذكر أفعال منه ومثلك وأخواتها ، نوع بما يزيد عن عشرة مختلفّة ، ثمّ ربطها ربطا نصيبا بقوة إنّما ابتداءً فقال : " وإنّما صار هذا بمنزلة الأسماء التي لا تكون صفة من قبل ..."⁷ . معلّلا أنّها :

1 . ليست بفاعلة .

¹ الأعلام : النكت ، ج 2 ، ص 36 .

² السيرافي : شرح الكتاب ، ج 2 ، ص 339 .

³ سيبويه : الكتاب ، ج 3 ، ص 130 . والسيرافي ج 3 ، ص 348 .

⁴ السيرافي : ج 3 ، ص 349 .

⁵ سيبويه : الكتاب ، ج 3 ، ص 6 .

⁶ سيبويه : ج 3 ، ص 8 .

⁷ نفسه ج 2 ، ص 24 .

2. لا صفة غير فاعلة نحو حسن وطويل

3. ما يقابلها كحسن يقع مفردا ومضافا ويؤنث ، ويعرّف بالألف واللام.

فهذا التفصيل في الشرح يقابله ذاك التفصيل في التمثيل. ويزيد من قوة إنمّا في النصّ قوّة التعليل بها في قياس الشّبه ، يقول مشيها كلاما بكلام ، وتركيبا بتركيب ، كقولك : " أقرشي قومك؟ وأقرشي أبواك؟ إذا أردت الصّفة ، جرى مجرى حسن وكريم"¹. يريد أنّك لا تقول أقرشيان وأقرشيون ، بل تعاملهما معاملة الصّفة ، فتقول : أحسن قومك ، وأحسن أبواك مشيها ذلك بقول العرب ، رابطا بإنمّا : يقول : " وإنمّا قالت العرب قال قومك وقال أبواك ؛ لأنهم اكتفوا بما أظهروا" أي لم يقولوا مطابقةً للتثنية والجمع : قالوا قومك ، وقالوا أبواك ، واكتفاء بالاسم الظاهر ، وهو أبواك وقومك.

5) التفصيل بأمّا: وممّا جاء أيضا مقويا الماسك التّصي عند سيبويه الأداة أمّا. وهي كما يحدها النّحة للتّفصيل . يقول ابن هشام: وأمّا التفصيل فهو غالب أحوالها². واستشهد بقول الله تعالى في سورة الكهف : أمّا السّفينة ، أمّا الغلام ، أمّا الجدار. وقد تأتي لغبر التفصيل نحو : أمّا زيد فمنطلق.

وزاد الزّمخشري فائدة أخرى ، وهي التّوكيد. وقد أثنى عليه ابن هشام في مغنيه ، وقال : قلّ من ذكره ، ولم أر من أحكم شرحه غير الزّمخشري. وفائدته عنده في نحو قولنا : زيد ذهب ، أنّك تفيد بها توكيد الخبر وإثبات عزمه فيه ، يقول : " قصدت توكيد ذلك ، وأنّه لا محالة ذاهب ، وأنّه بصدد الدّهاب ، وأنّه منه عزيمة"³. وبستدلّ بقول سيبويه: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب . وفيه فائدتان : الأولى التّوكيد والثّانية أنّه في معنى الشّروط.

واستعمالها عند سيبويه للغرض نفسه ، وهي بقدر ما تعما على سبك نظام النصّ بقدر ما تعمل على ترتيبه قصدا في ذهن السّامع ، إمّا ترتيبا زمنيا ، أو تقديرا للأهميّة ، أو انتقالا من العامّ إلى الخاصّ. فمن ذلك قوله في باب إعراب الفال المضارعة للأسماء بعد وصفها بالحروف الخاصّة بأنّها تدخل عليها لا غير ، وأنّها تختصّ بالعمل فيها . وهي أن وكي ولن. ويعدّ هذا بالنّسبة لما يلحق حكما عامّا ثابتا وقانونا يتعدّى إلى حروف الجرّ باعتبارها لا تدخل هي الأخرى إلّا على خاصّ ، وهي الأسماء ، وتختصّ بها دون غيرها ، فهي تقابلها حكما بحكم⁴.

وينتقل بعد الاطمئنان من وضوح الحكم إلى تفصيل القول فيها باستخدام أمّا. فيذكر قول الخليل: " فأما الخليل فزعم أنّها لا أن ، ولكّهم حذفوا لكثرتهم في كلامهم " ، أي أنّ لن تتكوّن من لا وأن نظير قولهم : ويلمه كلمة واحدة ، وأصلها وي لأّمه ، وكذلك فعلوا في يومئذ كلمة واحدة ، وهلا ...

هذا مذهب الخليل . أمّا غيره فهي على أصلها ملزمة واحدة ، وهي شبيهة لم في الجزم. ووجه شبيها انفرادها لا تركيبها. فلو تأملت موقع أمّا لوجدتها تصدّرت العَلَم وهو الخليل ، والاسم وهو غيره. وكذلك تكون. ولو نظرت إلى دلالتها لوجدتها زائدة معنى خاصّا ، بعد الحديث عن أدوات النّصب جملة ، وأمّا الثّانية المتّصلة بغيره فهي نقيضة الأولى ، وزيادة بيان . فرباط الوصل هنا بيّن ، وإن كانتا متقابلتين في الدّلالة.

ثمّ يستدلّ سيبويه على صحّة القول الثّاني بتعدّد قول : أمّا زيدا فلن أضرب ، فتكون أمّا هنا داخله في المثال متّصلة بالمعنى العامّ ، وليس لها كبير ارتباط بالتّفصيل السّابق. بمعنى آخر إنّ سيبويه هنا استعمل أمّا استعمالين : واحد في نسيج النصّ ، والآخر خارج من نسيجه العامّ ، داخل في نسيجه الخاصّ ، فيتحقّق هنا تفصيل المسألة عل ما أوردناها.

¹ نفسه ج 2 ، ص 37.

² ابن هشام : مغني اللبيب عن كتب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان ، دط. ، ج 1 ، ص 70.

³ نفسه ، ص 71.

⁴ سيبويه : الكتاب ، ج 3 ، ص 5.

وقد تجيء عنده على وضعها ودلالاتها الترتيبية بتتالي التكرار فيها ، وبلا فاصل ، فيقوي الوص . من ذلك قوله في علة ارتفاع الأفعال المضارعة للأسماء أنها تكون في موضع مبتداً ، أو مبني على المبتداً ، أو موضع الاسم المرفوع غير المبتداً ، ولا المبني عليه ، وفي موضع اسم مجرور أو منصوب ، فإنها ترتفع لهذه العلة. ولا يصح غيره. ألا ترى أنه لا يعمل فيها الجرّ كما لا يعمل النصب والجزم في الأسماء. فإذا صحّ مجيئها على الأحوال المذكورة سلفاً ، وتعدّ الجرّ ، تعين عند ذلك الرفع¹ وهذه هي علة المضارعة . ثمّ ينبري في التمثيل مستخدماً أمّا ، ومرتبياً أمثلته حسب الحالات التي حدّدها سابقاً.



وأنت تلاحظ كيف جمع في سياقه التركيبي الترتيب والتفصيل معاً ، مراعيًا تنظيم الحكم مع المثال المنطوق ليتمّ استقبال الرسالة على تلك الهيئة ، تجنّباً للتشويش ، ومراعاة للقصد.

6 (الترتيب : ونقصد بالترتيب هنا انتظام الوحدات على الخطبة اللفظية ، وهو نوعان: انتظام تابع لنظام العربية ، وانتظام تابع للمعاني. أمّا الأول فهو نظم سيبويه الخاص. وهو لا يخرج عن اقتفاء قواعد العربية في التقديم والتأخير ، والحذف وجوبا وجوازا ، وله دلالاته ، ولكنه ليس المقصود في مقامنا هذا. وأمّا الثاني فهو تتابع اللفظ لتتابع المعنى النحوي اهتماما بالمخاطب ، ليتابع الكلام أنا بأن ، واهتماما باللغة ودلالة ألفاظها.

والملاحظ أنّ سيبويه يستعمل هذا المقصد واصلا وفاضلا في مظاهر مختلفة" تعدّد الآراء ، تفصيل المسائل ، سرد الأمثلة ، مفردة ومجملة ، وترتيب أزمنة الفعل ، وعند التّقابل . فمن أمثلته ذكر مجاري الكلم من العربية² ، يقول : " وهي تجري على ثمانية مجاز: على النصب والجرّ والرفع والجزم ، والفتح والضّم والكسر والوقف"³.

فقوله مجاري الكلم أي حركات أواخر الكلم ، بدليل لفظ تجري . وهي ثمانية حركات عنده ، وأربعة عند المازني ، فقد غلّط سيبويه ، وزعم أنها لا تخرج على رفع ونصب وجرّ وجزم ، وأمّا الأربعة الباقية فهي المبنيات ، ولا تعدّ منها لأنّ حركات الآخر كالأول ولا تزول ، والجري يقع فيما تغيّر ويزول⁴ . وقد أجاب عنه السيرافي :

1. أنّ حركة فاء الكلمة وعينها لازمة ، وأمّا اللام فهي متحركة على الأصل في الدّرج ، فإن شبهت لام الاسم بعينه وفائه فهو وهم ، لأنّهما لازمتان ، واللام في عمومها غير لازمة ، فعمّمت أيضا على المعرب والمبني.

¹ سيبويه: الكتاب ، ج3 ، ص 10.

² سيبويه : الكتاب ، ج1 ، ص 13.

³ نفسه.

⁴ السيرافي : ج1 ، ص 21 ، والأغلم: التكت ، ج1 ، ص 168.

2. أنّ لامات الكلمة هي مجاري الكلم، وهي موضع التّغيير ، فجاز إطلاق الكلّ عليها ، وإن كان بعض الحركات لازما ، كتسمية سيبويه وأواخر الكلم بحروف الإعراب ، والمبني لا يعرب.

ووجه الشّاهد عندنا هو سلسلة المعرب وأثره. وإنّما قلنا المعرب ؛ لأنّه قصد سيبويه في ذكر الأربعة الأولى: " وإنّما ذكرت لك ثمانية مجاز لأفرّق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة"¹. ووجه السيرافي كلامه بقوله: " لأفرّق بين المرفوع والمنصوب والمخفوض والمجزوم"². وقد فرّق بذلك بين المعرب والمبني، فالتّصّب للإعراب والفتح للبناء ، وعليه قس الباقي. والنّاظر لترتيب سيبويه يرى فرقا بين القسمين : التّصّب والجرّ والرّفْع والجزم، ويلمها عنده الفتح والضّمّ والكسر والوقف. وو هنا لم يقابل بين الحركة والإعراب وإلا لذكرها مرتّبة كالآتي : الفتح، والكسر والضّمّ والوقف، ولكنّه أراد الاختلاف بين الإعراب والبناء فجعل الاختلاف في ترتيب الكلم أيضا.

ولسائل أن يسأل: إذا كان ذلك كذلك، فهلّا جعل التّرتيب دالّا فقال: التّصّب والرّفْع والجرّ والجزم؟ فيجمع المشترك مع والخاصّ معا، وقد ذكرها كذلك السيرافي فقال: " أمّا قوله مجازي فإنّما أراد به الحركات، حركات أواخر الكلم، والدليل على ذلك قوله: وهي تجري على ثمانية مجاز على التّصّب والرّفْع ، فأبدل التّصّب والرّفْع وما بعدما من ثمانية..."³ وكذلك فعل الأعلام: " وهي تجري على ثمانية مجاز : على التّصّب والرّفْع وما بعدهما من الثمانية"⁴.

قلنا: إنّه فعل هذا ليفرّق أيضا ؛ إذ جعل الجرّ بعد التّصّب ، والجزم بعد الرّفْع متاليين ، بلفظتين متقابلين أي : مشترك وخاصّ، ومشارك وخاصّ. ألا ترى الجرّ خاصّ بالاسم فكلن بعد المشترك وهو التّصّب ، وأنّ الجزم خاصّ بالفعل فكان بعد المشترك أيضا لتحصل المخالفة.

وقد حافظ السيرافي في موضع آخر على ترتيب سيبويه فقال: " وتصحيح اللفظ فإنّما ذكرت لك ثمانية مجاز يعني : التّصّب والجرّ والرّفْع والجزم، والفتح والضّمّ والكسر والوقف"⁵، على ترتيب سيبويه ، ثم يعاود ذكرها بعد سطر : لأفرّق بين المرفوع والمنصوب والمخفوض والمجزوم.

فلماذا غير هنا، والترم في البناء فقال: " وبين ما يبني عليه الحرف بناء لا يزول ، ومثّل على ذلك باحترام التّرتيب : فتحة أين ، وضمة حيث، وكسرة هؤلاء، ووقف من. والذي يؤكّد لنا صحّة ما نذهب إليه و القصد عند سيبويه أنّه لمّا ذكر حروف الإعراب قال : فالرّفْع والجرّ والتّصّب والجزم لحروف الإعراب.⁶ وعند السيرافي: " فالتّصّب والرّفْع والجزم والجرّ"⁷. فهو عند سيبويه على ما ذكرنا من تغيرّ الموقع الرّفْع والتّصّب ، وعند السيرافي بتأخّر الخاصّ وتقدّم المشترك. وقد لزمها أيضا في قوله ج 1، ص 23: " فلم قال سيبويه : الرّفْع والتّصّب والجرّ والجزم لحروف الإعراب " بتغيير آخر في مواقع المشترك.

لعلّ السيرافي لم يراع التّرتيب لدلالة الواو على الجمع ، لكنّ سيبويه يعنيه، وبدقّة ملفتة مبتدئا بالاسم رتبة منصوبا فمجرورا فمرفوعا مع التّنبية على الامتناع الجزم. ثمّ ذكر الفعل منصوبا فمرفوعا ، فمجزوما مع التّنبية على امتناع الجرّ بالتمثيل.⁸ فيكون التّرتيب علامة نصيّة جازة الكلام إلى حسن القبول ثمّ إلى الاستحسان القبول .

¹ سيبويه: ج 1، ص 13.

² السيرافي : ج 1، ص 22.

³ السيرافي : ج 1، ص 20.

⁴ الأعلام : النكت ، ج 1، ص 167.

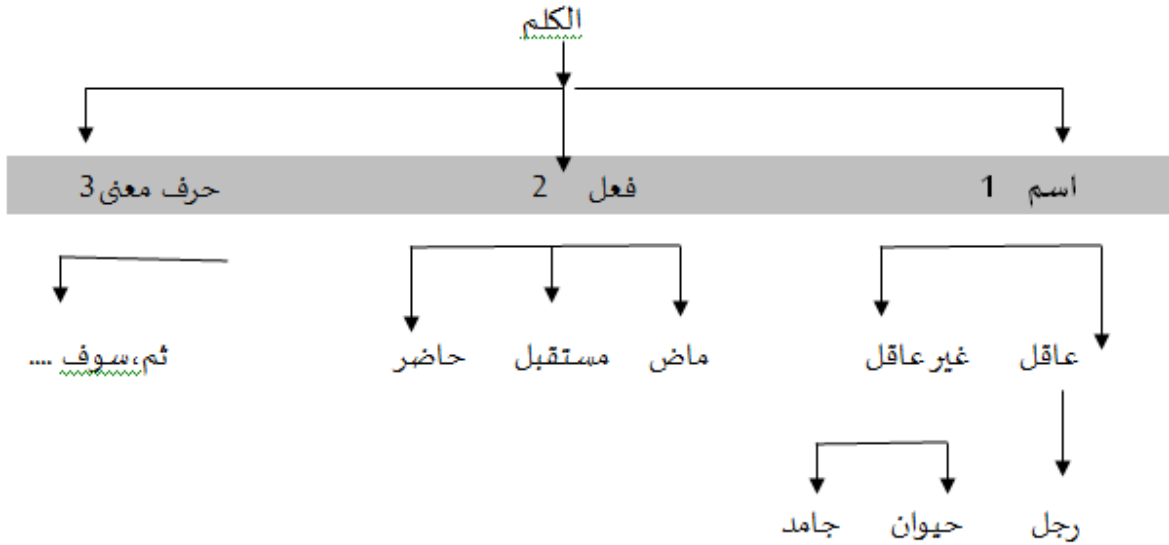
⁵ السيرافي : ج 1 ، ص 22.

⁶ سيبويه : ج 1 ص 13.

⁷ السيرافي : ج 1 ، ص 23.

⁸ سيبويه : الكتاب ج 1 ص 14.

ومثال آخر على الترتيب الدلالي قوله في الكلم: " فالكلم: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"¹. وقد رتبها سيبويه وفق منهجية ذهنية دالة. فبدأ بالاسم وكذلك فعل في التمثيل قائلاً: فالاسم: رجل وفرس وحائط، وترك الفعل ثانياً لأنه تابع له: "فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء" أي مشتقة من مصادرها. والمصدر عنده هو أصل المشتقات، ولذلك ترتب الاسم أولاً. ثم ذكر الحروف. وهو في الاسم ممثل لا معرف، وصنيعه في الترتيب واحد؛ إذ قدم لفظ رجل وهو ذات عاقلة، ثم ذات غير عاقلة وهو فرس، ثم حائط وهو اسم جنس جامد وفق الخطاطة الآتية:



وكذلك فعل في تقسيم الفعل بعد حده: الماضي المنقطع ويقابله المستقبل، وما هو كائن لم ينقطع. ولسائل أن يقول: ولماذا لم يرتبها كما ذكرت لا كما ذكر؟

نقول إنه قصد فيما فعل أمرين: المقابلة بين الماضي والمستقبل، وتحديد الزمن التام ماضياً أم مستقبلاً، ثم المستغرق ثالثاً.

(7) المماثلة: وهي نوع من التفسير لتقريب التحليل والتعليل والشرح على السواء. ويتعين بأدوات رابطة، وأغلبها حروف كالكاف وكأنّ وكأتما وكما، وأسماء مثلما والمنزلة، وأفعال ك مائل وجري مجرى، فيربط السابق باللاحق ربطاً لفظياً أولاً، ثم تطابقاً ثانياً جزئياً أو كلياً أو مشتملاً. وتجعل المخاطب منتمياً للنص مرافقاً له، مفككاً لشفراته عبر آلية التماثل لا المغايرة، بعقد كلامي واضح، هو المسافة بين سيبويه والنص، ثم بين النص والمخاطب في انسجام متناغم واع. يقول في فتح الأفعال الماضية: " والفتح في الأفعال التي تجري المضارعة قولهم: ضرب، وكذلك كل بناء من الفعل كان معناه فعل"².

إنه يحكم معمماً فتح الفعل الماضي على وزن فَعَلَ مستخدماً لفظ يجري مجرى، وهو يقارنها بالمضارعة، ويعلل الفتح دون السكون أو غيره لأنها ضارعت ما ضارع الاسم، والأسماء حقها الإعراب فكانت مضارعة الماضي ناقصة من وجه: وهو أنّ المضارع شابه الاسم فأعرب إعرابه، لكن الفعل الماضي شابه المضارع فتحركت اللام بالفتح فنقصت المضارعة. ولذلك قال تجري المضارعة.

¹ سيبويه: ج 1، ص 12.

² سيبويه، ج 1، ص 16.

ويمضي سيبويه معللاً أوجه المضارعة في كما : " وتقول : إن فعل فعلت فيكون في معنى إن يفعل أفعال ، فهي فعلٌ كما أنّ المضارع فعلٌ ، وقد وقعت موقعها ، وإن وقعت موقع السماء في الوصف كما تقع المضارعة في الوصف ، فلم يسكنوها كما لم يسكنوا من الأسماء ما ضارع المتمكن ، ولا ما صبر من المتمكن في موضع بمنزلة غير المتمكن . فالمضارع من عل حركوه لأنهم قد يقولون من عل فيجرونه . وأما المتمكن الذي جعل بمنزلة غير المتمكن في موضع فقولك : ابدأ بها أولٌ ، ويا حكم¹ . فانظر إلى الكاف من قوله كما أنّ المضارع فعلٌ ، وإلى كما في قوله : فلم يسكنوها كما لم يسكنوا من الأسماء ، وإلى منزلة في : بمنزلة غير المتمكن ، .. فكلمها تراكيب دالة على المقابلة لغرض إظهار أوجه المشابهة والاستدلال بالحكم العام السابق ، وهو بناء الماضي على الفتح .

ونظيره في قوله : " وإن شئت نصبت فقلت : مبروراً مأجوراً ، ومصاحباً مُعانا . حدّثنا بذلك من العرب عيسى ويونس وغيرهما ، كأنه قال : رجعت مبروراً ، واذهب مصاحباً² . إنه باستعمال الحرف كأن يطابق كلياً بين الذكر والحذف ، أي بين الأصل والعدول ، بفرق ينماز فيه الثاني عن الأول لغرض تواصلٍ ، منه الخفة ، ومن عموم الدلالة بعد الحذف بالأضمار . ومنه أيضاً في استعمال أن وأو : " وأما قولهم أمررت برجل أم امرأة؟ إذا أردت معنى أيهما مرتت به . فإن أم تشترك بينهما كما أشركت بينهما أو . " ومعناه أن أم فيها معنيان : الاستفهام والعطف ، وتشبه أو في ذلك . وتوضع للاستفهام لوجهين : إذا أردت أيهما ، وأما الثاني فالمنقطعة ، وهي في هذه الحال تشبه بل في الانقطاع ، وتخالفها في أنّ الاستفهام مستأنف بعد كلام متقدّم كما أنّ بل كلام محقق بعد كلام متقدّم³ .

فاستعمال سيبويه كما يعلّق الأول بالثاني ، ويحتم على المخاطب استخراج أوجه الاتفاق وجوباً لا غير إن تطابقاً ، أو يزيد عليها مواضع الاختلاف إن تغيّرا وضعاً ، أو دلالة ، أو رتبة . ومن المطابقة في الشبه صيغة قوله : " وقالوا : ودّدته ودّاً مثل شربته شرباً ، وقالوا : ذكّرتُهُ ذكراً كحفظتُهُ حفظاً⁴ . وأمثلة هذا كثير في مطابقة الصيغ بعضها لبعض . فيكون الثاني للأول عاضداً ورجعاً ، ويكون الأول بالثاني امتداداً صيغة ، وتقدّم رتبة ، ولا فرق في الدلالة غير الذي ذكرناه من تبعية .

الخاتمة :

حاولنا خلال هذه الورقة أن نوضّح المحدّدات النصّية في الخطاب التحوّلي لسيبويه ، وتتبعنا أقواله في كتابه ، فاستخرجنا آليات لفظية تقوّي نسيج كلامه ، وتربطه ببعضه ، كما توجّه دلالته نحو : التفسير ، أو التعليل ، أو التمثيل ، و التقديم ، بأدوات هي : العتبة النحوية ، وحضور المخاطب ، والترتيب ، والرتبة ، والمماثلة ، واستخدام أنما ، وأما . ووصلنا عبر القراءة المتأنية للكتاب وشرحه أنّ العلاقات التركيبية عند سيبويه يعتمدها الكثير من التحويل والعدول ، ودلالات الوحدات خاصة عنده ، كما كشفت لنا الدّراسة الكثير من المفاهيم الغالطة بسبب التعميم أو التخصيص حيث لا يصلح هذا ولا ذاك في موضعه كمفهوم المبتدأ ، ومجاري الكلم ، والحرف ، والمشابهة ، ودلالة المشاركة في أم ، وغيرها فيما مثلنا ، فكيف بما لم نعمل ؟

وقد أكّدت لنا الدّراسة مجموعة من النتائج :

¹ نفسه ج 1 ، ص 16 .

² نفسه : ج 1 ، ص 271 .

³ الأعلام : ج 2 ، ص 419 .

⁴ نفسه ج 4 ، ص 7 .

- أن سيبويه يعي إجرائيًا مفهوم النَّصِيَّةِ ، وقد ظهر ذلك في كلامه ومجاري أفعاله.
 - أن متعلقات الكلام عنده يحدّها المخاطب وأدوات الرِّبْط وهي كثيرة .
 - أن التَّماسك اللُّغويّ عنده يوَلِّد التَّماسك النَّصيّ
 - أن آليات الرِّبْط كثيرة وهي قويّة جعلت الكلام كتلة واحدة يشدّ بعضه بعضا ، ويجزّه أيضا.
 - أن انتظام الوحدات وترتيب المعنى خاصيّة في خطاب سيبويه.
 - أنا نحتاج لقراءات متأنّيّة في هذا السّفر لننطبع بما جاء فيه بناء ومفهوما .
- مصادر والمراجع:

- إدريس مقبول: سيبويه معتزليا حفريات في ميتافيزيقا النّحو العربيّ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 2015.
 - الأعلام الشنتمري: النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه، دراسة وتحقيق رشيد بلحبيب، المملكة المغربية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1999.
 - دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان ، دار عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998.
 - ابن منظور: لسان العرب مادة (ح ب س).
 - خليل بن ياسر البطاشي: الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، دار جرير للنشر ، ط1، 2009.
 - السيرافي: شرح كتاب سيبويه، تحق أحمد حسن مهدي، وعلي سيد رضا، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط1، 2008.
 - عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، تونس ليبيا ، 1981.
 - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز تحق محمود محمد شاكر مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004.
 - الغشام للنشر والترجمة، عمان ط1، ص 34. ونعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، عالم الكتاب الحديث ، عمان ، 2009.
 - محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النّصّ ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ط1، 2008
 - محمّد خطابي: لسانيات النّصّ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثّقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط2، 2006.
 - ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب تحقيق محمد معي الدين عبد الحميد ، المكتبة المصرية ، بيروت لبنان ، دط.
- المجلّات :

- إدريس مقبول: السّياق في تداوليات أبي إسحاق الشاطبي، مجلة العلوم الكلام والاتصال ، العدد1، رقم 1، 2017.
- بشير إبرير: آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه، مجلة كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر، جوان 2012.
- رضا هادي حسون العقيدي، وأحمد علي حياوي: أغراض الفنقلة عند سيبويه ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية ، جامعة بابل ، العدد 24، آب 2017.
- نجاح فاهم صابر العبيدي: آليات التّفسير التّحوي عند سيبويه في المعنى أنموذجا ، مجلة أهل البيت ، العدد 21.

آليات التماسك النصي من خلال علوم القرآن

التفسير الكبير ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي

Mechanisms of textual coherence through Quranic science

The great interpretation of ARazi

د. بلعربي بهية

جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله - الجزائر

ملخص

لقد شكل تفسير القرآن الكريم مجالاً مشتركاً بين كثير من العلوم والمعارف التي شكلت المحاور الكبرى في التراث العربي الإسلامي، ولكن علماء «علوم القرآن» والمفسرين البلاغيين للقرآن الكريم، كان لهم النصيب الأوفر في مقارنة النص القرآني، وذلك بتوظيف كثير من العلوم والآليات والأدوات التي تُحيط بالنص الكريم.

في هذه الورقة نحاول استجلاء حلقة الوصل بين علوم مركزية في الثقافة الإسلامية، عبر علم المناسبة التي هي من علوم القرآن الكريم، واللسانيات النصية، عبر التماسك النصي الذي يعد مقولة جوهرية فيها. وسوف نكشف بعض الإشارات النصية المهمة في علوم القرآن من خلال كتاب "التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي".

وفي هذه الورقة أيضاً نطرح سؤالاً محورياً تتفرع منه عدة أسئلة ومفاده هل هناك علاقة بين علم المناسبة وما انطوت عليه من مفاهيم وما جاءت به لسانيات النص؟ وهل تعتبر بداية أصيلة لما أصبح يعرف بلسانيات النص وعليه هل يمكن التأسيس لللسانيات نصية عربية؟

الكلمات المفتاحية: التماسك النصي -- لسانيات النص - المناسبة.

Abstract

In this article, we try to clarify the link between the central sciences in Islamic culture, through the science of relevance which is one of the Quranic sciences, and the textual linguistics, through textual coherence, which is a fundamental statement. We will reveal some important textual references in the science of the Quran through the book "ATAFSSIR ALKABIR (Great Interpretation)" by Imam Fakhr al-Din al-Razi.

In this article, we also ask a central question, which raises several questions: is there a relation between the science of the relevance and the linguistics of the text? Is this considered as an authentic beginning for the linguistics of the text and is it possible to establish the linguistics of Arabic texts?

Keywords: textual coherence - textual linguistics - the occasion.

مقدمة

تعدّ اللسانيات النصية مسارا في الدراسات اللغوية فرض نفسه بقوة في الآونة الأخيرة، بحيث انتقل باللسانيات من حيز الجملة إلى فضاء النص. فقد تطورت اللسانيات النصية في السبعينيات القرن الماضي على يد علماء من أمثال تون فان ديك وهاليداي ودي بوجراند وتكونت بالتدرج إلى أن أصبحت حقيقة راسخة.

ويحتل التماسك النصي موقعا مركزيا في الأبحاث التي تهتم بالتحليل النصي، فهو يعمل على توظيف الآليات النحوية في الربط بين أجزاء النص، ومن ثمّ الوصول إلى فهم المعنى عبر رؤية متماسكة.

وفي علوم القرآن كثير من المباحث التي تصب في الاتجاه النصي؛ إذ منطلقها الأساس هو التعامل مع نص القرآن الكريم، وسوف نحاول اكتشاف بعض الإشارات النصية المهمة في علوم القرآن من خلال "كتاب التفسير الكبير ومفاتيح الغيب لفخر

الدين الرازي"، ومن الإشارات القيّمة للرازي في هذا المجال ولها علاقة بالتماسك النصي، حديثه عن معرفة المناسبات بين الآيات والسور.

تعريف المناسبة

أ- لغة:

المناسبة في اللغة المقاربة والمشاكلية. يقال: فلان يناسب فلاناً، أي يقاربه ويشاكله. ومنه النسب الذي هو القريب المتصل بغيره، كالأخ وابن العم.

ويقول ابن فارس إن (النون، والسين، والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء، منه النسب، سمي لاتصاله وللاتصال به تقول: انسب ونسبت، والنسب الطريق المستقيم لاتصال بعضه من بعض)¹

ب اصطلاحاً:

وفي اصطلاح علماء القرآن الكريم هي بيان وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة، ويعرفها البقاعي بقوله (علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن)²، وقد عرف الرازي المناسبة بقوله " المناسبة هي الملائم لأفعال العقلاء في العادات فإنه يقال هذه اللؤلؤة تناسب هذه اللؤلؤة أي الجمع بينهما في سلك واحد متلائم"³.

ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه⁴، فالبحث في المناسبة والتناسب بين الآي بحث عن علاقة آية بأية أخرى متقدمة⁵.

ويبدو أنّ معنى المناسبة في اللغة يتوافق مع المعنى الاصطلاحي، فكما يترابط المتناسبين تترابط آيات القرآن وتترابط سوره وسواء ظهر هذا الربط أو خفي، فالقرآن الكريم كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض والدليل عليه أنه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء الجواب عليه في سورة أخرى⁶.

أهمية علم المناسبة:

إنّ علم المناسبة من أبرز علوم القرآن الكريم فهي الأداة التي تمكن المفسر من فهم القرآن كوحدة متكاملة، فالباحثين في علوم القرآن استطاعوا مقارنة النص القرآني حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات والسور، فخصصوا لها علماً قائماً هو علم المناسبة⁷، فعلم المناسبات علم جليل القدر، وقد نبه إلى أهميته وعظيم فائدته عدد من العلماء حتى قال الفخر الرازي "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"⁸، ونجد البقاعي يقول (ومن ثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب)⁹.

¹ أبو الحسن احمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، دت، ج 2، ص 423.

² البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن بن الرباط، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ص 6.

³ الرازي فخر الدين، المحصول في علم الأصول، تحقيق طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1997، ج 5، ص 158.

⁴ الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت لبنان، دت، ج 1، ص 41.

⁵ خطابي محمد، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، بيروت، 1991، ص 189.

⁶ الرازي فخر الدين، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، لبنان، 1981، ج 30، ص 214.

⁷ وليد مراد، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2003، ص 63.

⁸ الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، ج 30، ص 214، مرجع سابق.

⁹ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ص 50.

ومن أهميته أيضا إبراز وجه من وجوه الإعجاز القران الكريم للوصول الى الحقيقة المطلقة، وهي أن القرآن الكريم كلام الله المنزل وليس من اختراع بشري، تصديقا لقوله تعالى " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " سورة النساء /82.

فائدته:

إبطال الشبهات وإزالة الشك الحاصل في القلب بسبب خفاء وجه الاتصال بين بعض الآيات، وبالتأمل والتدبر يزول الإشكال، فقد يظن أنّ الآيات نزلت في أوقات متباعدة وفي موضوعات متعددة فلا رابط بينها، بل إن هذا الترابط بين الآيات والسور نوع من أنواع البيان والإعجاز، رغم تباعد الزمان واختلاف الموضوعات

و إدراك بعض أسرار التشريع وحكم الأحكام ، وإدراك مدى التلازم التام بين أحكام الشريعة؛ فإذا قرأت قوله .تعالى : " قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى " النور/30، وتعرفت على المناسبة بين الأمر بغض البصر وحفظ الفرج علمت ما بينهما من التلازم والتلاؤم؛ فحفظ الفرج لا يتم إلا بغض البصر، ومن أطلق بصره في الحرام فحري أن تزل قدمه في الآثام .

أيضا إن المناسبة بين الآيات والسور دلالة لغوية قوية في التعرف على مراد الآيات ورفع اللبس عنها فهي تعين على فهم معنى الآيات ومن ذلك: خلاف المفسرين في معنى قوله .تعالى " وَالصَّافَّاتِ صَفًّا " الصافات/1 ، فقال قوم: هي الملائكة، وهذا قول الجمهور، وقال آخرون: هي الطير، والصحيح الأول؛ لأنه ذكر في آخر السورة قول الملائكة: "وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ" الصافات/166 .

ومن فائدته كشف حكمة تكرار بعض قصص القرآن، وأن كل قصة أعيدت في موطن فلمناسبتها ذلك الموطن، ولذلك ترى اختلافاً في ترتيب القصة ونظمها ومقدار ما يذكر منها بحسب المناسبة ، وإن كانت القصة في أصلها واحدة . وكثيرا ما يكون التعرف على المناسبة بين المقاطع طريقا لمعرفة الهدف الأساسي من السورة أو المحور الذي تدور حوله السورة¹.

نشأته وظهوره:

وقد ظهرت بوادر العناية بالمناسبة أول ما ظهرت بشكل تنبيهات بلاغية تنبه لها بعض الأعراب، من خلال ربطه بين سياق الآية وما يتناولها مقطعا، وعلاقته بخاتمها من حيث الدلالة.

ومن ذلك ما نقله أبو القاسم الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى "فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" البقرة/209، روي أن قارئاً قرأ غفور رحيم، فسمعه أعرابي فأنكره، ولم يقرأ القرآن، وقال إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه² وعندها تتحول الدلالة من التحذير الى الإغراء.

مبدئيا يمكن القول أن العلماء يعدون أبا بكر النيسابوري (ت 324هـ) أول من أظهر علم المناسبات في بغداد، وكان يزري على علماء بغداد لجهلهم وجوه المناسبة بين الآيات، وكان إذا قرئت عليه آية أو سورة يقول: لِمَ جُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى هَذِهِ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة . وقد نسب السيوطي رحمه الله إليه أنه أول من سبق إلى هذا العلم³.

¹ مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، ط 5، دمشق، 2007، ص 43.

² الزمخشري، محمد بن عمر، تفسير الكشاف، تحقيق محمد مرسي عامر، دار المصنف، القاهرة، دت ص 41.

³ السيوطي ، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق عبد الرحمن فهد الزواوي، دار الغد، ط 1، 2006، ص 261.

ويضيف السيوطي عدداً آخر من العلماء الذين تحدثوا عن المناسبة في القرآن الكريم فقد (أفردته بالتأليف أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سماه " البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن " وتزامنا مع السيوطي برهان الدين البقاعي في كتابه المعروف "نظم الدرر في تناسب الآي والسور"¹ وبالإضافة إلى ما ألفه السيوطي ككتاب "تناسق الدرر في تناسب السور" وكتاب " مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"² وغيرها من الكتب.

ويبدو أن أولية علم المناسبة القرآنية غير واضحة تمام الوضوح إلى الآن ، ولا سيما مع بقاء كثير من مصادر التفسير وعلوم القرآن مخطوطة بعيدة عن أيدي الباحثين.

موقف العلماء منه:

وقد ظهر اختلاف بين العلماء حول المناسبة ووجودها في القرآن الكريم، فهناك من يرى أنّ (القرآن الكريم نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة وأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربطه ببعضه ببعض..لاختلاف العلة والأسباب)³، أي كيف يرتبط ما أنزل متفرقا حسب الوقائع، ونزوله متفرقا لا يعني عدم ارتباط الآي ببعض فقد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفردة، وفصل الخطاب : أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا ، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سورة كلها وآياته بالتوقيف⁴.

ورغم ذلك وضع العلماء ضوابط، منها وحدة الموضوع سواء ذلك وحدة موضوع السورة ذات الموضوع الواحد أو وحدة موضوع المقطع، أو وجود رابط من الروابط عام أو خاص، عقلي أو حسي، أو غير ذلك من العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول⁵، وهذا اختيار العز بن عبد السلام ، فقد قال (المناسبة علم حسن ، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك ، يُصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه)⁶.

وقد فصل صبيحي إبراهيم الفقي في ذلك بقوله (والذي نراه أنّ القرآن الكريم نزل جملة واحدة الى بيت العزة في سماء الدنيا في ليلة واحدة، ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيف وعشرين سنة منجما، وهذا النزول مرة واحدة يوحى بتماسكه ووجود المناسبة بين الآيات من ناحية وبين السور من ناحية أخرى، ومن ثم فلا مكان للزعم بعدم الربط بين آياته وسوره)⁷.

أنواع المناسبات في القرآن الكريم:

النوع الأول:

المناسبة في السورة الواحدة: ويمكن إجمالها في:

— المناسبة بين حروف كلمات الآية

— المناسبة بين كلمات الآية

— المناسبة بين الآيات المتجاورة

¹ نفسه، ص 261.

² السيوطي جلال الدين عبد الرحمن ، مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، دار المنهاج للنشر والتوزيع، حققه عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، ط1، الرياض، 1426هـ ، ص 20.

³ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 36، مرجع سابق.

⁴ نفسه، ص 36.

⁵ نفسه، ص 38.

⁶ السيوطي ، الإتيان في علوم القرآن، ص 261 ، مرجع سابق.

⁷ صبيحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي ، بين النظرية والتطبيق، دار قباء القاهرة، ط1، 2000، ج 2، ص 89.

- المناسبة بين افتتاح السورة وخاتمتها
- المناسبة بين اسم السورة ومقصدتها

النوع الثاني:

المناسبة بين السور: وتظهر في:

- المناسبة بين افتتاح السورة وخاتمة ما قبلها
- المناسبة بين خاتمة السورة وفتحة السورة التي بعدها
- المناسبة بين مضمون السورتين المتجاورتين
- المناسبة في التقابل المعنوي بين السورتين المتجاورتين.

التماسك النصي عند فخر الدين الرازي:

يُعدّ الرازي¹ من أبرز من فتح بابا واسعا لفهم النظم القرآني، وكان أكثر المفسرين اهتماما بعلم مناسبات القرآن إيرادا وتطبيقا. إنّ المتأمل لدراسة التماسك بين الآيات والسور في كتاب "مفاتيح الغيب" للرازي تتضح له رؤية متكاملة وواضحة المعالم والحدود، فقد استطاع الرازي من خلال تحليله للنص القرآني أن يتجاوز ذلك الإطار الضيق الذي كان يعتبر الجملة أو مجموعة الجمل مركزا للتحليل إلى وحدة أكبر من الجملة، وبذلك استطاع أن يلتمس وجها جديدا للأعجاز في نص ظل مفتوحا لأكثر من ثلاث وعشرين سنة.

وتتضح رؤية الرازي في ضرورة التحليل النصي الشامل في قوله في تفسير سورة البقرة: "وَمَنْ تَأَمَّلْ فِي لَطَائِفِ نَظْمِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَفِي بَدَائِعِ تَرْتِيبِهَا عِلْمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مَعْجَزٌ بِحَسَبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ، فَهُوَ أَيْضًا مَعْجَزٌ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ، وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ مَعْجَزٌ بِحَسَبِ أَسْلُوبِهِ، أَرَادُوا ذَلِكَ"²، فهذا النص يؤشر على أن هناك وحدة أكبر من الجملة، ومن أقواله التي تنبئ عن نظرة كلية للنص "إنّ آيات القرآن كلها كأنها كلمة واحدة من حيث الترابط"³ وهو نفس المفهوم الذي نجده عند علماء النص في حديثهم عن الوحدة الدلالية للنص.

أولا: المناسبة بين الآيات:

1- مناسبة الآية للآية التي قبلها:

وقد ظهر هذا النوع عند الرازي فقد كان يعرض للآيات القرآنية واحدة واحدة مُظهرًا وجه الارتباط بين الآية وأختها، ومن ذلك مناسبة الآية مع ما قبلها في قوله تعالى " أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا" الكهف/9، يقول الرازي اعلم أنّ القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجبًا من آياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك فإنّ آياتنا كلها عجب، فإنّ من كان قادرا على تخليق السموات والأرض، ثم يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم"⁴ وهذا دليل على ارتباط الآية السابقة بآية لاحقة.

¹ هو محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي يلقب بالإمام ولد بالري سنة 544 هـ وتوفي سنة 606 هـ..

² الرازي التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج7، ص139، مرجع سابق.

³ نفسه، ج7، ص139.

⁴ نفسه ج2 ص428.

ب - المناسبة بين أجزاء الآية:

وأيضاً لمَّح الرازي إلى الربط بين أجزاء الآيات ومها قوله تعالى في سورة البقرة "أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" البقرة/5، إذ تحدث عن تكرار أولئك صدر الآية ووسطها فقال " وفي تكرار أولئك فيه تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى، ثبت لهم الاختصاص بالفلاح أيضاً، فقد تميزوا عن غيرهم مهذين الاختصاصين"¹، فكل أجزاء الآية بينهما ترابط.

ج- المناسبة بين اسم السورة ومقصدها:

وقد تحدث الرازي عن المناسبة بين اسم السورة ومقصدها حيث يقول عن سورة الفاتحة "اعلم أنّ هذه السورة لها أسماء كثيرة وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى...وتسمى " أم القرآن" ويضيف الرازي والمقصود من أم القرآن كله تقرير أمور أربعة: الإلهيات والميعاد، و النبوات واثبات القضاء والقدر لله تعالى، فقوله " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " يدل على الإلهيات ، وقوله تعالى "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" يدل على الميعاد، وقوله "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" يدل على إثبات أن الكل بقضائه وقدره²،

و هنا يُبرز الرازي مجمل ما جاءت به سورة الفاتحة وما اشتملت عليه من مقاصد القرآن التي أنزل لأجلها ولذلك قدمت الفاتحة عن غيرها من السور.

د- المناسبة بين افتتاح السورة وخاتمتها:

وفي مناسبة أول السورة لما ختمت فيقول في حديثه عن الفاتحة " أول السورة مشتملة على الحمد لله والثناء عليه، وآخرها مشتملة على الذم للمعرضين عن الإيمان به والإقرار بطاعته، وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله تعالى، ومطلع الآفات ورأس المخافات هو الإعراض عن الله تعالى³.

وأيضاً يقول عن سورة "ق" أنّ أول السورة وآخرها متقاربان في المعنى حيث قال تعالى في أول السورة "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ" وقال في آخرها " فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ " ق/1 و45.

هـ- الربط بين مقطع ومقطع:

ومما اشتمل عليه تفسير الرازي ربط مقطع بمقطع، ومقطع بأية، أو عدة آيات متقدمة أو متأخرة، ومن ذلك ما ذكره الله تعالى في شأن المنافقين عقب ذكر حال المؤمنين في قوله: " هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ " إلى قوله تعالى " وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " البقرة/2 و4، وحال الكافرين في قوله: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " إلى قوله " وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " البقرة/6 و7. ووقف الرازي عند قوله تعالى " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ " البقرة/8، حيث يقول " اعلم أن المفسرين اجمعوا على أن ذلك في وصف المنافقين فقالوا إن الله وصف الأصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين، فبدأ بالمؤمنين المخلصين الذين صحت سرائرهم وسلمت ضمائرهم، ثم أتبعهم بالكافرين الذين من صفتهم الإقامة على الجحود والعناد، ثم وصف حال من يقول بلسانه أنه مؤمن وضميره يخالف ذلك"⁴، فهذه الآيات ربط بينها الرازي فشكلت مقطعا.

¹ الرازي التفسير الكبير، ج2، ص34.

² نفسه، ج2، ص34.

³ نفسه، ج2، ص34.

⁴ الرازي، التفسير الكبير، ج2، ص58، مرجع سابق.

وكان لا يُعنى بدراسة الآيات التي يكون فيها الارتباط ظاهرا، لتعلق الكلام بعضه ببعض، أو إتمام الكلام السابق على جهة التأكيد أو التفسير أو الاعتراض، فالمفسر حسب محمد خطابي يشرع في البحث عن المناسبة حين تنقطع الصلة بين آية وأية أو آيات سابقة، إذن فالذي يعني العلماء هو دراسة الآيات التي لا يظهر فيها الارتباط بل تبدو أن كل آية مستقلة بنفسها، فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، ويسمونها القرائن المعنوية¹ وهي:

• علاقة التنظير:

وهي إلحاق النظير بالنظير كقوله تعالى (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ) الأنفال/5-6، فما وجه التماسك بين قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) عقب قوله (أولئك هم المؤمنون حق) يعللها السيوطي بعلاقة التنظير إذ يرى أن الله تعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال وهم له كارهون والقصد أن كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج وقد تبين في الخروج الخير من الظفر والنصر.

• علاقة تضاد:

ومن أمثله قوله تعالى في سورة البقرة "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" البقرة/6 و7، يقول السيوطي (فإن أول السورة كان حديثا عن القرآن وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان فلما أكمل وصف المؤمنين عقب بحديث الكافرين، فبينهما جامع وهي بالتضاد من هذا الوجه وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل وبضدها تتبين الأشياء)².

• علاقة الاستطراد:

كقوله تعالى "لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ" النساء/172، فإن أول الكلام ذكر للرد على النصراني الزاعمين بنوة المسيح ثم استطراد للرد على العرب الزاعمين بنوة الملائكة. ومن الأمثلة قوله تعالى "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ" الأعراف/26، قال الزمخشري هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليهما إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى³. ومن باب الاستطراد أيضا قول الله تعالى "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ... البقرة/189، فأى رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت؟" "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا" البقرة/189.

وهو من باب الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج وكان هذا من أفعالهم في الحج، كما ثبت في سبب نزولها ذكر معه من باب الزيادة في الجواب على ما في السؤال، كما سئل- صلى الله عليه وسلم- عن ماء البحر فقال هو الطهور ماؤه الحل ميتته.

• علاقة حسن التخلص:

وهو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما⁴، وإلى سورة الأعراف كيف ذكر فيها الأنبياء والقرون

¹ محمد خطابي، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص190، مرجع سابق.

² نفسه، ص263.

³ الزمخشري، تفسير الكشاف، ص110، مرجع سابق.

⁴ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص291، مرجع سابق.

الماضية والأمم السالفة، ثم ذكر موسى إلى أن قص حكاية السبعين رجلا ودعائه لهم ولسائر أمته بقوله (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) وجوابه تعالى عنه ثم تخلص بمناقب سيد المرسلين بعد تخلصه لأمته بقوله (قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين) من صفاتهم كيت وكيت وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي وأخذ في صفاته الكريمة وفضائله.

وفي سورة الشعراء قوله تعالى "وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ" الشعراء/87، فتخلص منه إلى وصف المعاد بقوله "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ" الشعراء/87، 88.

وربما يلتبس الاستطراد مع التخلص فيوضح ذلك السيوطي أنّ (في التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية وأقبلت على ما تخلصت إليه، وفي الاستطراد تمر بذكر الأمر الذي استطرقت إليه مروراً كالبرق الخاطف، ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضاً¹.

وبهذا يظهر أن ما في سورتي الأعراف والشعراء من باب الاستطراد لا التخلص لعوده في الأعراف إلى قصة موسى بقوله "وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ.. " الأعراف/159 إلى آخره وفي الشعراء إلى ذكر الأنبياء والأمم.

• علاقة الانتقال:

من مقاصد الانتقال - في بعض الآيات - من حديث إلى آخر مراعاة المسافة التفاعلية بين المتلقي والنص؛ حيث يتجلى تنشيط المتلقي من أبرز هذه المقاصد؛ كقوله تعالى: (هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) ص/49، (فإنّ هذا القرآن نوع من الذكر لما انتهى ذكر الأنبياء وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها)².

ثانياً: المناسبة بين السور:

أ- مناسبة السورة للسورة التي قبلها:

ومثال ذلك سورة الكهف فالرازي يعتقد أنّ التسبيح مقدم على الحمد ومن أجل هذا ذكر الله التسبيح عندما أخبر أنه أسري بمحمد فقال "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا" الإسراء/1، وذكر التحميد عندما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد فقال "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ" الكهف/1.

أيضاً وهو يقوم بتفسير سورة الرَّحْمَنُ حيث يقول في بداية التفسير "اعلم أولاً أن مناسبة هذه السورة لما قبلها ... أن الله افتتح السورة المتقدمة (القمر) بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر، فإن من يقدر على شق القمر يقدر على هد الرجال وقد الرجال، وافتتح هذه السورة (الرَّحْمَنُ) بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم، فإن شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب. ولم يكتفي الرازي بهذا بل اوجد مناسبة بين تكرار آيات معينة في سورتي القمر و الرَّحْمَنُ فيقول "أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة "فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٌ" غير مرة، وذكر في السورة "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة اظهر الهيبة، وهذه السورة سورة إظهار الرحمة³.

ب- المناسبة بين السور ذات الافتتاح الواحد:

يجد الرازي مناسبة بين السور ذات الافتتاح الواحد، حيث يقول عن السور التي تفتتح بالحمد وهو يفسر سورة فاطر التي تفتتح بالحمد، بأن الحمد يكون على النعمة في أكثر من أمر، ويقسم نعم الله إلى عاجلة وأجلة، العاجلة وجود وبقاء والأجلة

¹ نفسه، ص 265.

² نفسه، ص 265.

³ الرازي، التفسير الكبير، ج 29، ص 83، مرجع سابق.

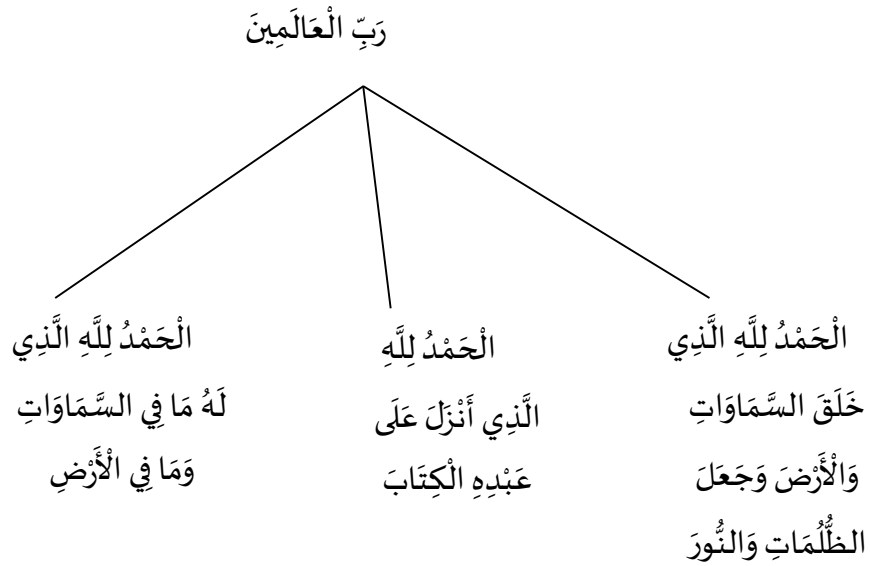
كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، قوله تعالى " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ " الأنعام/1، إشارة إلى نعمة عاجلة التي هي الإيجاد ويستدل بقوله " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا " الأنعام/2، وفي الكهف " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ " /1، إشارة إلى نعم عاجلة التي هي الإبقاء فالبقاء والصلاح يكون بالكتاب، وفي قوله " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ " سبأ/1، إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر، ويقول عن سورة فاطر أنها متصلة بآخر ما مضى¹ أي بالسور المذكورة.

ج- مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها:

و أوجد الرازي مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها بين سورتي الرَّحْمَنُ والقمر ، حيث يقول " ثم إنَّ أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها، حيث قال في آخر تلك السورة " عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ " القمر/55، والافتقار إشارة إلى الهيبة والعظمة وقال ههنا (الرَّحْمَنُ) أي عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار، رحما منعم غافر للأبرار².

د- المناسبة بين الفاتحة وباقي السور:

اعتبر الرازي الفاتحة هي إجمال لباقي السور، إنها أول سورة من القرآن فهي كالأساس ويضيف الرازي أن هذه السورة مسماة بأمر القرآن فوجب كونها كالأصل والمعدن، وأن يكون غيرها كالجداول المتشعبة منه³، فهي بهذا إجمال وباقي السور متفرعة عنها، ويضيف الرازي أن الله افتتح سورا بعدها بالحمد لله كالإنعام والكهف وسبأ وكلها فرع لبداية الفاتحة، ويمكن التمثيل لها بهذا الشكل:



وحسب الرازي أن قوله " رَبِّ الْعَالَمِينَ " تتضمن كل هذه الأقسام، ولذلك نراه يقول أنها قسم من أقسام قوله " رَبِّ الْعَالَمِينَ " ⁴.

د- علاقة التقابل بين السور:

¹ نفسه، ج 26 ص 2.

² نفسه ج 29، ص 83.

³ انفسه، ج 1/ 184.

⁴ نفسه، ج 1/ 186.

نجده مثلا بين سورة الكوثر وسورة الماعون يقول الرازي " إنَّ هذه السورة (الماعون) كالمقابلة للسورة المتقدمة، وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر فيها في مقابلة البخل (إنا أعطيناك الكوثر) أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة فصل أي الدوام عليها، وفي مقابلة الرياء لربك، أي لرضاه لا للناس وفي مقابلة منع الماعون وانحر وأراد به التصديق بلحم الأضاحي¹.

ويمكن تجسيدها في عبر هذا الجدول:

سورة الماعون	سورة الكوثر
المنع (أمور البخل)	العطاء ((إنا أعطيناك الكوثر). أي الخير)
ترك الصلاة	فصل (الدوام عليها)
الرياء (يراؤون)	الإخلاص (لربك)
منع الزكاة	وانحر (وما فيه من التصديق على الفقراء من لحوم الأضاحي)

هـ- علاقة تناسب اسم السور لمقاصدها:

منها اشتمال سورة (ص) على خصومات متعددة فأولها خصومة النبي مع الكفار وقولهم (أجعل الآلهة إلها واحدا) ص/5 ثم اختصاص الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصاص الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم ثم في شأن بنيهِ وإغوائهم.

و- علاقة التناسب بالاشتراك في اسم السور:

ومنه تسمية السور السبع حم على الاشتراك في الاسم لما بينهن من التشاكل الذي اختصت به وهو أن كل واحدة منها استفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب مع تقارب المقادير في الطول والقصر وتشاكل الكلام في النظام.

ز- مناسبات متفرقة:

إنَّ من الآيات التي أشكلت مناسبتها لما قبلها قوله تعالى " لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ " القيامة/16، فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسر جدا، لأن السورة كلها في أحوال القيامة والتي سميت باسمها، مما أحدث نوع من القطيعة² - بمفهوم لسانيات النص- بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة ولا تتحقق الاستمرارية المطلوبة بين موضوع³ آيات السورة، حتى زعم بعض الرافضة أن هذا القرآن قد غير وبدل، وزيد فيه، ونقص عنه، واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها، وفيما حكاه الفخر الرازي أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل في قوله تعالى "يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ" القيامة /13. قال يعرض عليه كتابه فإذا أخذ في القراءة تلجلج خوفا فأسرع في القراءة فيقال له (لا تحرك به لسانك لتعجل به)، إن علينا أن نجمع عملك وأن نقرأ عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته.

وهذا يخالف ما ثبت في الصحيح أنها نزلت في تحريك النبي لسانه حالة نزول الوحي عليه، وقد ذكر لها مناسبات من بينها:

¹ نفسه، ج 32/117.

² عن هذا المفهوم يمكن الرجوع إلى

Shirley Carter tomas, , la coherence textuelle, pour une nouvelle pédagogie de l'écrit, l'Harmattan, france ,1999.

³ أي يعالج النص موضوع محدد مع عدم الانتقال غير المبرر من فكرة إلى أخرى لا ترابط منطقي بينها يمكن الرجوع إلى:

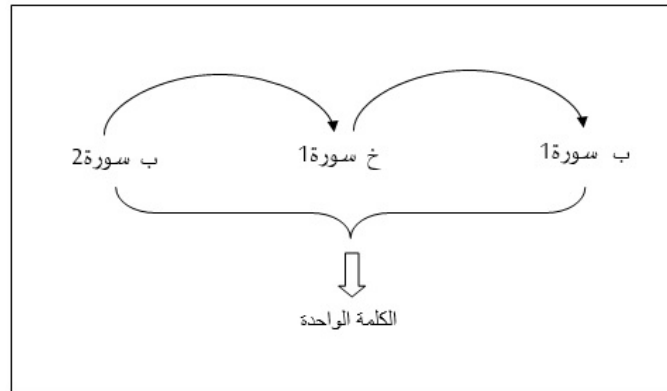
Michel Charolles, Introduction aux problèmes de la cohérence des textes.

أن أول السورة لما نزل إلى "وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ" القيامة/ 15 و19، صادف أنه في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل وحرك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزل "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ" إلى قوله "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ" ثم عاد إلى الكلام إلى تكلمة ما ابتدئ به.

وقال الفخر الرازي ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مثلاً مسألة، فتشغل الطالب بشيء عرض له، فقال له ألقى إلي بالك وتقمهم ما أقول ثم كمل المسألة، فمن لا يعرف الواقعة يقول ليس هذا الكلام مناسباً للمسألة بخلاف من عرف ذلك يقول حسن الترتيب¹.

ثالثاً: فخر الدين الرازي والنظرة الكلية للسور القرآنية:

وقد تجاوز الرازي النظرة الخطية للسورة القرآنية إلى النظرة الكلية للسور والوقوف على وحدتها، فهو لم يقم بالتحليل من أية إلى أية فحسب، بل على مستوى أشمل، والمفهوم النظري الذي يستخدم لوصف هذا المعنى الشامل، هو البنية الكبرى والتي تمثل حسب فان دايك البنية الدلالية العامة لنص ما²، ودلالة النص أو المعلومة التي يأتي بها النص هي الكل الذي يتجاوز مجموعة أو قائمة الوحدات المكونة له³، وهذا ما نراه متمثلاً عند الرازي فكل سورة من سور القرآن الكريم بناء في بناء أكبر منه، وأن كل منها جزء من كل ولذلك نراه يقرر أن "القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض"⁴، فنجد بداية سورة تناسب خاتمها، وخاتمة هذه السورة تناسب بداية سورة أخرى، وفي هذا المعنى يصبح القرآن الكريم كما قال الرازي كالكلمة الواحدة⁵، ومن هنا علم المناسبة يسهم في الكشف عن البنية الكبرى، ويمكن أن نمثل لها بهذا الشكل:



والبنية الكبرى هي موضوع الخطاب* حسب فان دايك وهي إجابة عن سؤال ما هو موضوع النص؟ ومعرفة القاري للبنية الكبرى يسهم في تعميق فهمه للنص، ونرى الرازي يهتم بالمتلقي فكثيراً ما نجد عبارات من مثل "واعلم.. فانظر..". فهذا كلام موجه للمتلقي، كما يأخذ الرازي السياق الذي يظهر فيه الخطاب بعين الاعتبار وذلك من خلال معرفة أسباب النزول.

الخاتمة

تمثل علوم القرآن الجهاز النظري المقترح لدراسة النص القرآني فهذه العلوم هي كالألة للمفسر

¹ الرازي، التفسير الكبير، ج 30، ص 223.

² فان دايك تون، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط 1، القاهرة، ص 75.

³ Adam Jean- Michel et André Petit-jean: le texte descriptif. Nothan Université. Paris. 1989. P 87.

⁴ الرازي، التفسير الكبير، ج 30، ص 214.

⁵ نفسه، ج 2، ص 34.

* يُعدّ الرازي أول من أشار إلى الوحدة الموضوعية، وعدها فرعاً من علم المناسبة بإظهاره وحدة السورة وبيان مقاصدها، وهو ما يعرف بالتفسير الموضوعي اليوم، فعلم المناسبة وثيق الصلة بالتفسير الموضوعي، ينظر: رفعت فوزي عبد المطلب، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، دار السلام، القاهرة، 1406، ص 13.14.

إذ لا يكون مفسرا إلا بتحصيلها، ويعتبر علم المناسبة جوهر هذه العلوم، ويقترّب مفهوم المناسبة بين الآيات والسور من مفهوم الانسجام النصي، بل إن البحث في انسجام النص القرآني يضطلع به علم المناسبة الذي يجعل لعلماء "علوم القرآن" السبق في إدراك النظرة الكلية للنص، وفي تحليل النص على مستوى يتجاوز حدود الجملة الضيقة.

وقد قدم العلماء في دراستهم للمناسبة آليات وأدوات استطاعت أن تبرهن على الوحدة النصية للقرآن الكريم، وكما خصصوا عبر المناسبة حيزا واسعا لدراسة التماسك الدلالي واستنبطوا آليات تبرز تماسك النص القرآني، ويعد "كتاب التفسير الكبير ومفاتيح الغيب" من بين الكتب التي تناولت علم المناسبة لا تنظيرا فحسب بل تطبيقا أيضا.

مما يجعلنا ننتهي إلى النتيجة التالية:

إنه بالرجوع إلى ما أنجزه علماء القرآن الكريم يمكن التأسيس لنظرية نصية عربية، فهذه الأعمال التي جاءت في كتبهم وما تضمنته من مفاهيم ومصطلحات تقف جنبا إلى جنب مع أحدث النظريات اللغوية، إذ هي المحور الذي تدور حوله أبحاث علماء النص.

المصادر والمراجع:

القران الكريم برواية ورش

- أبو الحسن احمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، ج 2، دت، بيروت.
- البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن بن الرباط، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت.
- الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، لبنان، 1981.
- الرازي فخر الدين، المحصول في علم الأصول، تحقيق طه جابر العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، دت
- رفعت فوزي عبد المطلب، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، دار السلام، القاهرة، 1406.
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت لبنان، دت.
- الزمخشري، محمد بن عمر، تفسير الكشاف، محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، دت.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، دار المنهاج للنشر والتوزيع، حققه عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، ط 1، الرياض، 1426هـ.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق عبد الرحمن فهد الزواوي، دار الغد، ط 1، 2006.
- صبيح إبراهيم الفقي علم اللغة النصي، بين النظرية والتطبيق، دار قباء القاهرة، ط 1، 2000.
- فان دايك تون، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط 1، القاهرة، 2001.
- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، بيروت، 1991.
- مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط 5، 2007.
- وليد مراد، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2003.

المراجع باللغة الأجنبية:

Adam Jean- Michel et André Petit-jean: le texte descriptif. Nothan Université. Paris. 1989.

Michel Charolles, Introduction aux problèmes de la cohérence des textes, langue Française, 1978, N:38.

Shirley Carter tomas, la cohérence textuelle, pour une nouvelle pédagogie de l'écrit, l'Harmattan, France , 1999.

إستراتيجيات الانسجام النصي في علوم القرآن

علم المناسبة أنموذجا

د- رشيد عمران

جامعة طاهري محمد .بشار - الجزائر

الملخص:

لقد حاولت اللسانيات النصية الاهتمام بشكل موسع بالدلالة والسياق، حيث لم تحظ ظروف إنتاج الخطاب وتلقيه بنصيب وافر من العناية والتركيز في لسانيات الجملة أين اقتصر الوصف على الأبنية اللغوية دون العناية بالجوانب الدلالية والسياقية التي تعتبر قطب الرحى في إنتاج النص وتلقيه، مما جعل علماء النص يرون أن البحث الشكلي للأبنية اللغوية ما يزال مقتصرًا على وصف الجملة، بينما يتضح من يوم إلى آخر أن جوانب كثيرة لهذه الأبنية لا يمكن أن توصف إلا في إطار أوسع لنحو النص أو نحو الخطاب.

إن علم المناسبة من أبرز علوم القرآن التي يستعين بها المفسر في فهم القرآن الكريم، ولعل الباحثين في علوم القرآن قد لمسوا أخطر جوانب النص حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات، وخصصوا لها علما قائما برأسه هو علم المناسبة كأنهم بذلك كدّوا في بحث شروط التخلص من وصل وتنظير وتلازم وتقابل وملائمة وغيره.

ويعتبر البحث في هذا العلم من طريق غير مباشر؛ بحث في أبرز وجوه الإعجاز القرآني، فالقرآن الكريم على الرغم من نزوله منجما على مدة تتجاوز العشرين سنة أو أكثر، تبدو فيه ملامح التماسك على مدار آياته وسوره، فعلم المناسبة من هذه الجهة هو أكبر ردّ على شبهات ومزاعم المستشرقين؛ بأن القرآن يخلو من وحدة تماسكية تربط آياته وسوره، وقد ظهر الوعي بقيمة التناسب، وأثره في بلاغة الكلام لدى الأدباء والبلاغيين وعلماء الإعجاز، فقد رصد العلماء فيه علاقات الآيات والسور المتجاورة من خلال آيات نصية عجيبة تتفوق على ما قُدِّم في لسانيات النص.

الكلمات المفتاحية: النص، الخطاب، القرآن، علوم القرآن، التماسك النحوي، التماسك الدلالي.

Abstract:

Text linguistics was concerned with connotation and context that were absent in sentence linguistics, which described the language structures, but did not give much attention to the semantic aspects. The matter that made text scientists believe that the superficial search for language structures/ syntax was limited to the description of the sentence. Through time, it has become clear that many sides/aspects of these structures can only be described in the broader sense of grammar of the text and grammar of discourse.

Knowledge occasion is one of the most prominent Quranic sciences used by Islamic interpreters to understand the Holy Qur'an. Perhaps, the scholars of the Qu'an had come across the most serious aspects of the text after studied the suitable faces between verses. They assigned/ specialized for that a special science, which is Knowledge occasion. Doing so has been as if they worked hard in searching the conditions of getting rid of connection. Research in this science is considered to be an indirect way; research into the most prominent faces of the Qur'anic miracles, since the Qur'an, although it has been a mine over a period of more than 20 years or more, looks at the contours of cohesion throughout its verses and Surah, so the knowledge of the occasion from this side is the biggest response to the suspicions and allegations of the Orientalist; A Qur'an devoid of a unity that connects its verses and Surah, and the awareness of the value of proportionality, and its effect in the rhetoric of writers and scholars and miracle scientists, has shown the relations of the neighboring verses and railings through the textual mechanisms that excel in the linguistic text.

Keywords: text, discourse, Quran, Quran Sciences, cohesion, coherence.

مقدمة:

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة فهم آليات ووسائل التماسك النصي كما جاءت في علوم القرآن، لفهم هذا التراث الضخم الذي مازال قادرا على العطاء والتجدد، بحيث يمكن أن تتفوق بعض المفاهيم والآليات والوسائل التماسكية التي وردت في علوم القرآن على ما قدمته أحدث النظريات اللسانية؛ وبالذات اللسانيات النصية، وبالتالي فإن هذا التراث القرآني يستحق القراءة وإعادة القراءة لفهمه ووضعه في إطاره الصحيح، كما تسعى هذه الدراسة لتقديم رؤية التماسك النصي كم وردت عند علماء القرآن بحيث أضحى التماسك النصي وجها من وجوه الإعجاز القرآني.

إن تزايد الاهتمام باللسانيات النصية في الآونة الأخيرة يغري بتناول ما قدمه التراث العربي والإسلامي في هذا المضمار، ذلك أن الحضور الفاعل والقوي للنظريات اللسانية الغربية في حاضرنا يفترض عدم تجاوزه أو القفز عليه، بل يفترض الحوار والتثاقف الهادف، بحيث لا يأخذ كل ما استجد من نظريات كحاطب ليل، ولا يلغي الخصوصية الثقافية والحضارية العربية الإسلامية. تعتبر النظرية اللسانية النصية اتجاها لسانيا جديدا فرض نفسه بقوة في الآونة الأخيرة بحيث انتقل باللسانيات من حيز الجملة إلى فضاء النص، فقد تطورت اللسانيات النصية في السبعينات على يد VAN DIJK مؤسس علم النص؛ والذي أصبح حقيقة راسخة على يد الأمريكي BEAUGRANDE في الثمانينات؛ بحيث لم تعد الجملة كافية لكل مسائل الوصف اللغوي. لقد اهتمت اللسانيات النصية بالدلالة والسياق اللذين كانا غائبين في لسانيات الجملة الذي كان يصف الأبنية اللغوية ولكنه لم يُعن بالجوانب الدلالية عناية كافية، مما جعل علماء النص يرون أن البحث الشكلي للأبنية اللغوية ما يزال مقتصرًا على وصف الجملة، بينما يتضح من يوم إلى آخر أن جوانب كثيرة لهذه الأبنية لا يمكن أن توصف إلا في إطار أوسع لنحو النص أو نحو الخطاب.

وقد توسعت اللسانيات النصية في اعتبار السياق في عملية التواصل، ذلك أن التواصل اللغوي تسهم فيه عناصر تتعلق بالمخاطب والمخاطب والنص والظروف المحيطة بهم جميعا. إن لسانيات الجملة ليست كافية لكل مسائل الوصف اللغوي إن علم المناسبة من أبرز علوم القرآن التي يستعين بها المفسر في فهم القرآن الكريم، ولعل الباحثين في علوم القرآن قد لمسوا أخطر جوانب النص حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات، وخصصوا لها علما قائما برأسه هو علم المناسبة كأنهم بذلك كدّوا في بحث شروط التخلص من وصل وتنظير وتلازم وتقابل وملائمة وغيره.

ويعتبر البحث في هذا العلم من طريق غير مباشر؛ بحثٌ في أبرز وجوه الإعجاز القرآني، فالقرآن الكريم على الرغم من نزوله منجما على مدة تتجاوز العشرين سنة أو أكثر، تبدو فيه ملامح التماسك على مدار آياته وسوره، فعلم المناسبة من هذه الجهة هو أكبر ردّ على شبهات ومزاعم المستشرقين؛ بأن القرآن يخلو من وحدة تماسكية تربط آياته وسوره، وقد ظهر الوعي بقيمة التناسب، وأثره في بلاغة الكلام لدى الأدباء والبلاغيين وعلماء الإعجاز، فقد رصد العلماء فيه علاقات الآيات والسور المتجاورة من خلال آليات نصية عجيبة تتفوق على ما قُدّم في لسانيات النص.

المناسبة في اللغة:

يعرف ابن فارس المناسبة بقوله: " النون، السين، الباء، كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء، منه النسب، سمي لاتصاله وللاتصال به تقول: نسبت أنسب، وهو نسيب فلان، والنسيب الطريق المستقيم لاتصال بعضه من بعض"¹ فالمناسبة في اللغة تعني؛ الاتصال، والمقاربة، المماثلة، ومنه يقال إن فلان يناسب فلانا أي يقاربه ويشاكله، والنسيب القريب المتصل اتصالا وقربا بمن يناسبه وهو كالوصف لثبات قرابته واتصاله.

المناسبة في الاصطلاح:

وفي اصطلاح علماء القرآن، المناسبة هي بيان "وجه الارتباط بين الجملة والجملة التي في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة"¹ ويعرف البقاعي المناسبة بأنها "علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن"² فالمناسبة في الاصطلاح البحث عن الارتباط بين الآية وما بعدها وما قبلها، وبين السورة وما بعدها وما قبلها. ويبدو أن معنى المناسبة في اللغة يتوافق مع ما اصطلاح عليه العلماء في تعريف علم المناسبة، فكما يربط النسب بين المتناسبين فلا بد من وجود ارتباط بين الآيات والسور، سواء ظهر هذا الرابط أم كان خفيا، ولا يشترط أن يكون التقارب بين المتناسبين تماثلا كاملا، فربما كان التقارب عن طريق التضاد، أو تباعد في المعنى، المهم أن هناك صلة من نوع ما بين المتناسبي، أو رابط ما بين الآيتين أو السورتين، سواء توصل العلماء إلى ذلك الرابط أم لم يتوصلوا إليه، فقد تظهر المناسبة أحيانا، وتختفي أحيانا أخرى، ومن هنا تميز العلماء في فهم وإدراك المناسبة القرآنية. إن علم المناسبة من أبرز علوم القرآن التي يستعين بها المفسر في فهم القرآن الكريم، "ولعل الباحثين في علوم القرآن قد لمسوا أخطر جوانب النص حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات، وخصصوا لها علما قائما برأسه هو علم المناسبة كأنهم بذلك كدوا في بحث شروط التخلص من وصل وتنظير وتلازم وتقابل وملائمة"³ ويعتبر البحث في هذا العلم من طريق غير مباشر؛ بحث في أبرز وجوه الإعجاز القرآني، فالقرآن الكريم على الرغم من نزوله منجما على مدة تجاوز العشرين سنة، ومع ذلك تبدو فيه ملامح التماسك على مدار آياته وسوره، فعلم المناسبة من هذه الجهة هو أكبر رد على شبهات ومزاعم المستشرقين؛ بأن القرآن يخلو من وحدة تماسكية تربط آياته وسوره، وقد ظهر الوعي بقيمة التناسب، وأثره في بلاغة الكلام لدى الأدباء والبلاغيين وعلماء الإعجاز⁴ وعلى الرغم من أهمية وفوائد علم المناسبة فقد لقي إهمالا من طرف العلماء وذلك لصعوبته ودقة مسالكه، فقد ذكر ابن العربي بأن المناسبة "علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله وددناه إليه.

1- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، ط 22، ص 97

2- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 6/1

1- وليد مراد، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1433 هـ-2003 م، أمريكا، ص 63

2- أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ص 13

ومن بين السابقين إلى اكتشاف المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه؛ لما جعلت هذه الآية جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة¹

ويقول الزركشي: "وقد قلّ اعتناء المفسرين بهذا العلم لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"²

أهمية المناسبة³:

- فهم التناسب يجعل أجزاء الكلام أخذاً بأعناق بعض، ليصبح كالبناء المحكم المتلائم الأجزاء وبه يعرف علل ترتيب أجزاء القرآن الكريم.
- دفع إبهام الاختلاف عن الآيات الكريمة، فقد يظن بعضهم أن الآيات نزلت في أوقات متباعدة، وفي موضوعات متعددة فلا رابط بينها، بل إن هذا الترابط بين الآيات والصور لون من ألوان البيان المعجز على الرغم من تباعد الزمان واختلاف الموضوعات، فالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم حقيقة ثابتة في كل سورة منه، وفي ذلك رد على ما ادعته الموسوعة الإسلامية الاستشراقية التي زعمت بأن الترابط بين الآيات في السورة الواحدة ضعيف قليل، وبأن ذلك الارتباط ضعيف وغالباً لا يوجد صلة ظاهرة أو قوية فيما بينها.
- إبراز وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم للوصول إلى الحقيقة المطلقة، وهي أن القرآن الكريم كلام الله المُنزَّل، وليس من تأليف البشر تصديقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [الحج/82]
- المناسبة بين الآيات والصور دلالة لغوية قوية في التعرف على المراد من الآيات ورفع اللبس عن مقاصدها، ومُرَجِّح قوي من مرجحات بعض المعاني على بعض عند تزامنها، سواء منها ما جاء في آيات الأحكام، أم آيات القصص القرآني، أم آيات الوعظ والتوجيه وغيرها.

أنواع المناسبات في القرآن:

النوع الأول:

المناسبة في السورة الواحدة:

- المناسبة بين حروف كلمات الآية.
- المناسبة بين كلمات الآية.
- المناسبة بين الآيات المتجاورة.
- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.
- المناسبة بين اسم السورة ومقاصدها.

3- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، خرج أحاديثه أحمد بن أحمد، مكتبة الصفا، ط1، 1427هـ-2006م، 213/3

4- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، 1408هـ-1988م، بيروت، 36/1

1- عبد الله الخطيب و مصطفى مسلم، المناسبات وأثرها في تفسير القرآن، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، المجلد2، العدد2، ربيع الثاني 1426هـ، يونيو 2005م، ص6

النوع الثاني:

المناسبة بين السور:

- المناسبة بين افتتاح السورة وخاتمة ما قبلها.
- المناسبة بين خاتمة السورة وفتحة السورة التي بعدها.
- المناسبة المضمونية بين السورتين المتجاورتين.
- التقابل المعنوي بين السورتين المتجاورتين.

التأليف في علم المناسبة:

لقد نزل القرآن الكريم منجماً مفرقاً على مدار أكثر من عشرين سنة على حسب الأحداث والوقائع التي كان يعالجها، ومن هنا فإن العلم بسبب النزول يعين على توجيه فهم النص القرآني، وعلى الرغم من بقاء النص القرآني مفتوحاً في آياته وسوره ومع ذلك توجد فيه روابط تماسكية بين تلك الآيات والسور، وهذا يدل على وجود التماسك بين الآيات والسور على إعجازية النص القرآني، فقد تنبه علماء القرآن إلى أهمية المناسبة "فقد لمسوا أخطر جوانب النص حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات، وخصصوا لها علماً قائماً برأسه هو علم المناسبة"¹ ومع أهمية علم المناسبة فقد اهتم به قليل من العلماء، يقول الرازي: "إني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتهيين لهذه الأسرار"²

أولاً: التماسك النصي عند الزركشي:

تشكل دراسة الزركشي للتماسك بين الآيات والسور، فكرة تامة، واضحة المعالم والحدود، فهي رؤية تحكم نظرتة للقرآن الكريم، استطاع من خلالها أن يتلمس وجهها آخر للإعجاز على طريق التماسك بين الآيات والسور. وقد خصص باباً مستقلاً في كتابه "البرهان في علوم القرآن" تحدّث فيه عن التماسك بين الآيات والسور والآليات التي تحكم ذلك التماسك، كما نلاحظ في مختلف الأبواب الأخرى إشارات إلى التماسك في القرآن. وقبل أن نتناول العلاقات التي قدمها الزركشي والتي يرى أن التماسك يتحقق من خلالها، نُورد نصاً في فصل بعنوان "في قدر المعجز من القرآن" لهذه الفكرة التي اقتبسها من عند الباقلاني؛ وهو أن الإعجاز يتحقق في قدر أقصر سورة من القرآن كسورة الكوثر، فإذا كانت الآية بقدر سورة الكوثر فالإعجاز متحقق فيها³ يؤشر هذا النص إلى حقيقتين أولهما: الإشارة إلى وحدة أكبر من الجملة، وثانيتها: يؤكد هذا النص ما ذهبنا إليه من ارتباط تنظير الباقلاني بتطبيقات الزركشي في البرهان.

1- وليد منير ، النص القرآني من الجملة إلى العالم ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط2 1433 هـ-2003 م ، أمريكا ، ص 63

2- السيوطي، معترك الأقران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1/56

3- المرجع نفسه ، 1/108

يبين الزركشي في بداية بحثه للتماسك بين الآيات أنه لا يعنى بدراسة الآيات التي يظهر وجه التماسك بينها جليا؛ لتعلق الكلام بعضه ببعض، أو إتمام الكلام السابق على جهة التأكيد أو التفسير أو الاعتراض¹ وإنما يعينه هو دراسة الآيات التي لا يظهر فيها وجه التماسك مع أختها حيث تبدو أن كل آية مستقلة بنفسها. ويقسم الزركشي التماسك إلى تماسك بين السور وآخر بين الآيات، والتماسك بين الآيات يقسمه إلى تماسك بين آيات معطوفة، وإلى تماسك بين آيات لا يوجد فيها حرف العطف حيث تتجاوز الآيات دون أي رابط.

أ- التماسك بين الآيات في السورة:

أ-1 التماسك بين الآيات المعطوفة:

يقرر الزركشي أن فائدة العطف، أن يجعل الآيتين المعطوفتين كالنظرين والشريكين، يوضح ذلك بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ/02] وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة/245]

فيلج ويخرج، وينزل ويعرج، ويقبض ويبسط؛ كلها نظائر، وبعد هذا الاستهلال النحوي يستنبط الزركشي قانونا يطرد في أغلب آيات القرآن ويشكل أساسا في تحليل تجاور الآيات، وهو أن ذكر الأحكام في القرآن يأتي بعد وعد ووعيد "ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه؛ ليُعلم عظم الأمر والنهي وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك" 13

وبعد هذا ينتقل الزركشي إلى الموضوع ليقدم نماذج من الآيات تشكل صورا عامة تطرد في القرآن كله يتم على ضوءها إدراك وجه التماسك بين الآيات؛ فهي آيات يلتحق بها ما هو في معناها ونجمل علاقات التماسك بين الآيات عند الزركشي كالآتي:

علاقة مقامية:

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة/188]

إن السؤال الذي يتبادر عند تلاوة هذه الآية، هو ما وجه تماسك السؤال عن الأهلة بإتيان البيوت من ظهورها؟ إن المقام هنا هو الذي يفسر وجه التماسك في الآيتين، وذلك عند سؤالهم عن الأهلة ونقصانها كأن الله عز يقول لهم: إن كل ما أمرتكم به فيه حكمة ظاهرة ومصلحة للعباد فتركوا السؤال عنه، وانظروا ما أنتم عليه من إتيان البيوت من ظهورها وليس ذلك في البر شيء²

علاقة استطرادية:

في الحديث: أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لا يدخل أحدهم حائطا أو دارا أو فسطاطا من باب؛ فإن كان من أهل المدر نَقَبَ نقبا في ظهر بيته، منه يدخل ومنه يخرج، أو يتخذ سلما يصعد به، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف القباء، فوجه التماسك إذا من جهة الاستطراد، إذ عندما ذكروا مواقيت الحج، وكانت تلك تصرفاتهم في الحج استطرد سبحانه إلى تلك التصرفات وأنها ليست من البر في شيء³

1- المرجع نفسه ، 40/1

1- المرجع نفسه ، 40/1

2- المرجع نفسه ، 41/1

علاقة تمثيل:

وكان قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم كمثل من يترك بابا ويدخل من ظهر البيت ، فليل لهم؛ ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة ولكن البر من اتقى؛ أي باشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر علمها ولا تعكسوا، والمراد النهائي أن يصمم القلب أن جميع ما أمر الله تعالى به فيه حكمت وإن اختفت¹

ومن علاقة التمثيل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء/01]

فما وجه تماسك حادث الإسراء بآتيننا موسى الكتاب؟ يرى الزركشي أن معنى الآية يدرك بتقدير كلام "أطلعناه على الغيب عيانا، وأخبرناه بوقائع من سلف بيانا، لتقوم أخباره على معجزته برهاننا، أي سبحان الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكرا، وأخبرك بما جرى لموسى وقومه في الكرتين"²

ويبدو أن الذي قاد الزركشي إلى مثل هذا التأويل؛ أن إتيان موسى الكتاب معجزة وحادث الإسراء معجزة، كما أن حادثة الإسراء فضل من الله تعالى بعد انقطاع الوحي فترة من الزمن وأسري بموسى حين خرج خائفا يترقب³ علاقة حُسنُ تخلص:

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج/01] ، فإنه سبحانه ذكر عذاب الكفار و صفته و أنه لا دافع له من الله إلا الله ، ثم تخلص إلى قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج/04] بوصف الله ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

يرى الزركشي أن حسن التخلص موجود في القرآن الكريم كما في الشعر الجيد، يقول: "وهذا يظهر لك اشتغال القرآن العظيم على النوع المسمى بالتخلص"⁴

إن علاقة حسن التخلص صفة تماسكية موجودة في كل كلام رفيع؛ شعرا أو نثرا، به يتفاوت الشعراء والبلغاء، يقول الجاحظ: "أجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء، سهل المخارج؛ فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان"⁵

يدرج ابن رشيق هذا القول في باب النظم؛ فصل: "أجود الشعر" ما يدل على أن حسن التخلص سمة أصيلة من سمات الكلام الجيد.

ومن حسن التخلص قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ، قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء/72-82]

1- المرجع نفسه ، 42/1

2- المرجع نفسه ، 43/1

3- المرجع نفسه ، 43/1

4- المرجع نفسه ، 43/1

1- ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نغده ، دار الجليل ، ط5 ، بيروت ، 257/1

إن الله تعالى لما أراد أن ينتقل من صفات وأحوال أصنامهم إلى صفاته سبحانه؛ قال تعالى: ﴿فَأِيَّاهُمْ﴾ ﴿فَأِيَّاهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء/77] شرع في بيان صفاته العليا1

ومن حسن التخلص أيضا قوله تعالى: ﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾ [الصفافات/62]

يقف الزركشي مع هذه الآية وقفة لا يخفي فيها انبهاره أمام هذا الانتقال الإعجازي العجيب من موضوع إلى آخر، يقول: "وهذا من بديع التخلص؛ فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم إلى وصف الظالمين وما أعد لهم"2
والزركشي في صدد شرح علاقة حسن التخلص يذكر قاعدة عامة تتحكم في تلك العلاقة، يقول: "واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له، ومن بديعه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف/03]، يشير إلى قصة يوسف عليه السلام، فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة، يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز، وكقوله سبحانه موطأً للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران/33]"3

علاقة سياقية:

في بعض الآيات يقوم السياق بإسناد قوي في الوصول لدلالة الآيات؛ من ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَّ مَنَعٌ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/114-115] تطرح القراءة البسيطة للآيتين السؤال الآتي: ما وجه تماسك منع مساجد الله وتخريبها، بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ ، اعتمد الزركشي هنا على السياق في تفسير وجه الارتباط بين الآيتين؛ فقد كان تخريب بيت المقدس قد سبق؛ أي فلا يجرمكم ذلك واستقبلوها فإن لله المشرق والمغرب4

ومن الآيات كذلك التي يُعتمد على السياق في الوصول إلى دلالتها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية/17-19].

يقول الزركشي في تفسير تراتب هذه الآيات: "أنه جمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر؛ فإن كل انتفاعهم في معاشهم من الإبل؛ فتكون غايتهم مصروفةً إليها، ولا يحصل إلا أن ترعى وتشرب؛ وذلك بزول المطر؛ وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يأويهم، وحصن يتحصنون به، ولا شيء في ذلك كالجبال ثم لا غنى لهم. لتعذر طول مكثهم في منزل. عن التنقل من أرض إلى سواها؛ فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور"5

العطف: علاقة تقدير تشاكل نحوي:

يتناول الزركشي هنا بعض الآيات المعطوفة والتي لا يجمعها رابط نحوي، و من شروط العطف كما هو معلوم التشاكل، كعطف الجملة الفعلية على جملة فعلية أخرى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ

2- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 44/1

3- المرجع نفسه، 44/1

4- المرجع نفسه، 45/1

1- المرجع نفسه، 45/1

2- المرجع نفسه، 45/1

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِثَّةَ عَامٍ تَمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِثَّةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة/258-259﴾

يتساءل الزركشي عن وجه عطف ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي .. الجملة الفعلية، على الجار والمجرور ﴿أَوْ كَالَّذِي ..﴾؟ وفي سبيل أن يثبت الزركشي تماسكا بين الآيتين يلجأ إلى تقدير كلام محذوف يستقيم مع القاعدة النحوية في العطف، فيرى أن ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي ..﴾ بمنزلة: هل رأيت الذي حاج إبراهيم في؟ يقول: "وإنما كانت بمنزلتها. هل رأيت. لأن ﴿أَلَمْ تَرَ ..﴾ مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي ولذلك يجاب ببلى، والاستفهام يعطي النفي، إذ حقيقة المُسْتَفْهِم عنه غير ثابتة عند المستفهم، ومن ثمَّ جاء الاستفهام مكان حرف النفي، ونفي النفي إيجاب، فصار بمثابة (رأيت) غير أنه مقصود به الاستفهام، ولم يمكن أن يؤتى بحرفه لوجوده في اللفظ، ولذلك أعطى معنى: هل رأيت؟ فإن قلت: من أين جاءت (إلى) ورأيت يتعدى بنفسه؟ أجيب لتمنه معنى (تنظر) "1

2-أ التماسك بين الآيات غير المعطوفة:

يتناول الزركشي أيضا بعض الآيات التي لا يوجد فيها عطف؛ يبحث في أسرار التماسك بين الآيات التي يوحى ظاهرها بعدم وجود أي ارتباط؛ محاولا أن يقدم تفسيراً يعلل تجاوز تلك الآيات؛ ويمكن أن نستخلص قراءة الزركشي لتلك الآيات في العلاقات الآتية:

علاقة تنظير:

يرى الزركشي أن إلحاق التنظير بالعلاقة منطوية، فمن دأب العقلاء إلحاق التنظير بالتنظير.

يدرج الزركشي ضمن هذه العلاقة التماسك الموجود في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال/04-05]

إن الإشكال الذي طرحه الآيتان؛ هو ما وجه التماسك بين ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وبين ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يعلل الزركشي التماسك في الآيتين بعلاقة التنظير، ذلك أن الله عز وجل أمر رسوله أن يمضي في تقسيم الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العدو وهم كارهون ذلك أن الصحابة اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال وجادلوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فكره كثير من الصحابة أمر تقسيم الغنائم فأنزل الله هذه الآيات التي وصفت المؤمنين حقا وأمرتهم بالطاعة والتقوى وعدم الاعتراض على قسمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أمر الغنائم ثم قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ أي أن كراهتهم لقسمة الغنائم ككراهتهم للخروج حين دُعوا لطلب العدو²

علاقة تقدير كلام محذوف:

تقوم هذه العلاقة بتفسير وجه التماسك بين آيتين أو أكثر ومن ثمَّ فتح الدلالة الممكنة للآيات على أفق أوسع، ومن الآيات التي تدرك أكثر عبر هذه العلاقة قوله تعالى ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ، كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ،

1- المرجع نفسه ، 46/1

1- المرجع نفسه ، 47/1

فَوَرِّكَ لِنَسْأَلَهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿[الحجر/89-95]

لعل تقدير كلام محذوف هنا يفسر بوضوح الآيتين، كأنه قال: قل أنا النذير المبين، عقوبة أو عذابا مثلما أنزلنا على المقتسمين¹

علاقة سياقية:

من الآيات التي يقوم السياق بدور كبير في تفسيرها، قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة/16-17] ، وقد توسطت قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة/14-15] ، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة/20-21]

إن ظاهر الآيات يوحي انفصالها فما وجه وجود ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ بين كل تلك الآيات المتماسكة؟ لكن الزركشي يتوصل إلى التماسك الموجود بين الآيات باعتماده سياق الآية يقول: "فهذا من باب قولك للرجل وأنت تحدته بحديث فينتقل عنك ويقبل إلى شيء آخر: أقبل عليّ و اسمع ما أقول، و افهم عني الكلام الأول قاطعا له، و غنما يكون به مشوقا للكلام، وكان رسول الله (صلى الله عليه و سلم) أميا لا يقرأ ولا يكتب وكان إذا نزل عليه الوحي وسمع القرآن حرّك لسانه بذكر الله، فقيل له: تَدَبَّرْ ما يوحى إليك ولا تتلقفه بلسانك، فإنما نجمعه لك ونحفظه عليك"²

علاقة تضاد:

من الآيات التي يفهم وجه التماسك بينها بهذه العلاقة أوائل سورة البقرة، فيها حديث عن القرآن الكريم، وأنه هدى للمتقين، وأن من صفات المؤمنين الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وإنفاق المال في سبيل الله، فلما فرغ عز وجل من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [القيامة/06-07]

يقول الزركشي: "فبينهما جامع وهي؛ بالتضاد من هذا الوجه، وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل: وبضدها تبين الأشياء"³

علاقة استطرادية:

من الآيات التي يدرك التماسك بينها بواسطة هذه العلاقة، قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف/26]

لقد وردت هذه الآية عقب كشف السوءات وخصف الورق، وذلك إظهارا لفضل الله ومنتته على عباده فيما خلق من اللباس، ولما في العري من المهانة، وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى⁴

2- المرجع نفسه ، 47/1

3- المرجع نفسه ، 48/1

1- المرجع نفسه ، 49/1

2- المرجع نفسه ، 49/1

ويقتبس الزركشي من "إعجاز القرآن" للباقلاني العلاقة الاستطرادية في تفسير التماسك في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظُلْمَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل/48-49]

إن بداية الكلام في الآيتين عن أمر خاص وهو قدرة الله في خلقه، ثم أجرى الحديث إلى سجود الكون وما فيه لله عز وجل 1

علاقة تنشيط للمتلقي:

يكون في بعض الآيات الانتقال من حديث إلى آخر من مقاصده . يبدو. و مراعاة التفاعل بين المتلقي والنص، حيث يتجلى تنشيط المتلقي من أبرز هذه المقاصد؛ كقوله تعالى ﴿ذَا ذُكِّرُوا وَلَئِنْ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص/49] فلما أفرغ تعالى من ذكر الأنبياء قال ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ فربط تلك الإخبارات باسم الإشارة لينتقل إلى حديث آخ ، كما في قولنا: أشير عليك بكذا، ثم تقول بعده: هذا الذي عندي و الأمر إليك. وأيضا لما فرغ تعالى من ذكر الجنة قال ﴿وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَآبٍ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [ص/55-56] منتقلا تعالى إلى آخر حديث كما انتقل في الأول (2).

ب- التماسك بين السور:

يؤسس الزركشي دراسته للتماسك بين السور من اقتناعه أن ترتيب السور توقيفي ويؤكد على هذه الرؤية من خلال ملاحظة التماسك الشديد بين السور، يميز الزركشي بين ترتيب "التلاوة" وترتيب "التنزيل" فترتيب التنزيل يربط الآيات بسياقها التاريخي فيما عرف بـ "أسباب النزول" أما ترتيب "التلاوة" فهو أشمل إذ يتعلق بعلم الله الذي أراده تعالى بهذا الترتيب الموجود في المصاحف فهو ترتيب للقرآن كما أنزله تعالى إلى السماء الدنيا³ وتؤكد دراسة الزركشي للتماسك بين السور وحدة دلالية أو شكلية نحوية لتؤكد ذلك البناء التماسك للنص القرآني الذي يبدو كالكلمة الواحدة.

التماسك بين السور منه ما هو ظاهر قريب يسهل تلمسه، ومنه ما هو خفي يحتاج إلى تمكّن واقتدار لاكتشافه من هذه الناحية يمكن أن يتميز مفسر عن آخر، "ومهمة المفسر محاولة اكتشاف هذه العلاقات أو المناسبات الرابطة بين الآية والآية من جهة، وبين السورة والسورة من جهة أخرى، وبديهي أنّ اكتشاف هذه العلاقات يعتمد على قدرة المفسر وعلى نفاذ بصيرته في اقتحام آفاق النص"⁴

إن النص القرآني فضاء مفتوح غير مغلق على قراءة جيل أو فرد بعينه أو مذهب محدد؛ بل إن النص القرآني نفسه يدعو المتلقي لتدبره و التفكير والتأمل فيه، لكنه لا يقبل القراءة المتربصة و ما يفتأ أن يفضح هذه القراءة الشاذة أو المتربصة أو التي

3- المرجع نفسه ، 50/1

1- المرجع نفسه ، 55/1

2- نصر حامد أبو زيد ، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ، 1998 م ، ص 159

3- المرجع نفسه ، ص 160

تريد تقويض قواعده الفكرية من الداخل فقد "يعتمد مفسر على بعض معطيات النص ليكشف من خلالها علاقات خاصة، بينما يعتمد مفسر آخر على معطيات أخرى فيكشف عن نمط آخر من العلاقات"¹

لقد استطاع الزركشي ببراعة كبيرة، ونفاد بصيرة، أن يرصد علاقات التماسك بين السور، رصدا كشف عن إمكانات أسلوبية إعجازية في النص القرآني المقدس، كما أشار الزركشي التماسك الموضوعي بين السور الذي لم يبرز بشكل واضح إلا مع سيد قطب في ظلاله²

إن محاولة الزركشي في جانب منها تستحق أن توصف بالمقاربة الأسلوبية النصية، لأنها رؤية متماسكة في نظرتها للتماسك بين الآيات والسور، حيث تفضي كل آية أو سورة للتي تليها.

لقد ارتقى الزركشي بالتماسك حتى جعله وجها يُطلبُ به معرفة الإعجاز فكيف تماسك هذا البناء العظيم الذي نزل منجما على مدار ثلاثة وعشرين سنة يقول: "وهو مبنيٌّ. التماسك. على أن ترتيب السور توقيفي وهذا الراجح كما سيأتي، وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها"³

ويقول أيضا: "لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تُطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم⁴ وفعلا قد أثبت الزركشي تماسكا شديدا بين السور التي درسها تماسكا يدل على إعجازية النص القرآني "وإذا ثبت هذا بالنسبة للسور، فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض بل عند التأمل يظهر أن القرآن كالكلمة الواحدة"⁵

وبعد بيان دور التماسك وقيمه في القرآن كما بينها الزركشي، نرصد أهم العلاقات التي يرى أنها قادرة على تفسير تراتب السور. يقول تعالى في افتتاح سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون/01] ويقول تعالى في خاتمة السورة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون/117]

إن التماسك بين فاتحة السورة واضح لا يحتاج إلى بيان، فالفاتحة حديث عن المؤمنين والخاتمة بيان لمخالفة صفات المؤمنين حتى قال الزمخشري: فشتان بين الفاتحة والخاتمة⁶

و من ذلك أيضا افتتاح سورة "القصص" بقصة موسى ونصرتة وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص/17] وخروجه من وطنه وإسعافه بالمكالمة، وختمها بأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن لا يكون ظهيرا للكافرين وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص/85]⁽⁷⁾

1- المرجع نفسه ، ص161

2- المرجع نفسه ، ص163

3- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، 38/1

4- المرجع نفسه ، ص1/39

5- المرجع نفسه ، ص1/186

1- المصدر نفسه ، ص1/185

2- المرجع نفسه ، ص1/38

آليات التناص الشعري في بكائية مالك بن الربيع (ت: 60هـ)

د. شمسية خلوي

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله - الجزائر

الملخص:

إن النص الأدبي هو نتاج امتلاك المبدع خبرات معرفية وفنية سابقة، وبمجرد ولادة النص وبتّهِ للمتلقّي تنتهي مهمة هذا المبدع لتبدأ مغامرة النص الحقيقية مع آفاق التلقي المتعددة، وما تنوع القراءات إلا دليل على طاقة النص الأدبية، وهذه سمة من سمات بقائه وذهابه في الناس عبر المكان والزمان.

ولعل التناص هو من أبرز الأدوات الإجرائية التي تكشف عن حضور النصوص السابقة في نص لاحق، ولأن هذه الميزة حاضرة في مختلف النصوص الأدبية قديمها وحديثها فقد ارتأينا أن تكون لنا قراءة تناصية في مدونة تراثية شعرية، للكشف عن مختلف التناصات الشعرية التي حفلت بها.

وقد سرنا في محاولة استنطاق النص الشعري تناصيا على خطة من شقين: جزء نظري مختصر أصلنا فيه لمصطلح التناص في التراث العربي أولا ثم النقد الغربي فالعربي، وجزء تطبيقي موسّع يشغل الحيز الأكبر من المقاربة، بحيث نبسط أمام القارئ النص اللاحق من المدونة الشعرية موازيا للنص السابق من مصدره الأصلي، مع قراءة تناصية للتعالق النصي الحاصل بينهما. الكلمات المفتاحية: التناص الشعري، بكائية مالك بن الربيع، التعالق النصي.

Abstarct :

Mechanisms of poetic intertextuality in the lamentation poem of Malik Ben Al -Reeb

The literary text is the product of the creative person's possession of previous cognitive and artistic knowledge. Once the text is created and sent to the receiver, the mission of this creative person ends so that the text real adventure begins with many reception horizons in order to generate the text again, and the diversity of the readings is an evidence of the literary text's energy, and this is one of the features of its survival among people across time and place.

Perhaps the intertextuality is the most prominent procedural tool revealing the presence of previous texts in a later one, so ; We have tried to question intertextually the poetic text on the basis of Western criticism, and an expanded practical part that occupies the larger part of the approach, so that we extend in front of the reader the late text of the poetic corpus in parallel with the previous text from its original source, with an intertextual readability of the textual correlation existing between them.

Key-words: poetic intertextuality, lamentation poem of Malik Ben Al -Reeb, textual correlation

نص المداخلة:

يعدُّ النصُّ في النَّقد العربي المعاصر محور العملية النَّقدية ومنطلقها، بحيث تُتخذ من بنيته مجالاً للبحث والتحليل، ومن آفاق التلقي المختلفة الكشف عن الخطابات المتعدّدة في الخطاب الواحد أو ما يطلق عليه مصطلح (التَّنَاص) الذي يعتبر أحد المناهج النَّقدية الحديثة التي أدركت ذلك التَّدَاحل والتَّقَاطع بين النُّصوص، وتحديدًا بين نصَّين: أحدهما قديم وآخر جديد، على مستويات مختلفة، سواء كان التَّدَاحل خفيًّا عصيًّا على الاكتشاف أو ظاهرًا جليًّا.

وإن ميزة الكشف عن حضور النصوص السابقة في نص لاحق، متواجدة في مختلف المدونات الأدبية قديمها وحديثها مما حفزنا أن تكون لنا قراءة تناصية في مدونة تراثية شعرية، للكشف عن مختلف التناصات الشعرية التي حفلت بها، فكان العنوان:

" آليات التناص الشعري في بكائية مالك بن الربيب (ت: 60هـ) وعليه، حاولنا أن نبي المداخلة ابتداء من الثابت (مرثية مالك بن الربيب) والمتغبر (التناص) على السؤال التالي:

هل يتلاءم الخطاب الأدبي القديم مع الكيفيات النقدية الأدبية التطبيقية المعاصرة؟

يبدو أن الإجابة هي: نعم، وعلى الأقل بالنسبة ليائية شاعرنا، فقد ألفتنا تناصا واضحا بينها وبين نصوص شعرية سابقة مما ستثبته الصفحات الموالية، وقد ارتأينا أن نخصص مداخلتنا لبسط مقارنة معاصرة تعتمد على التناص الشعري تحديدا كمنهج تطبيقي، ومحاولين الإجابة عن تساؤلين منهجيين:

- كيف تتمثل ظاهرة التناص كأداة إجرائية على اليائية تطبيقياً؟

- إلى أي مدى استطاعت هذه الممارسة التأويلية فك رموز النص الأصلي لمالك بن الربيب؟

أولاً: تمهيد نظري:

إنَّ نظرة عاجلة على سيرة مالك بن الربيب التميمي ومدوّنته المعنية بالدرس من شأنها أن تعطي البحث أكثر مصداقية، فأدينا هو⁽¹⁾ مالك بن الربيب بن حوط بن قرط المازني التميمي وكنيته: أبو عقبة، شاعر من الظرفاء الأدباء الفُتّاك اللصوص حيث كان يعمل على قطع الطرق وسلب القوافل.

اشتهر مالك في أوائل العصر الأموي، ورآه سعيد بن عثمان بن عفان بالبادية في طريقه بين المدينة والبصرة، وهو ذاهب إلى خراسان وقد ولّاه عليها معاوية سنة 56هـ، فأنبه سعيد على ما يقال عنه من العيث وقطع الطريق واستصلحه واصطحبه معه إلى خراسان، فشهد فتح سمرقند، وتنسك، وأقام بعد عزل سعيد، فمرض في "مرو" وأحس بالموت فقال حينذاك قصيدته المشهورة في رثاء نفسه.

هذه القصيدة اليائية التي شدّت انتباهنا وحاولنا قراءتها تناصيا وردت في أكثر من مصدر تراثي، واختلف في عدد أبياتها، فعلى سبيل المثال نلّفها عند البغدادي في خزانة الأدب (58 بيتاً)⁽²⁾ وفي الجمهرة (51 بيتاً)⁽³⁾، وقد جمعنوري حمودي القيسي أبيات القصيدة فكانت (58 بيتاً)⁽⁴⁾ مبعدا النص عن الاختلافات التي لحقت به لكثرتها واضطرابها وتباين ألفاظها.

كما تمثّلاليائية أشهر قصائد شاعرنا لما حصلت عليه من شهرة وما حيك حولها من روايات وأخبار، وعن نحل أبيات مرثية ابن الربيب يقول الأصفهاني في الأغاني نقلا عن أبي عبيدة: «الذي قاله مالك بن الربيب ثلاثة عشر بيتا والباقي منحول ولده الناس عليه»⁽⁵⁾، وفي كل الأحوال تبقى هذه القصيدة من عيون شعر الرثاء، لما لها من خصائص تفردت بها.

ولعل المعنى اللغوي والاصطلاحي يتقاطعان ونحن نبحت عن ماهية الرثاء، فقد ورد في لسان العرب أن «رثى فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته»⁽⁶⁾، ومن الألفاظ التي تستخدم في معنى الرثاء نجد: النعي والتأبين والندب.

والأصل أن يرثي الشخص شخصا آخر بعد موته قريبا كان أو شخصية عامة، بينما قصيدة مالك بن الربيب تدخل في نطاق المرثية التي خرجت عن هذه القاعدة، إذ نجد الشاعر يرثي نفسه قبيل موته، وفي نفس الوقت ليس شاعرنا الوحيد الذي سلك

(1) تنظر ترجمته: ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1423هـ، 341/1، وخير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط5، مايو 2002م، 261-262/5.

(2) ينظر: عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط5، القاهرة، مصر، 1418هـ - 1997م، 203/2.

(3) ينظر: أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 607-614.

(4) ينظر: مالك بن الربيب، الديوان، تحقيق: نوري حمودي القيسي، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد: 15، الجزء: 01.

(5) أبو الفرج علي بن الحسين الإصفهاني، الأغاني، تحقيق إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1429هـ / 2008م، 324/22.

(6) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ، 309/14.

هذا الدرب، إذ تطالعنا الكتب التراثية بمجموعة منالمراثي لشعراء ممن رثوا أنفسهم وهم أحياء على شاكلة عمرو بن أحمر الباهلي وعبدة بن الطيب وأبي الطمحن القبني الذي يقول في مستهل مرثيته لنفسه⁽¹⁾:

ألا عللاني قبل نوح النوائح *** وقبل ارتقاء النَّفس بين الجوانح
وَبعد غَد يا لهف نَفسي على غَد *** إذا راح أَصْحَابي وَلست برائح)
إذا راح أَصْحَابي تفيض عيونهم *** وغودرت في لحد على صفائحي

وتعتبر مرثية مالك بن الريب مزيجاً من نصوص شكّلت بنيتها اللفظية والمعنوية، مما يدخل في إطار التناس الذي جعلناها أداة إجرائية لتحقيق المقاربة.

وإنه لمن الصعب تمثيل مفهوم موحد للتناس في الخطاب النقدي الغربي لأن أصوله متعددة الاتجاهات، لذلك فدلالة التناس تتغير من باحث إلى آخر، غير أن المتفق عليه هو كون بذرة التناس الأولى قام بوضعها ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin (ت: 1975م) حين رُجِّح لمصطلحه الجديد (الحوارية / dialogism) والذي يدل على التشابه الحاصل بين تعبير مائل وتعابير أخرى مشابهة، بحيث «يدخل فعلاً لفظيان، تعبيران اثنان، في نوع خاص من العلاقة الدلالية، ندعوها نحن علاقة حوارية، والعلاقات الحوارية هي علاقات (دلالية) بين جميع التعبيرات التي تقع ضمن دائرة التواصل اللفظي»⁽⁴⁾.

والواقع أن الباحثة البلغارية جوليا كريستيفا Julia Kristeva (ت: 1941م) هي أولى من اعتمدت مصطلح التناس، وذلك استناداً إلى الإرث النظري الذي تركه باختين، وقد ظهر المصطلح في أبحاث لهذه الناقدة بين عامي (1966-1967) في مجلتي: "Telquel" و"critique" ثم أعادت نشرها في كتب مستقلة، وتنطلق كريستيفا في بسط رؤيتها حول التناس من كون النص «ترحالاً للنصوص وتداخلاً نصياً»⁽²⁾.

أما التحول النوعي الذي مرّ به التناس فقد أتى على يد الناقد الفرنسي جيرار جينيات Gérard Genette (ت: 2018م) الذي وسّع هذا المفهوم النقدي من خلال أبحاثه، تحديداً في كتابه (أطراس / palimpsestes) حيث درس التعالي النصي الذي قال إنه «كل ما يضع النص في علاقة ظاهرة أو خفية مع نصوص أخرى»⁽³⁾، وعليه فالنص هو تركيب من نصوص غائبة أخرى.

ففي البداية نجد هذا الباحث قد ركز على معمار النص (l'architexte)، حيث يعرف هذا المفهوم على أنه «علاقة النص بمعمار»⁽⁴⁾، ثم عدل جينيت عن فكرة معمار النص العام 1982م، واستبدله بمصطلح التعاليات النصية (transtextualité) أو التعالي النصي للنص، وهو ما يجعل نصاً معيناً يتداخل مع نصوص أخرى بصفة مباشرة أو ضمنية، ثم يقترح جيرار جينيت خمسة أنماط من التعاليات النصية هي⁽⁵⁾: التناس، المناس، المي تناس، النص اللاحق و معمارية النص.

و من ثم فإن النقد الغربي حاول المحافظة على ميزة أساسية في نظرية التناس وهي أن عملية إنتاج النص إنما تتم في إطار من التعاون بين مرسل النص ومستقبله، أو بصيغة أخرى بين النصوص الغائبة باعتبارها الأدوات الأساسية للإنتاج مع النص المماثل.

(1) ينظر: أبو الحسن البصري، الحماسة البصرية، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 278/1.

(4) تزفيتان تودوروف، المبدأ الحوارية: دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة: فخري صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1992م، 82.

(2) Kristeva, Julia, Sémiotike, recherche pour une semanalyse, Edition du Seuil, Paris, 1969, 52.

(3) المختار حسني، نظرية التناس، مجلة علامات في النقد، مج 9، ج 34، 1999م، 235.

(4) Genette, Gérard, Introduction De l'architexte, collection poetique, Edition du Seuil, Paris, 1976, 88.

(5) ينظر: سعيد يقطين، إنفتاح النص الروائي (النص و السياق)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 96 - 97.

ولم يبق التناس و ما دار حوله رهين الثقافة الغربية التي تشكل وتطور فيها، بل دخل الثقافة العربية المعاصرة ووجد له مكانا مميزا في النقد العربي المعاصر، و نشير إلى أن المترجمين العرب المعاصرين لم يتفقوا على تعريب مصطلح (التناس) وتوحيد المصطلح الدال عليه، فبعضهم يعرّبه (التناس) وآخرون (التناسية) ، وفريق ثالث بـ (النصوصية)، ورابع بـ (تداخل النصوص)، ومع ذلك فإن المصطلح الأول (التناس) هو الذي شاع وانتشر.

ولعل من أهم الدراسات التي تناولته هي التي قام بها الدكتور محمد مفتاح تنظيرا و إنجازا في العديد من مؤلفاته أهمها "إستراتيجية التناس" و"دينامية النص"، فمحمد مفتاح يعتبر التناس على أنه «تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»⁽¹⁾، هذا النص الذي ما هو إلا «إعادة بناء لأقوال جاءت من منح متعددة»⁽²⁾، فالتناس من وجهة نظر مفتاح عمل فني هادف جاء نتيجة تحكم المبدع في تقنيات الكتابة المختلفة.

و من النقاد العرب المحدثين الذين تداولوا مصطلح التناس نجد "سعيد يقطين" في مؤلفه "انفتاح النص الروائي"، والذي تناوله باسم "التفاعل النصي" لأنه أعم في نظره من التناس، واعتمادا على جهود جيرار جينيت قدّم تصوره الخاص⁽³⁾، فالتناس من منظوره يخلق وجوده في النص.

وأخيرا، ليس علينا أن نغفل الإشارة للمفاهيم التي تتقاطع مع نظرية التناس في تراثنا العربي القديم، فالمتبع لمسار النقد لا يمكن له أن ينكر أثر هذا الخطاب التراثي العربي في مختلف أنماط الخطاب النقدي المعاصر باختلاف اتجاهاته ومشاربه، و لا أثر التفاعل بينهما مع بروز الخصائص المميزة لكل ثقافة على حدة، في هذا الإطار يمكننا رصد نظرية التناس برؤية مشتركة بين الامتداد الثقافي العربي من جهة، والخطاب النقدي الغربي الحديث من جهة أخرى.

لقد تعددت المفاهيم و المصطلحات النقدية التي أطرت نظرية التناس في التراث النقدي العربي القديم، لكنها لا تخرج عن إطار "السرققات الأدبية" فهي تشكل نواة لنظرية تناسية حديثة، بيد أنها لم تجتمع في إطار تنظيري موحد كما هو الحال في نظرية التناس رغم حظوتها باهتمام النقاد العرب القدامى الذين استفاضوا في الحديث عنها و في تعداد أنواعها⁽⁴⁾.

ومهما اختلفت آراء النقاد العرب القدامى، فإن النقد العربي القديم نظر للسرققات الأدبية على أنها «استقصاء المعاني و ردها إلى أصولها لوجود أدنى تشابه»⁽⁵⁾، مهما كان مصدرها سواء أ كان من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو من أشعار العرب و كلامهم، و بالتالي كان هدف هؤلاء النقاد هو «البحث عن الأصول و عن المصدر الأول للنص الأدبي (...) و ليس باعتبار النص الأدبي فسيفساء من النصوص فيما بينها»⁽⁶⁾، وهذا هو الاختلاف الجوهر.

ثانيا: الدراسة التطبيقية:

نستهل مجمل التقاطعات الشعرية بأول بيت في ميمية مالك بن الريب، حيث عمد شاعرنا إلى افتراض شطر كامل من غيره ليبتدأ بها قصيدته، وهذا ما جسده العنصر البنائي الأول لها حيث يقول بنيرة تبدو حزينة وقد شارفه جمامه⁽⁷⁾:

(1) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناس - المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1999م، 121.

(2) محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير وإنجاز المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1999م، 152.

(3) ينظر: سعيد يقطين، إنفتاح النص الروائي (النص و السياق)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 98 - 101.

(4) أهم من تطرق لمسألة السرققات في النقد العربي القديم: ابن الأثير في: المثل السائر، المظفر العلوي في: نصرة الإغريض في نصرة القريض، ابن رشيق القيرواني في: العمدة فيمحاسن الشعر و آدابه، والقاضي الجرجاني في: الوساطة بين المتنبي و خصومه، والأمدى في: الموازنة بين شعر أبي تمام و البحتري، وأبو هلال العسكري في: الصناعتين، وغيرهم.

(5) محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرققات في النقد العربي، 1958م، 239.

(6) أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1987م، 59.

(7) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 607، ومالك بن الريب، الديوان، المجلد: 15،

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيِّنَ لَيْلَةً *** بَجَنِبِ الْغَضَا، أُرْجِي الْقِلَاصَ التَّوَاجِيَا؟

إنه أول مشهد سردي ييوح فيه الشاعر بأمنيته وهو مدرك أنهمستمسك منه بحبال الهباء، ويشعرنا أنه أيقن باليأس مما طلب، وهنا تظهر سلطة المكان الذي خالط هوى الشاعر، حيث تمنى تواجده والمبيت فيه.

وهو في هذا المعنى قد تناص معبيت لبلال بن رباح رضي الله عنه حين كابد الألم بعد مرض ألمَّ به بعد دخوله المدينة المنورة رفقة الرسول صلى الله عليه وسلم وجمع من الصحابة رضي الله عنهم جميعا، فكان بلال رضي الله عنه إذا أُلْقِعَ عنه الحى يرفع عقيرته ويقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيِّنَ لَيْلَةً *** بَوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ حُرِّ وَجَلِيلٌ⁽¹⁾:

إنه التعبير عن الاغتراب والحنين للأوطان وما فيه من حَسرةٍ للنفوس، عرضه مالك ومن قبله بلالا، يُثِيرُ في المتلقي شُجُونًا بعدما أظهرنا لواعج قلوبهما إثر فراقهما للوطن.

وهذا بيت لزهير بن أبي سلميتوافق في جزء منه مع بيت مالك بن الربيع السابق، والذي يقول فيه زهير مذكرا النعمان بن المنذر حين طلبه كسرى ليقتهله⁽²⁾:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى *** مَنِ الْأَمْرِ أَوْ يَبْدُو لَهُمْ مَا بَدَا لِيَا؟

ويتناص بيت مالك أيضا مع قول عنتره بن شداد⁽³⁾:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُبَلِّغُنِي الْمَنَى *** وَتَلْقَى بِي الْأَعْدَاءَ سَابِحَةً تَعْدُو؟

وبصفة أقل يتناص البيت المذكور لمالكمك الشنفرى الذي قرعت ساحتها الأحزان هو الآخر، والذي أنشد مخاطبا الجارية السلامية حين أنكرت أن يكون أباها⁽⁴⁾:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي ضَلَّةٌ *** بِمَا ضَرَبْتَ كَفُّ الْفَتَاةِ هَجِيئَهَا؟

فالمواقف المذكورة أنفا سواء في النص المستشهد به لمالك بن الربيع أو النصوص الغائبة التي بسطناها، كلها لشعراء تفرطهم الهموم فنفتوها شعرا.

وبما أن النص السابق كَوَّنَ جزء معتبرا من عجز البيت الأول، فإننا نلفي تشابها في بحر القصيدة أيضا، وذلك بالاعتماد على الطويل، والذي وزنه في دائرته العروضية:

فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ *** فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ

الأمر الموضح عبر التقطيع الموالي مع اختيار بيت بلال بن رباح لعرض التشابه:

أَلَا لَيْدُ / تَشْعِرْهِدُ / أُبَيِّنُ / نَلَيْلَتُنْ *** بَجَنِبِدُ / غَضَا أُرْجِدُ / قِلَاصِدُ / تَوَاجِيَا

(1) الحديث كاملا بنصه: «حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، وَعِيكَ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذْتَهُ الْحَيُّ يَقُولُ: كَلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ *** وَالْمَوْتُ أَذَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أُلْقِعَ عنه الحى يرفع عقيرته يقول: أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيِّنَ لَيْلَةً *** بَوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ حُرِّ وَجَلِيلٌ،

وَهَلْ أَرْدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ *** وَهَلْ يَبْدُونُ لِي سَامَةً وَطَفِيلٌ،

قال: اللَّهُمَّ الْعَن شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأُمِّيَّةَ بِنْتُ خَلْفٍ كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَتَاءِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحَبِّبْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَنَّا، وَصَحْخَحْنَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ»، قَالَتْ: وَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ أَوْبًا أَرْضِ اللَّهِ، قَالَتْ: فَكَانَ بَطْحَانُ يُجْرِي نَجْلًا تَغِي مَاءَ أَجْنًا.

محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، باب كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن تُعْرَى المدينة، كتاب فضائل المدينة، رقم الحديث: 1889.

(2) زهير بن أبي سلمى، الديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: علي حسن فاعور، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 139.

(3) عنتره بن شداد، شرح ديوان عنتره للخطيب التبريزي، قدم له ووضع فهارسه وهوامشه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط1، 1412هـ/1992م، 55.

(4) محاسن بن إسماعيل الحلبي، شرح شعر الشنفرى الأزدي، تحقيق وتعليق: خالد عبد الرؤوف الجبر، دار الينابيع، ط1، عمّان، 2004م، 47.

0/0// 0/0// 0/0/0// 0/0// *** 0//0//0/0// 0/0/0// 0/0//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن *** فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
وبالنسبة لبيت الصحابي بلال بن رباح رضي الله عنه لم يختلف الأمر كما سبق ذكره:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْبَتَنَ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خَرْتُ وَجَلِيلُ

أَلَا لَيْدُ- / تَشْعُرِيهِدُ / أَيْبَتَنُ / نَلَيْتَنَ *** بِوَادِنُ وَحَوْلِي إِذْ خَرْتُ وَجَلِيلُ

0/0// /0// 0/0/0// 0/0// *** 0//0// 0/0// 0/0/0// 0/0//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن *** فعولن مفاعيلن فعول مفاعل

وللطويل ببنيته الثنائية إمكانات تعطي مساحة كبيرة للسرد والبسط القصصي والعرض الدرامي⁽¹⁾، مما أتاح لمالك بن الربيع

ومن قبله الشعراء الذين تناص معهم من الحكي وعرض التجربة المؤلمة التي مروا بها وبث زفراهم الوجدانية للمتلقى.

ولا نبرح هذا التناص العروضي دون أن نشير إلى حرف الروي المتشابه أيضا والمتمثل في حرف الميم- مع حرف المد (الألف)

الذي ورد وصلًا- وعليه سميت قصيدة مالك "الميمية" على منوال النصوص السابقة واردة الذكركميمة عبد يغوث بن وقاص الحارثي.

أما التناص الآخر الذي نراه مجسدا في البيت الأول فهو محاكاة مالك بن الربيع لبلال بن رباح وعبد يغوث بن وقاص الحارثي

في البيت الأبيات المذكورة، وتحديدًا في استدعاء حرف الاستفتاح والتنبيه (ألا) في قولهم على التوالي: (أَلَا لَيْتَ شِعْرِي) و(أَلَا لَا تَلُومَانِي).

يقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي مكابدا غُصَصَ الموت هو أيضا⁽²⁾:

أَلَا لَا تَلُومَانِي كَفَى اللُّومَ مَا بَيَا *** وَمَا لَكُمْ فِي اللُّومِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا

وليس غريبًا أن يولي الشعراء اهتمامًا متميزًا للابتداء، إذ لم يكن محض صدفة أو من قبيل التقليد فحسب، بل هو نابع من

إدراكهم لأهمية الاستهلال ضمن المتن العام لأي عمل أدبي، إذ يعتمد المؤلف إلى حسن انتقائه ورفضه بطريقة ملفتة للانتباه

و«إنما حُصَّتْ الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده، توفرت الدواعي على الاستماع»⁽³⁾.

وقد كان اختيار مالك بن الربيع لـ (ألا) كمطلع لقصيدته مماثلاً بذلك صنيع عبد يغوث لأسباب نجمها في نقطتين، هما: أراد

مالك بن الربيع مثله مثل عبد يغوث تنبيه السامع للكلام الذي يأتي بعد حرف الاستفتاح (ألا)، وهو هدف مقصود لكل شاعر،

فإذا ما تم التنبيه وحصل جلب الانتباه سهل تمرير الرسالة الشعرية وإيصالها للمتلقى، وثانيها، أن الموقف متشابه بما يحمله من

أسى وأسف على الملهذات وإقبال على الموت وانقطاع عن الأهل والأحباب.

وفي موضع آخر استدعى مالك بن الربيعي بنائه لنصه الشعري عبارة لعروة الرحال، إذ قال شاعرنا وهو يقاسي لهاث الموت⁽⁴⁾:

دَعَانِي الْهَيْوَى مِنْ أَهْلِ وَدِّي وَصُحْبَتِي *** بِذِي الطَّبَسِينِ، فَالْتَفْتُ وَرَأْيَا

ويقول عروة الرحال⁽⁵⁾

(1) عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ط2، دار الفكر، بيروت، 1970م، 313/2.

(2) المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط6، دار المعارف، القاهرة، 155.

(3) ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبديوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 98/3.

(4) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 608.

(5) محمد بن المبارك، منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق وشرح: محمد نبيل الطريفي، دار صادر، ط8، بيروت، 1999م، 48/2.

دعاني الهوى نحو الحجاز مصعداً *** وإني وإياها لمختلفا النَّجْرِ

لقد اقتبس شاعرنا حالتها لشعورية من عروة الرحال بأن دعاه الهوى الذي هو أول مراتب الحب، فمالت نفسه إلى أهل وده وصحبته، مثلما دعا الهوى عروة نحو بلاد الحجاز.

وفي بيت شعري آخر من المرثية يقول مالك بن الرب⁽¹⁾:

فَلِلَّهِ دَرِيٌّ يَوْمَ أَتْرُكُ طَانِعاً *** بَنِي بَاعِلَى الرَّقْمَتَيْنِ، وَمَالِيَا

ويتناص هذا المعنى والمبنى مع قول الشاعر الفارس عنتر بن شداد⁽²⁾

فَلِلَّهِ دَرِيٌّ كَمَ غُبَارٍ قَطَعْتُهُ *** عَلَى ضَامِرِ الْجَنْبَيْنِ مُعْتَدِلِ الْقَدِّ

إذ جرت عادة العرب استخدام عبارة (لله دره) والأصل فيها تعداد مآثر المخاطب وإظهار محامده، باعتبار أن «لله درك أي لله عملك»⁽³⁾، ترد على سبيل المدح، ثم «كثر في كلامهم حتى جعلوه لكل ما يُتَعَجَّبُ منه»⁽⁴⁾، على أن (لله دري) هي افتخار القائل بفعاله هو، ولا نجد ذلك إلا لمن أدرك مجدا في حرب أو عزة في سلممن ذوي الرصانة والحصافة.

وشاعرنا حاكي عنتره الذي لا نختلف في كونه مسعر حرب من ذوي الشجاعة والبأس، والذي ألفيناه يقول (فَلِلَّهِ دَرِيٌّ كَمَ غُبَارٍ قَطَعْتُهُ) ضمن قصيدة يوحى مستهلها باستيلاء الحزن على القائل وقد تساقطت نفسه غما وأسفا ومطلعها: إذا فاض دمي واستهل على خي⁽⁵⁾.

وهذا ما أعطى الثقة بالنفس في مدح الذات قيمة متميزة لما كان لعنترة من شهرة وذيوع صيت من جهة، ثم لمكانة الشجاعة في سلم القيم التي يعتز بها العربي ويفخر، فعلى شاكلته خلع مالك على عرضه أجمل الحلل فقال: (فَلِلَّهِ دَرِيٌّ كَمَ غُبَارٍ قَطَعْتُهُ) مستأنسا في لحظاته الأخيرة ببطولاته ومآثره.

ويطالعنا مالك بن الرب بيت آخر قبيل أن تخترمه المنية من بين أصحابه حين أنشد⁽⁶⁾:

أَقُولُ لِأَصْحَابِي اِرْفَعُونِي لِأَنْتِي *** يَقَرَّ بَعْيِي أَنْ سَهَيْتُ بَدَا لِيَا

وقال عبد بن يغوث في موقف مشابه قبيل أن تحتبله حُبُولُ الرَّدَى⁽⁷⁾:

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ *** أَمْعَشَرَ تَيْمٍ أَطْلُقُوا عَن لِسَانِيَا

ليس من الصعوبة بما كان أن ندرك ذلك التشابه في الموقف فالحال واحدة والمصير المنتظر واحد، إلا أن الأمنيات لا تنقطع والأمانى مجسدة في مقول قول، وجَّهه مالك لأصحابه، بينما قصد به عبد يغوث قبيلة تيم، وبين (ارفعوا) و(أطلقوا) مساحة واقع مرير وأمل لم ينقطع.

ورود في الميمية أيضا قول مالك بن الرب⁽⁸⁾:

وَلَا تَحْسُدَانِي، يَا رِكَ اللَّهُ فَيْكَمَا *** مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ الْعَرَضِ أَنْ تَوْسَعَالِيَا

(1) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 608.

(2) عنتر بن شداد، شرح ديوان عنتره للخطيب التبريزي، قدم له ووضع فهرسه وهوامشه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط1، 1412هـ/1992م، 59.

(3) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ، 279/4.

(4) أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم، الفاخر، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، مراجعة: محمد علي النجار، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط1، 1380هـ، 55.

(5) عنتر بن شداد، 59.

(6) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 609.

(7) المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6، القاهرة، مصر، 157.

(8) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 611.

وهذا ليس ببعيد عن قول المرقش الأكبر وهو يقول واصفا شوقه وحنينه إلى هند⁽¹⁾:

خليلي عوجا يارك الله فيكما *** وإن لم تكن هنداً لأرضكما قصدا
وقول عروة بن حزام أيضا⁽²⁾:

ألا فأخملاني يارك الله فيكما *** إلى حاضر الرّوحاء ثمّ ذراني

إنالمخاطب مثنى في مستهل الأبيات الثلاثة وإن اختلف المعنى فيها، إلا أن الدعاء بـ (بارك الله فيكما) مشترك بينهما، «وبارك الله الشيء وبارك فيه وعليه: وضع فيه البركة»⁽³⁾، فكانه تقرب وتودد من المخاطب بعد أمر أو نهي.

وفي تقاطع شعري آخر يقول مالك بن الربيب⁽⁴⁾:

فقد كنت عطافاً، إذا الخيل أدبرت *** سريعا لدى الهيجا، إلى من دعانيا

ويماثل البيت الشعري في إحدى بنياته قول الخنساء⁽⁵⁾

فيا حبذا كرز إذا الخيل أدبرت *** وثار غبار في الدهاس وفي الأكم

إننا نجد شاعرنا يفخر بكونه ابن كريمة، يتذكر أنه رجل مغوار فتاك، كيف لا وهو في بداياته كان صعلوكا يمتن الغزو والمطاردة والقتال، ولا يختلف المعنى المقتبس من بيت الخنساء التي عرفت بالثناء، وفي البيت المستشهد به نجدها ترثي ابن أخيها كرزاً، بذكر مآثره في الحروب حينما يلتقي الخصمان.

وتتوالى النصوص الغائبة الحاضرة في قصيدة ابن الربيب، إذ يقول قبل أن يتصرم أجله⁽⁶⁾:

فيا راكباً إما عرضت فيلغن *** بني مالك والربيب أن لا تلاقيا

وقد ألفينا هذا التركيب اللفظي الذي يحمل معنى مناداة الركبان، واردا في أكثر من قصيدة قبل الإسلام، فقد سبقه إليها "عبد يغوث" و"أوس بن حجر" و"عروة بن الورد" و"المرقش الأكبر"، وشاعرنا "مالك بن الربيب" في هذا الموقف كسابقه لا يقصد راكباً بعينه، بل ينادي نكرة غير مقصودة، فلعل أماله انبسطت إليه في تلك اللحظة ووصل به رجاؤه لأن يتوهم وجود ركبان يحملهم رسالة محتضر أن لا تلاقيا، قبيل أن تطوى صحيفته ويلحق من غير.

وها هو عبد بن يغوث مودعا الحياة وقد تقطع حسرات وتصدع زفرات يقول⁽⁷⁾:

فيا راكباً إما عرضت فيلغن *** ندأماي من نجران أن لا تلاقيا

ويقول أوس بن حجر⁽⁸⁾

فيا راكباً إما عرضت فيلغن *** بني كاهل شاة الوجوه لكاهل

ويقول عروة بن الورد⁽⁹⁾

أيا راكباً إما عرضت فيلغن *** بني ناشب عتي ومن يتنشب

(1) عمرو بن سعد، المرقش الأكبر، و عمرو بن حرملة، المرقش الأصغر، تحقيق: كارين صادر، ط1، 1998م، 48.

(2) عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1418هـ - 1997م، 3/377.

(3) ابن منظور، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ، 395/10.

(4) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 611.

(5) الخنساء، الديوان، دراسة وتحقيق: إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، ط1، 1405هـ/ 1985م، 126.

(6) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 614.

(7) المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6، القاهرة، مصر، 157.

(8) ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار بيروت، 1400هـ/ 1980م، 109.

(9) ديوان عروة بن الورد، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ/ 1998م، 45.

ومن صاغة القريض الذين سبقوا ابن الريب أيضا إلى نفس المعنى بنفس المبنى المرقش الأكبر حين يقول (1):

يَراكِباَ إِما عَرَضَتْ فَيَلْغُنْ *** أَنَسَ بَنَ سَعْدِ إِذْ لَقِيتَ وَحَرَمَلا

وعلى هذا لم يغير مالك في البيت إلا ما جاء ضروريا وذلك بذكر (بني مالك) بدلا من (نجران) و(بني كاهل) و(بني ناشب) و(أنس

بن سعد)

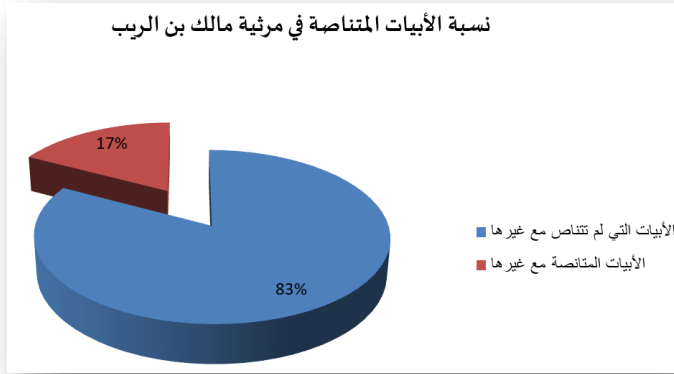
نتائج البحث:

من خلال المقاربة التي عرضناها عبر هذه الورقة البحثية، خرجنا بمجموعة من النتائج التي تتعلق بجانب التناس الشعري في

مدونة مالك بن الريب، والتي نلخصها في النقاط التالية:

- وإن كانت قصيدة مالك بن الريب من عفو الساعة ووليدة انفعال صادق، حيث كان شاعرنا يترقب موته، إلا أن الكثير من العبارات ليست من مبتكراته ولا من بنات أفكاره، بل استحضرها من نصوص سابقة في خضم حالة شعورية ضمن موقف تشابه بشكل من الأشكال مع مواقف يعينها لشعراء سبقوه.

- ونمثل لعدد الأبيات المتناصبة (2) مقارنة بأبيات القصيدة ككل بالرسم التوضيحي التالي:



- إن ما ألفيناه من حضور شعري في بكائية مالك بن الريب، ليس مجرد اجترار لنصوص سابقة، بل نجده يفتح حوارا مع النص بهدف إعادة إنتاجه.

- لقد تعددت آليات استدعاء النصوص الغائبة، بين استحضار جمل كوّنت صدر البيت الشعري وبين جمل وعبارات قصيرة. - إننا نعد مجمل التناسبات الشعرية التي بسطنا الحديث عنها من باب التناسل الاقتباسي، بحيث يظهر النص الغائب كما في أصله، دون تغيير بالزيادة أو النقصان أو التقديم أو التأخير، وهو شكل من أشكال التناسل المباشر.

- لاحظنا أن مرثية عبد يغوث هي من أكثر القصائد الشعرية التي تتناص مع مرثية مالك بن الريب معنى ومبنى، نظرا لتشابه الموقف بل تطابقه في كثير من التفاصيل، وبعدها ذلك الانجذاب لشعر الصعاليك كالشغفري وعروة بن الورد، وإذا علمنا أن مالكا كان في شبابه صعلوكا نتبين سبب هذا الاستدعاء لتلك النصوص تحديدا.

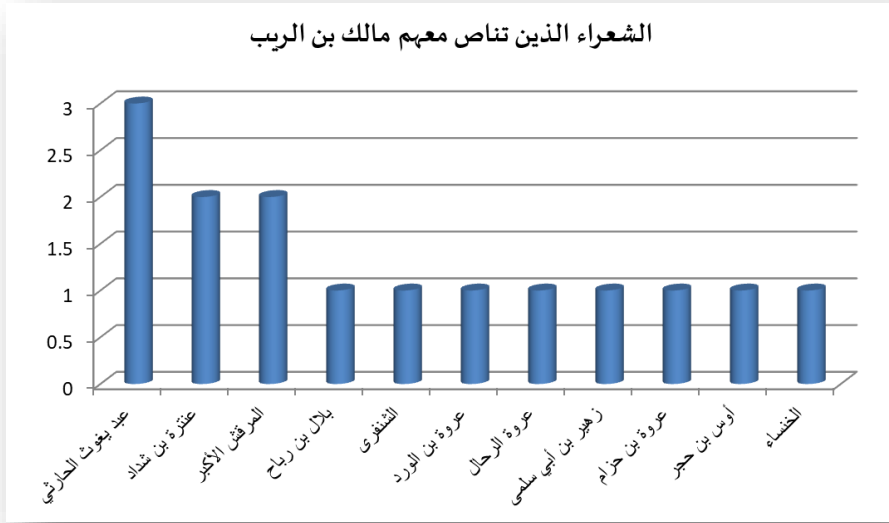
- بينما نجد البصمة الإسلامية للتناسل الشعري في المرثية حينما ألفينا حضورا لجزء لا بأس به من بيت شعري للصحابي بلال بن رباح رضي الله عنه أنشده بعد دخوله المدينة المنورة بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم، مما يكسب القصيدة نفسا إسلاميا خصوصا إن علمنا أن مالكا بعدما ترك التصعلك حسن دينه وانتظم في عقد المكارم حاله.

(1) عمرو بن سعد، المرقش الأكبر، و عمرو بن حرملة، المرقش الأصغر، تحقيق: كارين صادر، ط1، 1998م، 64.

(2) لا ندعي أننا وقفنا عند كل الأبيات المتناصبة في هذه الورقة البحثية، ولكننا حاولنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

-ونبين هذا التفاوت فيما يخص الشعراء الذين استحضر مالك بن الربيب نصوصاً غائبة من وحي إبداعاتهم بالرسم التوضيحي

الموالي:



- دارت الأبيات المتناصبة بين وظيفتين، إحداهما وجدانية والمتمثلة في التعبير عن الآلام الشخصية من شدة حزن وتفجع، لأننا لشاعر كان في لحظاتها لأخيرة يتذكر ما مر به، وينتظر ما سيحل به، ووظيفة اجتماعية والمتعلقة بالتعبير عن علاقة الشاعر بالآخرين.

مصادر ومراجع الدراسة:

المصادر والمراجع العربية:

- ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين، المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، مطبعة الرسائل، مصر، 1381 هـ / 1962 م .
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و آدابه، تحقيق محمد قرقران، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1408 هـ / 1988 م.
- ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1423 هـ.
- أبو الحسن البصري الحماسة البصرية، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- أبو الفرج علي بن الحسين الإصفيهاني، الأغاني، تحقيق إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1429 هـ / 2008 م.
- أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم، الفاخر، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، مراجعة: محمد علي النجار، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط1، 1380 هـ.
- أبو هلال العسكري، الصناعتان - الكتابة و الشعر - تحقيق : علي محمد البجاوي و محمد أبي الفضل إبراهيم وعيسى البابي الحلبي، 1971 م .
- الأمدي أبو القاسم، الموازنة بين شعر أبي تمام و البحري ، تحقيق : السيد أنور صقر، دار المعارف بمصر، 1380 هـ / 1961 م .
- الخنساء، الديوان، دراسة وتحقيق: إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، ط1، 1405 هـ / 1985 م.
- المظفر ابن الفضل العلوي، نظرة الإغريض في نُصْرَةِ القريض ، تحقيق : نهى عارف حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1396 هـ / 1976 م .
- المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، ط6، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي و خصومه، تحقيق وشرح: محمد أبي الفضل إبراهيم و البجاوي علي محمد، منشورات دار المكتبة العصرية.
- أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار بيروت، 1400 هـ / 1980 م.
- أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1987 م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، مايو 2002 م.
- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.
- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1418 هـ - 1997 م.

- عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الفكر، ط3، بيروت، 1970م.
- عروة بن الورد، الديوان، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ/1998م.
- عمرو بن سعد، المرقش الأكبر، و عمرو بن حرملة. المرقش الأصغر، الديوان، تحقيق: كارين صادر، ط1، 1998م.
- عنتره بن شداد، شرح ديوان عنتره للخطيب التبريزي، قدم له ووضع فهرسه وهوامشه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط1، 1412هـ/1992م.
- فاطمة الشيدي، المعنى خارج النص - أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوى، دمشق، 2011م.
- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي (النص والسياق)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان.
- محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة، 1422هـ.
- محمد بن المبارك، منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق وشرح: محمد نبيل الطريفي، دار صادر، ط1، بيروت، 1999م.
- محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي، 1958م.
- محمد مفتاح، انفتاح النص الروائي (النص و السياق)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان.
- _____، تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناس - ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1999م.
- _____، دينامية النص، تنظير وإنجاز المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 1999م.
- المراجع الأجنبية المترجمة:
- تزفيتان تودوروف، المبدأ الحوارى: دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة فخري صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1992م.
- مارك انجينو، في أصول الخطاب النقدي الجديد (مفهوم التناس في الخطاب النقدي الجديد) ترجمة: أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987م.
- ميخائيل باختين، شعريه دستوفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال، ط1، الدار البيضاء، 1986م.
- المراجع الأجنبية:
- Kristéva , Julia , Sémiotike , recherche pour une semanalyse , Edition du Seuil , Paris , 1969 .
- Genette , Gérard, Introduction De l'architexte, collection poetique , Edition du Seuil , Paris , 1976 .
- المجلات والدوريات:
- المختار حسني، نظرية التناس، مجلة علامات في النقد، مج 9، ج 34، 1999م.
- مالك بن الربيع، الديوان، تحقيق: نوري حمودي القيسي، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد: 15، الجزء: 01.

قراءة للمقولة التراثية «لكلّ مقام مقال»

في إطار نظرية الوضع والاستعمال العربية¹

Title: reading in "li kulli maqamin maqal" Heritage Sayin
Within the Framework of Code and Usage Theory

د. صحرة دحمان

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله - الجزائر

الملخص:

حاولت هذه الدراسة أن تتناول مقولة «لكل مقام مقال» في إطار نظرية الوضع والاستعمال على اعتبار أنّها شكّلت مفهوماً له أهمية في إنتاج الخطاب وفهمه، وذلك من خلال قراءتها ضمن أعمال بعض الدارسين من النحاة والبلاغيين؛ ذلك أنّ الكشف عن المعاني المقصودة لا يتم إلا بتحديد معاني الكلمات والتراكيب في مقامها الذي قيلت فيه. وهذا يعني فهم المقال في مقامه المناسب له؛ لأنّ المعاني لا تتحدّد إلا بتحديد قرائنها الحالية والمقالية؛ وهو ما يجعل الكلمة الواحدة تختلف معانيها باختلاف السياقات التي ترد فيها؛ هذا الفهم الذي يجعل المتلقي قادراً على فهم مقاصد المتكلم وأغراضه التي تمثّل هدفاً أساسياً من أهداف التواصل. كما حاولت أن تنبّه إلى أهمية استثمار نظرية الوضع والاستعمال في مجال الدراسات اللسانية كلسانيات النص، وإعادة الاعتبار لجهود الدارسين الأوائل الذين تميّزوا بدقّة طروحاتهم. فضلاً عن فتح الباب للتقريب بين الدارسين العربي والغربي لاستكمال ما بينهما من نقص قد يفيد كثيراً الدرس العربي المعاصر، ولن يحصل ذلك دون قراءات جادّة لمنجزات الدارسين.

الكلمات المفتاحية:

الكلام - الخطاب-المقام - المقال - القرائن الحالية - القرائن المقالية - الوضع - الاستعمال - الأغراض

Abstract:

This study attempts to examine the saying of "li kulli maqamin maqal" (One bridge at a time) in the context of the theory of code and usage as a concept that is important in the production and understanding of discourse. It will be through its examination within the works of some scholars as grammarians and philosophers. The point is that meanings of words and structures are not found out unless they are in the situation where they were said; this means the understanding of the saying in its appropriate situation. In fact, meanings are determined only by identifying their linguistic and extra linguistic evidence, and thus, making the same word different in meaning in different contexts. This understanding enables the receiver to understand the purposes and objectives of the speaker, and that is one of the fundamental aims of communication.

This study also tries to draw attention to the importance of exploiting the theory of code and usage in the field of linguistic studies such as text linguistics, and re-considering the efforts of early scholars who were accurate in their researches. Additionally it aims at providing an opportunity to bring together the Arab and Western studies to complete each other, which may be very benefitting to the contemporary Arabic research, and this will not occur unless there will be serious readings of the achievements of both Arabic and western researches.

Key words:

Speech, discourse, saying, linguistic evidence, extra linguistic evidence, use, purpose.

¹ التي طوّرها عبد الرحمان الحاج صالح في إطار النظرية الخليلية، والتي نشأت في أحضان الدرس اللغوي التراثي مع العلماء الأوائل خاصة الخليل بن أحمد

الفراهيدي وتلميذه سيبويه ومن جاء بعدهما.

توطئة:

نشأ الدرس العربي التراثي وتطور بشكل لافت للانتباه، لارتباطه بالنص القرآني الذي كان مدار اهتمام الدارسين الأوائل؛ حيث كان ذلك الدرس نتاجا للثقافة العربية الإسلامية التي أنجبت علوم كثيرة كالتحقيق والبلاغة والنقد والفقه والرياضيات... ولم يكن الدرس اللساني والأدبي إلا فرعاً من العلوم التي ظهرت في ذلك الزمان الذي طغت فيه الموسوعية العلمية، فكان اللغوي نحويًا وفقهًا ومحدثًا وطبيبًا وغير ذلك.

عكس الدرس التراثي مظاهر الحياة العلمية والأدبية واللغوية، فكان ابن زمانه بامتياز من حيث النشأة والنمو والتطور. لذلك نظن أنه من غير المفيد أن نبحث عن ملامح الدرس الغربي في الدرس العربي التراثي؛ لأنهما درسان يختلفان اختلافًا بينًا من حيث الدوافع والزمان والمكان والمقاصد. فضلًا عن أن الدرس العربي سابق زمنيًا للدرس الغربي الحديث.

ليس هدفنا من خلال هذه المحاولة -إذن- هو البحث عن ملامح الدرس الغربي في الدرس العربي؛ ولا حتى محاولة التقريب بينهما، بل نهدف إلى تأكيد مقولة أصالة الدرس العربي التي تعني صلاحية عدد من مفاهيمه التي جاء بها الأوائل، لأن الأصالة تعني صلاح الأفكار التي جاءوا بها في زمانها الذي ظهرت فيه وبقاؤها صالحة لزمن طويل وربما دائما، وليس مفهوم الأصالة الذي يقابل المعاصرة، لوجود ثوابت وهي الأصول، والمتحولات التي تفرضها طبيعة الحياة البشرية وسنن التغيير، مع فتح الباب واسعا لاستثمار تلك الأفكار وتطويرها لتناسب مع مستجدات الحياة المعاصرة والدرس العربي المعاصر.

ومن الموضوعات التي اهتم بها الدرس العربي التراثي اهتماما واضحا موضوع الحال أو المقام التي ظهرت بعدة تخصيصات في مقولات الأوائل، ومنها: 1. «حال الحديث» حينما يدل الخطاب على زمن وقوعه أو مكانه، كاستعمال المتكلم لعبارة دالة على الزمن مثل الآن - أمس - غدا أو: هنا - هناك - هناك... إلخ. 2. الحال المشاهدة ودلالة الحال المشاهدة ويقابلها بالأجنبية: Situation de discours أو Situation كما يقابلها Contexte الذي ترجمه الدارسون العرب المعاصرون بالسباق. ويرتبط الحال بمصطلح آخر عُرف في الدرس العربي القديم هو القرينة¹ (ج القرائن)، وهو اصطلاح يشمل كل الأدلة اللفظية وغير اللفظية وهي نوعان: قرائن حالية وقرائن مقالية²؛ حيث يمثل مفهوم المقام مفهوما مهما، وقد خصّه الجاحظ بعنايته، وهو ما عرف في المقولة المشهورة «لكل مقام مقال» وأصبح متداولًا في الدرس البلاغي ومعروفاً بمصطلح «مقتضى الحال»،

لذلك رأينا أن نتناول مقولة «لكل مقام مقال» على اعتبار أنها مفهوم له أهمية في إنتاج الخطاب وفهمه، وذلك من خلال قراءتها ضمن أعمال بعض الدارسين من النحاة والبلاغيين؛ فالكشف عن المعاني المقصودة لا يتم إلا بتحديد معاني الكلمات والتراكيب في مقامها الذي قيلت فيه. وهذا يعني فهم المقال في مقامه المناسب له؛ لأن المعاني لا تتحدد إلا بتحديد قرائنها الحالية والمقالية؛ وهو ما يجعل الكلمة الواحدة تختلف معانيها باختلاف السياقات التي ترد فيها؛ هذا الفهم الذي يجعل المتلقي قادرا على فهم مقاصد المتكلم وأغراضه التي تمثل هدفا أساسيا من أهداف التواصل.

وقد حاولنا الالتزام بمقاربة الموضوع في إطار نظرية "الوضع والاستعمال العربية" التي نشأت ضمن أعمال الدارسين الأوائل كسيبويه. وتأسس مفهومها شيئا فشيئا على يد تلاميذه كأخفش، ثم جاء بعد ذلك كابن جني وعبد القاهر الجرجاني... إلخ، ووصولًا إلى الأعمال التي أنجزها الباحث اللساني عبد الرحمان الحاج صالح (1927 - 2017) رحمه الله، وهو الذي تُنسب إليه

¹ ظهر المصطلح أول ما ظهر عند الأصوليين.

² الحاج صالح عبد الرحمن، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، المؤسسة الوطنية للنفون

المطبعة، الرغاية - الجزائر، (د.ت)، ص. 56.

النظرية الخليلية الحديثة، على اعتبار أنه من الباحثين الذين أعادوا قراءة التراث قراءة متفحّصة وجادة، وعلى اعتبار أنه أكد أصالة عدد من المفاهيم التي جاء بها الأوائل، والتي تعدّ مفاهيم أساسية في نظريته.

وقد انطلقنا من تلك النظرة التي تتحدّد من خلال ممارسات بعض علماء الدرس العربي التراثي الذين يهتمون كثيرًا من إنجازاتهم العلمية بالدقّة في الطرح والتحليل، بوضع تلك الإنجازات في سياقها الثقافي الذي أنتجها وأبدعها، مستعينين كثيرًا بأراء عبد الرحمن الحاج صالح. وحاولنا إبراز خصوصية ما جاء به الدرس العربي من خلال تلك المقولات. كما ربطنا هذا الموضوع بمجال تعليم العربية في مواضع تطلّب فيها الأمر ذلك؛ لأنّ من أهمّ مشكلات تعليم العربية اليوم هو التّركيز على تعليم قواعدها بعيدا عن الاستعمال والممارسة الفعلية للغة سواء أ كانت المنطوقة أم المكتوبة، علما أنّ العلماء الأوائل انطلقوا من واقع الممارسة اللغوية لتقعيد العربية، وإن كانت مسألة الاستعمال مسألة شائكة اليوم بسبب الهوة التي خلقت بين العربية وتنوعاتها المختلفة من جهة وبين العربية الفصيحة والتّاطقين بالعربية، فإنّ هذه المسألة كانت أيضا موضع نظر حتى عند القدامى وهو ما أدى إلى ظهور المدراس النحوية التي اختلفت في بعض المسائل اللغوية التي فرضها واقع الاستعمال. وهي، في الحقيقة، قضية تحتاج إلى دراسة مستقلة.

وكان تناؤلنا لهذا الموضوع من موقع باحث معاصر يأخذ بعين الاعتبار التّطور الحاصل في الفكر اللساني الذي شهد ميلاد دراسات حديثة ومعاصرة بعضها انتصرت للتّراث وحملته ما لا يحتمل، وبعضها الآخر انتصرت للدراسات الغربية ونظرت إلى التّراث نظرة ازدراء دون الرجوع إلى التّراث وقراءته قراءة علمية موضوعية واعية، وبعضها الآخر حاولت التّوفيق بين الأمرين بإعطاء الدّرسين ما يستحقانه من العناية والاهتمام، لذلك تمكن هؤلاء من رؤية ما لم يراه الطّرفان الأولان.

1. القرآن الكريم ونشأة المفاهيم اللسانية:

1.1. نشأة بعض المفاهيم الأساسية:

على الرّغم من المكانة الرّفيعة التي احتلها الشّعْر عند العرب وهو ما تحدّث عنه ابن خلدون في مقدّمته قائلا: "واعلم أنّ فن الشّعْر من بين الكلام كان شريفا عند العرب. ولذلك جعلوه ديوانَ علومهم وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. وكانت ملكته مستحكمة فيهم، شأن ملكاتهم كلّها"¹؛ فإنّ العرب ما فكّروا أبدا في تقعيد لغتهم، لكنهم بعد نزول القرآن، الذي يعتبر حدثا حاسما في تاريخهم في بداية الأمر وتاريخ الشعوب الأعجمية المسلمة فيما بعد، تسارع علماء الأمة إلى تقعيد العربية وضبطها خوفا على القرآن من التّحريف واللّحن باعتباره دستورهم ومصدر أحكامهم، وحماية له من الفساد الذي قد يلحقه "بمفعول عوامل تاريخية موضوعة باعدت بين فصاحة اللغة وصفاتها والأقوام الجديدة التي ضعفت صلتها بمعدن تلك الفصاحة"².

وقد اتّخذ القرآن الكريم من الشّكل اللغوي حجة لنبوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ليبلّغ عنه "فكانت معجزته من خصائص اللغة في الرّسالة وجودتها، زيادة عمّا يحتويه من أخبار عن الغيب وقصص عن الأمم السّالفة"³ تلك الأخبار التي يرويها رجل عاش بين قومه أربعين سنة، ولم يكن له سابق معرفة بأخبار الأمم الغابرة، وكتّبتها توافقت مع ما يعرفه بعض من يعيش في زمانه كورقة بن نوفل ابن عم زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وغيره ممّن كانت لهم معرفة بالديانات السّماوية.

¹ ابن خلدون عبد الرحمن، المقدّمة، تح: عبد السلام الشّداوي، بيت الفنون والعلوم والآداب، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتّاريخ، ج/3، الجزائر، 2006، ص.278.

² حمّادي صمود، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديدة، ط/3، 2010، ص.33.

³ المرجع نفسه، ص.33.

وإذا كانت قضية الإعجاز قد تصدرت مسائل الاحتجاج للنبوة باعتماد الدليل العقلي والحجة الدامغة لأسباب متعددة منها الذاتية النابعة من وعي المسلمين بدور القرآن في حياتهم وحضارتهم، ومنها ما هي عرضية مرتبطة بالأسباب الأولى؛ فإن الذي دفع مفكري الإسلام وعلمائه إلى الرجوع إلى القرآن ودراسته ووضع كل تلك العلوم: علم الفقه وأصوله، علم النحو، علم الصرف، علم البلاغة... هو الذي يجب أن يدفع دارسي اليوم إلى إعادة قراءة التراث قراءة متأنية متفحصة، بحيث يأخذون في الاعتبار أمرين أساسيين: الأول التركيز على جهود علماء العربية الأوائل وتصفية التراث الضخم وغربلته من الغث الذي لا يفيد. والثاني مسابرة التطورات الحاصلة في العلوم والمعارف عامة والعلوم اللسانية بوجه خاص في عصرنا من أجل بناء نظريات لسانية عربية تأخذ من الماضي وتستفيد من الحاضر من أجل خدمة العربية بالاستفادة من بيان القرآن وبلاغته ونظمه؛ عن طريق إيجاد الطرائق الملائمة التي تساعد المسلم على تذوق النص القرآني كما تذوقه الأوائل، وفهم ما يُنتج من النصوص بالعربية؛ لأنّ التحديات التي تواجهها هذه الأخيرة في الوقت الراهن مرتبطة أساساً بفهم المسموع والمقروء (المكتوب)، ولا يمكن تحقيق تلك الغاية إلا بتوقّر أهم هدف، من أهداف التعليم، وهو تسهيل التعلم أي جعله طبعاً في يد المتعلم الذي في حاجة ماسة إلى ممارسة التحدّث والكتابة، وهو ما يجعل الانتقال إلى أبعاد أخرى أمر ضروري، كعلاقة النص القرآني بقارئه وبمتعلم العربية بوجه عام وعلاقته بالنصوص الأخرى التي يمكن أن يحتك بها باعتباره متلقياً: قارناً أو مستمعاً، حيث يتوجّه الاهتمام إلى قضية استراتيجيات التلقي لدى متعلم العربية؛ ذلك أنّ فهم النصوص وبناء المعارف يمر ببناء المعاني في الذهن أولاً ومنه الوصول إلى المقاصد.

وكان مقصد الأوائل من وضع النحو واستنباط أصول اللغة العربية "أن يستطيع غير الفصيح أن يقرأ [القرآن] كما أنزل بدون تحريف"¹ وغير الفصيح هنا يدخل فيه العربي وغير العربي الآن، لأنّ الهوة بعدت بين العربي والعربية الفصيحة كما كانت في وقت نزول القرآن فلم يعد يقول فيعرب².

وقد كان للتحريات الميدانية التي قام بها الرّعيّل الأول من اللغويين في البوادي، والسّماع الطويل لكلام العريديورا بارزا في اكتشاف جملة من الحقائق العلمية³ التي كوّنت فيما بعد أسس نظريتهم اللسانية. وقد ارتكز هذا العمل على مفهوم مهم وهو: الأصل في الكلام في مقابل الكلام، وهو ما أصبح يُعرف بالوضع والاستعمال.

أ. الأصل في الكلام في مقابل الكلام: يمثّل الأصل في الكلام في مقابل الكلام إحدى الثنائيات العربية المهمة في الدرس اللساني التراثي؛ حيث تناولها سيبويه في أحد أبواب كتابه الذي عنوانه "باب ما يكون في اللفظ من الأعراض" قائلاً: "اعلم أنّهم ممّا يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويُعوّضون، ويستغنون بالشّيء عن الشّيء الذي أصله في كلامهم أن يُستعمل حتى يصير ساقطاً... فممّا حُذف وأصله في الكلام غير ذلك لم يك ولا أدر، وأشبهه ذلك. وأمّا استغناؤهم بالشّيء عن الشّيء فإنهم يقولون يدع ولا يقولون ودع، استغنوا عنها بترك. والعوض قولهم: زنادقة وزناديق، وفرازنة وفرازين، حذفوا الياء وعوضوا الهاء"⁴. وبما أنّ القرآن الكريم تحدّى العرب بلغتهم فقد جاءت آياته مُجسّدة لاستعمالاتهم اللغوية من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مریم/4]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف/43] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنْتُ لِي غُلَامًا وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۖ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ

¹ الحاج صالح عبد الرحمن، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية - الجزائر، (د.ت)، ص.7.

² كما جاء في البيت الشعري للعربي القح: ولست بنحوي يلوك لسانه ولكي سليقي أقول فأعرب

³ الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص.8.

⁴ أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيويه، تح: عبد السلام محمد هارون، ج/1، ط/1، دار الجيل، بيروت، ص.24-25. ويُنظر أيضا: الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص.8 وما بعدها.

عَلِيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿ [مریم/8-9] وقوله أيضا: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مریم/20] ف [تك وأك] أصلهما [تكن وأكن] وقد ورد هذا الاستعمال في القرآن - كما هو مبين في الآيات الكريمة - على الأصل وعلى ما يعرض له من تغير ناتج عن كثرة دورانه على الألسن. ولا بد من الإشارة إلى أن التحوينلم يضعوا الأصلوا افترضوا وجوده أو تخيلوه من لا شيء، بل استنبطوه من كثرة الاستعمال واطراده في لغة العرب بعد احتكاكهم وسماعهم لكلام العرب¹.

وكما نلاحظ، فإن مقولة سيبويه التي وردت في "باب ما يكون في اللفظ من الأعراض" قد خصت اللفظ وما يمكن أن يعرض له من عوارض، وهو ما مثلنا له ببعض الأمثلة من القرآن؛ لكن سيبويه لم يقتصر على تناول اللفظ دون المعنى، بل هناك مقولات أخرى اهتمت بالمعنى² وقد وردت في سياق حديثه عن الاتساع والاختصار. ومن تلك المقولات ما ورد في "هذا باب استعمال الفعل في اللفظ في المعنى لاتساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار" قوله: "ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى جده: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ إنما يريد أهل القرية، فاختصر، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان ها هنا. ومثله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾³ إنما المعنى: بل مكرهم في الليل والنهار. وقال عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَلِيمٌ﴾ وإنما هو: ولكن الرب بر من آمن بالله واليوم الآخر⁴. ففي قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ دليل على أن حذف "أهل" لم يحدث خلا في فهم المقصود؛ لأن هذا النوع من الاستعمال المعروف بالمجاز "أصل لفهم أساليب العرب"⁵، لأنه كان يجري على ألسنتهم، لذلك أثبتته القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين.

يتضح - من خلال ما سبق - أن الدارسين الأوائل من النحاة والبلاغيين كانوا يميزون منذ أقدم العصور، بين "الأصل في الكلام" وبين ما يعرض له على الألسنة في حالة التخاطب في اللفظ والمعنى؛ لأنه خطاب حاصل بالفعل وله أوصافه الخاصة به كخطاب⁶ وهذا يعني أن تحليلهم للظاهرة اللغوية كان تحليلا عميقا جدا. فالكلام المسموع يخضع لجملة من التغيرات أو كما سماها سيبويه بالعوارض وهي ناتجة عن حال المتكلم في حال التخاطب. ومن بين الأسباب التي تسهم في حدوث هذه العوارض التي يطلها اللسان الخفة وهي ظاهرة تُعرف اليوم بما يُسمى بظاهرة الاقتصاد اللساني؛ حيث يزيل المتكلم كل ما من شأنه أن يثقل لسانه، ومثاله الفعل يدعو في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة/221]، فإثبات حركة الرفع على آخر الفعل «يدعو» يثقل اللسان، في حين أن حركة الفتح خفيفة على اللسان، لذلك أثبتتها الناطقون العرب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبِّهَا لَئِنْ أَتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف/189]. ويأتي الفعل يدعو في الأفراد في مواضع النصب مفتوح الآخر أن «يدعو».

¹ يُنظر: الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 73.

² يُنظر: المرجع نفسه، ص. 8.

³ الآية كاملة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا آوُوا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَانَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا/33].

⁴ سيبويه، الكتاب، ص. 212.

⁵ الصابوني محمد علي، الإبداع البياني في القرآن العظيم في الأمثال، والتشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكتابة، مع الإمتاع بروائع الإبداع، المكتبة العصرية، ط/1، صيدا - بيروت، 2006، ص. 146.

⁶ الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 8.

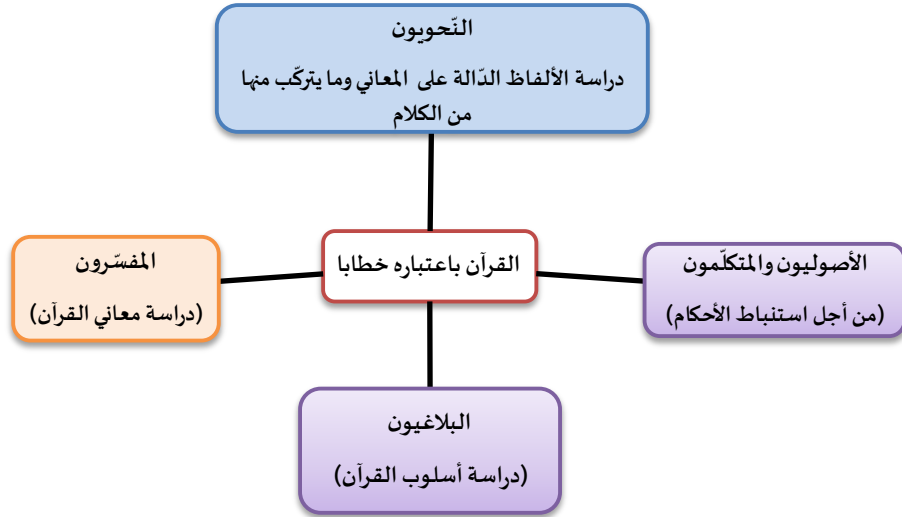
ويبدو -من خلال الممارسات التعليمية- أتهذه الظواهر التطبيقية، التي وجد لها الناطقون السليقيون حلولاً، قد أصبحت ترهق كاهل المتعلم، لأن البرامج التعليمية تركز على العلة أكثر من تركيزها على شرح العلة¹. وتركز على تعليم قواعد اللغة العربية أكثر من تركيزها على تعليم العربية في سياقاتها المختلفة.

فالناطق باللغة يمكنه أن يستعمل الأصول، ولكنّه لاعتبارات مختلفة يُحدث تغييراً على تلك الأصول لتناسب المقام الذي يتحدث فيه، ذلك أنّ ما يعرض للفظ والمعنى من عوارض ليسعياً وإتماً له مقاصد يريدّها المتكلم. "لأنّ للاستعمال قوَى قد تعارض بقاء العنصر اللغوي على أصله فتغيره لفظاً ومعنى"² وهو برغم تلك العوارض عربي فصيح، لأنّه سُمع من فصحاء العرب، وهذا ما تفتنّ له الدارسون الأوائل وتتبعوه جيلاً بعد جيل، وهو ما جعل المفهوم يتطور ويُختصر في مصطلحي الوضع والاستعمال.

ب. الوضع والاستعمال:

اهتمّ العلماء الأوائل بكلام العرب من حيث سلامته اللغوية لفظاً ومعنى وتمّ وضع معيار علمي له علاقة بالناطق السليقي العربيحدّد اللفظ السليمفما "كان «من كلام العرب» أي ما سُمع من كلامهم وثبت في استعمالهم وما كان على قياس كلامهم"³، فهو سليم لغوياً وهو الذي حملهم على تدوين اللغة العربية بناء على إثبات جملة من المعايير والضوابط تساعد الناطقين بغير العربية على فهم الكلام والنطق به نطقاً سليماً.

كما اعتنوا بالفصاحة التي لم يقصدوا بها السلامة اللغوية، وإتماً البلاغة؛ حيث إنّ الكلام الفصيح هو الكلام البليغ الذي يُهتم به كخطاب، وهو الذي تكون كمصطلح له أهمية في الدرس العربي والدرس الغربي فيما بعد، ويتقاطع الخطاب مع مصطلح الكلام الذي يعتبر أعم منه في نظرية الوضع والاستعمال العربية. لذلك تدارس العلماء الكلام أو الخطاب⁴ على اختلاف انتماءاتهم المعرفية وحاجاتهم إلى النصّ القرآني، ويمكن تلخيص ذلك الاهتمام، الذي توزّع على اختصاصات عديدة؛ ولكنها مترابطة، في الشكل الآتي:



¹ وهو ما يسهل التعلّم، فيتم التركيز على الإعراب الشكلي وذكر العلل وليس شرحها، فيقال منع من ظهور الحركة الثقل، فلا يفهم المتعلّم القصد فيتيه، وهذا يحتاج إلى دراسة نفصّل فيها القول.

² الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 74.

³ الحاج صالح عبد الرحمن، نفسه، ص. 9.

⁴ يُنظر: المرجع نفسه، ص. 10 - 11.

لم تكن العلوم اللغوية-وحتى العلوم الشرعية- التي اهتمت بالعربية منفصلة عن بعضها البعض على الرغم مما بينها من فروق دقيقة في الأهداف والغايات التي يسعى كل علم إلى تحقيقها، وتاريخ العلوم اللغوية يثبت ذلك الاتحاد "بين النحو والبلاغة في الاهتمام بالتركيب وخاصة في تنوعها بالنسبة للمعنى الواحد (...)" في إطار مقابلتهم بين اللغة والكلام أي بين اللغة واستعمالها وهي أساس نظريتهم اللسانية التي بنيت عليها علوم العربية. فهي من وضع النحاة الأولين مثل الخليل وسيبويه. واشتهرت هذه المقابلة بعدهم باصطلاح خاص هو الوضع والاستعمال، وذلك ابتداء من الزجاجي في القرن الرابع¹.

وإذا كان النحويون الأوائل قد اهتموا بالألفاظ الدالة على المعاني وسلامة صياغتها في كلام مفيد، حيث إن مدار عنايتهم ارتكزت على أبنية الكلام أو الكلم في ذاتها؛ فإن الذي امتازوا به فضلا عن ذلك "هو تناؤلهم للكلام لا كنص مجرد بل بكل ما يحيط به عند حدوثه من أحوال وظروف وكذلك الأحوال التي سبقت حدوثه وبقيت مسجلة في ذاكرتهم [وهم يجوبون القبائل العربية الفصيحة في تحرياتهم الميدانية] مما يمكن أن نعتبر أسبابا لتحصيله. فالنص هو، في الحقيقة، جانب واحد مما في التخاطب وإن كان هو الأهم"².

ومن ذلك ما تناوله سيبويه في "هذا باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة" و"ذلك قولك: ما كان أحدٌ مثلك، وما كان أحدٌ خيرا منك، وما كان أحدٌ مجترنا عليك. وإنما حسن الإخبار ههنا عن النكرة؛ حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه؛ لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا. وإذا قلت: كان رجل من آل فلان فارسا حسن؛ لأنه قد يحتاج إلى أن تعلمه [أي أن تعلم المخاطب] أن ذلك في آل فلان وقد جهله. ولو قلت كان رجلا في قوم عاقلا لم يحسن؛ لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا عاقل وأن يكون من قوم. فعلى هذا النحو يحسن ويُفح. ولا يجوز لأحد أن تضعه في موضع واجب، لو قلت: كان أحدٌ من آل فلان لم يجز؛ لأنه إنما وقع في كلامهم نفيًا عامًا. يقول الرجل: أتاني رجلٌ، يريد واحدا في العدد لا اثنين فيقال: ما أتاك رجلٌ، أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول أتاني رجل لا امرأة فيقال: ما أتاك رجلٌ، أي امرأة أتتك. ويقول أتاني اليوم رجل، أي في قوته ونفاذه، فتقول ما أتاك رجل، أي أتاك الضعفاء. فإذا قال: ما أتاك أحدٌ صار نفيًا [عامًا] لهذا كله، وإنما مجراه في الكلام هذا. ولو قال: ما كان مثلك أحدًا، أو ما كان زيدًا أحدًا كان ناقصًا؛ لأنه علم أنه لا يكون زيدٌ ولا مثله إلا من الناس"³.

فهذا الباب الذي بين فيه سيبويه عن الإخبار عن النكرة بنكرة له حدود يعرفها المتكلم والمخاطب وتدور على السنة المتخاطبين في العربية، وهي مرتبطة بمدى حاجة المخاطب إلى المعلومة وهو ما جاء في هذا الباب: "لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا". كما أن قول القائل: "كان رجل من آل فلان فارسا" فاللفظة آل فلان لها فائدة في الخطاب، لأن المخاطب قد يحتاج إلى هذا فهو قد جهل ذلك، وفضلا عن ذلك فإن كلمة فارس، التي أخبر بها، حملت فائدة أخرى في الخطاب، لأن سيبويه قابلها بكلام آخر وهو: "كان رجل في قوم عاقلا" فهذا الاستعمال لا يحسن أي أنه قبيح عند العرب، لأن وجود رجل عاقل في قوم من الأقوام أمرٌ عادي جدًا، ومثله وجود رجل غير عاقل في قوم من الأقوام. فتركيب الكلام يقوم على منطق معين، وعلى هذا يحسن الاستعمال أو يقيح تبعًا لاستعمالات الناطقين ومقاصدهم، وهذا ما جاء توضيحه في الباب نفسه حينما قال: "أتاني اليوم رجلٌ [و] ما أتاك رجلٌ" فإثبات الاتيان ونفيه متعلقان بمقصد خفي يفهم من القرائن الحالية الخارجية للخطاب وبما يريده المتكلم الذي يدرك جيدا أن مخاطبه سيفهم المقصود. ف"أتانيا اليوم رجل [في قوته ونفاذه]" و"ما أتاني رجلٌ [أي أتاني ضعيف]" مما يجري في كلام العرب، أي إنه جزء من ثقافة البيئة العربية. وهو ما اكتسبه العربية سليقة وهو يستعمل العربية. وما وضع سيبويه لمثل

¹ الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 12.

² المرجع نفسه، ص. 10.

³ سيبويه، الكتاب، ص. 54-55.

هذه الضوابط وهي «الإخبار عن التكررة بنكرة» وما يحف هذا من شروط إلا لفهمه للغة العرب واستعمالاتها على الرغم من أن أصوله ليست عربية.

كما تناول سيبويه ظاهرة استغناء المتكلم عن بعض عناصر الكلام التي يُغني حال الخطاب وعلم المخاطب عن ذكرها فيما سُمّاه «هذا باب الفاعلين اللذين كل واحد منهما يفعلُ بفعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك» حيث يقول: "ومما يقوي ترك نحو هذا لعلم المخاطب، قوله عز وجل: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فلم يُعمل الأخر فيما عمل فيه الأول استغناء [إلى أن يقول] لأن [المتكلم] قد علم أن المخاطب سيستدل [به على أن الآخرين في هذه الصفة]"¹ ففي الآية 35 من سورة الأحزاب الواردة في قول سيبويه عنصران محذوفان وهما والحافظات فروجين والذَّاكِرَاتِ لله، لعلم الله سبحانه وتعالى، وهو المخاطب، أن المخاطبين سيفهمون ويستدلون بالمذكور في السياق عن المحذوف الذي استغنى عنه.

لذلك فإن تصنيف الكلام إلى سليم وغير سليم أو حسن وقبيحتاج عن فهم عميق لمجرياته وأنه "يتحصّل في عمليات التّخاطب والإفادة (أي التّبليغ للأغراض بواسطة اللغة). وهذه العمليات ترافقها أحوال خاصّة بالكلام في خطاب معيّن بل لكلّ خطاب أحوال تخصّه هو وحده"².

وارتكازا على ما مرّ بنا في الأمثلة المذكورة، التي تبدو أنّها تنتهي إلى أبواب النّحو، فإنّ سيبويه لم يقتصر على العناية ببناء الكلام وتركيبه، بل تجاوزه إلى "ما هو خارج عن اللفظ المنطوق به وهي الأدلة التي تقترب بها عملية التّلفظ بالكلام (...). وذلك لأنّ ما يُسمّع من اللفظ في الكلام قد لا يدل في الغالب على المراد الحقيقي للمتكلم، من جهة، وقد يكون الكلام محتملا لأكثر من معنى من جهة أخرى [وهذا ما يؤدي إلى القول] إنّ عددا من الألفاظ الموجودة في كلّ لغة لا يمكن أن يُفهم مدلولها في ذاتها بل لا بدّ من الرجوع لفهمها إلى أدلة أخرى لفظية [هي القرائن الحالية] فمن جملة هذه الأدلة يذكر النّحاة دلالة الحال ثمّ استدلال المخاطب ممّا يسمعه وكل ما هو في ذاكرته من المعلومات والتّجارب"³.

وعليه، فقد اهتمّ النّحاة باللغة كوضع أي باعتبارها نظام من الأبنية تدل على معان، واهتمّوا بها كاستعمال وهو الكلام باعتباره خطاباً يُخضع فيه المتكلم الأبنية التي تتوفر عليها اللغة لتغيرات تمس اللفظ والمعنى، وهو ما تعرّضنا له بذكر أمثلة من القرآن ومن كلام العرب. واهتمّ بها البلاغيون اهتماما خاصا من حيث تركيزهم على اختيار المتكلم لبعض الصيغ وتركه لبعضها الآخر بحسب الحال الخطابية من أجل تحقيق أغراض بعينها⁴، ذلك الاختيار الذي يتناوله البلاغي في دراسته باعتباره هدفا، مع حاجته إلى النّحو وهو ما أدى إلى ظهور مقولات جديدة ارتكزت على مقولات الخليل وسيبويه، التي طوّرها من جاء بعدهم.

2. النّحو والبلاغة والمقام أيّة علاقة؟

تأكّد لنا بعد قراءة بعض ما كتبه الأوائل بالتّوازي مع قراءات لكتّاب معاصرين، طرحوا أسئلة عميقة بالحفر في المفاهيم التي حوتها مدوّناتهم، أنّ العلماء الأوائل قد وضعوا أسس نظرية عربية بلاغية ولسانية خالصة. وإن كان بعض ما كتبوا يحتاج إلى إعادة نظر وتفحص ليُساير الحاضر، لأنّ التّحوّل سنة كونية كما سبق وذكرنا.

واستكمالا لما بدأناه في المبحث السّابق، فقد استندنا إلى عدم الفصل بين اللغويين، نحاة وبلاغيين، باعتبار أنّ النّحو والبلاغة درسين متكاملين لهما أثر واضح في إزالة الغموض الذي يكتنف إنتاج النّصوص والخطابات وفهم مقاصدها؛ خاصة ما

¹ الحاج صالح عبد الرحمن، الخطاب والتّخاطب في نظرية الوضع والاستعمال، ص. 74-76.

² المرجع نفسه، ص. 10.

³ المرجع نفسه، ص. 44-45.

⁴ يُنظر: الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 11.

تعلّق بالنص القرآني الذي خاطب الناس عربهم وعجمهم على حدّ سواء، وإن كان قد نزل بلسان عربي مبين؛ ذلك أنّ المسلمين معنيون جميعاً بفهم معاني القرآن وتحديد مقاصده مهما اختلفت ألسنتهم، وتعدّدت أعرافهم.

وقد أثار الباحث البلاغي حمّادي صمّود في مقدّمة الطّبعة الثالثة من كتابه "التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس" قضية اشتراك أطراف عديدة في إنتاج القول (الخطاب)، وهو السّبب "وراء احتفاء المدونة البلاغية العربية بالزّينة والمعرض الحسن والأسلوب البديع (...). وأنها [أي الأطراف المشاركة في القول] لا تسعى به ومنه إلى نفس الغايات وأنّ العلاقة بينهما علاقة سلطة إن لم نقل تسلّطاً، وأنّ ذلك القول يتم في مقامات تساهم في توجيه معناه وتملؤه بمقتضيات ووجوه استدلال يصعب التّكهن بها سلفاً لارتباطها بقدرة السّامع على الاستدلال والغوص على الممكنون المستتر [وهو ما رأيناه في بعض ما ذكرناه ممّا تناوله سيبويه وغيره من اللغويين الأوائل]، فاللغة ليست كمجرّد قول وإنّما هي فعل أو إن شئت هي فعل بقول وليست مجرّد وسيلة وإنّما هي آلية هامة من آليات بسط السّلطة وإقرار التّفوذ"¹. ذلك أنّه لا يمكن تصوّر قول أو خطاب دون أن تشترك في إنتاجه الألفاظ الحاملة لمعان معيّنة والمؤدّية لأغراض ومقاصد يريد بها قائلها، وهو ما أشار إليه ابن جني في تعريفه للغة قائلاً: "أما حدّها فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"²، وفي هذا التّعريف إشارة إلى اختلاف الأقوام الذين تختلف أداؤهم وأصوات لغاتهم التي يعبرون بها عن أغراضهم. ولا يمكن أن يعبروا عن تلك الأغراض بعيداً عن المقامات التي يتحدّثون فيها. ولا يمكن الحديث عن خطاب دون مخاطب بين مخاطب يُحسن استعمال اللغة في أحوال خطابية متعدّدة ومخاطب (سامع) يملك قدرة على تفكيك الخطاب وفهم مقاصده باستخدام مقتضيات أنتجت عملية التّخاطب. وهو ما يمكن استنتاجه من حديث ابن المقفع وهو يشرح مفهوم البلاغة حيث قال حين "سئل: ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السّكوت. ومنها ما يكون في الاستماع. ومنها ما يكون في الإشارة. ومنها ما يكون في الحديث. ومنها ما يكون في الاحتجاج. ومنها ما يكون جواباً. ومنها ما يكون ابتداءً... وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أنّ خير أبيات الشّعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته... فإنّه لا خير في كلام لا يدلّ على معناه ولا يشير إلى مغزاه وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذي إليه نزلت"³.

وفي هذا المقام تجب الإشارة إلى الخصوصية التي يميّز بها كتاب الله سبحانه وتعالى باعتباره نصاً لغوياً من الدّرجة الرّفيعه، قائله هو العليّ القدير، الذي تحدّى البشر في الإتيان بمثله تحدياً صريحاً. فضلاً عن أنّه نزل بلغة العرب وهم من هم في البلاغة والفصاحة والبيان. وهو النّص الذي جمع العربية وجعل لها أصلاً ترجع إليه، لذلك فإنّ الاهتمام اليوم بفهم معاني القرآن ومقاصده والأغراض التي إليها نزع ضرورة أنتجت التّغييرات التي حصلت على مستويي العربية: المكتوب والمنطوق، ذلك أنّ الهوة التي تشكّلت لأسباب متعدّدة⁴ - بين المكتوب والمنطوق جعلت اللغة العربية تسير وفق خطين غير متوازيين في مجال الممارسة اللغوية التي تقتضي توافقاً بين الجانب المكتوب والجانب المنطوق للغة، وهو ما له علاقة وطيدة بالممارسات النّصية بكلّ

¹ حمّادي صمّود، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط/3، ليبيا، 2010، ص.2 من مقدّمة الطّبعة الثّالثة.

² أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، المجلّد الأوّل، دار الكتاب العلميّة، ط/2، بيروت. لبنان، 2002، ص.87.

³ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تج: جويدر درويش، البيان والتّبيين، بيروت: المكتبة العصرية، 2006، م، ج 1، ص.79.

⁴ بداية بدخول اللحن إلى العربية بسبب انتشار الإسلام في بقاع الأرض المختلفة، ومروراً بمراحل مرّت بها العربية مرتبطة بالانحطاط الذي أصاب الحياة العربية والإسلامية وما اتصل به من جمود لحق الدراسات اللغوية والعربية بشكل عام في القرن الخامس الهجري وما بعده، باستثناء ما أنتجه عدد من علمائنا الذين تركوا بصماتهم على الرّغم من عصور الانحطاط، كالرضي الاستريادي، وعبد القاهر الجرجاني، وابن خلدون وغيرهم. ثمّ سيطرة الاستعمار الاستدماري بكل أشكاله على الدول العربية وتفاقم أزمة الأمية بسبب محاربة الدول المستعمرة للتّعليم والعربية والثّقافة الإسلامية محاربة عنيفة خاصّة في الجزائر التي تعترف التّقارير الصّادرة عن الهيئات الاستدمارية بعدم وجود أميين في السنوات الأولى من الاجتياح الفرنسي على الجزائر. للاستزادة ينظر: عثمان الكعك، مراكز الثّقافة في المغرب، القاهرة، 1958، ص.12.

أشكالها. فضلا عن التوافق المطلوب بين العربية وتنوعاتها المختلفة (اللهجات العربية) وهو ما يبدو غائبا. كما أنّ التحدّث يرتكز على الاقتصاد اللغوي، وواقع استعمال العربية يشير إلى عدم التّفريق بين لغة التّخاطب ولغة التّحرير¹؛ لأنّ المستويين يختلفان اختلافا بيّنا، إذ لكلّ منهما شروط إنتاج. فالتّخاطب يمكن تحقيقه بأقل كلفة وهو ما يُعرف عند علماء العربية الأوائل بالخفة والاستخفاف، حيث يحذف المتكلم والكاتب كلّ ما يثقل لغتهما؛ بشرط الوضوح والإفهام والتّفاهم. وهذا الذي رأيناه في بعض ما ذكرناه في المبحث السّابق، حينما تحدّث سيبويه عن استغناء المتكلم عن بعض عناصر الخطاب لعلمه أنّ المخاطب يفهم المعنى على الرّغم من ذلك الحذف.

كما أنّ لغات العالم كلّها تراعى الفروق بين المستويين: المكتوب والمنطوق، فالمتكلم لا يحتاج إلى إثبات حركات الإعراب- مثلا- في أواخر الكلم وهو يتكلم؛ لكنّه يثبتها في الكتابة. فالتّخاطب المباشر يفرض وجود مخاطب ومخاطب يتكلمان لغة معيّنة ويراعيان ما بينهما من علاقات خارج اللغة كاشتراكهما في السّياقات غير اللغوية التي تُنتج الخطاب، كالسّياق الاجتماعي، والثّقافي... أمّا الخطاب المكتوب فيقتضي الاهتمام بشبكة العلاقات الكامنة في النّص اهتماما بالغا، وهو ما تتبعه الجاحظ وتناوله في مفهوم الإشارة الذي تطوّر "من كونها نوعا من أنواع الدلالات على المعاني إلى معنى آخر لصيق بنظريته البلاغية والأدبية العامّة؛ ومحرك ذلك تفضّنه إلى قدرة اللغة على تجاوز قصوره قدرة ذاتية بما يكمن فيها من طاقات يصبح الخطاب، بتوظيفها وتفجيرها، قادرا على رسم شبكة من العلاقات والمسارب إلى المعنى يستغني بها عن حضور قائله، ويستعيز بالسّياق اللغوي الداخلي عن السّياق الخارجي"². ويمكن للقارئ انطلاقا من السّياق الدّخلي (العلامات اللغوية) أن يكتشف عن مراد المتكلم؛ ذلك أنّ استعمال اللغة مشروط بقدرة المتكلم (أو الكاتب) على الانتقاء المناسب للكلمات المكوّنة لخطابه للتأثير في مخاطبه من أجل تحقيق غرضه، هذا الانتقاء القائم على معرفة مسبقة ببعض ما يتصف به المخاطب.

ولعل من النّصوص التي تجسّد تلك القدرة الكبيرة على استعمال ما يناسب من اللغة الكتب (الرّسائل) التي بعث بها الرّسول ﷺ إلى ملوك الأرض؛ حيث دلّت كلماتها وتراكيبها على معرفة مسبقة بمخاطبيه وبنفسياتهم، فتحدّد الخطاب من معرفة المخاطب. ولأنّ المقال محدود بحدود معيّنة، سأكتفي بنقل رسالتين (أو كتابين) فقط، هما رسالة النّجاشي ملك الحبشة، ورسالة كسرى ملك الفرس.

جاء في الأولى: "بسم الله الرّحمن الرّحيم من محمّد رسول الله إلى النّجاشي عظيم الحبشة سلامٌ أما بعد: فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو الملك، القدوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتولا لطيبية الحبيّنة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإنّي أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ. وقد بلّغْتُ، ونصحتُ فأقبلوا نصيحتي، والسّلام على من اتّبع الهدى"³.

وجاء في الثّانية: "بسم الله الرّحمن الرّحيم من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على من اتّبع الهدى وأمن بالله ورسوله، وشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإنّي أنا رسول الله إلى النّاس كافة، لأنذر من كان حيّا ويحقّ القول على الكافرين، أسلم تسلّم فإنّ أبيت فإنّما عليك إثم المجوس"⁴. تُظهِر الرّسالتين الموجهتين إلى ملكيّين من ملوك الأرض، عدّة عناصر تخصّ المخاطب والنّص (الخطاب) نفسه، والمخاطب. ويمكن تحديدها فيما يلي:

¹ يُنظر: فتاوى سويسري، مقارنة تحليلية بين لغة التّحرير ولغة التّخاطب بالفصحى، رسالة ماجستير، معهد العلوم اللسانية والصّوتية، جامعة الجزائر، 1988، ص.35.

² حمادي الصّمود، مرجع سابق، ص.158.

³ الشّيخ محمّد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين محمّد ﷺ، تح/حمدي ززم، دار الإيمان، دمشق - سورية، 1988، ص.182.

⁴ المرجع نفسه، ص.183.

✓ إنزال النَّاسِ منازلهم، بمخاطبة النَّجاشي وكسرى بما يليق بمقامهما كملكين لهما مكانة عظيمة "إلى النَّجاشي عظيم الحبشة" و"إلى كسرى عظيم الفرس"، على الرِّغم من أنَّ الرَّسول ﷺ كان يدعوهما إلى الإسلام، فلم يمنعه ذلك من ذكر ما يعبر عن مكانتهما.

✓ بلاغة الخطاب الدَّالة على بلاغة المخاطب وهو الذي أوتي جوامع الكلم؛ حيث قال عن نفسه: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد". فقد جاء مطابقا لما يقتضيه حال الخطاب، لأنَّه المخاطب يملك قدرة على تأليف كلام بليغ، مطابق لمقتضى الحال. فلو أنَّ غرض الرَّسول ﷺ كان تبليغ رسالة الدَّعوة إلى الله فقط، لكتب خطابا واحدا وغيَّر أسماء مخاطبيه (الملوك)؛ ولكنَّه خصَّ كلَّ واحد منهم بكتاب¹ تختلف تعابيره عن الآخر.

✓ تجسَّد ذلك في التَّحية التي اختلفت باختلاف المتلقي. فالتَّحية التي خصَّ بها النَّجاشي، ليس فيها إلا لفظ من ألفاظ تحية الإسلام وهي السَّلام "سلاَّمٌ أمَّا بعد" ووردت نكرة، تحمل قوَّة الوقوع في النَّفس، وأردفها بالدَّعوة إلى الله ذاكرة أسماء الله الحسناء الملك، القدوس، السَّلام، المؤمن، المهيمن؛ لأنَّه يعلم علم اليقين أنَّ النَّجاشي من أهل الكتاب المتدينين تدينا حقيقيا، فهو سيفهم دلالة الكلمات ويضعها في موضعها الصَّحيح. فضلا عن ذلك كلَّه لم ترد في رسالة النَّجاشي «أسلم تسلم وإن أبيت فعليك...» وختمها بالسَّلام على من اتَّبع الهدى والهدى بالإيمان بالله الواحد وبرسوله محمد ﷺ وتذكيره بأنَّه حي سيموت، وبعبارة التي تعكس لين المخاطب من جهة، ورغبته في استمالة النَّجاشي من جهة أخرى، للدخول في الإسلام، حيث وردت عبارات مثل: وقد بلَّغْتُ، ونصَّحْتُ فاقبلوا نصيحتي. فرِّمًا توسِّم فيه خيرا فحرص على انتقاء عباراته. وهو الذي تحدَّث عنه الجاحظ حيث قال: "ينبغي للمتكلِّم [أو الكاتب] أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين [أو القراء] وبين أقدار الحالات فيجعل لكلِّ طبقة من ذلك كلاما ولكلِّ حالة من ذلك مقاما... ولكلِّ مقام مقال"².

في حين أنَّ التَّحية التي خصَّ بها كسرى طويلة نوعا ما؛ لأنَّه يعلم علم اليقين أنَّ كسرى يختلف عن النَّجاشي، فحمل خطابه تلك العبارات الدَّالة على اتِّباع الهدى والإيمان بالله الواحد وبرسوله محمد ﷺ وتذكيره بأنَّه حي سيموت، وبعبارة التي وجَّهت إلى النَّجاشي، والتي لم تحمل عبارات مباشرة تدلُّ على معنى الكفر، نجد أنَّ رسالة كسرى توفرت على مثل هذه العبارات: «ويحق القول على الكافرين»، كما حملت نبرة حادة فيها دعوة إلى الله وتهديد مُبطن في كلِّ من: «لأنذر من كان حيا» و«أسلم تسلم وإن أبيت فعليك لعنة المجوس» أي اللعنة التي تحل بعيدة النَّار، فحملت الرِّسالة عبارات دالة على الشَّدة بيَّنت معرفة الرَّسول ﷺ بحال مخاطبه ونفسيته المتكبَّرة، فجعل له ما يناسبه من كلام. ويذكر التَّاريخ أنَّ كسرى لم يتقبَّل مضمون الرِّسالة فمزَّقها³ استكبارا وعلوا.

✓ استثمار الرَّسول ﷺ لما يعرفه عن الملكين، أولا عن النَّجاشي النَّصراني الذي احتضن بعض أصحابه وآواهم في مملكته، ورفض تسليمهم لقريش. ثانيا لما يعرفه عن كسرى المجوسي المتكبِّر الذي كان يعتبر نفسه إلهيا.

✓ وهذا يعني أنَّ الرَّسول ﷺ استثمار في كتابه جملة من العناصر غير لغوية (القرائن الحالية) للتأثير في النَّجاشي، من ذلك ذكره لبعض صفات مريم البتول ومحاسنها، مركزا علماءهم تلك الصِّفات تقريبا من نفس النَّجاشي وهي صفة "الحصينة" منتقلا بعد ذلك إلى قصَّة حملها لعيسى عليه السَّلام وأنَّ الله خلقه كما خلق آدم عليه السَّلام ولم يكن شيئا، إذ لا فرق بين الخلقين، علما منه أنَّ النَّجاشي نصراني يؤمن بأن عيسى هو ابن الله وبالتثليث. وعلما أيضا أنَّ مبعوثي قريش المرسلين (عمرو بن العاص وعمارة

¹ يمكن الاطلاع على الرسائل (الكتب)، في كتاب: الشَّيخ محمد الخضري، مرجع سابق، ص. 178 وما بعدها في بحث: مكانة الملوك.

² الجاحظ، البيان، ص. 138-139. وينظر أيضا الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 57.

³ الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 57.

بن الوليد)¹ إلى النَّجاشي قد عملا على تشويه نظرة الإسلام إلى مريم وابنها عيسى عليه السَّلام، فاستغل الرسول الكريم تلك العناصر غير اللغوية لبناء خطابه. وفعل الأمر نفسه بالنسبة إلى كسرى ملك الفرس.

وبما أنَّ الدِّراسات اللسانية تهتم بالنَّص أو الخطاب في كلِّ مستوياته: الصِّرف والتَّراكيب والمعاني والبيان... فإنَّه لا يكفي دراسة هذه المستويات والكشف عن علاقاتها المتشابكة دون إعطاء الأهمية للدَّور الذي تؤديه في حياة الناطقين بالعربية وغير العربية باعتبار أنَّ متعلِّم العربية في احتكاكه بالنَّصوص العربية شعرا كانت أو نثرا، قرآنا أو حديثا شريفا، يحتاج إلى تعلُّم استعمال وضع اللغة في سياقات مختلفة أو ما عرف عند الدَّارسين العرب بـ «لكلِّ مقام مقال كما رأينا». ولكي يصل إلى تحقيق ذلك، فإنَّه لا يكفيه معرفة أوضاع اللغة ونحوها.

تناول عبد القاهر الجرجاني هذه المسألة في مقابله "بين معرفة وضع اللغة (نظامها) وبين إحسان الكلام به وهي فصاحة المتكلِّم"² ومن ثمة الكشف عن المعاني المستترة وراء القواعد والأصول، وهو محور حديثنا في المبحث الآتي.

3. بين الوضع والاستعمال مستعملٌ ونصٌّ (أو خطاب):

تشير الدِّراسات التي تحدّثت عن إعجاز القرآن إلى أنه يمكن اعتبار آراء إبراهيم بن سيَّار النِّظام³ (ت 232) أقدم الآراء في موضوع الإعجاز القرآني التي جعلت المؤلفات التي جاءت بعده ردًّا على آرائه وتفنيديا لما جاء به. وما يهمنا من كلِّ ذلك - كما أشار إليه حمّادي صمّود - أنَّ النِّظام كان أوَّل من فصل، وهو يناقش مسألة الإعجاز، شكَّل القرآن عن مضمونه، و"أصبح مصطلح الإعجاز منذ وقت مبكّر، يطلق على جملة الخصائص البيانية والبلاغية واللغوية العامّة الماثلة في النَّص"⁴.

وعلى الرِّغم من أنَّ المعتزلة ليسوا هم من ابتدع هذا الجانب اللغوي وتفطَّن إليه؛ لكنَّهم "كانوا سببا في تحديده وضبط مفهومه كمستوى من الكلام يقابل الحقيقة... [كما] أنَّ الجدل الذي قام حول القرآن وخاصّة شكله كان من الحوافز القوية التي دفعت الفكر العربي إلى الاشتغال بقضايا اللغة وبضروب طرقها في التَّعبير والتَّركيب"⁵ وهو ما فتح الباب واسعا للدِّراسات البلاغية ولمن جاء فيما بعد بالتَّدقيق في العلاقة بين النَّحو والبلاغة.

وما يهمنا أيضا من هذا الكلام، أنَّ العلماء الأوائل قد جعلوا من المباحث البلاغية وسيلة لتحقيق مقاصد الرسالة المحمدية، حيث عملوا على تأكيد دور البيان وألحوا عليه خاصة وظيفته الإفهامية. غير أنَّ البحث في بقي يدور في مجال التأثير في السَّماع أو المتلقي مرتكزا على فكرة مفادها أنَّ النَّص القرآني يهدف إلى إقناع المتلقي والوصول إليه. ولم يتفطَّن الأوائل في البداية إلى العلاقة بين الكاتب ونصه، وعلاقة الشُّكل بالمضمون والخصائص الذاتية للنَّص⁶.

ولمَّا كانت الغاية من دراسة اللغة في بداية الأمر هي استخراج الضَّوابط التي تتحكَّم في أوجه الممارسة اللغوية، فقد وقف العلماء عند الشُّكل وما يفرضه على الشَّاعر من ضرورات لغوية. ولمَّا كان ارتباط الاحتجاج في اللغة بالقرآن، باعتباره النَّموج الأسمى للغة العربية، وباعتبار أنَّ ما يعنى العرب من القرآن هو نفسه ما يعنى غير العرب من الأعاجم، خاصّة ما أثير حول بنية

¹ المرجع نفسه، ص. 62.

² الحاج صالح عبد الرّحمن، مرجع سابق، ص. 205.

³ وهو رأس من رؤوس المعتزلة الذين ناقشوا قضية الإعجاز في القرآن الكريم على الرِّغم من عدم وجود مؤلِّف خاص به. والذي يرى أنَّ التَّأليف والتَّظلم في القرآن قد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنَّ الله منعهم بمنع وعجز أحدهما فيه. للاستزادة ينظر: حمّادي صمّود، التَّفكير البلاغي عند العرب، ص. 36 وما بعدها.

⁴ حمّادي صمّود، مرجع سابق، ص. 37.

⁵ حمّادي صمّود، نفسه، ص. 38 - 42.

⁶ ينظر: المرجع نفسه، ص. 43.

القرآن، فقد كان اللغويون سببا في بلورة بعض المسائل البلاغية، حيث شهدت مؤلفاتهم بذلك وكانت صدى لما يحدث في البيئة العربية الإسلامية من آراء ومناقشات حول القرآن وقد تجلّى ذلك في مؤلفاتهم إلى غاية القرن الرابع الهجري¹.

ويمكن اعتبار عبد القاهر الجرجاني من العلماء الذين وضعوا نظرية تركز على مفهومي النحو والبلاغة، إذ استطاع أن يكشف عن أهمية النحو ومكانته وهو يخاطب من زهد فيه وصغر أمره قائلا: "وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك... أشبه أن يكون صدًا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه، ذلك لأنهم لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه. إذا كان قد علم أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون لها، وأنّه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيحاً من سقيم حتى يرجع إليه؛ ولا ينكر ذلك إلا من أنكر حسنه، وإلا من غالط في الحقائق نفسه. وإذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به، وزهد فيه، لم ير أن يستقيه من مصبّه، ويأخذه من معدنه، ورضي بالتقص والكمال لها معرض، وأثر الغيبة وهو يجد إلى الرّيح سبيلاً؟"².

كما كشف الجرجاني عن فضل البيان قائلا: "ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا، وأبسق فرعا، وأحلى جنى، وأعذب وزدا، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا، من علم البيان، الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدر وينفث السحر ويقري الشّهد... والذي لولا تحقّيه بالعلوم، وعنايته بها، وتصويره إيّاها، لبقيت كامنة مستورة... واستولى الخفاء على جملتها إلى فوائد لا يدركها الإحصاء، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء"³.

وقد وضّح الجرجاني الفرق بين معرفتنا لقواعد اللّغة وأصولها وبين الكشف عن المعاني المستترة وراء هذه القواعد والأصول، لأنّ اللغة ليست "مجرد مصطلحاتٍ أو قوانين يخضع لها الفكر، وإنما هي رموزٌ تتجسّد فيها حالة المتكلم الباطنة بكلّ ما فيها من إحساسٍ وشعورٍ وفنّ؛ ولو صحّ كون اللّغة مجرد علاماتٍ اصطلاحيةٍ لوقفت عند حدود نقل الفكر وحده، ولما كان هناك داع لأن تعرض المزية في الكلام ويفضل بعضاً على أساس تدرّجه في سلم القيم، ولكان ما أتى به القرآن في مقدور البشر ما دام الأمر لا يتعدّى مجرد الفكر وحده"⁴.

وهو الأمر نفسه الذي جعل الجرجاني يردّ على المعتزلة ويبين دليل إعجاز القرآن الكريم، لأنّ الأمر ليس مرتبطاً بالألفاظ وحدها، أي بوضع اللغة وما توقّره من أبنية؛ ذلك أنّ العرب كانوا يملكون تلك الألفاظ، ولكنهم عجزوا عن الإتيان بمثله فالفاله سبحانه وتعالى أعجزهم بتراكيبه الجديدة بخلق علاقات معجزة بين الألفاظ في تركيب اللفظ على اللفظ، وهذا ما سماه الجرجاني نظماً. لذلك ساق الجرجاني دليل الإعجاز متحدثاً عمّن نزل عليهم القرآن قائلا: "لولا أنّهم حين سمعوا القرآن، وحين تُحدّوا إلى معارضته، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قطّ مثله، وأنّهم رازوا أنفسهم فأحسوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريباً منه، لكان محالاً أن يدعوا معارضته وقد تُحدّوا إليه، وقرّعوا فيه، وطولبوا به، وأن يتعرّضوا لشبا الأسنّة⁵ ويقتحموا موارد الموت. فقيل لنا: قد سمعنا ما قلت، فخبرونا عنهم، عمّا ذا أعجزهم؟ أ عن معاني من دقة معانيه وحسنها وصحّتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلت: «عن الألفاظ»، فماذا أعجزهم من اللفظ، أم ما أبهرهم منه؟ فقلنا: أعجزتهم مزايها ظهرت لهم في نظمها، وخصائص صادفوها في سياق لفظها، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها، ومواقعها، وفي مضرب كل مثل ومساق كلّ خبر، وصورة كلّ عظة وتنبيه... وبهرهم أنّهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع

¹ ينظر: حمّادي صمّود، مرجع سابق، ص. 48.

² الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تج: محمود محمّد شاکر أبو فهر، مكتبة الخانجي - مطبعة المدني، (د.ت)، ص. 28.

³ المرجع السابق، ص. 6.

⁴ علي نصوح علي مواسي، نحو البلاغيّ وعلاقته بنظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني، ص. 7.

⁵ شبا الأسنّة: حدّها وطرفها الذي يصيب فيجرح أو يقتل.

كلمة ينبو بها مكائها، أو لفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبهه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتثاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حكَّ بيافوخه السَّماء، موضع طمعٍ، حتى خرس الألسن عن أن تدعي وتقول"¹.

فالجرجاني كما هو ظاهر وجلي من خلال ردّه، بيّن وفصل في أسرار الإعجاز، فقد تحدّث عن أحد أهم تلك الأسرار وهي نظم القرآن على طريقة مخصوصة، فضلاً عن سياق لفظه الذي لا يضاهيه سياق، كما تحدّث عن الاتساق الذي بهر العقول، وأخرس الألسنة فما استطاعت مجاراته.

من هنا يكون فهم الجرجاني وتصوّره للنحو مغايراً لمن سبقه وحتى بعض من تبعه، فالتحو عنده ليس مجرد ضبط لأواخر الكلمات، أو جملة من المصطلحات والقوانين الجاقّة، بل هو ذلك العلم الذي يكشف عن المعاني، ويتصلّ بالبلاغة اتصلاً، وهو وسيلة من وسائل التصوير والصياغة، ومقياسٌ يهتدى به في البراعة؛ أمّا المعاني التي يكشفها التحو فهي الألوان النفسية التي ندرُكها من علاقات الكلام ببعضه، ومن استخدام المبدع اللّغة استخداماً يخلق من ارتباطات الألفاظ نسيجاً حيّاً متشعباً من الصّور والمشاعر والخيال"².

ولا يقتصر نظم الألفاظ على تتابعها في النطق أو الكتابة، وإلا تساوى كلّ النّاس في حسن النّظم ورداءته؛ ولكن الأمر متعلّق بتناسق دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل. "وإذن فإنّ الاعتبار في النّظم هو للمعاني وليس للألفاظ؛ بل إنّ الألفاظ في ذلك تبع للمعاني، فهي ترتّب تلقائياً بحسب الترتيب الذي تنشأ عليه المعاني في النّفس، ولا يحتاج المتكلّم أن يفكر مرتين: مرة في ترتيب المعاني، وأخرى في ترتيب الألفاظ، وإنّما ينحصر تفكيره في المعنى؛ فإذا ترتّب المعاني جاءت الألفاظ مرتبة على نسقها من غير استئناف نظر جديد"³.

فالجرجاني قد بيّن من خلال تناوله لقضية اللفظ في علاقته بالنّظم، أنّ الألفاظ لا تتفاضل فيما بينها خارج السّياق الذي ترد فيه، فهي "لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنّ الألفاظ تثبت لها هذه الفضيلة، وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وأن ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينك تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"⁴. فيؤكد أهمية التحو في نظم الكلام حيث يقول: "اعلم أن ليس «النّظم» إلّا تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم التحو»، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك، فلا تخلُ بشيء منها"⁵. ومن ذلك الأمثلة التي وضّح بها الجرجاني تلك الأهمية في استعمال بعض الحروف، حيث ينظر النّاطم "في «الحروف» التي تشترك في معنى، ثمّ ينفرد كلّ واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلّاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ«ما» في نفي الحال، وبـ«لا» إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ«إن» فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ«إذا» فيما علم أنّه كائن"⁶.

كما وضّح ضرورة تصرّف النّاطم في معاني التحو وفق ما يقتضيه المقالفي المقام المناسب قائلاً: "ويتصرّف في التعريف، والتّكبير، والتّقديم، والتّأخير في الكلام كلّه، وفي الحذف والتّكرار، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكلّ من ذلك مكانه ويستعمله

¹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص. 38 - 39.

² علي نصوح علي مواسي، نحو البلاغي وعلاقته بنظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني، ص. 7.

³ عماد محمود علي أبو رحمة، "نظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني وعلاقتها بمفهوم البنية في النقد الحديث، موقع: www.aluka.net/publications بتاريخ: 2016/05/07.

⁴ حسن تّمّام، الأصول، ص. 138.

⁵ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص. 81.

⁶ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص. 82.

على الصّحة وعلى ما ينبغي له¹. وفي كلّ ذلك تنبيه لمن يخلط بين الألفاظ فيجعل معانيها متساوية أو متقاربة في السياقات المختلفة التي يمكن أن ترد فيها.

غير أنّ ذلك كلّه مرهون - في نظرنا - بحسن اكتساب ملكة اللغة والقدرة على استعمال الكلمات في سياقها وفق ما تقتضيه المعاني المقصودة. خاصّة في أيامنا التي بعدت فيها الهوة بين العربية وأهلها الذين قلّ متدوّفهم وكثر شاكهم من صعوبة العربية وعدم قدرتها على التعبير عن حاجاتهم وأغراضهم،

فالمقصودُ بالنّظم ليس ضمّ الشّيء إلى الشّيء كيفما اتّفق، بل هو تتبّع آثار المعاني واعتبار الأجزاء مع بعضها. وليس النّظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، أي أن تتوخّى فيه معاني النّحو.

وبذلك تمكّن عبد القاهر الجرجاني من الجمع بين النّحو والبلاغة بجعلهما أساساً واحداً يقوم عليهما النّظم والتأليف. وهو ما يجعلنا نتحدّث عن اختلاف الأساليب لدى البشر الذين يتمايزن في التعبير عن نفس المعاني بطرائق مختلفة على الرّغم من امتلاكهم لنفس الألفاظ. وهذا هو مفهوم البيان الذي يعني "في اصطلاح البلغاء: أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة على نفس المعنى، ولا بد من اعتبار المطابقة لمقتضى الحال دائماً"².

وزيادة على ما ذكرنا، فالبيان هو "كلّ شيء كشف لك بيان المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السّامع إلى حقيقته، ويهجم على محصله، كائنا ما كان ذلك البيان. ومن أيّ جنس كان ذلك الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسّامع إنّما هو الفهم والإفهام. واعلم أنّ المعتبر في علم البيان دقة المعاني المعتبرة فيها الاستعارات والكنائيات مع وضوح الألفاظ الدالة عليها. فالبيان هو النّطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير"³. وذلك بأن يعرف المتكلّم والمؤلف كيف يعبر عن المعنى الواحد بعبارات بعضها أوضح من بعض، وأن يختار من فنون القول وسبل الكلام ما يقرب من مقاصده، ويلتزم أغراضه بطريقة تسمح بمعرفة ما يدور في نفسه من تلك المقاصد.

ولا بد من الإشارة إلى مسألة غاية في الأهمية، ترتبط بما طوّره عبد القاهر الجرجاني في علاقة النّحو بالبلاغة، وأنّه لا سبيل إلى الفصل بينهما إذا كان النّظم (التأليف) هو توخي معاني النّحو، وهي ما يقتضيه المقالفي المقام المناسب، فمن مقام يقتضي تعبيراً حقيقياً إلى مقام آخر يقتضي تعبيراً مجازياً، ومن مقام يقتضي التّنكير أو التّقديم إلى آخر يقتضي التّعريف أو التّأخير وهكذا. وهذا الذي يجعل المدلول الوضعي يتغيّر إلى مدلول آخر ناتج عمّا ذكرناه فيصير مدلولاً جديداً "تقتضيه القرائن وكلّ ما يحيط بالخطاب أو يدخل فيه من الدلائل"⁴ كتلك التي سموها بالدلالة العقلية. ومثاله قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: 4] "فاشتعل الرأس شيباً" تفيد فضلاً عن لمعان الشّيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشّمول وشيوعه فيه⁵، لأنّ اشتعل يُسند في أصل معناه إلى النّار، فكانت القرينة المانعة من إيراد المعنى الحقيقي هو أن الاشتعال لا يكون للرأس، وإنّما يكون للنّار أو الحطب الذي يحدث النّار بعد اشتعاله.

خاتمة:

نصل في خاتمة هذه الدّراسة التي حاولنا من خلالها تسليط الضوء على موضوع مهم في قراءة النصوص والخطابات وفهم أغراضها، حيث حاولنا أنّ نقرأ مقولة تراثية معروفة حتى أنّها صارت تُقال من قبل أناس عاديّين لا علاقة لهم بالبلاغة وفصل

¹ المرجع نفسه، ص. 82.

² السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 2006، ص. 216.

³ المرجع نفسه، ص. 216.

⁴ الحاج صالح عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 218.

⁵ يُنظر: الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص. 100 - 101.

الخطاب. وقد بدأنا قراءتنا بعلاقة النص القرآني بنشأة المفاهيم الأساسية التي قام عليها الدرس اللغوي العربي التراثي، خاصة علماء الرّعيّل الأول من النّحة الذين ألفوا في اللغة والنّحو كسيبويه الذي يشهد كتابه على منهج الأوائل في التّأليف والتّبويب. ولم تخرج قراءتنا لهذه المقولة عن مفهوم الوضع والاستعمال الذي كان اختصاراً للمفهوم الأساس وهو الأصل في الكلام في مقابل الكلام نفسه الذي تناوله سيبويه بدقة وعمق في كتابه كما سبق ورأينا. وكانت إشارتنا إلى ارتباط نشأة المفاهيم النّحوية والبلاغية بالقرآن الكريم مقصودة لذاتها على اعتبار أنّ القرآن الكريم هو نص له أهميته اللغوية والعقدية والحضارية، كان له الفضل في جمع اللغة العربية ولا يزال وسيظل، حيث يمثّل مرجعاً لغوياً أساسياً يحفظ للعربية مكانتها وقوتها؛ لأنّ القرآن هو النّص الذي يجمع المسلمين كافّة عرهم وعجمهم. كما حاولنا أن نربط هذه المقولة بمفهوم الوضع والاستعمال في تحليل بعض النّصوص كما فعلنا في الرّسائل التي بعثها الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض. ذلك أنّه على الرّغم من أنّ الوضع اللغوي للعربية واحد ومتاح للجميع، غير أنّ التّفرد الاستعمالي هو الذي يعطي للغة أهميتها ويسهم في تطورها في البيئة التي تستعملها. والمعتبّر في كلّ ما قلناه أن تنبّه هذه الدّراسة إلى أهمية استثمار نظرية الوضع والاستعمال في مجال الدّراسات اللسانية كلسانيات النّص، وإعادة الاعتبار لجهود الدّارسين الأوائل الذين تميّزوا بدقة طروحاتهم. فضلا عن فتح الباب للتّقريب بين الدّرسين العربي والغربي لاستكمال ما بينهما من نقص قد يفيد كثيرا الدّرس العربي المعاصر، ولن يحصل ذلك دون قراءات جادّة لمنجزات الدّرسين.

ثبّت المصادر والمراجع:

1. ابن خلدون عبد الرحمن، المقدّمة، تح: عبد السّلام الشّداي، بيت الفنون والعلوم والآداب، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتّاريخ، ج/3، الجزائر، 2006.
2. أبو الفتح عثمان بن جيّ، الخصائص، المجلّد الأول، دار الكتاب العلمية، ط/2، بيروت. لبنان، 2002.
3. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: جويدر درويش، البيان والتّبيين، بيروت: المكتبة العصرية، 2006.
4. الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمّد شاکر أبو فهر، مكتبة الخانجي - مطبعة المدني، (د.ت).
5. الحاج صالح عبد الرّحمن، الخطاب والتّخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرّغاية - الجزائر، (د.ت).
6. حمّادي صمود، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديدة، ط/3، 2010.
7. السّيّد أحمد الهاشي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 2006.
8. الشّيخ محمّد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين محمّد ﷺ، تح/حمدي زمزم، دار الإيمان، دمشق - سورية، 1988.
9. الصّابوني محمّد علي، الإبداع البياني في القرآن العظيم في الأمثال، والتّشبيه، والتّمثيل، والاستعارة، والكتابة، مع الإمتاع بروائع الإبداع، المكتبة العصرية، ط/1، صيدا - بيروت، 2006.
10. عماد محمود علي أبو رحمة، "نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وعلاقتها بمفهوم البنية في النّقد الحديث، موقع: www.aluka.net/publications بتاريخ: 2016/05/07.
11. فطومة سويبي، مقارنة تحليلية بين لغة التّحرير ولغة التّخاطب بالفصحى، رسالة ماجستير، معهد العلوم اللسانية والصّوتية، جامعة الجزائر، 1988.

الأسس المعرفية لقراءة النص القرآني لدى علماء الأصول:

قراءة في المميّزات الأساسية لاقتراح "جواهر القرآن" للإمام أبي حامد الغزالي.

د.عبد الكريم جيدور.

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية (وحدة ورقلة) - الجزائر.

ملخص البحث:

أسس الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ) في كتابه "جواهر القرآن" مساهمةً مميزة في مجال القراءة الشاملة للنص القرآني، تُضاف إلى جملة الجهود المقدورة التي اقترحها علماء الأصول في هذا الباب. وهي قراءة عميقة اعتمدت على مرحلة أولى من الاستقراء الدقيق، ثم مرحلة ثانية من التركيب والتوثيق، نتج عنها عقد متين مؤلف من عشرة مقاصد مرتبة ترتيباً تنازلياً، بناء على مقاييس منطقية وجمالية تجعل المتأمل أمام تنظيم جديد، ورؤية مختلفة للنص القرآني الحكيم لا تخلو من الابتكار والإبداع. سنحاول من خلال هذه الدراسة أن نتبع الأصول المنهجية والمعرفية التي قامت عليها هذه القراءة المنظومية والتناظرية، والهدف من ذلك هو التعريف بهذا النمط المتفرد من القراءات التي لانعرف لها نظيراً في المدارس الغربية، ثم إننا نطمح في أن تكون هذه المحاولة نموذجاً يُحتذى به في الدراسات النصية العربية؛ سواء تلك التي ترتبط بالقرآن الكريم، أو بغيره من الذخائر التراثية الضافية في حقول اللغة والأدب الواسعة.

الكلمات المفتاحية:

أسس؛ معرفية؛ قراءة؛ نص قرآني؛ أصول؛ مميزات أساسية؛ جواهر القرآن.

Abstract:

In his book named "The Jewels of the Qur'an" Imam Abū Ḥāmid al-Ghazālī (505 AH) established a distinctive contribution in the comprehensive reading of the Qur'anic text, adding to the estimated efforts suggested by the Uṣ ūli scholars (specialists in Islamic principles) in this domain. A profound reading based on two main phases; first phase of accurate induction, and second phase of construction and documentation, resulted a solid Necklace consisting of ten final purposes arranged in descending order, this order based on logical and aesthetic criteria that make the mediator in front of a new organization and a completely different vision toward the Qur'anic text; full of innovation and grandstanding. In this study, we will attempt to follow the methodological and cognitive origins of this comprehensive systemic reading. The basic aim of this study is to define this unique type of Uṣ ūli systemic readings that did not find in western schools. And we hope that this attempt will be a pattern model in Arabic textual studies, both those related to the Holy Qur'an, or the other various traditional heritage ammunitions, in the fields of language and literature.

Key words:

Principles; Cognitive; Reading; Quranic Text; Uṣ ūl; Basic Features; The jewels of the Qur'an.

تقديم:

إذا جاز لأحد أن يعد القرآن الكريم نصاً فلا شك في أنه نص النصوص، وأن دراسته هي أم الدراسات، لأن مضمونه هو أعز المضامين، ومحصوله هو أجود المحاصيل. ولقد صَدَرَ الإمام أبو حامد الغزالي في معظم تصانيفه؛ الفقهية والأصولية والعرفانية¹ عن مثل هذا الفهم الدقيق والتصور البهيّ الأنيق، الذي يضع الوحي المقدس في مقامه، ويَهْدِي القارئ المتدبر إلى مسك زمامه. فكانت جل أعماله فريدة في بابها، وحيدة في نسجها.

1 - اخترنا مصطلح "العرفانية" لأنه أوفى بالمراد من مصطلح "المعرفية" خاصة أن هذا الأخير صار متداولاً في الدراسات العربية مقابلاً للمصطلح الأجنبي (cognitive) ومعناه في الأدبيات المعاصرة: الإدراك المتحصل بواسطة الأدوات الدماغية/الذهنية. وغير خاف أن الإدراك عند علمائنا أوسع من ذلك، ومصادر تلقي المعرفة عندهم أكثر اتساعاً وأطول باعاً.

أما اجتهاده التحليلي وفكره التأويلي الذي ضمّنه كتاب "جواهر القرآن" فإنه عمل بلغ من التنظيم والفرادة مبلغاً يجعله قميئاً بكل اهتمام، وخليقاً بأن تخصص له دراسات مستفيضة مفصّلة، ولما وجدنا الاهتمام به من لدن معاصرينا قليلاً غير واف بما حفل به هذا السفر من جماليات، ولا مستوعبا ما اشتمل عليه من إبداعات، فإننا اخترنا القيام بهذه الدراسة على ضفاف هذا العمل المتهجي المقتر، لعلها تؤدي جزءاً صغيراً من شروط النشاط القرائي المعمق للتراث الغزالي بصفة خاصة، وللتراث الأدبي عند علماء الأصول بصفة عامة.

ولقد أسسنا هذه الدراسة على محطات مستأنسين في ذلك بالروح المتقصية، والمشرّب النماذجي الذي ينضح به الكتاب محلّ الدراسة؛ فبدأنها بذكر طرف من المعاني التي تحقق الصلة الوطيدة بين الإمام أبي حامد والقراءة الواعية الراحية للوحي الحكيم، وهي نافذة تطل بنا على كتاب "جواهر القرآن" نتأمل ما فيه من الجدة والطرافة، وما استودعه صاحبه من الأفكار والأسرار فيما له علاقة بقراءة النصوص العالية، فأفضى بنا ذلك إلى ملاحظة المشارب التي استمد منها الغزالي أطروحاته؛ وهي كما أطلقنا عليها مشربان أو نوعان من الأصول: أصول منهجية منطقية، وأصول فكرية عرفانية.

1. علاقة الإمام الغزالي¹ بالقراءة النصية للوحي الحكيم:

عُرف الإمام أبو حامد الغزالي بأنه حُجّة الإسلام، وقيل إن علة ذلك ما تواتر من براعته الخارقة في المناظرة والمجادلة؛ لقد ذكر غير واحد من المصنفين أنه كان في المناظرة ذائشمنند²: أستاذ الأساتيد ولم يدخل جدالاً قط إلا أحاط بالمجادل وألقمه الحجة، ثم إن المصنفين أجمعوا على غزارة إنتاجه حتى بلغ به بعضهم أربعمئة مصنف وأزيد من ذلك، والمقطوع بنسبتها إليه لا يقل عن مئة، والعلاقة المُشربة بالقرآن تلوح من كل هذه المصادر نقية جلية وضاءة.

لقد اجتهد الإمام الغزالي في قراءته القرآن الكريم اجتهادات عبقرية تؤسس في جملتها وكتبتها لنظرية نصية مقتدرة أطلقنا عليها القراءة الغزالية المنظومية التناظرية. وهو موضوع يحتاج استيفاءه إلى بسط وتفصيل، وما نرجو تحقيقه في هذه الدراسة التمهيدية هو الإشارة بأخصر عبارة والإنارة إلى مشكاة الصدارة، لأنّ الدرس اللغوي العربي ابتعد في عقود المتأخرة عن المنهج الترابطي الجامع بين فنون الإسلام وعلومه، وكان لهذا التوجه عواقب وخيمة على كل جوانب هذا الدرس؛ جوانبه المعرفية المباشرة، وجوانبه التربوية الأبوية المؤازرة.

ولكي نتوصل إلى فناعة راسخة بخصوص العلاقة المشربية بين الإمام أبي حامد والقرآن الكريم تدبراً وتفهماً وحسن تأويل، سنقوم في الفقرات الموالية باستقراء تدريجي داخل مصنفات هذا الإمام العُلام؛ نبدوّه بإطلالة كلية على جل ما نسب إليه من التصانيف، ثم نركز على التصانيف المقطوع بنسبتها إليه، لننعم بعدئذ النظر في درجة تعلقها بالمهمل القرائي.

¹ - أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي (450-505هـ/1058-1111م). حجة الإسلام وزين الدين، مجدد المذهب الشافعي، وصاحب التصانيف الفريدة والكتب النافعة المفيدة في فنون المعرفة والعرفان، أطبق أهل زمانه وكل أساتذته وأقرانه على ذكائه الخارق وذهنه الطارق، قال عنه أستاذه مجدد الإسلام الإمام أبو المعالي الجويني: "الغزالي بحر مغدق" وقال الإمام تاج الدين السبكي في "طبقات الشافعية": حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، جرت الأئمة قبله بشأؤ ولم تقع منه بغاية، ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لأصحاب النهاية والبدائية". يراجع ترجمته بالتفصيل والتكميل في المصادر الآتية: الذهبي، سير أعلام النلاء، ج 19. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 98/1. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 561/3. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج 191/6-194.

² - ذائشمنند: كلمة فارسية معناها: كبير العلماء أو أستاذ الأساتيد، والفارسية هي لغة المنشأ للإمام الغزالي (اللغة الأم) علماً أن كلمة أستاذ دخيلة على العربية أيضاً، وأصلها من اليونانية، ومعناها: الحاذق والماهر في صنعه. ذكر الإمام أبا حامد هذه الصفة تلميذه ومريده أبو بكر بن العربي في وصفه لرتبته وعلو منزلته في العلم والزهد...

لقد تناول الأستاذ عبد الرحمن بدوي¹ - رحمه الله - في دراسته الحافلة الموسومة بـ: "مؤلفات الغزالي" نحواً من 457 مصنفاً منسوباً للإمام أبي حامد، وضمنها سبعة تصنيفات كلية، بما في ذلك المصنفات المخطوطة، وهي كثيرة العدد. ويمكن تلخيص الأقسام السبعة المذكورة على النحو الآتي:

القسم	عدد الكتب	درجة النسبة إلى الإمام أبي حامد الغزالي
1	72 كتاباً	كتب مقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي
2	22 كتاباً	كتب يدور الشك في صحة نسبتها إلى الغزالي
3	21 كتاباً	كتب من المرجح أنها ليست للغزالي
4	94 كتاباً	أقسام من كتب الغزالي أفردت كتباً مستقلة، وكتب وردت بعنوانات مغايرة
5	48 كتاباً	كتب منحولة، ليست للإمام الغزالي.
6	106 كتب	كتب مجهولة الهوية
7	76 كتاباً	مخطوطات موجودة ومنسوبة إلى الغزالي.

وإذا قدمنا إلى الكتب المقطوع بصحتها للإمام الغزالي، واستناداً إلى الدراسة الوافية التي أنجزها المستشرق الأب موريس بويج (Maurice Bouyges) التي عنوانها: "بحث في الترتيب التاريخي لمؤلفات الغزالي"². نجد بأنها تأسست على حصر مؤلفات الحجة أبي حامد من جهات رئيسة هي: العدد، وترتيب زمن التأليف، والتحقق حول درجة الصحة في نسبتها للمؤلف. والجدير بالملاحظة أن أول المصنفات التي جادت بها قريحة الإمام أبي حامد، هو على الأرجح "التعليقة في فروع المذهب (الشافعي)"³ وبناء على المنهجية الزمانية التدريجية التي ابتناها الأب بويج انقسمت حياة الإمام أبي حامد العلمية إلى خمس فترات، يأتي بيانها:

ترتيب الفترة	العدد	عنوانات المصنفات	ملاحظات منهجية عرفانية
الفترة الأولى (465-478هـ)	مصنفان اثنان	1. التعليقة في أصول المذهب (في الفقه الشافعي) 2. المنحول في علم الأصول	1. الاهتمام الفقهي الأصولي المبكر 2. العناية الفائقة باللسان العربي وتأسيس مدخلية في فهم الوحيين واستنباط الأحكام الكلية والتفصيلية 3. ملامح النظرية الغزالية الخاصة في استنطاق النص وتدرجات الفهم والتأويل.
الفترة الثانية:	25 مصنفاً	1. البسيط 2. الوسيط	1. التحول المعرفي الكبير نحو المنهل المنطقي العقلاني

¹ - عبد الرحمن بدوي (1917-2002) فيلسوف ومفكر عربي غزير الإنتاج، جيد التصنيف، معدود ضمن قلة قليلة من الأكاديميين العرب الذين قدموا دراسات مفصلة ضافية حول الإمام أبي حامد الغزالي ترقى إلى سمة التخصص والاعتماد.

² - نشرت هذه الدراسة الضافية بعناية وتحقيق ميشيل آلار (Michel Allard) ونشرت في بيروت سنة 1959م، علماً أن الناشر أشار إلى أنها كانت معدة للنشر قبل ذلك بمدة (سنة 1924م).

³ - نعلم من المصادر الموثوقة أن الإمام أبا حامد ولد سنة 450هـ، فإذا كان أخرج أول مصنفاته العلمية سنة 465هـ فقد كان له من العمر خمس عشرة سنة أو ستة عشر. وذلك ملمح من ملامح العبقرية والنبوغ، شهد له به جميع معاصريه، حتى إن أستاذه الأكبر الإمام أبو المعالي الجويني وصفه بأنه: بحر مُغرق، أو مُغرق.

<p>2. بداية فترة المجالات والمساجلات المنطقية الفلسفية</p> <p>3. الدراسات المعمقة لأصول العقائد الإسلامية بناء على تدبر عميق لآيات الذكر الحكيم انطلاقاً من قراءة مستقلة</p>	<p>3. الوجيز</p> <p>4. خلاصة المختصر¹</p> <p>5. المنتحل في علم الجدل</p> <p>6. مآخذ الخلاف</p> <p>7. لباب النظر</p> <p>8. تحصين المآخذ</p> <p>9. المبادئ والغايات</p> <p>10. شفاء العليل²</p>	<p>فترة التعليم العام الأولى (478-488هـ)</p>
<p>1. ذروة الإنتاج الغزالي العلمي العرفاني ذي الصفة الكلية العالمية.</p> <p>2. الاستمداد العميق من المشرب القرآني في السواد الأعظم من مؤلفات هذه الفترة.</p> <p>3. تبلور التصور القرآني التحليلي للنص القرآني الحكيم برؤية كلية نسيقية منظومية.</p> <p>4. مقارنات ومقاربات وأمثولات فريدة في باب شرح كلية النص ومآلاته وغاياته النهائية.</p>	<p>1. إحياء علوم الدين</p> <p>2. كتاب في مسألة كل مجتهد مصيب</p> <p>3. جواب إلى مؤيد الملك³</p> <p>4. مفصل الخلاف</p> <p>5. جواب المسائل الأربع⁴</p> <p>6. المقصد الأسنى بشرح أسماء الله الحسنى</p> <p>7. رسالة في رجوع أسماء الله إلى ذات واحدة</p> <p>8. بداية الهداية</p> <p>9. الوجيز</p> <p>10. جواهر القرآن⁵</p>	<p>الفترة الثالثة: فترة الخلوة والانقطاع (488-499هـ)</p> <p>28 كتابا</p>

¹ - وهي المصنفات الأربعة التي قيل إنه أكمل بها الفقه الشافعي وأتمه، وفي هذا المعنى قال الناظم مادحا ومقرضا:

أكمل المذهب إمام عجل الله خلاصه ببسيط ووسيط ووجيز وخالصه

فالإمام المدعو له بالقبول والرحمة هو أبو حامد، والبسيط إنما هو من البسيط أي: السعة والشمول، وليس من البساطة بمعنى السهولة. وعلى المعنى الأول وهو الأصل يفهم قول الحق تبارك وتعالى: " قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ: وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " (البقرة: 247). قال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسير الآية: وأما قوله "وزاده بسطة في العلم والجسم"، فإنه يعني بذلك أن الله بسط له في العلم والجسم، وآتاه من العلم فضلا على ما أتى غيره من الذين خوطبوا بهذا الخطاب. وذلك أنه ذكر أنه آتاه وحى من الله، وأما "في الجسم، فإنه أوتي من الزيادة في طولهم ما لم يؤت غيره منهم. وقال الإمام الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: والبسطة اسم من البسط وهو السعة والانتشار، فالبسطة الوفرة والقوة من الشيء. ينظر تفسير التحرير والتنوير، ج 2، ص 492.

² - أما بقية المصنفات المذكورة فهي: 11. فتوى ليوسف بن تاشفين، 12. فتوى خاصة بلعن يزيد بن معاوية، 13. غاية الغور في دراية الدور، 14. تهافت الفلاسفة، 15. مقاصد الفلاسفة، 16. معيار العلم، 17. معيار العقول، 18. محك النظر في المنطق، 19. ميزان العمل، 20. المستظهر، 21. حجة الحق، 22. الاقتصاد في الاعتقاد، 23. الرسالة القدسية في قواعد الاعتقاد، 24. المعارف العقلية والأسرار الإلهية، 25. قواعد العقائد.

³ - ردا على خطاب منه إليه يسأله وينشده أن يعاود التدريس في المدرسة النظامية

⁴ - وهي مسائل فلسفية جدلية طرحها فريق من الباطنية في مناظرة مع الإمام بمدينة همدان

⁵ - بقية المصنفات من هذه المرحلة: 11. الأربعين في أصول الدين، 12. المضمون به على غير أهله، 13. المضمون به على أهله، 14. الدرج المرقوم بالجدول، 15. القسطاس المستقيم، 16. فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، 17. القانون الكلي في التأويل، 18. كيمياء السعادة (كتبه بالفارسية)، 19. رسالة أمها الولد، 20. نصيحة الملوك، 21. زاد أخت (بالفارسية)، 22. رسالة إلى أبي الفتح الدمعي، 23. الرسالة اللدنية، 24. رسالة إلى بعض أهل عصره، 25. مشكاة الأنوار، 26. التفسير المسمى: يا قوت التأويل، 27. الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين، 28. تلبيس إبليس.

الفترة الرابعة: الفترة التعليمية الثانية (499-503هـ)	6 مصنفات	1. المنقذ من الضلال ¹ 2. عجائب الخواص 3. غاية الغور في دراية الدور 4. المستصفي من علم الأصول 5. سر العالمين وكشف ما في الدارين 6. الإملاء على مشكل الإحياء	1. ذروة الإنتاج المنهجي العرفاني الذي بلغ رتبة العالمية ممثلا في كتاب المستصفي. 2. تطبيقات عملية وتعليمية للمنهجية القرآنية المنظومية
الفترة الخامسة: (503-505هـ)	3 مصنفات	1. الدررة الفاخرة في كشف علوم الآخرة 2. إجماع العوام في علم الكلام 3. منهاج العابدين	1. زبدة الخبرة الغزالية الوجدانية وحصيلة التجربة العرفانية الصادرة كما يصرح في كل صفحة من مصنفااته عن المشرب القرآني وشدة التعلق بهذا الوحي المجيد.

2. كتاب جواهر القرآن في ميزان القراءات النصية:

1.2. غايات الكتاب ودواعي تصنيفه:

يتضح من العبارات الأولى التي افتتح بها الإمام أبو حامد كتابه مقصده الأسمى من هذا المصنف، فهو يبشر أمانة جلييلة ومسؤولية عظيمة تتعلق بأسئلة جوهرية، وقضايا مصيرية فصل فيها القرآن القول، وأقام عليها الحجة، ومع ذلك فإنه يرى أغلب قراء القرآن غافلين عن هذا المنهل الخصيب، والمورد الصافي الرطيب، لذلك اختار بحكمة ظاهرة، وقريحة للنفع سائرة، أن يبدأ كتابه بخطاب تقريع، ورسالة إلى كل قلب غافل وعقل ذاهل، يشده شدا عنيفا إلى منبت البلس، ومربط الفرس قائلا في عبارة مشحونة بالإشارة، ترنو إلى التحفيز والاستثارة:

« أنبهك على رقدتك، أيها المسترسل في تلاوتك، المتخذ دراسة القرآن عملا، المتلقف من معانيه ظواهر وجملا، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائمها؟ أو ما كان لك أن تترك متن لجتها لتبصر عجائبها؟ وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها؟ وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها؟ أو ما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها؟ أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط؟ ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها؟...وها أنا أرشدك قاضيا حق إخوانك، ومرتجيا بركة دعائك، إلى كيفية سياحتهم وغوصهم وسباحتهم²»³.

إن الغاية القصوى من هذا الجهد الذي شمر له الإمام أبو حامد إنما هي إيقاظ قارئ القرآن من الرقاد، وتنبهه من كثرة الشرود والسهاد، وقيادته إلى أصل الأصول ومنبت كل محصول، لذلك نراه يستخدم المنطق التمثيلي بانسجام ودقة⁴، استخداما

¹ - واحد من أكبر إنجازات الإمام الغزالي، على صغر حجمه، وبساطة لغته، فإنه أشبه بسيرة ذاتية تؤرخ للتحول الفكري والتطور الوجداني العقلاني الذي راوده منذ ريعان شبابه حتى دخل مدخل الكهولة. وفيه اقتباسات ومقارنات وردود قوية حاسمة على الأصفاف المعرفية الأربعة السائدة في زمانه: الدهريون، الفلاسفة، المتكلمون، وأهل الطريق (السالكون مدارج التصوف)، وأقل ما يقال في حق هذا الكتاب أنه أسس لعلم السلوك الإسلامي، أو علم النفس الإسلامي بأدلة فائقة الظهور وبراهين غير خافية على كل غيور.

² - يقصد من سماهم: "الأقوام" الذين خاضوا غمار هذه الرحلة، وشمروا للمغامرة الفريدة للفصوص في البحر المحيط واكتشاف الجواهر المكنونة في أعماق أعماقه.

³ - أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن، تج: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط2: 1406هـ/1986م، ص 21-22.

⁴ - أكثر الإمام أبو حامد من استخدام المثل وأحسن توظيفها، والحق أن استخدامه للمثال موضوع جدير بدراسة مفصلة مستقلة، فقد وجدناه يوظف المثل بالطرق الآلية المباشرة، وتارة بطرق موازية تمثيلية، وطورا بطرق تناظرية يدخل في ثناياها أكثر من مستوى تمثيلي وأكثر من غطاء دلالي تأويلي. إذا نظرنا مثلا إلى المنظومة التمثيلية المركزية التي

يذكر بالمثل العجيبة، والمقارنات البديعة القشبية التي حفل بها القرآن الكريم¹. وهكذا يخبر القارئ الافتراضي الذي اصطنعه بخياله الأدبي، ومخياله السردى بأن الكتاب الذي يحمله بين يديه، ويلوك حروفه بين فكيه، ليس مما ألف في دنيا الناس من الكتب، بل هو يدعوه إلى أن يتأهب ويستعد، ويشحذ همّته، ويستحضر في سويداء قلبه أنه أمام بحر عظيم محيط، سواحله كثيرة، وأمواجه عسيرة، تحيط به من كل جانب جزر وشطآن، والبحر مع ذلك عميق غائر، مكتنز بالعجائب والنفائس والسرائر، ويسأله: هل أنت مستعد لتخوض هذه المغامرة المشوبة بكل المصاعب، لتسافر بسفينة قلبك إلى مركز الأمواج المتلاطمة، والأخطار المتفاقمة، ثم تقفز هنالك من سفينتك التي تكاد تتحطم، ونفسك التي تهرب وتحجم، لتغوص إلى أعماق أعماق هذا القرار، حيث الكنوز والجواهر والأسرار، ثم تعود سالما غانما. يقول أبو حامد لهذا القارئ المتخيل ولكل قارئ يتململ ويتعلل، إنك إذا شممت لهذه المغامرة فلن ترجع كما كنت أول العهد أبداً، سترجع مُسربلا بالنقاء، تواقا إلى سبل العطاء، غير أبه بعد ذلك، لما يلاقيك في سبيل نيل أوطارك.

إن تحليل التسلسل الدلالي لعبارة الإمام أبي حامد يكشف لنا رؤيته بالنسبة لشروط القراءة النصية؛ فهي قراءة تنطلق من استحضار شعوري، وإدراك تام لقدسية الموقف، ينقاد بهما القارئ إلى ملامسة العلوية في المعاني الجليلة، والمرامي الأصبلة التي أمامه. أما النشاط الذهني المتعلق بهذه المهمة فيقوم على مرحلة أولى من الاستقراء والإحصاء، تكشف عن مواضع المواضيع وتكرارها ومدارات ارتباطها بنظائرها، يلي ذلك نشاط إنشائي يتشكل عبره معمار دلالي مواز يلتهمسه القارئ عوناً على استبقاء الغايات المقصدية العلية حاضرة لديه. والترتيب الآتي ذكره يوضح المقصود.

الحال النمطية للتخية	الحال النموذجية للتخية	العبرة التوجيهية
نوم القلب، وخمول الوعي	حضور القلب، وتركيز الحواس الظاهرة والباطنة	1 أنبهك على رقدتك
التتبع الخطي الممل	تتبع قائم على الاستقراء والاستقصاء والمقارنة ودوام التفكير في المقاصد والمآلات	2 المسترسل في تلاوتك
فرضا أو وردا يوميا	مغامرة وسياحة	3 قراءة القرآن عمل
كقراءة في أي كتاب	قراءة تتلقف الجواهر والنفائس والدلالات الدفينة الغائرة	4 تلقف ظواهر الرسم والجمال

ثم إن تطبيق النسق الأنف ذكره على التصور الإجمالي لغايات القرآن، فيما أسماه الغزالي "عقد المقاصد القرآنية" يبرهن على القيمة الإجرائية العالية لهذا الاقتراح. كما أن التطبيق الجزئي على سور وآيات قرآنية متخيرة يؤيد الخلاصة السابقة، ويمكن

أسس عليها كتابه: نجده قسم العالم إلى ملك وملكوت، وقسم القرآن نفسه إلى كتاب ظاهر ذي رسوم وحروف وبحر زاخر ذي جواهر وجزائر وقطوف، ثم رتب مدارك العلوم الرسمية ابتداء من الصوت إلى الدلالة الكلية كما رتب مكونات البحر العظيم في صورة تناظرية بالغة الدقة والتعقيد. قارن هذا الوصف في متن الكتاب: ص 21-22، 25-28، 48-52.

¹ - الأمثال ركن ركين في القرآن الكريم، وقد ذهب بعض العلماء الذين عنوا بهذه المادة إلى أن ثلث القرآن مثل وأمثال ظاهرة مشهورة، وباطنة مكنونة. بنظر: محمد بن قيم الجوزية، الأمثال في القرآن الكريم، تج: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ط1: 1981م.

أن نلاحظ ذلك إذا ما نظرنا إلى الجهد الاستقرائي الاستقصائي ثم التركيبي الذي بذله الإمام أبو حامد لإقناع القارئ بمنزلة فاتحة الكتاب¹، وتصديق فضائلها وفواضلها التي تحدث عنها النبي صلى الله عليه وسلم².

بدأ الإمام أبو حامد اجتهاده القرآني بعمل استقرائي حصر من خلاله مقاصد القرآن الكلية في عشرة أقسام، كل قسم ينشعب منه علم من العلوم الشرعية الأصلية وما تحته من الفروع اللزومية ثم طابق هذا النسق الذي أسماه "عقد المقاصد القرآنية" على فحوى العبارة القدسية من فاتحة الكتاب، ناظرًا إليها نظرة غير رتيبة ولا خطية، بل نظرة قائمة على الربط الوثيق بين الأدلة اللفظية الظاهرة، وما يقابلها من نظائر في الإشارات والرموز التي أسندها لكل قسم من الأقسام.

الرمز الإشاري المقابل	المقصد القرآني الكلي
الكبريت الأحمر	1 معرفة الذات (ذات الله تعالى)
الياقوت الأحمر	2 معرفة الصفات
الياقوت الأذهب	3 معرفة الأفعال
الياقوت الأصفر	4 ذكر المعاد
الدر الأزهر	5 ذكر الصراط المستقيم
الزبرجد الأخضر	6 التركيبية والتحلية
العنبر الأشهب	7 أحوال الأولياء
العود الرطب	8 أحوال الأعداء
الترياق الأكبر	9 محاجة الكفار
المسك الأذفر	10 حدود الأحكام

ونتيجة لهذا النشاط المنهجي المترابط خلص الإمام أبو حامد إلى أن فاتحة الكتاب اشتملت على ثمانية من أصل المقاصد العشرة، ولم يخرج منها إلا القسمين الأخيرين: محاجة الكفار وأحكام الفقهاء³ فدل ذلك على عظمة مضمونها، وكان هذا المسلك المنهجي تعليلاً مناسباً للنصوص الكثيرة التي تثبت فضلها وعلو قدرها، وأنها غنية عامرة بالمعاني والإشارات والدلالات على قصرها وقلة كلمتها، وذلك باب من الإعجاز لا سبيل للعثور على مثله إلا في كتاب الله تعالى.

وبناء على هذه القراءة المنظومية التناظرية أصبحت الفاتحة في ذاتها دليلاً هادياً يسترشد به قارئ القرآن الكريم في رد السور الجزئية والآيات التفصيلية إلى أبوابها ومواضعها في أقسامها منسقة مرتبة وهذا باب من التأمل ومعراج إلى التدبر وحسن التفكير فتتحة هذه المنظومة القرآنية التي يقترحها الإمام أبو حامد أبواباً مشرعة أمام كل قارئ.

¹ - أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن، ص 64-72.

² - صحت عن النبي - صلى الله عليه وسلم- أحاديث كثيرة في بيان فضل فاتحة الكتاب وذكر خصائصها، منها: عن ابن عباس قال: "بينما جبريل قاعدٌ عند النبي - صلى الله عليه وسلم - سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء، فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبيض بنورين أوتيهما لم يؤتتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيتَهُ" أخرجه مسلم، ح/1339. وعن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خداج - ثلاثاً - غير تمام)، فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأها في نفسك: فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((قال الله - تعالى -: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، قال الله - تعالى -: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾، قال الله - تعالى -: أتى عبدي، وإذا قال: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فَوُضَّ إِلَيَّ عبدي، فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل، فإذا قال ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾، قال: هذا عبدي ولعبي ما سأل". أخرجه أخرجه الترمذي، وأبو داود ح/1310.

³ - أبو حامد، جواهر القرآن، ص 70.

22. أبواب الكتاب وخطة تأليفه:

أسس الإمام أبو حامد كتابه "جواهر القرآن" على ثلاثة أقسام¹:

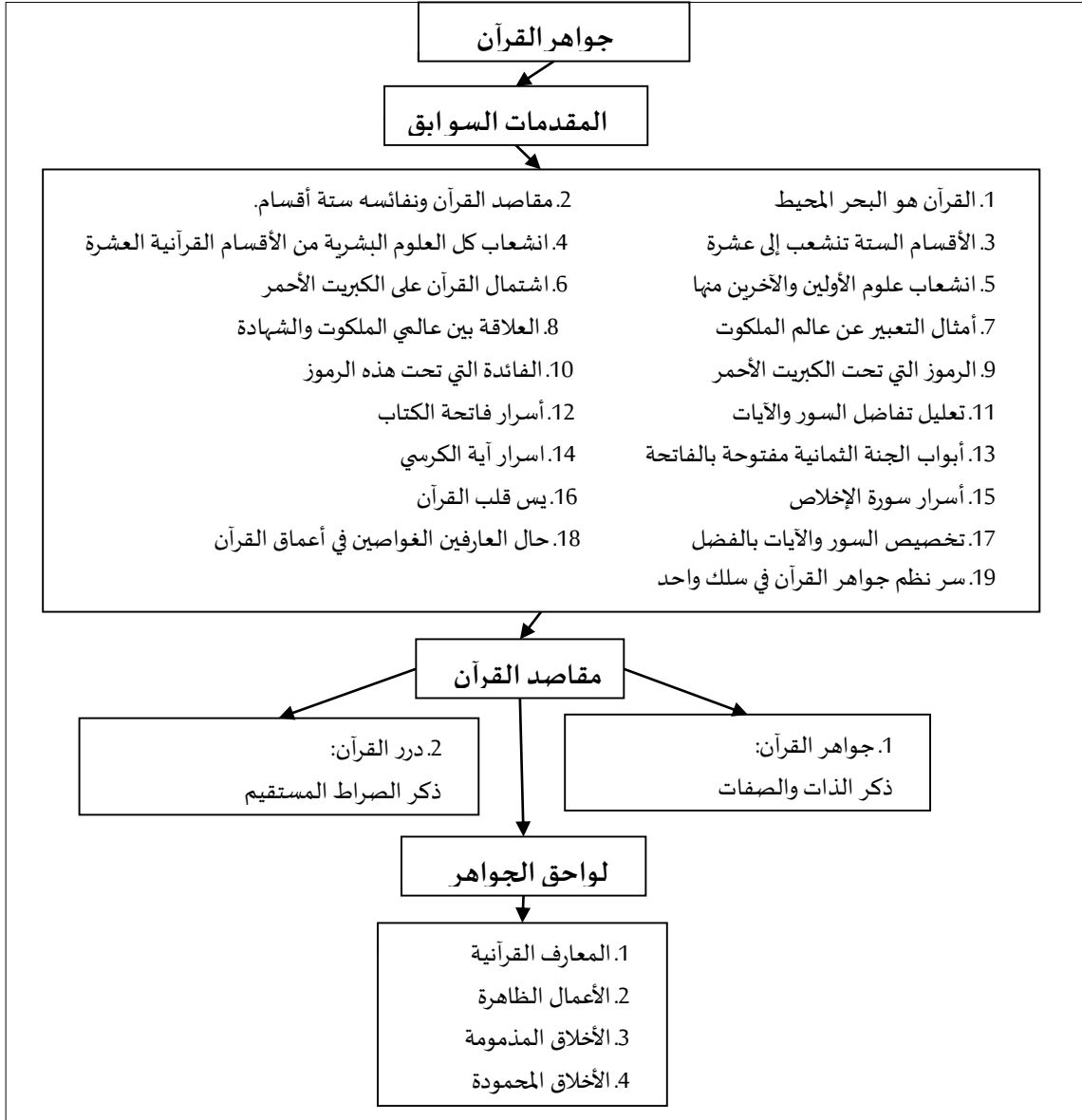
أولاً: قسم المقدمات السوابق: ويشتمل على تسعة عشر فصلاً.

ثانياً: قسم المقاصد: ويشتمل على لباب آيات القرآن، وهي على نمطين؛ نمط أول من الجواهر التي تخص الذات الأقدس

ونمط ثان من الدرر التي اتصلت ببيان الصراط المستقيم، وشرح الطريق القويم

ثالثاً: قسم اللواحق: ويشتمل على أربعة أقسام جزئية؛ قسم المعارف، قسم الأعمال الظاهرة، قسم الأخلاق المذمومة،

وقسم الأخلاق المحمودة.



رسم توضيحي 1: تصميم كتاب "جواهر القرآن" وأبرز مضامينه.

3. أصول القراءة النصية عند الغزالي:

13. الأصول المنهجية:

¹ - المصدر نفسه، ص 14-20.

يؤسس الإمام أبو حامد قراءته للنص القرآني على أواليات منطقية من جهة، وذوقية حدسية من جهة أخرى، أما أوالياته المنطقية - وهي التي تهتمنا في هذا المقام - فتنتقل من الحقيقة الراسخة القاضية بعلوية الوحي، فهو كلام الله، الموصوف بالنور والشفاء والهدى¹، وتحقيق ذلك في دلالاته الإجمالية لا في دلالاته التفصيلية²، ومن أجل ذلك توجب على قارئ القرآن أن يمتلك بوصلة كاشفة تهديه الطريق، كي لا يضيع أو يشرذم، وعلى هذا الأساس اجتهد الإمام أبو حامد في نظم ما أسماه "عقد المقاصد القرآنية". فهو عقد متظام متظافر، وفي نظامه ترتيب أنيق، وتراتب دقيق، يليق بلمح العلوية الذي ينبغي أن يظل القارئ مشدودا إليه كل لحظة، وبهذه الكيفية ترجى منافع التلاوة، ويذوق الإنسان لذة الحلاوة، تلکم اللذة التي طالما وعد بها البارئ الحكيم سبحانه، وأكثر من ذكرها المصطفى الكريم في طرف طيب من كلامه الشريف.

فللنص بوصفه نصًا، أي: قائمة منتهية من الرموز المقصودة، مظهر صوري منطقي تتحقق فيه الدلالات الكلية للجمل والعبارات حسبما تقتضيه ضوابط المنطق اللغوي³، ثم إن له تجليا دلاليا تفرضه علوية مصدره⁴ وهي الدلالة المتجاوزة التي حاول الإمام الغزالي تقريبها بواسطة المثال المركب المتحرك الذي أتقن استخدامه في هذا المصنف الفريد.

إن المنهجية التي اتبعها الإمام الغزالي في حصر المقاصد القرآنية تصلح أنموذجا عمليا لنظريته القاضية بأن علوية النص تقتضي وضوح رسالته، وهذا الوضوح يتأسس على معاني شاملة متجاوزة لازمانية ولا مكانية. ولقد شرح المفكر سيد نقيب العتاس هذا البعد التجاوزي فيما أسماه "الاقتلاع التاريخي" الذي أحدثه القرآن الكريم على مستوى وعائه الخطابي أي: اللغة العربية، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة متنوعة، منها أن الترجمة المباشرة على مستوى المفاهيم مستحيلة تقنيا، وباعثة لفروع من المشكلات الدلالية والثقافية العويصة، فإذا لاحظنا كلمة قرآنية أساسية كثيرة الدوران في المصحف الشريف نحو كلمة "دين" لوجدنا شعاعها الدلالي شاملا أربعة مستويات على الأقل: المديونية، الحكم، الاستسلام، والفترة. وكل واحد من هذه المعاني الأربعة كلي بالنسبة لما يتصل به ويتفرع عنه⁵.

ثم يختار الغزالي الاصطلاحات الواسعة ليحقق فكرته المبتكرة حول خلود المعاني القرآنية وشمولها من جهة، ثم ربطها بين طرفي العالمين من جهة أخرى؛ عالم الملكوت وعالم الشهادة. وفي تسمية المقصد القرآني الأسى والمرجع الأقصى ب: "السّر المكنون" استخدام رمزي منطقي يتيح أن يبني عليه تسلسلا مفاهيميا على هيئة معمار دلالي لبناته اصطلاحات أخرى مقصودة في مواضع معدودة. وطبقا لهذا الاقتراح يمكن لقارئ القرآن أن يستأنس دوما بهذا المعمار الدلالي في مخيلته؛ لأنه ممكن التطبيق على كل نص قرآني جزئي كالسور المفردة أو الآيات الموقوف عليها. ولنلق فيما يأتي نظرة على هذا المعمار الدلالي الذي هو ناتج إجراءات الحصر العقلية المنطقية كما وظفها الإمام أبو حامد فيما يخص المقصد القرآني الأسى وما يتفرع عنه.

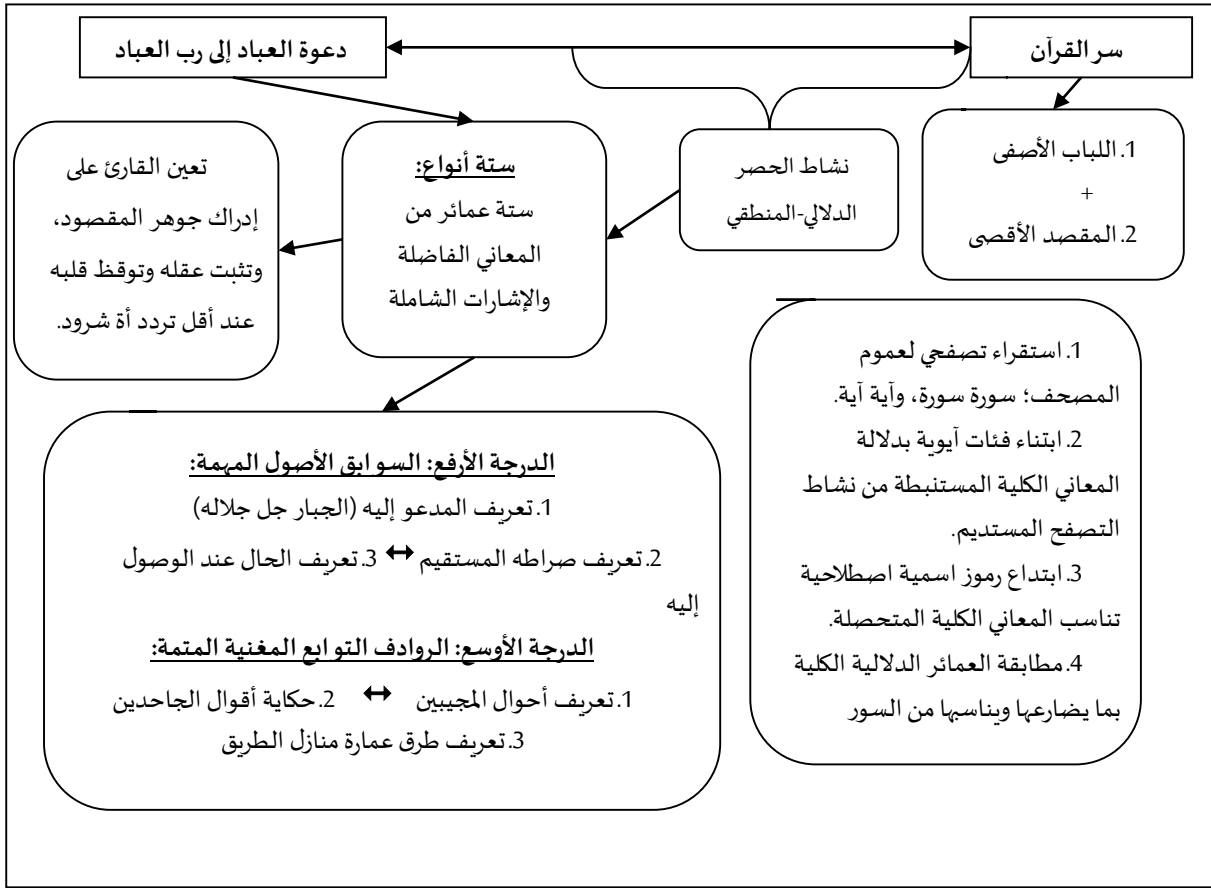
¹ - وصف القرآن الكريم بهذه الأوصاف وغيرها، كما هو ظاهر متظافر في الذكر الحكيم، وجلها أوصاف فسيحة رحبة تتجاوز الصندوق اللفظي الضيق، والصندوق الدلالي المعجمي المحدود.

² - حقق الإمام أبو حامد هذه الموضوعية وزادها تنظيما وقوة برهانية في كتابه الحافل "المستصفي" في علم الأصول، وهي حقيقة مطبق عليها عند علماء الأصول، على اختلافات طفيفة في صياغة البرهان وصراحة العبارة. يراجع: أبو المعالي الجويني (ت 478هـ)، البرهان في أصول الفقه، تج: عبد العظيم الديب، منشورات جامعة قطر، ط1: 1399هـ، ج1: ص84، 166-159. وأبو حامد الغزالي، المستصفي من أصول الفقه، تج: حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة للطباعة، ط1: 1413هـ/1994م، مج: ص23-24، 64-74.

³ - للمنطق اللغوي كونه فرعاً من المنطق العام معنيان: ضيق وواسع، فالأول يتعلق بالحد والاستدلال وصحتهما وكيفية صياغتهما لهذا الغرض. أما المعنى الواسع فيدخل في مجاله الدلالي كل الوسائل العقلية المعتمدة في إجراءات البحث العلمي، بما في ذلك الجوانب التأسيسية للبحث المتعلقة بنظرية المعرفة العلمية. ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، ط1: 2012م، ص8.

⁴ - اجتهد العلماء المسلمون منذ ربعان الدين وبزوغ الإسلام في ابتناء استدلالات حسنة على هذا المعنى، ومن واصل هذا الدرب النافع في زماننا الحاضر نذكر: السيد محمد نقيب العتاس، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، تر: محمد طاهر الميساوي، نشر المعهد العالي للعالمى للفكر والحضارة الإسلامية، ماليزيا، ط1: 1420هـ/2000م. وعلي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، تر: محمد يوسف عدس، نشر مشترك: مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ميونيخ، ألمانيا، ط1: رجب 1414هـ/1994م. وفاضل صالح السامرائي، نبوة محمد من الشك إلى اليقين، نشر: مكتبة القدس، بغداد، ومكتبة البشائر، عمان-الأردن، د.ت.

⁵ - سيد محمد نقيب العتاس، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص75-85.



رسم توضيحي 2: المعمار الدلالي للقراءة النصية القرآنية التناظرية.

2.3. الأصول العرفانية:

1.2.3. المشرب التربوي الأبوي:

إن حصر أعمال الإمام أبي حامد الذي أثبتناه في أول البحث، إضافة إلى الملامح الوجيزة المذكورة حول حياته وتقلباته كلاهما يذكّر بالموارد الأمين، والينبوع المعين الذي ظل هذا الإمام ينهل منه، مغترفا حيناً، ومغتسلاً أحياناً، وكان همه وجل ما يشغله أن ينقل للقارئ طرفاً طيباً، وعرفاً نافعا من تلك التجربة الذوقية الراقية، هذا القارئ الذي رسمه أبو حامد بأسلوبه الفني ومخياله الأدبي القصصي طالب علم مرة، ورحالة مغامرا مرة أخرى، وفي كل أحواله كان معه مقياساً للمعلم العارف الذكي ونبراساً للمعنى التربوي الأبوي.

إن أبا حامد في صدوراته وتخريجاته النافذة العميقة، يحاول جهده أن يتقمص الفحوى الدلالي والبعد العملي الذي يحتاجه كل دارس للكتاب العزيز، وهو المطلب الذي أكد عليه البارئ الحكيم سبحانه وتعالى في ذات النص العلوي الزكي، وأكد عليه شاهدا الحال والمقال من سيرة رسوله الصفي الجلي. جاء في حديث طويل رواه الإمام مسلم في صحيحه، خبر الصحابي الجليل سعد بن هشام بن عامر حين قدم المدينة، فأتى أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- يسألها بعض المسائل، فقال فيما قال: يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالت: أأنت تقرأ القرآن، قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله -صلى الله عليه وسلم- كان القرآن. قال (سعد): فهممت أن أقوم ولا أسأل أحدا عن شيء حتى أموت¹.

¹ - رواه مسلم في صحيحه، ح/746. وأخرجه الإمام أبو يعلى برواية أخرى جيدة الإسناد، ح/275/8.

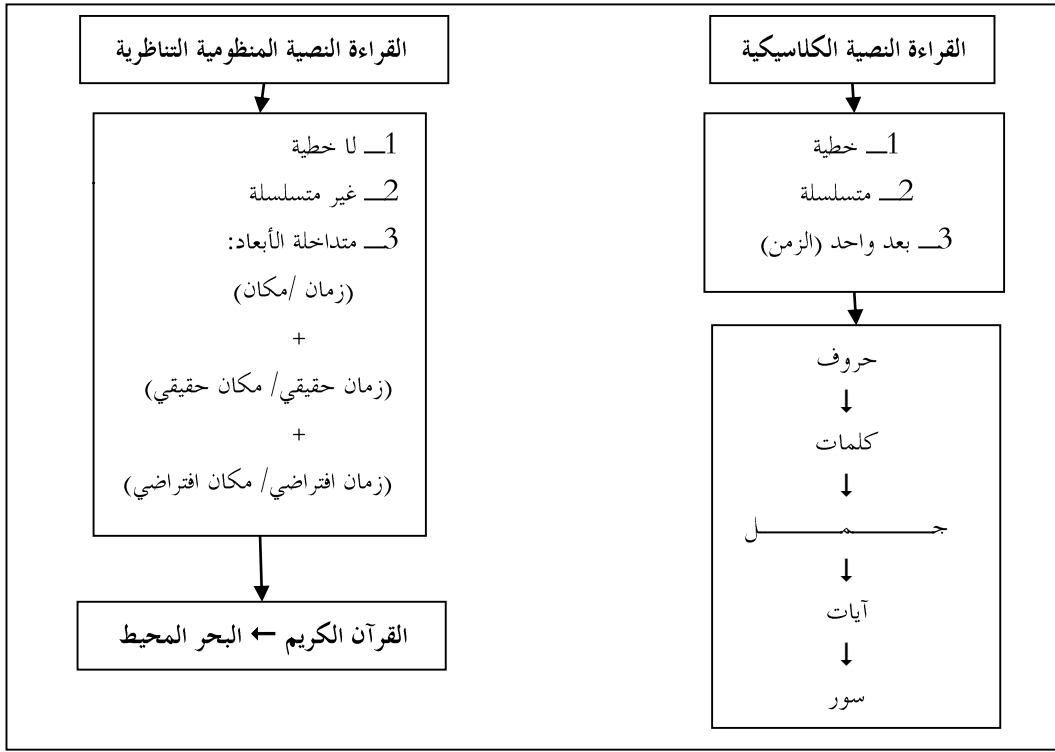
2.23. المقترب النماذجي الأمثولي:

أبدى الإمام أبو حامد اهتماما فائقا بضرب المثل، وأظهر علو كعب لامشاحة فيه كلما استعان بالطاقة اللغوية الرمزية لتأسيس محاولاته التقريبية بين العالمين؛ عالم الشهادة وعالم الملكوت، وهما العالمان اللذان ينساب بينهما النظم القرآني الحكيم انسيابا سلسا فيه صعود ونزول متكرر، لذلك أخبر القارئ الافتراضي بأنه لن يصل إلى أي نفع من قراءته الخطية المنتظمة مهما أدمن التلاوة، ومهما أوتي في اللسان من طلاوة، وفي الصوت من نداوة وحلاوة. ويدعوه بصيغة الأمر الزاجر المشفق أن يهدم كل تلك المباني الخطية التي تتراقص أمام ناظره، وأن يشحذ الهمة، ويصعد القمة، في مطالبة بعصف ذهني وعاصفة عاطفية.

وبعد أن هدم الغزالي البناء الخطي الكلاسيكي الذي يشترك فيه كل كتاب، طالب أولى النهى والألباب أن يجرو معاوضة تمثيلية قائمة على الاستشعار التخيلي، تقترح هذه المعاوضة أن كل رسم يقابله رمز، والرسم الكلي أي: القرآن الكريم كله يقابله "رمز كلي" هو أساس الرموز، وكنز الكنوز. وبهذا يكون أبو حامد قد اشتغل على ثلاثة أبعاد مترابطة في زمن تحليلي واحد؛ البعد الأول قائم على المعاوضة الاستعارية بين البنى الخطية والبنى الإشارية القصصية، والبعد الثاني ممسك بروابط العلاقات المنطقية والمقابلات الدلالية القائمة بين البنائين، والتي لولاها لما قامت لهذا المثل قائمة في ذهن القارئ، أما البعد الثالث فإنه يرقب المطابقة الضرورية في كل حركة يتحركها المثل، وتؤديها رموزه بين العالمين المتداخلين المتفارقين؛ عالم الشهادة وعالم الملكوت.

3.23. المقاييس الناظمة للاستعارات والرموز:

يقدم الإمام أبو حامد في كتابه "جواهر القرآن" اجتهادا فريدا في باب التدبير القرآني، وقد استعان لبلوغ هذه الغاية بمنظومة قائمة من الاصطلاحات الرمزية، وعمل على مطابقتها بالمسرد القصصي المتحرك الذي ضربه مثلا موازيا، ولذلك يمكن القول بأن هذا الاجتهاد يعرض مقارنة بين نموذجين من القراءة النصية؛ نموذج أول منطوي على قراءة خطية كلاسيكية، ونموذج ثان قائم بقراءة لاخطية تؤطرها منظومة تناظرية من الرموز والمثل والاستعارات، تخلق كونا تخيليا هو بالنسبة للقارئ المغامر شيء جديد مع أنه وثيق النسبة بالمعنى النبوي الزكي الذي أشار إلى القرآن المسطور والقرآن المتكون المنظور وإلى القرآن المتجسد الذي هو النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- في أعظم أحواله وأرقى أدواره، تصديقا لموعود الله تعالى إياه حين خاطبه بلسان التكريم ونداء التفخيم: "وإنك لعلی خلق عظیم".



رسم توضيحي 3: نموذجان من القراءة النصية؛ الكلاسيكي والمنظومي التناظري.

4. نتائج الدراسة:

قدم الإمام أبو حامد الغزالي اجتهادا قويا يناسب الدعوة الربانية المتكررة إلى تدبر القرآن وإدامة النظر في آياته لبلوغ مقاصده وغاياته، قال الحق تبارك وتعالى: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" (29). والمميز في هذه القراءة أنها ترجمة لمرحلة متقدمة من النضج الفكري والتهيؤ المعرفي الذي بلغه الإمام أبو حامد بعد رحلات طويلة وجولات عديدة في ثنانيا الزمان والمكان والوجدان.

وأول ما نخلص إليه من هذه التجربة القيمة أن القرآن كلام علوي أنزله السيد الأمر العلي على نبيه المختار الزكي، فهو كمال على كمال، وجلال على جلال، فلا غرو والحال كذلك أن قراءته لا تكون كسواها من القراءات، ولا سيما من كان يقرأه راجيا النفع والزداد، فمن هذا المنطلق الأصيل يقدم الإمام أبو حامد برهانه الأقوى، وحجته الماضية على ضرورة التجديد القرآني في الوحي الحكيم، وهو تجديد ينبغي أن تلوح سماته، وتظهر آثاره وعلاماته على كل ما سواه من المقروءات.

وهذه هي الخلاصة الثانية التي نصدر بها أعني ضرورة استثمار هذه الأفكار الطريفة المبتكرة التي طبقها الإمام أبو حامد على الوحي المقدس المعصوم في ابتناء نماذج لتحليل النصي المنظومي-التناظري على الصعد العلمية البحثية، والصعد التعليمية التربوية، فإن لهذا النمط من التحليلات أثارا حميدة وتأثيرات مفيدة تتخطى المقاصد التثقيفية المباشرة لتصل المورد بالمشرب وتحقق تطلعات معرفية، وتأسيسات منطقية منهجية طالما حام حولها الدارسون في مختلف فروع المعرفة الإنسانية.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن، تح: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط2: 1406هـ/1986م.
2. _____، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان ط1: 1426هـ/2005م.
3. _____، المستصفي من اصول الفقه، تح: حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة للطباعة، ط1:

1413هـ/1994م.

4. أبو المعالي الجويني (ت 478هـ)، البرهان في أصول الفقه، تح: عبد العظيم الديب، منشورات جامعة قطر، ط1: 1399هـ.
 5. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع و المؤانسة، القاهرة، 1939م.
 6. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي للحضارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1983م.
 7. بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، د.ت.
 8. بيتر كونزمان و آخرون، أطلس الفلسفة، تر: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط2-2007م.
 9. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة السعودية، ط1: 1426هـ.
 10. زتسيسلاف واورزنيال، مدخل إلى علم النص، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، ط2: 1431هـ/2010م، القاهرة.
 11. سيد محمد نقيب العظاس، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، تر: محمد طاهر الميساوي، نشر المعهد العالي العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، ماليزيا، ط1: 1420هـ/2000م.
 12. سنن الإمام الترمذي (الجامع الكبير)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1: 1996م.
 13. صحيح الإمام البخاري، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط1: 1423هـ/2002م.
 14. صحيح الإمام مسلم، تح: نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، المدينة المنورة، ط1: 1427هـ/2006م.
 15. صابر الحباشة، التداولية و الحجاج، صفحات للدراسات و النشر، دمشق، ط1، 2008م.
 16. طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م.
 17. —، تجديد المنهج في تقويم التراث، —، ط2، 1994م.
 18. طيب تيزيني، الفكر العربي في بواكيره و آفاقه الأولى، دار دمشق، ط1، 1982م.
 19. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: عبد السلام الشدادتي، بيت الفنون و العلوم و الآداب، الدار البيضاء، ط1، 2005م.
 20. عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، ط1: 2012م.
 21. علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، تر: محمد يوسف عدس، نشر مشترك: مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ميونيخ، ألمانيا، ط1: رجب 1414هـ/1994م.
 22. فاضل صالح السامرائي، نبوة محمد من الشك إلى اليقين، نشر: مكتبة القدس، بغداد، ومكتبة البشائر، عمان-الأردن، د.ت.
 23. فيليب بلانشيه، التداولية من أوسطن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2007م.
 24. محمد بن قيم الجوزية، الأمثال في القرآن الكريم، تح: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ط1: 1981م.
- 1_ Encyclopedia of Language and Linguistics, Elsevier, UK, 2nd Edu, 2006.
2_ Routledge Dictionary of Language and Linguistics (Gregory .p et Al), Routledge 1st Pub, 1996.

التراث التفسيري في الجزائر: مخطوط "الابريز والاكسير في علم التفسير

لأبي راس الناصري المعسكري" - دراسة لغوية بلاغية -

د. عبد الكريم حمو

المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران- الجزائر

الملخص:

نريد في هذه الورقة العلمية أن نبرز منهجية التفسير القرآني التي اعتمدها الشيخ أبو راس الناصري من خلال مخطوطه "الابريز والاكسير في علم التفسير الذي يضم تفسيراً لسورتي الفاتحة والبقرة، ونتعرف أيضاً على أهم المضامين الفكرية والقضايا اللغوية والبلاغية التي طرحها الشيخ في تفسيره، أخذين بعين الاعتبار طريقتيه في الكتابة ومنهجه في التأليف، بحيث راهن في كتابته على إثبات الدليل والحجة، بأسلوب حجاجي ومنطقي يستند على الشاهد القرآني والسني... مراجعاً مقولاته من المصادر التراثية وعلماءها الأفاضل سواء القدماء أو من أهل زمانه.

الكلمات المفتاحية:

منهجية، التفسير، اللغة، البلاغة، أبو راس الناصري

Heritage interpretation in Algeria: Manuscript "Al-ibriz wa Al-iiksir in the science of interpretation" of Abu Ra's al-Nasiri - Linguistic and rhetorical study

Abstract:

In this paper, we are highlighting the methodology of the Quranic interpretation adopted by Sheikh Abu Ra's al-Nasiri through the manuscript "Al-ibriz wa Al-iiksir in the science of interpretation" Which includes Interpretation of Surah Al-Fatihah and Sourat Al-Bakara. We also identify the most important intellectual contents and linguistic and rhetorical issues taking into consideration his method of writing. He focuses in his writings on the proof of evidence and argument; employs accurate and concise information in a logical way based on transfer (Quranic and Sunni proofs) and reason (logic and elicitation); refers to heritage sources and scholars (both those from previous era and his contemporaries)

Keywords:

Methodology, Interpretation, Language, Eloquence, Abu Ra's al-Nasiri

أهداف الدراسة:

- 1- تناول علما من أعلام الجزائر ، وكاتباً مرموقاً اشتهر بقلمه السيال في جميع العلوم الإنسانية والأنثروبولوجيا، وخاصة مجال التفسير القرآني دراسة وتحليلاً.
- 2- أقدم بحثاً تطبيقياً أعرض فيه بعض المسائل اللغوية بما يخدم الباحثين والدارسين في علم التفسير.
- 3- أبرز منهج الكتابة ودواعي التأليف وخصوصيتها عنده.

مشكلة الدراسة:

تتجلى مشكلة الدراسة في الإجابة عن سؤال عام هو: ما هو المنهج المتبع في التفسير؟ وما هي المسائل اللغوية والبلاغية التي أثارها أبو راس الناصري في مخطوطه الموسوم بـ "الإبريز والإكسير في علم التفسير" ويتفرع منها الأسئلة التالية: ما هي مصادر التفسير التي استعان بها أبو راس الناصري؟ وما هو الجديد الذي أثاره وانماز به دون غيره من المفسرين؟

الدراسات السابقة:

لحد علمي - حتى الآن- لم أجد دراسة علمية منشورة عالجت بالدرس والتحليل والمناقشة هذا المخطوط، سوى رسالة جامعية حول: "الإبريز والاكسير في علم التفسير لأبي راس الناصري الجزائري (دراسة وتحقيق)، إعداد الطالب: عبد العزيز بومدين، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 01، ومقال منشور في مجلة المخطوطات الجزائرية، بكلية الحضارة الإسلامية جامعة وهران، حول: "مخطوط الإبريز والاكسير لأبي راس الناصري، الأستاذة موصدق خديجة، وبعض النصوص حول المخطوط ككلام سعد أبو القاسم في تاريخ الجزائر الثقافي، وبحث للشيخ عابدين بن حنيفة حول حياة أبي راس.

منهج الدراسة:

نعمت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي، وذلك ببيان موقف أبي راس الناصري وبعض آراء المُفسِّرين وتحليلها، وتبيان التعاليق والتوجيهات المنضوية تحت كل تسمية واصطلاح، مكتفياً بضرب بعض الشواهد التطبيقية تقريبا للفهم والاستيعاب.

أولاً: الميلاد والنشأة

1- مولده¹:

ولد أبو راس محمد بن أحمد بن الناصر الراشدي² بقلعة بني راشد، قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري، بين جبل كرسوط وهونت، وقد اختلف جل المؤرخين حول تاريخ ميلاده فمنهم من يقول أنه ولد يوم 08 صفر 1165 هـ، الموافق لـ 27 ديسمبر 1751 م، ذكره الشيخ عبد الرحمان الجيلالي في تاريخ الجزائر العام³، والمؤرخ أبو القاسم سعد الله⁴، والشيخ المهدي البوعبدلي... وتوفي رحمه الله يوم 15 شعبان 1238 هـ الموافق لـ 27 أبريل 1823 م، عن سن يجاوز التسعين ومزاره مشهورة للتبرك به⁵، ودفن بمعسكر على شاطئ النهر الفاصل بين داخل البلد وقربة بابا علي، وعليه بناء مشهور⁶.

2- شيوخه:

تتلمذ أبو راس الناصري على مجموعة من العلماء والمشايخ كان أبرزهم على سبيل المثال:

* والده الفاضل الشيخ أحمد بن أحمد بن الناصر، شريف النسب الذي حفظ عنه معظم المصحف الشريف بداية من سورة الانفطار ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾⁷ إلى غاية مطلع الآية ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾⁸ من سورة البقرة⁹، وهنا تظهر براعة التأثر والتقليد التي نجدها في نفس الابن (أبي راس) وسنن الاقتداء.

* الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، نشأ بقربة الكرط قرب ولاية معسكر، كان يدعى بشيخ الجماعة وإمام الراشدية، تتقف على يد علماء المنطقة وبعدها عُيِّن مدرسا بمعهد الشيخ محيي الدين في زاوية القيطننة بوادي الحمام مدة من الزمن، توفي

¹- لم تفصل في سيرته الذاتية كثيرا ولم نسر رحلاته العلمية ومناظراته، اجتنابا للتكرار والتقيد بموضوع البحث المشتغل على "التفسير".

²- الوطن الراشدي: أو اقليم بني راشد، يمتد نحو خمسين ميلا من الشرق الى الغرب وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلا، جهته الواقعة جنوبا كلها سهول والواقعة شمالا كلها تقريبا مرتفعات، لكن راضيها معا صالحة للزراعة. ينظر: الحسن الوزاني، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الاسلامي، ط2، بيروت، 1985، ص 26.

³- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط5، 1997، 429/3.

⁴- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 58/1.

⁵- بلهاشي بن بكار، حاشية رياض الزهدة ضمن مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون، الجزائر، 1961، ص 13.

⁶- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برحال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 168/2.1906.

⁷- سورة الانفطار، الآية: 1.

⁸- سورة البقرة، الآية: 253.

⁹- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص

رحمه الله سنة 1192هـ/1778م بضواحي معسكر، وقد شارك في مقاومة نصارى الاسبان بوهران¹، صاحب كتاب بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الأعراب كبنى عامر².

* الشيخ العربي بن نافلة الذي أفنى عمره بين تلاوة القرآن ودراسة العلم، صاحب الأصول والفروع، حافظ معاني الشيخ سيدي خليل بن إسحاق المالكي، قرأ عليه المختصر ثلاث ختمات في ثلاث سنوات، كما درس على يد ابنه أحمد بن نافلة، فكان هذا الأخير يُفهمه كل ما أشكل عليه من فهمه في مجلس أبيه³.

* الشيخ محمد الصادق بن أفغول وكان من أجلاء شيوخ أبي راس، خبيراً بعلم الشريعة، جامعاً بين العلم والدين، صاحب مدرسة مازونة الشهيرة، و الذي يقول عنه أبو راس: "انتهت إليه رئاسة التدريس، وشُدَّت إليه الرحال من زاوية وغريس"، كان جامعاً للفنون وعلومها، بارعاً في معرفة الحديث على أهله ومنفرداً بهذا الفن النفيس في زمانه⁴.

* الشيخ محمد بن جعدون قاضي مدينة الجزائر، وهو شيخ الجماعة بالجزائر بن عبد الله محمد، يقول عبد الحي: "وقفت على إجازة الشمس له الحنفي له بالطريقة بتاريخ 1171م، وله ثبت نسبه له الشيخ السنوسي"⁵.

* الشيخ القاضي عبد الرحمن التلمساني، عالم بالمذاهب الأربعة، رحل إلى مصر وأخذ عن الستمان ومحمود الكردي⁶.

* الشيخ المفتي أحمد بن عمّار بن عبد الرحمن الجزائري، اشتغل بالحديث والتاريخ، وُلد ونشأ بمدينة الجزائر، ووُلِّي الإفتاء بها، له الرحلة الحجازية وغيرها من المؤلفات⁷.

3- تلامذته:

لا يمكن حصر تلامذة الشيخ أبي راس الناصري، لأن ما تركه من ميراث فكري وزاد علمي لا يمكن أن تحمله فئة مخصوصة عن غيرها، فكل من قرأ تراثه صار تلميذاً مُنصتاً لما يقوله، ولعل التلمذة المشارة هنا، من جلس بين يده وسمع من فاه شيخه إلى مسامع أذنه، ومن هؤلاء نذكر:

* الشيخ أبو حامد العربي المشرفي، وهو العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي الحسني الغريسي حفيد عبد القادر المشرفي، ولد بغريس بنواحي معسكر⁸، صاحب كتاب ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بمولى مجاجة⁹.

* الشيخ محمد العربي بن السنوسي، كان مدرّساً للقرآن الكريم برواية ورش، و مدرّساً لبعض الفنون، أخذ عنه العلم محمد بن علي السنوسي وولده سيدي محمد¹⁰.

* الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي الخطّابي الحسيني الإدريسي مؤسس الطريقة السنوسية، ولد بتاريخ (1202هـ/1276م) بمستغانم، ونشأ في بيت علم ودين وفضل، ومن بين تأليفه "الدّرر السنيّة في أخبار السلالة السنوسية"

¹- أبو راس الناصري، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، تحق: حمدادو بن عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 71.

²- حققه محمد بن عبد الكريم ونشره كما نشر مترجماً إلى الفرنسية في المجلة الإفريقية سنة 1925م.

³- فتح الآله، ص 44.

⁴- أبو راس الناصري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، حمدادو بن عمر، منشورات مركز البحث crasc، 2016، ص 20.

⁵- المرجع نفسه، ص 20.

⁶- نفسه، ص 21.

⁷- نفسه، ص 21.

⁸- ينظر: بوكعير تقي الدين، دراسة وتحقيق مخطوط للعربي المشرفي في الرد على أبي راس الناصري في قضية نسب أسرة المشرفة، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، رسالة ماجستير 2014، ص 92.

⁹- ظاهر الكتاب أنه في ترجمة محمد بن علي اهللول مولى مجاجة، إلا أنه كتاب يتناول ظاهرة الشرف بتقعيد جيد ومادة اصطلاحية مقبولة، يعيد ترتيب وتوزيع الأنساب في منطقة غريس تحديداً وفقاً للشهرة المتواترة، وهو أسلوب مختلف من ناحية التأليف عن سابقه، ويركز على هوية قبيلته المشارف بالتدقيق وأكثر تفصيلاً.

¹⁰- أبو راس الناصري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، ص 21.

والمسائل العشر المسماة: "بغية المقاصد و خلاصة المراصد" (مطبوع)، و"الشمس الشارقة في أسماء مشايخ المغاربة والمشاركة"¹.

* الشيخ محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي، كان كاتباً لدى الباي محمد بن عثمان الكبير الكردي وعين مساعداً لرئيس رباط إيفري بوهرا ن خلال الحصار الثاني عليها، عام 1206 هـ (1791.1792 م)، وكلفه الباي بتسجيل حوادث الفتح كلها فسجلها، وجمعها في كتاب سماه: "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"، أتمه في نفس العام، ويعتقد أنه هو نفسه كتاب: "فتح وهران" لأن موضوعهما واحد على ما يبدو، وبعد فتح هذه المدينة وتحريرها، عين قاضياً بها إلى أن توفي بالطاعون عام 1215 هـ (1800-1801 م)².

* الشيخ أبو عمرو عثمان بن محمود الهزاري نسبا، القادري طريقة، البغدادي منشأ وموطناً، قديم من بغداد واستقر بمدينة تازة المغربية فُعرف بـ: "التازي"، أجازه أبو راس بثبته "السيف المنتضى فيما روته بأسانيد الشيخ المرتضى، توفي رحمه الله فيه (1238هـ)³.

* الشيخ بن عبد القادر بن السنوسي بن عبد الله بن دحو بن زرفة⁴.

4- مؤلفاته العلمية:

خلف العالم الجليل أبو راس الناصري زاد معرفياً كثيراً، ولا يتسع الوقت للتفصيل فيها، وعرض مضامينها وموضوعاتها، وهي مرتبة في "فتح الآله" منها:

"مجمع البحرين" في ثلاثة أسفار⁵، و"تقي على نظم الخراز في الرسم" و"الدّر اللوامع" و"مفاتيح الجنة وأسناها في أحاديث اختلف العلماء في معناها" و"السيف المنتضى فيما روته بأسانيد الشيخ مرتضى" و"الآيات البيئات في شرح دلائل الخيرات" و"درّة عقد الحواشي على جَيِّدِ شرحي الزُّرقاني والخراسي، وفيه أربعة أو ستة أسفار، وقد تكلم فيها عن كبار العلماء أمثال: الشيخان الراسخان الشامخان، سيفا السنة الأمضى، منحهما الله العفو والرضى: الفقيه الأصفى الشيخ مصطفى، ومحشي الزرقاني، محمد بن الحسن البناني⁶، وله "المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك"، و"الأحكام الجواز في نبد من النوازل" و"تشنيف الأسماع في مسائل الإجماع" و"حاشية على شرح المحلى لجمع الجوامع" و"قاصي الأوهاد في مقدمة الاجتهاد" و"كفاية المعتمد ونكاية المنتقد على شرح الكبرى، ويقصد بـ الكبرى" بـ "العقيدة السنوسية الكبرى" أو "عقيدة أهل التوحيد المخرجة بعون الله من ظلمات الجهل وربقة التقليد، المرغمة بفضل الله تعالى أنف كل مبتدع وعنيد" للإمام محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني، وهي تتعلق بالتوحيد، وله كتاب آخر بعنوان: "العقيدة الصغرى" والمسماة بأمر البراهين" لخص فيها مفهوم العقيدة على طريقة أبي الحسن الأشعري، وله كتاب بعنوان "العقيدة الوسطى" وهي اختصار لكتابه العقيدة الكبرى⁷، وله "شرح العقد النفيس في

¹- المرجع السابق، ص 20.

²- ينظر: الأغا بن عودة المزارى، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 34/1.

³- أبو راس الناصري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، حمدادو بن عمر، ص 22.

⁴- ينظر: أبو راس الناصري، إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم، تحق: حمدادو بن عمر و بوسلاح فايزة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص

23.

⁵- ينظر: أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص 180.

⁶- نفسه، ص 179.

⁷- ينظر: عبد الفتاح عبد الله بركة، شرح السنوسية الكبرى، دار القلم، ط 1، 1982، ص 4.

ذكر الأعيان من أولياء غريس " وشرح آخر هو في الأصل شرح على شرح يسمى "فتح الرحمن بشرح عقد الجمان" (1) كاتبه هو محمد الجوزي الراشدي (2) فوضع عليه الناصري شرحا سماه "شرح الجمان للشيخ عبد الرحمن" (3). ويكتب مختصرا عقد الجمان النفيس بيد أن ابن سودة ذكر للناصرى شرحا آخر سماه "إيضاح الغميس وأنوار البرجيس بشرح عقد الجمان النفيس" (4)، وله "الزهر الأكم في شرح الحكم أو فتح الإله في التوصل إلى شرح حكم ابن عطاء الله"، و"الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي" (5)، وهو مخطوط موجود بالمكتبة الوطنية الحامة، وقد اشتغل عليه الشيخ عابدين بن حنيفة، ولكن لم يكمل تحقيقه، واكتفى بدراسة شخصية أبي راس وذكر حياته ومنهجه في التأليف، وله أيضا "الدرة اليتيمة" (6)، "الحاشية الكبرى على شرح المكودي"، "النكت الوافية بشرح المكودي على الألفية"، و"عماد الزهاد في إعراب كلا شيء وجئت بلا زاد" (7) و"نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة" (8) و"ضياء القابوس على كتاب القاموس"، وله ضابط اختصره من "الأزهري على قواعد القاموس والجوهري". ولأبي راس شرحان للمقامات الحيرية هي "الزهوة الأميرية في شرح المقامات الحيرية" و"الحلل الحيرية في شرح المقامات الحيرية" (9)، كما له "البشائر والإسعاد في شرح بانة سعاد"، و"نيل الأرب في شرح لامية العرب"، وله "نيل الأمانى على مختصر سعد الدين التفتازاني" (10)، وهذا الكتاب مختصر علم المعاني لسعد الدين التفتازاني من أعلام اللغة والبيان من بلاد خرسان، وله "القول المسلم في شرح السلم"، وقد ذكر أبو راس في الفتح أنه حذا فيه حذو أهل المعقول الجهابيد أهل الميزان الأساتيد (11)، وهي شرح لمؤلف "السلم المنورق في علم المنطق" لعبد الرحمان بن محمد الأخضرى (ت: 953هـ)، و"شرح مشكلة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولوم لم تمسسه نار" (12)، وله "زهرة الشماريخ في علم التاريخ"، إذ يعتبر هذا المصدر توثيقا تاريخيا للتراث العربي وبخاصة الجزائري، يتناول استقصاء شاملا للأخبار منذ بدء الخليقة إلى البعثة النبوية، كما يتضمن من بين موضوعاته الأخرى عروضا مهمة عن شمال إفريقية وسكانها الأمازيغيين ومآثرهم، خصوصا قبائل البربر، وزناتة، وعن الترك وملوك فرنسا، وملوك الأندلس، وحديثه عن اليونان وبعض قبائل العرب... كما سلك فيه أبو راس منهجا تقليديا على طريقة الإخباريين والمحدثين القدامى، إلا أننا نجد تارة يناقش آراء ابن خلدون، في سياق النقد والرد، ويصوب بعض الآراء التاريخية تارة أخرى، مما دفع علماء عصره بتلقيبه "بحافظ المغرب الأوسط" (13)، وقد قال فيه المؤلف "تكلمت فيه مع ابن خلدون وغيره" (14)، وله أيضا "المنى والسول من أول الخليقة إلى بعثة الرسول"، "درّ السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة"، "ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس".

- 1 - توجد منه نسخة في ملكية الشيخ بشير محمودي في أكثر من 400 صفحة ونسخة في ملكية الشيخ بلقاسم ضيف، وذكره المختار الغريسي بهذا العنوان أيضا كما ذكره أبو القاسم سعد بنفس الاسم ويبدو أنه اطلع على نسخة منه كما سيأتي.
- 2 - هو محمد بن عبد الرحمن ويسمى الجوزي وله مؤلفات أخرى في الفقه والراشدي نسبة لمعسكر قلعة بني راشد.
- 3 - أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص 180.
- 4 - دليل عبد السلام بن سودة المري، مؤرخ المغرب الأقصى، دليل ابن سودة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1997، ص 76.
- 5 - ينظر: أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص 180.
- 6 - ينظر: فتح الإله، ص 180.
- 7 - ينظر: لقطة العجلان، ص 12.
- 8 - فتح الإله، ص 180.
- 9 - لقطة العجلان، ص 123.
- 10 - معجم المفسرين، 670/2.
- 11 - فتح الإله، ص 180.
- 12 - نفسه، ص 180.
- 13 - ينظر: أبو راس الناصري، زهرة الشماريخ في علم التاريخ، ص 19.
- 14 - فتح الإله، ص 180.

كما له مؤلفات مفقودة تناولت القبائل الجزائرية وموضوع الأنساب مثل: "الوسائل إلى معرفة القبائل وكتاب "القصص الفتانة في ذكر البربر وزناتة" وكتاب: "درء الشقاوة في فتنة درقاوة"¹، وكتاب "مروج الذهب في نبذة من النسب ومن انتهى إلى الشرف وذهب" الذي فجر قضية في غاية الخطورة تسببت في إشعال فتنة واحتكاكات بينه وبين علماء غريس في تلك الفترة، دفعت البعض إلى إحراق كتبه واعتباره شخصا غير مرغوب فيه، مما دفع بأبي حامد المشرفي للرد عليه بكتاب سمي "رد المشرفي على أبي راس الناصري"². وله "السيوف القوامع في شرح الدرر اللوامع في أصل مقراً الإمام نافع"، وقد صرح أبو راس أنه شرحة³، وإزالة الألغاز على لثام الطراز، و"اللؤلؤ المنتشر في المذاهب الثمان عشر"⁴، و"رحمة الأمة في اختلاف الأئمة"⁵، و"جزيل المواهب في اختلاف الأربعة مذاهب"⁶، و"الفتح القدوسي في شرح كبرى السنوسي"، وله "النصبا برحمة الله في انعقاد ديوان أهل الله"، وله "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته": حققه، محمد بن عبد الكريم الجزائري، 1986، وله "الحلل السندسية فيما جرى بالعدوة الأندلسية"، وشرحها الأول: "القصص المعرب عن الخبر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب" والشرح الثاني: "غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس مع الكفار"⁷، وقد قام بالترجمة والتعليق عليه الجنرال فوربيجي⁸، ويسمى أيضا "نفيسة الجمال فيما جرى بالأندلس ووهران".... وغيرها.

ثانيا: العلوم المشهورة في وقته:

يندرج هذا التفسير "الابريز والاكسير في علم التفسير" ضمن التفاسير التراثية التي زخرت بها بلاد الجزائر خلال التواجد العثماني 1518-1830 م، حيث ظهرت كتابات متنوعة وحواضر علمية ومجالس للتدريس وتلقين العلوم، وتأتي غاية هذا التفسير كما ذكره المؤلف في: "نفع نفسي لا غير، وأقدم لها ما هو من الأعمال خير. وإلا فمعاذ الله أن أحدث نفسي بالوصول إلى درجة التأليف، وأتكلف ما لم يكن في طوقي من تلك التكاليف، ولكن: نية المرء خير من عمله"⁹، ومن بين المعارف المشهورة آنذاك نجد:

علوم اللغة: اشتهارهم بعلم التصريف والنحو العربي، الإعراب، التنقيط، الاشتقاق، والنقد والنثر والمقامات والعروض، وعلوم البلاغة.

التفسير وشراحه: من الكتب التفسيرية المشهورة حينها، تفسير ابن عباس (ت:68هـ)، وتفسير بن جرير الطبري (ت:310هـ) المسمى "جامع البيان عن تأويل أي القرآن أو جامع البيان في تأويل القرآن"، وتفسير جار الله الزمخشري (ت:538هـ) المسمى "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، وتفسير القرطبي (ت:671هـ) المسمى "الجامع لأحكام القرآن". وتفسير ابن كثير (ت:774هـ)، والإتقان للسيوطي...

¹ مخطوط مفقود، وفيه بعض الروايات تقول إنه موجود في خزانات بعض العائلات بمعسكر.

² ينظر: بوكعب تقي الدين، دراسة وتحقيق مخطوط للعربي المشرفي في الرد على أبي راس الناصري في قضية نسب أسرة المشاركة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، رسالة ماجستير 2014، ص 92.

³ فتح الإله، ص 180.

⁴ نفسه، ص 180.

⁵ ينظر: أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار فيما جرى بوهران والأندلس للمسلمين والكفار، تحقيق محمد غانم، منشورات crasc، وهران، الجزائر، 2005، ص 22.

⁶ نفسه، ص 22.

⁷ فتح الإله، ص 181.

⁸ ينظر: مطبعة بيبير فونطانا الشرقية في الجزائر، 1903.

⁹ أبو راس الناصري، مخطوط "الابريز والاكسير في علم التفسير"، اللوحة رقم 02.

علوم الحديث: صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك والأم للشافعي.. واشتهارهم بحفظ القراءات السبع العشر وحصولهم على السند المتصل واهتمامهم بعلم التجويد..

الأصول والاعتقادات: شرح كتاب الإرشاد للإمام الحرمين الجويني، العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية مع شرح العقيدة البرهانية للسلاجي، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي...

المنطق: الجمل للخونجي والبرهان في المنطق لمحمد حسين الطباطبائي، وشرح مختصر في علم المنطق لمحمد بن يوسف السنوسي..

السير والتاريخ: سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري والمسعودي واليعقوبي وابن الأثير ومقدمة ابن خلدون..

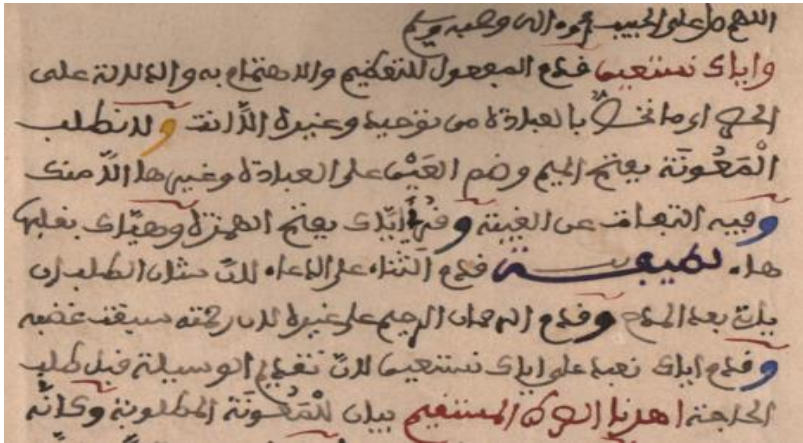
التصوف: كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف لعبد الرحمان الكلاباذي، والرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري، والحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري.. والأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية لعبد الوهاب الشعراني...

ثالثاً: وصف المخطوط:

ورد هذا المخطوط بمسمى 1: "الإبريز والإكسير في علم التفسير"¹، قال المؤلف: "متجنباً فيه الإطناب الممل، والاختصار المخل، فقلما سلم مكثراً، أو أقيل عتاراً، أو ترك الخوض في مثار اللهم صن عن الخبط أوراقاً عليه اشتملت، وعن السقوط ثمر أشجار به احتملت، ويسدنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه، فأقول بحسب ما رزقت من نصيب"².

2: جاء باسم "مجمع البحرين ومطلع البدرين بفتح الجليل للعبد الذليل في التيسير إلى علم التفسير" في ثلاثة أسفار، ما أبركها قربي في كل سفر عشرون حزياً، ذكره في الفتح³.

وهذه النسخة الوحيدة المتوفرة - حسب علي- موجودة بالمكتبة المركزية (الحامة) الجزائر العاصمة، وهي مكتوبة بخط عربي واضح القراءة ومفهومة الصياغة، بخط مغربي جزائري إن صح التعبير، وقد حرص أبو راس الناصري على تثبيت رسم قراءة المشرق⁴، إذ استخدم الخط المشرقي بالرسم العثماني، وحافظ على الكتابة بالطريقة المغاربية (بالنسبة لألف الوصل وجرة الصلة، وتغديرة التسهيل والإبدال والتقليل..)، فهو مكتوب برواية ورش عن نافع على ما قرأ به أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني على شيخه أبي القاسم خلف بن إبراهيم بن محمد بن خاقان... وهذا نموذج من الكتابة:



1- هذا العنوان يشبه كتاب: "الأكسير العزيز بتخريج أحاديث سلسلة الإبريز لابن عطاء الحسيني المكي (ت: 1053هـ)، وهو كتاب جمع فيه صاحبه أربعين حديثاً من جوامع الكلم ولطائف الحكم. ينظر: إسماعيل باشا البغدادي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1/250.

2- مخطوط "الإبريز والإكسير في علم التفسير"، اللوحة رقم 01.

3- فتح الإله، ص 179.

4- أبو راس الناصري مخطوط "الإبريز والإكسير في علم التفسير"، اللوحة رقم 12.

ونجد معدل الأسطر فيها بين 24 و 25 سطر في الكاغط الواحد، وجاءت العناوين والتوجيهات والتنبيهات بخط بارز نوعا ما، وفي بعض المفردات كقوله: "الحمد، أشهد، قوله، المعنى، اعلم، تنبيهات، حرف الواو، قلت، فائدة، لطيفة، اختلف، تنبيه، احتمال إعراب، تذكير..."، وجاءت بلون أحمر ومرة بلون بنفسجي ومرة بلون أصفر، أخضر، أزرق.. بينما لون الصفحات رمادي فاتح، وتكرر في بداية كل صفحة صيغة "اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"، وجاءت في نهاية كل فقرة من الورقة كلمات دالة على بداية الصفحة الثانية وهي عادة المغاربة في كتابة المتون والشروح وبخاصة في حفظ القرآن الكريم على الألواح، كما لاحظنا عدم تنقيط الآيات القرآنية وعدم تشكيلها أو إثباتها من المصحف، ولم نجد ضبطا في الحركات والسكون والهمزات ومواضعها والصلوات ومواقعها والمدود ومواضع التنوين من الألفات والمد والشد والوقف وغير ذلك، أما الملاحظة المسجلة في رسم بعض الحروف هو كتابة حرف (ف) نقطة واحدة فوقه، ورسم حرف الفاء (ب) بنقطة من الأسفل، وعدم تحقيق الهمزة في قوله تعالى: "يَوْمُئُونَ".

ويبدأ الشارح رحمه الله بتقديم تعريف بسيط لعلم التفسير والفرق بينه بين التأويل، ثم يشرع في تفسير البسملة بإيجاز ويليهما سورة الفاتحة ثم سورة البقرة، وقد توقف رحمه الله عند الآية 137 من سورة البقرة عند قوله: "فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ" يا مُحَمَّد. وهذه الصورة نموذجاً عن طريقة الكتابة التي اعتمدها المؤلف.

سورة الفاتحة



سورة البقرة



ويبرر أبو راس أنّ غاية التفسير هو الاستفادة من أقوال العلماء ويستزيد علما وتفقهها في الدين وفي أحكام الله تعالى، بحيث قال: "وإغاية الغرض من هذا التأليف نفع نفسي لا غير، وأقدم لها ما هو من الأعمال خير. وإلا فمعاذ الله أن أحدث نفسي بالوصول إلى درجة التأليف، وأتكلف ما لم يكن في طوق من تلك التكاليف"¹، فإنّ أعظم ما نطق به الإنسان من ذلك وفاه، وتحركت به الألسن وانطبقت عليه الأشفاه علم تفسير القرآن المجيد.. فهو أجل ما يقتنى ويدخر، وأعظم عمل حقه أن يقدم ولا يؤخر؛ لأنه القطب الذي عليه المدار، والأساس الذي عليه بناء الجدار، لرفع مقداره وعلو مناره².

¹- مخطوط "الإبريز والإكسير في علم التفسير"، اللوحة رقم 02.

²- نفسه، اللوحة رقم 02.

رابعاً: أسلوبه التفسيري:

الظاهر من خلال هذا المخطوط أن أسلوب أبو راس يمتاز بالسهولة والوضوح، ولغته ميسرة للفهم والاستيعاب، إنها لغة العلماء الأفاضل المتمكنين، وهو متميز في جميع الفنون والعلوم، يجمع بين محتوى التاريخ ومظهر الأدب في وقت واحد، إذ تمتزج فيه الرواية بالنقل وتصطبغ بالحقائق التاريخية بالعواطف الإنسانية. وقد جاء عن المؤرخ أبو القاسم سعد الله قوله: "أما أبو راس فقد ذكر أنه قد وضع تفسيراً للقرآن الكريم في ثلاثة أسفار، وأنه جعل لكل سفر يحتوي على عشرين حزباً، وسماه (التيسير في علم التفسير)، ومما عرفناه عن أبي راس نستطيع أن نحكم بأن تفسيره سيكون محشواً بالاستطراد كالأخبار والإعراب والحكايات ونحوها.. ومهما كان الأمر فإن تفسير أبو راس سيذكر المرء بتفسير الثعالبي، لأن كليهما كان يجمع الزهد إلى العلم، وكليهما جاء في وقت اضطربت فيه الأحوال السياسية في البلاد كما أن حجم التفسيرين متقارب.."¹.

ثم يشرع الشيخ بحمد الله والثناء عليه وهي بداية العلماء والدعاة بقوله: "الحمد لله ملقح الذهن العميق بنتائج التفسير، منقح الجسم السقيم بطب الهداية والتيسير، الذي حارت العقول في كنه ذاته.. ومنح من أحبه فهم كتابه..". ثم الثناء على خير البرية سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام وعلى آله الطيبين الأطهار، فيقول: "المقل القاصر، محمد أبو راس بن الناصر، أتشفه الله بالرضوان، وبوأه القدس أرفع ميطان: إن العلم ذوا أفنان، ويتسق عن كل دوحة منه أغصان"، ويذكر أن سبب إقدامه على التفسير هو خاطرة نفسية نمت في قلبه منذ سنين، وأراد أن يسجل لنفسه مكاناً دعويًا يذكر به بعد موته، وقد كتب في كل الفنون والعلوم وليس غريباً عليه أن يقتحم التفسير، لأنه يمتلك أدواته وآلياته وشروطه، فيقول: "وقد طال ما خطر في خاطر المخاطر، المسن في اللهو استينان، وأكفأتاً لمواطر، وينقدح في وهم أن أكون من جملة المفسرين وإن طاش سهبي، وأبرز بين جيد بزهم مالي من ضريع.. كون بضاعتي في التفسير مُزجاة، لأن كلاً يُنطق مما عنده، على حسب الإقتار والجدة، مع كثرة العوائق ورُقباء الطوارق، وجهل بمسالك الصناعة أخرى، فتراني أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، لكوني بمعزل عن حلول هذا المنزل وعن استصباح سراحه، واستضاح منهجته..".

ويعتمد أبو راس الناصري طريقة تقليدية في أسلوبه التفسيري، إذ يعرض المسألة المراد تفسيرها أو الآية محل الشاهد، ثم يستقرئ موقعها وأقوالها من خلال ما ورد في القرآن الكريم أو السنة النبوية أو ما جاء على لسان الصحابة والتابعين، ثم يستعرض أقوال الفقهاء والمفسرين وأهل اللغة من البلاغيين والمعجمين.. وهكذا اتباعاً لما ذكره في مفهوم "التفسير والتأويل"، ويقوم بسرد أقوال العلماء وآرائهم الفقهية والتفسيرية والحديثية، ثم يختم برأيه من الآية بصيغة "وأقول/ قلت/ فالجواب...". كما يمكننا أن نذكر هنا أن تفسيره قائم على المسئلة، فعادة ما يطرح سؤالاً مباشراً ثم يحاول الإجابة عنه، منها بذلك القارئ أو السامع لما يقوله، وهذا النوع من المسئلة تجعل المنصت فطناً متيقظاً مشاركاً في الفهم والتعليم، بحيث قال في: "سورة أم القرآن" وهل هي مكية أو مدنية؟ قولان²، والملاحظ هنا أن أبو راس لم يقدم لنا إجابة واحدة، وإنما ترك المسألة بدون تعليق بين مكيتها أو مدنيها، كذلك فعلها الزمخشري في الكشف³، بينما من جاء بعده كالبيضاوي أقر بمكيتها⁴.

ومن هنا فتفسيره يندرج ضمن التفاسير التي تعتمد على الرواية (التفسير بالمأثور)، وهو منهج غالبية المفسرين، يقول أبو راس: "فإن قلت أليس قد وقع التحذير من التفسير بالرأي، ولذا توقف عن الكلام فيه جماعة من العلماء؟"، ثم أورد جملة من النصوص التي تؤيد التفسير بالرأي، بحديث عائشة رضي الله عنها: "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُفسّر شيئاً من القرآن

¹- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 19/2.

²- مخطوط "الإبريز والإكسير في علم التفسير"، اللوحة 05.

³- ينظر: جار الله الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط3، (1/1).

⁴- ينظر: ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار احياء التراث، بدون طبعة، 25/1.

إِلَّا آيَاتِ عِلْمِهِ إِتَاهُنَّ جِبْرِيلٌ¹، ومثله في الجواهر الحسان، وحديث في الترمذي من طريق سهيل بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ"، ثم يستند إلى رأيه فيقول: فالجواب: أَنَّ السلف انقسموا فرقتين، فمنهم من توقف ومنهم من فسر، وهم الأكثرون².

فالناصر يميل إلى التفسير بالمأثور ولا يمنع أن يضيف ما اهتدى إليه من رأي، متخذاً موقفاً وسطاً متبعاً في ذلك شيخه عبد الرحمان الثعالبي الذي يُجوز الاشتغال بالتفسير بالرأي، وذلك في مقدمة التفسير، باب "فضل تفسير القرآن وإعرابه"³.

ومن جهة أخرى فقد التزم أبو راس الناصري بالأمانة والموضوعية في نقل المرويات، وإذا أفاد بأي إفادة نحوية أو فقهية أو تفسيرية أو معجمية يذكر صاحبها أو راويها أو من أشار إليها مثل ذلك ما جاء في:

- سرد الأخبار والرواية: قال أبو العالية قال قتادة قال الشعبي، قال الخفاجي...
- مواضع النحو والصرف: قال ابن هشام، قال المبر، قال الزجاج، قال الفراء...
- قضايا الفقه: قال مالك، قال أبو حنيفة، قال الشافعي..
- بيان مشروعية الفتاوى: قال ابن حجر، قال النووي..

مباحث التفسير: قال ابن عباس، قال ابن عطية، قال الزمخشري، قال البيضاوي، قال ابن جزي قال الواسطي.. والجدير بالذكر أنه إذا نقل لقطة تفسيرية من تفسير أنوار التنزيل يقول: "قال المفسر البيضاوي"، وإذا نقل شاهداً فقهياً من مدونة مالك يقول: "قال الإمام مالك"، وإذا نقل شاهد لغوي أو أدبي في علوم العربية، يقول "قال الشيخ عبدالقادر البغدادي"..

كما يعتمد أبوراس على أسلوب التأريخ للحوادث التاريخية، إذ يعول كثيراً على كتب التاريخ الإسلامي وكتب السير والآثار، ككتاب ابن الأثير، وسيرة ابن هشام، ومقدمة ابن خلدون، ويجعل هذه الأخيرة في المقام الأول من الاستدلال سواء في تاريخ البشرية أم في قصص الأمم وأخبارهم، نجد هذا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى﴾، بحيث قال: "والنصارى": جمع نصراني، سمو بذلك نسبة إلى ناصرة: القرية التي كان يسكن فيها عيسى عليه السلام، من قرى الشام لما رجع من مصر مع أمه⁴. وكانوا مجوساً ولا عصبية بينهم وبين المسيح عليه السلام، وكان قبل رفعه عين لكل حوارٍ قطراً يدعوهم إلى الإسلام.. فسماهم الروم نصارى، نسبة للقرية، كما مرّ أذوهم خلفاً عن سلف، حتى أخذ بدين عيسى عليه السلام: قسطنطين أحد ملوكهم المعروفين بالقيصرية من بني الأصفر، وأمّه: هيلانة بنت مخشيان، لثلاثمائة وثمان وعشرين من رفع عيسى، فهو وأمه أول من تنصّر من الروم وهو باني القسطنطينية العظمى، وكانت قرية يقال لها برنيطة⁵. وفي تعريف "الأسباط" قال ابن خلدون: الأسباط في بني إسرائيل كالبائل في العرب⁶، ولهذا جعل بعضهم يقول أنّ أبا راس ولداً مقلداً في سرده لبعض الحوادث التاريخية "حيث نجده مؤلفه "زهر الشمارخ" مقلداً للسيوطي في كتابه "الشمارخ في علم التاريخ"، كما تأثر بمعاصره عبد الرحمن الجبرتي، صاحب كتابي "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" و"مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين" في تأليفه لكتابين هما "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" و"أقوال التأسيس فيما وقع أو سيقع من الفرنسيين"⁷.

¹- ينظر: أبو القاسم ابن جزي الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، شركة دار الأرقم، بيروت، 1416هـ، 16/1.

²- مخطوط "الإبريز والإكسير في علم التفسير"، اللوحة 02.

³- ينظر: عبد الرحمان الثعالبي، الجواهر الحسان، 138/1.

⁴- ينظر: الإبريز، اللوحة 37، وينظر، عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، 251/2.

⁵- ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، 252/2.

⁶- الإبريز، اللوحة 57. ابن خلدون، 217/2.

⁷- ينظر: أبو راس الناصري، زهر الشمارخ، تحقق: بن عمر حمدادو آخرون، ص 13-14.

خامسا: طرق التفسير:

1- تفسير القرآن بالقرآن:

يولي المؤلف رحمه الله عناية كبيرة بشاهد الآية القرآنية، ويقابل النصوص مع بعضها بعضا في إثبات حكم أو توضيح معنى أو اظهار قضية تفسيرية ما. فهو يعتبر أن القرآن الكريم هو في الدرجة الأولى من حيث الحجية والإقناع والإبلاغ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: الصلاة / وتخصيصها برد الضمير إليها لتعظيم شأنها، أو العبادة التي تضمنها الصبر والصلاة " لكبيرة" ثقيلة شاقة¹، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾² تقريبا لفهم وزيادة في ربط المعاني ربطا عضويا، لأنَّ خاصية القرآن الكريم مبنية على الوصل لا الفصل.

وفي سياق آخر يقول الحق تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾؛ أي: ليس لها شفاععة في كافر فتقبل، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾³، ليس المراد نفي الشفاععة مطلقا، فإنَّ مذهب أهل الحق ثبوت شفاعته صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والأنبياء، وإنما المراد: لا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن الله، لقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وغيرها من الآيات⁴.

2- تفسير القرآن بالحديث النبوي الشريف

يحتل الشاهد الحديثي المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، وقد جاء توظيفه داعما ومفصلا لبيان أكثر وشرح أوفر، لكن لم يكن للحديث حضورا كثيرا مقارنة مع الشاهد القرآني، وإنما اكتفى الشيخ أبو راس بما اشتهر من الأحاديث وما له صلة بالتشريع والتفسير، ومما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ اجعلي أئمة أيضا، وهو عطف على كاف، ويقال له العطف التلقيني كما صرح به سيبويه، وذكره صاحب الكشاف، كقوله عليه السلام " لَمَّا سُئِلَ: هَلْ تَسْمَعُ سَلَامَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ، قَالَ نَعَمْ، وَأَرَدَ عَلَيْهِمْ"⁵. وفي قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فقد "كان الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِذَا أَحْزَنَهُ أَمْرٌ بَادَرُوا إِلَى الصَّلَاةِ"⁶، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾، وجاء في الحديث: "لَوْ تَمَنُّوا الْمَوْتَ لَغَصَّ كُلُّ إِنْسَانٍ بِرِيقِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ، وَمَا بَقِيَ يَهُودِيٍّ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ"⁷.

وكان أبو راس يدرج بعض الأقوال لنساء النبي وصحابة رسول الله عليهم الرضوان، من ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها: "ما كان صلى الله عليه وسلم يُفَسِّرُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا آيَاتٍ بَعْدَ أَنْ عَلَّمَهُ إِيَّاهُنَّ جِبْرِيلُ"⁸، وفي قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بالقلب واللسان.. يستشهد بقول الإمام علي رضي الله عنه: لا أبالي سَقَطَتْ عَلَيَّ الْمَوْتُ أَوْ سَقَطَ الْمَوْتُ عَلَيَّ⁹. وقال عَمَّارٌ بِصَفِينٍ: الْيَوْمَ الْأَقْبَى الْأَحَبَّةُ مُحَمَّدٌ وَحَزْبُهُ، وَمَا رَوَاهُ سُهَيْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيَهُ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ"¹⁰.

3- تفسير القرآن باللغة العربية وبديوان العرب:

1- الأبريز، اللوحة 06.

2- سورة الشورى، الآية: 13.

3- سورة الشعراء، الآية: 100.

4- الأبريز، اللوحة 32.

5- الأبريز، اللوحة 53، وينظر: القاضي عياض، الشفا، 187.

6- الأبريز، اللوحة 31.

7- نفسه، اللوحة 44.

8- ينظر: الأبريز، اللوحة 2، وينظر: حسام الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 103/6.

9- ينظر: زين الدين محمد المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 474/4.

10- ينظر: الأبريز، اللوحة 02.

يدرك أبو راس تمام الإدراك أنّ لكل لفظ قرآني وظيفة دلالية معينة، وأنّ الألفاظ دالة على المعاني، فلا تجد لفظا بدون معنى أو مهنلا في سياقه اللغوي أو التركيبي، وتعدد المعاني للفظ الواحد هو سر الإعجاز الذي حواه النص القرآني، ومن بين الدلالات التي توحها المفردة الوحيدة ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: يقول أبو راس أي من "المُسْتَهْزِئِينَ" لأنّ الهُزء في مثل هذا جهل وسفه، نفى عن نفسه ما زُي به عن طريق البرهان¹، كما يوظف أبوراس الشعر العربي ويجعله مؤنسا له في شرح وتيسير بعض المفردات اللغوية مثل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يقول: ولله در من قال:

وَأَعَجَبَ لِلْمَرْءِ مَعَ عَمَلِهِ إِنَّ لِيَالَ عَمْرِهِ سَارِيَةً

يَنْظُرُ فِي عَيْنِ أَخِيهِ الْفَذَا وَلَا يَرَى فِي عَيْنِهِ السَّارِيَةَ²

وفي موضع آخر يستشهد بشعر أبي تمام الطائي في تفسير قوله: "أَطْلَمٌ" وقرئ "أَطْلِمٌ" بالبناء للمجهول لأنه جاء متعديا في قول

أبي تمام:

هَمَا أَظْلَمًا خَالِيٌ ثُمْتُ أَجْلِيَا ظِلٌّ فَمِمَّا عَرَّجَهُ أَمْرًا شَيْبٍ

ويقوم بتعريفه في المتن فيقول: "أَبُو تَمَامٍ هَذَا أَسْمُهُ حَبِيبُ بِنِ أَوْسِ الطَّائِي كَانَ وَاحِدَ عَصْرِهِ فِي دِيبَاجِ لَفْظِهِ وَفَصَاحَةِ شِعْرِهِ وَخَمْسَ أُسْلُوبِهِ وَلَهُ كِتَابٌ "الْحَمَاسَةُ" الَّتِي دَلَّتْ عَلَى فَضْلِهِ، كَانَ يَحْفَظُ لِلْعَرَبِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَرْجُوزَةٍ غَيْرِ الْقَصَائِدِ وَالْمَقَاطِعِ"³.

سادسا: مصادره في التفسير:

يقول أبو راس: "أقتبس من تفاسيرهم السائرة في الأنام مسير الشمس، ولا ينكرها إلا الذي يتخبطه الشيطان من المس، كالبحر⁴، والأنوار⁵، والكشاف⁶، وابن عطية⁷، والجلالين⁸، وكشف الكشاف⁹، ذوي العبارات الصريحة الواضحة، والإشارات المليحة اللائحة، رقت في معارج علوم هذا الشأن أفكارهم، وأنفقوا على اقتناص شوارده أعمارهم: قد جمعوا فوائد أثيرة، وفوائد كثيرة، تعلمها منهم الجاهلون وتذكرها الذاهلون¹⁰، "لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ"¹¹.

1- كتب التفسير:

يجب التنكير هاهنا أنّ تفسير البيضاوي السني الأشعري قد أقامه على تفسيره الكشاف للزمخشري، ومن هنا نلاحظ أنّ البيضاوي قد استل من وعاء الكشاف ما يلزمه من مباحث في اللغة والبلاغة والنحو والتأويل والصياغة والتركيب وعلوم القرآن... وهو مقلّ من ذكر الروايات الإسرائيلية، وترك ما يشير إلى بوادر الاعتزاليات المتناثرة في الكشاف¹²، معتمد على التفاسير الأخرى

1- الإبريز، اللوحة 13.

2- الإبريز، اللوحة 31.

3- الإبريز، اللوحة 16.

4- تفسير البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ).

5- تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ).

6- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ).

7- تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المجاري (المتوفى: 542هـ).

8- تفسير الإمامين جلال الدين محمد المحلي، (ت: 864 هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (ت: 911 هـ).

9- تفسير كشف الكشاف للإمام عمر بن عبد الرحمن الفارسي القزويني الشافعي (ت: 739هـ).

10- مخطوط "الإبريز والإكسبر في علم التفسير" اللوحة رقم 03.

11- سورة الصافات، الآية: 61.

12- يقول ابن المنير في حاشيته على الكشاف معلقا على رد الزمخشري قراءة ابن عامر "وكذلك زَيْنَ لِكَيْتِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ" سورة الأنعام الآية: 137. "لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء، وتاه في تيهاء، وأنا أبرأ إلى الله وأبرئ حملة كتابه وحفظه كلامه مما رامهم به، فإنه تخيل أنّ القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفا قرأ به اجتهاداً، لا نقلا وسماعا فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه... ولولا عذر أنّ المنكر ليس من أهل الشأنين، أعنى علم القراءة وعلم الأصول، ولا يعد من ذوى الفنين المذكورين، لخييف عليه الخروج من ربة الدين" ينظر: جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، وبهاشيته الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنير الاسكندري، وتخرجه أحاديث الكشاف للزليبي، (69/2).

كتفسير الطبري (ت: 310هـ) والواحدي (468هـ) والسمعاني (ت: 489هـ) والبيغوي (ت: 516هـ).. وقد خط البيضاوي منهجاً علمياً واضحاً في تلقي معلومات الزمخشري، حيث كان يخالفه فيما لم يقتنع به، ويثبت ما يراه الأصوب والأحق.

- تفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل: يمكننا القول أن أبا راس الناصري قد استعان بهذا التفسير بنسبة كبيرة جداً، وقد جعله منطلقه ومرجعه الأول في الشرح والتحليل والتخريج والردود والتعليقات.. ولهذا نجد تفسير أبي راس هو تقريباً نفسه تفسير البيضاوي. من أمثلة ذلك للتمثيل لا للحصر قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَلْكُتُبُ﴾ صفة، قال البيضاوي: "أو لكون وصوله من المرسل إلى المرسل إليه صار متباعداً أشير إليه بما يشار للبعيد"¹. وفي موضع آخر: "قال تعالى: ﴿مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، قال البيضاوي: من بقايا عاد، صوابه من العمالقة.

- تفسير الكشاف: يعتمد أبو راس على تفسير الكشاف، وخاصة ما تعلق بالقضايا اللغوية والنحوية، وما يجب الإشارة إليه أن البيضاوي نفسه قد أقام تفسيره على الكشاف، واستفاد من مباحثه البلاغية والبيان، واجتنب كما قيل "الشبهات الاعتزالية"، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قوي دائم، وفي الكشاف: العظيم: فوق الكبير، كما أن الحقيرون الصغير المقابل للكبير، أو لأن العظيم نقيض الحقيرون، والكبير نقيض الصغير².

- تفسير الجلالين: مثال ذلك قوله تعالى: "فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ": أي المنزل، و"من" للبيان، أي هي مثله في البلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب"³.

2- مدونة الحديث:

اشتهر أبو راس بالاستشهاديات الحديثية، وخاصة بمدونة الإمام مالك رضي الله عنه، بقوله "فهذا أصل في سد الذرائع الذي قال به مالك"⁴، وشرح التسهيل، ورسالة ابن زيد القيرواني ومختصر ابن الحاجب ومختصر الشيخ خليل، والتنقيحات للقرافي.. وغيرهم.

3- كتب القراءات القرآنية:

لمواطن القراءات القرآنية نصيب كثير في الأبريز، جاء ذلك في قوله ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ﴾⁵، و"الصراط" بقلب السين صاد؛ ليطابق الطاء في الإطباق، وخلف يشم الصاد صوت الزاي حيث وقع، وقرأ قنبل عن ابن كثير بالسين على الأصل، وخلاص: بالإشمام في الأول فقط، والباقون بالصاد، وهي لغة قریش⁶.

ونجد في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾، بكسر الجيم وفتحها بلا همز، وبه بياض وبدونها/ والحاصل: أن فيه ثمان لغات قرئ بأربع منهن في المشهور، وشعبة: بالفتح والراء وهمزة مكسورة وياء، وشعبة: بلا ياء، وابن كثير: بفتح الجيم وكسر الراء بلا همز، والباقون بكسر الجيم والراء والياء بلا همز، وأربع في الشواذ. وميكائيل به قرأ حمزة والجماعة أي: بهمزة بعدها ياء، وقرأ أبو عمرو وصفهم "ميكال" بلا همز ولا ياء بوزن "مثقال"، ونافع بالهمز بلا ياء بوزن ميفعال، وفيه ثلاث قراءات أخرى شواذ⁷.

¹- البيضاوي، أنوار التنزيل، 36/1.

²- مخطوط الأبريز، اللوحة 11، وتفسير الكشاف، 40/1.

³- مخطوط الأبريز، للوحة 19، وتفسير تفسير الجلالين، 39/1.

⁴- نفسه، اللوحة رقم 25.

⁵- سورة الصافات، الآية: 33.

⁶- مخطوط الأبريز، لوحة 07.

⁷- نفسه، لوحة 42.

4- كتب اللغة والأدب:

يحرص أبو راس الناصري كثيرا على إيراد النصوص اللغوية والأدبية في تفسيره، ولعل استعانته بأهميات المصادر والمعاجم خير دليل على ذلك، ومن بين هذه المعاجم نجد كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 170هـ)، وكتاب الأغاني للأديب الراغب الأصفهاني (ت: 502هـ)، وكتاب مختصر المعاني للتفتازاني (ت: 792هـ)، وكتاب خزانة الأدب ولب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت: 1093هـ)، ومعجم تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (ت: 1205هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت: 1311هـ).. والقائمة طويلة.

سابعاً: منهجيته في التفسير:

سلك المفسرون منهجيات مختلفة، فمنهم من يعتمد على الرواية، ومنهم من يعتمد على الدراية، ومنهم من يجمع بين الرواية والدراية كأبي راس الناصري، ومنهم من يعتمد على كل هذا بالإضافة إلى المجال العلمي الذي يتخصص عليه ويتفوق به، وقد نبى أبو راس عن الأخذ بالرأي دون الرجوع إلى المأثور من القرآن والسنة وإجماع العلماء بقوله: "فإن قلت أليس قد وقع التحذير من التفسير في الرأي، ولذا توقف عن الكلام فيه جماعة من العلماء؟¹ وهذه بعض الخطوات المنهجية السائدة في تفسيره.

1- سرده للحوادث والروايات التاريخية: اعتمد أسلوبه في بعض الأحيان على سرده للمادة التاريخية، متمثلة في مقولات ابن خلدون في المقدمة، والمقري في نفع الطيب، وهذه الميزة أكسبت التفسير روحاً علمية وحضوراً اجتماعياً وأثروبولوجياً.

2- يذكر أبو راس أسماء المفسرين والفقهاء والمحدثين في ثنايا تفسيره، فيقول: قال بها فلان وعرضها فلان.. وكأني به في جلسة دعوية مسجدية يخاطب المنصتين ويعرض عليهم قائمة من الأعلام التي زكت هذه المسألة من غيرها، كما يقوم بتوثيق أقواله التفسيرية من خلال ما أنجزه وألفه من كتب ومباحث، مثلما جاء في تفسير قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، أنظر شرحنا لدلائل الخيرات ويقصد به كتابه المعروف بـ "الآيات البيّنات في شرح دلائل الخيرات"².

4- اطلّعه لصور الناسخ والمنسوخ، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ جاء في الإبريز "فهم من ضرب الجزية، أو قتل قريظة وإجلاء النضير، وقال ابن جزي: أنه منسوخ بأية السيف³، وفيه نظر، لأن الأمر هنا غير مطلق، وأية السيف عامة"⁴. قال السمرقندي في مفتاح العلوم، يقال إنّ هذه الآية نسخت سبعين آية في القرآن من الصلح والعهد والكف، مثل قوله ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وقوله: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسيطِرٍ﴾، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وما سوى ذلك من الآيات التي نحو هذا صارت كلها منسوخة بهذه الآية⁵.

5- اعتناؤه بأسباب النزول: في سورة الفاتحة يقول: "وسميت بـ"أم القرآن"، وسميت أما له، لأنه أصله ومنشؤه وأساسه لتضمينها المعاني الثلاثة التي هي أصول مقاصد القرآن على وجه إجمالي، أولها: ثناء، ووسطها: تعبد، وآخرها: وعد ووعد، ثم يصير ذلك مفصلاً في سائر السور، فكانت منها بمنزلة مكة من سائر القرى، لأنّ الأرض دحيت من تحتها، فشأنها أن تسمى أم القرآن كما سميت مكة: أم القرى، وتسمى أيضاً: فاتحة الكتاب، لأنها مفتوحة ومبدؤه، والسبع المثاني: لأنها سبع آيات باتفاق، إلا أنّ الشافعي يعدّ البسملة آية منها"⁶.

1- مخطوط "الإبريز والإكسير في علم التفسير"، اللوحة رقم 04.

2- نفسه، اللوحة رقم 25.

3- هذه الآية تسمى آية السيف، وآية القتال، وآية الجهاد.

4- مخطوط "الإبريز والإكسير"، اللوحة 48.

5- ينظر: أبو الليث السمرقندي، تفسير السمرقندي، 39/1.

6- مخطوط "الإبريز والإكسير"، اللوحة 05.

6- شرحه للأسماء والألفاظ الأعجمية مثال قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ ف: "آدم" اسم أعجمي مشتق من أديم الأرض؛ أي وجهها بأن قبض قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة وسواء ونفخ فيه الروح فصار حيوانا حساسا بعد أن كان جمادا¹، كذلك في وصف ملائكة الرحمان (جبرائيل وميكائيل واسرافيل): فقال إنَّ الأعجمي لا يدخله الاشتقاق العربي، ولأنه لو كان مضافا لـ"صرف"².

ثامنا: قضايا اللغة والبلاغة في تفسير الأبريز:

بحث أبو راس الناصري في نظم الجملة القرآنية وما يتصل بتأليفها وحسنها، سواء أكان هذا تفسيرا لتركيب أم بحثا في أسرار النظم، ومن هنا فـ: «على الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلاً أو مفعولاً أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير أو جمع أو قلة أو كثرة إلى غير ذلك»³. وفي هذا المطلب سوف نقدم حديث أبي راس الناصري عن بعض القضايا اللغوية -اختصارا- كالمجاز والاستثناء والتقديم والتأخير والالتفات ..

1-المجاز:

اختلف اللغويون والبلاغيون والأصوليون في قضية وجود المجاز في اللغة العربية بين مؤيد ومعارض، كما اختلفوا في وقوعه في القرآن الكريم، وينصر أبو راس المؤيدين بوجود المجاز في القرآن الكريم، من ذلك ما ذكره في قوله تعالى: ﴿غِشَاوَةٌ﴾، "يقول هنا مجاز باتفاق.. ووجد السمع، لأنه مصدر في الأصل، والمصادر لا تجمع، ونجد أيضا قوله تعالى: ﴿عُرْفٌ مَّبِينَةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي تحت أشجارها وبنائها الأنهار من ماء ولئن وخمر وعسل، قال السيوطي: "والنهر: الموضع الذي يجري فيه الماء، لأن الماء ينهره أي يحفره وإسناد الجري إليه مجاز فقوله أي يحفره هو النسبة لأنهار الدنيا، وأما أنهار الآخرة فإنها تجري في غير أهدود كما رواه ابن جزى والخفاجي وغيرهما...".

2- الاستعارة:

الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه، وهي «تعليق العبارة في غير ما وضعت له في أصل اللغة على وجه النقل للإبانة»⁴، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿عُمِّي﴾، عن طريق الرشد فلا يروونه فهذه الأوصاف مجاز عبارة، وليس المراد فقد الحواس وإطلاق ذلك عليهم عن طريق التمثيل لا استعارة، لأن من شرطها أن يطوى ذكر المستعار له بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه، لولا القرينة⁵ كقول زهير: لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَدِّفِ لَهُ لَيْدًا أَظْفَارُهُ النَّفْسَ لَمْ تُقَلِّمْ⁶ والاستعارة في قوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾؛ أي أحيطت، وقوله ﴿عَلِمَهُمُ الدَّلَّةُ﴾؛ أي: الذل والهوان، وقوله: ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾؛ أو أثر الفقر، إحاطة القبة بمن ضربت عليه، فهي استعارة، وصار ذلك ما أرنأ لهم وإن كانوا أغنياء لزوم الدرهم المضروب لسكته مجازة لهم على كفران النعماء⁷.

1- مخطوط "الإبريز والإكسير في علم التفسير"، اللوحة 27. وينظر: القرطبي، أنوار التنزيل، 1/279.

2- مخطوط الأبريز، اللوحة 42-43.

3- الزركشي، برهان في علوم القرآن، 1/302.

4- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله واحمد سلامة، دار المعارف، دت، 80/79.

5- مخطوط الإبريز والإكسير، اللوحة 15.

6- ينظر: أبو عبد الله الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار العالمية، 1996، ص96.

7- مخطوط الإبريز والإكسير، اللوحة 36.

3- الاستثناء:

الاستثناء من أهم المباحث النحوية التي وقف عندها علماء العربية، وهو إخراج ما بعد "إلا" أو إحدى أخواتها من أدوات الاستثناء من حكم، مثل: جَاءَ الْقَوْمُ إِلَّا عَلِيًّا. وللإستثناء أدوات، منها: "إلا" وسوى، وخلا، وعدا وليس وحاشا¹، و "إلا" هي أم الأدوات²، وأكثرها حضوراً في الذكر الحكيم.

مما جاء في الأبريز قوله تعالى: ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، فيقول الاستثناء هنا متصل عند من قال إنه كان ملكا ومنقطع عند من قال إنه هو أبو الجن كان بين الملائكة³، فهو نصب على الاستثناء المتصل لأنه من الملائكة على قول الجمهور⁴.

4- حروف الزيادة في القرآن:

إنَّ حروف الزيادة في القرآن الكريم أمرٌ متنازعٌ فيه، فمنهم من يسميه حرف تأكيد، ومنهم من يسميه "صلة" ومنهم من يسميه "مقحم" مع تحرج الكثيرين من إطلاق لفظ (زائد) تأديباً من أن يكون في القرآن زيادة، ومعلومٌ أنَّ حق الزيادة أن تكون في الحرف والأفعال، أما في الأسماء فقد نصَّ أكثر النحويين أنَّ لا زيادة فيها، ومن هنا نجد أن أبا راس يؤمن بوجود حروف الزيادة في القرآن الكريم في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾؛ أي: اليهود والنصارى، ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ فقد اهتموا للحق، و "مثل" زائدة إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، قيل: الباء للآلة دون التعديدية، أي: أن تحروا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثل طريقتكم، أو: مزيدة للتأكيد، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ أو المثل مقحم بدليل قراءة من قرأ "مَا ءَامَنْتُمْ" أي: بالذي آمنتم به⁵.

5- التقديم والتأخير:

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: ذي الرحمة، وهي إرادة الخير لأهله، وإنَّما قدم الرحمن للاختصار بالله، وجريانه مجرى الأسماء التي ليست بصفات⁶، وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ قدم المفعول للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحصر؛ أي: ما نخص بالعبادة من توحيد وغيره إلا أنت⁷. وقد عرض ابن جني سر تقديم المفعول به الكثيرة، وعلل بذلك فقال: «والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالماً غير مستنكر، فلما كثر وشاع تقديم على الفاعل كان الموضع له، حتى إنه إذا أُخر فموضعه التقديم»⁸.

6- حروف المعاني:

الحرف مُقوم جوهري من مقومات اللغة، به تفهم الأحكام ويستنبط التشريع ويُبلغ المعنى؛ لأنَّ الحكم الذي يصدر من النَّصِّ القرآني يختلف باختلاف معنى الحرف الذي يتضمنه، والحروف نوعان: حرف مَبْنَى وحرف معنى؛ فحرف المبني لا معنى له إلاَّ للدلالة على الصوت فقط.

¹ - ينظر: شهاب الدين القرافي، الاستغناء في الاستثناء، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص 29.

² - ينظر: سيبويه، الكتاب، 309/2، وينظر: المبرد، المقْتَضِب، تحقق: محمد عبد الخالق عطيمة، القاهرة، ط1، 1994، 391/4، وينظر: ابن جني، اللع في العربية، ص 212.

³ - مخطوط الأبريز، اللوحة 26.

⁴ - ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 124/1، وينظر: ابن جزي، التسهيل 44/1.

⁵ - مخطوط الأبريز، اللوحة 58، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 180/1.

⁶ - مخطوط الأبريز، اللوحة 6، وتفسير الجلالين، 5/41.

⁷ - مخطوط الأبريز، اللوحة 06.

⁸ - ابن جني، الخصائص، 287/1.

أما حروف المعاني فهي مثل في ومن وعلى... (في) تدل على الظرفية، و(من) تدل على الابتداء، و(إلى) تدل على الانتهاء، و(على) تدل على الاستعلاء... هذه كلها حروف معنى، وما يهمننا في هذا المقام هو حروف المعاني التي أولاها أبي راس عناية مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾؛ أطمعوا "منها" أي من تلك الجنات ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾، من "الأولى: للغاية، أو للتبعيض، أو لبيان الجنس، وقال البيضاوي "كلما" نصب على الظرف ورزقا مفعول به و "من" الأولى والثانية للابتداء واقعان موقع الحال، والمعنى "كل حين رزقوا مرزوقا" مبتدأ من الحنان مبتدأ من ثمرة، قلت: ولهذا قال النحويون: العامل لا يتعدى بحرفين متحدي اللفظ والمعنى إلا على ما قرر في قوله: ﴿كَلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾¹.

7- المشاكلة:

المشاكلة هي الموافقة² وهي من المحسنات البديعية، يعرفها القزويني بـ«ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً»³، جاء في الإبريز قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، فالجزء اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ؛ أي يجازيهم على استهزائهم، سمي جزء الاستهزاء باسمه لمشاكلة اللفظ⁴.

8- المطابقة:

إنّ المتأمل في أسلوب القرآن الكريم، يجده عادة يُعطي الصورة ومقابلها، لأنّ الشيء يزداد وضوحاً بمقابله، ونجد هذه التقابلات كثيرة في تفسير أبي راس الناصري منها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ طريق المطابقة، ليقابل قسيمة لكن لما كان قولهم هذا دليلاً واضحاً على كمال جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه⁵.

الخاتمة:

إنّ تفسير أبو راس الناصري الموسوم بـ"الإبريز والإكسير في علم التفسير" تفسير موجز جامع لآراء السلف رواية ودراية، مشتملاً على أقوالهم بكل أمانة وعناية، فهو تفسير سلك فيه منهج المفسرين الأوائل كتفسير ابن جرير الطبري، والزمخشري، وابن عطية، والبعوي والرازي وابن كثير.. وغيرهم من كتب التفسير المعتمدة، وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصب نفسه حكماً عدلاً بينهم، ويجعل عقله مدققاً ومفحصاً، ثم يُبدي رأيه وما جادت به قريحته التوجيهية والمعرفية، إنّه تفسير جزائري جامع لما كتبه المشاركة والمغاربة، موضوعي جامع لقضايا البلاغة واللغة والتأويل، ويا حبذا نكتشف يوماً بقية التفسير، وبالجملة فهذا المخطوط جدير بالاهتمام والكشف والبحث، خاصة أنه من تأليف جزائري عالم بفنون كثيرة كعلوم الشرع والتاريخ والأنساب والقبائل.

¹- مخطوط الإبريز والإكسير، اللوحة 21، وينظر: الزمخشري، الكشاف، 106/1، البيضاوي، أنوار التنزيل، 58/1، ابن جزي، التسهيل، 77/1.

²- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 176/7.

³- الخطيب القزويني، متن التلخيص، ص 108، وينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 252/2، وينظر: سعد الدين التفتازاني، مختصر المعاني، 269/1.

⁴- مخطوط الإبريز، اللوحة 13.

⁵- مخطوط الإبريز، اللوحة 22، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 63/1.

المصادر والمراجع المعتمدة:**القرآن الكريم برواية ورش عن نافع**

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برحال السلف، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1906.
- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993.
- أبو راس الناصر المعسكري، الشقائق النعمانية، تحق: حمداو بن عمر، بيروت، لبنان.
- أبو راس الناصري، إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم، تحق: حمداو بن عمر وبوسلاح فايزة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- أبو راس الناصري، زهر الشماخ في علم التاريخ، حمداو بن عمر، منشورات crasc، 2016.
- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي. تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ،
- الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي.

- بلهاشي بن بكار، حاشية رياض النزهة، مطبعة ابن خلدون، 1961.
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3.
- جلال الدين السيوطي، الإتقان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الحسن الوزاني، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الاسلامي، 1985.
- عبد الرحمان الجيلاني، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط5، .
- عبد السلام بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الاقصى، دار الفكر، بيروت، ط1، 1997.
- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحق: عبد الرحمان المرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت.

المخطوطات:

- أبو راس الناصري، الإبريز والإكسير في علم التفسير، مخطوط بمكتبة الحامة، الجزائر.
- أبو راس الناصري، الحاوي لنبد من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي. مكتبة الحامة، الجزائر.

الرسائل الجامعية المخطوطة:

- بوكعب تقي الدين، دراسة وتحقيق مخطوط للعربي المشرفي في الرد على أبي راس الناصري في قضية نسب أسرة المشرفة، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، رسالة ماجستير 2014.
- عبد العزيز بومدين، الإبريز والاكسير في علم التفسير لأبي راس الناصري الجزائري (دراسة وتحقيق)، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 01، كلية العلوم الاسلامية، 2016-2017.



الصفحة الأخيرة من المخطوط (74).

٧٤
 اللهم صل على النبي وآله ولحمه ودمه

وبنيها وأنت لتأينف خبره وهو **أمة جماعة فمظلت سلقت لها**
ما كسفت من العمل أو خبراؤه **ولكم الخطاب لليهود ما عسى و**
المعنى أن أنتسبا بكم اليمين لا يوجب انتداع بعاملهم وإنما أنتدعوا
 بأنتم كمن يفتح **وللا تظنون على كانوا يعملون** كما لا يشكوا عنكم
والجملة تأكيد لما قبلها **وقالوا** اليهود المذنبية ونصارى نجران المسلمين
كقولهم أمفول اليهود **أو نصارى** مفعول انتم انيسا جدا وللتنويع
والمعنى مقالهم هذه ما ذنبوا فقولوا **تهدتوا** جواب الامر **فل** يا
محمد بل ملنة **البر** **الأم** تكون ملنة البرهيم **حين يعلم** ما يطلع على كل الذي
 الحق حال من الخطاب اليه **لأنه** مثل جزاء المصروف **وممكن** **والمشي**
كبي تعريف بيهذه **الكتاب** وعيمهم **فإنهم** يعمون اتباعه وهم مشركون
مولوا ايضا **المؤمنون** **أحبا** **بالله** **وما أنت** **الطامع** **الفرح** **أن** **فزع**
 ذكره **لغوننا** **اول ما** **نومنا** **به** **وما أنت** **الراي** **البرهيم** **من** **الطبع** **العتس**
والصالح **واسما** **ويعوم** **واللا** **السلطان** **جمع** **تسب** **اولا** **ويعق**
والسيرة **المجاة** **لأنهم** **حقة** **البرهيم** **واسما** **قال** **ابن** **خلدون** **الاسلاف**
في **جنته** **اسرا** **يل** **كالغيايل** **في** **العرب** **وما** **اوتو** **موسى** **من** **التورية** **وعيسى**
من **اللايخ** **وما** **اوتو** **الينون** **جملة** **المنكور** **منهم** **وعن** **من** **ربهم** **من**
كتاب **وه** **ايلت** **لان** **نرف** **من** **احرم** **منهم** **فينوم** **يبعدون** **ونكرو** **ببعث** **كل** **اليهود**
والنصارى **أقمة** **لما** **وقع** **في** **سبيل** **الندع** **عم** **فيساخ** **ان** **يصار** **العه** **بي** **و**
له **اولا** **المتكوري** **مسلمون** **منذ** **عنون** **فمن** **أمنوا** **ار** **اليهود**
والنصارى **مثل** **ما** **أمنتهم** **بفتح** **الهمز** **والهمز** **والهمز** **أظ**
لا **مثل** **لما** **أمن** **به** **المسلمون** **فيل** **إتباء** **للاله** **لمون** **الندعية** **أو** **ان** **نجر** **واللايخ**
بظريعا **بجهد** **الى** **الحق** **مثل** **كم** **يفتكم** **أوضن** **بقره** **للتلا** **كيفية** **كفونه** **جزء** **سبيته**
سبيته **مثل** **لما** **أو** **المثل** **مفتح** **بلم** **كيل** **عوار** **لما** **صرا** **بها** **أمنت** **به** **أو** **بالله** **أمنغ**
به **وان** **نولوا** **العلم** **في** **سفر** **يعني** **ان** **اعرضوا** **الى** **العلم** **بجمع** **اللايخ** **شغاف**
وهذا **نقطة** **معكم** **كل** **في** **شغاف** **شغاف** **اللايخ** **فيسد** **فبفتح** **الله** **بإله**
 مشرف

إرهاصات نحو النص في التراث العربي القديم.

د. عقيلة لعشي.

جامعة مولود معمري بتيزي وزو. الجزائر

المُلخَص:

ألفَ الكثيرُ من العلماء من البحوث الحديثة في اللسانيات النصّية يتهّمون فيها العلماء القدامى بتقصيرهم في تناول النصوص دراسة شاملة، وأنهم لم يتعدّوا حدود الوحدة الصغرى المتمثلة في الجملة في تناول المعاني، ومردّهم في ذلك كتب المباحث النحويّة والبلاغيّة القديمة التي قصّرت في ذلك وأغفلته. لكن الواقع يبرهن على عكس ذلك لأنّ الكتب القديمة في التفسير وعلوم القرآن وإعجازه والنقد وحتى في النحو والبلاغة تحوي مباحث كثيرة تصبّ في نحو النص والتحليل النصي، ويتبيّن للقارئ أنّ القدامى قطعوا أشواطاً بعيدة في نحو النص وتنبّهوا إلى عناصر تحليله، ونظروا إليه نظرة شاملة، فحددوا عناصر اتّساقه وانسجامه وربطوه بالمواقف والسياقات الاجتماعيّة مثلما قالت به اليوم التداوليّة الحديثة، لذا يتناول هذا المقال الحديث عن وجود "نحو النص" في الدراسات القديمة من خلال المباحث البلاغيّة والتفسيرية محاولاً كشف معايير "النصّية" في كتب القدامى، وأنّ هذا العلم ليس وليد العصر بل له إرهاصات وبدايات متينة الأسس في التراث القديم، وأسست اليوم للكثير من مبادئ الدراسات الحديثة.

الكلمات المفتاحيّة: اللسانيات النصّية؛ التراث القديم؛ علم البلاغة؛ علوم التفسير.

Textual Linguistic Annotations in Ancient Arabic Heritage.

Abstract: A lot of scientists from the modern research in linguistics scripts accuse the ancient scholars of their shortness in the handling of the texts a comprehensive study, and they did not exceed the limits of the unity of the small sentence in the handling of meanings, and their response in the books of the grammar and the old rhetorical that shortened and neglected it. Proves the contrary because the ancient books of interpretation and the sciences of the Koran and miracles and criticism and even in grammar and eloquence contains many of the queries poured into the text and textual analysis, and the reader finds that the old have gone a long way in the text and alerted to the elements of analysis, This article discusses the existence of "text" in ancient studies through rhetorical and interpretive research, in an effort to uncover the criteria of "texts" in the books of the old, and that this science It is not the birth of the age, but it has the beginnings and solid foundations of ancient heritage, and today has established many of the principles of modern studies.

Key words: Textual Linguistics; Ancient heritage; Science of rhetoric; Science of interpretation.

المَقْدِمَة:

يعدّ علم النص من العلوم الأكثر حداثة في اللسانيات الوصفية، والأكثر عمقا في تحليل الخطاب، ومن فوائده أنّه يتجاوز في التحليل البنية الصغرى المتمثلة في الجملة إلى البنية الكبرى النصّية وذلك لعدم اكتفاء الجملة للوصف اللغوي الشامل وإبراز كلّ الظواهر، ومن فوائده أيضا أنّه يمسك بأطراف مختلفة من العلوم اللغوية والأدبية كالنحو والبلاغة والدلالة إلى معايير أدبيّة كثيرة، كما أنّه يدرس النص من جوانب عدّة بدءا من اتّساق عناصره إلى انسجامه بالغرض والسياق وأشياء أخرى كثيرة تحيط به. والنص مجموع مترابط ومتتابع من الجمل سمّته الكتابة لذا قيل عنه أنّه سلاح في وجه الزمان والنسيان، وشاهد من شواهد الحضارة الإنسانية.

تأسس علم النص في الستينات وتبلورت مفاهيمه وأسست معاييرها على يدّ جماعة من الباحثين الغربيين والعرب، وقد اتهم هؤلاء القدامى بتقصيرهم في وصف كلّ مكونات النص وإبراز مفاهيمه، وأنهم لم يمارسوا أسس التحليل النصي ومناهجه فلم

يتعدّوا حدود الجملة في تحليلاتهم كما توصلت إليه الدراسات الحديثة، فما مدى صحّة هذا الزعم؟ ألم يتعدّ علماؤنا في تحليلاتهم حدود الجملة، أم أنّ لهم إسهامات في لسانيات النص والنظرة الشمولية للنصوص؟
الإعراض:

يمثّل النص في اللسانيات النصية أو ما يسمى بعلم النص أو نحو النص مركز الاهتمام في دراساتها ومحورها، وهي تدعو إلى تجاوز البنية الصغرى المتمثلة في الجملة إلى فضاء أوسع في التحليل البلاغي أو النحوي أو غيرهما المتمثّل في النص والذي هو الوحدة الكبرى التي تحقق التواصل بين المتكلم والمتلقي.

واللسانيات النصية أو نحو النص وتسمّى أيضا بلسانيات الخطاب نظرية واتّجاه لغوي حديث يندرج ضمن اللسانيات الوصفية، ويهتم بوصف البنية الكلية للنص وتحليل العلاقات القائمة بين جملة دون الاقتصار على جملة واحدة. و"هو فتح جديد في اللسانيات الحديثة ينظر إلى النص كوحدة متكاملة، ويوصف بالتحول الأساسي الذي حدث في السنوات الأخيرة، لأنّه أخرج اللسانيات نهائيا من مأزق الدراسات البنوية التركيبية التي عجزت عن الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية: البنوي والدلالي والتداولي"¹.

والنص يتخذ من اللغة مجالاً للنشاط وتشكله كلّ متتالية من الجمل السليمة شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات، وبين عناصر هذه الجمل علاقات، وعلاقات بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو جملة لاحقة².

ويقوم النص على مبدأ الترابط بين وحداته الصغرى وهذا الترابط يسمّى بـ"النصيّة" texture، وهي من أبرز خصائص النص، وتعتمد على سبعة معايير إذا اختلّ معيار واحد منها فقد فقد النص صفة النصيّة، وهذه المعايير هي:

السبك أو الربط النحوي Cohésion.

الحبك cohérence أو التماسك الدلالي، وترجمتها تمام حسن بالالتحام.

القصد intentionnalité وهو الهدف من إنشاء النص.

القبول والقبوليّة acceptabilité ويعني أن يكون النص صورة مقبولة من صور اللغة، وبموقف المتلقّي من النص من حيث قبوله أو رفضه.

الإخباريّة أو الإعلام informativité أن يكون للنص مضمون يريد إبلاغه إلى المتلقّي.

المقاميّة situationalité وتتعلّق بمناسبة النص للمواقف والظروف المحيطة به.

التنصّص intertextualité وهو التبعية³.

فهذه الشبكة من المعطيات الألسنيّة والبنويّة والإيديولوجيّة تميّز النص عن اللانص وتساهم في تحديد مفهوم النص الأدبي وتكفل له الصحّة، فهو إذن تتابع مترابط من الجمل حتى يظهر كقطعة واحدة متناسقة الأجزاء، فإذن لا إبداع بكلمة واحدة مفردة أو جملة واحدة إنّما يتحقق ذلك بنص متكامل مؤلّف في بناء متّسق ومتماسك، يستطيع بعناصره وأسلوب تأليفها من التأثير في المتلقّي وتحقيق الغرض من إنشائه، وأساس تحقيق نص متكامل هو فهم أولا مبادئ النحو وتوحيّ معانيه فما البلاغة إلّا توحيّ معاني النحو.

وللنص وظائف متعددة منها:

¹ ابن الدين بخولة، الإسهامات النصيّة في التراث العربي (رسالة دكتوراه)، جامعة وهران 1، وهران: 2015، 2016، ص 3.

² محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 13.

³ ابن الدين بخولة، الإسهامات النصيّة في التراث العربي (رسالة دكتوراه)، جامعة وهران 1، وهران: 2015، 2016، ص المقدمة.

الحدث: أي أنه واقع في زمان ومكان معينان ولا يعيد نفسه إعادة مطلقة مثل الحدث التاريخي.

التواصلية: يهدف النص إلى توصيل معلومات ومعارف ونقل تجارب إلى المتلقي.

التفاعلية: ويهدف علاوة على التواصل بين المتكلم والمتلقي إلى تفعيل علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع.

التواليديّة: أي أنّ النص حدث لغوي تولّد من أحداث تاريخيّة واجتماعيّة ونفسيّة ولغويّة معينة، وتشتقّ منه أحداث لاحقة

له ...

وكان اهتمام العلماء العرب القدامى بالنصوص كبيراً وربطوا النصوص بالكتاب والسنة، وتميّزوا عن سائر الأمم بالعلوم النقلية أكثر من العلوم العقلية حتى قيل "إنّ الحضارة اليونانية حضارة عقل، والحضارة العربية الإسلامية حضارة نص".

وكانت انطلاقتهم بالممارسة النصية من خلال القرآن الكريم رغم أنّ الكثير من التفاسير المشهورة قلّما كانت تعتمد الوحدة النصية للسورة، فالسمة البارزة لكتب التفسير القديمة اعتمادها على تفسير الآية الواحدة لغويًا ونحويًا ودلاليًا ثم الانتقال إلى لاحقها دون النظر والبحث عمّا يربطها بسابقتها، فيتمّ معالجة الآيات لغويًا ونحويًا وبلاغيًا منفصلات عمّا قبلها وما بعدها من معاني ودلالات.

لكن هذا القول لا ينفي المحولات الجادة في دراسات العلاقات التماسكية والمتناسقة الأجزاء التي تربط آيات القرآن الكريم بعضها البعض، إذ كرس الكثير من المفسرين من جهودهم في تبيان وجوه إعجاز القرآن وبيّنوا التماسك الوثيق بين وحداته الإفرادية والتركيبية، وكأثما لبنات وحلقات مترابطة. مثلما توصلت إليه اليوم اللسانيات المعاصرة ككتاب (البرهان في علوم القرآن) لأبي عبد الله بدر الدين الزركشي ت794هـ وكتابي (الإتقان في علوم القرآن) و(أسرار ترتيب القرآن) لجلال الدين السيوطي ت911هـ، حتى إنّه يمكن القول إنّنا باستطاعتنا استلهاهم الكثير من القوانين النصية من مصادرنا التراثية خصوصاً كتب التفسير والبلاغة. أمّا عن النحاة العرب القدامى فكانت السمة الغالبة على دراساتهم للمباحث النحوية اعتمادهم على النحو الإفرادي واتّخاذهم من الجملة محوراً للدراسة لتبيان الوظائف النحوية من فاعلية ومفعولية وغيرها، ويرون أنّ الكلام مبني على علم الإعراب وتأثير العوامل على المعمولات، وكتبهم مشحونة بالروايات في الطعن في فصاحة القبائل والرمي بالشاذ والخروج عن القياس والاحتكام إلى التأويل لردّ ما شرد من الجمل والشواهد.

ومن أمثلة اعتماد النحاة القدامى على نحو الجملة ما يقدمه كتاب أبي بشر عثمان بن قنبر سيبويه ت180هـ من قياس التمثيل¹، وهو افتراض لغوي يعتمد على إنشاء جملة منعدمة النظير لها في اللغة كأن تسيّ رجلاً بأحمر وأخضر فتقول في جمعه أحمر ونواً أخضرون، وكان ما شابه ذلك من افتقار النحاة لنظرة شاملة للنص تُفهم أفكاره واعتمادهم على وحدة الجملة دون النظر في صحتها دلاليًا في الكثير من الأحيان من المآخذ التي بنى عليها ابن مضاء القرطبي ت592هـ هجومه العنيف وثورته المشهورة على البصريين ونحوهم وتسفيه كلّ جهودهم، فكان من قائمة مآخذهم عليهم "قياس التمثيل" و"التمارين غير العملية"² المعتمدة على أمثلة وجمل لا أساس لها في اللغة أصلاً. لكن سرعان ما يستدرك الأمر مع نحاة القرن الثالث البغداديين المتأخرين منهم خصوصاً لأنّه سرعان ما تنبه هؤلاء إلى ضرورة التعامل مع نحو النصوص لا نحو الجمل، ودعوا إلى الخروج من حدود الجملة الواحدة إلى فضاء أوسع، وأنّ الإبداع لا يتأتى بجملة واحدة أو مفردة واحدة يقول عثمان بن جني ت392هـ: "لا يكون الإبداع مع الحرف الواحد

¹ راجع: سيبويه، الكتاب، تج: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة: 1988.

² ابن مضاء، الرد على النحاة، تج: شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، القاهرة: 1982، ص 138.

ولا الكلمة الواحدة ولا يكون مع الجملة الواحدة دون أن يتردد الكلام وتتكرر فيه الجملة فيبيّن ما ضمّنه من العذوبة وما في أعطافه من النعمة والليونة"¹.

ويرى الكثير من الباحثين المحدثين أنّ العلماء العرب القدامى لم يتجاوزوا حدود الجملة الواحدة في تحليلاتهم للنصوص، ولم يعرفوا نظراً نحوياً يندرج من الكلمة ووظيفتها في الجملة إلى جمل أخرى ونصوص بفقراته، وأنّهم لم يستطيعوا استغراق البناء المركّب للنص في مستوياته المتعددة فلم يتوصّلوا إلى تحقيق الغاية من إنشائه وإيصال الفكرة العامة منه والأخذ بمعانيه، وذلك في كلّ أشكال وأجناس النصوص شعراً ونثراً وقرآناً.

وينفي البعض الآخر هذا الرأي في دراسات جادة ومحاولين التنقيب عن إشارات كاشفة عن وجود نظر نحوي في أعماق التراث. كانت الانطلاقة للشرح والمفسرين القدامى للنصوص من معرفة مبادئ النحو أولاً لأنّ المعرفة النحوية تتدرّج بالكلمة بينيتها الصرفية إلى وظيفتها الإعرابية في الجملة ثم علاقتها بباقي الكلمات ثم علاقة جملتها بما يلحقها وبما سبقها وهكذا دواليك. فلم يعتبر القدامى الجملة أكبر حدّ للتحليل كما يُظنّ بل أسسوا الكثير من دراساتهم على قاعدة أخرى وهي النص، وأدركوا أنّ النص صناعة لغوية تدور في فلكها كلّ ما ينتجه العقل العربي، وأنّ النص وحدة دلالية أي وحدة معنى لذا فلا يقاس بحجم جملة فكلّ ملفوظ مهما كان حجمه ظهر منه المعنى داخل سياق معيّن فهو نص ولو كان جملة واحدة.

مفهوم النص عند الغربيين:

يعني النص في تصوّر الغربي ذلك النسيج المتناسق من الوحدات الصغرى والكبرى، ومكوّن من بنية سطحية تحفّزها بنية أخرى عميقة توصّل إلى فهم مغزاه، وهو مرتبط بزمان ومكان وسياق معيّن. سمته الأساسية عند رولان بارث هي الكتابة لأنّ الكتابة تضمن له الديمومة والصيانة في وجه الزمان. يبذل صاحبه جهداً في ضمّ كلمة إلى كلمة وجملة إلى جملة، وفي تنظيم أجزائه والربط بينها حتى يتسقى وينسجم مع موضوعه من أجل تحقيق التأثير في متلقيه ليندمج في أفكاره.

ويعرفه هلمسلاف بأنّه كلّ ملفوظ مكتوب أو محكي، قديماً كان أو حديثاً، طويلاً أو قصيراً، يحمل معنى عام ويؤثّر في متلقيه في سياق معيّن، لا يشترط أن يكون مؤلفاً من جمل فقد يكون من جمل أو من كلمات.

والنص من المواضيع الأكثر تناولاً في الدراسات اللسانية الحديثة، وحظي بتعاريف كثيرة ومتنوعة، مستمرة ومتحوّلة حتى قال عنه فولفغانغ إنّه "كينونة غير قابلة للتعريف"².

وعلى العموم فالنص حدث كلامي ذو وظائف متعددة، يولد من مواقف معينة تاريخية أو نفسية أو غيرها، ولا بدّ أن تتوقّر له سبعة معايير مجتمعة تحقق نصيته إذا تخلّف واحد منها زالت منه النصيّة، وهو كلّ بناء تركّب من عدد من الجمل السليمة المتناسكة والمتناسقة بهدف إلى توصيل فكرة معينة أو عدد من الأفكار، ولا يوجد حدّ لطوله أو قصره، فقد يتجسّد في كتاب كامل مثلما هو الحال في الرواية والمسرحية، أو في وحدة دلالية صغيرة أي في جملة واحدة أو أقلّ كما هو الحال في العناوين والتنبيهات والإعلانات³.

¹ عن: ابن الدين بخولة، الإسهامات النصيّة في التراث العربي (رسالة دكتوراه)، جامعة وهران 1، وهران: 2015. 2016، ص المقدمة.

² ابن الدين بخولة، الإسهامات النصيّة في التراث العربي (رسالة دكتوراه)، جامعة وهران 1، وهران: 2015. 2016، ص 13.

³ ابن الدين بخولة، الإسهامات النصيّة في التراث العربي (رسالة دكتوراه)، جامعة وهران 1، وهران: 2015. 2016، ص 13.

وبين النص و"الخطاب" فرق أدّى إلى الخلط والالتباس بينهما في الدراسات الحديثة وإن كان الخطاب هو الآخر وحدة لغوية متكاملة قوامها سلسلة من الجمل التي تحكمها قواعد، فيختلف عن النص على أنه ما تكوّن من ملفوظ أي نص مع مقام تخاطبي، فكلّ ملفوظ يندرج تحت نظام اللغة وقوانينها فهو نص، وإذا ما خرج ليندرج تحت السياقات الاجتماعية المختلفة سمي خطاباً.

نحو الجملة في التراث العربي القديم:

اعتنى الدرس اللساني العربي القديم بنحو الجملة عناية فائقة، واعتبر العرب القدامى "الجملة" وحدة الدرس النحوي والبلغي، وهي أكبر وحدة لغوية قابلة للوصف والتحليل، ودارت كلّ أبحاثهم في إطارها فصاغوا لها قواعد خاصة. وكان القرآن الكريم وكلام العرب مصادر الاحتجاج والفصاحة لاستقراء الجملة منهما لوصفها وإخضاعها للملاحظة والتحليل لاستنباط منها قواعد الإعراب والنحو ومعايير البلاغة، وتوقفت الجملة عند حدود زمانية ومكانية معروفة وضعها البصريون المستقرئون لكلام العرب، فلم تتعد الرقعة الجغرافية للقبائل الستة المشهورة بالفصاحة ولا الحدّ الزمني الموصوف بالفصاحة والسلامة والموسوم بعصر الاحتجاج.

وكان الدافع إلى الاهتمام بنحو الجملة آنذاك دينياً وهو دفع اللحن والخطأ عن آيات القرآن الكريم لإعرابها إعراباً صحيحاً، ومراقبة أحوال لفظ القرآن لنطقه نطقاً سليماً.

وقد تداخل مفهوم الجملة مع الكلام وهو ما يحسن السكوت عليه، طال أو قصر، ويحمل فكرة عامة، وذلك عند عثمان بن جني 392هـ وعبد القاهر الجرجاني 471هـ وأبي القاسم محمود الزمخشري 538هـ.

عرّف ابن جني الجملة على أنّها "الكلام المفيد المستقل بنفسه، وأنّها على ضربين مركّبة من: مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل"¹.

وعرّفها الزمخشري على أنّها "الكلام المؤلّف إمّا من اسمين أسند أحدهما إلى الآخر، وإمّا من فعل واسم وسّي كلاماً"².

ويفهم من قولهما أنّ الكلام إمّا جملة اسمية من مبتدأ وخبر أو فعلية من فعل وفاعل، تحصل منه فائدة تامة ويوصل فكرة معينة.

ويوضّح موفق الدين يعيش بن يعيش 643هـ شارح مفصل الزمخشري ذلك قائلاً: "اعلم أنّ الكلام عند النحويين عبارة عن كلّ لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ويسمى الجملة"³.

واعتبر القدامى الجملة عنصر الكلام بها نفكر ونتكلم وأنّها أقصى ما تصل إليه الدراسات، وأنّ عناصرها اللغوية هي محور التحليل والنقد، وتمحورت مفاهيمها عندهم عند الإسناد سواء في الجملة الفعلية أو الاسمية، وعرفوه "بضمّ إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الإفادة التامة".

ويلخّص لنا الأستاذ تمام حسان وصف القدامى للجملة بمجموعة من القرائن النحوية والدلالية سمّاها بقرائن التعليق، وجعلها قسمين⁴:

1. قرائن لفظية: كالعلامة الإعرابية، والصيغة، والرتبة، والمطابقة، والتضام، والنغمة.

فالعلامة الإعرابية كالرفع في المرفوعات والنصب في المنصوبات، والصيغة كصيغ الأسماء والأفعال، والرتبة هي عمليات التقديم والتأخير والحذف والتعويض بين المفردات في التركيب، والمطابقة هي علاقة تطابقية بين الكلمات كمطابقة العدد

¹ ابن جني، اللع في العربية، تج: حامد مؤمن، عالم الكتب، ط 2، بيروت: 1985، ص 73.

² الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، تج: علي أبو ملح، دار ومكتبة الهلال، ط 1، بيروت: د ت، ص 21.

³ ابن يعيش، شرح المفصل، تق: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، د ط، بيروت: د ت، ج 1، ص 18.

⁴ راجع: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية للكتاب، د ط، مصر: 1973.

للمعدود والصفة للموصوف والخبر للمبتدأ، والتضام هو التلازم بين المفردات في السياق، والنغمة تعرف بأنها الإطار الصوتي الذي تقال فيه الجملة ويحدد معناها.

2. قرائن معنوية: كالإسناد وهو علاقة المسند بالمسند إليه، والمخالفة وهي مخالفة معنى لمعنى آخر.

ومجموع هذه القرائن اللفظية والمعنوية مجتمعة تكفل الصحة للجملة وتبين خواصها وتوضح معناها.

نحو النص في التراث العربي القديم:

يختلف موضوع نحو النص عن موضوع نحو الجملة من حيث الموضوع والهدف والمنهج، فنحو الجملة يهتم بعمليات بناء الجملة من حيث تعلق قرائنها اللفظية بعضها ببعض، وصوغ قواعدها، ووصف مستوياتها اللغوية من صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية، أما نحو النص فهو دراسة الجملة إلى ما وراءها من وحدات كبرى، والسعي إلى معرفة القواعد التي تحكم بنية النص للنفوذ في أعماقه، والوقوف على جميع العلاقات التي تساهم في إنتاج دلالاته.

يهدف موضوع نحو النص إلى وصف ودراسة الأبنية اللغوية النصية لإبراز صور التماسك والترابط النصي، وكيفية انتظام أجزاء هذه النصوص وارتباطها فيما بينها لتحقيق الغرض منها، ويرى أنّ الجملة الواحدة غير كافية للوصف اللغوي الشامل، كما أنّ نحو الجملة يهمل السياق الاجتماعي أو النفسي أو غيره الذي صيغ فيه النص والذي يشكل أهمّ عنصر في أداء المعنى. ونحو النص ليس وليد الفكر اللساني الحديث بل إنّ التراث العربي القديم زاخر بالدراسات النصية، وكلها تدور في فلك القرآن الكريم وبلاغته حتى اعتبرت البلاغة العربية القديمة ميراثاً للسانيات النصية، وأثيرت قضية الوحدة العضوية للنصوص القرآنية والأدبية منذ وقت مبكر جدا وهي التي أطلق عليها اليوم بـ"الوحدة النصية".

نحو النص عند البلاغيين القدامى:

يرى علماء البلاغة أنّ بلاغة القرآن الكريم تفوق في وصفها سائر البلاغات، وأنّ النص القرآني يتسم بكل صفات النص، ويجمع في بنيته كل أشكال التعبير الراقى حتى إنهم يقصرون لفظ "النص" مثل علماء أصول الفقه على نص القرآن الكريم فحسب. وأدركوا في وقت مبكر أنّه وحدة كلية مترابطة الأجزاء، تتابع فيه الجمل وفق نظام محكم، متسقة فيما بينها ومنسجمة أشدّ الانسجام مع سياقاتها وأسباب نزولها.

ودرس البلاغيون القدامى مظاهر نصية كثيرة وترددت في كتبهم مصطلحات الاتساق والانسجام وهي توجي إلى وعيمهم بتماسك النص وارتباط أجزائه نحويًا ودلاليًا، واستخلصوا طرائق كثيرة يسلكها النص اتساقًا وانسجامًا مثلما قالت به النظريات الحديثة، منها:

1. مبدأ الوصل والفصل: قيل عن هذا المبدأ أنّه من أصعب ضروب البلاغة، ومن أتقنهما وعرف مواضعهما سهل عليه امتلاك بقية الأبواب البلاغية، فما البلاغة إلا معرفة مبدأ الوصل من الفصل.

والوصل هي الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم، بواسطة روابط متنوّعة تصل بين أجزاء النص¹. ومن الأدوات النحوية التي تحقق الوصل: حروف العطف وحروف الشرط الجازمة وغير الجازمة، أدوات التشبيه والتمثيل والتوكيد والبدل.

أما الفصل أو القطع فهو ترك الرابط، ولا يعني انقطاع العلاقة الدلالية بين الكلمتين أو الجملتين.

¹ محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 23.

والوصل مصطلح بلاغي قديم يقابله في اللسانيات النصية مبدأ الاتساق أو السبك *cohésion* والذي هو "تتابع البناء الظاهري للنص عن طريق استخدام وسائل الربط النحوية والقاعدية المختلفة"¹، ويحقق هذا المبدأ اتساق النص وترابط أجزائه. وقد حظي هذا المبدأ باهتمام كبير من البلاغيين القدامى كعبد القاهر الجرجاني تـ471هـ ويوسف أبي يعقوب السكاكي تـ626هـ والخطيب جلال الدين القزويني تـ739هـ واعتبروه خاصية مهمة تحقق مبدأ النصية.

يتمحور رأي الجرجاني في باب الوصل والفصل حول "ما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمعجىء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى"².

وانطلق الجرجاني من مجموعة من القواعد التي تضبط اتساق مفردات وجمل النص، فما ربط بين مفردات وجمل النص بحروف العطف الظاهرة كان من باب الوصل، وما لم يربط بينها بحروف العطف كان من باب الفصل.

فمن أمثلة الوصل قولك: .أكرمتُ زيدًا وعليًا.

.مررتُ برجلٍ خُلِّفه حسنٌ وخُلِّفه قبيحٌ.

فالكلمتان (زيد) و(علي) مترابطتان بواو عاطفة، والجملتان (خُلِّفه حسنٌ) و(خُلِّفه قبيحٌ) أيضا مترابطتان بواو عاطفة، إذن

هذا "وصل" بين مفردتين، وجملتين صفتين لنكرة.

ومن أمثلة الفصل ما يؤديه كل من النعت والتوكيد والبدل من الربط والاتساق في النص، فالنعت والتوكيد والبدل في الحقيقة

عطف لكن دون أدوات، فالفصل ترك الرابط أو الأداة كقولك:

. جاءني زيدٌ الظريفُ.

. جاءني القومُ كلُّهم.

. جاءني الطالبُ محمدُ.

فالمفردات (الظريفُ) و(كلُّهم) و(محمدُ) على الترتيب: صفة وتوكيد وبدل، وهي مواضع فصل.

ومن فصل الجمل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا يَرِبُ فِيهِ ﴾ [البقرة، 1: 2] فجملة (لا ريب فيه) بيانٌ وتوكيدٌ وتحقيقٌ، وهي

خالية من العاطف، وما جعلها خالية من العاطف أن لا شيء تتميز به عما سبقها لتحتاج إلى ضام يضمها إلى ما سبقها وعاطف تعطف عليه، فحرف العطف في هذه المواضع معنوي وهي كلها من الفصل.

ويذهب الجرجاني بعيدا في باب الوصل ويسوق أقيسة دقيقة في فنّ القول يقلّ نظر الناس فيها كأن ينتقل من عطف جملتين

متجاورتين إلى عطف جملتين مفصولتين عن بعضهما بكلام آخر، ويضرب لهذا النوع المثال التالي:

تولوا بغتة فكان بيناً تهيبني ففاجأني اغتيالاً

فكان مسير عيسهم ذميلاوسير الدمع إثرهم انهمالا

فالقارئ للبيتين يظنّ أنّ جملة (فكان مسير عيسهم ذميلا) معطوفة على جملة (ففجأني اغتيالاً) بينما هي معطوفة على (تولوا

بغتة)، وما منع ذلك (كأن) التي تفيد التوهم لأنّ ما دخلت عليه أداة التشبيه داخل في حيّز التوهم، وقوله (فكان مسير عيسهم

ذميلا) حقيقة، فامتنع أن تعطف هذه على تلك لأنّها إن جعلت معطوفة عليها صارت (مسير العيس) متوهّما بينما هو حقيقة³.

يبرهن هذا المثال على تماسك النص كلّه ثم راح يشرح البيتين شرحا منطقيا ليبرهن على تماسك الأشرطة الأربعة بعضها ببعض.

¹ ابن الدين بخولة، الإسهامات النصية في التراث العربي (رسالة دكتوراه)، جامعة وهران 1، وهران: 2015. 2016، ص 102.

² محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 100.

³ محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 105.

واهتدى القدامى إلى هذا المبدأ من الاتساق والتماسك بين أجزاء النص بوسائل ظاهرة وأخرى معنوية رغم صعوبة هذا الضرب من البلاغة، يقول الخطيب القزويني عن الوصل: "هو عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه، وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فنّ منها عظيم الخطر، صعب المسلك، دقيق المآخذ، لا يعرفه على وجهه ولا يحيط علما بكنهه إلا من أوتي فهم كلام العرب طبعاً سليماً ورزق في إدراك أسرارها ذوقاً صحيحاً"¹.

ومن الشواهد التي ضربها القزويني عن الوصل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَلْ يَلُجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ، 2]، فالوصل هنا هو العطف بين جمل فعلية ومعناه هنا إعطاء حكم الأول للثاني والتشريك بينهما، وإن لم يقصد ذلك تعين الفصل، ومن مواضع الفصل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَابِئِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة، 15.14].

2. الحبيك:

الحبيك أو coherence هو طريقة ربط الأفكار داخل النص حتى تنسجم دلالياً ومنطقياً مع السياق أو المقام، وهو من معايير النصية ويهتم بدلالة أدوات الربط ويتجاوزها إلى الجانب التداولي، ويقترب معناه منالسبك، ويتردد هذا المصطلح الذي أتت به النظريات الحديثة في كتب البلاغيين القدامى بكثرة.

يرى محمد أحمد بن طباطبا 322هـ أنّ الشاعر الحق هو الذي يحسن حيك أبياته في القصيدة حتى تتألف وتتجانس لفظاً ومعنى، وليس الشعر عنده مجرد نظم في موضوع من الموضوعات، وتوالي أبياته بوزن وقافية، بل هو صناعة يلعب فيها الفكر دوره الرائد المميز، فهو الذي ينظّم المعاني ويرتب الأبيات ويحبك السياق².

ومن مظاهر حيك النص في البلاغة "حسن الابتداء والتخلص والانهاء" يقول القزويني: "ينبغي للمتكلّم أن يتأقّق في ثلاثة مواضع من كلامه، حتى تكون أعذب لفظاً وأحسن سبكاً وأصحّ معنى"³، فحسن الابتداء هو حسن اختيار اللفظ للمعنى المراد وأن يظهر المقصود من الكلام من مفتحه فإن كان غزلاً فيظهر ذلك من البداية وإن كان هجاءً فكذلك، يقول عنه ضياء الدين بن الأثير 637هـ: "وفائدته أن يُعرف من مبدأ الكلام ما المراد به، ولم هذا النوع؟"⁴

وحسن التخلص هو الانتقال من مطلع القصيدة أو الكلام إلى الموضوع القصد الذي يريده المتكلم بصلة وثيقة المعاني غير منقطعة عنها بالبداية، فلا بدّ أن يكون متلائماً مع البداية منسجم الأفكار، وكذلك الخاتمة.

وما كان عكس ذلك أي الانتقال من البداية إلى الموضوع بما لا يلائمه سمي "اقتضاباً".

وهذه المواضيع الثلاثة من ابتداء وتخلص وخاتمة إن أحسن فيها المتكلّم كيفية رصفها وحبك أفكارها بلغ مراده من توصيل الفكرة وحمل المستمع إلى الانتباه والإصغاء وجنب نفوره من كلامه.

ويلخص الجرجاني حيك النص وانسجام عناصره بنظرية "النظم" التي تحبك أجزاء الكلام في نسيج محكم وتربط الثاني بالأول أشدّ ارتباطاً للإفصاح عن المعاني والدلالات، وتبرز قيمتها في أنّها جمعت بين علوم كثيرة كالنحو والبلاغة والتفسير والتداولية، وتدعو إلى نظرة شمولية تمكّن القارئ من الوقوف على جمالية النص.

¹ القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، تج: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت: 2003، ص 118.

² ابن طباطبا، عيار الشعر، تج: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت: 2005، ص 4.

³ القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، تج: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت: 2003، ص 322.

⁴ ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د ط، مصر: دت، ج 3، ص 96.

ويذهب أبو الحسن حازم القرطاجني تـ684هـ في مذهب الحبك بعيدا إذ يضع قوانين لتمامك الفصول وانسجامها في القصيدة، ويقصد بالفصل بيتين إلى أربعة أبيات تحمل معنى معيناً وهذا في باب (طرق العلم بإحكام مباني الفصول وتحسين هيئاتها ووصل بعضها ببعض)، فمن القوانين التي وضعها لتمامك فصل واحد فيما بين أبياته:

تناسب المسموعات بالمفهومات.

حسن الأطراد.

غير متخاذل النسج.

عدم التميّز والانحياز.

مناسبة الغرض¹.

ومناسبة الغرض مبدأ بلاغي اعتنى به السكاكي أكثر من غيره وسمّاه (مطابقة الكلام لمقتضى الحال).

ومن القوانين التي وضعها القرطاجني لتمامك فصل بفصل "ترتيب الفصول وتقديم الأهم على المهم"، والتلميح في نهاية الفصل إلى معنى الفصل اللاحق والإشارة إلى معنى من معانيه.

3. التمثيل:

التمثيل في اللغة هو التشبيه وفائدته الجمع بين مفردات وجمل النص لزيادة قوّة، وقد تنبّه الجرجاني إلى مساهمته في اتّساق عناصر النص وترابطها، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنُبْ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس، 24]، أفاد التشبيه أو التمثيل في هذه الآية ترابك مجموعة من الجمل من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض أو حذف منها جملة، وحصل المعنى من الآية بتدقيق جملة ثانية على أولى وثالثة على ثانية وهكذا².

ومن مظاهر اتّساق النص وارتباطه أيضا "الاتساق المعجبي" ومن أمثلة ذلك "ردّ العجز على الصدر"، وهو تكرير لفظة وردت في صدر البيت في العجز، ووظيفتها ربط البيت بشطريه ومن أمثلة ذلك:

سريعٌ إلى ابن العمّ يشتم عرضه وليس إلى داعي الندى بسريع

يلقى إذا ما الجيش كان عرمرما في جيش رأي لا يقلّ عرمرم.

2. نحو النص عند المفسرين القدامى:

تنبّه المفسرون القدامى منذ وقت مبكّر إلى أنّ النص القرآني آياتٍ وسورا تشكّل وحدة نصيّة موحّدة رغم اختلاف أوقات نزولها وأماكنها وأسبابها، وأنّه تجمع بين آياته وسوره علاقات التماسك والانسجام النصي (الصرفي والنحوي والدلالي والتداولي)، وأنّ المغزى العام من السور لا يتأتى بأية واحدة، كما حاولوا جاهدين إظهار جمال أسلوبه وعظم شأنه بالآيات ووسائل كثيرة ووقفوا إزاءه وقفة إجلال وتعظيم.

والحديث في هذا الباب لن يشمل وسائل الاتّساق من وصل وفصل وعطف وتمثيل ونظم وترصيف وحدات إلى أخرى ممّا تناولناه في مبحث البلاغيين، بل سنقتصر الحديث في هذا الباب على أسس أخرى لانسجام الآيات والسور ممّا غفلت عنه الكثير من كتب التفسير، فنذكر منها:

1. المناسبة والتناسب:

¹ محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 149. 150.

² محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 127.

المناسبة أو التناسب بين الآي القرآني هو بحث عن علاقة آية بأية أخرى متقدّمة، ويشعر في البحث عن المناسبة حين تنقطع الصلة بين آية وآية أو آيات سابقات لإيجاد وجه المناسبة بين هذه وتلك¹.

فالبحث عن المناسبة إذن بين الآيات يتأتى حين يبدو للقارئ أنّ العلاقة بين السابقة وبين اللاحقة منقطعة، فوجب إذتبرير موقع الآية من سابقها لتحقيق مبدأ انسجام الوحدات، ولا يثار الحديث عن المناسبة حين تصل آية بأخرى بوسائل شكلية واضحة ومفهومة تحققها أدوات الوصل من عطف مثلاً.

عَبَّرَ المفسرون عن انسجام الآيات والسور بمصطلحات منها: الترابط، الاتصال، التعلّق، كَيْفِيَّةُ التَّنَاسُبِ والمناسبة. وتجدر الإشارة إلى أنّ البحث عن المناسبة بين الآيات والسور لا تستجد بالمقام ومقتضياته الذي قيلت فيها في غالب الأحوال.

من الآيات التي وجب البحث فيها عن المناسبة أي عن علاقة الآية بما قبلها قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحقّ ﴿[الأنفال 4.5]، برر أبو عبد الله بدر الدين الزركشي 794هـ المناسبة بين الآيتين بالنظير الذي جعل تجاوزهما مبرراً.

ومن مناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها اختتام سورة الواقعة بالأمر بالتسبيح وافتتاح سورة الحديد بالتسبيح، ويرى الزركشي أنّ المناسبة بين فواتح السور وخواتمها ما قبلها وثيقة، وهو أسلوب جميلٌ يوحي بانسجام سور القرآن لأنّها تحمل نفس المعاني، ومن السور التي تصوّر مناسبة خاتمتها لفاتحتها: سورة المؤمنین حيث جعل الله الفاتحة قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وجعل من الخاتمة قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

ومثل هذه المناسبة نوع من ردّ العجز على الصدر، والذي هو تكرير لفظة بين جملتين متجاورتين أو متباعدتين لربطهما، وهي من مظاهر اتّساق وترابط النص.

2. الاتّحاد والتلازم:

يقصد السيوطي بالاتّحاد والتلازم ذلك التناسب الذي يربط سورة بالحقمة وليس آية بسابقتهما، وليستخلص هذا المبدأ فإنّه ينظر إلى المعاني المتحددة المشتركة بين سورتين متتاليتين كذكر الأصل في سورة ثم ذكر الفرع في السورة اللاحقة. ويسوق السيوطي أمثلة كثيرة عن مبدأ الاتّحاد والتلازم الذي يربط بين السور ويسجم معناها، ومن أمثلة ذلك:

ذكر خلق الناس في سورة البقرة، ثم تصويرهم في الأرحام في السورة اللاحقة والتي هي آل عمران.

ذكر مبدأ خلق آدم في سورة البقرة، ثم ذكر مبدأ خلق أولاده في سورة آل عمران.

افتتاح سورة البقرة بخلق آدم من غير أب ولا أم، ثم ذكر نظيره في الخلق من غير أب في سورة آل عمران².

ويقول عن سورتَي المائدة والنساء كأنّهما سورة واحدة، اشتملتا على نفس الأحكام من القدرة والعظمة من المبتدأ إلى المنتهى.

3. ردّ العجز على الصدر:

يعتبر الكثير من المفسرين هذا المبدأ من مبادئ اعتلاق السور القرآنية وترابطها، ومن أمثلة ذلك قول السيوطي إنّ سورتَي الواقعة والرحمان كأنّهما سورة واحدة لتلازمهما واتّحادهما في ذكر الكثير من العناصر المشتركة، إذ وردت في سورة الرحمان العناصر التالية: القرآن، الشمس، القمر، النبات، خلق السماء، خلق الجنان، صفة القيامة، صفة الجنّة، صفة النار. وفي سورة الواقعة ترتيب العناصر التالية: القيامة، صفة الجنّة، صفة النار، خلق الإنسان، النبات، الماء، النار، النجوم، القرآن.

¹ محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 183.

² محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 203-204.

يعني أنه اختتمت سورة الواقعة بما افتتحت به سورة الرحمان من ذكر نفس العناصر وتكرارها، وهذا ما يسّى برد العجز على الصدر، وهو من مبادئ انسجام السور وترابطها¹.

كانت هذه المباحث الثلاثة التي ذكرناها في نظرة المفسرين إلى نحو النص لا تمثل إلا جزءاً صغيراً مما تناوله المفسرون في تفسير القرآن وتبيان وجوه انسجام سور وآياته، ونكتفي بهذا القدر لأنّ الكلام فيه يطول، وكلام المفسرين عن القرآن الكريم طويل وعريض فتفسير أبي جعفر الطبري تـ310هـ المعروف بـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن قدره ثلاثون ألف ورقة، ثمّ اختصره.

الخاتمة:

انطلقنا في هذه الورقة البحثية من سؤال وهو: هل عرفت الدراسات العربية القديمة نظرة شمولية للنص مثلما هو الحال في الدراسات الحديثة أم أنّها بقيت حبيسة إطار الجملة؟

وللإجابة عنه استقرأنا الموضوع في كتب التراث في النحو والبلاغة والتفسير وعلوم القرآن والنقد، فتبين لنا وجه الحق في ذلك. واقتصرنا الحديث على نظرة البلاغيين والمفسرين إلى نحو النص دون غيرهم واقتصرنا القول في ذلك إلى أبعد الحدود كي لا يملّ القارئ. ومن جملة النتائج المستنتجة وقتنيد ما يلي:

لم تغفل الممارسة النصية على العلماء العرب القدامى في تحليل النصوص، إذ تفتنوا إليها، وسعوا جاهدين إلى كشف آليات ووسائل "النصية"، وكانت انطلاقتهم في ذلك مع القرآن الكريم. مفجّر العلوم. وأفرزت دراساتهم الكثير من المصطلحات والمفاهيم، فضلاً عن عنايتهم بوجوه إعجاز القرآن.

تنبّه القدامى إلى ضرورة تجاوز الوحدة الصغرى (الجملة) إلى ما ورائها من جمل وسياقات وظروف إنشائها لفهم مغزى النصوص.

اعتنوا بالجملة هي الأخرى مثلما اعتنوا بالنص باعتبارها أهمّ عنصر في تشكيل النص والممهّد له، وحديثهم عن نحو الجملة كان دقيقاً وتمكنوا من رصد الكثير من آليات الاتّساق خصوصاً في المباحث النحوية.

إنّ المصطلحات التي أتى بها نحو النص لم تكن نكرات في التراث العربي القديم، بل لها مقابلات عدّة، واستخدم الدارسون المحدثون أكثر المصطلحات القديمة في هذا الموضوع كالسبك والحبك والمقامية وغيرها.

أفرزت الممارسة النصية للقدامى جملة من الملاحظات والآراء، وهي اليوم موضوع الكثير من الدراسات النصية الحديثة.

لم تكن عناية القدامى بالنص في درس مستقلّ مثلما هو الحال في الدراسات الحديثة، وإنّما كان حديثهم عن الممارسة النصية مجرورة إلى دروس أخرى كالْبلاغة وعلوم القرآن والنقد، ورغم ذلك فقد قدّموا دراسات جادة ونظرات ثاقبة في نحو النص.

يبدو أنّ أكثر العلوم قرياً وشبهها بنحو النص هو "علم التفسير" لغوص علمائه في خبايا البنى والتراكيب والنصوص الأوسع حجماً كالسور القرآنية الطويلة كسورتي البقرة وآل عمران، وذلك لاستنتاج صلات ترابط شاملة، ومعظم مصطلحات المفسرين تتردد في الكتب الحديثة.

قدّمت الدراسات القديمة كلّ المعايير التي تعتمدها النظريات الحديثة في مجال "النصية"، إذ تحدثت عن السبك والحبك والقصد والقبول والمقامية والتناسخ وغيرها، حتى إنّه يمكن فهم الكثير من هذه المعايير الحديثة في كتب القدامى خصوصاً في مفهوم "التناسخ".

¹ محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991، ص 204.

بطلان تهم الباحثين المحدثين القائلة إنَّ القدامى لم يعرفوا نحو النص ولم يتعدّوا حدود الجملة في التحليل، بل يمكن القول إنَّهم أوصلوا معايير نحو النص إلى قَمّة العلوّ والإتقان.

لم يترك القدامى باباً من أبواب المعرفة العربيّة الإسلاميّة إلاّ وأحكموا معالجته وأتقنوه، وما مصطلحات ونظريات الباحثين في عصرنا إلاّ قراءة جديدة وحديثة للتراث القديم، تتوافق مع متطلبات الحداثة والمعاصرة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن جني، اللمع في العربية، تح: حامد مؤمن، عالم الكتب، ط 2، بيروت: 1985.
2. ابن الدين بخولة، الإسهامات النصيّة في التراث العربي (رسالة دكتوراه)، جامعة وهران 1، وهران: 2015. 2016.
3. ابن طباطبا، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، ط 2، بيروت: 2005.
4. ابن مضاء، الرّدّ على النحاة، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط 2، القاهرة: 1982.
5. ابن يعيش، شرح المفصّل، تق: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، د ط، بيروت: د ت، ج 1.
6. تمام حسان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، الهيئة المصريّة للكتاب، د ط، مصر: 1973.
7. الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، تح: علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط 1، بيروت: د ت.
8. سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة: 1988.
9. ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د ط، مصر: د ت، ج 3.
10. القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميّة، ط 1، بيروت: 2003.
11. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء: 1991.

الخطاب التداولي في مقامات الحريري

د. علي عبد النبي إبراهيم فرحان
الجامعة الأهلية - مملكة البحرين

الملخص

تعدّ مقامات الحريري نمطاً من الكتابة محمّلاً - إلى جانب خطابه الأدبيّ والفنيّ - بمجموعة من الخطابات التي تكشف عن أنساق ثقافية سائدة في عصره؛ تشكّلت في صورةٍ تحملُ علامةً مغايرة عن النموذج الذي نُسجت عليه؛ فقد وُلدت استجابةً لطلبٍ من " من إشارته حُكْمٌ، وطاعته غُنْمٌ " لإصلاح ما عرى أندية الأدب من ركود".

لم تكن الكتابة إذن وليدة قرار الحريري، بل قرار شخصية ذات سلطة، تتحدث بلسان المجتمع الذي أصبح أرتة الأدبي مهتداً. وهكذا يبدو المدون - للوهلة الأولى - عقداً تتمخض مقتضياتها عن خطاب مطابق للطلب.

هنا إذن صراع بين الأنا (المتكلمة / المبدعة) والآخر (الغائب في صورته البشرية؛ كضمير غيبية نحوية / الحاضر في صورته المبدعة (بديع الزمان) صاحب المثال الأول للمقامات، ومبدعها الذي غدا بها بديع زمانه). ضمير الحضور في المتكلم الغائب يبحث عن حضوره أمام ضمير الغائب الحاضر.

الحريري - الحاضر بشخصه الغائب بتداولية أدبه كونه أديبا في قمة البلاغة العليا آنذاك - عن ساحة الأدب الرفيع الذي صارت مقامات بديع الزمان في زمانه حاضرة متداولة - ينافح ليستبدل بحضور بديع الزمان حضوره في المشهد الأدبي، وبغيابه غياب بديع الزمان؛ حتى تغدو مقاماته (أي بديع الزمان) كالمنسية.

إذن هنالك صراع على مساحة التداول بين المنتج القديم للمقامات، والذي أصبح أنموذجاً قاراً وبين منتج جديد للمقامات يريد لنفسه أن يكون الأنموذج الجديد الذي يزيح الأنموذج القديم من المركز إلى الهامش؛ كي يتحوّل هو من الهامش إلى المركز. على هذا الأساس تتشكل تداولية خطاب مقامات الحريري.

الكلمات المفتاحية:

مقامات - خطاب - تداول - الحاضر - الغائب.

The deliberative discourse in the Makamat Hariri

Abstract

In addition to his literary and artistic discourse, Hariri's sanctuaries are a series of speeches that reveal the cultural patterns of his time; they were formed in a different sign than the model on which he was woven; he was born in response to a request from " "To fix what languishing clubs of literature of stagnation."

The writing was not the result of Hariri's decision, but a personal decision of authority, speaking in the language of a society whose literary heritage has become threatened. Thus, at first glance, the blogger appears to have a contract whose requirements result in a letter that is identical to the request.

Here is a conflict between the ego (the speaker / the creator) and the other (absent in his human form; as the conscience of the absence of nostalgia / present in his creative image (Badi Zaman) the first example of the sanctuaries, and the creator of which Badi Zaman). The conscience of the presence in the absent speaker seeks his presence before the conscience of the absent present.

Hariri - the present person absent in the circulation of his literature as a writer at the top of the rhetoric at the time - the arena of fine literature, which became the sanctuaries of Badi Zaman in his time present today - to replace the presence of Badi Zaman presence in the literary scene, and the absence of the absence of Badi Zaman; Time) as forgetfulness.

So there is a struggle over the space between the old product of the dormitories, which has become a strong model and a new product for the residences that wants to be the new model that removes the old model from the center to the margin, so that it turns from the margin to the center.

On this basis, the circulation of the speech of the Muqamat al-Hariri is formed.

key words :Makamat - discourse - deliberative - present – absent

.إننا نتمكن من خلال اللغة أن نطلب ما نريد وبواسطتها، وأن نحصل عليه، وأننا لا نحصل نظرياً على أي شيء دون استعمال اللغة¹.

تقرر هذه العبارة بإيجاز الوظيفة التداولية للغة، والتي تعدّ من أهم الوظائف المنوطة باللغة في مقام الإبلاغ والاستعمال.

ولقد عنيت التداولية الحديثة بالمعنى الحقيقي للملفوظ، بحثاً عن الوصول إلى قصد المتكلم ودلالات كلامه لمعرفة المراد؛ وذلك عن طريق وصف العلاقة القائمة بين قطبي العملية التداولية التواصلية وهما: المرسل، والمرسل إليه (المتلقي) والفعل الكلامي المنجز (الخطاب)؛ ومن ثمّ كان مجال علم التداول منصباً على اللغة أثناء الاستعمال أي أثناء تداول الخطاب. وكما تدرس التداولية الفعل الكلامي في مقام التواصل عن طريق دراسة الظروف المحيطة به من مكان التخاطب وزمانه، للكشف عن مقاصد المتكلم والمعاني المطلوب إيصالها إلى المخاطب، فإنّها تدرس كذلك طبيعة العلاقة الاجتماعية بين المتخاطبين.

فلم تكتفِ التداولية بدراسة لغة التخاطب اليومية الرائجة في الاستعمال بل اهتمت كذلك بدراسة اللغة الأدبية، وتحليل ذلك الخطاب الأدبي في صفته التداولية.

ونحن في هذه الورقة نحاول أن ندرس تداولية مقامات الحريري في سياقها التاريخي الاجتماعي والأدبي. حتى نكشف عن واحد من أهم الخطابات التداولية في الأدب العربي.

تعدّ مقامات الحريري نمطاً من الكتابة محملاً - إلى جانب خطابه الأدبي والفني - بمجموعة من الخطابات التي تكشف عن أنساق ثقافية سائدة في عصره، تبلورت - مجتمعةً - في مدونة المقامات، بعد أن تجلّت في صورة من نضج البناء على منوال قارئ هي مقامات بديع الزمان الهمداني، لكنّها تشكّلت في صورة أخرى تحمل علامةً مغايرةً عن النموذج الذي نسجت عليه؛ إذ إنّها وُلدت استجابةً لطلبٍ من " من إشارته حُكم، وطاعته غنم " لإصلاح ما عرى أندية الأدب من ركود².

لم تكن الكتابة إذن وليدة قرار الحريري، بل قرار شخصية ذات سلطة، تتحدث بلسان المجتمع الذي أصبح أرنه الأدبي مهدداً. وهكذا يبدو المدوّن - للوهلة الأولى - عقداً تتمخض مقتضياتُهُ عن خطابٍ مطابقٍ للطلب².

ما من مسوّغ لأديب (ظالع) أن يخترق كثافة نصّ الأديب (الضليع) الذي تتداوله المحافل الأدبية إلا بسطوة سلطان عليه أن يحمي إرث الأمة ومقدراتها، ولا إرث أحقّ بأن يصاب ويحى كإرث الأدب الذي خبت نواديه، وخمل ذكره، إذن لابد من سلطان تدعّن له الجهات وتصغي له الأذان؛ يستند إليه ذلك الأديب الظالع ليكون ذلك الفعل مهمة لا مناص عنها ولا حول منها. وحتى لا تخضع الذات المنتجة لخطر الرفض؛ ولكي تسلم من لوم اللاتمين كان على الأديب الظالع (الحريري) أن لا يبدو للججمهور أنّه راغب في نقض ما تداولته أندية الأدب من مقامات الأديب الضليع (بديع الزمان) ألقى الأديب الظالع عذاره على من طاعته

¹ انظر أن رويول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ترجمة: د. سيف دغفوس، ود. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1،

2003م، ص: 17

² انظر، عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1993م، ص: 142

حكم، وأن قبوله صار لا مفر منه: "فذاكرته بما قيل فيمن ألف بين كلمتين، ونظم بيتاً أو بيتين، واستقلت من هذا المقام الذي فيه يحار الفهم، ويفرط الوهم، ويسر غور العقل، وتبين فيمة المرء في الفضل، ويضطر صاحبه إلى أن يكون كحاطب لئيل، أو جالب رجلٍ وخيلٍ. وقلماً سليمٍ مكثراً، أو أقيل له عثاراً. فلما لم يسعف بالإقالة، ولا أعفى من المقالة؛ لبثت دعوته تلبية المطيع، وبدلت في مطاوعته جهد المستطيع."

هنا إذن صراع بين الأنا (المتكلمة / المبدعة) والآخر (الغائب في صورته البشرية؛ كضمير غيبة نحوية / الحاضر في صورته المبدعة (بديع الزمان) صاحب المثال الأول للمقامات، ومبدعها الذي غدا بها بديع زمانه). ضمير الحضور في المتكلم الغائب يبحث عن حضوره أمام ضمير الغائب الحاضر.

لابد إذن من حدوث تزاخم، فإزاحة، فتبادل أدوار؛ يغدو فيه الحاضر غائبا والغائب حاضراً.

إن المبدع لكي ينتج نصاً ما عليه أن يمتلي بنصوص غيره بغض النظر عن جنسها أو نوعها أو نمطها⁽¹⁾، وعليه أيضاً أن يحيط معرفة بتقاليد الكتابة وخصائص الجنس الذي يريد أن ينتج نصاً فيه، فتتكون لديه معرفتان، إحداهما عامة تحمل في تضاعيفها القواعد العامة للكتابة، تمثل الممكن القابع في الذاكرة، أو البنية العميقة التي تمتلي بها خلفية المبدع المعرفية، أو لغة "الكتابة - حسب التقسيم السوسوري، والأخرى خاصة تُعنى بمعرفة قواعد كتابة الجنس الأدبي الخاصة وتقاليدها، وتمثل المنجز في إنتاج المبدع، أو البنية السطحية الظاهرة من خلال النص الجديد، أو - حسب التقسيم السوسوري - "كلام" المبدع بعد أن خضع لعمليات التحويل والاختيار والإبدال.

وبمقدار القدرة التي يتحلى بها المبدع يكون شكل التناص وحضوره في العمل الجديد المبدع "النص الوليد"، وبحجم التمثيل المعرفي للممكن يدخل النص الوليد في عمليات التقاطع والتوازي مع "النموذج" أو "المنوال" القار، بعدما (بدأ) مكتمل البناء في جنسه ونوعه.

أمام المبدع إذن طريقتان، أحدهما التواصل مع "النموذج" والاستمرار على منواله، فيحافظ على بنياته الكبرى دون خروج على إطاره الصارم، فيدخل المبدع حينها في علاقة سكونية مع النص، وثانيهما أن يتقاطع مع "النموذج" فيخترم بنياته الكبرى ليولد بنية جديدة تتحول فيما بعد - حينما تستقر - إلى "نموذج" يجري عليه ما جرى على النصوص التي تحولت إلى "نماذج" قبله.

"يدخل المقلد في تناقض مع النموذج، ويحاول التفوق عليه. أن تقلد معناه: أن تظهر تواضعاً وكبرياءً في آن واحد - لا أحد كالحريري قد توافر فيه هذا المطلب المزدوج؛ فمع إظهاره تقديراً كبيراً للهمداني استطاع إزاحته إلى مركز ثانوي. ويلاحظ الفلقشندي أن فضائل مقاماته كانت عظيمة، لدرجة أن تعلق بها الجميع، وأنه في فورة التعلق التي أثارها، أنسيت مقامات الهمداني وصارت كالمرفوضة. وكان للحريري - كذلك - مقلدون كثر، سواء في العربية أو الفارسية أو السريانية أو العبرية. إن تاريخ الأدب - في المجال الأدبي - لم يُعزَ كبير اهتمام لهؤلاء المقلدين لمقلد⁽²⁾."

الحريري - الحاضر بشخصه الغائب بتداولية أدبه؛ كونه أدبيا في قمة البلاغة العليا آنذاك عن ساحة الأدب الرفيع الذي صارت مقامات بديع الزمان في زمانه حاضرة متداولة - ينافح ليستبدل بحضور بديع الزمان حضوره في المشهد الأدبي، وبغيابه غياب بديع الزمان؛ حتى تغدو مقاماته (أي بديع الزمان) كالمنسية.

(1) انظر: سعيد يقطين، الرواية والتراث السرد، ص 24.

(2) انظر: عبد الفتاح كليطو، "المقامات السرد والأنساق الثقافية"، ص 163.

إذن هنالك صراع على مساحة التداول بين المنتج القديم للمقامات ، والذي أصبح أنموذجاً قاراً وبين منتج جديد للمقامات يريد لنفسه أن يكون الأنموذج الجديد الذي يزيح الأنموذج القديم من المركز إلى الهامش؛ كي يتحوّل هو من الهامش إلى المركز.

هذا التحوّل لن يكون مبرراً ما لم يستند إلى تقليد ساد في ثقافة العرب آنذاك وهو أن يدعم هذا التحوّل صاحب رأي أو علم أو سلطة فكان أن يأتي الطلب ممن " إشارته حُكْمٌ، وطاعته غُنْمٌ" (1) ليتحوّل الطلب من الرأس " من إشارته حُكْمٌ، وطاعته غُنْمٌ" إلى القواعد الشعبية مطلباً عاماً يزيح المتداول من مقامات البديع ليحلّ مكانها مقامات الحريري.

هذا التحوّل المنشود له ما يبرر ضرورته؛ إنها ضرورة تداولية " فإنه قد جرى ببعض أنديّة الأدب الذي ركّدت في هذا العصر ريعه. وخبّت مصابيحُه ذكر المقامات التي أنشأها بديع الزمان" فلقد ركّدت في عصر الحريري ريع الأدب، وخبّت مصابيحُه؛ ولا بد له من أن يقوم بمهمة إنعاش الأدب في هذه الأندية وإضاءة مصابيحُه.

يكشف لنا التلقّي الأولي: الذي تلا برور مقامات الحريري إلى الوجود، عن إقبال المتلقين المعاصرين للحريري عليها بكثرة لافتة، وأنّ بقاءها وانتشارها في بقاع مختلفة من العالم الإسلامي قد أزاح النموذج السابق (مقامات بديع الزمان الهمداني) عن عالم التلقّي من المتن إلى الهامش، وهو ما جعل المتلقين يتهافتون على المقامات الجديدة (أعني مقامات الحريري). فلقد أجاز الحريري بنفسه بخطّ يده سبعمئة نسخة من مقاماته، كلّها قرئت عليه. (2)

لنستمع إلى ما رواه ياقوت الحموي في معجم البلدان في الجلد الخامس، صفحة 2205:

" ولقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب البتة، فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة، واتسعت له الألفاظ، وانقادت له وفود البراعة حتى أخذ بأزمتها، وملك ريقها، فاختر الألفاظ، وأحسن نسقها، حتى لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع في صدره، ولا يزد قوله، ولا يأتي بما يقارنها فضلاً عن أن يأتي بمثلها، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبُعْد الصبب، والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر. (3)

وكان أحد شراح مقامات الحريري من يعتد بنفسه، وهو علي بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلي " وكان من العلم بمكان مكين، واعتلق من حباله بركن ركين، إلا أنه لا يقيم لأحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزناً، ولا يعتقد لأحد فضيلةً، ولا يقر لأحد بإحسان في شيء من العلوم ولا حُسن، فحضرت عنده وسمعت من لفظه إزراءه على أولي الفضل، وتنديده بالمعيب عليهم بالقول والفعل، فلما أبرمني وأصجر، وامتد في غيّه وأصحر، قلت له: أما كان في من تقدّم على كثرتهم، وشغف الناس بهم عندك قطٌ مُجيدٌ؟! فقال: لا أعلم إلا أن يكون ثلاثة رجال: المتنبي في مديحه خاصّة، ولو سلكت طريقه لما برز علي، ولسقت فضيلته نحوي، ونسبته إليّ. والثاني: ابن نباتة في خطبه، وإن كان خطبي أحسن منها وأسير عند الناس قاطبةً وأشهر. والثالث ابن الحريري في مقاماته. قلت: فما منعك أن تسلك طريقته، وتنبئى مقامات تُخمد بها جمرته، وتملك بها دولته؟ فقال: يا بُني الرجوع إلى الحق خيرٌ من التماذي في الباطل، ولقد أنشأتها ثلاث مرات، ثم أتأملها فأستردّها، فأعمد إلى البركة فأغسلها. ثم قال: ما أظن الله خلقي إلا لإظهار فضل الحريري. وشرح مقاماته بشرح قرئ عليه، وأخذ عنه. (4)

(1) مقامات الحريري، شرح الشريشي، ج 1، ص 30.

(2) انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدياء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1993م، ج 5، ص 2205.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 2205.

(4) نفسه، ص 2205 - 2206.

وَقَدْ أَوْضَحَ الْقَلْقَشَنْدِيُّ أَنَّ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ قَدْ بَرَزَتْ مَقَامَاتِ بَدِيعِ الزَّمَانِ وَأُنْسَتْهَا، إِذْ يَقُولُ: "ثُمَّ تَلَاهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْقَاسِمُ الْحَرِيرِيُّ، فَعَمِلَ مَقَامَاتِهِ الْخَمْسِينَ الْمَشهُورَةَ، فَجَاءَتْ نَهَائِيَّةً فِي الْحُسْنِ، وَأَتَتْ عَلَى الْجَزءِ الْوَافِرِ مِنَ الْحِظِّ، فَأَقْبَلَ عَلِمًا الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، حَتَّى أَنْسَتْ مَقَامَاتِ الْبَدِيعِ، وَصَبَّرَتْهَا كَالْمَرْفُوضَةِ".⁽¹⁾ وَقَدْ أَكَّدَ ذَلِكَ الْأَمْرَ شَارِحُ الْحَرِيرِيِّ الشَّهِيرُ أَبُو الْعَبَّاسِ الشَّرِيشِي، فَقَدْ كَانَ الْحَرِيرِيُّ ذَا أَدَبٍ رَفِيعٍ، وَخُلُقٍ عَظِيمٍ؛ إِذْ أَقَرَّ لِلْبَدِيعِ بِالْفَضْلِ "مَعَ عِلْمِهِ بِفَضْلِ مَقَامَاتِهِ عَلَى مَقَامَاتِ الْبَدِيعِ، وَمِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ، أَنَّهُ مُدَّ ظَهَرَتْ مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ لَمْ تُسْتَعْمَلْ مَقَامَاتُ الْبَدِيعِ، ثُمَّ إِنَّهُ طَبَّقَ اسْتِعْمَالَهَا آفَاقَ الْأَرْضِ".⁽²⁾

هكذا نجح الحريري في أن يقلب طاولة التداول بين نصّ لهذا الفنّ ونصّ اكتملت فيه أدوات الكتابة وثقاليدها فتصدّر المشهد الأدبي وصار هو المتداول الأول في عالم الأدب.

وهو ما دفع أهل الفنّ من الشراح والمنشئين إلى شرح هذه المقامات، حتّى بلغت تلك الشروح ثلاثة وثلاثين شرحًا أو تزيد⁽³⁾. وكثرة من حاكها من المتأخرين، حتّى باتت نموذجًا يكتب المقلدون على مثاله.

المقامات نصّ ثقافيّ:

يرى لوري لوتمان أنّ النصّ الثقافيّ يتحدّد من جهة اتّصاله بالعالم الدلاليّ الخاصّ بجماعة اجتماعية - سيميوطيقية محددة⁽⁴⁾. والمقامة في هذا السياق نصّ ثقافيّ من جهة اتّصاله بالعالم الخاصّ بجماعة المتلقين المباشرين، والمتلقين غير المباشرين للمقامة، والتي تحمل في طياتها الأبعاد الخاصّة بمختلف التراكمات، والمركبات الثقافيّة والاجتماعيّة التي أنتجها الإنسان العربيّ في صيرورته الحضاريّة؛ إذ هي منتجٌ كلاميّ وثقافيّ في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وكما يقول "رولان بارت": "التاريخ يُرغم الكاتب أن يُعطي دلالةً للأدب حسب الممكّنات التي يتحكّم فيها، ولأنّ الكتابة تنحدر من إثارة دلاليّة للكاتب، فإنّها تلامس التاريخ أكثر من أيّ عنصرٍ آخر مكوّن للأدب".⁽⁵⁾

وإذا ما نظرنا إلى النصوص المنجزة في بنيتها فإننا في واقع الأمر سنجد أنفسنا أمام خريطة نصوص تمازجت في الخطوط والمسافات فانتجت "متناسّة" هي أقرب أن تُسَمّى "متناسًا" من أن تُسَمّى "نصًا"، فإنّ العمل الأدبيّ المنجز (المتناس) لا يمكن إدراكه خارج التّناس، وإنّ للنصّ الوليد وشائج تربطه بغيره من النصوص التي سبقته⁽⁶⁾، وبمقدار عمق هذه الوشائج، والتفاعلات الحاصلة بين النصوص تتجلى "تناسيّة" هذا النصّ الوليد⁽⁷⁾. فلا نصّ بشريّ يمكن أن يتعالى على التّناس مع النصوص المنجزة بصورة مباشرة أو ضمنيّة؛ لذلك فإنّ "نصيّة" نصّ ما تتجلى من خلال "التّناس" Intertextuality الذي يكشف عن قدرة الكاتب على التفاعل مع نصوص غيره من الكتاب، وكفاءته في إنتاج "نصّ" جديد⁽⁸⁾.

و(التّناس) تشكيل نصّ جديد من نصوص سابقة أو معاصرة، بحيث يغدو النصّ المتناس خلاصةً لعدد من النصوص التي أمحت الحدود بينها، وأعيدت صياغتها بشكلٍ جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها. وغاب (الأصل) فلا

(1) القلقشندي، صبح الأعمش في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ج 14، ص 110.

(2) مقامات الحريري، شرح الشريشي، ج 1، ص 34.

(3) انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار سعادت، ط 1، ج 2، ص 497 - 498. وانظر: كذلك، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ط 5، د.ت.، ج 5، ص 147 - 150.

(4) هامون فيليب، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بن كراد، تقديم عبد الفتاح كيليلطو، دار الكلام، الرباط، 1990. ص 33.

(5) رولان بارت، درجة الصفر في الكتابة، ترجمة: محمد برادة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1980. ص 41.

(6) انظر: تيفين سامويل، التّناس ذاكرة الأدب، ترجمة نجيب غزاوي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2007م، ص 13 - 14. وقد تطرق المؤلف في هذا الكتاب إلى مفهوم التّناس عند مجموعة من العلماء، نحو: بارت وريفاتير وجينيت.

(7) انظر: سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائي: النصّ والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2006م، ص 115.

(8) انظر: تيفين سامويل، التّناس ذاكرة الأدب، ص 9، ص 11.

بدرُكُهُ إلا ذُوو الخبرة والمران⁽¹⁾.

" جاء في المعجم الموسوعي لعلوم اللغة لديكرو، وتودوروف: إن كل نص هو امتصاصٌ وتحويلٌ لكثيرٍ من نصوصٍ أخرى. فالنصُّ الجديدُ هو إعادةُ إنتاجٍ لنصوصٍ وأشلاءٍ نصوصٍ معروفةٍ - سابقةٍ أو معاصرةٍ - قابعةٍ في الوعي واللاوعي، الفردي والجماعي "

هكذا يبدو (التناصُّ) علاقة تفاعلٍ بين نصوصٍ سابقةٍ، ونصٍّ حاضرٍ. أو هو تعالقٌ (الدخولُ في علاقةٍ) نصوصٍ مع نصٍّ، حدِّث بكيفياتٍ مختلفة⁽³⁾.

" وقدرة الكاتب على التفاعل مع نصوصٍ غيره من الكُتَّاب لا تتأتى إلا بـ "امتلاءٍ" خلفيته النصيَّة بما تراكم قبله من تجاربٍ نصيَّة، وقدرتُه على تحويل تلك الخلفيَّة إلى تجربةٍ جديدةٍ قابلةٍ لأن تُسهم في التراكم النصي القابل للتحويل والاستمرار بشكلٍ دائمٍ."⁽⁴⁾

يقع المبدع في علاقته مع النصوص (التناص) بين ثنائية الممكن والمنجز؛ إذ إن المبدع لكي ينتج نصًا ما عليه أن يمتلئ بنصوصٍ غيره بغضِّ النظر عن جنسها أو نوعها أو نمطها⁽⁵⁾، وعليه أيضًا أن يحيط معرفةً بتقاليد الكتابة وخصائص الجنس الذي يريد أن ينتج نصًا فيه، فتتكون لديه معرفتان، إحداهما عامَّة تحمل في تضاعفها القواعد العامة للكتابة، تمثل الممكن القابع في الذاكرة، أو البنية العميقة التي تمتلئ بها خلفيَّة المبدع المعرفية، أو لغة "الكتابة" - حسب التقسيم السوسوري، والأخرى خاصَّة تُعنى بمعرفة قواعد كتابة الجنس الأدبي الخاصَّة وتقاليدها، وتمثل المنجز في إنتاج المبدع، أو البنية السطحيَّة الظاهرة من خلال النص الجديد، أو - حسب التقسيم السوسوري - "كلام" المبدع بعد أن خضع لعمليات التحويل والاختيار والإبدال.

وبمقدار القدرة التي يتحلَّى بها المبدع يكون شكل التناص وحضوره في العمل الجديد المبدع "النص الوليد"، وبحجم التمثيل المعرفي للممكن يدخل النص الوليد في عمليات التقاطع والتوازي مع "النموذج" أو "المنوال" القار، بعدما (بدأ) مكتمل البناء في جنسه ونوعه.

أمام المبدع إذن طريقان، أحدهما التواصل مع "النموذج" والاستمرار على منواله، فيحافظ على بنياته الكبرى دون خروج على إطاره الصَّارم، فيدخل المبدع حينها في علاقةٍ سكونيةٍ مع النص، وثانيتها أن يتقاطع مع "النموذج" فيخترم بنياته الكبرى ليولِّد بنيةً جديدةً تتحوَّل فيما بعد - حينما تستقر - إلى "نموذج" يجري عليه ما جرى على النصوص التي تحوَّلت إلى "نماذج" قبله.

وإذا ما نظرنا إلى موضوع التناص بوصفه وجودًا متميلاً في النصوص العربيَّة عند القدامى عمومًا، وفي السرد العربيِّ بخاصَّةٍ فسنجد أنفسنا أمام نوعين من التفاعل النصي، نوعٌ يقيم علاقات تفاعلٍ مع نصوصٍ كثيرةٍ مع ما بينها من اختلافٍ في الجنس والنوع والنمط، ونوعٌ آخرٌ يقيم علاقةً مع نصٍّ آخرٍ محدَّد، وهو قسمان، أحدهما: يقيم علاقةً مع النموذج، كمن يقيم علاقةً تناصٍّ مع نموذج المعلقة في الشعر الجاهلي، وثانيتها: يقيم علاقةً مع نصٍّ بعينه، كأن يقيم المبدع علاقةً تفاعلٍ نصيٍّ مع معلقة امرئ القيس.

(1) تيفين سامويل، التناص ذاكرة الأدب، ص 20.

(2) محمَّد عزَّام، النصُّ الغائب: تجليات التناص في الشعر العربي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001م، ص 11.

(3) انظر: تيفين سامويل، التناص ذاكرة الأدب، ص 15.

(4) سعيد يقطين، الرواية والتراث السردية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2006، ص 18.

(5) انظر: سعيد يقطين، الرواية والتراث السردية، ص 24.

إنَّ العملَ الذي قامَ به الحريري في إبداعه لمقاماته، يدخلُ - كما يبدو للوهلة الأولى - في علاقةٍ تفاعلٍ خاصٍ مع نصِّ بعينه، هو نصُّ " مقاماتٍ بديعِ الزَّمانِ الهمدانيّ " بعدَ أن صارَ نموذجًا لجنسِ المقاماتِ، فيدخلُ معه في تناصٍّ يجعلُهُ أَمَامَ مسؤوليتينِ، الأولى: الوفاءُ للنموذجِ، والأخرى: التَّقاطُعُ معه لإبداعِ نموذجٍ آخرٍ يتفوقُ على سلفِهِ. ولعلَّ الحريريَّ كانَ واعيًا بهاتينِ المسؤوليتينِ، فعكفَ غيرَ قليلٍ، وقطعَ في تدوينها ألفَ سبيلٍ، وأخذَ يكتبُ ويمحو وينقحُ وينخلُ حتى فتحَ اللهُ عليه فأنشأَ مقاماتِهِ على منوالِ البديعِ الهمدانيّ (1).

ويبدو جليًا من قراءةٍ مقاماتِ الحريريِّ أنَّها نصٌّ يتناصُّ معَ نصوصٍ عديدةٍ في الثَّقافةِ العربيَّةِ من أجناسٍ مختلفةٍ في النثرِ والشعرِ، وفي الأدبِ والفنونِ وعلومِ الشريعةِ والحديثِ والفقهِ، وكتبِ الأخبارِ والآثارِ والحكاياتِ وغيرها. يقولُ أبو محمَّدٍ القاسمُ الحريريُّ في مقدِّمةِ مقاماتِهِ: " وأنشأتُ على ما أعانيه من قريحَةٍ جامدةٍ، وفِطْنَةٍ خامدةٍ، ورويةٍ ناضبةٍ، وهُمومٍ ناصبةٍ، خمسينَ مَقامَةً تحتوي على جِدِّ القَوْلِ وهزلِهِ، ورقيقِ اللَّفْظِ وجزَلِهِ، وغررِ البَيانِ ودُررِهِ، ومُلحِ الأَدبِ ونوادِرِهِ، إلى ما وشحَّها به من الآياتِ، ومَحاسِنِ الكِنائياتِ، ورسَّعْتُهَها فيها من الأمثالِ العربيَّةِ، واللطائفِ الأدبيَّةِ، والأحاجي النَّحويَّةِ، والفتاوى اللَّغويَّةِ، والرِّسائلِ المُبتكَرةِ، والخُطبِ المُخبَّرةِ، والمواعظِ المُبكيَّةِ والأضاحيكِ المُلهيَّةِ." (2)

ومن جهةٍ أخرى يتناصُّ نصُّ الحريريِّ معَ مقاماتِ بديعِ الزَّمانِ في بنياتِهِ الكُبرى، " فأشارَ من إشارتهِ حُكْمٌ، وطاعتهِ غُنْمٌ، إلى أن أنشئَ مقاماتٍ أتلفَ فيها تلوَ البديعِ، وإن لم يُدرِكِ الظَّالِعُ الأنساقُ الثَّقافيَّةُ التي تطرَحُها مقاماتُ الحريريِّ:

تطرَحُ المقاماتُ في خطاياها - الذي يبدو مخاتلاً - مجموعةً من الأنساقِ، تتوافقُ بعضها معَ مجتمعيها، وتتعارضُ بعضها الآخرُ معه. ومن هذه الأنساقِ:

1- كسرُ تابو الثَّنائياتِ:

تقفُ المقامةُ أَمَامَ الثَّقافةِ التي تتقاسمُ الصِّراعَ على شرفِ الوجودِ بينَ الشَّعرِ والنثرِ، لتخلقَ لها كيانًا مغايرًا، لا هو بشعرٍ ولا هو بنثرٍ؛ إنَّه كيانٌ من جنسٍ آخر. فهو يختلفُ عن سابقِهِ، ولكنَّه لا ينفصلُ عنهُما، كلاهُما يدخلُ في تشكيلِ بنيتهِ الوليدةِ. إنَّها إعلانٌ سافرٌ عن كسرِ قانونِ الثَّنائياتِ (المتضادة). فمحمولُ الثَّقافةِ العربيَّةِ أنَّ لكلِّ شيءٍ زوجًا، وأنَّ الأشياءَ تُشيرُ إلى نقائضِها، فالخيرُ يشيرُ إلى نقيضِهِ الشرِّ، والليلُ يناقضُ النهارَ، والجبلُ يقابلُ السَّفحَ، والحقُّ يناقضُ الباطلَ، والشريفُ يقابلُ الوضيعَ. إنَّه قانونٌ تجدُ أثرَهُ حتى على البنيةِ النَّحويَّةِ في اللِّغةِ العربيَّةِ، فالجملةُ صنفانِ اسميَّةٌ وفعليَّةٌ، والجملةُ التَّامةُ ركنانِ، والفاعلُ ظاهرٌ ومضمَّرٌ، والمضمَّرُ بارزٌ ومستترٌ، والاسمُ جامدٌ ومشتقٌّ، والفاعلُ منصرفٌ وغيرُ منصرفٍ، والكلماتُ مبنياتٌ ومعرباتٌ. إنَّها ثنائياتٌ تغصُّ بها الثَّقافةُ العربيَّةُ، إنَّها نسقٌ معرفيٌّ. وأنَّ تخرقَ هذا النَّسقِ عليك أن تأتي ببدعةٍ تحملُ مقوماتِ الصِّمودِ أَمَامَ هذا النَّسقِ المتواترِ. المبدعُ للمقاماتِ حشدَ في نصِّهِ الجديدِ ما يؤهلهُ لأنَّ يجدَ له موطئَ قدمٍ بينَ ثنائِيَّةِ الشَّعرِ والنثرِ، لتكوُنَ المقامةُ نصًّا مغايرًا، لا هو بشعرٍ ولا هو بنثرٍ.

إنَّ هذا العملَ اقترابٌ لساحةِ القداسةِ الدِّينيَّةِ ولكنَّ بنمطِ الأدبِ، إنَّه اشتراكٌ معَ القرآنِ الكريمِ في نفيِ الصِّفةِ (لا هو

بشعرٍ ولا هو بنثرٍ).

(1) انظر: معجم الأدباء، ج 5، ص 2205.

(2) مقامات الحريري، شرح الشريشي، المقدمة، ج 1، ص 29.

(3) نفسه، ص 26.

2- مَا تَرَكَ السَّابِقُ لِلاحِقِ مِنْ شَيْءٍ:

قَرَّ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ الْمُتَقَدِّمَ لَهُ شَرَفُ التَّقَدُّمِ، وَأَنَّ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ إِمَامًا، يُفْتَدَى بِهِ وَيُهْتَدَى بِهِدِيهِ، وَهُوَ أَسْوَأُ لَخَلْفِهِ، فَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ مُتَقَدِّمٌ، فِي الْإِطَارِ الدِّيْنِيِّ فَإِنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، أَسْوَأُ الْبَشَرِ، وَأَفْضَلُهُمْ، وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ دُنْيَاً وَآخِرَةً. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽¹⁾. وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِمَامُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهَا. وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ مُقَدَّمٌ عَلَى سَائِرِ الْمَسَاجِدِ، وَأَشْرَفِيهَا. وَفِي مَجَالِ الثَّقَافَةِ وَالْفَنِّ الْمَعْلَقَاتُ ذُرُوءُ الشَّعْرِ وَسَنَامُهُ، وَامْرُؤُ الْقَيْسِ سَيِّدُ الشُّعْرَاءِ وَإِمَامُهُمْ وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ، وَسَحْبَانُ بَنِي وَائِلٍ إِمَامُ الْخُطَبَاءِ وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَبْرُهُ أَحَدٌ هَذَا الْمَقَامَ.

مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ تُوكِّدُ هَذَا النَّسَقَ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، وَلَكِنَّهَا تَعْلُنُ عَنْ خُرُوجِهَا عَلَيْهِ فِي بَعْضِ مَفْرَدَاتِهِ، خُصُوصًا ذَلِكَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْجَانِبِ الْفَنِيِّ الْبَشَرِيِّ، فَهَذَا الْحَرِيرِيُّ نَفْسُهُ فِي مُقَدِّمَتِهِ يَعْتَرِفُ "بِأَنَّ الْبَدِيْعَ رَحِمَهُ اللَّهُ سَبَاقُ غَايَاتٍ، وَصَاحِبُ آيَاتٍ، وَأَنَّ الْمُتَصَدِّقَ بَعْدَهُ لِإِنْشَاءِ مَقَامَةٍ، وَلَوْ أُوتِيَ بِلَاغَةٍ قُدَامَةً، لَا يَغْتَرِفُ إِلَّا مِنْ فَضَالَتِهِ، وَلَا يَسْرِي ذَلِكَ الْمَسْرِي إِلَّا بِدَلَالَتِهِ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ:

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً
لَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ
بُسْعُدِي شَفِيئَتِ النَّفْسِ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمُقَدِّمِ"⁽²⁾

لَكِنَّ هَذَا الْاعْتِرَافَ اعْتِرَافٌ مِنْ بَابِ التَّوَضُّعِ، اعْتِرَافٌ يُبْطِنُ فِي فِجْوَاهُ نَقِيضُهُ، فَمَا يَلْبَثُ الْحَرِيرِيُّ أَنْ يَدَّعِي بِفَضْلِهِ، وَأَنَّه بَرُّ الْبَدِيْعِ حَظَّهُ مِنَ التَّقَدُّمِ⁽³⁾ مِنْ خِلَالِ خُطَابِ (الْمَوْلُفِ الضَّمْنِيِّ)، فِي الْمَقَامَةِ الْحَجْرِيَّةِ، يَقُولُ أَبُو زَيْدِ السَّرُوجِيِّ مَخَاطَبًا الْحَارِثَ بَنَ هَمَّامٍ:

وَيَعِجُّنِ الْجِدَّ بِمَاءِ الْهَزْلِ
فَالطَّلُّ قَدْ يَبْدُو أَمَامَ الْوَيْلِ
إِنْ يَكُنِ الْإِسْكَندَرِيُّ قَبْلِي
وَالْفَضْلُ لِلْوَابِلِ لَا لِلطَّلِّ"⁽⁴⁾

الْخُرُوجُ عَلَى النَّسَقِ يَحْتَاجُ إِلَى قَانُونٍ آخَرَ، قَانُونِ الْبِقَاءِ لِلأَصْلِحِ، وَالأَصْلِحُ هُوَ السَّرُوجِيُّ، كَمَا أَنَّ الأَصْلِحَ هُوَ الْوَابِلُ لَا الطَّلُّ. فَالْبَرَعَمُ مِنْ تَقَدُّمِهِ عَلَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ بَرَّهَ فَضْلَهُ.

هَذَا الْقَانُونُ (الْبِقَاءُ لِلأَصْلِحِ) يَبْرُزُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِي مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ، فَقَدْ بَرَّ السَّرُوجِيُّ سَحْبَانَ بْنَ وَائِلٍ فِي بِلَاغَتِهِ وَفِصَاحَتِهِ. فِي الْمَقَامَةِ الْكُوفِيَّةِ يَقُولُ الرَّاوي: " حَكَى الْحَارِثُ بَنَ هَمَّامٍ قَالَ: سَمَرْتُ بِالْكَوْفَةِ فِي لَيْلَةٍ أَدِيمُهَا ذُو لَوْنَيْنِ، وَقَمَرُهَا كَتَعْوِيذٍ مِنْ لُجَيْنٍ، مَعَ رُفْقَةٍ غَدُوا بِلِبَانِ الْبَيَانِ، وَسَحَبُوا عَلَى سَحْبَانَ ذَيْلِ النَّسِيَانِ، مَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ يُحْفَظُ عَنْهُ وَلَا يُتَحَفَّظُ مِنْهُ، وَيَمِيلُ الرَّفِيقُ إِلَيْهِ وَلَا يَمِيلُ عَنْهُ."⁽⁵⁾

وَفِي الْمَقَامَةِ الْمَرَاغِيَّةِ يُوكِّدُ الرَّاوي هَذَا النَّسَقَ السَّائِدَ، حَيْثُ " فَأَجْمَعَ مَنْ حَضَرَ مِنْ فُرْسَانَ الْبِرَاعَةِ، وَأَبْنَابِ الْبِرَاعَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مَنْ يُنْفَعُ الْإِنْشَاءَ، وَبِتَصَرُّفٍ فِيهِ كَيْفَ شَاءَ، وَلَا خَلْفَ، بَعْدَ السَّلْفِ، مَنْ يَبْتَدِعُ طَرِيقَةً غَرَاءَ، أَوْ يَفْتَرِعُ رِسَالَةً

(1) الأحزاب: 21.

(2) مقامات الحريري، شرح الشريشي، مقدمة المؤلف، ج 1، ص 29.

(3) انظر: نفسه، ج 1، ص 35.

(4) نفسه، ج 5، ص 284.

(5) مقامات الحريري، شرح الشريشي، ج 1، ص 189.

عذراء، وأنَّ المُفْلِقَ من كُتَابِ هذا الأوانِ، المُتَمَكِّنَ من أزمَةِ البَيَانِ، كالعِيَالِ على الأوائِلِ، ولو مَلَكَ فَصَاحَةً سَحْبَانِ وائِلٍ".⁽¹⁾

كَلِّ اللّاحِقِينَ - إذن - عيالٌ على الأوائِلِ، حتى لو أوتُوا مِنَ الفصاحَةِ والبَيَانِ ما أوتي سَحْبَانُ بِنُ وائِلِ خطيبُ العربِ. ولكنَّ هَذَا النِّسْقَ يخرِفُهُ ظهورُ أبي زيدِ السَّرُوجِيِّ. فقد " كان بالمَجْلِسِ كَهْلُ جَالِسٍ في الحاشيةِ ... فلَمَّا نُثِلَّتِ الكَنَائِنُ، وفاءتِ السَّكائِنُ... أقبلَ على الجَماعَةِ وقال: لَقَدْ جُنْتُمُ شَيْئًا إِذَا، وَجُرْتُمُ عَنِ القَصْدِ جِدًّا، وَعَظَّمْتُ العِظَامَ الرُّفَاتِ، وافتتَمْتُ في المَيْلِ إلى مَنْ فات... وهل للقدِّماءِ إذا أنعمَ النَّظَرُ، مَنْ حَضَرَ، غَيْرُ المَعانِي المَطْرُوقَةِ المَوارِدِ، المَعقُولَةِ الشَّوارِدِ، المَأْتُورَةِ عَنْهُمُ لَتَقادِمِ المَوالِدِ، لا لتقدِّمِ الصَّادِرِ على الوارِدِ؟"⁽²⁾

إنَّ السَّرُوجِيَّ نَفْسَهُ أوَّلُ المَعترضِينَ على هَذَا النِّسْقِ الَّذِي يَرى الأوائِلَ لا يجارُونَ، وإنَّه لَقولٌ عَظِيمٌ، وميلٌ عن الطَّرِيقِ القويمِ أن يُغَمَطَ حَقُّ اللّاحِقِينَ، فما للسَّابِقِينَ غَيْرُ المَعانِي المَطْرُوقَةِ (المَعانِي لِمِلاقاةٍ في الطَّرِيقِ) وليس لَهُمُ فَضْلٌ على اللّاحِقِينَ؛ لأنَّهم ولِدُوا في ذَلِكَ الزَّمانِ. لذلكِ فإنَّ السَّرُوجِيَّ يُوَدِّدُ قولَهُ بالمَعْرِفَةِ: "وإني لأَعْرِفُ الآنَ مَنْ إذا أنشأ، وشئى، وإذا عَبَّرَ، حَبَّرَ، وإنَّ أسهَبَ، أذهَبَ، وإذا أوجَزَ، أعجَزَ، وإنَّ بَدَّه، شدَّه، ومتى اختَرَعَ، خرَّع، فقالَ لَهُ ناظورَةُ الدِّيوانِ، وعينُ أولئِكَ الأعيانِ: مَنْ قارعُ هذِهِ الصِّفاةِ، وقَرِيعُ هذِهِ الصِّفَاتِ؟ فقال: إنَّه قِرْنُ مَجالِكَ، وقَرِينُ جِدالِكَ." ثمَّ أنشأ لَهُمُ رسالةً بهرهم ببلاغته وفصاحته. " فلَمَّا فرَغَ من إِملاءِ رِسالَتِهِ، وجَلَّى في هَبِجاءِ البِلاغةِ عَن بَسالَتِهِ، أرضَتَهُ الجَماعَةُ فِعْلاً وقولاً، وأوسَعَتَهُ حَفَاوَةً وطولاً."⁽³⁾

انكسر - إذن - ذلك النِّسْقِ الَّذِي يتخفَّى تحتِ قناعِ الثَّقافةِ الجَمعِيَّةِ، إنَّ اللّاحقَ لا يقلُّ شأنًا عن الأوائِلِ، بل قد يفوقُهُمُ براعةً وفضلًا.

وفي هذا المقام يُقرأ سبقُ مقاماتِ الحريريِّ مقاماتِ الهمذانيِّ، مع أنَّ الأخيرةَ لها فضلٌ (الأوائِلِ).

والسؤال: كيف استطاع الحريريُّ أن يزيح مقاماتِ البديعِ إلى الهامشِ؟

حينمًا يتحوَّلُ النِّصُّ الأدبيُّ إلى نموذجٍ، فإنَّه ينتقلُ من الحالةِ التَّجريبِيَّةِ إلى الحالةِ المَعيارِيَّةِ، ويصبحُ مركزًا يشكِّلُ - فيما بعدُ - سلطَةً تتحكَّمُ في القيمةِ والمعنى واللَّغَةِ والتَّجربةِ، فبذلكِ يكونُ سلطَةً؛ لأنَّه يُصبحُ تجسيدًا - افتراضيًا - للمثالِ أو التَّموذجِ.⁽⁴⁾ "واكتمالُ النِّصِّ وتماهُهُ هو ما يصعدُ به من المستوى التَّجريبِيِّ - الَّذِي يعنى التَّحقيقَ التَّوعِيَّ والجُزئيَّ والهامشيَّ والنَّاقصَ - إلى المستوى المَعيارِيِّ."⁽⁵⁾ ولذلكِ يتحوَّلُ النِّصُّ إلى وحدةٍ متعالِيَّةِ على الواقعِ، إنَّه يجعلُ النِّصَّ مستبدًا بما يمنحُهُ من قيمِ الصِّحَّةِ والكمالِ، فيعودُ متسلِّطًا على النِّصوصِ، فينتقلُ من الحاشيةِ إلى المتنِ، فالعلاقةُ - إذن - بينَ النِّصِّ الأدبيِّ والنَّموذجِ علاقةٌ تَنافٍ وتناقضٍ وجوديِّ، وذلكِ أنَّ النَّموذجَ يخلقُ حجابًا يمنعُ النِّصَّ من أن يتحرَّكَ خارجَ سلطتِهِ إلا إذا تحوَّلَ هو الآخرُ إلى نموذجٍ، وفي هذه الحالةِ يزيحُ النَّموذجُ (الجديدُ) النَّموذجَ (السَّابِقَ) من المركزِ إلى الحاشيةِ، ويحتلُّ سلطتَهُ وسطوتَهُ. إنَّ ما حدَثَ للمقاماتِ تحوُّلٌ في السلطَةِ من التَّموذجِ إلى النِّصِّ. فقد كانتْ مقاماتُ الهمذانيِّ تمثِّلُ التَّموذجَ الأمثلَ في المقاماتِ، إنَّه النِّصُّ الَّذِي تحوَّلَ من الهامشِ إلى المركزِ، ومن التَّجريبِيَّةِ إلى المَعيارِيَّةِ، فعلى مَنْ يريدُ إنشاءً (نصيِّ) في المقاماتِ أن يتبَّعَ ذلكَ النَّموذجَ، ويمارسَ قيمَهُ الفنيَّةَ، وتقاليدهُ الكتابِيَّةَ. وهكذا ظلَّ هَذَا النِّصُّ (مقاماتُ الهمذانيِّ) قرابةَ القرنينِ من الزَّمنِ التَّموذجِ الَّذِي يجتريُّ المبدعونَ نُصوصًا على منوالِهِ، إلى أن جاءَ الحريريُّ في القرنِ السَّادِسِ الهجريِّ، فوعى التَّموذجَ

(1) نفسه، ص 224.

(2) نفسه، ص 225 - 228.

(3) مقاماتِ الحريريِّ، شرح الشريشي، ج 1، ص 252 - 259.

(4) انظر: صالح زباد، الفارئ القياسي: القراءة وسلطة القصد والمصطلح والنَّموذج - مقاربات في التَّراثِ النِّقدي، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 2007م، ص 167.

(5) نفسه، ص 167.

الهمداني، وعرف صعوبة المهمة التي سيقوم بها. " هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سبأ غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدّي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة فدامة، لا يغترب إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته. "(1)، ولكنّه أزاح هذا النموذج، حينما أنشأ نصّه، فتحوّلت مقامات الحريري إلى المركز، وأزاحت مقامات الهمداني إلى الهامش بل جعلتها كالمنسية. " فعمل مقاماته الخمسين المشهورة، فجاءت نهاية في الحسن، وأتت على الجزء الوافر من الحظ، فأقبل عليها الخاص والعالم، حتى أنست مقامات البديع، وصيرتها كالمرفوضة. "(2) و" مع علمه بفضل مقاماته على مقامات البديع، ومن أدل دليل على ذلك، أنّه مذ ظهرت مقامات الحريري لم تستعمل مقامات البديع، ثمّ إنّه طبّق استعمالها آفاق الأرض. "(3)

إنّي أزعم أنّ الحريري في مقاماته خلق شخصيته على مثال نمطي (مقامات بديع الزمان الهمداني)؛ ليخرج عليه بمثال آخر يبينه هو ضمن أطر فكرية وثقافية لديه، تنزع نحو الخروج من إكراه الثقافة السائدة التي تمارس ضغطاً على المثقف ليبقى ضمن إطارها، وإلا حكمت عليه بالخروج عن الانتماء. إنّ الحريري كان يبحث عن سيادة ثقافية تُعبر عن خلال النموذج، فتخطّم كثيراً من بنيته - في الخفاء - لتعيد تشكيل نموذج آخر يتسبّد؛ إذ إنّ الثقافة تفرض هيمنتها في إطار محدّد على الفرد - أو على حدّ تعبير جونثان كولر - على " القارئ الكفاء"، فهو يتمثل أعراف الثقافة واستراتيجيتها وأدواتها، لكنّها لا يمكن أن تفرض هيمنتها على الفرد المبدع، أو على حدّ تعبير جونثان كولر أيضاً " القارئ القوي"، الذي لا يستجيب لمحاولة الهيمنة التي يفرضها عليه نمط التلقّي العام، وأفق الثقافة السائد، ويعمل على تقديم ثقافة جديدة ومختلفة. يقول إدوارد سعيد:

" العقل الفردي يدوّن، من ناحية أولى، جماعية الكل، أو البيئية، أو الموقف الذي يجد نفسه فيه، وهو على أتم إدراك بذلك. ومن ناحية ثانية، ونظراً لهذا الإدراك بالتحديد - أي وضع الذات في موضع دنيوي - ردّ فعل حاسم تجاه الثقافة المهيمنة. فإنّ الوعي الفردي ليس مجرد طفل للثقافة بكلّ بداهة وبساطة، ولكنّه فاعل فمّا اجتماعياً وتاريخياً. وبسبب تلك النظرة، التي تقدّم الظرف والتمايز في المكان الذي لم يكن فيه من قبل سوى المجاراة والانتماء، هنالك مسافة، أو ذلك الشيء الذي يمكننا دعوته بالنقد، فمعرفة التاريخ وإدراك أهمية الظرف الاجتماعي، وقدرة تحليله على الإتيان بالفروق: هي الأمور التي تقض مضاجع السلطة شبه الدينية، مخافة أن تجد لها مراحاً داخل الوطن، وبين ظهر انبي الشعب، وأن تتعزّز من قبل قوى معروفة وقيم مستحبة، وأن تتحصن ضدّ العالم الخارجي. "(4)

وإذا كان النصّ المكتوب في ضوء هذه الإشكالية يقتضي، بحكم هيمنة الثقافة أن يصير نمطاً قاراً؛ فإنّه سيتحوّل - حسب تعبير "Auroux" في حقل إنتاج النصّ بقوله: إنّ " النصّ المكتوب هو حالة من الموت. "(5)

لذلك نجد أنّ الحريري يضطلع بمهمة غاية في الخطورة؛ إذ هو أمام نموذج كاد يكون النموذج المثال، وهو يعي ذلك كلّ الوعي؛ فالتحدي الأكبر له هو مقدرة على بعث المكتوب بعد أن صار في حالة موت. هذا الموت في الواقع رآه الحريري في السياق الأكبر، إنّ موت يهدد اللغة والأدب. يقول الحريري في مقدمته: " وبعده، فإنّه قد جرى ببغض أنديّة الأدب الذي ركّدت في هذا العصر ريحاً، وخبّت مصابيحاً، ذكّر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همدان، رحمه الله تعالى. "(6)

(1) مقامات الحريري، شرح الشريشي، ج 1، 29 - 32.

(2) الفلقشندي، صبح الأعمش في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ج 14، ص 110.

(3) مقامات الحريري، شرح الشريشي، ج 1، 34.

(4) إدوارد سعيد، العالم والنصّ والناقد، ت: عبد الكريم محفوض، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000م، ص 15.

(5) Auroux S: La philosophie du langage Paris puf 1996 p194.

(6) مقامات الحريري، شرح الشريشي، ج 5، ص 21.

ثم يقول: "مما أُمليْتُ جميعه على لسانِ أبي زيدِ السَّرُوجِيِّ، وأسندتُ روايتهُ إلى الحارثِ بنِ هَمَّامِ البِصْرِيِّ، وما قصدتُ بالإخماضِ فيه، إلا تنشيطَ قارئيه، وتكثيرَ سوادِ طالبيه... على أُنِّي وإنْ أغمضَ لي الفطنُ المتغابي ونضحَ عني المحبُّ المحابي، لا أكادُ أخلصُ منْ غمِّ جاهلٍ، أو ذي غمِّ متجاهلٍ، يضحُّ مني لهذا الوضعِ، وينددُ بأنه منْ مناهي الشُّعْ، ومنْ نقدَ الأشياءِ بعينِ المعقولِ، وأنعمَ النَّظَرَ في مباني الأصولِ، نظَّم هذه المقاماتِ، في سلكِ الإفاداتِ، وسلكها مسلكَ الموضوعاتِ، عن العجماواتِ والجَماداتِ، ولم يُسمعَ بمنْ نبا سمعُه عن تلكَ الحكاياتِ، أو أتمَّ روايتها في وقتٍ من الأوقاتِ."⁽¹⁾

إنَّ ما قام به الحريري من عمل على زخرفة النَّصِّ لفظاً وتعميقه معنى جعل من هذا النَّصِّ ظاهرةً جماليةً قادرةً على تجاوز حالة الركود في الأدب وبعثه من جديد، وأعدت للمقامات صدارة التداول من جديد، فأعدت لأندية الأدب الحيوية والنشاط بعد أن عراها الخمول والجمود؛ فكانت مقاماته هي التي تتسيّد المشهد التداولي الأدبي حتى طبقت الأفاق.

(1) نفسه، ص 29 - 45.

قائمة المراجع

المراجع بالعربية:

- 1- بروكلمان (كارل)، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحلیم التّجّار وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ط5، د.ت.
- 2- حباشة (صابر)، التداولية من أوستن إلى غوفمان، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007م.
- 3- الحريري (أبو محمّد القاسم بن علي)، مقامات الحريري، دار الكتاب اللبناني، 1986م.
- 4- الحموي (ياقوت)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م.
- 5- خليفة (حاجي)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مطبعة وكالة المعارف، مصر، 1943م.
- 6- روبول (آن) و (موشلار) جاك، التداولية اليوم، ترجمة: د.سيف دغفوس، ود. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2003م.
- 7- الزنّاد (الأزهر)، نسيج النّصّ: بحث فيما يكون به الملفوظ نصّاً، المركز الثّقافي العربي، بيروت، ط1، 1993م.
- 8- سعيد (إدوارد)، العالم والنّصّ والعالم، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000م.
- 9- الشّريشي (أبو العباس)، شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، ط1، 2004م.
- 10- صالح زّناد، القارئ القياسي: القراءة وسلطة القصد والمصطلح والنّمودج- مقاربات في الثّراث النّقدي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2007م.
- 11- صحراوي (مسعود)، التداولية عند العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني)، دار الطليعة، بروت، ط1، 2005م.
- 12- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، مصر. د.ت.
- 13- كاتب جلي حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار سعادت، ط1، د.ت.
- 14- كيليطو (عبد الفتاح) "المقامات السرد والأنساق الثّقافيّة"، ترجمة: عبد الكبير الشرفاوي، دار توبقال للنشر، الدّار البيضاء، ط1، 1993م.
- 15- الهمداني (أبو الفضل بديع الزّمان)، المقامات، تحقيق: محمّد عبده المصري، الدار المتّحدة للنّشر، بيروت، ط2، 1983م.

المراجع بالإنجليزية:

Auroux S: La philosophie du langage Paris puf 1996.

نظرية النحو العربي في ضوء التداولية والحجاج (كتاب سيبويه نموذجاً)

د. عمارية حاكم

جامعة الدكتور مولاي الطاهر بسعيدة - الجزائر

ملخص:

إن ما جاء في كتاب سيبويه يتخطى حدود اللغة كما يتخطى حدود الزمان والمكان، والدليل على ذلك أنه لم يظهر كتاب منذ القرن الثاني الهجري إلى يومنا هذا؛ فيه نحو جديد يضبط لنا لغتنا، أو يعوض ما جاء به سيبويه، ولهذا الأمر كتب لمؤلف سيبويه (الكتاب) الخلود، حتى قال عنه الجاحظ: "كل من جاء بعد سيبويه فهم عيال عليه". ولا أحد يختلف مع الآخر في أن اللغة تؤخذ استعمالاً لا قاعدة، والتداولية هي العلم يدرس اللغة أثناء الاستعمال الحي الذي قام بتوضيحه سيبويه، إذ وجدناه لا يكتفي بتقديم الأمثلة من كلام العرب ليستخرج قاعدة، أو يثبت حكماً؛ بل يستعين على ذلك بالشاهد القرآني ثم الشعري ثم النثري؛ محتكماً إلى كلام العرب الفطري الفصيح؛ أي معتمداً على الاستعمال اللغوي بكل ما يشوبه أو يسمه من مظاهر تحويل أو قلب، أو استبدال أو غيرها من المظاهر اللغوية إن صوتاً أو نحواً أو صرفاً، ولأن التواصل الإنساني - جملة - قائم على الحجاج، فإن الفاعلية الحجاجية تقوم بهتك أسرار الخطاب واستجلاء خباياه، وترسيخ قيم الحوار والإقناع واحترام الاختلاف؛ لأن الحجاج هو توجيه خطاب من متكلم إلى متلق في سياق معين، حيث لا يقدم أي خطاب إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة.

ووفق هذا التقديم المختصر، أحاول أن أعالج في بحثي كيف تمكن سيبويه من وضع قواعد النحو العربي جملة وتفصيلاً، وكيف أن هذه القواعد على الرغم من كل مساعي وجهود الباحثين من أجل تيسير تعليم قواعد النحو العربي، لم تتغير بل هي ثابتة، وإن مسها التغيير فهو في مجال إعطاء أمثلة بسيطة من واقع كل جيل، وذلك أن لكل جيل عصره ومفرداته، وطاقة فهمه واستيعابه، وبإخضاع نظرية النحو العربي عند سيبويه للنظريات الغربية الحديثة؛ فإننا قد وجدنا أن سيبويه قد نظر للنحو العربي لينسجم مع كل العصور ومع كل النظريات الحديثة التي سنتناول منها التداولية والحجاج فقط، حيث إنه لا تواصل من غير، ولا حجاج بدون تواصل من وجهة نظر الباحث أبي بكر العزاوي آخذاً هذا الرأي عن أستاذه (أوستين / Austin) وكذلك الباحث (سورل / Seurl) أبرز منظري التداولية والسلالم الحجاجية، بالإضافة إلى الباحثين (شايم بيرلمان / Chayim Perelman) والباحثة (أولبريخت تيتيكا / Olbrikht Tytica) أبرز منظري البلاغة الجديد (مصنف في الحجاج)، لأوضح أن التراث العربي قد سبق النظريات الغربية الحديثة بقرون كثيرة، فقط إن عصر سيبويه أم يتمثل المصطلحات الغربية الحديثة. دون إنكار أن هذه النظريات اللسانية قد افدنا منها كثيراً، لأنها استطاعت أن تعيدنا إلى قراءة التراث قراءة حديثة تتوافق مع متطلبات العصر بكل مستجداته وفي كل مجالات الحياة، نخص بالدراسة مجال العلم والمعرفة.

الكلمات المفتاح: النحو، التداولية، الحجاج، نظرية النحو، كتاب سيبويه.

Abstract :

What appears in the book Seboyeah transcends the boundaries of the language as it transcends the limits of time and space, evidence that there has not been a book since the second century AH to this day; a new direction to control our language, or make up for what Siboyeh, and this is written to the author "No one disagrees with the other in that language is used as a rule, and deliberation is the science of studying the language during the living use that Sibweh explained, as we found it.

Not only provide examples from the words of the Arabs to extract a rule, or prove a ruling; but the use of this witness Quranic and then to the prose; The use of language with all its flaws or manifestations of conversion or heart, or the replacement or other manifestations of language is a voice or a wave or exchange, and because human communication - a comprehensive - based on the pilgrims, the effectiveness we have found that Seboyeah had seen the Arab way to fit with each And with all the modern theories that we will deal with from

deliberation and pilgrims only, as it does not continue without, and pilgrims without a continuum from the point of view of the researcher Abu Bakr al-Azzawi, taking this view of his teacher (Austin/ Austin) as well as the researcher (Seurl) And pilgrimage stairs, as well as researchers (Chayim Perelman) and researcher (Olber Yacht Titica (the most prominent theoreticians of the new rhetoric (classified in pilgrims), to clarify that the Arab heritage has preceded the modern Western theories for many centuries, only the era of Sibweh or modern Western terminology. Without denying that these linguistic theories have benefited from them a lot, because it was able to bring us to read the heritage reading modernity correspond to the requirements of the age in its developments and in all areas of life, the study of science and knowledge.

Keywords: grammar theory, communication, deliberation, pilgrims, Sebwayeh book

تمهيد:

رغم التباين الكبير في الظروف التي تكشف كلا من المنهجين: العربي والغربي والسياقات التاريخية والثقافية الخاصة التي يتميز بها كل واحد منهما، لم تعد المقابلة ما بين منهج سيبيويه أو سواه من اللغويين العرب القدامى في دراسة اللغة، وبعض مناهج المدارس اللغوية الحديثة ضرباً من المجازفة أو المفارقة بسبب ما تنطوي عليه من مقارنة بين لغات تنتمي إلى أسر لغوية مختلفة⁽¹⁾، وذلك أن ثمة قدراً كبيراً من التشابه بينهما في الاتجاهات والآراء والنظريات المتصلة بالبحث اللغوي التي قد يخيل إلى المتأمل والمتمعن فيها أنها صدرت من منبع واحد⁽²⁾، وليس أدل على ذلك ما أقر به كبار الباحثين اللغويين أمثال كارتر - كما سبق الذكر -

إن مجال الدراسة ليس بتحديد فضل التقدم والسبق لسيبيويه، وإنما هو الكشف عن الملامح المشتركة بين ما جاء به في الكتاب منذ قرون، وبين الاتجاهات الغربية الحديثة كعلم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistics)، والأنثروبولوجيا اللغوية (Linguistic Anthropology)، كما رأيناها في مبحث السياق الاجتماعي عند سيبيويه، بالإضافة إلى الفلسفة وعلم النفس والتداولية (Pragmatique) التي أسهبنا في تناولها لعلاقتها الوطيدة بالتبليغ ودورها الفعال في الكشف عن مقاصد المتكلمين، ومن العجب أن يجد الباحث كل ما يضارع هذه الاتجاهات والنظريات الغربية في كتاب سيبيويه، يتضح هذا من خلال المقارنة بين سيبيويه وأبرز أعلام اللغة الغربيين، أمثال: دي سوسير، ومالينوفسكي، وبلومفريد، وكفتكنشتاين، وهابرماس (Habermas) وأوستين وغيرهم. ونشير إلى أن كثيراً من العلماء الغربيين - أنموذج المقارنة - يعترفون بأن دراساتهم اللغوية لم تنفتح على سائر العلوم الاجتماعية، ولم تتكامل مع الدراسات الإنسانية المختلفة إلا بدءاً من منتصف القرن العشرين⁽³⁾، نستدل على ذلك بأحد الأنثروبولوجيين: وهو مالينوفسكي الذي يطالب النحويين بتغيير المنهج الذي يتبعونه في بحوثهم اللغوية والمقتصر على الأوراق والأعمال المكتوبة، مقترحاً عليهم تبني المنهج التجريبي الذي يعتمد اللغة المنطوقة الحية مادة أساسية للبحث⁽⁴⁾. والحق: إن المقام لا يتسع لعرض كل أوجه التشابه بين سيبيويه وأبرز الأعلام السابق ذكرهم، وإن كنت قد أشرت سابقاً إلى كثير من النقاط المتعلقة بذلك، ولذلك سأعرض إلى المقارنة بصورة مقتضبة لتدارك ما يكون قد فاتني من إشارات جلييلة، لم أذكرها من قبل في متن هذا البحث.

(1) ينظر: أثر سياق الكلام في كتاب سيبيويه، ص: 109

(2) ينظر: نظرية النحو العربي، نهاد الموسى، ص: 20

(3) ينظر: New horizons in linguistics, John Lyons (Editor) England, Penguin Books, 1972, p: 08-09

(4) ينظر: The dilemma of contemporary linguistics in language in culture and society, Bronislaw Malinowski, New York, Harpers and Maw publishers, 1964

أ. 1. التبليغ السيبري وبعض اتجاهات الدرس اللغوي عند الغرب. أ سيويه ودي سوسير:

لا أحد ينكر قيمة كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" لصاحبه فردينان دي سوسير الذي ظهر سنة 1916 أي بعد وفاة صاحب هذه المحاضرات بثلاث سنوات (1913)، إذ كان فاتحة عهد جديد بالنسبة للدراسات اللسانية بوجه خاص والعلوم الإنسانية بوجه عام⁽¹⁾، وبخاصة عندما تحدث عن "علم اللسان الخارجي" الذي يعنى بدراسة تاريخ الشعوب وحضاراتها لفهم البيئة اللسانية الداخلية الخاصة بكل منها⁽²⁾، ولذلك ذهب دي سوسير إلى أنه ينبغي دراسة تعبيرات ومفردات لغة شعب ما داخل نظامها اللغوي الخاص، إذ لا وجود لتلك التعبيرات إلا في علاقتها وفي تقابلها مع الكلمات الأخرى التي ارتبطت بها⁽³⁾.

ولقد استطاع دي سوسير بحق أن يخرج الدرس اللغوي من التصورات الفلسفية، والأحكام المسبقة التي فرضتها ظروف فكرية سادت أوروبا ردا من الزمن من خلال اعتماده على مجموعة من المبادئ، غدت هي الموجه الأساس للدرس اللساني الأوروبي بوجه خاص، والدراسات اللسانية العالمية بوجه عام، وهي السمات التي لازالت تطبع التفكير اللغوي الأوروبي بخاصة في وجهيه اللساني المحض من جهة، والسيميائي ذي التوجه النقدي الأدبي من جهة أخرى⁽⁴⁾.

ولعل أهم تغيير أحدثه دي سوسير في تاريخ علم اللغة الحديث عند الغرب هو ضرورة الابتعاد عن المنهج الزماني (Diachronique) في دراسة اللغة، وإتباع المنهج التزامني (Synchronique) الذي يبحث في التقنيات والطرق التي يتكلم بها الناس في مجتمع لغوي محدد وفي وقت معين⁽⁵⁾، جاعلا اللغة المنطوقة في المقام الأول لدراستها دراسة موضوعية كما هي وكما تظهر؛ أي في ذاتها ومن أجل ذاتها بغية الكشف عن حقيقتها⁽⁶⁾.

وهكذا يكون ما نادى به دي سوسير في الغرب في القرن العشرين، قد سبقه إليه سيويه وأسلافه من النحاة منذ ما يزيد عن اثني عشر قرنا⁽⁷⁾، حينما قامت أسس نظرياتهم اللغوية على اللغة المنطوقة التي كانوا يسمعونها من معينها، أي بصورة مباشرة من الناطقين بها، مع ما وضعوا لهذه المادة المسموعة من شروط زمانية ومكانية لصحة الأخذ والقبول بها⁽⁸⁾، ولقد أشرنا إلى هذه الشروط في مسألة الاحتجاج.

ولقد ألمح سيويه في مواطن كثيرة من كتابه إلى أهمية دراسة بعض التراكيب العربية من خلال ربطها بتراكيب أخرى مستعملة لدى العرب وقياسها عليها، مشددا على أن تكون هذه التراكيب متداولة في بيئتهم، وإلا قوبلت بالفرض إن كانت منسجمة نحويا، فالمنطق العام أو السليقة الفطرية الطبيعية للناطقين الأصليين هي مقياس الصحة أو عدمها، كما في "باب الاستقامة والإحالة" هذا فضلا عن وعيه بضرورة إشراك العوامل الخارجية غير اللغوية في تحليل اللغة وتقعيدها خاصة ما تعلق بسياق الموقف.

(1)- ينظر: محاضرات في اللسانيات العامة، فردينان دي سوسير، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، 1987، ص: 03

(2)- ينظر: أثر سياق الكلام في كتاب سيويه، سارة الخالدي، ص: 112

(3)- ينظر: محاضرات في اللسانيات العامة، دي سوسير، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص: 31-32

(4)- ينظر مقال: سيويه والنقد اللساني، د. نصر الدين بوحسين، مجلة دراسات أدبية، دورية محكمة، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 08، 2010، ص: 109

(5)- ينظر: أثر سياق الكلام عند سيويه، ص: 112-113

(6)- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود السعدان، دار المعارف، مصر، د.ط، 1962، ص: 52

(7)- نظرية النحو العربي، نهاد الموسى، ص: 23-44

(8)- من تاريخ النحو العربي، حلي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1995، ص: 37-38

ب. سيبويه وبلومفيلد:

سبق الحديث عن سيناريو "جاك وجيل والتفاحة" في نظرية التبليغ عند "بلومفيلد"، فمن يكون هذا الرجل؟ ليوناردو بلومفيلد "Leonardo Bloomfield" من أبرز الأعلام اللغويين وأكثرهم تأثيراً في تاريخ علم اللغة الأمريكي في أوائل القرن العشرين⁽¹⁾، درس اللغة من منظار أنثروبولوجي وعلمي⁽²⁾، غير أنه قد تبني المذهب السلوكي (Behaviouristic School) في تحليل الكلام الذي يقوم على اكتشاف ما سوف يفعله الفرد في موقف معين أحيان يرى شخصا ما يفعل شيئاً، وهذه الطريقة تساعد على التنبؤ بالاستجابة حين نعرف "المنبه" أو "المثير"⁽³⁾.

يفهم مما سبق أننا، أن بلومفيلد ينظر إلى الحدث الكلامي على أنه صورة من صور السلوك الجسماني، ولذلك يتطلب فهم الموقف تحليل الأحداث العملية التي تسبقه والتي تلحقه زيادة عن دراسته هو بحد ذاته⁽⁴⁾، وأفضل نموذج يقدمه بلومفيلد عن تصوره هذا هو سيناريو (جاك وجيل والتفاحة) الذي تمت الإشارة إليه في أكثر من موضع من هذا البحث. وإذا كان بلومفيلد قد أورد نموذجاً واحداً لتصوره، فإن في الكتاب شواهد كثيرة يصور فيها سيبويه مشاهد من الأحداث الكلامية التي نتجت عن مثيرات لغوية وغير لغوية، ذكرناها أكثر من مرة في مواضع تطلبت التمثيل بها، ولا بأس من ذكرها مرة أخرى للتدليل على مزاعمنا وهي كالاتي:

■ الأحداث العملية السابقة على الكلام (رد الفعل اللغوي):

المثير اللغوي/المثير غير اللغوي

- رؤية الحاج. "مكة والله"
- رؤية رجل يضرب أو يقتل أو يشتم. "زيداً"
- رؤية رجل يكاد يرتطم بالحائط. "رأسك والحائط"
- رؤية رجل يسدد سهماً نحو القرطاس ثم سماع صوت تسديد السهم دون رؤيته "القرطاس والله".
- رؤية أناس يرقبون الهلال ثم سماع صوت تكبيراتهم. "الهلال ورب الكعبة"

يلاحظ صاحب النظر الثاقب أن عنصر الاستجابة مغيب، وكذلك الأحداث التي تلي الحدث الكلامي، ولذلك ما يبرره عند صاحب الكتاب، وهو توقعات المتكلم، وهذا ما يعرف في علم النفس اللغوي (Psycholinguistique) بـ"تداعي المعاني" "Word association game" أو "Stimulus and response model"، حيث يعرض العالم أو الباحث اللغوي مجموعة من المثيرات (stimulus) أمام أحد الأشخاص ليدرس استجابته الكلامية الفورية عليها⁽⁵⁾.

ج. سيبويه وتشومسكي:

يتفق تشومسكي في كثير من الجوانب مع سيبويه، خاصة ظواهر التحويل كالتقديم والحذف والزيادة وغيره وكذا قواعد الاشتقاق، ولا يتسع المقام هنا لعرض أوجه التشابه والاختلاف بينهما، فقط أننا سنلمح إلى الجانب النفسي في كتاب سيبويه في دراسة اللغة والذي يحتل حيزاً مهماً، لذلك يذهب تشومسكي إلى أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين علم اللغة وعلم النفس، على الرغم من

(1)- ينظر، أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 114

(2)- نفسه

(3)- ينظر: النحو العربي، عبده الراجحي، ص: 37

(4)- نفسه، ص: 38-39

(5)- ينظر: : p 198, Clark's New Horizons in Linguistics, England, Penguin Books, 1972

اختلاف وجهات النظر بين الحقلين أثناء التطبيق، وذلك أن النواحي النفسية تتدخل في عملية بناء التركيب، إذ هي المسؤولة عما قد ينتج عن ذلك من أخطاء أو تشوهات أو جمل غير تامة تزيد أو تغير في تسلسل الكلام⁽¹⁾، وهذا الذي يلمسه الباحث عند سيبويه حين تحدث عن بدل النسيان والغلط حين يستدرك المتكلم خطأه فيعمد إلى تصحيحه أو حتى الإضراب عنه.

د. سيبويه ومالينوفسكي:

في رسالته "دلالة السياق" يعرفنا "ردة الطلحي" بمالينوفسكي على أنه من أبرز الأنثروبولوجيين (Anthropologistes) الذين أمدوا علم اللغة بأبعاد إنسانية واجتماعية فائقة الأهمية، يظهر ذلك في الأثر الكبير الذي تركه فيمن جاء بعده من اللغويين واللغويين الأنثروبولوجيين، أمثال: فيرث، وجسرسن وجون بيير⁽²⁾.

ويحرص "مالينوفسكي" على أن فهم اللغة يحتاج إلى مساهمات من فروع علمية عديدة، لاسيما من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين يمداننا بفهم أعمق لطبيعة الإنسان وثقافته⁽³⁾، لأنه لا سبيل إلى الفهم العميق للبناء اللغوي ما لم يفهم هذا الإنسان الناطق بهذه اللغة، إضافة إلى الظروف المحيطة التي تكتنف كلامه، وذلك أن معنى أي لفظة يعتمد على السياق الذي وردت فيه⁽⁴⁾.

لقد أصبح واضحاً أن دراسة أي لغة يتكلم بها قوم يحيون ظروفًا معينة مغايرة لظروفنا، ويملكون ثقافة غير التي نملكها، يحتم علينا الإطلاع على ثقافتهم وظروف معيشتهم وخصائص بيئتهم، بل وحتى التعرف على عاداتهم وتقاليدهم التي يظهر أثرها في أنماطهم التعبيرية، وإلا تعذر علينا فهم كلامهم أو مقاصدهم، ولقد رأينا أن سيبويه قد تفتن إلى هذه الحتمية، إذ طبقها تطبيقاً محكماً حين إصراره على إدخال عنصر السياق الواقعي الذي جرى في الكلام الذي كان يحلله ويقعد لمبناه، بالإضافة إلى إشاراته إلى بعض من قيم العرب الاجتماعية، كما رأينا في مبحث السياق الاجتماعي عند سيبويه.

وتأكيداً على وعي سيبويه لمسألة أن دراسة لغة ما، لا يتم إلا بالإطلاع على خصائص أهلها، نورد بعض شواهد على ذلك:

1. يقول في معرض تسويغ الرفع النعت: "له عِلْمٌ عِلْمُ الفقهاء، وإنما كان الرفع في هذا الوجه، لأن هذه خصال نذكرها في الرجل،.. ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل في حال تَعَلَّمٍ ولا تَقَهَّرٍ، ولكنك أردت تذكّر الرجل بفضل فيه... كقولك: له حسبٌ حسبُ الصالحين، لأن هذه الأشياء وما يشبهها صارت تحلية عند الناس وعلامات... وإذا قال: له عِلْمٌ عِلْمُ الفقهاء، فهو يخبر عما قد استقر فيه قبل رؤيته وقبل سماعه منه، ولم يرد أن يخبر أنه إنما بدأ في علاج العلم في حال لقيه إياه، لأن هذا ليس ما يثنى به، وإنما الثناء في هذا الموضوع أن يخبر بما استقر فيه..."⁽⁵⁾.

2. وفي باب منع أن يكون للأسد اسم عِلْمٍ يختص به قال: "وإنما مُنِعَ الأَسَدُ أن يكون له اسم معناه زيدٌ، لأن الأَسَدَ وما أشبهها ليست بأشياء ثابتة مقيمة مع الناس فيحتاجوا إلى أسماء يعرفون بها بعضها من بعض..."⁽⁶⁾.

يتضمن النص الأول تقنية تعليل الحركات الإعرابية (تعليل رفع الاسم "علم" لكونه نعتاً) وكذلك تعليل ما تواضع عليه الناس في تحديدهم لمفهوم الثناء ومعانيه، ويكون سيبويه بهذه التقنية قد ألف بين منهجين، المنهج النحوي (الحركات الإعرابية)

(1) ينظر: The Harvesterpress, Lyons John Chomsky, p : 110-111

(2) ينظر: دلالة السياق، ردة الطلحي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة، 2002، ص: 181

(3) ينظر: « The problem of meaning in primitive langages », in the Malinowski, Bronislam Harcourt, Branc, meaning of meaning and wordinc, 1923, p : 298

(4) أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 118

(5) الكتاب، ج 1، ص: 361-362

(6) الكتاب، ج 2، ص: 94

والمنهج الأنثروبولوجي (تواضع الجماعة)، والقصد من هذا الجمع بين المنهجين، هو أن العلامة الإعرابية لا يتم لها معناها النحوي إلا إذا وقعت في أبعادها الاجتماعية الصحيحة⁽¹⁾.

أما النص الثاني، فإشارة سيبويه جد واضحة، وهي أن الناس ليسوا في حاجة إلى تسمية الأسود في الوقت الذي تكثر فيه الأسماء الخاصة بالحيوان، "ألا تراهم اختصوا الخيل والإبل والغنم والكلاب وما يثبت معهم"⁽²⁾.

وهو الاتجاه نفسه الذي دعا إليه مالمينوفسكي الذي "لاحظ بأن اللغة الأصلية للمتكلمين (Native language) تحوي تراكيب نحوية في منتهى البساطة، وهي إلى ذلك تحتضن قدرة تعبيرية كبيرة تتحقق دائما من خلال المقام والموقف"⁽³⁾.

إن لكل قبيلة أو مجتمع بدائي كما لكل مجتمع متحضر مخزون من الكلمات وأنماط من القواعد التي لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا من خلال ارتباطها بمتطلباتهم العقلية، ومن هنا فإن مهمة الإثنوغرافي (عالم الأنثروبولوجيا الوصفية) (Ethnographer) الكشف عن ذلك المخزون وما يتعلق به من قواعد⁽⁴⁾.

ويبدو أن سيبويه يكون قد كشف عن هذه المسألة منذ قرون، ويظهر هذا جليا في قيامه بمهمة النحوي الذي يقعد واللغوي الذي يفصح والإثنوغرافي الذي يكشف.

ومهما يكن من أمر، فإن علم اللغة الاجتماعي الذي أسهبنا الحديث عنه في مبحث السياق الاجتماعي، يلحظ أن الخطاب يتركز حول الناس أو الأفراد "People - centered"، في حين أن الكتابة تركز على الموضوع (Topiccentered)، إذ الخطاب يولي عنايته الشديدة لجمهور المستمعين أو المشاهدين؛ لأن غايته إشراكهم في الحوار والحديث⁽⁵⁾، ولذلك فإن أغلب الشواهد الواردة في الكتاب تكثر فيها أفعال النهي والأمر والإخبار والاستفهام والتحذير وما شابه ذلك من معاني، ترتبط ارتباطا مباشرا بالأشخاص لا بالموضوعات.

هـ. سيبويه وفنكنشتاين:

تضاربت آراء بعض المفكرين الغربيين حول "فنكنشتاين"، إذ يعدونه الفيلسوف الأول للقرن العشرين، خاصة بعد نشر الكتاب المشهور "Philosophical investigations"، بينما يرى راسل (Russel) وآخرون أن لا فائدة ترجى من هذا الكتاب بناء على نظر الكثيرين من الفلاسفة الذين رأوا أنه غامض ومحير وعسير الفهم⁽⁶⁾، والحق إن "فنكنشتاين" كان يؤخذ الفلاسفة على استعمالهم للغة لا يفهمها كثير من الناس غيرهم، ولذلك غدت الفلسفة لغة خاصة لا يفهمها إلا المتحدث بها⁽⁷⁾، دون أن يلقوا لقواعد النحو بالأول ولا لأساليب التعبير إلا فيما يُعِينُهُمْ على حل قضاياهم الفلسفية⁽⁸⁾، ومن هنا فلا ريب في أن الاتجاه الفلسفي في دراسة اللغة؛ يختلف في أبعاده وغاياته عن الاتجاه اللغوي الصرف في دراسة القضايا اللغوية⁽⁹⁾، ولكن هذا لا يمنع اللغويين من الاستفادة من تحليلات ونظرات الفلاسفة العميقة في جوهر اللغة.

(1)- ينظر: الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه، نهاد الموسى، مجلة حضارة الإسلام، العدد 01، 1974، ص: 74

(2)- الكتاب، ج 2، ص: 94

(3)- نفسه، ج 2، ص: 94

(4)- ينظر: The problem of meaning, p: 300

(5)- ينظر: أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 124

(6)- ينظر: Wittgenstein, understanding meaning, G. P, Baker, p: 05

(7)- ينظر: Wittgenstein on the arbitrariness of grammar, Michael Forster, Princeton, university Press, 2004, p: 01

(8)- ينظر: How to do things with words, Austin, J. L, Oxford university press, 1981, p: 02

(9)- ينظر: Wittgenstein, Rules, grammar and necessity, Baker G.P, Oxford, Bail books Well, 1985, p: 54

يدرك كل باحث مطلع على أعمال "فنكنشتاين" الفلسفية أنه ينتصر للغة الطبيعية، لغة التخاطب التي أكثر الحديث عنها، وذلك أن التواصل أو التخاطب بين الناس "Verbalcommunication" كان شغله الشاغل، وهو الذي أطلق على التخاطب اللغوي اسم "ألعاب الكلام (Languagegames)"، يفهم من هذا أن ممارسة اللغة عنده تعني بأن هناك طرفا ما ينطق بالكلمات، وطرفا آخر يعمل وفقها⁽¹⁾، على قدر ما تم فهمه واستيعابه لما سمعه، لذلك وجدناه يطرح تساؤلاته حول الكيفية أو التقنية التي يصل بها المعنى من المتكلم إلى المستمع، وعلاقة ذلك بالسياق الذي يرد فيه الكلام، قائلا: "هل يتوقع المتكلم أن يصل المعنى الذي أراده من كلامه إلى المخاطب كما هو مائل في ذهنه هو، أم أنه ينتظر من هذا المخاطب أن يخمن فحوى كلام محدثه؟ وإذا حاول المتكلم توضيح مراده من خلال الأمثلة، فقد يتبادر إلى ذهن السامع أكثر من تفسير واحد لما يسمعه، فيتوجب عليه في هذه الحال أن يسأل المتكلم ويستفسر منه، وما على المسؤول إلا الإجابة"⁽²⁾.

تذكرنا هذه الأسئلة بمنهج سيبيوه في تحليل وتفكيك بعض التعابير، كتلك التي مثلنا بها في باب النعت الوارد في الكتاب في قوله: "مررت برجلين/مسلم وكافر"، حيث يرى سيبيوه أن هذه العبارة هي في الأصل مزيج من كلام المتكلم، وإجابة عن سؤال المخاطب الذي يتوقع منه السؤال وإن لم ينطق به (بمن مررت؟).

وفي مجال فلسفة التواصل يضرب "فنكنشتاين" للمتلقي مثلا لتوضيح علة التباس المفاهيم في بعض العبارات، بسبب احتمالها معاني متعددة من التفسيرات، وذلك بالعبارة الآتية: "Moses did not exist"، هذه العبارة التي تحمل ثلاث دلالات متباينة⁽³⁾.

- (1) إن الإسرائيليين لم يكن لديهم قائد حينما خرجوا من مصر.
 - (2) قائد الإسرائيليين لم يكن اسمه موسى.
 - (3) ليس هناك أحد أنجز ما روى الكتاب المقدس عن موسى.
- وهي مشابهة للمثال الذي أورده سيبيوه في قوله: "ما أتاني رجل" التي تحتل عدة دلالات أوضحها كالاتي⁽⁴⁾:

- (1) ما أتاك رجل، أي أتاك أكثر من ذلك.
- (2) ما أتاك رجل، أي امرأة أتتك.
- (3) ما أتاك رجل، أي أتاك الضعفاء.

فإذا قيل ما أتاك أحد صار نفيا عاما لهذا كله⁽⁵⁾، ليس هذا فقط، وإنما هناك أيضا علاقة مشابهة فيما يخص تقنية الحذف التي تناولها سيبيوه بالتحليل والتعليل معولا على سنن العرب وما اعتادت عليه، وهو الأمر نفسه الذي وجدناه عند الفيلسوف "فنكنشتاين" وهو أن "معنى كلمة ما يكمن في كيفية استخدامها"⁽⁶⁾، يفهم من هذا الرأي دور السياق في تحديد مقاصد المتكلمين، إذ هو الكفيل بإزالة الغموض في فهم العبارة المنطوقة، وإن لم تكن مكتملة العناصر نحويا⁽⁷⁾.

(1) ينظر: 04 : p, Wittgenstein Ludwig, Oxford, Black wellpublishers, 2001, Philosophical investigations.

(2) نفسه، ص: 71

(3) ينظر: 31 : p, Wittgenstein, Philosophical investigations.

(4) الكتاب، ج 1، ص: 55

(5) نفسه

(6) ينظر: 18 : p, Wittgenstein, philosophical investigations.

(7) ينظر: 51-96 : p, Understanding, Baker.

فالنطق بكلمة "Slab" يمكن أن تفهم فهما صحيحا إذا عرفنا السياق الذي قيلت فيه، ولمن قيلت؟! ولماذا؟! فإذا تصورنا على سبيل المثال أنها قيلت في مكان خاص بالبناء (ورشة بناء)، وأن الذي تلفظ بهذه المفردة هو أحد العمال مخاطبا بها زميله، أدركنا فوراً أنها مساوية لعبارة: "Bring me a slab" أو "Hand me a slab"⁽¹⁾ أي: "ناولني البلاطة"، فالمتكلم يدرك أنه بكلمة واحدة سيفهمه المخاطب، لذا فهو لا يحتاج إلى تأليف العبارة كاملة وإنما يلجأ إلى الحذف تجنباً للتفاصيل التي هو في غنى عنها.

لذلك فهو يرى أننا إذا تمكنا من خلال استعمال كلمة واحدة فقط أن ندير "لعبة اللغة"؛ فإن هذه الكلمة تشكل جملة بمفردها، بينما لو تلفظنا بعبارة صحيحة نحويًا، ولكنها لم تؤد معنى تجزئه الجماعة اللغوية "Language group" فإنها سترفض؛ لأنها تفتقر إلى الاستخدام المقبول⁽²⁾، لذا فهو يركز على السياق ويولي اللغة العادية التي يتحدث بها الناس عناية كبيرة أكثر من اهتمامه باللغة المليئة بالمصطلحات الفلسفية، يتضح من هذه العناية أنه يسعى إلى توضيح علاقة النحو باللغة الحية، ولا يطمح إلى تغيير اللغة العادية ولا إلى خلق لغة جديدة، بل يبتغي تبين طريقة استخدامها⁽³⁾.

وفي حديثه عن الاستعمال المقبول، اتفاق بين فنكنشتاين وسيبويه حينما تحدث عن تسويغ حذف الأفعال، بل وحتى الجمل باعتبار ذلك صحيحاً؛ لأنه مقبول معنى واستخداماً، خاصة وأن السياق الاجتماعي الذي يرد فيه الكلام يسمح بالاختصار والحذف؛ لعله هي أن المخاطب على دراية بغرض المتكلم، مثال ذلك ما ذكره سيبويه عن جواز النطق بكلمة واحدة هي "زيداً" إذا كان المخاطب فاهماً لقصد المتكلم الذي يريد إيقاع أمر ما، أو المواصلة في عمل ما يزيد من ضرب وغيره، إضافة إلى اختزال بعض من الكلام لارتباطه بأحداث سابقة تفهم من سياق الكلام، كمثال سيبويه عن ذلك: "إذا كان غداً فأنتي"، هذه العبارة المتعلقة بمناسبات مختلفة والتي يفسرها سيبويه في قوله: "والمعنى أنه لقي رجلاً، فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السلامة أو كان ما نحن عليه من البلاء في غد فأنتي"⁽⁴⁾.

يستنتج مما أنف ذكره، أن فنكنشتاين يقيم وزناً للقواعد النحوية التي يرى أنها تضبط استخدام الكلمات، وبالتالي فهي المسؤولة عن تحديد المعنى، فعلاقة النحو عنده باللغة تشبه إلى حد كبير علاقة قواعد اللعبة باللعبة، فكما أن هذه القواعد تتحكم بأصول ممارسة هذه اللعبة، وهي التي تسمح بالتحركات التي تجري داخلها، كما في الشطرنج مثلاً، فكذلك النحو يتحكم بمساحة ما من اللغة، وهو الذي يسوغ التحركات اللغوية داخلها، وهو إلى جانب ذلك يقرر فشل هذا الاستخدام أو نجاحه⁽⁵⁾، وهو المذهب ذاته الذي ذهب سيبويه في تأكيده بالنسبة لعلاقة النحو الوثقى بالمعنى.

و. سيبويه والتداولية:

أ. سيبويه و"بول غرايس":

اهتم "غرايس" بموضوع التخاطب والحوار، وعمل على إيجاد نظام لهما، فحدد هذا النظام في مبادئ أو قواعد جمعها في مبدأ سماه "مبدأ التعاون والاقتصار على جانب التبليغ".

وبالعودة إلى هذه القواعد الوارد ذكرها في مدخل البحث، يتجلى لنا أنها تنطبق تماماً على قواعد التبليغ وتقنياته التي وردت في "كتاب سيبويه"، يدلنا على ذلك اتخاذ سيبويه كلام العرب الفيصل في صحة وسلامة كل التراكم اللغوية الرامية إلى

(1) - ينظر: Wittgenstein, philosophical investigations, p : 08

(2) - ينظر: Wittgenstein, philosophical investigations, p : 08

(3) - أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 129

(4) - الكتاب، ج 1، ص: 224

(5) - ينظر: Wittgenstein, philosophical investigations, p : 09

التبليغ، وقد ذكرنا في مبحث آخر من البحث عناصر العملية التبليغية في الكتاب، وخصصنا جانباً من الدراسة لكل عنصر (المتكلم وأنواعه، المخاطب وأنواعه، غرض الكلام، والسياق).

كما أشرنا إلى قواعد التخاطب عند كل طرف من أطراف العملية التواصلية، ونريد من خلال هذه المقارنة بين سيبويه وغرياس أن نثبت فكر سيبويه التداولي ومدى اتفاهه مع بول غرياس وذلك من خلال قواعد التخاطب والحوار عند غرياس.

(1) قاعدة الكم:

- إخبار السامع بالقدر الذي يحتاجه دون زيادة.
 - توافر القدر المطلوب من المعلومات.
 - يجب ألا توجز إلى حد الإخلال، ولا تنطب إلى حد الإفراط.
- توافق هذه القاعدة (تقنية الحذف والاختصار والانتساع) عند سيبويه، وقد أسهبنا كثيراً في تحليل هذه التقنية ولا نريد تكرار ما قاله سيبويه في هذا الشأن تفادياً للضجر أو الملل الذي قد ينفر المتلقي من متابعة البحث.

(2) قاعدة الكيف:

- عدم إعطاء المتكلم معلومة لا يملك الدليل على صدقها أو صحتها (الإلغاز).
- لا تقل للمخاطب ما تعلم كذبه (باب الاستقامة).
- لا تقل شيئاً تعوزك في إثباته الحجة؛ أي ما ليست لك عليه بينة، (لذا لا يأتي سيبويه بقواعد نحوية عشوائية؛ وإنما يحتكم إلى فصاحة العرب وسننها، معتمداً في ذلك على شيخه الخليل أو بالقياس على كلام فصحاء العرب).

(3) قاعدة الورود:

مناسبة المقام لمقتضى الحال: سمعت تكبيرات القوم وكنت بعيداً عنهم ولكن على مرأى منهم، قلت: "الهِلالِ وربِّ الكعبة".

هيئة الحاج ---- "مكَّةُ وربِّ الكعبة"

رجل يسدد سهما صوب القرطاس ----- "القرطاسَ واللّه"

أحد الناس يقع عليه الضرب ----- "زيداً"

ليكن خطابك وارداً، أي ألا يكون متناولاً لأمر غير الموضوع الذي أنت بصددده، (مثال: جُحِرُ ضَبِّ حَرِبُ)، إذ حَرِبُ صفة للجُحِرِ لا للحيوانِ "الضب"، (تنبيه سيبويه إلى هذا الخطأ الذي يقع فيه إلغاز أو عدم فهم النعت على من يعود).

(4) قاعدة الكيفية:

وتشتمل على آداب الخطاب وطريقة أدائه.

كن واضحاً: (دعوة سيبويه وحرصه على التوضيح وعدم الإلغاز، تجنب الغموض، تجنب الالتباس، ليكن خطابك مركزاً، كن منظماً، كن مؤدباً)، ومثال ذلك قول سيبويه: "فَقِفْ على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسر"⁽¹⁾.

وهو الاتفاق نفسه مع باحث مشهور في التداوليات وهو "ديكرو" الذي أشار إلى قوانين التواصل والتبليغ وهي:

(1) قانون الاهتمام

(2) قانون الإخبارية

(1) الكتاب، ج 1، ص: 266

(3) قانون الاستقصاء

(4) قانون التلطف

وإذا كانت هذه القواعد والقوانين متعلقة بالمتكلم، فللمخاطب كذلك حظٌّ من الاهتمام نفسه، عند كل من سيبويه، غرايس، وديكرو وكل الباحثين القدامى والمحدثين، ومن أمثلة قواعد الاهتمام ما يلي:

حسن سلامة السمع، حسن الانتباه، الرصيد اللغوي الكافي، الرغبة في التواصل، القدرة على الربط والاستنتاج والتأويل، القدرة على الاعتراض والمناقشة والتأييد.

ثم إن الأسئلة التي تحاول التداوليات الإجابة عنها تتفق تماما مع ما جاء به سيبويه في كتابه، ومن أسئلة التداولية ما يلي:

- (1) من يتكلم؟ نوع المتكلم شاعر، متعلم، مخطئ أم ثقة؟
 - (2) إلى من يتكلم؟ نوع السامع في درجة المتكلم نفسها؟، منصت جيد؟، نائم؟، سادر؟، غافل؟...
 - (3) ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ نوع الرسالة ويحددها السياق
 - (4) ما مصدر التشويش والإيضاح الغموض، اللبس، الإلغاز مثال ذلك: رويد ورويدك، بإضافة (الكاف) لمخاطبة من هو وسط جماعة وحتى ينتبه المعني بالنداء والخطاب من غير المعنى أي (الكاف) لرفع اللبس والإيضاح.
 - (5) كيف نتكلم بشيء ونريد شيئا آخر؟ المجاز، الكناية.
- والإجابة عن هذه الأسئلة تستدعي استحضار مقاصد التخاطب وأفعال اللغة ببعديها المقامي والمقالي التداولي، وهذا يحدده كما مر بنا نية المتكلم ووظيفة الكلام، وسياق الموقف.
7. سيبويه ونظرية الحجاج:

في كتاب سيبويه تخضع حججه للتراتبية والتنظيم من حيث: القوة والضعف، والبدء والختم، والإبطال والإثبات، والحسن والقبح، والمحال والكذب، الجيد والشاذ...

يدلي سيبويه بحججه حتى لا يشك شك في استنباطه للقواعد والخروج بالأحكام، مدعما أقواله بالشواهد المختلفة التي استقاها من البيئة العربية، أي من واقع المخاطب، فهو إما يثبت له أمرا (قاعدة) أو يزيل عنه الشك في قضية، أو يذكره بشيء لم ينتبه إليه في لغته، أو يوضح له سلامة تركيب أو خروجه عن كلام العرب، أو أن العرب لم تتكلم به، بعرضه للمثال أولا، ثم استخراج الحكم الإعرابي ثم القاعدة، مستشهدا على ذلك بما يناسب المقام، إن آية أو شعرا أو نثرا، متوقعا أن المتلقي لكلامه ربما لن يقتنع، أو سيؤاخذه على قاعدة ما، لذلك فهو -كما نرى- لا يترك مجالاً للشك، وكأنه يحيطه من كل جانب حتى لا يجد المتلقي مفرًا من الاقتناع بما قاله، والانصياع لقواعده النحوية السابقة من الاستعمال.

وإذا كانت نظرية الأفعال الكلامية تتمركز حول الذات المتكلمة، فإن حجج سيبويه تتمثل في تحديد (نية المتكلم)، وذلك أن سيبويه متكلم متلق في الآن ذاته، والحجة تقوم على الدليل الذي يقتضي (الغلبة والظفر)، بينما الحجاج يقوم على أساس التخاطب بين المتكلم السامع اللذين يحتاجان في أمر أو قضية يستلزم دليلا أو حجة، ولذلك وجدنا سيبويه يقدم الشواهد كأدلة وحجج على ما نحو هذه من استنباطات معتقدا أن هناك متلقيا يستعرضه، ولذا فهو لا يترك الفرصة لذلك ربما لوعيه وإن يتمثل بالمصطلح الحجاج، أن "الحجاج كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"، وأن الحجاج يؤطره التفاعل وكان كل المظاهر موضوعة على قانونه ومفهومه على مقتضاه.

أ. أنواع الحجج في كتاب سيبويه:

(1) البصر بالحجة:

يتوفر الكتاب على هذا النوع من الحجج، وقلنا بأن سيبويه لا يترك الفرصة ليعترض عليه معترض في استنباط قواعده وأحكامه، لذلك فهو يهرع إلى سد السبيل على المتلقي حتى لا يجد منفذاً إلى استضعاف الحجة أو الخروج عن دائرة فعلها، ولذلك قال الجاحظ: "جماع البلاغة بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة"⁽¹⁾. وشواهد الكتاب كلها حُججٌ لقواعد واستنباطات وأحكام سيبويه، الفيصل فيها أنها مستمدة من الواقع اللغوي للعرب في عصره.

(2) ترتيب الحجج:

الواضح أن ترتيب أبواب سيبويه بدءاً بالنحو وانتهاءً بالأصوات كان له ما يبرره، وهو أننا نرتب أفكارنا أولاً في الذهن من حيث الدلالة، ومن حيث السلامة اللغوية، ثم ننطقها أصواتاً، ولذلك ابتدأ سيبويه كتابه بما يجب أن يبتدئ به ذكي عالم بلغته "هذا باب علم ما للكلم من العربية"، "فالكلم: اسم وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، فالاسم: رجل، فرس وحائط، وأما الفعل، فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ونسبت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع،...، وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل، فنحو: ثم، سوف، وواو القسم، ولام الإضافة، ونحوها"⁽²⁾.

فالملاحظ أنه قد ذكر الأسماء، ثم الأفعال، ثم الحروف، مرتباً إياها حسب القوة والضعف، وحيث الثبوت والتحول، وحسب البناء والإعراب، وحسب الزمن الماضي والمضارع المجزوم، المضارع المنصوب، ثم الأمر، شارحاً محللاً معللاً كل ضرب من ضروب الكلم، وانطلاقاً من "باب علم ما للكلم في العربية" سيطبق قواعده وأحكامه التي لا تخرج عن انتحاء سمت كلام العرب.

1. فالمقدمات هنا: الكلم: اسم وفعل وحرف لمعنى ليس باسم ولا فعل.

2. هنا يدخل عنصر الاستمالة والتأثير لمعرفة كل ضرب أو كل قسم من أقسام الكلم.

3. استعمال ما في الواقع لدعم وتطعيم كلامه.

الاسم: رجل، فرس، حائط.

الفعل: تحديد الزمن (الماضي، المضارع، الأمر).

الحرف: مثل: ثم، سوف، واو القسم، لام الإضافة ونحوها.

فالملاحظ أن هذا الباب استمالة ودعوة لمتابعة كل أبواب الكتاب، يدلنا على ذلك قوله: "...فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ولها أبنية كثيرة ستبين إن شاء الله"⁽³⁾.

ب. سيبويه وبيريلمان وتيكاه:

يقولان إن "موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"⁽⁴⁾، وفي المؤلف نفسه يذكر الباحثان الغاية من الحجاج، فيؤكدان أن "غاية كل حجاج أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج هو ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوي درجتها لدى السامعين بشكل يحثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق -على الأقل- في جعل تحفيز

(1) البيان والتبيين، الجاحظ، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 2001، ج 1، ص: 63

(2) الكتاب، ج 1، ص: 12

(3) الكتاب، ج 1، ص: 12

(4) Traité de l'argumentation, Péréllaman et Tytéca, p: 05

السامعين للاستعداد للقيام بذلك الفعل في اللحظة المناسبة"⁽¹⁾، وقد اصطلح سيبويه على القصد ب(نية المتكلم والمقام والحال) وهما أساسيان لكل خطاب حجاجي.

ويتفق سيبويه مع بيرلمان، إذ يجب على المتكلم -وفق بيرلمان- التركيز على معايير الأولوية فيما يتعلق بعلاقة المخاطبين مع المقام والموضوع معاً، وكأن سيبويه قد أدرك أنه سيكون أكثر تأثيراً، إذا استثمر حقائق فعلية أو أحداثاً معينة، لا يشك المخاطبون في ثبوتها المرجعية بقوله: "وهو عربي جيد كثير"، حتى لا يقدر ابن اللغة في لغته. ويرى "بيرلمان" أن المقام هو الذي يساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم، وكأن هذا الكلام يصنف سيبويه في فئة المبدعين حسب "بيرلمان".

ولقد كان الحجاج دوماً وبشكل عام دفاعاً عن ملفوظ أمام ملفوظات أخرى⁽²⁾، لهذا يقول جيلالي دالاش عن حقل التداولية "إنه تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"⁽³⁾، لأنها تبحث في معرفة مقاصد المتكلم وأغراض كلامه، وقد لمسنا هذا الجانب بوضوح في الكتاب، حين أشار سيبويه في أكثر من موضع إلى "نية المتكلم" و"وظيفة الكلام"، معتمداً في ذلك الاستعمال الحي للغة الطبيعية داخل مجتمعه العربي الفصح، ويحضرني في هذا المقام قول سيبويه: "سير عليه ليل"⁽⁴⁾، إذ حذف سيبويه الصفة (طويل) لعلمه أن الحال تدل على موضعها، وقوله كذلك: "كان والله رجلاً" فتزيد في قوة اللفظ باسم الجلالة "الله" وذلك أن يكون المقام مقام مدح لخصال الرجل، فتمطيط اللام، وإحالة الصوت يُوجِّهنا: (رجل فاضل شجاع)، وكذلك في مقام الذم، نحو قوله: "سألناه وكان إنساناً" وتزوي وجهك وتغطيه فيغني عن ذلك قولك: (إنساناً لثيماً) أو (بخيلاً).

ونُدكِرُ أن أفعال اللغة المتداولة حسب أوستين هي: أكد، أنكر، أجب، اعترض، وهب،...، في حين أن التعابير الإنجازية مرتبطة بالسياق ومنها: أجيب، استنبط، استخلص، اعترض،...، وهدفها الأقوال اللاحقة بالأقوال السابقة، وهذه الأقوال تأكيدية عامة، وهذا ما نجد في الكتاب، إذ تحدث سيبويه عن العلائق المنطقية والدلالية، مثل: الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والتعارض، وكلها علائق حجاجية استدلالية، وهو ما يدعى بمنطق الخطاب أو المنطق الطبيعي.

ج. سيبويه وشارل موريس:

ميز "موريس" في كتابه "أسس نظرية الرموز (1938)" بين ثلاثة عناصر تدخل في تحديد الرمزية وهي⁽⁵⁾:

(1) الرمز من حيث هو علامة.

(2) الرمز من حيث هو دلالة.

(3) الرمز من حيث هو محل للتأويل.

حيث نقل هذا التقسيم الثلاثي للرمز من المنطق إلى اللسانيات؛ فميز بين مستويات ثلاثة تحدد العلاقة بين علم الدلالة والتداولية وتتعاقد تعاقباً خطياً.

أ. المستوى التركيبي: يعنى بتحديد قواعد التأليف، أي جُملاً لغوية، والكلمة المفتاح في هذا الطور هي النحوية، افتتح سيبويه كتابه "بياب علم ما للكلم من العربية".

(1)- الكتاب، ج 1، ص: 59

(2)- خطابات الحدائة، ماريا كاريلو، ترجمة: إدريس كثير زعر الدين خطاب، منشورات دار ما بعد الحدائة، فاس، ط1، 2001، ص: 74

(3)- مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص: 01

(4)- الكتاب، ج 1، ص: 220

(5)- أسس نظرية الرموز، شال موريس، ترجمة:

ب. المستوى الدلالي: يعالج علاقة العلامات بمرجعها أو مدلولاتها.

- الاسم: إنسان، حيوان، حائط.

- الفعل: ماضي، مضارع، مستقبل.

- الحرف: ثم، سوف، واو القسم...

بالإضافة إلى "باب الاستقامة والمحال"، حيث يذكر:

(1) المستقيم الحسن: أتيتك أمس وسأتيك غدا.

(2) المحال: أتيتك غدا، وسأتيك أمس (نقض أول الكلام).

(3) المستقيم الكذب: حملت الجبل، وشربت ماء البحر.

(4) المستقيم القبيح: قد زيدا رأيت، وكي زيدا يأتيتك.

(5) المحال الكذب: سوف أشرب ماء البحر أمس.

إذ تكمن قيمة هذه العبارات في الصدق والكذب، أي السلامة اللغوية والعدول (ولا يعني سيبويه بذلك الصدق والكذب الأخلاقيين) بل المجاز وغيره من الانزياحات التي تزيد الخطاب توضيحا أو قوة أو جمالا ومتعة.

ج. المستويات التداولي: يدخل في هذا المستوى عنصر التأويل للرموز والعلامات الموجودة في الخطاب، أو التي يتلفظ بها المتكلم مخاطبا مستمعا.

وهذا لا يتحقق إلا باستيفاء الكلام لشروط القول وقدرته، التأثيرية وتطرح في هذا المستوى أمثلة من مثل: هل يناسب القول المقام، أم أن الأمر على خلاف ذلك؟ ما هي الأفعال الكلامية التي تسمح بإنجازه (الإثبات، الاستفهام، النفي، التمني...؟)، ما هي طبيعة رد فعل المخاطب (استنكار، الإجابة بسؤال؟)، يذكرنا هذا بتقنية الاستفهام والأمر، النداء والندبة، والتعجب عند سيبويه. والتي قمنا بدراستها في مبحث المتكلم عند سيبويه ودوره في الخطاب/الكلام.

د. العوامل الحجاجية في الكتاب (سيبويه، ديكر ووانسكومير):

ليست مظاهر التلفظ في بعض جوهرها سوى عوامل حجاجية تندرج في الأقوال، فتكيف تأويلها وفق غاية المتكلم، حيث إن هناك ألفاظا وكلمات ذات قيمة حجاجية نحو الرابط الحجاجي "لكن" الذي يقدم قرائن معنوية تبين المراد من الخطاب، وتوجه طريقة تأويل العلاقة بين المحتويين الخبريين، جاء في "هذا باب المبدل من المبدل منه، والمبدل يشرك المبدل منه في الجر"، وذلك قولك: مررت برجلٍ حمارٍ، فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن، فأما المحال أن تعني أن الرجل حمار، وأما الذي يحسن فهو أن تقول مررت برجل، ثم تبدل الحمارَ مكان الرجل فتقول: حمارٍ، إما أن تكون قد غلطت، أو نسيت فاستدركت، وإما أن يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل، وتجعل مكانه مرورك بالحمار، بعدما كنت أردت غير ذلك، ومثل ذلك قولك: لا (بل) حمار... ومن ذلك ما مررت برجل (بل) حمار، وما مررت برجل (ولكن) حمار، أبدلت الآخر من الأول وجعلته مكانه... ولو ابتدأت كلامك فقلت: ما مررت برجل (ولكن) حمارٌ، تريد (ولكن) هو حمارٌ، كان عربيا، أو (بل) حمارٌ، أو (لا بل) حمارٌ، كان كذلك، كأنه قال: ولكن الذي مررت به حمارٌ⁽¹⁾. ويستشهد على هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ (بَل عِبَادُ

(1) الكتاب، ج 2، ص: 439

مُكْرَمُونَ⁽¹⁾، فهذا على أنهم كانوا قد ذكروا الملائكة قبل ذلك بهذا، وعلى الوجه الآخر والمعرفة والنكرة في (لكن) و(بل) و(لا بل)، سواء⁽²⁾، وقوله كذلك: "... ما مررت بزيد ولكن عمرو، وابتدأ بنفي ثم أبدل مكانه يقينا"⁽³⁾.

فالاستدراك ب(لكن) أو (بل) يوجه دلالة القول كله إلى سلب نتيجة الجمل المستدركة، أما في المستوى الدلالي فيقع ربط دلالة القول بسياقه حيث تدخل اعتبارات التخاطب بين المتكلم والمستمع، ومكان القول وزمانه وكل المعطيات المقامية. وفي تصورهما للتداولية المدمجة، سعى كل من ديكر وآنسكومير إلى صياغة دلالة الخطاب لسانيا من خلال تحديد العلاقات بين المضمرة والمصرح به، وحسب تصورهما فإن القول المصرح به ما هو إلا حامل لخلاصة مقترحة من قبل متغيرات حجاجية ملازمة للجمل، سواء أوافق المتلقي عليها أم لم يوافق، وذلك أن الحجاج يظهر في كيفية تسجيل اللغة الطبيعية لخلاصة ما، أو اقتراحها أو تضمينها أو إظهارها أو اقتضاءها⁽⁴⁾.

وهذا الذي ذهب إليه سيبويه في المثال السابق: مررت برجل و"لكن" حمأ، قائلا: "وإذا كان قبل ذلك منعوت فأضمرته، أو اسم فأضمرته أو أظهرته، فهو أقوى، لأنك تضمير ما ذكرت وأنت هنا تضمير ما لم تذكر، وهو جائز عربي، لأن معناه: ما مررت بشيء هو رجل، فجاز هذا كما جاز المنعوت المذكور نحو قولك: [ما] مررت برجل صالح (بل) طالح"⁽⁵⁾.

هـ. المراتب الحجاجية:

توجي هذه المراتب بأن للحجة الواحدة مراتب، لا يلبث التحليل أن يكشف أنها الأصل في القوانين التي يتحدد بها الصنف الاستدلالي المعروف باسم "الاستدلال التمثيلي"، وهذه المراتب أشكال كما مر بنا في مبحث التقنيات الحجاجية الاستدلالية، وهي أنواع:

1) المراتب المضادة:

يمثلها قول سيبويه في "هذا باب ما ينصب من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره، وذلك قولك: "سقيًا ورعيًا"، ونحو قولك: خيبةً ودفراً، وجوعاً وعقرًا وبؤساً، وأفةً وتففةً، وبعداً وسحقاً، ومن ذلك قولك: تعسا وتبا وجوعا وجوسا"⁽⁶⁾.

ويحتج سيبويه لقوله السابق، بقول ابن ميادة:

تَفَاقَدَ قَوْمِي إِذْ يَبِيعُونَ مُهْجَتِي بِجَارِيَةِ بَهْرًا لَهُمْ بَعْدَهَا بَهْرًا⁽⁷⁾

والتقدير هاهنا قوله: "فقد قومي بعضهم بعضاً إذا لم يُعِينُونِي على جارية شغفت بحبها، فكأنهم باعوا مهجتي، دعا عليهم بالتفاد وبالغلبة والقهر"⁽⁸⁾.

ويقول سيبويه شارحاً معللاً ومستدلاً: "وإنما ينتصب هذا وما أشبهه، إذا ذكر مذکور فدعوت له أو عليه، على إضمار الفعل، كأنك قلت: سقاك الله سقيا، ورعاك الله رعيًا، وخيبك الله خيبة، فكل هذا وأشباهه على هذا ينتصب"⁽⁹⁾.

(1) -سورة الأنبياء، الآية: 26

(2) -الكتاب، ج 1، ص: 440

(3) -نفسه

(4) -اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 276

(5) -الكتاب، ج 1، ص: 440

(6) -الكتاب، ج 1، ص: 440

(7) -في اللسان (فقد، بهر) والكامل، ص: 381

(8) -هامش الكتاب، ج 1، ص: 311

(9) -الكتاب، ج 1، ص: 312

ومثله قوله: "من ذلك قولك حَمْدًا وشُكْرًا لا كُفْرًا، وَعَجَبًا، أو فعل ذلك كرامةً ومسرَّةً ونعمةً عني..."⁽¹⁾، والتقدير أحمد الله حمدًا...

(2) المراتب الموجهة توجهها كميًا:

يوجد هذا النوع في الألفاظ الدالة على معاني تشغيل التدرج في اتجاه واحد إما على مقتضى التزايد أو مقتضى التناقص، مثال ذلك قول سيبويه: ".. فقولك: هو مني فرسخان، وهي مني عروة الفرس، ودعوة الرجل، [وغلوة السهم]، وهو مني يومان، وهو مني فوت اليد، فإنما فارق هذا الباب الأول؛ لأن معنى هذا أنه يخبر أن بينه وبينه فرسخين ويومين، ودعوة الرجل وفوتا، ومعنى فوت اليد؛ أنه يريد أن يُقَرَّب ما بينه وبينه، فهذا على هذا المعنى، وحري على الكلام الأول كأنه هو سعة الكلام، كما قالوا: أخطب ما يكون الأمير يوم الجمعة"⁽²⁾، وقوله أيضا: "وأما قول العرب: أنت مني مرأىً ومسمعٌ، فإنما رفعوه لأنهم جعلوه هو الأول، حتى صار بمنزلة قولهم: أنت مني قريبٌ"⁽³⁾.

(3) المراتب الموجهة توجهها قصديًا:

العامل المحدد لهذا النوع من المراتب هو قصد المتكلم، جاء على لسان سيبويه في "هذا باب تخبر فيه عن النكرة بالنكرة، وذلك قولك: مَا كَانَ أَحَدٌ مِثْلَكَ، وما كان أَحَدٌ خَيْرًا مِنْكَ، وما كان أَحَدٌ مُجْتَرِّئًا عَلَيَّ، وَإِنَّمَا حَسَنَ الإِخْبَارِ هَاهُنَا عَنِ النُّكْرَةِ حَيْثُ أُرِدَتْ أَنْ تَنْفِي أَنْ يَكُونَ فِي مِثْلِ حَالِهِ شَيْءٌ أَوْ فَوْقَهُ، لَأَنَّ الْمُخَاطَبَ قَدْ يَحْتَاجُ أَنْ تَعْلِمَهُ مِثْلَ هَذَا"⁽⁴⁾. ومهما يكن من أمر هذه الحجج المستعملة في الكلام، فإن للمتكلم سلطة التغيير والتنوع في استعمال الحجج التي يود أن يقدمها من لحظة إلى أخرى.

و. قواعد السلم الحجاجي في الكتاب:

1. قاعدة قلب التفاضل عند سيبويه:

وذلك بترتيب قسم التفاضل في النفع والضرر نحو قوله: "ومنه: مررت برجل شرٍ منك، فهو نعت على أنه قد نقض أن يكون مثله"⁽⁵⁾، ومثله: مررت برجل مسلم وكافر.

2. قاعدة تفاضل الأطراف:

إذا كانت إحدى المجموعتين تفضل الأخرى، فإن أفضل عنصر في المجموعة الفاضلة أفضل من أفضل عنصر في المجموعة المفضولة، نحو قول سيبويه: "واعلم أنه ليس كل موضع ولا كل مكان يحسن أن يكون ظرفًا، فمما لا يحسن أن يكون ظرفًا أن العرب لا تقول: هو جوف المسجد ولا هو داخل الدار ولا هو خارج الدار، وإنما فَرَّقَ بَيْنَ خَلْفٍ وَمَا أَشْبَهَهَا وَبَيْنَ هَذِهِ الْحُرُوفِ؛ لَأَنَّ خَلْفَ وَمَا أَشْبَهَهَا لِلأَمَاكِنِ الَّتِي تَلِي الأَسْمَاءَ مِنْ أَقْطَارِهَا"⁽⁶⁾، ثم يقول: "واعلم أن الظروف بعضها أشد تمكنا من بعض في الأسماء، نحو القبل والقصد والناحية، وأما الخلف والأمام والتحت فهن أقل استعمالًا في الكلام أن تجعل أسماءً"⁽⁷⁾.

3. قاعدة جمع التفاضل المركب:

(1) نفسه، ص: 318

(2) نفسه، ص: 415

(3) نفسه

(4) نفسه، ص: 54

(5) الكتاب، ج 1، ص: 423

(6) الكتاب، ج 1، ص: 411

(7) نفسه

وقد مر أن عرضنا إلى هذه القاعدة في المثال الخاص بالاستدراك بـ"لكن" و"بل" في قول سيبويه: "ما مررت برجل لكن حماراً، ولكن حماراً،...، مررت برجل صالح بل طالح"⁽¹⁾، فالرابط "لكن" ينفي أن يكون مر برجل؛ أي مرَّ بحمار، وحينما استدرك خطأه ربط كلامه بالرابط الحجاجي "لكن"، وفي المثال الثاني، ينفي أن يكون قد مر برجل صالح، وإنما مر برجل طالح، وحينما استدرك خطأه استعمل الرابط الحجاجي "بل".

وإن كان "ديكرو" قد ابتدع مصطلح الروابط والسلالم الحجاجية، فإن سيبويه قد وعى ذلك منذ قرون فقط أنه لم يَتَمَثَّلْ هذه المصطلحات، وهذا شيء طبيعي، إذ لكل جيل عصره، وبكل ما يتميز به هذا العصر من خصائص ثقافية، معرفية، سياسية، اقتصادية وغيرها.

ولم يفت سيبويه أن يتحدث في كتابه عن كل ما يتعلق باستعمال اللغة، ومن ذلك الروابط الحجاجية، كالواو، والفاء، ثم سوف، حيث، لكن، بل، ذلك، وهي كثيرة تستدعي بحثاً خاصاً للتفصيل في كل رابط، ومثله قوله أيضاً: "ومن المبدل أيضاً قولك: مررت برجل (أو) امرأة، إنما ابتداءً بيقن ثم جعل مكانه شكاً أبده منه، فصار الأول والآخر الإدعاء فهما سواء، فهذا شبيهه بقوله: ما مررت بزيد ولكن عمرو، ابتداءً بنفي ثم أبدل مكانه يَقِينًا، وأما قولهم: أمررت برجل (أم) امرأة؟ إذا أردت معنى أيهما مررت به؟ فإن (أم) تشرك بينهما كما أشركت بينهما (أو)، وأما: ما مررت برجل (فكيف) امرأة...، قال هو بمنزلة: (أين).."⁽²⁾.

فالملاحظ أن الروابط الحجاجية يكمن موضوعها أساساً في تحديد بنية الخطاب، لكونه آلية في عملية الربط داخل النسق المقول؛ لذلك اهتم التنظير بموضوع الرابط في اللغات الطبيعية - كما سبق الذكر -، وهناك من يسميها بالقرائن، ويتمثل دورها في فهم الأبعاد التواصلية وترتيب الأغراض التي يقتضيها الخطاب/الكلام.

وتشمل الروابط الحجاجية كل الحروف والظروف وأدوات الاستثناء والنفي، إذ بعضها يدعى العوامل الحجاجية، وبعضها يعد رابطاً نحوياً (كالواو والفاء)، وغيرها من حروف العطف، على أن هذه الروابط تشارك في إنجاز الأغراض اللغوية المباشرة وغير المباشرة، مما يسمح بالتأويل. وتسمى الروابط الحجاجية؛ بالقيود الاستدلالية لأنها تعين على فهم المعنى الظاهر والخفي. ولذلك، فعندما يؤول المخاطب، جملة يسعى إلى إنجاز غرض استدلالي يعالجه في علاقته مع النتيجة التي يمكن أن تدور باعتبارها حديثاً منعزلاً.

ز. حجة التضمين في الكتاب:

أسهب سيبويه في حديثه عن مظاهر التحويل من حذف وزيادة وتقديم وتأخير، وبدل، وتعويض، وإنابة وتضمين، وقد تعرضنا إلى بعض هذه المظاهر، إذ البحث فيها كلها مضمّن وقد لا ينتهي، ولكننا وقفنا على أمثلة كثيرة يتضح فيها الأثر الذي يتركه هذا اللون من التحويل في التراكيب النحوية، ومن ذلك على سبيل المثال زيادة الحروف التي للتوكيد ولتقوية المعنى (كمن) الواقعة قبل الفاعل في جملة: (ما أتاني (من) أحد إلا زيداً)، والأصل: (ما أتاني أحد إلا زيداً)، قال: لأن معنى (ما أتاني أحد) و(ما أتاني من أحدٍ) واحدٌ، ولكن (من) دخلت هنا توكيداً⁽³⁾.

ويمكن تحليل هذه الجملة إلى مكوناتها المباشرة بطريقة (المخطط الشجري) كالآتي⁽⁴⁾:

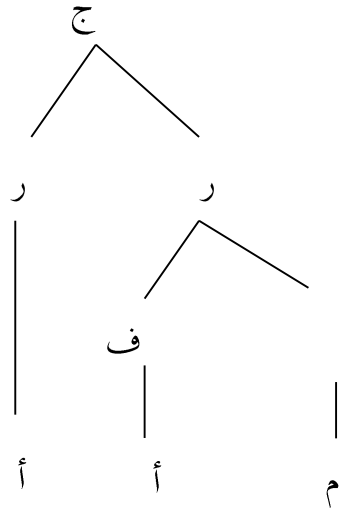
حيث يشير الرمز (ج) إلى الجملة، و(رف) إلى الركن الفعلي، و(رأ) إلى الركن الاسمي

(1) نفسه، ص: 440

(2) الكتاب، ج 1، ص: 440

(3) نفسه، ج 2، ص: 316

(4) المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 288



حيث تُزادُ (مِنْ) قبل (أحدٍ) لتؤدِّي وظيفةً دلاليَّةً هي التوكيد.

وبعد هذا العرض يمكن أن نوضح بأن سيبويه يكون قد عالج قواعد التحويل: الحذف، الزيادة، التضمين، التقديم، التأخير والبدل...، بأسلوب متميز تظهر فيه خصائص المنهج الوصفي، وقد ساعده هذا اللون من التحويل في وضع قواعد لغوية عريضة، تكشف عن الطاقة التعبيرية لبنية التراكيب النحوية من خلال قابليتها لاستيعاب إضافات جديدة، ومظاهر جديدة من التحويل، ومن هنا أمكننا القول بأن ما جاء في كتاب سيبويه يلتقي مع منطلقات نظرية التحويل والتفريع التي استند إليها "تشومسكي" وأتباعه⁽¹⁾.

وهذا الصدد يقول الدكتور "عبد القادر حسين": "من هذا يتضح أن فائدة حروف الزيادة المعنوية عند المتأخرين لا تخرج عما قاله سيبويه -رحمه الله- منذ خمسة قرون من الزمان"⁽²⁾، ويسانده في ذلك الدكتور "عبد السلام المسدي" بقوله: "لا يمكن للباحث أن يغفل عن نباهة شيخ النحو العربي في هذا المقام، فقد حاول صاحب الكتاب تفسير المظاهر الطارئة على بنية التراكيب النحوية في اللغة"⁽³⁾.

أما التضمين فإنه يقال في حالات ثلاث: الأولى عندما يتعدى فعل لازم إلى مفعول، وفي هذه الحالة يتناوب القول بالتضمين مع القول بالحذف، وفي الثانية عند تعلق الفعل بحرف جر غير الحرف الذي يتعدى به، وفي هذه الحالة يتناوب التضمين مع الإبدال، والثالثة حين يأتي الفعل المتعدي لازماً، أو المتعدي لفعلين متعدي لفعل واحد، ويشمل الحديث عن التضمين كل ما ذكرناه عن الروابط الحجاجية، وذلك أنه يخرج الرابط عن معناه الأصلي الحرفي إلى قوة استلزامية أخرى تنتج من خلال السياق، إذ الروابط -كما سبق الذكر- لا تكتسب وظيفتها إلا من خلال السياق التي ترد فيه.

نخلص إلى أن الربط سمة غالبية للتراكيب النحوي في اللغة العربية، وقرينة لفظية تربط بين أجزاء الكلم في السياق، وكما لاحظنا؛ فإن وسائل الربط في العربية متعددة ومتنوعة، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يدلي بقوله: "لا نغالي حين نقرر أن اللغة العربية لغة الوصل، ففيها من أدوات الربط ما لا تكاد تراه في غيرها"⁽⁴⁾.

(1) نفسه، ص: 293

(2) أثر النحاة في النحو البلاغي، ص: 78

(3) التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، 1981، ص: 332

(4) من أسرار اللغة، ص: 327

ويطلق سيبويه لفظ (التعليق) للدلالة على وسيلة الربط، وينقل جواب الخليل عن سؤاله عن الربط ب(إذا) الفجائية في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبَّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾⁽¹⁾، هذا الكلام معلق بالأول، كما كانت (الفاء) معلقة بالكلام الأول⁽²⁾، والربط في العربية نوعان: الربط اللفظي والربط المعنوي، فالمعنوي يكون في الإسناد لربط الفاعل بالفعل، والخبر المفرد بالمبتدأ، ولا حاجة للإسناد إلى رابط لفظي "لأن اتحاد المسند بالمسند إليه أقوى من أي رابط آخر"⁽³⁾.

نشير إلى حقيقة، وهي أنه لولا الربط لأصاب الكلام الضعف والغموض، إذ ليست اللغة "في حقيقة أمرها إلا نظاما من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا تجسّمه قوانين معينة لكل لغة"⁽⁴⁾، وكأن سيبويه قد تفتن إلى بعدها التواصل في الكلام، إذ جعل ما بعد الرابط من كلام معلقا بالكلام الأول، وفي الكتاب مواضع كثيرة فيها بيان لأثر ربط أجزاء الكلم بعضها ببعض الحروف، ومما سبق يتضح أن "الرابط" عنصر أساس لإضفاء سمة التماسك الشكلي للكلام، وهو مبدأ يؤكد المنهج الوصفي الحديث⁽⁵⁾.

ح. التنغيم باعتباره رابطا حجاجيا:

يدخل التنغيم في "إطار التحليل الشكلي للعلاقات التي تربط بين أجزاء الكلم"⁽⁶⁾، يفهم من هذا أن التنغيم سمة للتراكيب المتشابهة في الشكل والمتباينة في المعنى، ويقصد بالتنغيم "تنوع الأصوات بين الارتفاع والانخفاض في أثناء الكلام"⁽⁷⁾، إذن؛ فالتنغيم تنوع في طبقة الصوت، يأتي لتنظيم علاقة الوحدات اللغوية في السياق وهو "الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق"⁽⁸⁾، وعلى الرغم من أن سيبويه لم يشر صراحة إلى مصطلح (الجملة) فإنه قد درسها من خلال المفهوم العام للكلام، ذلك أن "الجملة هي جزء من الكلام"⁽⁹⁾، وعلى هذا الأساس يؤدي التنغيم في اللغات "وظيفة نحوية مهمة، فهو الوسيلة المثالية التي تخدم علم اللغة الوصفي، ويظهر أثره بوضوح في مجال دراسة التراكيب"⁽¹⁰⁾.

وقد تنبه سيبويه إلى أثر هذه القرينة اللفظية في تحليل العلاقات الشكلية بين الوحدات اللغوية في السياق، وبين وظيفته النحوية في تغيير دلالات التراكيب، وفي الانتقال من باب نحوي إلى آخر بارتفاع درجة التنغيم وانخفاضها في أثناء النطق بالعبرة، إذ يؤدي التنغيم في اللغة العربية بعدا تواصليا يتمثل في توضيح المعاني، يقول سيبويه في تحليله لبيت جرير⁽¹¹⁾:

أعبداً حلّ في شعبي غريباً ألوّماً لا أباً لك واغتراباً؟

"وأما (عبداً) فيكون على ضربين، إن شئت على النداء، وإن شئت على قوله: (أفتخر عبدا) ثم حذف الفعل"⁽¹²⁾، فالذي يحدد تنقل الكلام من (النداء) إلى (الاستفهام) في هذا البيت هو طبيعة النغمة الصوتية، ومنه قوله: "وقد تقول (تا الله!) وفيها معنى التعجب"⁽¹³⁾، والمعروف أن (تا الله) أسلوب يفيد الحلف والتوكيد، غير أن النغمة الصوتية تنقلها من باب إلى باب، وهذا لا يظهر

(1) -سورة الروم، الآية: 36

(2) -الكتاب، ج3، ص: 64

(3) -الربط في الجملة العربية، عادل زغير، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1988، ص: 50

(4) -من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، ص: 298

(5) -ينظر: اللغة والمعنى والسياق، ص: 219-220

(6) -Linguistics, Cristal, D. Penguin Book, 1981, p: 202

(7) -سيكولوجية اللغة، ص: 77

(8) -اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 226

(9) -علم اللغة العام، دي سوسير، ترجمة: د. يوثيل يوسف عزيز، دار الآفاق العربية، بغداد، دط، 1985، ص: 143

(10) -An introduction to descriptive linguistics, H. Gleason, New York, 1961, p: 176

(11) -ديوان جرير، المطبعة العلمية، مصر، 1313هـ، ص: 62

(12) -الكتاب، ج1، ص: 339

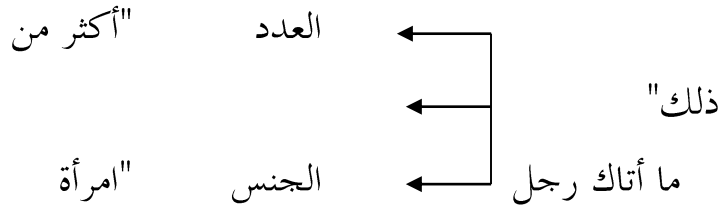
(13) -نفسه، ج3، ص: 497

إلا في اللغة المنطوقة، ومثله قوله: "ما أنت عبد الله" التي تفيد التحفيز والتعظيم تبعا للنغمة، قال سيبويه: "كأنك قلت (ما أنت عبد الله) وأنت تريد أن تحقر أمره أو ترفع أمره"⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى ما يقوم به التنغيم من الانتقال من باب إلى غيره تبعا لنية المتكلم، هناك أيضا تلك التغيرات التي تظهر على حركات المتكلم من تحديق وتغيرات وجهية توجي بدلالة معينة، يريد المتكلم الإفصاح عنها، كالتعجب، والفخر والتحقير، والتي نرى أن للتنغيم علاقة وثقى بها، وذلك "أن البنية السطحية هي التي تقرر من خلال التنغيم، ماهية المعلومات الجديدة أو الهامة التي تحتويها الجملة، وكذلك ما تتضمنه من مفترضات مسبقة"⁽²⁾.

ومن خلال الأمثلة التي تم ذكرها، يبدو وكأن سيبويه قد جعل التنغيم ملحظا وصفيا لتحديد الدلالات التي يتضمنها الكلام المنطوق، ومن ذلك ما قد توجي به العبارة الواردة في الكتاب "ما أتاك رجل"، إذ يمكن أن تعبر عن: العدد، والجنس والنوع. تساعد المستمع على استنباط ذلك، النغمة التي تنسجم مع الغرض الذي يريد المتكلم إبلاغ إياه، يقول سيبويه موضحا: "يقول الرجل: (أتاني رجل) يريد واحدا في العدد لا اثنين، فيقال: (ما أتاك رجل) أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول: (أتاني رجل لا امرأة)، فيقال: (ما أتاك رجل) أي (امرأة أتاك)، ويقول: (أتاني اليوم رجل) أي في قوته ونفاذه، فتقول: (ما أتاك رجل)، أي: (أتاك الضعفاء)"⁽³⁾.

ويمكن توضيح دلالات سيبويه حسب الشكل التالي:



إن دراسة ظاهرة التنغيم في كتاب سيبويه تثبت حدقه وفطنته، بل ووعيه بكل ما يتعلق بنظام لغته في استعمالها الحي وتداولها بين الناس، لذا كان دقيق الملاحظة، شديد الحرص في تحليله لكل ما يتعلق بنظام هذه اللغة، فما ترك لا كبيرة ولا صغيرة عن اللغة إلا أحصاها حتى إنه لم يترك لمن أتى بعده غير الشرح والتأويل والتفسير لِمَا قد يلتبس فهمه، وذلك أن اللغة التي انبرى يدافع عنها، وعن سلامتها، وقدسيتها، فيها مفردات خاصة بعصره يصعب فهمها من قبل الأجيال اللاحقة، خاصة ما تعلق بمفردات الشعر الجاهلي التي يصعب فهمها على المتلقي العصري، مما يضطره للعودة إلى المعاجم العربية ك(لسان العرب) وكتب "فقه اللغة العربية" وغيرها.

ولا نعتقد أن انطباعنا هذا ينفر من قراءة الكتاب، وإنما هو تحفيز للإطلاع على ثقافتنا الأصيلة، ولغتتنا الفصيحة التي كانت فيما مضى سجية وسليقة العرب، وربما لو لم تختلط بالعجم لكان لها شأن آخر، ولكن للدارسين شأن آخر كذلك، أو لربما أن ختلاطها بغيرها من اللغات كان حكمة للإطلاع ولتكشف أسرارها التي لا تنكشف لكل من هب ودب، وإنما للباحث المتأمل المتمعن والمدقق، ومثالنا على ذلك سيبويه وشيوخه وبعض من الذين أتوا بعدهم، ويظل باب الدراسة مفتوحا لكل شغوف بأسرار اللغة العربية.

وفي نظرتنا إلى المعنى وعلاقته بالبنية إلى جانب ربط ذلك بمدى صحته في الاستعمال ومطابقة الكلام للواقع، جعل سيبويه المعنى في اللغة العربية خمسة أقسام:

(1) نفسه، ج 1، ص: 301

(2) تشومسكي والثورة اللغوية، جون سيرك، ترجمة: هيئة التحرير، مجلة الفكر العربي، العدد (8-9)، بيروت، كانون الثاني، 1979، ص: 141

(3) الكتاب، ج 1، ص: 55

- المستقيم الحسن - المحال - المستقيم الكذب - المحال الكذب - المستقيم القبيح

وقد مر أن عرضنا إلى هذا الباب في أكثر من موضع من متن البحث، وبناء على هذا الذكاء، ما كان سيبويه يكتفي بإخراج القواعد وإثبات الأحكام، وإنما راح يشرح ويحلل ويفسر ويعلل وجود كل علامة إعرابية أو رابط نحوي، أو قرينة معنوية، محددا علاقة الفاعل بالمبتدئ أو باسم كان وأخواتها؛ والعلة في وجود الضمة على الاسم المرفوع، وهكذا في كل الأبواب التي تناولها في مستويات اللغة الحية، متجاوزا في كتابه مصطلح "الاحتجاج" إلى مصطلح الحجج النحوي الذي يتضمن إثبات حجية القاعدة النحوية بإبراز مستند بنائها وتقنينها من كلام العرب، وهذا الذي يشكل ما يعرف في الحجج بالشواهد النحوية، لذا وجدنا سيبويه يكثر من كل ما سمعه من الشواهد؛ إن آية أو شعرا أو نثرا، حسب ما يوافق استنتاجاته، أما إذا تعذر عليه أن يجد شاهدا نحويا من كلام العرب، فكان يلجأ إلى التمثيل بمثال يدل على مقتضى قواعد النحو عملا بمقتضى القواعد السابقة، وكأننا أمام عصيرين، العصر الأول عصر الشاهد، والعصر الثاني هو عصر التمثيل، وهي قيمة زمانية تستمد مشروعيتها وصدقيتها من العصر الأول، عصر التقعيد، وتعمل على مواصلة الحياة اللغوية للغة العربية في العصر الثاني الذي تبع زمان التقعيد، وكان من البديهي أن يقدم الصورة المتكاملة الأولى للنحو العربي⁽¹⁾.

ولقد أدرك سيبويه أن توضيح قواعد النحو بابه الشواهد والأمثلة، خاصة ما تعلق منها بأعراف الزمان المكان؛ لذلك ربط كل قاعدة نحوية بالاستعمال الذي تمثله تلك الشواهد المستقاة من البيئة نفسها، وهنا تظهر عدالة الشاهد وصدقه، وبالتالي الإذعان لحكم القاعدة النحوية، وبناء على أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غيره من الكلام ولا خلاف في ذلك، استشهد سيبويه في أكثر من موضع بالقرآن الكريم إضافة إلى استشهاده بالشعر، الذي كان ديوان العرب آنذاك، وذلك حتى يقتنع المخاطب، وهي حجة قاطعة كما في القضاء.

- خاتمة

يعدّ كتاب سيبويه خطاب موجه لكل من يريد أن يكون مدرسا، إذ كل ما في الكتاب يعتبر دليلا مساعدا لتدريس اللغة وقواعدها النحوية والصرفية، أو لتدريس علوم البلاغة (المعاني، البيان، البديع)، أو لتدريس علم العلامات (السيمولوجيا)، يدل على ذلك أشكال التواصل التي حرص سيبويه على توضيحها أو لتدريس اللسانيات بكل فروعها: الاجتماعية، العامة، التطبيقية تعليمية اللغات، بالإضافة إلى اللسانيات التحويلية التوليدية وكذا التداولية

- لتدريس تاريخ العرب والقبائل العربية، العادات والتقاليد العربية، حتى العصر العباسي الأول.

- تاريخ النحو العربي، الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام.

- الاحتجاج بالقرآن الكريم على صحة الأحكام وضبط القواعد وتقوية درجة الاقتناع.

- تدريس التداولية، لأن سيبويه اعتمد في تأليف الكلام على الاستعمال الحي في تداول اللغة، وعلى نية المتكلم وقيل: إن التداولية هي "عملية الاستعمال".

- اعتماد سيبويه على اللغة المنطوقة، وهو ما تحث عليه الدراسات اللغوية الحديثة حتى يكون نتاج ما توصلت إليه موضوعيا علميا.

خطاب سيبويه وإن كان نوعيا فهو موجه إلى كل الفئات إلا من أبي، وذلك أنه في صميمه خطاب تعليمي توجيهي إخباري

تقريري، لمن يريد أن يكتسب علما أو اطلاعا على صفاء اللغة العربية ونتاج أهلها الضخم شعرا ونثرا.

(1) الحجج في الدرس النحوي، ص: 130

كتاب سيبويه يمثل خطابا ونصا في الآن ذاته، وذلك أن سيبويه نفسه كان متلقيا للنصوص الموثقة في كتابه، ومن هنا فكتابه خطاب في عصره، نص في زماننا، أو هما معا، وعلى هذا الأساس، فكل متلق لكتاب سيبويه هو سامع وقارئ في الوقت ذاته، ولذلك أمكننا القول إن من أهم خصائص كتاب سيبويه الشفاهية والكتابية، وربما لذلك سمي سيبويه مؤلفه "الكتاب"، إذ المقصود بالكتاب هو "السورة" وهو اللوح المحفوظ، والذي يؤيد صفتي النص والخطاب "

قائمة المصادر والمراجع:

1. الكتب والمؤلفات:

1. الجاحظ: البيان والتبيين، تج: عبد السلام هارون، ط2، 1961
2. عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، 1981
3. خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2008
4. حلبي خليل: من تاريخ النحو العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1995
5. محمود السعدان: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار المعارف، مصر، د.ط، 1962
6. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت
7. طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998
8. سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة المصرية، د.ت
9. فردينان دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة: د. عزيز سوئيل يوسف عزيز، دار آفاق العربية، بغداد، د.ط، 1981
10. جرير: ديوان جرير، المطبعة العلمية، مصر، 1313هـ
11. مانويل ماريا كاريلو: خطابات الحداثة، ، ترجمة: إدريس كثير وعز الدين الخطاب، منشورات دار ما بعد الحداثة، فاس، ط1، 2001
12. عبد القادر حسين: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ط، د.ت
13. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1978
14. نوزاد حسين أحمد: المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، دار دجلة، عمان، ط1، 2006

المجلات العلمية:

15. جون سيرك: أتشومسكي والثورة اللغوية، ترجمة: هيئة التحرير، مجلة الفكر العربي، العدد (8-9)، بيروت، كانون الثاني، 1979
16. جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 145، الكويت
17. نهاد موسى: الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه، ، مجلة حضارة الإسلام، العدد 01، 1974
18. نصر الدين بوحساين: سيبويه والنقد اللساني، د. ، مجلة دراسات أدبية، دورية محكمة، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 08، 2010

الرسائل الجامعية:

20. عادل زغير: الربط في الجملة العربية، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1988
21. سارة عبد الله الخالدي: أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، 2006
22. ردة الطليحي: دلالة السياق، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة، 2002.

دراسة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ

د. فاطمة حجّاري

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية (وحدة تلمسان) - الجزائر

الملخص :

توقّف "روبرت دي بوجراندي وزميله "دريسلر" ، أمام مصطلح التّنعيم وعدّاه وسيلة من الوسائل الصّوتية الرئيسة التي توظّف مع وسائل أخرى ليتحقق مفهوم السّبك النّصي، وباستثناء ذلك لم يتكلّم علماء لغة النص المتخصّصون على عناصر صوتية أخرى. في مقابل ذلك نجد النقد العربي القديم عُني عناية كبيرة بالصّورة اللفظية التي يقدم بها الباث خطابه ودورها في تحقيق القبول لدى المتلقي، فقدموا معايير للصّيغة الصّوتية، و أفردوا للنّاحية الصّوتية قضايا بلاغية مستقلة، كما أنهم تنبّهوا للقيم الوظيفية للعناصر الصوتية التي تحكم نسيج النّص الشعري، وفي ذلك يقول الجاحظ: "أجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفرانجا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان ...". من هنا تحاول هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الضّوابط الصّوتية التي تحقق التّماسك النّصي كما قدمها الجاحظ باعتبار أن ملاحظاته في هذا الباب عُدت أول ملمح تطبيقي لدراسة التوافق الصّوتي الذي يمسّ النّص.

- الكلمات المفتاحية: السّبك الصوتي - الجاحظ - التّماسك النّصي - البنية الصوتية .

Abstract:

Robert De Bojgrand and his colleague Drissler stopped in front of the term "toning" and other means of sound, which are used with other means to achieve the concept of text casting, except that the language of the specialized text did not speak on other vocal elements. The old gave me a great deal of attention to the verbal image of the speech and its role in achieving the acceptance of the recipient. They presented the criteria for the vocalization, separated the vocal aspects of independent rhetorical issues, and they also alerted to the functional values of the vocal elements that govern the textual text. Al-Jahidh said: "The finest hair is what I have seen, the parts are smooth, the vents are easy, so you know that it has emptied one sponge and poured a single spike. It is done on the tongue as the paint is ..." The textual coherence was achieved as presented by Al-Jahidh, since his observations in this section returned the first practical feature to study the sound compatibility that touches the text.

Key words: phonetics cohesion- Al-Jahidh-text coherence- the phonétique structure.

1- مفهوم السّبك:

تناول علماء اللسانيات دراسة النّصوص من وجهين، الأول: الترابط الرصفي، وموضوعه النظام النحوي الافتراضي (نحو الجملة)، وأما الثاني فهو الترابط المفهومي، وموضوعه النحو الدلالي (نحو النص)، ونحو النص يستدرك ما لا يدركه نحو الجملة من القدرة على تشخيص المعنى وفهمه في الخطاب، وذلك بتوافر المعايير النصية التي حددها دي بوجراندي حين عرّف النّص بأنه حدث تواصل يُلزم لكونه نصّا أن تتوافر له سبعة معايير للنّصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلّف واحد من هذه المعايير، وهي: السّبك، والحبك، والقصدية، والمقبولية، والإعلامية، والموقفية، والتناص.¹

ويندرج معيار السّبك والحبك مما اختارته لنا بعض الترجمات العربية أن تجمعه في مصطلح التماسك النّصي وعنوا به "وجود علاقة بين أجزاء النص أو جمل النص أو فقراته، لفظية أو معنوية، وكلاهما يؤدي دورا تفسيريا، لأن هذه العلاقة مفيدة في تفسير النص، فالتماسك النّصي هو علاقة معنوية بين عنصر في النص وعنصر آخر يكون ضروريا لتفسير النص".²

¹ ينظر: دي بوجراندي روبرت، النّص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998، ص170-172.

² أحمد عفيفي، نحو النّص (اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001، ص98.

وتتجسد هذه العلاقات المعينة على فهم النَّص كالاتي:

- الاحتباس في النص: يعني أن يكون للنص بداية ونهاية، والرسالة محبوسة بينهما.
 - الاعتدال في النص: يعني أن يكون للنص معنى وهدف.
 - الارتباط في النص: يعني أن تكون فيه الأفكار والمعاني، متعلقا بعضها تعلقا منطقيا، ولذا يعد التماسك مصطلحا وظيفيا.
- وعليه يقوم التماسك النصي على خاصيتين، أولهما: الاتساق cohesion ذات طبيعة سطحية شكلية تشمل الروابط اللغوية المختلفة من إحالة، واستبدال وحذف...، وثانيتها: الانسجام coherence، ذات طبيعة دلالية تشمل الروابط الدلالية بين العناصر اللغوية المتعددة في سياق وتعريض، وعموم /خصوص، وإجمال/ تفصيل ... الخ.¹
- فمما يحيل عليه هذا التعريف مصطلح الاتساق وحيء به للدلالة على الربط اللفظي، وله مقابلات أخرى هي: السبك عند: سعد مصلوح، محمد العبد، تمام حسان. التضام: تمام حسان، إلهام أبو غزالة، التماسك: محمد الخطابي، فالح بن شيب العجمي. الربط النحوي: سعيد بحيري.²
- غير أن الاختيار سيقع على مصطلح السبك ترجمة لمصطلح coherence ذلك أن المصطلح العربي قد ورد في التراث العربي، وأشهر نصوصه قول الجاحظ في وصف أجود الشعر بأنه "متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إ فراغا وسبك سبكا واحدا."³

وبين سعد مصلوح الدرجات التي يتحقق فيها السبك أو ما اصطلح عليه بالاعتماد النحوي، بقوله: "ويتحقق الاعتماد في شبكة هرمية ومتداخلة الأنواع هي:

- 1- الاعتماد في الجملة .
- 2- الاعتماد فيما بين الجمل .
- 3- الاعتماد في الفقرة أو المقطوعة.
- 4- الاعتماد فيما بين الفقرات أو المقطوعات .
- 5- الاعتماد في جملة النص.⁴

وينقل سعد مصلوح عن دي بوجراند أن الاعتماد النحوي، " يأتي في مستويات صوتية وصرفية وتركيبية ومعجمية ودلالية، كما يتخذ أشكالا من التكرار الخاص، والتكرار الجزئي، وشبه التكرار، وتوازي المباني، وتوازي التعبيرين والإسقاط، والاستبدال، وعلاقات الزمن، وأدوات الربط بأنواعها المختلفة .

وبهذا الشأن أوضح صلاح فضل شيئا مهما، وهو أن التماسك - السبك- يمثل خصيصة نحوية للخطاب، تعتمد على علاقة كل جملة بالجملة الأخرى، وهو ينشأ غالبا عن طريق الأدوات التي تظهر في النص مباشرة، كأدوات العطف، والوصل، والترقيم، وأسماء الإشارة، وأدوات التعريف، والأسماء الموصولة، وغيرها.⁵

وقد ذكر هاليداي ورقية حسن في كتابهما: cohesion in english، أن جزءا من السبك يتحقق عبر النحو، وجزءا آخر عبر المفردات، وعليه فقد أشارا إلى أن السبك ينقسم على قسمين هما:

¹- أنس محمود فحال، الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني، دكتوراه في اللسانيات، جامعة صنعاء، 2009، ص 04.

²- ينظر: أشرف عبد البديع عبد الكريم، الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008، ص 141، 108.

³- الجاحظ أبو عمرو عثمان بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1418هـ/1998، ص 67/1.

⁴- ينظر: عبد الخالق فرحان شاهين، أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، 1433هـ/2012، ص 57.

⁵- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1413هـ/1992م، ص 263، 261.

السبك النحوي grammatical cohesion، والسبك المعجمي lexical cohesion، وأضاف بعض الباحثين قسماً ثالثاً هو السبك الصوّتي الذي أفاده من توقف روبرت دي بوجراند أمام مصطلح التنغيم الذي عدّه من المحاور الصوتية الرئيسة لمصطلح السبك.¹

ونجد عند هاليداي ورقية حسن تفصيلاً مفصلاً لسطح النص أو الأحداث اللغوية حيث يصوران اللغة بوصفها نظاماً له ثلاثة مستويات هي :

- الدلالة (المعاني)، والنحو المعجمي (الأشكال)، والصوّتي، والخطي (في التعبيرات). المعاني تتحقق (تشفر) في أشكال، والأشكال تتحقق (يعاد تشفيرها) تبعاً في التعبيرات، وتعبير أخص: يصاغ المعنى وهذه الصياغة تنطق أو تكتب: المعنى (انظام الدلالي) الصياغة (النظام النحوي معجمي) النحو والمفردات التصويب أو النطق / الكتابة (النظامان: الصوتي والخطي) .

ومصطلح الصياغة يشير إلى الشكل النحوي المعجمي، أي اختيار الكلمات والبنى النحوية، وفي هذا المستوى لا يوجد فاصل صارم بين المفردات والنحو... والسبك يتحقق جزء منه عبر النحو، وجزء عبر المفردات.²

2- مفهوم السبك في المدونات البلاغية العربية:

يحيل مصطلح السبك في الدراسات العربية القديمة إلى صفة الاستمرارية أو الاطراد³ التي تميّز الشعر أو غيره - على مستوى الجملة أو البيت غالباً- (متلاحم الأجزاء)، لذا اختاره الجاحظ واستحسنه الدراسات النصّية الحديثة، يقول: "وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً جيداً وسبك سبكا واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان".⁴

ويقول أبو هلال العسكري تعقياً على أبيات للنمر بن تولب: "فهذه الأبيات جيدة السبك حسنة الرّصف".⁵ ويرد عند أسامة بن منقذ 530هـ (باب الفك والسبك)، وقد عرّف السبك، بقوله: "السبك هو أن تتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره، كقول زهير:

يطعنهم ما ارتموا، حتى إذا أطعنوا ضارب، حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا.

ولهذا قال: خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض.⁶

فالنمط التكراري يتحقق مع دفع المعنى إلى النمو تدريجياً وصولاً إلى تحقيق الهدف الدلالي، فالترديد الوارد في البيت يسرّع من وتيرة إيقاع التكرار، فينموا النصّ سريعاً نحو اكتمال الدلالة التكرارية عندما يأخذ طابعاً متميزاً في قدرته على ترتيب

¹- ينظر: حسام أحمد فرج، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1421هـ/2007، ص116، 83.

²- ينظر: جميل عبد الحميد، البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النصّية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ن 1998، ص 77

³- معنى هذا ان السبك ذو طبيعة خطيّة أفقية شكليّة، يعنى بالتتابع والترابط الجمليّ للنصّ والإجراءات المستعملة في توافر الترابط بين عناصره الظاهرة فضلاً عن تحقيقه استمرارية الوقائع في النصّ، ما يساعد القارئ على متابعة خيوط الترابط المتحركة عبره ويقود إلى الانسجام النصّي، فيظهر النصّ ككلّ واحد يسهم في تماسكه عدد من الروابط أهمها الروابط السطحية التي تؤدّي إلى الروابط العميقة للبنى النصّية السطحية. ينظر: سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية أفاق جديدة، مجلس النشر العلمي، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، الكويت، ط1، 2003.

⁴- البيان والتبين، ص67/1.

⁵- العسكري، الصناعتين، مكتبة صبيح، القاهرة، دط، دت، ص175.

⁶- أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق: أحمد بدوي، وحامد عبد الحميد، مراجعة ابراهيم مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دط، دت، ص100

الدلالة ونموها تدريجياً في نسق أسلوبى يعتمد على ترديد اللفظ على شكل دفعات فكرية متلازمة، حيث تتردد فيه كلمة من الجملة الأولى في الجملة الثانية ومن الثالثة إلى الرابعة .

وحين تحدث بن الأثير عن علة تفضيل لفظ على آخر، قال: "ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دقَّ فهمه، وجلَّ نظره، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾، وقوله تعالى ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾، فاستعمل "الجوف" في الأولى و"البطن" في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد وزنهما واحد أيضاً، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل.¹

ويرد عند ابن أبي الأصبغ المصري (باب الانسجام)، وقد عرفه بقوله: "وهو أن يأتي الكلام متحدراً كتحد الماء المنسجم، بسهولة سبك وعدوبة ألفاظ، وسلامة التأليف، حتى يكون لجملة من المنثور، والبيت الموزون وقع في النفوس، وتأثير في القلوب ما ليس لغيره.² وفي تعريف الاطراد - وهو من البديع المعنوي: قال وهو أن تطرد للشاعر أسماء متوالية يزيد الممدوح بها تعريفاً، لأنها لا تكون إلا أسماء أباه تأتي منسوقة صحيحة التسلسل غير منقطعة، من غير ظهور كلفة على النظم، ولا تعسف في السبك، بحيث يشبه تحدرها باطراد الماء لسهولته وانسجامه".

فالسبك عند القدماء، ووفق قراءات المحدثين، إنما هو "إحكام علاقات الأجزاء، وسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجمية من جهة، وقرينة الربط النحوي من جهة أخرى، واستصحاب الرتب النحوية إلا حين تدعو دواعي اختيار الأسلوبى ورعاية الاختصاص والافتقار في ترتيب الجمل.³ إضافة إلى مراعاة حس اختيار المفردات وتجاورها في السياق .

وعموماً فقد عدَّ أغلب الباحثين السبك متصلاً بالبنية السطحية الشكلية للنص لاشتماله "على الإجراءات المستعملة في توفير الترابط بين عناصر ظاهر النص، كبناء العبارات والجملة واستعمال الضمائر وغيرها من الأشكال البديلة⁴. التي ترتب على "صورة وقائع يؤدي السابغ منها إلى اللاحق بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي.⁵ بواسطة عدة قرائن وعلاقات بين العناصر خاصة الكلمات فيما بينها من تضام، وربط ...⁶ أي أنه يختص بالعلاقات النحوية أو المعجمية المختلفة في النص، وهذه العلاقة تكون بين جمل مختلفة أو أجزاء مختلفة من الجملة. ويؤكد سعد مصلوح "أنه يختص بالوسائل التي تحقق بواسطتها الاستمرارية في ظاهر النص".⁷

فالسبك "يعني العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى".⁸ وعليه فالسبك يهتم بالعلاقات بين أجزاء الجملة، وأيضاً بين العلاقات بين جمل النص وبين فقراته، بل بين النصوص المكونة للكتاب، ومن ثم يحيط (السبك) التماسك بالنص كاملاً داخلياً وخارجياً.⁹

¹ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وحققه وعلق عليه: أحمد الحوتى وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، دط، دت، ص 164/1.

² ابن أبي الأصبغ، بديع القرآن، ص 166.

³ ينظر: جميل عبد الحميد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص 77.

⁴ ينظر: إلهام أبو غزالة وعلي حلي خليل، مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند ولفجانجريسلر، مطبعة دار الكتاب، ط 1، 1413هـ/1992، ص

⁵ النص والخطاب والإجراء، ص 103.

⁶ ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط 4، 2004، ص 213 وما بعدها.

⁷ نفسه، ص 91.

⁸ محمد مفتاح، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، المركز الثقافى العربى، بلبنان، المغرب، ط 1، 1996، ص 125.

⁹ ينظر: صبحي إبراهيم الفقى، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء، القاهرة، ط 1، 2000، ص 96.

و يوجد السبك حينما توجد علاقة قضوية بين الجمل، يعني أن السبك علاقة صريحة بين القضايا تعبر عنها الجمل، وتتجلى هاته العلاقة من خلال المرور على مستويين، وهما المستوى النحوي والمستوى المعجمي اللذان يؤكدان فعالية السبك (الاتساق) و إبراز حدوده.¹

والملاحظ على التعريفات والتصنيفات التي حدّدت معنى السَّبْكِ أنّها ركّزت على المستوى النحوي والمعجمي، في حين أنّها أغفلت المستوى الصّوتي. ماعدا إفادة فان ديك وهو أحد علماء النَّص من دراسة ياكبسون عن التوازي، حيث حاول أن يضع قواعد النص الأدبي، من أجل وصف البنيات الأدبية، مثل الوزن، والاستعارة، والحبكة السردية، وفي إطار هذا تناول فان ديك المكونات الصّوتية الخاصّة بالنّص الشعري، وتشمل عنده: الصوت، والخط، والصرف، والتركيب، وفيما يتعلق بالمكون الصّوتي فرّق فان ديك -أولا- بين البنيات الوزنية والبنيات غير الوزنية، رغم وجود خاصية أساسية مشتركة بينهما، وهي خاصية التكرار الصوتي، بيد أن البنيات الوزنية تقوم على تكرار أوزان بعدد معين وثابت، وهو ما يعرف بالنظام العروضي، وأما البنيات غير الوزنية، فهي اطرادات معينة من التكرار، ولكن هذه الاطرادات ليست ذات عدد ثابت، كما هي الحال في النظام العروضي². وتشمل هذه البنيات غير الوزنية: جناس البداية، والسجع، وتجانس الصوائت، وتقوم هذه الأنماط الثلاثة على مبدأ التكرار الفونيمي، حيث يستخدم في كلمة فونيم أو أكثر سبق استخدام في كلمة أخرى، ومن ثم رأى فان ديك أن مثل هذه الأنماط يجب دراستها بوصفها علاقات تربط بين العناصر المتكرر فيها الفونيم³.

إن مثل هذه القضايا تتواجد بوفرة وبمنهجية مكتملة في اللغة العربية ذلك أن العربية تضمُّ الكثير من المكونات الصوتية، والقضايا الدلالية ذات المنحى الصّوتي التي تساهم في تحقيق الاتساق والتماسك والسبك في بناء النص، ومنها ما يلي.

3- أشكال السَّبْكِ الصّوتي في العربية :

يعدُّ الرِّبْط الصّوتي إذن أحد الوسائل الشكلية التي تزيد في تماسك النَّص، حيث يلعب دورا كبيرا في إنتاجه وسهولة تلقيه واستيعابه وحفظه وروايته، كما يعد أحد الاستراتيجيات التعليمية التي ارتبطت بإنتاج الخطاب سواء على مستوى الألفاظ الغريبة أو الأساليب البلاغية.

ذلك أن المتكلم حين يقدم رسالة لغوية يعمد إلى وسيلتين: النطق والكتابة، وكلتاها متساويتان بالنسبة لطبيعة العمل الإبداعي، ولكن يبدو أن النقد العربي القديم كانت له عناية خاصة بالوسيلة الأولى، وهذا بدوره أدى إلى أن يكون في الاعتبار دائما وعي المبدع بمستويات الصّياغة صوتيا، لأنها أكثر صلة بالموقف والمقام، وبالسلوك الفردي، بل أكثر صلة بعملية التلقي وما يتبعها من ردود فعل، قد لا تتحقق في المستوى المكتوب⁴.

"وقد اهتم النقاد القدامى بأساسين صوتيين أحدهما يتّصل بالمخرج، والآخر بكمية المنطوق، وبمعنى آخر بالكيف والكم المنطوق، وكان لذلك اعتباره في الحكم على النصّ الأدبي بالحسن أو بالقبح. وربما كان ذلك وليد نوع من المهارة والمران في التمييز بين الفروق الدقيقة في الصّوت، فتستريح الأذن إلى كلام معين لحسن وقع أو إيقاعه، وترفض غيره لما فيه من نبو أو تنافر⁵.

¹ ينظر: محمد الخطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، ط2، 2006، ص237.

² ينظر: جميل عبد الحميد، البديع بين البلاغة العربية والنّسائيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص122.

³ نفسه، ص123، 122.

⁴ محمد عبد المطلب، جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العلمية للنشر، ط1، 1995، ص96.

⁵ نفسه، الصفحة نفسها.

كما تقدم البلاغة العربية ممثلة في علم البديع مجموعة من الرّوابط الصّوتية للنصوص العربي ، من سجع وجناس ، وسجع ، وترديد ولزم ما لا يلزم وغيرها ، إضافة إلى خصائص صوتية تميّز الشّعر من وزن وقافية ، وكلها عناصر تمثّل نماذج للرّبط الصوتي في العربية. وما الطباق أو الجناس إلا لوان من ألوان البديع يحدثان في الكلام ضربا من الموسيقى والإيقاع تطرب له الأذن، وتمش له النّفس، ويخلب به العقل.

ومن أوجه البلاغة ذات وقع الصوتي، ظاهرة التكرار اللفظي، ومن أشكاله (التعطف)، والمقصود به "أن يأتي الشاعر في المصراع الأول من البيت بلفظة ويعيدها بعينها، أو بما يتصرف منها في المصراع الثاني، فشبه مصراعا البيت في انعطاف أحدهما على الآخر بالعتفين في كون كل عطف منهما يميل إلى الجانب الذي يميل إليه الآخر .

ومثاله: قول أبي الطيب:

فساق إلىّ العرف غير مكدرّ وسقت إليه الشكر غير مذمّم.

فهذا البيت "انعطفت فيه ثلاث كلمات من صدره على ثلاث كلمات من عجزه، فيه بهذا الاعتبار ثلاث تعطفات ، وذلك قوله: (فساق) ، فإنها انعطفت على قوله في العجز (وسقت)، وقوله (إلي) فإنها انعطفت على قوله في العجز (إليه) ، وقوله غير ، فإنها انعطفت على قوله في العجز (غير).

ويلتفت ابن أبي الأصبغ إلى وجه آخر من وجوه التناسب في هذا البيت – أيضا- وهو التوازي الصّوتي ، حيث قال : " ثم في البيت من المناسبة ما لم يتفق في بيت غيره ، فإن كل لفظة في صدره على الترتيب وزن كل لفظة في عجزه وكل جملة، كقوله (فساق) (وسقت) و(إلي) و(إليه) و(العرف) و(الشكر) و(غير) و(غير) و(مكدر) و(مذمم). فهذه مفردات الألفاظ، وأما الجمل المركبة منها، فانظر إلى قوله (فساق إلي) (وسقت إليه) و(العرف) و(الشكر) و(غير مكدر) و(غير مذمم) والتوازي الصوتي – أيضا- أداة سبك نحوي، مما يعني ارتفاع درجة السبك في هذا البيت (معجميا ونحويا).¹

وقد أورد ابن سنان فنون السجع والازدواج، ولزوم ما لا يلزم، والتصريع، والترصيع، والجناس، وأوردها على أنها تحقق (التناسب عن طريق الصيغة)، كما جاء عند حازم في إطار مبحث (التلاؤم) ما عرف بجناس الاشتقاق والسجع والازدواج ، يقول حازم: " والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء منها ... ومنها أن تناسب بعض صفاتها ، مثل أن يكون إحداها مشتقة من الأخرى مع تغيير المعنى من جهة أو جهات ، أو تتماثل أوزان الكلم أو تتوازن مقاطعها ، ومنها أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلم ، أليق بها من كل ما يمكن أن يوضع موضعها."²

كما أن في الوزن الشعري وضوابطه باعتبارهما مظهرين صوتيين يخصّان الشعر، دورا في تحقيق تلاحم وانسجام البيت الشعري والقصيدة ككل، "فالقافية ليست مجرد محسن صوتي يكسب القصيدة سمة عروضية خاصة تستهدف التطريب وتحقيق الاستجابة الآتية القائمة على تماس العواطف، إنما تجاوز ذلك إلى إنجاز وظيفة دلالية، إنها إيدان بنهاية البيت الشعري ، وهي تمثل نوعا من التكرار الصوتي ما إن نسمعه في نهاية البيت، حتى نتأهب لاختزانه في الذاكرة ومنتظر سماعه من جديد، وهذه النقرة الصوتية المتكررة تسهم في تحقيق السبك النصّي."³

¹ - ينظر : جميل عبد الحميد ، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة ، ص 96

² - ينظر : نفسه ، ص 131.

³ - جان كوهين ، بنية اللغة الشعرية ، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط 1987، ص 209

"فالشاعر يرتكز على القافية في إنهاء المعنى الجزئي في كل بيت من أبيات قصيدته، في حين أن المتلقي يتلقى البيت وينتظر ورود القافية وروها، ويتوقع تردها، ليستجمع هذه الفكرة الجزئية ثم يربط بينها وبين الأفكار التالية. وهذا الإيقاع المتتالي للقافية يحدث تماسكا من نوع خاص في الشعر العمودي لأنه يجمع شتات النص، ويسهم في جعله وحدة صوتية متتابعة"¹.
فالقافية متماهية مع حركة المعنى ومحددة لها في بعض الأحيان، أي تدخل في صلب طبيعة التشكيل النسيجي لتنظم البناء في النص، يقول قدامى بن جعفر: "أن تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملاءمة لما مر فيه"².
فهذه مجرد إشارات لبعض الروابط الصوتية التي تسهم في إحداث النصية، وبالتالي تحقيق الاطراد والاستمرارية المنشودة في مختلف النصوص، على أن الجاحظ طرق روابط ومعايير تعد مرتكزات الدرس الصوتي أصالة، قبل أن تتشارك المعطيات الصوتية البلاغة والعروض، إنه يتحدث عن مجموعة من الروابط الصوتية التي تساعد في تحقيق الفهم والإفهام، وتجسيد رؤيته للبيان باعتباره غاية المتكلم، ومراد السامع.

4- معايير السبك الصوتي من منظور الجاحظ :

1. السلامة الصوتية :

تنطلق أولى مراحل تحقيق البيان أو الإفهام من منظور الجاحظ من مرحلة مراعاة سلامة ما اصطلاح عليه آلة البيان، وقصد بها جهاز النطق في حدود الفم وأعضائه، وقد أفرد لذلك شرحا مطولا وأمثلة كثيرة وتفصيلات لسقوط بعض الأسنان وأثره في تحقيق الإفهام، يقول: قال سهل بن هارون: لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثنياه في إقامة الحروف وتكميل آلة البيان لما نزع ثنياه³.

قال وزعم يعي بن نجيم بن معاوية بن زمعة، أحد رواة أهل البصرة أن يونس بن حبيب الضبي قال في تأويل قول الأحنف بن قيس: أنا ابن الزايرية أرضعتني بثدي لا أجد ولا وخيم .
أتمنتي فلم تنقص عظامي ولا صوتي إذا جدَّ الخصوم.

قال إنما عني بقوله "عظامي" أسنانه التي في فيه، وهي التي إذا تمَّت، تمَّت الحروف وإذا نقصت، نقصت الحروف⁴.

ويزيد الجاحظ في بيان دور تمام آلة النطق من جميع العيوب، ومدى مراعاة الخطباء وأهل المنابر لهذه القضية، حين ينقل هذا الخبر عن معاوية: "ولم يتكلم معاوية منذ أن سقطت ثنياه. قال أبو الحسن وغيره: لَمَّا شَقَّ عَلَى معاوية سقوط مقادام فيه، قال يزيد بن معن السلمي: "والله ما بلغ أحد سنك ألا أبغض بعضا بعضا، فوك أهون علينا من سمعك وبصرك، فطابت نفسه"⁵. قال: لولا المنابر والنساء، ما باليت متى سقطت.

وهو بذلك يشير إلى الأهمية القصوى للأسنان خاصة لدى الخطيب، ويؤكد الجاحظ أن من سقطت أسنانه جميعها أبين ممن ذهب شطرها أو ثلثها، يقول: قال محمد بن الرومي، مولى أمير المؤمنين: قد صحَّت التجربة وقد قامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها، وخالف أحد شطرها الآخر⁶. ويقول: وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدتهم النَّاس بعد أن سقط جميع أسنانهم، وبعد أن بقي منها الثلث أو الربع، فمن سقطت جميع أسنانه

¹ أسامة محمد سليم عطية، أثر الإيقاع في السبك الصوتي عند ابن الرومي (قصيدة طواه الردي أنموذجا)، جسور المعرفة، مارس 2018/جمادى الآخرة 1439هـ، العدد1، المجلد4، ص72.

² قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 167.

³ البيان والتبيين، ص59/1.

⁴ نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ نفسه، ص60/1.

⁶ نفسه، ص61/1.

كان معنى كلامه مفهوما ... وكان سفيان بن الأبرد الكلبي كثيرا ما يجمع بين الحار والقار فتساقطت أسنانه جميعها ، وكان في ذلك كله خطيبا بَيِّنًا .

ومن الملاحظات القيمة التي ذكرها الجاحظ عن علاقة الأسنان وتواجدها بالنطق ما ذكره عن الأهتم ، إذ يقول: " وليس شيء من الحروف أدخل في باب النَّقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة."¹

و جاء في لسان العرب: هتم فاه يهتمه هتما : ألقى مقدّم أسنانه والهُتَم : انكسار الثنايا من أصولها خاصة ، وقيل من أطرافها . هتم هتما وهو أهتم بيّن الهتم ، وأهتمته إهتاماً إذا كسرت أسنانه، وتهتم الشيء تكسّر ، وذلك لأن مخرج هذه الحروف ما بين طرف اللسان وفوق الثنايا لذلك صعبت على الأهتم الذي فقد أسنانه .

فنقص اكتمال جهاز النطق على مستوى الفم، مدعاة إلى حدوث نقص في الإبانة والإيضاح، وتبليغ الكلام بأحسن صورة

من اللفظ

كما يذكر الجاحظ نصّاً مطوّلاً عن الخطيب المعتزلي واصل بن عطاء ، والذي كان في فمه لثغة حرص على تجنّب ظهورها لا لشيء إلا أنها مدعاة للنقص في بيانه وفي تبليغ مراده، يقول الجاحظ: " ولمّا علم واصل بن عطاء أنه أُلثع فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذا كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطّوال، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الحلوة، كحاجته إلى الجزالة والرخامة، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزيّن به المعاني."² ويقول " ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة - ر م أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأثى لستره والراحة من هجنته، حتى انتظم له ما حاول، وأتسق لم ما أمّل."³

فهذا الحديث المفصّل جزء من تفصيل طويل يبين فيه الجاحظ دور الأسنان في إقامة النطق السليم ، وحديثه عن العيوب التي تلحق الكلام بسبب خلل في الأسنان وهو العضو الظاهر ، إنما سببه عدُّ هذا الخلل انتقاص في درجة فصاحة المتكلم ، غير أنه لا يقف عند هذا الحد، بل يجعل العيوب الصوتية للكلام مانعة من حدوث الإفهام ، فيذكر أن الذي يعتري اللسان ممّا يمنع البيان أمور: منها اللثغة التي تعتري الصبيان إلى أن ينشأوا.⁴

" وهو في هذا لا يفوته ذكر قصة سيدنا موسى عليه السلام ، واللثغة التي كانت تعتريه ، ودعائه الذي كان في سبيل تحصيله الفصاحة ، وحسن مخاطبة الناس ليفهموا عنه، ويؤثر فيهم بصفته حامل رسالة سماوية من شأنها أن تقع في القلوب موقعا حسنا أو بالأحرى تهزّ النفوس ، وتخلخل مبادئها وتقوّضها لتغرس فيها مبادئ جديدة."⁵

"ففي تقديم سيدنا موسى عليه السلام لأخيه هارون كونه أفصح منه وبالتالي قدرته على التبليغ ودعائه الذي كانت الغاية منه نفسها (التبليغ) إشارة إلى تلازم المصطلحين ، والأجدر أن يقال تلازما إن لم يكن تداخلا ، لأن البيان أشمل من الفصاحة ، فكل مبين فصيح ، وليس كل فصيح مبين ، لوقوع البيان بغير الكلام."⁶

¹- البيان ، ص 61/1.

²- نفسه ، ص 14/1.

³- نفسه ، ص 15/1.

⁴- نفسه ، ص 71/1.

⁵- بشلاغم بشرى ، ملامح نظرية النص عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين ، مذكرة ماجستير ، جامعة سطيف 2010-2011 ، ص 84.

⁶- نفسه ، الصفحة نفسها .

لقد عرض الجاحظ من وجهة نظر الجابري للعملية البيانية - وهي المقصود من جميع أبواب البيان والتبين - بوصفها مقولات تأسيسية لإنتاج الخطاب البياني ، أو بما هي شروط لإنتاج الخطاب البياني منطلقاً من شروط الإرسال الجيد إلى متطلبات الحصول على الاستجابة المبتغاة. وقد حدّد الباحث هذه البيداغوجية البيانية المرتبطة بشروط إنتاج الخطاب البياني في نقاط أولها :

● البيان وطلاقة السان: إذ حاول الجابري أن يعلل استهلال الجاحظ كتابه بـ"ذمّ السلاطة والهنر والعِيّ والحصر والحبسة" بالمثل المشهور بضمّها وتمييز الأشياء، "أي إن الجاحظ في تقدير الباحث عرّف البيان بالسلب بما ليس هو إياه" وكأنّ البيان بالتسطيح الثّري هو الذي تجرّد من هذه الصفات، فالجاحظ في هذه المرحلة - كما تبينه مقاربة الجابري - انطلق في ذكر الآفات التي تفسد البيان والتي ترجع إلى خلل في الجهاز الصّوتي مثل اللجلجة والثّمتمة واللثغة والفأفة... ، فالجاحظ إذن حسب الجابري يربط بين البيان وطلاقة اللسان، ويعزز هذا الرّبط وعلى الطريقة البيانية بعدة شهادات وعلى رأسها القرآن الكريم.¹

لقد أدرك الجاحظ بأن الإفهام كما يحتاج إلى شروط وسائل معينة ، يحتاج إلى غياب مجموعة من النواقص والآفات منها ما قد يتولد في آلة النطق ابتداءً، مما يستوجب مراعاة هذا الجانب الأولي في أداء الكلام وإرساله .

2. نسيج الكلمة (بنية اللفظة) :

تنطلق رؤية الفصاحة من وجهة نظر صاحب البيان التبين من قاعدة صوتية، تقوم على انسجام الحروف المركبة للكلمة وتآلفها، وقد بلور هذا المقياس الهام في مصطلح يبدو ثابتاً واضح المعالم في أصول نظريته الأدبية، وهو الاقتران، وقد أورده في معرض تفسيره "التشابه والموافقة" - وإن كان هذا التفسير غير دقيق في دلالته على أوجه التشابه والموافقة بين الحروف لخلوه من كل تحليل موضوعي لكيفية تعامل الأصوات، فإن الأمثلة التي أوردها للاستدلال على كبر هذا الباب - على ما يقول - دليل على أن المقصود ، تجنب الجمع بين الحروف المتنافرة من جهة المخرج أو الصفات.² فقد ذكر أن الجيم لا تقارن (ظ، ق، ط، غ) بتقديم ولا بتأخير ، والزاي لا تقارن (ظ، ش، ض، ذ) بتقديم ولا بتأخير.³

وفي البيان والتبيين نصّ يحوصل فيه صاحبه صفات اللفظ من جهة تألف الحروف وبنيته الصوتية العامة ، وقد سلك في ذلك مسلك إبراز الصّفة ونقيضها انطلاقاً من موازنة عقدها بين خصائص أجزاء البيت من الشعر وخصائص ما سمّاه (بحروف الكلام)، يقول الجاحظ " فحروف الكلمة وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة وملسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة متنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد".⁴

ثم هو يتجاوز حدود المفردة الواحدة إلى علاقتها الصوتية بمجاورتها، مبدئياً ملاحظاته فيما يعرف بتنافر الألفاظ، حيث قال : " ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قب حرب قبر .

¹- نفسه ، ص 187.

²- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، العدد 21، 1981، ص 227، 226.

³- نفسه ، الصفحة نفسها .

⁴- البيان والتبيين ، ص 67/1.

قال الجاحظ ولمّا رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتبع ولا يتلجج ، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذا كان من أشعار الجن فصدقوا بذلك. قال وأنشدني أبو العاصي ، قال أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى :

وبعض قريض القوم أولاد علة يكدُّ لسان الناطق المتحفظ.¹

قال وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي :

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه لسان دعيّ في القريض دخيل .

أما قول خلف " وبعض قريض القوم أولاد علة .

فإنه يقول : إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها ماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة ... وأما قوله "كبعر الكبش" فإنما ذهب إلى أن بعير الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور. وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة ملسا، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكره تشق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية سلسة النظام ، خفيفة على اللسان ، حتى مأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حر واحد² .

وهكذا نجد الجاحظ قد ربط بين البيان وعدم التنافر بين مجموع الألفاظ التي تؤلف الجملة بل ويعد الجاحظ سبّاقا

في الجمع بين تنافر الحروف وتنافر الألفاظ حيث اكتفى من سبقه من العلماء في الحديث عن تنافر الحروف فقط.

لقد أظهر الجاحظ وعيا كبيرا بضرورة مراعاة التجانس بين الحروف في الكلمة الواحدة ، وبين الألفاظ في "الوحدة الكلامية" كالجمله من النثر أو البيت من الشعر ، وكأن البيان عند الجاحظ كما يتوقف على سلامة الجهاز الصوتي ، فإنه يتوقف "على خلو الكلام من العيوب الراجعة إلى الجمع بين الحروف غير المتجانسة". وما كل من شأنه أن يعيب البناء الصوتي لنسيج الكلمة العربية مفردة، وفي علاقتها بما يجاورها.

3. حسن اختيار الألفاظ :

وكما يتوقف البيان على سلامة النطق وطلاقة اللسان يتوقف كذلك على جزالة اللفظ وحسن اختياره حتى يكون مناسباً للمقام، وتبعاً لهذا التصور ، فقد وقف الجابري أمام قول الجاحظ " ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث ...³ مقدرا أن نص الجاحظ يجسّد مقولة مناسبة اللفظ للمقام ، كما وقف الباحث أيضا على نصوص جاحظية أخرى تبرز اهتمامه بمبدأ "لكل مقام مقال" الذي يقضي باختيار اللفظ المناسب للمعنى ، المتناغم مع السياق⁴.

يقول الجاحظ : " ولا يحسب المتكلم/ الكاتب أن اختيار الألفاظ يكون فقط على الألفاظ الجزلة الفخمة دون سواها، فإنه إن كان هذا منهجه ، فقد جانب الصواب في كثير من المقامات، لأن اللفظ بحسب المعنى ، فالفخم من الألفاظ يناسب الفخم

¹ - البيان ، ص 67/1.

² - نفسها ، الصفحة نفسها .

³ - البيان والتبيين ، 1/18-19.

⁴ - الجابري ، محمد عابد ، بنية العقل العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 9، 2009، ص 26.

من المعاني ولا يناسب الرقيق منها، "وأن سخيْف الألفاظ مشاكل لسخيْف المعاني وقد يحتاج السخيْف في بعض المواضع ، وربّما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعاني".¹

وكما هو واضح في هذا القول ، طبيعة المقام وحيثياته هي التي تفرض الألفاظ ، وكذا المعاني ، ولا يخشى أن يكون بذلك اختيار السخيْف من الألفاظ مدعاة للسخرية والاستهزاء والحطّ من قيمة المتكلم فهو المبين في ذلك الموضوع ، وما حاجتنا إلى كلام سوى أن نفهم معناه ويؤثر فينا ، لتتحقق وظيفته الاجتماعية.²

4. تلاحم الأجزاء:

أطلق الجاحظ حكما مشهورا لتمييز جيّد الشعر من رديئه، فقال " وأجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إ فراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدّهان."³

فالجاحظ يوجه النظر إلى السامع بوصفه قاعدة الإفهام والفهم ، لذا يجب على المتكلم تحري التلاؤم في كلامه، وكذا الشعر في شعره، بانتقاء الألفاظ الفصيحة التي لا يستثقلها اللسان، وفي الوقت ذاته لا يقع بينها وبين ما يجاورها تنافر، فيظهر -بذلك- الشّعْر كأنه كل موحد أو كلمة واحدة .

يقول "فكأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد."⁴ فالتحام الألفاظ بموجب هذا الشرط ضروري، يراعيه الشاعر حتى يتسق شعره فلا ينبو عن الأسماع، ولا يثقل على الألسنة .

وقد أضحى الالتئام معيارا أساسيا من معايير النصيّة، فالمتعمّن في القول السابق، يراه جامعا لمقاييس كثيرة، فهو يتحدث عن اللفظ وضرورة اجتناب الاستكراه فيه، ثم سهولته وفصاحته، لينتهي إلى التئامه مع باقي الألفاظ، وكذا التئام البيت بأكمله.⁵ وهو يمثل لكلامه بأمثلة كثيرة من نحو تعليقه على البيت :

لم يضرها والحمد له شيئا وثنت نحو عزف نفسي زهول.⁶

حيث يقول: "فتفقد النّصف الأخير من هذا البيت ، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض."⁷

فيظهر هذا التبرؤ من جهة فصاحة الألفاظ، لأنها متقاربة المخارج، فاصلا لتحديد جيّد الشعر من رديئه، فأن يتبرأ اللفظ من مجاوره ، يعني فك أوصال البيت، وتقطّعه، وحاجته إلى وقت غير يسير ليتضح معناه في قلب سامعه ، وهذا ما يتناقى وما يدعو إليه الجاحظ .

يقول الجاحظ في بلاغة ثمامة بن الأشرس: "وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي ، كان يبلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف، ما كان بلغه ، وكان لفظه في وزن إشارته ، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك".⁸

¹- البيان والتبيين ، ص3/140.

²- ملامح نظرية النص عند الجاحظ ، ص121

³- البيان والتبيين ، ص67/1.

⁴- البيان والتبيين ، ص67/1.

⁵- ملامح نظرية النص ، ص124.

⁶- البيان والتبيين ، ص66/1

⁷- نفسه الصفحة نفسها .

⁸- البيان والتبيين ، ص111/1.

فالإيجاز في موضعه ، والبعد عن التكلف والغموض يسمح بإمكانية الفهم، وهذا ما يؤا صاحبه "ثمامة بن الأشرس" مكانة عالية ، كما لا تخفى إصابته في اختيار ألفاظه للمعاني التي يتطرق إليها ، فيأتي اللفظ بقدر المعنى ، لا يكون فاضلا عليه ، ولا مقصرا عنه ، فتنحقق علة التواصل بين المتخاطبين ، وتعطي شرعية وصف المتكلم بالبليغ .

لقد كان اهتمام الجاحظ - في تقدير الجابري - منصبا حول قوانين إنتاج الخطاب ، وذلك بخلاف الجهود التي حاولت التركيز على شروط تفسير القرآن . والجاحظ / المتكلم في فحص الجابري لم يكن معنيا بقضية الفهم في كلام العرب وحسب ، بل لقد كان مهتما أيضا ، ولربما في الدرجة الأولى بـ "قضية الإفهام" ، إفهام السامع وإقناعه وقمع المجادل وإفحامه . فالجاحظ يدخل السامع كعنصر محدد وأساسي في العملية البيانية ، بل بوصفه الهدف منها ، الشيء الذي كان غائبا في أطروحة الإمام الشافعي - باعتباره واضع لقوانين تفسير الخطاب البياني وبالتالي المشرع الأكبر لعقل العربي - حيث انصب اهتمام الشافعي على قصد المتكلم بالدرجة الأولى¹.

وهو في تركيزه على المستمع إنما يحرص على بلوغ هذا الأخير درجة الفهم والاستيعاب، يقول الجاحظ: " قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني قائمة في صدور العباد المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه وحاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى ما يبلغه من حاجات نفسه، وإنما تحيا تلك المعاني في ذكركم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها ... وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح كانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع."² ولهذا هو يبدي حرصه على تخير اللفظ المناسب المستوفي لشروط البناء الصوتي السليم ، والمناسب للمقام والمعبر عن الحال أحسن تعبير.

لقد أدرك الجاحظ أن المعنى واللفظ وجهان لعملة واحدة ، لا قيمة لأي منهما بعزله عن الآخر ، وعلى حسب درجة تطابقهما يكون الحكم على الكلام بالإبانة من عدمها ، والالتحام بين اللفظ والمعنى وانسجامهما يحققان التواصل والفهم بأسرع طريقة ، ولكل معنى لفظ يناسبه، وما على المتكلم إلا أن يحسن الاختيار، ويدقق النظر: "إن لكل معنى شريف أو ضيع ، هزل أو جد وحزم أو إضاعة ، ضربا من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه".

ويقول في موضع آخر يصف فيه ولع العرب بتخير ألفاظهم: "ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم - لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت لسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعمّ وعلى ألسنة حدائق الشعراء أظهر"³.

إن القراءات المتعددة للإنجاز اللساني التراثي عموما، وإنجاز الجاحظ خصوصا، تكشف عن مقولات جاحظية تحاكي حدّ التطابق مقولات الدرس اللساني الحديث، وهو مادفع قارئ التراث إلى إقامة المقارنات واستنتاج المماثلات والتقاربات، والجاحظ قدّم في كل فرع من فروع المعرفة اللسانية، نقاط ومبادئ كبرى تمس بجوهر القضايا السانوية الكبرى منها ما مسّ علم اللغة الاجتماعي، ومنه ما مسّ علم أمراض الكلام ، وله تعميده الدقيق لمفاهيم في لسانيات النص ، منها تركيزه على وصول الرسالة إلى السامع في أحسن صورة من اللفظ ، ما يعد تأصيلا لمحور السبك الصوتي كمحور من محاول التحليل النصي .

¹ ينظر : مسالتي محمد عبد الستير ، مصطلح البيان وأسئلة النقد المعاصر ، مجلة مقاليد ، العدد 11، ديسمبر 2016، ص 186.

² البيان والتبيين ، ص 90/1

³ البيان والتبيين ، ص 24/4.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب والمؤلفات:

- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وحققه وعلق عليه: أحمد الحوئي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، دط، دت.
- ابن أبي الأصبغ، بديع القرآن،
- أحمد عفيفي، نحو النَّص (اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001.
- أشرف عبد البديع عبد الكريم، الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008.
- أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق: أحمد بدوي، وحامد عبد الحميد، مراجعة ابراهيم مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دط، دت.
- إلهام أبو غزالة وعلي حلمي خليل، مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند وولفجانجد ريسلر، مطبعة دار الكتاب، ط1، 1413هـ/1992.
- أنس محمود فعال، الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني، رسالة دكتوراه في اللسانيات، جامعة صنعاء، 2009.
- بشلاغم بشرى، ملامح نظرية النص عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، مذكرة ماجستير، جامعة سطيف 2010-2011.
- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2004.
- الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط9، 2009.
- الجاحظ أبو عمرو عثمان بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1418هـ/7، 1998.
- جميل عبد الحميد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
- جانكوهين، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987.
- حسام أحمد فرج، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1421هـ/1، 2007.
- حماد يصمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، العدد 21، 1981.
- ديوبجراند روبرت، النَّص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998.
- سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية أفاق جديدة، مجلس النشر العلمي، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، الكويت، ط1، 2003.
- صبحي ابراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء، القاهرة، ط1، 2000.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط1413هـ/1992م.
- العسكري، الصناعتين، مكتبة صبيح، القاهرة، دط، دت.
- عبدالخالق فرحان شاهين، أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، 1433هـ/2012.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دارالكتبة العلمية، بيروت، دط، دت.

- محمد الخطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، ط2، 2006.
 - محمد مفتاح، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط1، 1996، ص125.
- المجلات والدوريات:
- أسامة محمد سليم عطية، أثر الإيقاع في السبك الصوتي عند ابن الرومي (قصيدة طواه الردى أنموذجا)، جسر المعرفة، مارس 2018/جمادى الآخرة 1439هـ، العدد1، المجلد4.
- مسالتي محمد عبد الستير، مصطلح البيان وأسئلة النقد المعاصر، مجلة مقاليد، العدد11، ديسمبر 2016.

أسلوب الفنقلة في المنجز الأصولي " التأسيس والانجاز" - رسالة الشافعي نموذجاً -

د. فايزة طيبي أحمد

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف - الجزائر

الملخص:

عند قراءة "رسالة الشافعي" تلفتنا تلك التراكمات المتوالية المتمثلة في: (فإن قلت: قلت)، هذه المادة وآلية استخدامها عند الشافعي- والتي تعرف بالفنقلة بوصفها مصطلحاً منحوتاً- شكلت ظاهرة دلالية بارزة في أسلوب منفرد يضرب في عمق اللغة والبلاغة، هذا الأسلوب الذي يثير خاصية الربط بالحجاج بوصفه أسلوباً إقناعياً في نسق معين، ولم يكن حجاجاً بين شخصين أو أكثر بل مناظرة متخيلة مع الذات واعتبارها خصماً، بين المؤلف واستدلالاته، فتجلت الفنقلة بأقسامها في رسالته وهي: الفنقلة البيانية التعليمية، والنقلية التحقيقية الاستدلالية، والفنقلة الحوارية التناظرية، من هنا وسمنا البحث بـ "أسلوب الفنقلة في المنجز الأصولي "التأسيس والانجاز"- رسالة الشافعي نموذجاً- محاولة لتأسيس أسلوب الفنقلة في عرض المادة العلمية وبيان صورها ودلالاتها، وينبني البحث على المحاور الآتية: منهج الشافعي في تصنيف "الرسالة"، مقاصد أسلوب الفنقلة في فهم النصوص ودلالاته.

والمحاور مسبوقة بمدخل: حول مفهوم الفنقلة، ومختومة بخاتمة تضم أهم النتائج المتوصل إليها.
الكلمات المفتاحية: المنجز الأصولي - الفنقلة- رسالة الشافعي- مقاصد الفنقلة ودلالاتها.

Resumé

On lisant « risalat Ash-Shâfi'î on remarque ces séquence compositions de: (si je dit: je l'ai dit), cette notion et le mécanisme de son utilisation chez Ash-Shâfi'î connu comme el fankala comme étant un terme gravé - formé un phénomène sémantique de premier plan dans un style unique qui touche le fond de la langue et de la rhétorique ., ce style qui incite la propriété de liaison avec l'argumentation comme étant une manière persuasive dans un système particulier .

Ce n'est pas une argumentation entre deux personnes entre l'auteur et ses inférences ou plus mais un débat imaginaire avec soi-même comme étant adversaire , el fankala s'est manifesté dans sa risala ;à savoir: el fankala bayaniya taalimiya wa naqliya tahakoukiya el istidlaliya wa el fankala hiwariya tanadouria authenticité et acquis risalat ash-shafi'i comme modèle

notre recherche est Une tentative pour consolider le style du travail dans la présentation du matériel scientifique et son image et sa signification, et construit la recherche sur les axes suivants: Approche Al-Shafi'i dans la classification de sa risala et les objectifs de la technique de compréhension du texte et ses implications.

مدخل: مفهوم الفنقلة :

"الفنقلة" منحوتة، من قولهم: (فإن قيل، قلنا) ، كالبسمة والحيعة، وتعد من الأساليب المهمة التي يستعملها النحاة والفقهاء والمفسرون في عرض المادة العلمية خاصة عندما تكون المسألة مهمة، أو يريد أن ينبه المخاطب عليها. وهذا فإنها تغدو ذات أثر مهم في إيصال الفكرة إلى المخاطب أكثر من الكلام التقريري المباشر¹، وقد قيل: إذا سطرَّت جواباً في مُسْأَلَةٍ === فحرَّرَ القولَ فيها وفصلَ وبينَ الحكمِ فيها ولا تــــدعُ === تعقيبَ هذا باحترازٍ وفنقلٍ

¹- العقيدى، رضا حسون، وبحياوي أحمد علي، أغراض الفنقلة في كتاب سيبويه، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية. جامعة بابل، 2017، ص34.

فلو أن المجيب إذا ظن أن السائل سوف يستشكل بعض جوابه أورد ما يمكن أن يرد من شبهة، على طريقة: فإن قيل: كذا، فيقال: كذا وكذا.

تتكون الفنقلة من جذعين يمثل الأول قول السائل أو القائل (فإن قلت)، وبدائلها، والجزء الثاني

يمثل الجواب (قيل) مع بدائل أخرى تستخدم أحياناً كما تتنوع العبارات التي تأتي بعد القول

ما بين صيغة الاستفهام أو الجمل التقريرية¹.

"الفنقلة" بوصفها وسيلة للمناظرة، والجدال، والحجاج، يعتمد الغرض من توظيفها على الكاتب أو المتكلم؛ بمعنى آخر إنها كالوعاء.

"الفنقلة لدفع القارئ أو السامع إلى الانتباه وتنشيط الذهن، وتشده إلى متابعة الموضوع بحرص واهتمام؛ فيخلق بذلك

التفاعل والاستثارة، وجذب انتباه السامع أو المتلقي²، لم يكن القصد من الفنقلة الانتصار للنفس أو تعجيز الخصوم، وإنما كانت بغرض إشاعة المعرفة والحقيقة.

منهج الشافعي في الرسالة:

يمثل عصر التدوين بمثابة عصر تأسيس الأصول في تاريخ الأمة وهو العصر الذي ينتسب إليه الشافعي والذي شهد صراعاً بين الاتجاهات الفكرية المختلفة حول تأصيل الأصول في كل المجالات المعرفية فكان عصر التساؤلات المعرفية الكبرى والاختلافات الخصبة العميقة حول قضايا العقل والنقل والرأي والحديث، فظهرت فيه مؤلفات شكلت مفصلاً في كل العلوم من حيث تأسيسها وتشكلها ومن حيث موقعها وتأثيرها وتأثرها، فشكلت كلها خطوات عميقة في بحر المنظومة المعرفية، ويعد كتاب الرسالة المدونة الأولى في علم التأويل وآليات الاستنباط وقد شكلت هذه المدونة الفيصل الذي استطاع أن يفك الشفرة التي حالت دون تقارب مدرستي الرأي والحديث ليصل إلى الحلقة المفقودة التي انسجمت عليها المنظومة التأويلية وذلك برسم المناهج وتنظيمها لاستخراج الأحكام من أدلتها وتحريير طرق الاجتهاد³، ذلك أن الشافعي توصل إلى أن الناس في حاجة إلى ضابط وقانون في الاستنباط بعد امتلاكه المقدرة على صياغة هذا القانون مستثمراً آليات المناظرة والحجاج وقواعد الترتيب المنطقية، إضافة إلى تمكنه من لغة العرب، قال الإمام عبد الملك بن هشام، النحوي: "الشافعي كلامه لغة يُحْتَجُّ بها"⁴، وقال الجاحظ: "نظرت في كتب هؤلاء النَبَّغَةِ، الذين نبغوا في العلم، فلم أر أحسن تأليفاً من الشافعي، كأن لسانه يَنْظُم الدُرَّ"⁵، فكَتُبَهُ كلها مثل رائعة من الأدب العربي النقي، في الدُرَّة العلياً من البلاغة، يكتب على سجيته، ويُملي بفطرته، لا يتكَلَّف ولا يتصنَّع، أفصح نثر تقرأه بعد القرآن والحديث، لا يُساميه قائل، ولا يُدانيه كاتب، ويضيف أحمد شاكر: "وإني أرى أن كتاب "الرسالة" ينبغي أن يكون من الكتب المقروءة في كليات الأزهر، وكليات الجامعة، وأن تُختار منه فقرات لطلاب الدراسة الثانوية في المدارس والمعاهد؛ ليفيدوا من ذلك علماً بصحة النظر، وقوة الحجَّة، وبياناً لا يرون مثله في كتب العلماء وأثار الأدباء"⁶.

ينتهي كتاب الرسالة إلى الدراسة النصية والعقلية معا وليس كتاب رواية فقط، ولكنه كتاب دراية بمعنى وجود التحليلات

والمناقشات وهو كتاب موضوعي مركز منهجي تترابط فيه الأفكار .

¹ - العقيد، رضا حسون، وبيحاوي أحمد علي، أغراض الفنقلة في كتاب سيبويه، ص 35

² - شرح مختصر الروضة، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، تقديم عبد العال عطوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987، ص 14.

³ - ينظر: اسماعيل نقاز، مناهج التأويل في الفر الأصولي - دراسة تحليلية ونقدية مقارنة لمناهج التأويلية المعاصرة، مركز نما للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2017، ص 73-

⁴ - الشافعي، الرسالة، ص 16.

⁵ - المصدر نفسه، ص 16.

⁶ - الشافعي، الرسالة، ص 14.

وقبل التفصيل في منهج الشافعي نشير إلى مميزات كتاب الرسالة، وتتلخص في الآتي:

- كتاب "الرسالة" أول مؤلف في علم أصول الفقه، ولقد كان فضل السبق في تدوين هذا العلم لمحمد بن إدريس الشافعي، وضمها أهم المباحث الأصولية؛ فتكلم عن القرآن والسنة، والناسخ والمنسوخ، وقول الصحابي، والإجماع، والقياس، والأمر والنهي، والعام والخاص، والمجمل والمبين، والاجتهاد والتقليد، وشروط المفتي، وغير ذلك.

- يعد كتاب الرسالة كتاباً عظيماً القدر لما فيه من علوم أصولية غضة طرية من إمام قريب من نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه رضي الله عنهم .

- كتاب رتبت فيه أبواب علم أصول الفقه وتعليقه، وجمع فصوله ومطالبه، ولم يقتصر على مبحث دون مبحث، بل بحث في القرآن الكريم من حيث الفهم والدلالة، وفي السنة أيضاً، وفي طرق إثباتها وعلاقتها بالقرآن. فبحث الدلالات اللفظية، فتكلم في العام والخاص، وفي المشترك والمجمل والمفصل، وبحث في الإجماع وحقيقته، وناقشه مناقشة علمية لم يُعرف أن أحداً سبقه إليها "فكتبه كلها مثل رائعة من الأدب العربي النقي في الذروة العليا من البلاغة، يكتب على سجيته ويملي بفطرته لا يتكلف ولا يتصنع"¹.

منهج الشافعي:

الشافعي من أوتاد العلم وأعلامه، وحين ألّف كتابه الرسالة، لم يكن هناك علم يُعرف بعلم أصول الفقه، لكن لم تكن قواعده مكتوبة، وأسس موضوعه، وحججه مُحَرَّرَة، ومجموعاته مُقسَّمة. فجاء الإمام الشافعي وفعل ذلك، فاستنبط وجمّع، ورَتَّب وقسَّم، وقعد وناقش، وأصل، فقد دون أصول الفقه تدويناً مستقلاً قاصداً له شارحاً لمنهجه، قال فخر الدين الرازي: "كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه، ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة، وفي كيفية معرضاتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع، كنسبة أرسطوطاليس إلى علم العقل"².

ويمكن تلخيص ما اتسم به الشافعي في تأليفه كتاب الرسالة في الآتي:

- استنبط واستخرج قواعد أصول الفقه، والتي لم تكن مسطورة من قبل.

- جمّع هذه القواعد في صعيد واحد، بنسقٍ منطقي مُرتَّب بتمحيص وتدقيق، فوصلها ببعض: عرضاً، وتقسيماً.

- ألّم الشافعي بمختلف الآراء وبوجهات نظر أصحابها.

- قدرته الفائقة على اختيار الراجح من الأقوال بعيداً عن الإسهاب الممل والاقتضاب المخل الذي عاب كثيراً من المؤلفات

بعدها.

- ناقش الاعتراضات الواردة، وحاجج وبين الأدلة، وأصل القواعد الكلية لهذا العلم.

- استعمال أسلوب المحاوراة والنقاش بعبارات مختلفة وصيغ متعددة.

ومن السابق يتضح لنا قيمة هذا الكتاب وحاجتنا الماسة في هذا العصر إلى هذا النمط من التأليف القائم على الأصالة

والإبداع.

من أبرز ما ميز منهج الشافعي هو استعماله "أسلوب المحاوراة والنقاش" بعبارات من مثل قال لي قائل... فقلت له...، وفي

مواضع: فإن قال... قلنا... والموسومة بأسلوب الفنقلة، يقول الشيخ أبو زهرة عن كتب الإمام الشافعي: "مليئة بأسلوب الحوار

¹- الشافعي، الرسالة، ص 15.

²- الإمام الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسب، مناقب الإمام الشافعي- تحقيق: أحمد حجازي السقا. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1986، ص 57.

والنقاش اللذان هما رديفاً للحوار والمناقشة، ولئن كان الخصم في كتب الشافعي حقيقياً حاضراً أمامه في بعض الأحيان، فإنه في أحيان كثيرة يكون متوهماً في الذهن مما يدل على أنها طريقة أصيلة متأصلة بسبب تأثير البيئة الغالبة حينئذ¹، وهذا يجعل القارئ أكثر انتباهاً وأقوى اطمئناناً. وبنظرة موضوعية لما قرره الإمام الشافعي في رسالته يتبين أنه جمع في إملاء الرسالة بين أمرين إجمالاً:

الأول: تحرير القواعد الأصولية، وإقامة الأدلة عليها من الكتاب والسنة، وإيضاح منهجه في الاستدلال، وتأنيده بالشواهد من اللغة العربية.

الثاني: الإكثار من الأمثلة لزيادة الإيضاح، والتطبيق لكثير من الأدلة على قضايا في أصول الشريعة وفروعها، مع نقاش للمخالفين تزيده جزالة العبارة قوة وتكسبه جمالاً، فكان كتابه قاعدة محكمة بنى عليها من جاء بعده، ومنهجه فيه طريقاً واضحاً سلكه من ألفت في هذا العلم وتوسع فيه².

ولو توقفنا مع عبارة من عبارات الرسالة لاكتشفنا خصائص أخرى اتسمت بها الرسالة، وهي قوله: وكل حديث كتبه منقطعاً فقد سمعته متصلًا أو مشهوراً عن من روي عنه بنقل عامة من أهل العلم يعرفونه عن عامة، ولكني كرهت وضع حديث لا أتقنه حفظاً وغاب عني بعض كتبي، وتحققت بما يعرفه أهل العلم مما حفظت؛ فاختصرت خوف طول الكتاب فأتيت ببعض ما فيه الكفاية³، وفي هذا إشارة إلى:

- أن "الرسالة" كتاب حديث ورواية وفقه واستدلال من النصوص.

- أن الشافعي يكتب من حفظه وفي غياب كثير من كتبه.

- أنه كتب الرسالة - رحمه الله - على وجه الاختصار⁴.

كما التزم الإمام الشافعي في مذهبه بهذه السمات والقواعد والضوابط والموازن، وقيد نفسه بها، وسار عليها، فكانت الرسالة هي أصول المذهب الشافعي، وكانت أصولاً نظرية وعملية في أن واحد، ولم تكن دفاعاً أو دليلاً وتسويغاً لفروعه الفقهية

وبناء على ما سبق يعدّ الإمام الشافعي أول من وضع أصول الفقه في كتاب منفصل مستقل يتحدث به عن أصول الفقه والدين، وصنف أبواب الكتاب وأطلق عليها أسماء صارت معالم عظيمة وأساسية في أصول الفقه، ضبطاً وتدقيقاً. ولا نقول إنّ الشافعي قد أتى بالعلم كاملاً على كلّ الوجوه والضروب، بحيث أنه لم يبق مجهوداً لمن بعده، بل إنه جاء من بعده من زاد ونمّى وحزّر مسائل كثيرة في هذا العلم.

يرى بعض الباحثين أن الشافعي هو واضع المنهج الاستنباطي والذي لم يكن معروفاً عند المذاهب الفقهية قبل الشافعي، هذا الاتجاه هو اتجاه العقل العلمي الذي غايته ضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها، وبذلك وضع الشافعي مركزاً وسطاً بين مدرسة أهل الحديث ومدرسة أهل الرأي حيث عمل على تلافي النقص الموجود في هاتين المدرستين.

فهرس أسلوب الفنقلة:

¹ أبو زهرة، الشيخ محمد، الشافعي حياته وعصره وأراؤه الفقهية القاهرة، دار الفكر العربي- 1978 - ، ص 57

³ محمد بن حسين الجيزاني، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة- رسالة دكتوراه- الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، 1415هـ، ص 28..

³ الشافعي، الرسالة، ص 431.

⁴ الجيزاني، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، ص 07.

اعتمدنا في الدراسة على كتاب "الرسالة" في طبعته الثانية الصادرة عن الدار العالمية، بمصر، حققها وشرحها: أحمد محمد شاكر، 2016، والذي يضم بين دفتيه: مقدمة، والأجزاء الثلاثة للأصل بخط الربيع بن سليمان. وتسمى الدراسة إلى إحصاء مواضع الفتنلة في مدونة الرسالة وفق الجدول أدناه، وسيكون الجزء الثاني محل الدراسة والتحليل ذلك أنه حوى أكبر نسبة توظيف لأسلوب الفتنلة بصيغها المختلفة .

الجزء الأول:

الباب	الفقرات	الصفحات
كيف البيان	151-149/146/137-133	144-143-141
ابتداء الناسخ والمنسوخ	333/331-329/327-325	198-197-196
باب فرض الصلاة الذي دلّ الكتاب ثم السنة عن من تزول عنه بالعدر وعلى من لا تكتب صلاته بالمعصية	391-390 /363	218-207
باب الفرائض التي أنزل الله نسا	-446-445	236

الجزء الثاني:

الباب	الفقرات	الصفحات
البسمة	551	277
باب العلل في الأحاديث	من 569 إل الفقرة 594 607-606-604-601-600 610-611-612-613-614-616-617-618-620- 621	من 281 إلى 287 288 293-292-291-290
وجه آخر من الناسخ والمنسوخ	-721/719-718-717-716/712-711-710 736-735/-726-725-724-723/722	-320 326-324-323-322
وجه آخر من الاختلاف	-751-750-749/747-746-745/744/738-737 757/755/753/752	-327 331-330-329 -334-333-
اختلاف الرواية على وجه غير الذي قبله	772-771-770-769/768-767-766-763	-336 -337
وجه آخر مما يعد مختلفا وليس عندنا بمختلف	784-783/782-781-780-779-778-777	340 341
باب "العلم" و باب "خبر الواحد"	جميع الفقرات في البابين	من 398 إلى 408

الجزء الثالث:

الباب	الفقرات	الصفحات
الحجة في إثبات خبر الواحد	كل فقرات الباب	من 433 الى 488
باب الإجماع	//	من 489 الى 494
القياس	معظم الفقرات	501-494
باب الاجتهاد	معظم الفقرات	514-502
باب الاستحسان	معظم الفقرات	558-515
باب الاختلاف	كل الفقرات	591 الى 559

نموذج: باب العلل في الحديث

قال الشافعي: قال لي قائلٌ: فَإِنَّا نَجِدُ مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ أَحَادِيثَ فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا نَصًّا، وَأُخْرَى فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا جُمْلَةً، وَفِي الْأَحَادِيثِ مِنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ، وَأُخْرَى لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي الْقُرْآنِ، وَأُخْرَى مُتَّفِقَةٌ، وَأُخْرَى مُخْتَلِفَةٌ: نَاسِخَةٌ وَمَنْسُوخَةٌ، وَأُخْرَى مُخْتَلِفَةٌ: لَيْسَ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى نَاسِخٍ وَلَا مَنْسُوخٍ، وَأُخْرَى فِيهَا نَهْيٌ لِرَسُولِ اللَّهِ، فَتَقُولُونَ: مَا نَهَى عَنْهُ حَرَامٌ، وَأُخْرَى لِرَسُولِ اللَّهِ فِيهَا نَهْيٌ، فَتَقُولُونَ: نَهَيْهِ وَأَمْرُهُ عَلَى الْإِخْتِيَارِ لَا عَلَى التَّحْرِيمِ، ثُمَّ نَجِدُكُمْ تَذْهِبُونَ إِلَى بَعْضِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْأَحَادِيثِ دُونَ بَعْضِ، وَنَجِدُكُمْ تَقْبِلُونَ عَلَى بَعْضِ حَدِيثِهِ، ثُمَّ يَخْتَلِفُ قِيَاسُكُمْ عَلَيْهَا، وَتَتَرَكُونَ بَعْضًا فَلَا تَقْبِلُونَ عَلَيْهِ، فَمَا حُجَّتُكُمْ فِي الْقِيَاسِ وَتَرَكَهُ؟ ثُمَّ تَفْتَرِقُونَ بَعْدُ: فَمِنْكُمْ مَنْ يَتْرُكُ مِنْ حَدِيثِهِ الشَّيْءَ وَيَأْخُذُ بِمِثْلِ الَّذِي تَرَكَ وَأَضْعَفَ إِسْنَادًا مِنْهُ.

قال الشافعي: فقلتُ له: كُلُّ مَا سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ مِنْ سُنَّةٍ فِيهِ مُوَافِقَةٌ لِكِتَابِ اللَّهِ فِي النَّصِّ بِمِثْلِهِ، وَفِي الْجُمْلَةِ بِالِتَّبْيِينِ عَنِ اللَّهِ، وَالتَّبْيِينُ يَكُونُ أَكْثَرَ تَفْسِيرًا مِنَ الْجُمْلَةِ.

وما سَنَّ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ نَصٌّ كِتَابِ اللَّهِ فَيَفْرَضُ اللَّهُ طَاعَتَهُ عَامَّةً فِي أَمْرِهِ تَبِعْنَاهُ..

قال: وَأَمَّا الْقِيَاسُ عَلَى سُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ فَأَصْلُهُ وَجْهَانِ، ثُمَّ يَتَفَرَّعُ فِي أَحَدِهِمَا وَجْهًا.

قال: وَمَا هُمَا؟

قلت: إِنَّ اللَّهَ تَعَبَّدَ خَلْقَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بِمَا سَبَقَ فِي قَضَائِهِ أَنْ يَتَعَبَّدَهُمْ بِهِ، وَلَمَّا شَاءَ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ فِيمَا تَعَبَّدَهُمْ بِهِ، مِمَّا دَلَّهِمْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي لَهُ تَعَبَّدَهُمْ بِهِ، أَوْ وَجَدُوهُ فِي الْخَبَرِ عَنْهُ لَمْ يُنْزَلْ فِي شَيْءٍ فِي مِثْلِ الْمَعْنَى الَّذِي لَهُ تَعَبَّدَ خَلْقَهُ، وَوَجِبَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُسَلِّكُوهُ سَبِيلَ السُّنَّةِ، إِذَا كَانَ فِي مَعْنَاهَا، وَهَذَا الَّذِي يَتَفَرَّعُ تَفْرَعًا كَثِيرًا.

والوجه الثاني: أَنْ يَكُونَ أَحَلَّ لَهُمْ شَيْئًا جُمْلَةً، وَحَرَّمَ مِنْهُ شَيْئًا بَعْضًا، فَيُحْلُونَ الْحَلَالَ بِالْجُمْلَةِ، وَيُحَرِّمُونَ الشَّيْءَ بَعْضًا، وَلَا يَقْبِلُونَ عَلَيْهِ: عَلَى الْأَقْلَى الْحَرَامِ، لِأَنَّ الْأَكْثَرَ مِنْهُ حَلَالٌ، وَالْقِيَاسُ عَلَى الْأَكْثَرِ أَوْلَى أَنْ يُقَاسَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقْلَى.

وكذلك إِنْ حَرَّمَ جُمْلَةً وَأَحَلَّ بَعْضَهَا، وَكَذَلِكَ إِنْ قَرَضَ شَيْئًا وَحَصَّ رَسُولُ اللَّهِ التَّخْفِيفَ فِي بَعْضِهِ.

وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَإِنَّمَا أَخَذْنَاهُ اسْتِدْلَالًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْأَثَارِ.

وَأَمَّا أَنْ نُخَالِفَ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ثَابِتًا عَنْهُ: فَأَرْجُو أَنْ لَا يُؤْخَذَ ذَلِكَ عَلَيْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وليس ذلك لأحد، ولكن قد يجهل الرجل السنة فيكون له قولٌ يخالفها، لا أنه عمداً خلافها، وقد يغفل المرء ويخطئ في التأويل.

قال: فقال لي قائلٌ: فَمِمَّنْ لِي كُلِّ صِنْفٍ مِمَّا وَصَفْتَ مِثَالًا، تَجْمَعُ لِي فِيهِ الْإِثْبَانُ عَلَى مَا سَأَلْتُ عَنْهُ، بِأَمْرِ لَا تُكْثِرُ عَلَيَّ فَأَنْسَاهُ،

وَأَبْدَأُ بِالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنْ سُنَنِ النَّبِيِّ، وَادَّكَّرْتُ مِنْهَا شَيْئًا مِمَّا مَعَهُ الْقُرْآنُ، وَإِنْ كَرَّرْتُ بَعْضَ مَا ذَكَرْتِ.

فقلتُ له: كان أوَّلُ ما فَرَضَ اللهُ على رسوله في القِبْلة أن يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ المَقْدِسِ للصَّلَاةِ، فكان بَيْتُ المَقْدِسِ القِبْلةَ التي لا يَحِلُّ لأحدٍ أن يُصَلِّيَ إلا إليها. في الوَقْتِ الذي اسْتَقْبَلَهَا فيه رسولُ اللهِ، فَلَمَّا نَسَخَ اللهُ قِبْلةَ بَيْتِ المَقْدِسِ وَوَجَّهَ رسوله والناسَ إلى الكَعْبَةِ: كانت الكعبةُ القِبْلةَ التي لا يَحِلُّ لمُسلم أن يَسْتَقْبِلَ المكتوبةَ في غيرِ حالٍ مِنَ الخَوْفِ، غيرَها، ولا يَحِلُّ أن يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ المَقْدِسِ أبداً.

وكلُّ كان حَقًّا في وَقْتِهِ، بَيْتُ المَقْدِسِ مِنْ حينِ اسْتَقْبَلَهُ النبيُّ إلى أن حُوِّلَ عنه: الحَقُّ في القِبْلةِ، ثم البيتُ الحَرَامُ - الحق في القِبْلة إلى يومِ القيامةِ.

وهكذا كلُّ منسوخٍ في كتابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ.

قال: وهذا - مع إبانته لك الناسخِ والمنسوخِ من الكتابِ والسنة -: دليلٌ لك على أن النبي إذا سنَّ سُنَّةً حَوَّلَهُ اللهُ عنها إلى غيرِها، سنَّ أخرى يَصِيرُ إليها الناسُ بعدَ التي حُوِّلَ عنها، لِئَلَّا يَذْهَبَ على عَامَّتِهِمِ النَّاسِخُ فَيَتَّبِعُونَ على المَدْسُوخِ. ولئلا يُشَبَّهَ على أَحَدٍ بأن رسولَ اللهِ يَسُنُّ فيكون في الكتابِ شيءٌ يَرَى مَنْ جَهَلَ اللِّسَانَ أو العِلْمَ بموقعِ السنة مع الكتابِ أو إبانتهَا مَعَانِيهِ: أن الكتابَ يَنْسَخُ السُّنَّةَ.

فقال: أَفِيُمْكِنُ أن تخالفَ السُّنَّةَ في هذا الكتابِ؟

قلت: لا، وذلك: لأنَّ اللهَ - جلَّ ثَناءُوهُ - أقام على خَلْقِهِ الحُجَّةَ من وَجْهَيْنِ، أصلُهُما في الكتابِ: كتابُهُ، ثم سنةُ نبيه، بفرضه في كتابِهِ اتِّبَاعَهَا.

فلا يجوزُ أن يَسُنَّ رسولُ اللهِ سُنَّةً لازِمَةً فَتُنْسَخَ فلا يَسُنَّ ما نَسَخَهَا، وإنما يُعْرَفُ النَّاسِخُ بِالْآخِرِ مِنَ الْأَمْرَيْنِ، وأكثرُ النَّاسِخِ في كتابِ اللهِ إنما عُرِفَ بِدِلالةِ سُنَنِ رسولِ اللهِ.

فإذا كانت السنة تدلُّ على ناسخِ القرآنِ، وتُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَيَبَيِّنُ منسوخه: لم يَكُنْ أن تُنْسَخَ السُّنَّةُ بِقرآنٍ إلا أهدت رسولُ اللهِ مَعَ القرآنِ سُنَّةً تَنْسَخُ سُنَّتَهُ الْأَوَّلَى، لِتَذْهَبَ الشُّبُهَةُ عَنْ مَنْ أقامَ اللهُ عليه الحُجَّةَ من خَلْقِهِ.

قال: أَفَرَأَيْتَ لَوْ قال قائلٌ: حَيْثُ وَجَدْتُ القرآنَ ظاهراً عامًّا، وَوَجَدْتُ سنةً تَحْتَمِلُ أن تُبَيِّنَ عَنِ القرآنِ، وتحتمل أن تكون بخلافِ ظاهره، عَلِمْتُ أن السنةَ منسوخةً بالقرآنِ؟

فقلتُ له: لا يقولُ هذا عالمٌ. قال: وَلِمَ؟

قلت: إذا كان اللهُ فَرَضَ على نبيه اتِّبَاعَ ما أنزَلَ إليه، وشَهِدَ له بالهُدَى، وفرض على الناس طاعته، وكان اللِّسَانُ - كما وصفتُ قبل هذا - مُحْتَمِلًا للمعاني، وأن يكون كتابُ اللهِ يَنْزِلُ عامًّا يُرَادُ به الخاصُّ، وخاصا يَرادُ به العام، وفَرْضًا جُمْلَةً بَيْنَهُ رسولُ اللهِ، فقامت السنة مع كتابِ اللهِ هذا المقامَ: لم تكن السنةُ لِتُخَالَفَ كتابَ اللهِ، ولا تكونُ السنةُ إلا تَبَعًا لكتابِ اللهِ، بِمِثْلِ تَنْزِيلِهِ، أو مُبَيِّنَةً معنى ما أرادَ اللهُ، فهي بكلِّ حالٍ مُتَبِعَةٌ لكتابِ اللهِ. قال: أَفَتُوجِدُنِي الحُجَّةَ بما قلتُ في القرآنِ؟

فذكرتُ له بعضَ ما وصفتُ في كتابِ: (السُّنَّةُ مع القرآنِ، من أن اللهُ فَرَضَ الصَّلَاةَ والزكاةَ والحجَّ، فَبَيَّنَ رسولُ اللهِ كيفَ الصَّلَاةِ، وَعَدَدَهَا، ومواقيتَها، وَسُنَّتَها، وفي كَمِّ الزكاةِ مِنَ المالِ وما يَسْقُطُ عنه مِنَ المالِ وَيَتَبُّتُ عليه، ووقتها، وكيفَ عَمَلُ الحجِّ، وما يُجْتَنَّبُ فيه وَيُبَاحُ.

قال: وذكرتُ له قولَ اللهِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا¹﴾ و﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ

جَلْدَةٍ²﴾.

¹- سورة المائدة، الآية 38..

²- سورة النور، الآية 03.

وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا سَنَّ الْقَطْعَ عَلَى مَنْ بَلَغَتْ سَرِقَتُهُ رُبْعَ دِينَارٍ فَصَاعِدًا، وَالْجَلْدَ عَلَى الْحُرِّينَ الْبِكْرَيْنِ دُونَ النَّبِيِّينَ الْحُرِّينَ وَالْمَمْلُوكَيْنِ: دَلَّتْ سَنَةَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِهَا الْخَاصَّ مِنَ الرُّنَاةِ وَالسَّرَاقِ، وَإِنْ كَانَ مَخْرَجُ الْكَلَامِ عَامًا فِي الظَّاهِرِ عَلَى السَّرَاقِ وَالزَّنَاةِ.

قال: فهذا عندي كما وصفت، أفتجد حجة على من روى أن النبي قال: (ما جاءكم عني فأعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فلم أقله).

فقلت له: ما روى هذا أحدٌ بثبوت حديثه في شيء صغر ولا كبر، فيقال لنا: قد ثبت حديث من روى هذا في شيء. وهذه أيضا رواية منقطة عن رجل مجهول، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية في شيء.

قال: فهل عن النبي رواية بما قلتم؟ فقلت له: نعم.

قال: فأين لي جملاً أجمع لك أهل العلم، أو أكثرهم عليه من سنة مع كتاب الله، يحتمل أن تكون السنة مع الكتاب دليلاً على أن الكتاب خاص وإن كان ظاهره عاماً.

فقلت له: نعم، ما سمعتي حكيت في كتابي، قال: فأعد منه شيئاً.

قلت: قال الله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ. وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (23) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾¹.

قال: وذكر الله من حرم، ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، فقال رسول الله: (لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها)، فلم أعلم مخالفاً في اتباعه.

فكانت فيه دلالتان: دلالة على أن سنة رسول الله لا تكون مخالفة لكتاب الله بحال، ولكنها مبينة عامه وخاصة. ودلالة على أنهم قبلوا فيه خبر الواحد، فلا نعلم أحداً رواه من وجه يصح عن النبي إلا أبا هريرة.

قال: أفيحتمل أن يكون هذا الحديث عندك خلاقاً لشيء من ظاهر الكتاب؟ فقلت: لا، ولا غيره.

قال: فما معنى قول الله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، فقد ذكر التحريم وقال: وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ؟

قلت: ذكر تحريم من هو حرام بكل حال، مثل: الأم والبنت والأخت والعمة وبنات الأخ وبنات الأخت، وذكر من حرم بكل حال من النسب والرضاع، وذكر من حرم من الجمع بينه وكان أصل كل واحد منهما مباحاً على الأفراد، قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، يعني: بالحال التي أحلها به.

ألا ترى أن قوله: وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ بمعنى: ما أحل به، لا أن واحدة من النساء حلالاً بغير نكاح يصح، ولا أنه يجوز نكاح خامسة على أربع، ولا جمع بين أختين، ولا غير ذلك مما نهي عنه.

فذكرت له فرض الله في الوضوء، ومسح النبي على الخفين، وما صار إليه أكثر أهل العلم من قبول المسح. فقال: أفبخالف

المسح شيئاً من القرآن؟

قلت: لا تخالفه سنة بحال. قال: فما وجهه؟

¹- سورة النساء، الآية 23-24.

قلت: لَمَّا قَالَ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾

دلَّت السنَّة على أنَّ من كان على طهارة ما لم يُحْدِث فقام إلى الصلاة لم يكن عليه هذا الفرض...

فقال: فما معنى هذا؟

قلنا: معناه: قل لا أجد فيما يوحى إليَّ مُحَرَّمًا مما كنتم تأكلون إلا أن يكون مَيْتَةً وما ذُكِرَ بعدها، فأما ما تَرَكْتُمْ أنكم لم تَعُدُّوه من الطَّيِّبَات فلم يُحَرِّم عليكم مما كنتم تستحلون إلا ما سَمَّى اللهُ، ودلت السنَّة على أنه حَرَّمَ عليكم منه ما كنتم تُحَرِّمون، لِقَوْلِ اللهِ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

قال: وذكرْتُ له قول الله: ﴿وَاحِلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾²

وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾³

ثم حَرَّمَ رسولُ الله بيوعا، منها الدنانيرُ بالدراهم إلى أجلٍ، وغيرها: فحَرَّمَها المُسْلِمون بتحريم رسولِ الله، فليس هذا ولا غيره خلافا لكتاب الله.

قال: فَحَدَّثَ لي معنى هذا بأجمَع منه وأخصَر.

فقلتُ له: لَمَّا كان في كتاب الله دلالة على أنَّ الله قد وَضَعَ رسوله مَوْضِعَ الإِبَانَةِ عنه، وفَرَضَ على خَلْفِهِ اتِّبَاعَ أمره، فقال: ﴿وَاحِلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

وقلت له: لَوْ جازَ أَنْ تُتْرَكَ سنَّةٌ مما ذهب إليه من جهَلِ مكانِ السنَنِ من الكتاب، تُرِكَ ما وصفنا من المسح على الخُفَّين، وإباحة كلِّ ما لَزِمَهُ اسمُ بَيْعٍ، وإِحلالُ أَنْ يُجَمَعَ بين المِرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وخالَتِهَا، وإباحة كلِّ ذي نابٍ من السِّباع، وغير ذلك. ولِجَازِ أَنْ يُقَالَ: سَنَّ النَّبِيُّ أَلَّا يُقَطَّعَ مَنْ لَمْ تَبْلُغْ سَرِقَتَهُ رِبْعَ دِينَارٍ قَبْلَ التَّنْزِيلِ، ثم نَزَلَ عليه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، فمن لَزِمَهُ اسمُ سَرِقَةٍ قُطِعَ.

ولِجَازِ أَنْ يُقَالَ: إنما سنَّ النبي الرَّجْمَ على الثَّيِّبِ حتى نزلتْ عليه: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، فَيُجْلَدَ الْبِكْرُ وَالثَّيِّبُ، ولا نَزْجُمُهُ.

فمن قال هذا كان مُعْطَلًا لِعامَّةِ سنَنِ رسولِ الله، وهذا القولُ جهَلٌ مِمَّنْ قاله.

قال: أَجَلْ.

وسنَّ رسولُ الله كما وصفتُ، ومَنْ خالفَ ما قلتُ فيها فقد جمَعَ الجهَلُ بالسنَّةِ والخطأُ في الكلامِ فيما يَجْهَلُ. قال: فاذْكُرْ سنَّةً نُسِخَتْ بسنَّةٍ سِوَى هذا.

فقلتُ له: السننُ الناسِخَةُ والمنسوخَةُ مُفَرَّقَةٌ في مواضعها، وإنْ رُودَتْ طالَتْ.

قال: فيكفي منها بعضها، فاذْكره مُختَصَرًا بَيِّنًا.

فقلتُ: أخبرنا مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْمٍ عن عبد الله بن واقدٍ عن عبد الله بن عُمر، قال: (

نَهَى رَسُولُ اللهِ عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلَاثِ.

¹- سورة المائدة، الآية 06.

²- سورة البقرة، الآية 275.

³- سورة النساء، الآية 29.

قال الشافعي: فهذه الأحاديث تَجْمَع معاني، منها: أَنَّ حديث علي عن النبي في النهي عن إِمْسَاك لُحُوم الضَّحَايَا بعد ثلاثٍ، وحديث عبد الله بن واقي، مُتَوَفِّقَانِ عن النبي.

وهكذا يجب على مَنْ سَمِعَ شيئاً من رسول الله، أو تَبَيَّنَ له عنه: أَنْ يَقُولَ بما سَمِعَ، حتى يَعْلَمَ غيره.

قال الشافعي: فلما حَدَّثَتْ عائشةُ عَن النبي بالنهي عَن إِمْسَاك لُحُوم الضَّحَايَا بعد ثلاثٍ، ثم بالرخصة فيها بعد النهي، وَأَنَّ رسولَ الله أَخْبَرَ أَنَّهُ نهى عن إِمْسَاك لُحُوم الضَّحَايَا بعد ثلاثٍ للدَّاقَّة: كان الحديث التَّامَ المحفوظ أَوَّلُهُ وآخِرُهُ وَسَبَبُ التحريم والإحلال فيه: حديثُ عائشة عن النبي، وكان على مَنْ عِلِمَهُ أَنْ يَصِيرَ إليه. وحديثُ عائشة مِنْ أَبِيهَا ما يُوَجِّدُ في الناسخ والمنسوخ من السُّنَنِ".

وهذا يدل على أَنَّ بعض الحديث يُخَصُّ، فيُحْفَظُ بعضُهُ دون بعض، فيُحْفَظُ منه شيء كان أَوَّلًا ولا يُحْفَظُ آخِرًا، ويُحْفَظُ آخِرًا ولا يُحْفَظُ أَوَّلًا، فيُؤَدِّي كُلُّ ما حَفِظَ.

هذا النموذج يوضح منهج الشافعي فيعرض القضايا مع توظيف أسلوب الفنقلة ثم يقدم رأيه وحوصله حول القضية.

مقاصد أسلوب الفنقلة ودلالاته.

كانت الرسالة المنارة الباسقة لدعوة العلماء للتأليف والكتابة في أصول الفقه، وكانت حجر الأساس في بناء صرح هذا العلم، فشمروا العلماء والأئمة عن ساعد الجد، وحرروا المصنفات، وأكملوا البناء الذي أقامه الإمام الشافعي، وكان لهم فضل نماء هذا العلم وتحريم مسائله، ووافقوه في أكثرها، وخالفوه في بعضها، وزادوا عليه، فزاد الحنفية الاستحسان والعرف، وزاد المالكية إجماع أهل المدينة، وعمل أهل المدينة، والمصالح المرسلة، والذرائع، وكتب الإمام أحمد في ذلك كتاب العلل، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب طاعة الرسول، وكتب كثير من فقهاء المذاهب الأخرى في أصول الفقه، وتناوله العلماء أيضاً بالبحث والتأليف.

قال الإمام الشافعي رحمه الله بكل أريحية ومهنية "كلامي صواب يحتمل الخطأ وكلام غيري خطأ يحتمل الصواب". ولكن عندما يصبح هذا الرأي عبأ على الآخرين و يؤدي إلى المشاحنات أوقد يتعدى إلى التجريح فهناك يصبح الأمر مذموماً. وقد أدرك الشافعي رحمة الله ببصيرته ذلك، فقد كان يقول "ما ناظرت أحداً إلا وتمنيت أن يكون الحق على لسانه". ويظهر جلياً أن الشافعي نظرٌ لمسألة ثقافة الحوار قبل كثير من المنظرين في العصر الحديث.

اعتمد الشافعي في كتابه الرسالة أساساً على النص الشرعي: من حيث الفهم وفق البناء اللغوي، إذ كان بحراً في اللغة. وقد نص في أكثر من محل على أن قضايا أصول الفقه هي قضايا لغوية بالدرجة الأولى؛ لأن جل مباحث الأصول ترجع إلى الاستعمال اللغوي، من منطوق النص ومفهومه ودلالة الألفاظ... وهو الذي سماه الأصوليون فيما بعد بـ "مبحث الدلالة".

وظف الإمام الشافعي كل هذه المواهب الفكرية في عرض الحقائق الأصولية مستخدماً في ذلك منهجاً فريداً في التأليف والتصنيف، يتضمن التقرير، الحوار الحقيقي، الحوار الافتراضي. ففي كتابه الرسالة بدأ بأسلوب تقريرى ثم انتقل إلى الحوار بنوعيه: الحقيقي والافتراضي. وهو بهذا الأسلوب كان فذاً لم يظهر مثله في علماء الإسلام في فقه الكتاب والسنة، ونفوذ النظر فيهما ودقة الاستنباط. مع قوة العارضة، ونور البصيرة، والإبداع في إقامة الحجج... حتى سما عن كل عالم قبله وبعده¹، إنَّ منهج الإمام الشَّافعي في الاجتهاد والاستنباط مسطرٌ فيه؛ فقد كان منهج الفقهاء قبله في الاستنباط غير مدوّن ومبين في تأليف خاص؛

1- الامدي، مقدمة الإحكام في أصول الأحكام، تج: عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي، الطبعة الأولى، 1424هـ، ص 07.

فتلاميذهم هم الذين يجتهدون في استنباط ذلك من خلال أقوالهم؛ حتى جاء الإمام الشافعي فوضع منهجه في الاستنباط في هذا الكتاب الجليل متجليا في أسلوب الفنقلة بأنواعها.

وردت الفنقلة عند الشافعي عند عرض القضايا الشائكة والمهمة التي كثر فيها الجدل والتي تحتاج إلى براعة في الأسلوب للإقناع كتثبيت الحجة. لذا لم ترد الفنقلة في القضايا التي وردت فيما قبل البيان الخامس؛ إذ أن الرسالة تعرضت في تلك المواضع إلى قضايا واضحة من قضايا الفقه وأحكام الشرع الأولى، وسعيها منه لإيصال أفكاره ورفع اللبس أو الشبهة عن القضايا المهمة في عصر كثر فيه الجدل. نهج الشافعي أسلوب الفنقلة.

تعددت صيغ أسلوب الفنقلة عند الشافعي وتنوعت حسب السياق الواردة فيه، ويمكن إجمال ما ورد منها في الآتي:

أولاً: فإن قال قائل وردت بعدة صيغ هي::

- فإن قال قائل... قلت... فإن قال قائل... قيل له... - فقال لي قائل... فقلت له أو فقلت...

- فإن قال قائل... قيل إن شاء الله له...

ثانياً: ولو جاز:

ولو جاز أن يقال... جاز أن يقال...، - ولو جاز لأحد من الناس أن يقول... جاز لي ولكن أقول...

ثالثاً: وقولهم... قلنا...، و: فقال... قلنا...

رابعاً: قال ولكن كيف... قلت...

خامساً: قال أفرأيت لو قال قائل... فقلت له...

سادساً: قال... قلت.../ قال... فقلت.../ قال... فقلت له...

سابعاً: فقال بعض الناس... قلت...

وفي مواضع يذكر: (فلو قلت...) ويحذف (قلت).

بعد تتبع أهم مواضع الفنقلة وصيغها و في سياقات مختلفة تفاعلية بين مخاطب ومخاطب، تفاعل يتم بالنص المتماسك بتوظيف روابط تتجاوز الروابط النحوية، الأمر الذي جعل رسالة الشافعي نصاً تواصلياً يُراعى فيه السياق النص وظروفه، ومعانيه المتعاقبة القبلية والبعديّة، وتُراعى فيه أيضاً ظروف المتلقي وثقافته فتنتج عن هذا المنهج أنواع عدّة للفنقلة من ذلك:

أ- الفنقلة التحقيقية الاستدلالية:

وظف الشافعي في رسالته المحاورّة الحقيقية بينه وبين المتلقي لتحقيق مقاصد معينة، ذلك أن كتابه ليس بناء لغوياً أو أصولياً فحسب، بل نص ذو بنية كلية ووحدة عضوية يفسر بعضه بعضاً، الأمر الذي يفرض على فهم المقاصد والدلالات، من ذلك في حديثه عن القياس فالشافعي أول من أثار هذا الإشكال عندما استشكل بعض الأحكام وأنها لا تنضبط بالقياس، حيث قال: "قال فمن أين قلت يقال بالقياس فيما لا كتاب فيه ولا سنة ولا إجماع أقالقياس نص خبر لازم؟ قلت لو كان القياس نص كتاب أو سنة قيل في كل ما كان نص كتاب " هذا حكم الله " وفي كل ما كان نص السنة " هذا حكم رسول الله " ولم نقل له " قياس " ، قال فما القياس أهو الاجتهاد أم هما متفرقان؟ قلت هما اسمان لمعنى واحد ، قال فما جماعهما، قلت كل ما نزل بمسلم فقيه حكم لازم أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة وعليه إذا كان فيه حكم اتباعه وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد والاجتهاد القياس ، قال أفرأيت العالمين إذا قاسوا على إحاطة بهم من أنهم أصابوا الحق عند الله وهل يسعهم

أن يختلفوا في القياس وهل كلفوا كل أمر من سبيل واحد أو سبل متفرقة وما الحجة في أن لهم أي يقيسوا على الظاهر دون الباطن وانه يسعهم أن يتفرقوا وهل يختلف ما كلفوا في أنفسهم وما كلفوا في غيرهم ومن الذي له أن يجتهد فيقيس في نفسه دون غيره والذي له أن يقيس في نفسه وغيره؟ فقلت له العلم من وجوه منه إحاطة في الظاهر والباطن ومنه حق في الظاهر ، فالإحاطة منه ما كان نص حكم لله أو سنة لرسول الله نقلها العامة عن العامة فهذان السبيلان اللذان يشهد بهما فيما أحل أنه حلال وفيما حرم أنه حرام، وهذا الذي لا يسع أحدا عندنا جهله ولا شك فيه وعلّم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء، ولم يكلفها غيرهم وهي موجودة فيهم أو في بعضهم¹.

ب- الفنقلة التعليمية البيانية:

للفنقلة عند الشافعي في كتاب الرسالة أغراض عديدة منها: الاستدلال، وإزالة اللبس، والتعليل والتمثيل، والتعليم وترسيخ المعلومة، تمكين المتعلم من المناقشة و التفاعل. ويتجلى هذا النوع في الجزء الأخير من كتاب الرسالة.

ج- الفنقلة الحوارية التناظرية.

يعدّ كتاب الرسالة منجزاً أصولياً متفرداً، سعى الشافعي فيه باستخدام طريقتي الحوار المتخيّل والحقيقي إلى تقريب علم الأصول بأبسط الطرق. وهذه من مزايا أسلوب البلاغي الفذّ، والشافعي بذلك كان مبدعاً.

خاتمة:

بعد تتبع أهم مواضع الفنقلة في رسالة الشافعي وبيان مقاصدها ودلالاتها، أمكن الوصول إل النتائج الآتية:

أولاً:

*- اختط المنجز الأصولي لنفسه مجالاً معرفياً - برغم أنه مستمد من اللغة العربية- جعله يتفرد بمزايا منهجية كان لها الأثر في تطوير العلوم.

*- إقرار أغلب أهل اللغة من السابقين والمحدثين بتأثر الدرس اللغوي بشقيقه الأصول.

*- تعددت جوانب الاستفادة من الدرس الأصولي سواء على المستوى البحثي والمعرفي.

*- قدم الدرس الأصولي منهجية متكاملة يمكن استثمارها في ضبط النظر بين الألفاظ وعلاقتها بالمعاني. *- التعالق بين الدرس

الأصولي والدرس اللغوي من خلال توظيف مباحث المنجز الأصولي وتفعيلها في المباحث اللغوية، مثال ذلك توظيف أسلوب النقلة في المصنفات النحوية والبلاغية وغيرها.

ثانياً: توظيف الفنقلة في بناء منجز الشافعي:

1: يعدّ التنوع في صيغ أسلوب الفنقلة بحسب السياق شكلاً من أشكال التواصل النصي، الذي يؤدي إلى التماسك النصي بروابط مميزة تمثلت في الفنقلة وصيغها .

2: أسس الشافعي منهجه الأصولي من المناهج الأصولية السابقة عليه، وقد استطاع بعلمه أن يضيف أشياء لم يسبق إليها ويكمل أشياء كانت ناقصة.

3: استطاع بعقله أن يناقش ويحلل ويختار ويضع المنهج في صورة كاملة منظمة.

4: الربط بين المباحث والقضايا والمسائل الهامة.

¹-الشافعي، الرسالة، ج3، ص494-495.

5: الفنقلة أسلوب تعليمي يساهم في ترسيخ المعلومات وإيصال الهدف من الفكرة مما يساهم في إثارة انتباه المخاطب وتحقيق تركيزه، وهو أسلوب ينصح بتفعيله خاصة في مجال إلقاء المحاضرات والنقاشات الهامة، وتوظيفه في ميدان البحث العلمي.

6: إثارة الإشكالات وطرحها بصيغ مختلفة وفي أنساق متنوعة فتح آفاق البحث مما نتج عنه رؤى جديدة ومؤلفات في الدرس الأصولي واللغوي على حد سواء .

7: الفنقلة عند الشافعي وردت عند عرض القضايا الشائكة والمهمة التي كثر فيها الجدل وتحتاج إلى براعة في الأسلوب للإقناع وتثبيت الحجة.

8: نظر الشافعي لمسألة ثقافة الحوار قبل كثير من المنظرين في العصر الحديث.

9: أغراض الفنقلة عديدة منها: الاستدلال، وإزالة اللبس، والتعليل والتمثيل، والتعليم وترسيخ المعلومة، وتمكين المتعلم من المناقشة و التفاعل.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم -رواية حفص

2- محمد بن إدريس الشافعي، كتاب "الرسالة"، حققها وشرحها: أحمد محمد شاكر، الدار العالمية، الطبعة الثانية، مصر 2016.

3- إسماعيل نقاز، مناهج التأويل في الفكر الأصولي -دراسة تحليلية ونقدية مقارنة لمناهج التأويلية المعاصرة، مركز نما للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2017.

4- الأمدي، مقدمة الأحكام في أصول الأحكام ، تح: عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي، الطبعة الأولى، 1424هـ.

5- محمد بن حسين الجيزاني، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة- رسالة دكتوراه- الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، 1415هـ.

6- عادل الشيخ عبد الله أحمد، الفنقلة : صورها ودلالاتها في كتاب الرسالة للإمام الشافعي: دراسة وصفية تحليلية- مجلة الشافعي مركز بحوث المذهب الشافعي، العدد السابع، 2018.

7- الإمام الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحست، مناقب الإمام الشافعي- تحقيق: أحمد حجازي السقا. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1986 .

8- عبد العال عطوة، شرح مختصر الروضة، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987.

9- العقيدى، رضا حسون، ويحياوي أحمد علي، أغراض الفنقلة في كتاب سيبويه، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية. جامعة بابل، 2017.

التراث اللساني ومعايير التماسك النصي قراءة في كتاب

" تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان " لحميد الدين الفراهي ت(1349).

د. فتيحة بلغدوش

بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة-الجزائر

ملخص المداخلة باللغة العربية .

إذا كانت اللسانيات الغربية المعاصرة قد اقتحمت عالم النص مؤخرا ، فإن في التراث العربي ما يؤكد وجود رؤية نصية أصيلة فيه منذ فترة طويلة . وفيه ما يؤكد أن السيد قطب في تفسيره " ضلال القرآن " كان أسبق من دي بوجراندي في تحديده للمعايير السبعة في تحقيق التماسك النصي ، وغيره الكثير أمثال الزركشي وابن هشام والسيوطي ، كل في مدونته. والحقيقة التي لا ينكرها جاحد هو اعتماد العلماء العرب خاصة منهم الأصوليون ، قوانين دلالية من شأنها رصد النص برؤية شاملة لا مجزأة باعتماد قرائن وعلاقات غايتها ربط أجزاء النص للوصول إلى المقصد الأقرب له .

بل في الدراسات القرآنية القديمة ، نجد بعض المحاولات النصية المتميزة ، التي لا يكتفي أصحابها بالجملة أو الآية إطارا نهائيا للتحليل بل تجاوزت ذلك إلى البحث في آليات تماسك النص الكبير ولكنها بقيت في الظل لم يتناولها الدارسون بالبحث. من أجل هذا أقدم هذه الإطلالة على علم كبير من شبه القارة الهندية، لا يكاد يعرفه إلا القليل من المختصين، رغم أن له جهودا جلية في الثقافة العربية الإسلامية، لا سيما فيما يتعلق بالقرآن المجيد وعلومه.

أما الإشكالية التي يسعى البحث للإجابة عنها : ما مدى تطبيق الفراهي نظريته في تحقيق التماسك النصي - عمليا - في كتابه : " نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ".

الكلمات المفتاحية: علوم القرآن، التماسك النصي، التأويل ، مفردات القرآن، نظام القرآن، حميد الدين الفراهي.

Textual Coherence in Traditional Linguistics

A Study of 'AL FARAHY's Book: (تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.)

Abstract

Most researchers think that textual coherence is the result of modern linguistics. Yet, the Arabic heritage already includes evidence of the existence of textual coherence in different old studies. One of the famous traditional studies that dealt with textual coherence is the book of 'AL FARAHY': (تفسير نظام القرآن). His main interest in this book was to analyze the holy book 'Quran' in terms of coherence, cohesion and homogeneity. The main objective of the present study is to identify the most important aspects of textual coherence in traditional linguistics from 'AL FARAHY's perspective. It has been carried out through the analysis of his book. The results obtained confirm that textual coherence has its roots in traditional linguistics. The analysis of the holy book , done by 'AL FARAHY', serve as a proof that the Quran, which has been revealed 14 centuries ago, is a complete and coherent text which includes all elements of modern textual coherence.

Key words: textual coherence, modern linguistics, traditional linguistics, 'AL FARAHY'

هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي ، حميد الدين أبو أحمد الأنصاري الفراهي ت(1349)، كنى نفسه بأبي أحمد من قرية (قريها) من قرى مديرية (أعظم كره) في الإقليم الشمالي بالهند. ينسب إلى عائلة معروفة تسمى الأنصاري إمام مفسر، فقيه أديب ، جمع بين علوم الشرق والغرب، وأفنى عمره في تدبر كتاب الله تعالى ومدارسته، له قوة تحليل نظام السورة، وبيان محورها، وما يتفرع منه، وأوجه الترابط بينها. بل إنه يتكلم عن المفردة القرآنية ، ووجه اختيارها وترابطها مع جمل الآية، بشكل متفرد، وله في ذلك إبداع عجيب ، وله أيضا قوة التحليل اللغوي للكلمة القرآنية، وبيان معانيها في سياقها وفي كل القرآن.

انصرف لفترة طويلة إلى تدبر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كل جهة، وكان من أعظم ما يركز عليه ترتيب بيانه، وتنسيق نظام آياته، منطلقاً من أن كل ما تقدم وتأخر من سوره بني على الحكمة والبلاغة، ورعاية مقتضى الكلام. فلو قدم ما آخر، أو آخر ما قدم؛ لبطل النظام، وفسدت بلاغة البيان. حول هذا العلامة يدور موضوع هذا البحث .

بدأ طلب العلم بحفظ القرآن الكريم أتمه وهو ابن عشر سنين ، تعلم اللغة العربية والفارسية والانجليزية وحتى العبرانية التي استفاد منها كثيراً في رد بعض الآراء . ترك مؤلفات كثيرة جعلها في دراسة القرآن الكريم تنم عن شخصية فريدة لها بصمتها في الدراسات القرآنية .⁽¹⁾

وقد لخص القول فيه العلامة أبو الحسن الندوي فقال: "إنه جمع بين التدبر في القرآن والاشتغال به والتذوق الصحيح لفن البلاغة والمعاني والبيان في اللغة العربية، وبين التشييع من دراسة بعض اللغات الأجنبية والصحف السماوية القديمة، وسلامة الفكر، ورجاحة العقل والتعمق.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"⁽²⁾.

له العشرات من المؤلفات منها ما طبع ومنها ما هو مخطوط وأهمها:

- فاتحة نظام القرآن
- لإمعان في أقسام القرآن
- مفردات القرآن.
- جمهرة البلاغة
- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان
- الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ
- دلائل النظام
- حكمة القرآن
- الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح
- التكميل في أصول التأويل

ومع كل هذا الجهد في مدارس القرآن ، ومع هذا الزخم من المؤلفات ، مازال هذا العلامة مغموراً عند الكثير من الدارسين، ومؤلفاته حبيسة الأدرج يجهلها الكثير من طلبة العلم .

شهادات في حق الرجل:

كان الفراهي رحمه الله معروفاً بفرط الذكاء، ونفاذ البصر، وسرعة الإدراك، ودقة الاستنباط، وقد برع في عدة علوم، وحصل عدة لغات، وكان ورعه وزهده في الدنيا، وقصده في العيش، وعزوفه عن السمعة، وحسن تعبه، مع جود وغنى نفس وتواضع، موضع إجماع من معاصريه⁽³⁾.

يقول عنه تلميذه سليمان الندوي⁽⁴⁾ "كان آية من آيات الله في حدة الذهن وكثرة الفضل ، وسعة العلم ، ودماثة الخلق وسداد الرأي والزهد في الدنيا والرغبة في طلب مرضاة الله".

وقال عنه الشيخ شبلي: "من جلس إلى عبد الحميد انصرف قلبه عن الدنيا"

1 - محمد فريد الداوي الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن دار شاكر ، ماليزيا ط 2015 م ص 37-38 بتصرف

2- الشيخ أبي الحسن الندوي "إمعان في أقسام القرآن" للفراهي "مقدمة الكتاب ، دار القلم، دمشق.

3- عمرو الشراوي المعلم عبد الحميد الفراهي وجهوده في الدراسات القرآنية المجلة مجلة الهند: المجلد 7: العددان 1-2 2018 م ص 60.

4- محمد يوسف الشريجي الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" مجلة الهند: المجلد 7: العددان 1-2 2018 م ص 212.

وقال عنه الدكتور تقي الدين الهلالي: "والرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء العرب فضلا عن علماء الهند".

بين يدي الكتاب :

شهادة الفراهي في مؤلفه :

يعتبر تفسير " نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان "، من المؤلفات النفيسة التي تعكس تبحر صاحبها في علوم القرآن ولغة العرب ، وخير دليل على ذلك ما نص عليه رحمه الله في ديباجة فاتحة تفسيره، إذ يقول: "أما بعد: فقد اجتهدت في هذا الكتاب بحول الله وتوفيقه أن أكشف عن نظام آيات القرآن، وأن أفسره تفسيراً ساذجاً غير خالط به من اختلاف نجم فينا، بعد عصر نبينا صلى الله عليه وسلم، فالتمست معنى الآيات من أخواتها، وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها، ومن نفس سياقها. ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل، والعقل. ففي أمر النظام تدليت في غور الكلام بالبصر النافذ. وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنواجذ، وكنت في هذا على بصيرة من ربي، غير متبع لأحد. ومع ذلك لم أكن بمبدع في تتبع النظام، لأن جماعة من العلماء قصدوا إليه وصنفوا فيه.⁽¹⁾

الغاية من تأليفه:

إن غاية الفراهي من تفسير القرآن الكريم ليس الوصول إلى المقاصد فحسب ، وإنما دراسته من زوايا عديدة متخذاً في ذلك منهجاً متفرداً وهو التركيز على نظام القرآن، وتأويل معانيه من القرآن أيضاً . يقول الدكتور بدر الدين الاصلاحى: "بقي هذا العلم على ما كان في عصره الأول حتى جاء أستاذنا الإمام، وبحول الله وتوفيقه قد جعل هذا الجدول بحراً ، فإنه قد أسس لهذا العلم بنياناً على أصول راسخة ، واستخرج له فروعاً جامعة ، ثم صاغه في قالب الفن المستقل ، ولم يترك لنا مجالاً أن نخبط في وادي الشكوك".⁽²⁾

والفراهي نفسه يرى أنّ هذا العلم لم يسبق إليه أحد قبله ، قد نجد بعض التلاقي مع سيد قطب في ظلاله ، ولكن لكل منهجه ، وإذا كان اهتمام الفراهي في تفسيره هو النظام الذي تسير عليه الآيات والصور في القرآن ، فإن ما يقابله عند القدماء هو علم المناسبات ، أو علم تناسب الآيات وهو علم ليس جديداً في علم التفسير ، فكثير من المفسرين أشاروا إليه ، وأشادوا بذكره ، ونوّهوا بأهميته في تفاسيرهم ، منهم من طرق هذا العلم عرضاً، مثل الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب)، ومثل الإمام الزمخشري في تفسيره النفيس: (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ومثل الإمام الشوكاني في تفسيره القيم (فتح القدير) ، ومنهم من تفرغ له، وبذل له اهتماماً كبيراً وأسهب في ذكر المناسبات بين الآيات⁽³⁾.

فاق الفراهي من سبقوه من المفسرين، وبرع في علم نظام القرآن خاصة وأنه أدرك ضرورته ، وأهميته لفهم القرآن يقول مؤكداً ما ذهب إليه : "فهم الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام، وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه"⁽⁴⁾ وما اهتمامه بهذا العلم إلا رداً عنيفا على من شكك في وجود نظام في القرآن

وعن سبب تأليفه في التفسير قال: "إني تصفحت كتب التفسير وسبرت سبها فما وجدتها إلا (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) فلم تبرد غلتي بل زادت قلبي حراً ، وملأت كبدي جمراً، ففزعت إلى تدبير كتاب الله وسعة معانيه وتركت أقاويل الناس هجراً. وكان بداية أمري أي بينما أجيل الطرف في نجوم الآيات إذ أضاء لي في أفقها الأعلى سلك نظامها مثل الخيط الأبيض من الصبح، فما ازداد إلا سطوعاً وجهراً، فكشف الحجاب عن فؤادي أو طحر قذي عن عيني طحراً فأبصرت قصدي وتبينت رشدي

¹- الفراهي نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان الدائرة الحميدية الهند ط 2005م فاتحة الكتاب ص 15 .

²- الفراهي ، دلائل النظام ، المطبعة الحميدية الهند ط 1388 هـ مقدمة الكتاب ص 4.

³- محمد أجمل منهج الفراهي منهج علمي متميز مجلة الهند م 7 العدد 1-2 2018م ص 202.

⁴- نفسه .

وصرت أعمل في أساليب نظامها وأعاجيب رباطها فكرا، وقضيت على ذلك عصرا ، ومن أحسن عمري شطرا ، حتى ولى الشباب ظهرا، وأذاقني المشيب طعما مرا، وكرت علي الأوجاع والأسقام كرا⁽¹⁾،

نظرة الفراهي إلى القرآن : القرآن كله قطعي :

للإمام الفراهي رحمه الله نظرة خاصة إلى القرآن ، فكما يرفض الزيادة على القرآن، يرفض ظنية الدلالة في القرآن، فعظمته لا تقبل هذا ولا ذاك. هو يعتقد-على خلاف ما يعتقدّه جمهور العلماء والمفسرين، أن القرآن كله قطعي الدلالة، وليس فيه شيء يحتاج لبيان أحكامه وتحديد مراميّه إلى شيء من الخارج، فهو يجهر بهذه الفكرة ويصدع بها بكل تأكيد وإصرار: "القرآن قطعي الدلالة، واحتمال آياتها لمعاني كثيرة ينشؤ من قصور العلم وقلة التدبير"⁽²⁾

النظام في القرآن :

أراد الفراهي من النظام في القرآن أن يشير إلى هذا الترابط المحكم بين الآيات في السورة الواحدة ، وقد تتسع رقعة هذا الترابط إلى القرآن كلّّه فمنهجه في كل السور التي قام بتفسيرها هو ربط السور بسابقتها ولاحقتها و لا نجد توضيحا للنظام أكثر مما أورده صاحب النظام نفسه يقول: " و بالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة ، ثم تكون ذاتها مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة ، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعدٍ ما ، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض ، فكما أن الآيات ربّما تكون كالجمال المعترضة ، فكذلك السور تكون كالجمال المعترضة ، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاما واحدا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر.

واعلم أنّ مرادنا من النظام أن تكون لكل سورة صورة مشخّصة ، فإن معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد ، وكان الكلام ذا وحدانية فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخّصة. فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضاحة"³.

رؤية الفراهي للمناسبة والنظام في القرآن الكريم

النظم والنظام في الدراسات القرآنية يقصد بها ارتباط وتماسك الآيات القرآنية بعضها ببعض ويطلق عليه الوحدة الموضوعية ، وهي النظرية التي اشتهر بها الفراهي، إذ صرّح في أكثر من موضع أنّ له السبق في علم النظام وأنّ المتقدمين عنوا بالمناسبات، ولم يلتفتوا إلى المناسبة التي يتوسل بها لنظم الكلام من بدايته إلى نهايته .

أشار الفراهي إلى الفرق الموجود بين المناسبة و النظام، فالمناسبات بين الآيات والسور أشار إليها الكثير من المفسرين كالرازي والشوكاني والبقاعي وغيرهم فقد اتخذوا من المناسبات مفاتيح التفسير يقول الفراهي: " إنّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئا واحدا مستقلا بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام، فيصير شيئا، واحد وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، فإن عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيرا ومنها ما ترى فيه اقتضابا، بينما وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها وهذا ما صرح به الإمام الفراهي بقوله: "وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلاما ، واحد ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد ما، فكما أن الآيات

¹ - محمد يوسف الشريحي الامام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره "نظام القرآن ص 235.

² - الفراهي، دلائل النظام، ص 39.

³ - نفسه ص 75.

ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة معترضة وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاما واحدا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر"⁽¹⁾

ويؤكد الفراهي أهمية النظام لتدبر القرآن قائلا: "إنّ نظام القرآن ليس مقصودا لذاته وإنما هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن، وهو المرجح عند تضارب الأقوال، وهو المعين عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تُفتح به كنوز القرآن".⁽²⁾

حمل النظر على النظر

يُفسر النظر في القرآن بالنظير، فقد نجد المعنى يتكرر في الآية عينها وقد نجده في سورة أخرى، وقد تأتي الفكرة مجملة في موضع من الذكر الحكيم ومفصلة في آخر. والفراهي يجعله ركنا من أركان التماسك النصي ولا يتأتى له ذلك إلا بعد تمعن وتدبر في ذكر الله مع ملاحظة كلام العرب شعره ونثره.

ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تأتي بدلالات متنوعة تحتاج إلى تبسيط استنادا إلى السياق الذي وردت فيه، وكثيرا ما نجد دارجي القرآن يعمدون إلى تأويلات متباينة قد تطغى عليها الأهواء الشخصية "و إذا كان الكلام محتما لتأويلات مختلفة، فالمصير إلى ما له نظير في القرآن أحوط. فإن ما هو ليس في القرآن ربما يكون رأيا محضا وضلالة. وأما ما كان له نظير في الحديث فلا بد من صحته رواية ودراية. ثم المصير إلى النظر الذي في القرآن أوثق"⁽³⁾

ولإظهار الجانب العملي للفراهي في تطبيقه لنظرية النظام في القرآن اخترنا سورة الذاريات أنموذجا .

تفسير سورة الذاريات:

هي مكية وآيها ستون، نزلت بعد سورة ق، ومناسبتها لما قبلها تظهر في:

-تتضمن السورة السابقة إثبات البعث وإبطال شهتهم فيه، وهذه السورة إثبات الجزاء

-ذكر في السورة السابقة قصصا مجملة ثم فصلت في السورة اللاحقة، وهذا من باب التفصيل بعد التعميم، وفيه تشويق وتأکید.⁽⁴⁾

قسم الفراهي تفسيره إلى سبعة عنوانات:⁽⁵⁾ المقدمة. (التمهيد). - الكلم. - النحو. - البلاغة. - التأويل. - التدبر. - النظم

1-المقدمة: أو التمهيد ويعتبره الفراهي عنصرا مهما قبل الشروع في التفسير، "فأكثر ما يحتاج إلى تقديمه في الكلام إذا خوطب

به من لعله يصعب عليه. فيقدم بيان ليمهد لالقاء ما هو المقصود وهذا هو الأصل فيه."⁽⁶⁾

وفها يشير الفراهي إلى عمودها ومطالبها ومواقع نزولها، ووجه خطابها، وترتيب أجزائها، فبعد ذكر السورة موضوع الدراسة

انتقل الامام إلى انتمائها إلى دائرة السور السبع⁽⁷⁾ التي تتناول الحديث عن الرسالة والقرآن العظيم وهو الموضوع الذي يجمع كل هذه السور.

أ - عمودها:

¹ - الفراهي دلائل النظام ص 86-87.

² - نفسه ص 74، 75.

³ - حميد الدين الفراهي التكميل في أصول التأويل تحقق محمد سميع مفتي <https://tafsir.net> ص 78

⁴ - الفراهي دلائل النظام ص 120.

⁵ - محمد يوسف الشريبي الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" مجلة الهند: المجلد 7: العددان 1-2 2018 م ص 237.

⁶ - الفراهي دلائل النظام ص 73.

⁷ - ق-الذاريات-الطور-النجم-القمر-الرحمن-الواقعة.

ويقصد الفراهي بالعمود الوحدة الموضوعية للسورة ، ويشير إلى أن عمود كل سورة له اتصال بالسورة السابقة واللاحقة أي أن السورة بكل أجزائها تدور في فلك واحد في ترابط معنوي محكم للتأكيد أهمية العمود لمعرفة نظام القرآن راح الفراهي يوضح فكرته بطريقة عملية في تفسير القرآن ففي كل سورة يفسرها يعين عمودها وو من أصعب الأمور عنده ، فالعمود في مفهوم الفراهي هو : "جماع مطالب الخطاب ، فالإيه يجري الكلام ، وهو المحصول المقصود منه .فليس من أجزائه الترتيبية ولكنه يسري فيه كالروح والسر ، والكلام شرحه وتفصيله وإنتاجه وتعليقه . وربما يحسن إخفاؤه . فلا يطاع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه".⁽¹⁾

والعمود في السورة موضوع الدراسة يدور حول إثبات الجزاء ، فلما كان في السورة السابقة الحديث عن البعث والجزاء والجنة والنار ، أعقبها بالقسم بصدق وقع الجزاء . إذ نلمس في السورة طابع التهديد والوعيد والإنذار و الفراهي عند كلامه عن عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها قال : " فاعلم أن في السابقة إثبات البعث وإبطال شبهتهم فيه ، وفي هذه السورة إثبات الجزاء فبدأ السابقة بقوله : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) ﴾ الذاريات .

وأما هذه السورة فلما جعل عمودها جهة الدينونة والجزاء بدأها بالشهادات عليها وصرح بها حيث قال تعالى بعد إيراد الشهادة: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) ﴾ الذاريات وهذا الوعد والدينونة كلاهما يعم الرحمة والنقمة فإن الوعد قد جاء بكليهما⁽²⁾ ولما كان عمود السورة هو الجزاء ، فقد استشهد الفراهي بما يناسب الموضوع من خلال ذكر مواقع الآيات في السورة وسبب نزولها والمخاطب فيها . فنذكر أولاً بحقيقة الوعد ، ثم راح يسرد القصص التي تحقق فيها الوعد واستهل في ذلك بقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) ﴾ فيها إشارة إلى قدرة الله في إحياء قوم وإماتته .و السورة كلها فيها إنذار ووعيد ولكن ربنا رؤوف رحيم ، فكلما توعد بعاقبة الكافرين ، إلا وقابله بجزاء المتقين .

ضمت السورة مجموعة من القصص لأقوام كلَّها أهلكت بالريح ، فقوم لوط أهلكوا بالريح الذارية ، فرعون وقومه أغرقوا بالريح الشرقية ، وعاد أهلكوا بالصرصر والصاعقة ، وثمود أهلكوا بالصاعقة فقط ، وقوم نوح أهلكوا بالريح الشديدة ، فكل هذه القصص لها صلة وطيدة بالمقسم به (الذاريات).

ب- مطالبها:

لكل صورة مطالب ، وهي العناصر التي تدور في فلكها كل سورة من سور القرآن الكريم . ومن أهم المطالب التي أشار إليها الفراهي في سورة الذاريات ما يلي:

- دلائل قدرة الله وحقيقة البعث بالرجوع إلى الظواهر الكونية .
- جزاء المتقين يوم القيامة .
- قصص كذبوا بالرسول وكان مصيرهم الهلاك .
- تسلية النبي ﷺ بتذكيره بما يلقاه من تصدي قومه له .
- وعيد الكفار يوم القيامة .
- إن المشركين سينالهم نصيب من العذاب مثل نصيب نظرائهم من المكذبين
- تعليم المداراة والصفح عما يقول الظالمون وتعلم الصبر والانتظار لغلبة الحق

1- الفراهي دلائل النظام ص 73 .

2- الفراهي نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ص 120

- اتصاف الله تعالى بالحكمة والرحمة والعدل والحكمة والامهال وعلى تدبيره الأمور حسب الأجل
- ذكر غاية الخلق وكماله

- بيان حقيقة الربوبية والعبودية وعلى لزوم المعاد⁽¹⁾

كل هذه المطالب وردت في نظام محكم واتساق متين يؤكد هذا الفراهي بقوله: "وجعل هذه المطالب في غاية الاتساق والاعتناق بما رتبها ترتيبا يستدل ببعضها على بعض ، ويستخلص من السابق إلى اللاحق حتى بلغ الكلام إلى عمود السورة وهو الإنذار والتخويف لكي يتوبوا إلى ربهم"²

2-الكلم

تعرض الفراهي من خلال هذا العنصر إلى معنى الكلمات الوارد ذكرها في السورة، وإلى مادتها وصورتها مستدلا في ذلك بما جادت به قريحة العرب شعرا ونثرا.

وسأقف عند بعض الكلمات من تفسيره، لنكتشف معا براعة وتمكّن هذا العالم الجهبذ من الجانب الدلالي للكلمة في تراكيبها المتنوعة وهو في هذا يستند إلى نظيراتها في القرآن، واستعمالها في الحديث الشريف وفصح العرب ومنه:

-قوله تعالى:(والسما ذات الحبك) أورد الفراهي معان كثيرة لكلمة (السما) واستدل للوصول إلى معناها الحقيقي بالسياق وهذا يربطها بما سبقها من جهة وعمود السورة من جهة أخرى .

فقد تدل كلمة السماء على السحاب⁽³⁾ والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ (44) هود والذي أفضى إلى هذا المعنى العود إلى السياق كونه عنصرا مهما من عناصر التماسك النصي عند الفراهي فقد اعتمد على ثلاثة أوجه لإيراد هذا المعنى.⁽⁴⁾

- أولا: الإحالة إلى المقسم به في بداية السورة في قوله تعالى (وَالذَّارِيَاتِ)، فلما كان المقسم به هو الرياح فدلالة السماء هي السحاب " فالمناسبة بين الرياح والسحاب أظهر".

- ثانيا: المناسبة بين المقسم عليه والمقسم به تقتضي ذلك يؤكد ذلك ابن عاشور في قوله " هَذَا قَسَمٌ أَيْضًا لِتَحْقِيقِ اضْطِرَابِ أَقْوَالِهِمْ فِي الطَّعْنِ فِي الدِّينِ وَهُوَ كَالْتَدْبِيلِ لِلذِّي قَبْلَهُ، لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ حَاصٌّ بِإِثْبَاتِ الْجَزَاءِ. وَهَذَا يَعْْمُ إِبْطَالَ أَقْوَالِهِمْ الضَّالَّةِ فَأَلْقَسَمُ لِتَأْكِيدِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ"⁽⁵⁾

ثالثا: دلالة الوصف بعده.

فالريح توصف بالحبك لا السماء، واستدل لذلك الفراهي بالمفهوم اللغوي للكلمة عند اللغويين، وبما جادت به قرائح فطاحل

الشعراء

ورد في لسان العرب في معنى(حبك)⁽⁶⁾، الشد والتوثيق والإحكام و الحبيكة الطريقة في الرمل ونحوه

1- المرجع السابق 176..

2- نفسه

3 الفراهي ، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ص123.

4- نفسه ص124.

5- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور: الدار التونسية للنشر – تونس: 1984 هـ ج26 ص340.

6- ابن منصور لسان العرب مادة (حبك)

وجاء في أساس البلاغة في معنى الآية موضع الشاهد " للريح في الماء والرمل حبك وحبائك وحببك أي طرائق " الواحد حببكة وحباك، وما أحسن ما حكمتها الرياح": (1)

وكل هذه المعاني يجمعها الفراهي في قوله: " ومنه الإدماج والاحكام في النسيج ومنه (الحبك) وجمعه (الحبك) للطرائق والسرة التي توجد في الثوب المحكم النسيج وغيره" (2)
واستشهد بقول زهير يصف غديراً:

مُكَلَّلٍ بِعَمِيمِ النَّبْتِ تَنْسِجُهُ *** رِيحٌ حَرِيْقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حَبِكٌ³

ولذات المعنى استشهد بقول امرئ القيس في وصف القصور الشامخات المكلفة ووصف الخنساء للسحاب في فصل الشتاء وهناك رأي آخر إذ قيل الحبك: طَرَائِقُ السَّحَابِ ومن قال بهذا جَعَلَ الحُبْكَ مَصْدَرًا أَوْ اسْمَ مَصْدَرٍ (4) وذهب الرازي إلى أن المُرَادُ من (الحبك) " طَرَائِقُ الكَوَاكِبِ وَمَمَرَاتِهَا وَمَا فِي السَّمَاءِ مِنَ الأشْكَالِ بِسَبَبِ النُّجُومِ وإلى ذات المعنى ذهب الحسن البصري (5)"

وهذا ما رفضه الفراهي وكأنه إذ جاء بالأدلة من القرآن والنثر والشعر يريد الرد على من ذهب إلى أن الحبك مصدر يقول: "وما قيل من أن المراد به السماء التي فيها النجوم إما لإحكامها أو لكونها مجردة بالكواكب فلا يصح، فإن الحبك هنا ليس بالمصدر، إنما هو جمع بمعنى الخطوط" (6)

3- النحو:

يظهر من خلال تفسير الفراهي أنه كانت له قدرة مديدة على توظيف القواعد النحوية للوصول إلى ما استعصى فهمه من القرآن فهو يجعل في كثير من الأحيان النحو وسيلة للتوضيح ففي قوله تعالى ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ﴾ 13 ذهب (ب)يوم) إلى النصب على الظرفية فربط اليوم بالحدث فالمقصود باليوم الوقت ويبعد الحكم الإعرابي الآخر لأن المعنى يستدعي ذلك "وقيل موضعه الرفع، إنما نصب لإضافته إلى غير المتمكن. وهذا وإن كان جائزاً من جهة الاعراب ولكن لا يليق هاهنا، فإن السؤال المتقدم إنما هو عن موقع يوم الدين لا عن نفس ذلك اليوم" (7)

كما وقف الفراهي عند قوله تعالى: ﴿أَخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ (16)، مشيراً إلى أنّ (أخذين) منصوب على الحال ويرتكز مرة أخرى على النظام في السورة بالرجوع إلى كلام سابق وربطه باللاحق يقول في ذلك: "وهو أحسن لما فيه دلالة على استمرار الإنعام، فلم يقل إنهم أخذوا ما آتاهم ليعلم أنّ ما أعطوا يبقى معهم، لأنّ الجملة السابقة قد دلت على الاستمرار، فالمعنى: إنهم دائمون في جنات وعيون وعطايا من ربهم" (8)

وهذه آية أخرى يقف عندها الفراهي، ليبين أهمية الصيغة التي ترد عليها الآية في تحقيق التماسك داخل السورة طويلة، كانت أم قصيرة قال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (46) ﴿قوم﴾ هنا منصوبة وهذا دون دخول (في) عليها

1- الزمخشري أساس البلاغة تحقق محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية بيروت ط 1419 هـ-1998 م ج 1 ص 165.

2- الفراهي نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ص 124.

3- المرجع السابق.

محمد الطاهر بن عاشور: لتحرير والتنوير: ج 26 ص 341.

5- وانظر الرازي ج 28 ص 162 و ابن كثير مختصر تفسير ابن كثير دار الفكر بيروت ط 1326 هـ 205 م ج 3 ص 397

6- الفراهي نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ص 125

7- نفسه ص 127.

8- الفراهي نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ص 130-131.

كما قرئ (قوم) بالخفض على معنى (في) أو بالنصب وهي القراءة الأقرب إلى الصواب عند جلّ النحويين و هذا بتقدير (أهلكتنا او اذكر) ، لِدَلَالَةِ مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَيْهِ. (1) فالوسيلة الأساسية للتوضيح عنده ، السياق والنظام وعطف عليها قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (47) فرغم اختلاف الآيتين إذ الأولى يرجع مضمونها إلى القصص التاريخي ، بينما الثانية يرجع مضمونها للجانب الكوني إلا أن سياق السورة ربط بينهما.

4-البلاغة

يبدو اهتمام الامام الفراهي بالنواحي اللغوية والبلاغية واضحا في تفسير القرآن: يؤكد هذا الدكتور محمد يوسف الشريحي: "إن المطلع على مؤلفات العلامة الفراهي ليعجب إذا قيل له أنه أعجبي، وخاصة كتبه في التفسير وعلوم القرآن، فقد كانت لغته قوية جزلة ناقش فيها الشعر الجاهلي وصحح بعض الافهام في توجيهها،"²

لم يكتف الفراهي بالإشارة إلى الجانب البياني خلال تفسير أي الذكر الحكيم بل أفرد كتابا جميلا في البلاغة سماه (جمهرة البلاغة)، كان يغي من ورائه الكشف عن البلاغة القرآنية وردّ من خلاله نظرية المحاكاة عند اليونانيين وأن الله حي الإنسان بأن خلقه وعلمه البيان فأصبحت طلاقة اللسان البشري ميزة عنده، يقول عزّ وجل في محكم تنزيله: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ (2) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (3) ﴾ الرَّحْمَنُ.

وقف الفراهي عند قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ (26) مشيرا إلى حسن اختيار لفظه (راغ) في الآية موضع الشاهد لمناسبتها السياق والموقف الذي كان فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام فمعنى راغ روغانا: مشى مائلا يقول ابن عاشور: "إِنَّ الرَّوْعَانَ مَيْلٌ فِي الْمَشْيِ عَنِ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى الْجَانِبِ مَعَ إِخْفَاءِ إِرَادَتِهِ ذَلِكَ وَتَبَعُهُ عَلَىٰ هَذَا التَّقْيِيدِ الرَّاعِبُ وَالرَّمْخَشْرِيُّ وَإِنْ عَطِيَّةٌ فَانْتَزَعَ مِنْهُ الرَّمْمَخَشْرِيُّ أَنَّ إِخْفَاءَ إِبْرَاهِيمَ مَيْلَهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مِنْ حُسْنِ الضِّيَافَةِ كَيْلًا يُوهِمُ الضَّيْفَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُحْضِرَ لَهُمْ شَيْئًا فَلَعَلَّ الضَّيْفَ أَنْ يَكْفَهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَعْذُرَهُ"⁽³⁾

فقوله راغ إلى أهله كناية عن التأدب مع الضيوف وهذا ما يظهر من السياق ، فترتيب الأحداث بذلك التسلسل الذي جاءت عليه القصة ووفق ذلك النظام المحكم يجعلنا نشعر بتلك الحركية داخل أحداث القصة هذا من جهة ومن جهة أخرى اعتماد الفاء الرابطة بين أجزاء القصة والتي ساهمت في تماسكها ووضوح الدلالة يعبر الزمخشري ذلك بقوله: "وَمَجِيءُ الْفَاءِ لِعَطْفِ أَفْعَالِ فَرَاغَ فَجَاءَ فَفَرَّقَتْهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ وَقَعَتْ فِي سُرْعَةٍ، وَالْإِسْرَاعُ بِالْقَرَىٰ مِنْ تَمَامِ الْكَرَمِ"⁽⁴⁾

يستند الفراهي إلى السياق والمقام للوصول إلى المعنى المقصود من (راغ) فبعد ما وصف إبراهيم بالكريم السمح، يخلص إلى ان لكل لفظ دلالة فق السياق الذي ورد فيه وما (راغ) إلوكرمه آ دلالة "على حسن خلق إبراهيم ، فإن الكريم يخفي عن ضيفه الاهتمام لضيفاته لكيلا يثقل عليه"⁽⁵⁾

5-التأويل : يرى الفراهي أن أصول التأويل ثلاثة:⁽⁶⁾

- 1- أصول أولية: وهو ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعان شتى.
- 2- أصول مرجحة: وهي احتمال الكلام معاني مختلفة فإذا أعملنا الأصول المرجحة أخذنا ما هو الراجح وتركنا المرجوح

¹- أنظر النحاس إعراب القرآن ج 4 دار ومكتبة الهلال بيروت ط 2004 م ص 238 وانظر أبو حيان الأندلسي البحر المحيط ، دار الفكر 1420 هـ ج 9 ص 559.

²- محمد يوسف الشريحي "الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره" نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" مجلة ص 255

³- ابن عاشور التحرير والتنوير ج 26 ص 359

⁴- المرجع السابق الصفحة نفسها والجزء نفسه

⁵- الفراهي نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ص 146.

⁶- محمد إقبال أحمد فرحات ، أصول التفسير عند العلامة الفراهي (عرض ونقد) ، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية ، المجلد 3 العدد 2 1427 هـ 2006 م ص

3- أصول كاذبة: اعتمدوا عليها وليست لشيء وإنما تذكر ليتم اجتنابها

ويذهب الفراهي إلى أن الأصول الأولية ترتكز هي بدورها على أربعة فصول فرعية وهي:

أولاً: التمسك بنظم الكلام و سياقه و هو لب موضوع هذه المداخلة فما كتاب "دلائل النظام" للفراهي إلا دليلاً على وجود نظام بين في كتاب الله الكريم ، و كأنه أراد أن ينظر لعلم النظم ثم انتقل إلى الجانب العملي في كتابه " تفسير نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان"

ومن خلال الجانب العملي على بعض السور أكد الفراهي "أنّ القرآن الكريم كلام منظم و مرتب من أوله إلى آخره على غاية حسن النظم و الترتيب ، وليس فيه شيء من الاقتضاب لا في آياته و لا في سوره ، بل آياته مرتبة في كل سورة كالفصوص في الخواتم ، و سوره منتظمة في سلك واحد كالدرر في القلائد ، فلو قدّم ما آخر ، أو آخر ما قدّم لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام ، بل ربما يعود إلى قريب من الهذيان"⁽¹⁾

"وهذا ليس من المرجحات فإن الكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه ورياط معانيه، فإن خلل النظم منفي عن كلام العقلاء، فما أبعد عن العقلاء، فما أبعد عن كلام الله المعجز"⁽²⁾

ليس هذا فحسب بل يعتمد الفراهي في الكشف عن نظام القرآن على القرآن نفسه لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وهو أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً⁽³⁾

الأصل الثاني: عدم الالتفات للمعنى الشاذ و هنا يدعو الفراهي إلى الابتعاد عن تأويل الآيات تأويلاً باطلاً.

الأصل الثالث: فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة و حمل النظر على النظر و ذلك هو التأويل بالقرآن

إنّ المتمعن في القرآن يجد الكثير من الأمور التي تكررت بصيغ مختلفة، مرّة مفصّلة و مرّة مجمّلة ، ،

و لم يكن هذا اعتباطياً و إنّما بأمر من لدن حكيم قدير، و قد ورد تأكيد ذلك في الكثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿ثم إنّ علينا

بيانه﴾ (القيامة 19) ، و قوله تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ (فصلت 1)

وقف الفراهي أمام المتقابلات من الآيات مشيراً إلى أن الآيات ذات النظائر تفسر بعضها البعض وقد لا نجد التأويل في القرآن فينتقل الأمر للحديث الشريف يقول: "أول شيء يفسر القرآن هو القرآن نفسه. ثم بعد ذلك فهم النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه، ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.....: وإني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي بها إلا كالتبع بعدما فسرت الآيات بأمثالها لكيلا يفتح باباً لمعارضة المارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم والملحدين الذين يلزموننا ما ليس له في القرآن أصل، ولكي يكون هذا الكتاب حجة بين فرق المسلمين وقبلة سواء بيننا.

فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين. والكتب في التفسير كثيرة. فمن يسرح فيها نظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله. ولكنني أردت ما يكون كالأساس، والأم ، والوسط ، والحكم. و لهذا اقتصر على ما في القرآن، غير جاحد لما تركته. كما جمع الإمام البخاري-رحمه الله- في كتابه كل ما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه مع ما ترك

كثيراً من الصحاح⁴

-تأويل القرآن بالقرآن.

¹-المرجع السابق ص 137.

² الفراهي ، التكميل في أصول التأويل تحق محمد سميع مفقي <https://tafsir.net> ص 77

³- الفراهي نظام القرآن ص 5.

⁴-المرجع السابق ، ص 23-24.

المتعمن في أي الذكر الحكيم يلحظ أن بعضها يأتي مرة مجملا وأخرى مفصلا. ومما ورد من تفسير القرآن بعضه بعضا قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33)﴾ الذاريات والطين هنا كلام عام فالطين أنواع ، ولإزالة الإبهام راح الفراهي يفسر الآية بأية أخرى في موضع آخر من الذكر الحكيم فمعنى الحجارة: (سجيل) وهي لفظة معربة من (سنگ و كل) و(السنگ) بالفارسية : الحجر و(كل): الطين وقد وردت بهذا التفسير في سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ 28﴾ ، فبين ههنا معنى (سجيل) ، كما جاءت مفسرة في موضع آخر من القرآن في قصة لوط من السورة عينها في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ 82﴾ و مما جاء بنفس تفسير معنى الحجر في موضع آخر من القرآن قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ 4﴾ (الفيل)، والقرآن كما قال الفراهي يفسر بعضه بعضا¹. وأرجع سبب ورودها في القرآن الكريم لدخولها في اللسان العربي وهي من أجود التربة²

6- التدبر : دلائل وجوب التدبر في كتاب الله⁽³⁾

و المتدبر في سورة الذاريات يلحظ هذا التماسك القوي و هذا النظام المتين بين معاني الآيات والذي لا يأتي إلا من لدن عزيز حكيم والآيات التالية لدلالة بينة على أهمية التقابل والإيجاز في تحقيق التماسك النصي حيث ينتقل بين الترهيب والترغيب ، وبين الوعيد والجزاء ففي حديثه عن الكفار قال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11)﴾ ، ثم انتقل بعد ذكر الكفار إلى ذكر المؤمنين الذين اتصفوا بالمتقين. وهذا واضح بين في ضوء أصول التفاضل والتقابل بغير تصريح بأن المتقين ليسوا غافلين. وهذا غير مذکور ولكنه واضح. ويسميه العلامة بأنه خاصية إيجاز الكلام. وكل ما قيل عن المتقين فهو دليل صريح بأنهم ليسوا بنائمين ولا ساهين بل هم مستيقظون. واستيقاظهم هذا يحيط بحياتهم كلها. وهؤلاء هم الذين يقال عنهم في الآخرة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)﴾ .

فعند استعمال العلامة كلمة (المتقين) يمنحها سعة كافية من كلتا الناحيتين الظاهرة والباطنة، وتؤيد كثير من الآيات القرآنية هذا المفهوم الواسع.

7- النظام.

أشرنا سابقا إلى قضية النظام في القرآن كما رآها الفراهي ويؤكد الفراهي: "أن نظام القرآن ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن، وهو المرجح عند تضارب الأقوال، وهو المعين عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تُفتح به كنوز القرآن"⁴.

قبل التعرض إلى الأشكال المختلفة التي اتخذها النظام في السورة لابد من الوقوف قليلا عند ترتيب مطالب السورة واتصالها ببيداتها ونهايتها .

أشرنا سابقا إلى أن العمود في السورة موضوع الدراسة يدور حول إثبات الجزاء، إما الجنة أو النار لأن الخطاب موجه للمؤمنين والكفار ، والرياح بتصاريفها لا يكون لها نفس الوقع على البشر ، فتكون نعمة للبعث ونقمة للبعث الآخر . والدليل على

¹- نفسه ص 147-421.

²- نفسه ص 421.

³- الفراهي التكميل في أصول التأويل ص 18

⁴- دلائل النظام، ص 74 ، 75.

ذلك القصص الواردة في السورة موضوع الدراسة وما كان لها من اختلاف في الأثر على من أرسلت إليهم ، فالرياح جنود من جنود الله يسخرها كيفما شاء ن لقوله تعالى: ﴿ولله جنود السماوات والأرض 4﴾ الفتح .

والأنسب للتأكيد في الكلام هو القسم ، فكان المقسم به في بداية السورة قطها ، "فيه إنذار وتخويف يبين شناعة استمرارهم في غفلة وغرور".¹

وللتعاض بالأقوام السابقة ذكر الله قصصهم مجملة في موضع ومفصلة في موضع آخر وقد ضمت السورة الذاريات مجموعة من القصص كلها أهلك بالريح ، فقوم لوط أهلكوا بالريح الذارية ، فرعون وقومه أغرقوا بالريح الشرقية ، وعاد أهلكوا بالصرصر والصاعقة ، وتمدود أهلكوا بالصاعقة فقط ، وقوم نوح أهلكوا بالريح الشديدة ، فكل هذه القصص لها صلة وطيدة بالمقسم به في بداية السورة هو الرياح .

اتخذ النظام في السورة أشكالاً مختلفة منها:

أ- الإحالة

قد يتحقق النظام في السورة عن طريق الإحالة بالضمير كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَّا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ (23)﴾ (الذاريات) يشير الفراهي إلى تسلسل المعاني في السورة فالمقسم عليه في هذه الآية هو نفسه المقسم عليه في بداية السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَصَادِقٍ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ 5-6﴾ (الذاريات) فكتفي بالضمير والتقدير: فورب السماء والأرض إن بعثكم وجزاءكم حق لا ريب فيه⁽²⁾

ب- المقابلة

يتحقق التماسك بين الآيات في السورة الواحدة عن طريق التقابل وقد أشار إلى ذلك الفراهي عندما وقف عند ترتيب الآيات وموقعها مما قبلها وما بعدها ففي قوله ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8)﴾ الذاريات إجمال لما جاء بعده في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَّا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ (23)﴾ الذاريات حيث "بدأ بتشجيع أمر المتكبرين ثم أتبعه ذكر مقابله ، فبذلك أعقب الدليل الترهيب والترغيب ثم بعد ذلك أخذ مرة أخرى في إثبات الجزاء فإنه عمود الكلام"

ج- الالتفات :

كان للمفسرين اهتمام بالغ بظاهرة الالتفات في القرآن، ومن ورائها استطاعوا الإبانة عن الكثير من الظواهر اللغوية بطريقة بدیعة تهر القارئ ، منهم: أبو حيان الأندلسي في محيطه ، والرازي، في مفاتيحه وابن عاشور في تحريره ، وها هو الفراهي من خلال تفسيره يلقي بنظرته على هذا الأسلوب في القرآن، يغي من ذلك، إبانة الفوائد واللطائف المبتغاة من ورائه .

ومنه ما ذكره الفراهي عند وقوفه أمام قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16)﴾ الذاريات موضحة أهمية الدليل للوصول إلى المعنى المقصود وهذا يربط الآيات بعضها ببعض في نسق مترابط متراص . فقوله تعالى(إنكم) فيه إحالة بالضمير إلى سابق وفيه "وصف وضع في محل الدليل وبذلك أيضا دل على أن المنكرين على خلاف هذه الأوصاف كما جاء في القرآن كثيرا، وموقع الجملة شبيه بالالتفات فيشبه ما مر في قوله تعالى: ﴿ذوقوا فنتنكم(14)﴾ الذاريات كأن يوم القيامة قد حضر، فيوصفون بما عملوا في الدنيا"⁽³⁾

¹- الفراهي نظام القرآن ص128.

²- الفراهي نظام القرآن ص136

³- نفسه ص 131.

أشار الفراهي من خلال تفسيره لسورة الذاريات إلى الحلقة التي جمعت معاني الآيات في ترتيب محكم. وهي الرياح في بداية السورة والتي كانت تنفع مرة وتضر أخرى يقول في هذا الصدد: "واعلم أنّ كلا الاشهادتين في الحقيقة استشهاد بآيات الله الظاهرة وأوامره الجارية ، تأتي بريح فتحمل السحاب الثقيل فتسوقه إلى الأرض الجرز ، وتحمل السفن الموقرة وتجري بها إلى المنافع وربما تعصف فتدرو الرمال وتنقلب حاصبا فتمطر الحجارة ، وربما تنقلب صرصرًا فتأتي بالبرد والصواعق وربما طوفانا فتأتي بالمطر الشديد وتهيج البحر. وفي كل ذلك تقسيم الأمور ، فإن من عجائب قدرة الله تعالى وحكمته وتسخيره الرياح أنّها ربما تنفع بشدتها وربما تهلك بليتها..... بل الأمر الواحد، يشتمل نعمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين مفرقا بين الرحمة والعذاب" (1).

بهذه الوتيرة سار الفراهي في تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) وكانت محاولته فريدة في خالف بها من سبقه وكان هاجسه الوحيد هم إتمام تفسير سائر القرآن بالطريقة التي رآها تعطي كلام الله حقه من الفهم فطبق نظريته هذا بدقة وعناية ، وراح يفسر الآيات بالآيات، معرجا مرة على الترتيب ومرة على التناسق دون الإغفال عن النواحي اللغوية والبلاغية في تفسير القرآن فكان عمله هذا إضافة أخرى للتراث اللساني العربي مما يثلج الصدر ويمتدح العين ويقنع العقل .

الهامش

- 1- الفراهي نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان الدائرة الحميدية الهند ط ، 1 2005م
- 2- الفراهي ، دلائل النظام ، المطبعة الحميدية الهند ط 1 1388 هـ .
- الفراهي، التكميل في أصول التأويل تحقق محمد سميع مفتي <https://tafsir.net>.
- 3- محمد يوسف الشربجي الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" مجلة الهند المجلد 7: العددان 1-2 2018 م .
- 4- محمد يوسف الشربجي "الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" مجلة الدائرة الحميدية الهند ط ، 1 2005 م .
- 5- محمد فريد الداوي الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن دار شاكر ، ماليزيا ط 1 2015 م .
- 6- أبو الحسن الندوي "إمعان في أقسام القرآن للفراهي" الكتاب ، دار القلم، دمشق.
- 7- محمد أجمل، منبر الفراهي منبر علمي متميز مجلة الهند م 7 العدد 1-2 2018 م .
- 8- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور: الدار التونسية للنشر - تونس: 1984 هـ.
- 9- ابن منصور لسان العرب مادة (حبك).
- 10- اساس البلاغة الزمخشري تحقق محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1419 هـ-1998 م .
- 11- الرازي مفاتيح الغيب دار إحياء التراث بيروت ط 3 ، 1420 هـ .
- 12- ابن كثير مختصر تفسير ابن كثير دار الفكر بيروت ط ، 1 1326 هـ .
- 13- النحاس إعراب القرآن دار ومكتبة الهلال بيروت ط 1 ، 2004 م .
- 14- أبو حيان الأندلسي البحر المحيط ، دار الفكر 1420 هـ .
- 15- محمد إقبال أحمد فرحات ، أصول التفسير عند العلامة الفراهي (عرض ونقد) ، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية ، المجلد 3 العدد 2 1427 هـ 2006 م .

1- الفراهي نظام القرآن ص 128.

تمفصلات التماسك النصي وجذوره في مدونات علوم القرآن

خلفيات المقاربة وإشكالات التأسيس

د. لبصير نور الدين

جامعة امحمد بوقرة بومرداس - الجزائر

الملخص:

لم يعرف العرب في تاريخهم ممارسة نصية تامة إلا مع القرآن الكريم، وهي أولى مظاهر هذه الممارسة، لذا تطمح هذه الورقة البحثية إلى بلورة مجموعة من المفاهيم النظرية، والتطبيقية التي يقدمها علوم القرآن كأساس للتماسك النصي تحقيقاً للقراءة الفاعلة، وغير بعيد عمّا وصلت إليه اللسانيات النصية كعلم يؤسس للمنظومة النصية؛ إذ يمتد مصطلح التماسك النصي في حقول معرفية مختلفة كما يوجد في أنظمة معرفية متعددة، ومصطلح بهذا الامتداد، والجولان يغري بمزيد من البحث، والتنقيب لاستكشاف منطلقات بنائه؛ فتمدد المصطلح، وامتداده في مدونات علوم القرآن يفرض نظراً ابستمولوجياً جديداً لقد لمسنا تطبيقات قواعد، ومفاهيم التماسك النصي في مصنفات علوم القرآن، فقصدنا المقاربة بين علوم القرآن من جهة ولسانيات النص من جهة أخرى قصد الوقوف على التماسك الذي وظّفوه، كما لا يمكن الحكم، أو نفي وجود التماسك عند علوم القرآن وفق تصورات قبلية جاهزة دون تمحيص، كل ذلك يدفع الباحث لمحاولة الوقوف على هذه المقاربة، والممارسة، وكشف ملاسبتها العلمية، وإعطائها المكانة التي تستحق، الكلمات المفتاحية: التماسك النصي- علوم القرآن-لسانيات النص- المقاربة- معرفية- التأسيس.

Abstract: The Arabs did not know in their history a complete textual practice except with the Koran, it is the first manifestation of this practice, therefore this article aspires to crystallize a set of theatrical and applied concepts which is provided by the sciences of the Qur'an as the basis for scriptural coherence to achieve effective reading, and not far from the textual linguistics as a basis for textual system; the concept of textual coherence extends in different knowledge fields, it is also found in multiple knowledge systems This term is called the extension and the Golan, with more research to explore its starting points

This term is extended in the books of the sciences of the Qur'an imposed by an epistemological view; we have seen the applications of textual coherence in Quran sciences books.

It is not possible to deny existence of cohesion according to tribal developments without looking at all of which prompted to cover up the scientific circumstances.

Keywords: textual coherence- الفصل والوصل sciences- textual linguistics- epistemological- theatrical

المقدمة: الحمد لله الذي بعث النبيين مبشرين، ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد هو سبحانه وتعالى أنه لا إله إلا هو، والملائكة، وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن محمداً عبده، ورسوله الذي ختم به أنبياءه، وهدى به أوليائه، وعلى أصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد: فلم يعرف العرب في تاريخهم ممارسة نصية تامة إلا مع القرآن الكريم، وهي أولى مظاهر هذه الممارسة، لذا تطمح هذه الورقة البحثية إلى بلورة مجموعة من المفاهيم النظرية، والتطبيقية التي يقدمها علوم القرآن كأساس للتماسك النصي تحقيقاً للقراءة الفاعلة، وغير بعيد عمّا وصلت إليه اللسانيات النصية، كعلم يؤسس للمنظومة النصية.

يمتد مصطلح التماسك النصي في حقول معرفية مختلفة كما يوجد في أنظمة معرفية متعددة، ومصطلح بهذا الامتداد، والجولان يغري بمزيد من البحث، والتنقيب، واستكشاف منطلقات بنائه؛ فتمدد مصطلح التماسك النصي، وامتداده في مدونات علوم القرآن يفرض نظراً ابستمولوجياً جديداً.

لقد لمسنا تطبيقات قواعد، ومفاهيم التماسك النصي في مصنفات علوم القرآن، فقصدنا المقاربة بين علوم القرآن من جهة، ولسانيات النص من جهة أخرى قصد الوقوف على التماسك الذي وظفوه، كما لا يمكن الحكم، أو نفي وجود التماسك عند علوم القرآن وفق تصورات قبلية جاهزة دون تمحيص، كل ذلك يدفع الباحث لمحاولة الوقوف على هذه المقاربة، والممارسة، وكشف ملاستها العلمية، وإعطائها المكانة التي تستحق، مما يعمق فهم مسارها العلمي بعيداً عن الارتجالية، وإكراهات الأحكام المسبقة، والآراء الذاتية البعيدة عن الموضوعية، كل ذلك من شأنه أن يعزز، ويعضد مشروعيتها في الطرح من عدمها.

إنّ البحث عن تمفصلات التماسك النصي، و جذوره في مدونات علوم القرآن بين خلفيات المقاربة وإشكالات التأسيس بكلّ تشعباته يشكل رهاناً استراتيجياً، وتحدياً معرفياً للفكر اللغوي المعاصر الذي سعى لتفعيل تراثه، والبحث على المصادقية التي تؤصل لأسبقية التراث العربي بيد أنّ الإشكال الكبير في طبيعة البحث عن هذه الجذور التي اختلفت مقارباتها، وقراءاتها، وآلياتها، ومرجعياتها؛ لا ننكر أنّ الطموح لصياغة خطاب معرفي جديد لمحاورة التراث ممّا قد اشتدت الحاجة إليه خاصة ما وصلت إليه اللسانيات، لكن كلّ ذلك لا يدفع للغلو، والتعسف في الإسقاطات.

أهمية الدراسة: تتجلى أهمية هذه الدراسة في:

- إنّ الفكر العربي اليوم بأمس الحاجة إلى إحياء المخزون التراثي الأصيل، والذي بات أكثر من ضرورة أمام ما يشهده العالم من انفجار معرفي، والبحث عن الآليات الملائمة لقراءة التراث، بكلّ تشعباته، إذ يشكل رهاناً أساسياً داخل كل إستراتيجية معرفية.

التماسك النصي في علوم القرآن تتجلى أهميته في كونه من القضايا التي طرحت في سياق الحديث عن

الإعجاز -.

- استشراف جهود علوم القرآن على وجه التحديد، وإبراز معالم إسهاماتهم في التماسك النصي.

- الكشف عن مظاهر، وممارسات التماسك النصي في مدونات علوم القرآن باعتباره عاملاً من عوامل استقرار النص، ورسوخه؛ قد يساعد في عدم تشتت الدلالات الواردة في النص القرآني.

- الثقافة العربية بأمس الحاجة إلى ابتعاث المخزون التراثي الأصيل، والذي بات أكثر من ضرورة أمام ما يشهده العالم من كشوفات معرفية تداخلت فيها المجالات الفكرية وعبرت من طريقها المعرفة التخصصات العلمية، وفي ضوء هذا المعطى نحاول الرجوع إلى التراث، والبحث عن مصطلح التماسك النصي.

أهداف الدراسة: تسعى هذه المكافحة العلمية لتحقيق جملة من الأهداف:

- لا شك أنّ بعض الباحثين في حقل اللسانيات المعاصرة قد برهنوا بما لا مجال للشك على قابلية كبيرة لإقامة حوار تكاملي، و معرفي بين مفهوم التماسك النصي، وعلوم القرآن، ومع ذلك تبقى هذه الإسهامات بحاجة ماسة للبحث، والقراءة ذلك أنّ مجالات كثيرة في التراث ما تزال بكرة تحتاج إلى نظرة واعية.

- إنّ مدونات علوم القرآن مترابطة الأجزاء منسجمة الغايات تلتقي بلسانيات النص كلّ ذلك يدفع لتعميق الوعي بالتراث، و علاقته بحاضر المعرفة اللسانية، ومستقبلها.

-إعادة بعث التراث الأصيل، وإمكانية إدماجه في البحث اللساني المعاصر، لكن دون غلو، أو إسقاط.

إشكالية الدراسة: يتمحور الإطار الإشكالي لهذه الورقة البحثية حول أسئلة مركزية نودّ من خلاله مقارنة تمفصلات التماسك النصي، وجذوره في مدونات علوم القرآن انطلاقاً من خلفيات المقارنة، و وصولاً إلى إشكالات التأسيس؛ لذلك تنقذ أمام هذه الورقة البحثية جملة من الإشكالات: هل ارتباط مباحث علوم القرآن بنص محدد هو القرآن الكريم يمنحه مشروعية التماسك النصي، والتي تقترب في كثير من نواحيها من مفاهيم لسانيات النصّ؟، ثمّ هل هذا التماسك النصي في مدونات علوم القرآن يعدّ عملاً فردياً ما زال بحاجة للتأسيس، والحوار الجماعي، وتعميق مساره التنظيري، والتطبيقي؟، وهل الكشف عن المضامين التي اشتغل عليه علوم القرآن يساعد الباحث للوقوف عن ممارسة التماسك النصي، و الذي لا يبتعد عن مفاهيم لسانيات النصّ؟، وهل يمكن استخراج ملامح التماسك النصي من كتب علوم القرآن؟، وما هي الروافد الأساسية التي تبيح للباحث إجراء هذه المقارنة، ولعل ما يشفع للباحث بالإدعاء وجود أصول التماسك النصي عند علماء القرآن هو دفاعهم عن وحدة النصّ القرآني، وتماسكه؟، وهل فرض هذا التصور للنص القرآني على علمائه أن يبحثوا على كل ما من شأنه أن يقيم تماسكه النصي؟ إنّ البحث عن تمفصلات التماسك النصي، و جذوره في مدونات علوم القرآن خلفيات المقارنة وإشكالات التأسيس بكلّ تشعباته شكلاً رهاناً استراتيجياً، وتحدياً معرفياً للفكر اللغوي المعاصر الذي سعى لتفعيل تراثه، والبحث على المصادقية التي تؤصل لأسبقية التراث العربي، بيد أنّ الإشكال الكبير في طبيعة البحث عن هذه الجذور التي اختلفت مقارباتها، وقراءاتها، وآلياتها، ومرجعياتها.

إنّ الإسهامات اللغوية لأسلافنا المفكرين في التراث العربي لم ينل البحث فيها ما يستحقه من عناية، واهتمام، فما زالت مجالات كثيرة في التراث العربي اللغوي بكرة تحتاج إلى نظرة لغوية علمية واعية، وإن وجدت هناك أبحاث لغوية ذات قيمة؛ وبعد مسيرة طويلة من البحث فقد تراكمت عليه المقاربات التي أُلقت عليه بالكثير من حمولاتها، كلّ ذلك يدفع لإعادة النظر في هذه المقاربات، لا شك أنّ هذه الأسئلة، والإشكاليات تلخص جانباً من جوانب مقارنة اللسانين المعاصرين للتراث اللغوي، ومحاولة تأصيله؛ ثمّ ما مدى صلاحية الإشكاليات التي طرحتها، ومحاولة الإجابة عنها بما يلقي المزيد من الضوء على هذه المدونات وما مدى قربها، وبعدها من التماسك النصي، وهي الإشكالات التي ظلّت تنتظر إجابة شافية من المثقف العربي.

إشكالية المصطلح: لعل أكثر الأسئلة إلحاحاً، والتي يجب طرحها في المرحلة الراهنة في ظلّ الأزمة التي يعيشها المشهد اللساني العربي في ظلّ طغيان، وانفجار، وتشظي النظريات، والمنهج هو طرح الأسئلة الاستيمولوجية التي تتصل بصناعة المصطلح، وانعكاساته في تحديد المفاهيم.

إنّ الإرباك المصطلحي الذي تعاني منه الدراسات اللغوية عطلّ مسار الدراسات، وجعل الاضطراب، والتشتت، وعدم الاتفاق وكثرة الاختلافات في تحديد المفاهيم سمته البارزة، ذلك أنّ إشكالية التعدد المصطلحي، هي واحدة من الإشكالات التي ظلّنا نعاني منها، ومازلنا، وهو مؤشر لحجم الأزمة التي يعيشها الفكر العربي.

أهمية المصطلح: تكاد تجمع البحوث والدراسات على أنّ للمصطلحات أهمية كبرى في ضبط دلالات الألفاظ، وتحديد ما وفرزها، ولذلك اعتنى بها العلماء قديماً، وحديثاً، لقد قيل منذ القديم إنّ المصطلحات مفاتيح العلوم، ولعمري إنّها مفاتيح كلّ شيء، حيث إنّها يمكن أن تكون مفاتيح الخير، كما يمكن أن تكون مفاتيح الشر، ويمكن أن تكون مفاتيح البناء، كما يمكن أن تكون مفاتيح الهدم؛ يقول طه عبد الرحمن: "فإنّ قوة الاصطلاح غدت لا تقلّ عن قوة السلاح"¹؛ ويقول المسدي: "هي ثمارها القصوى،

¹ انظر طه: عبد الرحمن الحق العربي في الاختلاف الفلسفي: المركز الثقافي العربي، ط.1، المغرب 2002، ص: 79.

فهي مجمع حقائقها المعرفية، وعنوان كل ما يتميز به، كل واحد منهما، وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم عمن سواه غير ألفاظه الاصطلاحية".¹

ومشكلة أيّ بحث تكمن في عدم فهم دلالات مصطلحاته؛ يقول الدكتور عمارة في معرض بيانه للخصوصية الحضارية للمصطلحات: "إذا نظرنا إلى مصطلح أيّ من المصطلحات باعتباره "وعاء" يوضع فيه "مضمون" من المضامين وبحسبانه "أداة" تحمل "رسالة" المعنى فس نجد صلاح وصلاحيته الكثير من المصطلحات لأداء دور "الأوعية" و"الأدوات" على امتداد الحضارات المختلفة. أما إذا نظرنا إلى المصطلحات من زاوية "المضامين" التي توضع في أوعيتها ومن حيث الرسائل الفكرية التي حملتها الأدوات: المصطلحات "فستكون بحاجة ماسة وشديدة إلى ضبط المصطلح؛ لأننا سوف نجد أنفسنا أمام "أوعية" عامة، وأدوات مشتركة بين الحضارات، و الأنساق الفكرية، وفي ذات الوقت أمام "مضامين" خاصة، ورسائل متميزة تختلف فيها، وتتميز بها هذه الأوعية العامة، والأدوات المشتركة لدى أهل كل حضارة من الحضارات المتميزة".²

تعد المصطلحات ضرورة علمية ومشكلة أيّ بحث تكمن في عدم فهم دلالات مصطلحاته لذلك تسعى إلى ضبطها، وتحديدها الأمم والثقافات المختلفة، فلا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تتقدم أمة، أو تزدهر حضارتها دون العناية التامة بأمر المصطلحات، لقد أدرك اللسانيون العرب المحدثون أهمية هذا العلم، وضرورة الإلمام بأسبابه إماماً واسعاً، والإحاطة بنتائجه إحاطةً شاملةً بغية تقويم العمل النقدي، وفي السياق ذاته يقدم عبد الرحمن الحاج صالح وصفاً للحالة اللسانية فيقول: "يتصف البحث العلمي في اللغة العربية في زماننا هذا بصفات جد سلبية، بالإضافة إلى ما يعرفه العصر من تكنولوجيا حديثة تطبق على البحوث اللغوية بنجاح تام في البلدان الراقية، ويعرف كل واحد البطة الذي يسير به وضع المصطلحات وإقرارها وحرفية هذا العمل، وفرديته ومشكل ذبوع هذه المصطلحات في الاستعمال".³

فكان المشكل الاصطلاحي عقبة أعاقت العملية اللسانية؛ يقول خليفة الميساوي: "فإنّ أيّ علم يريد أن يتطور عليه أن يحسن بناء مصطلحاته المناسبة لمتصوراته، والملائمة لمفاهيمه...".⁴

فيمكن عدّ المسألة الاصطلاحية بوصفها العقبة التي تواجه مشروعية إعادة الاعتبار للنقد، فصياغة المصطلحات في الفكر العرب المعاصر عموماً، والدراسات اللغوية خصوصاً إلى يومنا هذا ما زال يطرح إشكالات عدة لا يمكن تجاهلها، وهو من العوائق التي أعاقت العملية النقدية في الفكر العربي المعاصر، لأنّ ضبط المفاهيم يشكل الوعاء الذي تطرح من خلاله الأفكار، فإذا اضطرب ضبط هذا الوعاء أو اختلت دلالاته التعبيرية، أو تميّعت معطياته اختل البناء الفكري ذاته واهتزت قيمه في الأذهان، وخفيت حقائقه، والتبست معانية لذلك يعتبر ضبط المصطلحات، والمفاهيم للحظة العلمية البارزة، ليس من قبيل الإجراء الشكلي، أو التناول المصطنع بقدر ما هو عملية تمس صلب المضمون، وتتعدى أبعادها إلى نتائج منهجية وفكرية، حتى نتجاوز التباس المفاهيم، واختلاطها بغيرها؛ إذ يبقى الجهاز المفاهيمي الركيزة الأساس لأيّ شرعية علمية مصطلحية، فعدم ضبط مصطلحات التماسك النصي تعد معضلة من معضلات الدراسات اللسانية، ودليل على التيه المنهجي، إذ لم يحصل اتفاق على

¹ المسدي: عبد السلام قاموس اللسانيات: الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص: 11.

² عمارة: محمد: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1996، ص: 4.

³ الحاج صالح: عبد الرحمن: اللغة العربية وتحديات العصر في البحث اللغوي وترقية اللغات:، محاضرة أقيمت في الندوة الدولية حول اللغات العالمية"، المجلس الأعلى للغة مكانة اللغة العربية، 2000، العربية، الجزائر أيام 6-8، نوفمبر، ص: 25.

الميساوي: خليفة: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم: كلمة للنشر والتوزيع، دار لامان، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، ط. الثانية تونس، الرباط، الجزائر، بيروت.

2015، ص: 18، 1436.

المصطلح حيث تعددت التسميات، ولم تستقر على تسمية معينة. ويبقى في اعتقادي أنّ نجاح عملية التواصل اللغوي، والانفتاح يتطلب مهارة في فهم المصطلحات، واستعمالها في ميدانها بدقة، وعناية.¹

مفهوم التماسك النصي: من الصعب تحديد مفهوماً دقيقاً جامعاً مانعاً للتماسك النصي لتداخله مع مفاهيم مصطلحية أخرى كالانسجام، والسبك، والترابط، والتضام... تتشابه معه، وهنا تكمن المشكلة، ويمكن التفريق بين مصطلحين شديدي التداخل الانسجام، والاتساق بأنّ الاتساق يعنى الترابط الشكلي بين أجزاء النص، والانسجام الجانب الدلالي المضموني؛ وقد حاول الفقي أن يجعل الانسجام مصطلحاً جامعاً يجمع بين التماسك الشكلي، والدلالي، فالأول يعمل على تحقيق التواصل الشكلي للنصوص، والثاني يهتم

بالعلاقات الدلالية بين النص والسيقات المختلفة.²

هو علاقة معنوية بين عنصر في النص، وعنصر آخر يكون ضرورياً لتفسير هذا النص، هذا العنصر الآخر

يوجد في النص غير أنّه لا يمكن تحديد مكانه إلا عن طريق هذه العلاقة التماسكية.³

و عند هاليداي ورقية حسن يشير إلى علاقات المعنى العام لكل طبقات النص التي تميز النص من الاتساق Cohésion و التماسك، وتكون علاقات متبادلة من المعاني الحقيقية المستقلة للنص مع الآخر، فالتماسك إذلاً لا يركز على ماذا يعني النص بقدر ما يركز على كيفية تركيب النص باعتباره صرحاً دلاليّاً.⁴

وعرفه الحمدادي بأنّه هو التنظيم الصوري للنص، وذلك في الحدود التي يضمن فيها هذا الأخير استمراريته الدلالية.⁵ وهكذا يبدو أنّ مفهوم الاتساق، أو التماسك يشيران إلى علاقات الترابط التي تسهم في تماسك النص وتلاحمه، وترابطه، باعتباره من أهم المفاهيم، والمصطلحات في لسانيات النص.

مفهوم التماسك النصي في التراث: ويعدّ التماسك النصي جوهر العلاقات النصية، فهو بمثابة العلاقة الكبرى التي تضم سائر العلاقات الأخرى؛ ذلك أنّ التماسك يحتل موقعاً مركزياً في مدونات علوم القرآن، واشتغاله ببعض المفاهيم تعدّ من صميم اللسانيات النصية؛ وقد ذهب الباحثة هدى صلاح رشيد أنّ مفهوم التماسك النصي في التراث كان معلوماً عندهم، و أدلته في كلامهم واضحة، وأدنى مقارنة لمفهوم التماسك عندهم دفعها لأن تقول: إنّه لم يكن مجهولاً عندهم، بوصفه مفهوماً، ومعيار تقويمي للنصوص، وعلى وفق ما هو متداول حديثاً عند علماء النصّ المحدثين، فالمصطلح، وإن لم يستعمل -صراحة- إلا أنّ دلالاته كانت معلومة عندهم، فقد استعملوا مصطلحات تدل في مضمونها على التماسك (السبك، الحيك، الاطراد، الانسجام، التآلف، حسن الوصف...)⁶.

ومن المصطلحات التي وظّفت في مدونات علوم القرآن: السبك: انظر إلى هذا النصّ العجيب كيف يصف الترابط بين أجزاء القرآن مستخدماً مصطلح السبك: "إنّ القرآن الكريم تفرّقه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد دقيق السبك متين الأسلوب قوي الاتصال أخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته، وجمله يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنّه سبيكة واحدة، ولا

¹ مارتيني: أندري: وظيفة الألسن وديناميتها: عرض سلطان ناصر الدين الثقافية العدد 22، البحرين 1999، ص: 86.

² الفقي: صبيح إبراهيم علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، القاهرة، ص: 65.

³ عفيفي: أحمد نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي: مكتبة زهراء الشرق، ط. 1، القاهرة، 2006، ص: 90.

⁴ Haliday: Cohésion in English: m.a. and R. Hassan. London 1976. P: 36.

⁵ حمدادي: جميل: محاضرات في لسانيات النص: منشورات الألوكة، ص: 68.

انظر، صلاح رشيد: هدى: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب: منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، دار لآمان الرباط، ط. الأولى، بيروت

1436 هـ، 2015 م. ص: 340.

يكاد يوجد بين أجزائه تفكك، ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار نظمت حروفه، وكلماته، ونسقت جملة، وآياته، وجاء آخره مساوفاً لأوله، وبدا أوله مواتياً لآخره"¹.

التشابك والتماسك والتآلف والتناسق: تنوع مقاصده، وافتنانه، وتلوينه في الموضوع الواحد وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم وجدت منه جسماً كاملاً تربط الأعصاب، والجلود، والأغشية بين أجزائه ولمحت فيه روحاً عاماً يبعث الحياة، والحس على تشابك، وتساند بين أعضائه، فإذا هو وحدة متماسكة متألّفة على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة فبين كلمات الجملة السورة الواحدة...، والتناسق ما جعلها رائعة

التجانس، والتجاذب، وبين حمل السورة الواحدة من التشابك، والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات، وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتاباً سوي الخلق حسن السميت² [قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوَجٍ].³ ومن المصطلحات الموضّفة: الترابط والتآلف؛ يقول الزرقاني: "كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط متين النسج والسرد متآلف البدايات والنهايات مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر"⁴. ومن المصطلحات نجد السبك، والانسجام، وإحكام السرد كلها جعلت من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة وحدة بديعة متألّفة تريك كمال الانسجام بين كل جزء، وجزء ثم بين كل حلقة، وحلقة، ثم بين أوائل السبيكة، وأواخرها، وأواسطها، يعرف هذا الإحكام، والترابط في القرآن كل من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه من غير تفكك، ولا تخاذل ولا انحلال، ولا تنافر بينما الموضوعات.⁵

مركزية النص في الحضارة العربية الإسلامية: حتى وصفت الحضارة الإسلامية بأنها حضارة نص لذا لا

يمكن الحديث عن التماسك النصي في مدونات علوم القرآن، وتجاهل الرباط الفاعل بينه، وبين النص الذي يؤسس له لما له من قدرات في بناء المفاهيم، وتوجيه الدلالات؛ ولأن هذه الحضارة أسست مبادئها على مركزية النص، فمن المستحيل الحديث عن التماسك النصي، وتتجاوز النص الذي أنشأها، ذلك يجب أن يتموضع الإشكال داخل السياق المعرفي لسيرورة إنتاجه، بحيث تجعل الرؤية المعرفية ذات مرجعية قرآنية،

ومن هنا تكتسب جدازتها، وتمنح الشرعية للباحث لرسم تصور حول بناء التماسك النصي مستمدة من القرآن دون غيره، لأنه النص المقدس الذي يحمل خصوصية هويتها، ومرجعيتها الحضارية، من أجل ذلك كان من الضروري العودة للقرآن، وترجيح هذا النسق المعرفي من شأنه أن يمتن العلاقة بين التماسك النصي، والنص.

² وقد ذكر البقاعي في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور أنّ القرآن الكريم نصّ متماسك محكم البناء؛ فيقول في ذلك: "وقد انطبق آخر السورة على أولها كما ترى أي انطبق، واتسقت جميع آياتها أخذاً بعضها بحجز بعض أي اتساق؛ فسبحان من أنزل هذا القرآن على أعظم البيان مخجلاً لمن أباه من الأمم، معجزاً لأصحاب السيف، والقلم"⁶.

الزرقاني: حمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن: طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط. الثالثة، مصر 1/60.¹

² المرجع نفسه 1/60.

³ سورة الزمر، الآية: 28.

⁴ الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن 1/6.

⁵ الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن 2/31.

⁶ البقاعي: برهان الدين أبي الحسن: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: دار الكتب العلمية، بيروت. 1415 هـ، 1995 م. 2/577.

كما حاول السيوطي في كتابه تناسق الدرر في تناسب السور أن يصور من خلاله أنّ القرآن الكريم نصاً متماسكاً محكم البناء؛ فيقول في ذلك: "إنّ القاعدة التي استقر بها القرآن الكريم أنّ كلّ سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه؛ ويضيف قائلاً: وقد استقر معي ذلك في غالب سور طويلها، و قصيرها"¹.

وعندما وزان السيوطي بين ما وقع في القرآن أنّه موزون يشبه الشعر لجأ إلى مفهوم الانسجام لتمييز القرآن عن غيره؛ يقول في ذلك: "وأما ما وجد في القرآن مما صورته صورة الموزون فالجواب عنه أنّ ذلك لا يسي شعرًا لأن شرط الشعر القصد، ولو كان شعرا لكان كل من اتفق له في كلامه شيء موزون شاعراً، فكان الناس كلّهم شعراء لأنّه قلّ أن يخلو كلام أحد عن ذلك، وقد ورد ذلك على ألسنة الفصحاء فلو اعتقدوه شعراً لبادروا إلى معارضته، والطعن عليه لأنهم كانوا أحرص شيء على ذلك، وإنّما يقع ذلك لبلوغ الكلام الغاية القصوى في الانسجام"².

البحث عن الإعجاز: وقد وظّف الزرقاني الاتساق والانسجام خدمة للإعجاز؛ إذ يقول: "وإنه ليستين لك سر هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن، ولا على قريب من هذا النمط لا في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا كلام غيره من البلغاء، وغير البلغاء"³.

المقارنة بين الأساليب العربية والقرآن في توظيف التماسك النصي: وقد عقد صاحب مناهل العرفان في علوم القرآن مبحثاً للمقارنة بين الأساليب العربية، والقرآن في توظيف التماسك النصي حيث جعل الكاتب، والعلماء، والمؤلفين لتلافي النقص في التماسك يضطرهم أن يستخدموا في تنقلاتهم بين أغراضهم من أسماء الإشارة، وأدوات التنبيه، والحديث عن النفس، وكثرة التقسيم، والترقيم، والتبويب، والعنونة، ولفظ أما بعد نحو هذا، وان ألا، وإن قلنا كذا، ونقول كذا ينقسم الكتاب إلى مباحث المبحث الأول في كذا الخ ينقسم هذا المبحث إلى نقاط أولها كذا الخ ملاحظة تنبيهه فذلكة أما بعد الخ. هذا في كلام البشر أما كلام مالك القوى، والقادر فإنّه على تنوع أغراضه وطول نفسه في سورة، وآياته ينتقل من مقصد إلى مقصد وينقلك أنت معه بين هذه المقاصد غير مستعين بوسائل العجز المذكورة بل بطريقة سحرية قد تشعر بها وقد لا تشعر وحسبك أن تنظر في المثال الأنف الذي قدمناه لك في سورة الفاتحة وحبذا أن تنظر في أطول سور القرآن وهي سورة البقرة فإنك ستطرب وتعجب وسيذهب بك الطرب والعجب إلى حد الذوق البالغ لهذا اللون من الإعجاز القاهر، وأدلك على كتاب النبأ العظيم فقد أجاد في بيان هذا اللون وأبدع وأشبع العقول والقلوب وأمتع بما عرض من التناسب والترابط بين أحاد هذه السورة.⁴

تمفصلات التماسك النصي و جذوره في مدونات علوم القرآن: تذهب كثير من الدراسات إلى أنّ مدونات علوم القرآن غنية بالممارسات النصية التي تقترب كثيراً من لسانيات النص؛ فقد حاول صبحي إبراهيم الفقي تتبع التماسك النصي في السور القرآنية مبرراً ذلك بقوله: "لما كان المجال التطبيقي للتحليل النصي - خاصة في الإسهامات الغربية- لم يتعدّ النصوص الصحفية، أو المقالات.. كانت الحاجة قصوى لاختيار نص أدبي من ناحية، ونص مقدس من ناحية أخرى، وفصبح من ناحية ثالثة، وأهم نص تتوافر فيه هذه الشروط القرآن الكريم، ومن ثمّ كان من أسباب اختيار هذا الموضوع حاجة المكتبة إلى تطبيق أصول هذه النظرية الحديثة على نص مقدس"⁵.

¹ السيوطي: جلال الدين تناسق الدرر في تناسب السور: دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1986، 1406، ص: 65.

² السيوطي: جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، ط. الأولى، السعودية 5/1899.

³ الزرقاني: حمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن: 1/ 62.

⁴ المرجع نفسه 2/ 318.

⁵ الفقي: صبحي إبراهيم علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، القاهرة، ص: 16.

والفكر اللغوي العربي اليوم بأمس الحاجة إلى إحياء المخزون التراثي الأصيل، و البحث عن الآليات الملازمة لقراءة التراث، وإحيائه، وتفعيله، والولوج إلى أعماقه، واستنطاق نصوصه بعين الحداثة، لا شك أن ذلك قد يحدد له موقعاً لائقاً به في ركب الحضارة الإنسانية. خاصة مع تزايد الوعي لدى الباحث العربي بأنّ تغير زمن التلقّي، ومكانه سوف يسهمان في تشكيل أفق انتظار جديد، من شأنه الكشف عن المسكوت عنه في هذا التراث، فكان من الضروري مساءلة التراث معرفياً، ومنهجياً تتلمّس من خلاله أسئلة الذات العربية المركزية، أو الهامشية من خلال البحث عن تمفصلات التماسك النصّي، وجذوره في مدونات علوم القرآن، وهي إحدى الإشكالات الكبيرة التي تطرح للنقاش، والبحث ذلك أنّ التراث العربي القديم يزخر بتراث غني، ومتنوع بقضاياه المعرفية؛ وفي ظلّ الانفتاح على الثقافة اللسانية الحديثة، والبحث عن ثقافة، ومقاربة التراث مع المستجدات اللسانية المعاصرة، من حيث المنهجية التي تعامل معها الفكر اللغوي المعاصر، والقضايا المعرفية، والاصطلاحية التي طرحتها الكتابات العربية المعاصرة في تأصيل، وتأسيس التراث بغية نقده، وتمحيصه، ومراجعته لذا البحث عن الجذور؛ وفي ضوء هذا المعطى تحاول الدراسة الوقوف عند الإشكالات المنهجية، والموضوعية المتعلقة بتأصيل مباحث لسانيات النص، والمتمثل في التماسك النصّي محل هذه الدراسة بالعودة للمخزون التراثي، وهل هذا الاهتمام المتزايد باللسانيات النصّية انعكس بالإيجاب في التأصيل، والتأسيس للتراث؟، وهل إصرار وإلحاح بعض الكتابات اللسانية العربية أنّ علماء التراث هم الأسبق في التأصيل لمفاهيم اللسانيات النصّية هي مغالطة علمية، أم حقيقة استطاع الفكر اللساني المعاصر أن يبرهن على صحتها؟ ثم هل كلّ ما وصلت إليه اللسانيات النصّية اليوم موجود في التراث؟، وهل كتابات المعاصرين في مجال اللسانيات النصّية فتحت مجالاً جديداً واسعاً في آفاق اللسانيات، وأسهمت في مدّ جسرٍ بين اللسانيات، والتراث، أم أنّها وقعت في معضلة الغلو؟، وهل حيم للتراث، ودفاعهم عنه أوقعهم في مزالق الإسقاطات؟، وما هي أهم معوقات تأصيل التراث اللغوي القديم في الكتابات اللسانية النصّية المعاصرة؟، وهل هناك ضرورة لإعادة النظر في التأسيس المنهجي لهذه الكتابات اللسانية، وإعادة النظر في الإسقاطات التي مارسته على التراث اللغوي القديم، وكذا البحث عن الآليات التي تسمح قراءة التراث من داخل بنيته لاكتشاف منطقته وهويته، ووظيفته، وهل ما زال الفكر العربي المعاصر بحاجة إلى نسج تصور عن التراث اللغوي القديم، وهل مازال بحاجة إلى إثارة هذه الإشكالات لتقديم الأجوبة المناسبة لها في إطار استكمال المسيرة العلمية، والمنهجية لتأصيل التراث؟، وفي اعتقادي أنّ هذه الأسئلة، والإشكالية التي تمثل المنطلقات الأساسية لمعالجة، ومقاربة البحث عن تمفصلات التماسك النصّي، و جذوره في مدونات علوم القرآن.

الروافد التي أسهمت في الاقتراب من لسانيات النص؛ يقول د. خالد حميد صبري: "لقد أسهم رافدان أساسيان في تأسيس بحثي يقترب من مفهوم الانسجام الذي أسست له لسانيات النص، أحدهما ما عُرف في علوم القرآن بالمناسبة، والأخر منهج تفسير القرآن بالقرآن"¹.

1- المناسبة: لقد تطرقوا في مدوناتهم إلى التناسب بين السورة، والسورة التي تسبقها، وتلك التي تليها؛ بل والمناسبة بين السورة في أول المصحف، ونظيرتها في آخره؛ حتى غدا علم المناسبة علماً قائماً بذاته، له أصوله، وقواعده، وشرفه وأهميته؛ حتى قال الإمام البقاعي في (نظم الدرر): "فلذلك كان هذا العلم يقصد علم المناسبات. في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير؛ نسبة علم البيان من النحو"².

¹ صبري: خالد حميد: اللسانيات النصّية في الدراسات العربية الحديثة بحث في الأطر المنهجية والنظرية: دار لامان، منشورات الاختلاف، ومنشورات ضفاف، ط. الأولى، الرباط، الجزائر، بيروت، 1436 هـ، 2015 م، ص: 189.

² البقاعي: برهان الدين أبي الحسن: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: دار الكتب العلمية، ط. الأولى، بيروت، 1415 هـ، 1995 م 1/1.

ويرى محمد عبد الباسط عيد أنّ المناسبة مرتبطة بالنص القرآني، ومقتصرة عليه، فهي لا تبحث فيما إذا كان النص مناسباً أو لا، إنّها تنطلق أساساً من الإيمان بوجود التناسب، وكلّ ما يراد من البحث هو الكشف عن ذلك فقط، وتجليته.¹ ونقل السيوطي عن ابن العربي في (سراج المريدين) ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلنة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه.² وقد أفرد له الزركشي في البرهان فصلاً تحت عنوان "معرفة المناسبات بين الآيات"؛ إذ يقول في ذلك: "واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة المقاربة، و فلان يناسب فلاناً أي، يقرب منه، ويشاكله ومنه النسب الذي هو القريب المتصل كالأخوين، وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما، وهو القرابة، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس الوصف المقارب للحكم لأنّه إذا حصلت مقاربتة له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها والله أعلم

لقد حاولت مدونات علوم القرآن أن تبرهن أنّ الترابط الحاصل بين الآيات، أو السور يرجع بالأساس إلى رابط ما يربط بينهما كما كان يقول الزركشي في البرهان سواء العام، أو الخاص العقلي، أو الحسي، أو الخيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب، والمسبب، والعلة، والمعلول، والنظيرين، والضدين، ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر".³

إنّ هذا التناسب، والترابط بين أجزاء الكلام فائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء".⁴

وعدّت المناسبة من أهم مزايا النص القرآني حيث عقد له السيوطي فصلاً النوع الثاني والستون في مناسبة الآيات والسور⁵؛ فقد قال: إنّ الترابط بين أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء فنقول ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم ببعضه وبعضه بالأساس فواضح. وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد، أو التفسير، أو الاعتراض، أو البديل، وهذا القسم لا كلام فيه، وإما إلا يظهر الارتباط؛ بل يظهر أنّ كلّ جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به.⁶

كما حاول جلال الدين السيوطي في معترك الأقران في إعجاز القرآن أن يحدد على وجه الدقة كيفية الوقوف على تناسب النص القرآني؛ فيقول: "الأمر الكلي المفيد للعرفان مناسبة الآيات في جميع القرآن هو أنّك تنظر إلى الغرض الذي سيقى له السور، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب، والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في مقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام، واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة

¹ انظر: عيد: محمد عبد الباسط: النص والخطاب قراءة في علوم القرآن: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط1، مصر، 2009، ص:38.

² السيوطي: جلال الدين: الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، ط. الأولى، السعودية. 1837/5.

³ الزركشي: بدر الدين: البرهان في علوم القرآن: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط. الأولى، مصر، 1376 هـ-1957م 36-35/1.

⁴ المصدر نفسه 36/1. السيوطي: جلال الدين: الإتيان في علوم القرآن 1840/5.

⁵ السيوطي: جلال الدين: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 1836/5.

⁶ المصدر السابق 1840/5.

شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المعين على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته بين لك وجه النظم مفصلاً بين آية، وآية في كل سورة، وسورة¹.

ويقول أيضاً في الإتيان: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقته له السورة وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة"²؛ فهذه ليست إشارات عابرة، ولكن نص مؤسس يؤسس لمستوى كلي في النظر للنص التزم به كثير من مدونات علوم القرآن كما فعل السيوطي، والزركشي، والبقاعي، والزرقاني، وغيرهم؛ لعل هذا ما دفع محمد عبد الباسط عيّد يعتقد أنّ فرض هذا التصور للنص القرآني دفع مصنفه لوم القرآن أن يبحثوا في كلّ ما من شأنه أن يقيم تناسب النص على مستوى اللغة، والمضمون، وهذا بالضبط جوهر البحث في علم النص³.

تفسير القرآن بالقرآن: والرافد الثاني الذي أسهم في بلورة تصور يمكن عدّه يقترب من مفهوم التماسك²- الذي أسست له لسانيات النص تفسير القرآن بالقرآن، إنّه من الشطط الاعتقاد أنّ جميع مدونات علوم القرآن كانت تفسر القرآن بالقرآن، وهذا يدفعنا لتسجيل ملاحظة مهمة أنّ ذلك لا يطرد مع جميع مدونات علوم القرآن، وهو ما قد ينسحب على مجمل التراث كما كان يرى تمام حسان ذلك أنّ تناول في المنهج التراثي كان يعتمد في شرحه على المفردات، ولم يكن ينظر إلى مجمل النصّ لالتماسه فهمه باعتباره وحدة عضوية تجعل النصّ يفسر النصّ..⁴، ومع ذلك لمسننا وعياً عندهم نحو هذا التوجه؛ فقد عقد الزركشي في البرهان فصلاً تحت عنوان أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن⁵.

وهو الاعتقاد الذي لمسنناه عند الزركشي في هذا الفصل الذي عقده في كتابه حينما كان يقول إنّ أحسن طريق التفسير أنّ يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في آخر فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنّها شارحة للقرآن⁶.

وقد قالوا إنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته⁷.

وهذا دليل على إدراكهم، وعنايتهم بمفهوم التماسك النصّي ليس على مستوى الآية، والآية، والسورة، والسورة؛ بل على مستوى القرآن كلّّه، وحتى على مستوى السنة؛ بل كانوا يرون أنّ القرآن كلّّه كالسورة الواحدة⁸.

¹ السيوطي: جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار الفكر العربي، ط. 1، القاهرة، 1973، 1/55.

² السيوطي: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 5/1846.

³ عيّد: محمد عبد الباسط: النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ص: 21.

⁴ انظر: ذي بوجراند: روبرت: النص والخطاب والإجراء: ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، ط. 1، القاهرة 1998، ص: 4.

⁵ الزركشي: البرهان في علوم القرآن 2/175.

⁶ المصدر السابق/175.

⁷ الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن 2/52.

⁸ انظر: السيوطي: الإتيان في علوم القرآن 4/1161، و الزركشي: البرهان في علوم القرآن 3/80.

من أدوات التماسك النصي الموظفة في مدونات علوم القرآن الحذف: وظَّف الزركشي في البرهان الحذف في معرض حديثه عن الترابط؛ منها قوله تعالى [أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ] ¹؛ فيقال: أي ارتباط بينهما؟ وجوابه أن المبتدأ وهو {مَنْ} خبره محذوف أي أفمن هو قائم على كل نفس تترك عبادته، أو معادل الهمزة تقديره أفمن هو قائم على كل نفس كمن ليس بقائم ووجه العطف على التقديرين واضح أما الأول فالمعنى أتترك عبادة من هو قائم على كل نفس ولم يكف الترك حتى جعلوا له شركاء وأما على الثاني فالمعنى إذا انتفت المساواة بينهما فكيف تجعلون لغير المساوي حكم المساوي ²؛ وفي موضع آخر يقرر إنَّما يحسن الحذف إذا كان فيه زيادة مبالغة، والمحذوفات في القرآن على هذا النمط ³.

من أدوات التماسك الموظفة في مدونات علوم القرآن العطف: منها قوله تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ] إلى قوله: [وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ⁴، حيث عطف قصة على قصة مع أن شرط العطف المشاكلة فلا يحسن في نظير الآية { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ } ⁵ [أَوْ كَالَّذِي]، ووجه ما بينهما من المشابهة أن {أَلَمْ تَرَ} بمنزلة هل رأيت كالذي حاج إبراهيم، وإنَّما كانت بمنزلتها لأن {أَلَمْ تَرَ} مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي ولذلك يجاب ببلى والاستفهام يعطي النفي إذ حقيقة المستفهم عنه غير ثابتة عند المستفهم ومن ثم جاء حرف الاستفهام مكان حرف النفي، ونفي النفي إيجاب فصار بمثابة رأيت غير أنه مقصود به الاستفهام ولم يمكن أن يؤتى بحرفه لوجوده في اللفظ فلذلك أعطى معنى هل رأيت فإن قلت من أين جاءت إلى ورأيت يتعدى بنفسه؟ أجيب لتضمنه معنى تنظر ⁶.

وظَّف الزركشي العطف في معرض حديثه عن أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض؛ حيث قسم الزركشي التماسك إلى قسمين، قسم ركز فيه على ارتباط الآي بعضها ببعض فيقول: ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام ببعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، كذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد، والتفسير، أو الاعتراض، والتشديد وهذا القسم لا كلام فيه؛ وقسم آخر يظهر الارتباط بين كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به، فإما أن تكون معطوفة على: ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم أولاً؛ القسم الأول: أن تكون معطوفة ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه؛ كقوله تعالى [يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ] ⁷؛ وقوله: [وَاللَّهُ يَفْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] ⁸، وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين، والشريكين.

وقد تكون العلاقة بينهما المضادة، وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة، وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق ثم يذكر آيات التوحيد، والتنزيه ليعلم عظم الأمر، والناهي، وتأمل سورة البقرة، والنساء، والمائدة، وغيرها تجده كذلك، وقد تأتي الجملة معطوفة على ما قبلها، وبشكل وجه الارتباط فتحتاج إلى شرح ونذكر من ذلك صوراً يلتحق بها ما هو في معناها ⁹.

¹ سورة الرعد، الآية: 33.

² الزركشي: البرهان في علوم القرآن 46/1

³ المصدر نفسه 2/274.

⁴ سورة البقرة، الآية: 258.

⁵ سورة الفرقان، الآية: 45.

⁶ الزركشي: البرهان في علوم القرآن 46/1.

⁷ سورة سبأ، الآية: 2.

⁸ سورة البقرة، الآية: 245.

⁹ الزركشي: البرهان في علوم القرآن 40/1.

ومن أدوات التماسك الموظفة في مدونات علوم القرآن الحذف؛ حيث نقل السيوطي عن حازم في منهاج البلغاء إتما يحسن الحذف لقوة الدلالة عليه، أو يقصد به تعديد أشياء من فيكون في تعدادها طول وسأمة فيحذف ويكتفي بدلالة الحال، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفي بالحال عن ذكرها؛ قال ولهذا القصد يؤثر في بالمواضع التي يراد بها التعجب، والتهويل على النفوس، ومنه قوله في وصف أهل الجنة [وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا] ¹، فحذف الجواب إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه وتركت النفوس تقدر ما شاءته ولا تبلغ مع ذلك كنه ما هنالك ².

ومن العلاقات التي وظفوها العلاقة المقامية: يقول الزركشي قد تأتي الجملة معطوفة على ما قبلها ويشكل وجه الارتباط فتحتاج إلى شرح ونذكر من ذلك صوراً يلتحق بها ما هو في معناها، فمما قوله تعالى [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا] ³ الآية؛ فقد يقال أي رابط بين أحكام الأهل وبين حكم إتيان البيوت والجواب من وجوه؛ أحدها: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهل، ونقصانها معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة، ومصالحة لعباده فدعوا السؤال عنه، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء، وأنتم تحسبونها برا:.

الثاني: أنه من باب الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، وكان هذا من أفعالهم في الحج ⁴. كما أنهم استعملوا آلية التكرار للحديث عن انسجام، وتماسك القرآن، فقد ذكر السيوطي من ذلك تكرير القصص كقصة آدم، وموسى، ونوح، وغيرهم من الأنبياء؛ حتى قال بعضهم ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه؛ وقال ابن العربي في القواصم ذكر الله قصة نوح في خمس وعشرين آية وقصة موسى في تسعين آية؛ ثم فصل الحكمة من تكرير القصص: منها أن في كل موضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة، وهذه عادة البلغاء. - ومنها أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن، ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون ما نزل بعد صدور من تقدمهم فلولا تكرار القصص لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم آخرين، وكذا سائر القصص فأراد الله اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة لقوم، وزيادة تأكيد لآخرين.

- ومنها أن في إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة ما لا يخفى من الفصاحة
- ومنها أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام فلماذا كررت القصص دون الأحكام
- ومنها أنه تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا ثم أوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله أي: بأي نظم جاءوا، وبأي عبارة عبروا
- ومنها أنه لما تحداهم؛ قال [فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ] ⁵، فلو ذكرت القصة في موضع واحد واكتفي بها لقال العربي اتئون أنتم بسورة من مثله فأنزلها سبحانه وتعالى في تعداد السور دفعاً لحجتهم من كل وجه.
- ومنها أن القصة لما كررت كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم وجذب النفوس إلى سماعها لما جبلت عليه من

1 سورة الزم، الآية: 73.

2 السيوطي: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 1601/5.

3 سورة البقرة، الآية: 189.

4 الزركشي: البرهان في علوم القرآن 1/40-41.

5 سورة يونس، الآية: 38.

حب التنقل في الأشياء المتجددة، واستلذاهاها، وإظهار خاصة القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هجنة في اللفظ، ولا ملل عند سماعه فباين ذلك كلام المخلوقين.¹

- ومنها التقرير وقد قيل الكلام إذا تكرر تقرر، وقد نبه تعالى على السبب الذي لأجله كرر الأفاصيص، والإنذار في القرآن.² ومن مظاهر التماسك الموظف في مدونات علوم القرآن الإحالة باسم الإشارة: من ذلك افتتاح سورة البقرة بقوله: [الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ] ³؛ فإنه إشارة إلى الصراط في قوله: [وَهَدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] ⁴، كأنهم لما سألو الهداية إلى الصراط قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه؛ هو الكتاب، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفتحة⁵؛ فاسم الإشارة "ذلك" جاء بدلاً من الآية السابقة عليها مباشرة، فكان هذا الاستدلال عاملاً على التماسك النصي بين الآيات الكريمة.

وقد تحدث الزركشي عن لام الابتداء في قوله تعالى: [إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ] فقال: وهي تفيد تأكيد مضمون الجملة، ولهذا زحلقتها في باب إن عن صدر الجملة كراهية ابتداء الكلام المؤكدين، ولأنها تدل بجهة التأكيد، وإن تدل بجهتين العمل، والتأكيد، والبدال بجهتين مقدم على الدال بجهة كنهية في الإرث، وغيره وإذا جاءت مع

إن كان بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات لأنَّ إن أفادت التكرير مرتين، فإذا دخلت اللام صارت ثلاثاً.⁶

إشكالية التأسيس: إشكالية تأصيل التراث في الفكر العربي المعاصر والبحث عن الشرعية: أخذت إشكالية

تأصيل التراث في الفكر العربي المعاصر تُطرح منذ بدأ رواد النهضة العربية العمل على إحياء التراث، وقد دعا

أكثر من باحث لضرورة الربط بين التراث اللغوي، والدراسات اللسانية الحديثة، وفي اعتقادي هذا ليس مشكلة، وليس محل الدراسة؛ يقول عبده الراجعي في هذا الصدد: "الاتصال بالتراث من ناحية، والاتصال بالمنهج الحديث في تطوره السريع من ناحية أخرى واجب علمي، وواجب قومي، لا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف"⁷، هناك رغبة واضحة وملحة في محاولة ربط النظريات الغربية بالتراث، وقد صرح بذلك أكثر من باحث: الصبيحي⁸، والهنساوي⁹، وحجازي¹⁰، وهدي صلاح رشيد¹¹، حافظ إسماعيل علوي، امحمد ملاح.¹²

هذه الرغبة الجامحة هي التي أوقعت لسانيات التراث في الكتابة الإسقاطية، وهي التي دفعت بعض المعاصرين في تأصيلهم للتراث، ومقاربة الفكر اللغوي القديم في منطلقاته، وتصورات، ومفاهيمه في ضوء اللسانيات الحديثة للبحث عن الشرعية للوجود اللساني في الذاكرة العربية، بغية إخضاعه للفحص اللساني المعاصر.

¹ السيوطي: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 5/1654-1656.

² المرجع نفسه 5/1648.

³ سورة البقرة، الآية: 1-2.

⁴ سورة الفاتحة، الآية: 6.

⁵ الزركشي: البرهان في علوم القرآن 1/40-41، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن 1/38.

⁶ الزركشي: البرهان في علوم القرآن 2/408.

⁷ الراجعي: عبده: النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1998، ص: 7.

⁸ الصبيحي: محمد الأخضر: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه: الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف ط. 1، الجزائر، بيروت، 2008، ص: 139.

⁹ انظر: الهنساوي: حسام: أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي، مكتبة الثقافة الدينية الحديث، 1994.

¹⁰ حجازي: محمود فهد علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة: دار غريب، القاهرة 1995، ص: 3.

¹¹ صلاح رشيد: هدي: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب: منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، دار لآمان الرباط، ط. الأولى، بيروت

2015، م. 1436 هـ.

¹² حافظ إسماعيلي علوي، امحمد ملاح: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات العربية: منشورات الدار للعلوم ناشرون، والاختلاف، ط. الأولى بيروت، الجزائر. 1430 هـ، 2009 م

إنّ التساؤلات المرجعية المؤسسة لإشكاليات التأسيس النظري للعلوم اللغوية ، والتي تأسست بالأساس خدمة لفهم القرآن الكريم ، فوحدة التأسيس لهذه العلوم اللغوية، والمرجع الذي استمدت منه حدوده المعرفية، ووحدة المنهج، ومحورية النصّ القرآني المقدس كلّها قد ساهمت في تجسيد هذا التماسك.

أسبقية التراث في التأصيل لمفاهيم اللسانيات الحديثة: إصرار كثير من الباحثين أنّ علماء التراث هم الأسبق في التأصيل لمفاهيم اللسانيات ، كل ذلك يحفز البحث في هذه القضية، هل هي مغالطة علمية أم حقيقة استطاع الفكر اللغوي المعاصر أن يبرهن على صحتها؟ لذلك وقع الباحث اللغوي في الغلو والإسقاط وهو يحاول أن يبرهن على أسبقية التراث، وهذا ما نلمسه عند الباحثة هدى صلاح رشيد؛ إذ تقول: "...على الرّغم من أنّ معظم الحقائق - تقصد ما وصلت إليه اللسانيات في أوروبا ، وأمريكا- التي اشتمل عليها، واحتواها كانت قد أقرها الواقع اللغوي العربي القديم منذ أزمان بعيدة ضاربة في القدم...¹ بل نراها تذهب أبعد من ذلك حينما سوغت لنفسها أن تجعل كلّ نظرية لسانية ظهرت في العالم الغربي إنّما هي مدينة للفكر التراث العالمي ومنه التراث العربي.²

وهذا الإصرار دفعهم للوقوع في المبالغة و الغلو ؛ تقول: د.نهر هادي : "...بناء على ذلك يحق لطلاب العربية أن يقولوا إنّ للعلماء العرب القدامى علم النصّ غير بعيد في بعض من وجوهه ممّا جاء به المحدثون اليوم".³ ولعل هذا ما دفع عبد الغفار حامد هلال أن يقع في الغلو وهو يبحث عن أسبقية التراث اللغوي العربي القديم لذلك يجعل البحوث اللغوية التراثية العربية هي الأساس الذي تنى عليه الغربيون مستحدثاتهم في مختلف الدراسات اللغوية، ثمّ نراه يغلي أكثر حينما يقرر أنّها حتى لو نسبت للغرب في مظهرها الحالي، فإنّ الناظر في جوهرها يلمح فيها الأصل العربي الذي نمت وترعرعت في جذوره.⁴

و د.يوسف سليمان عليان يقول: إنّ البحث النصّي والبحث السياقي ليس من مبتكرات الغرب مثلما يروّج له بغض الدارسين، والذين لا يريدون الخير للثقافة العربية، إنّما هي مفاهيم ولآليء موجودة في كتب السلف الصالح من النحويين، والبلاغيين ، والأصوليين.⁵

كما حاولت الباحثة هدى صلاح رشيد البحث عن مبررات التوجه لتأصيل التراث اللغوي العربي على ضوء النظريات الغربية ، لكنّها في اعتقادنا وقعت في الغلو حينما جعلت ذلك لزاماً؛ فتقول في ذلك : "من أجل ذلك صار لزاماً علينا أن نبحث على أصول هذا العلم في الدرس اللغوي العربي... ثمّ كشفت عن طبيعة الدراسة التي تبنتها هي محاولة النظر إلى هذا المنجز نظرة تأصيلية، تبين الأصول العربية القدامى لهذه الأفكار، والنظريات.⁶

ولذلك نراها تدافع على الطرح بقوة ، وتلتمس له الأعذار، وهي تبحث على شرعية تأصيل التراث؛ فتقول عن هذا الخيار: وهذا ما يعلي من شأن التفكير اللساني العربي القديم، ومن ثمّ يعطي لمثل هذا التأصيل - الذي نسعى إليه- شرعيته.⁷

¹ صلاح رشيد: هدى: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، ص: 25.

² المرجع نفسه، ص: 26.

³ نهر: هادي علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: عالم الكتب الحديث، ط. 2008، 1، ص: 393.

⁴ حامد هلال: عبد الغفار علم اللغة بين القديم والحديث: دار المعارف، مصر: ط. 1423، 4، 2002 م، ص: 32.

⁵ عليان: يوسف سليمان: النحو العربي بين نحو الجملة ونحو النصّ مثل كتاب سيبويه:، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد 7، العدد 1، الأردن، المحرم 1433 كانون الثاني، 2011، ص: 228.

⁶ صلاح: هدى رشيد: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب: ص: 12.

⁷ المرجع نفسه، ص: 27.

البحث عن الأسبقية: تقول: د.نهر هادي: "...بناء على ذلك يحق لطلاب العربية أن يقولوا إنَّ للعلماء العرب القدامى علم النَّص غير بعيد في بعض من وجوهه ممَّا جاء به المحدثون اليوم".¹

و هذا ما جعل وليد محمد مراد يقول: "إنَّ فكرنا اللغوي سابق لأحدث النظريات اللغوية في العصر الحاضر، وفي كثير من القضايا..."².

إنَّ البحث عن تأصيل الجذور التراثية بكلِّ تشعباته شكلاً رهاناً استراتيجياً، وتحدياً معرفياً للفكر اللغوي المعاصر الذي سعى لتفعيل تراثه اللغوي، والبحث على المصادقية التي تؤصل لأسبقية التراث العربي، بيد أنَّ الإشكال الكبير في طبيعة البحث عن هذه الجذور التي اختلفت مقارباتها، وقراءاتها، وآلياتها، ومرجعياتها؛ ولذلك رفض، و أعاب د.خالد حميد صبري على بعض الدارسين غلوهم ومبالغتهم في أسبقية التراث؛ إذ يقول: "إنَّ ارتباط هذه الدراسات بنص محدد هو القرآن يُعدُّ ممارسة نصية بلا شك، ويقترَّب في كثير من وجوهه من بعض المفاهيم التي تنادي بها لسانيات النص،.. ثمَّ نراه يعيب على بعض الدارسين غلوهم في التَّأصيل لأسبقية التراث في التَّأصيل لمفاهيم اللسانيات النَّصية؛ فيقول: لكن هذا الاقتراب لم يكن سبباً في تبلور مجال معرفي عربي أو إسلامي يُخصَّص لدراسة النصوص، وتحليلها، وبذلك يغدو توصيف هذا الاقتراب بأنَّه سبق تاريخي للسانيات النَّص أمراً غير دقيق".³

الخاتمة: يكاد يجمع من يبحث في لسانيات النَّص أنَّ كثيراً من الأفكار التي تبنتها لسانيات النَّص، والنظرات النَّصية بزغت من بُحوث في البلاغة القديمة.⁴

والمستقرئ لنصوص التراث يتلمس فيها مصطلحات لمفاهيم لسانيات النص كالحذف، و التقديم والتأخير، و الوصل والفصل، والزيادة، والحيك، والسبك... كما نجده اليوم عند هاليداي في حديثه عن اتساق النص، و فان ديك، و روبرت ديبيجراند، وولفغانغ دريسلر؛ والحق أنَّ من يقرأ الاتساق كآلية، ومفهوم وفق لسانيات النَّص في التراث عموماً بتجرد يجده من المصطلحات التي خاض فيها الدارسون العرب قديماً، وتوصلوا إلى حقائق مهم؛ ومع ذلك فهذه الورقة البحثية لا تدعى - ولا ينبغي لها أن تدعى- الإحاطة بكلِّ تمفصلات التماسك النَّصي، واستقصاء جميع جذوره في مدونات علوم القرآن، ولم يكن هدفها رصد جميع محطات هذا التماسك بكلِّ تفاصيله، ورؤاه في مدونات علوم القرآن لأنَّ هذا العمل يحتاج في حقيقة الأمر لأكثر من جهد باحث، كما يحتاج إلى فضاء أرحب التي لا تسمح به هذه الدراسة على الرَّغم من أهميته في رصد الذاكرة التاريخية للأمة، ولكمَّها حاولت جاهدة القبض على مفاصل هذا التماسك النصي بما يفي بالعرض في المساحة الممنوحة لي في هذه السانحة العلمية على الرَّغم من أهمية هذا المشروع في إعادة قراءة التراث العربي قراءة متأنية، و مستبطنة حتى لا يؤدي إلى الانفصام بين الدرس التراثي القديم، واللسانيات؛ بل حاولت الدراسة الوقوف على مراجعة الأسئلة التي شغلت بال علماء السلف، والتي تختلف جذرياً عن أسئلة اللسانيات المعاصرة، كما حاولت أن تقدم تصوراً حول واقع تمفصلات وجذور هذا التماسك في مصنفات علوم القرآن لتكشف عن التصورات التي انطلق منها علماء القرآن، والوقوف عن أسباب التأسيس دون الوقوف على التفاصيل، ولكن حسبها أن تكون قد أثارَت بعض الأسئلة، وطرحَت بعض الإشكالات، وأنارت بعض المساحات المظلمة، وكشفت عن بعض المواطن الخفية، وأسهمت بشكل، أو بآخر في تجلية الظاهرة، وبلورتها وفق الرؤية التي ارتضها البحث الذي لا يؤمن بالإجابات القطعية، والأحكام

¹نهر: هادي: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، ص: 393.

²المرجع السابق، ص: 175.

³ صبري: خالد حميد: اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة بحث في الأطر المنهجية والنظرية. ص: 200.

⁴بحيرى: سعيد حسن علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات مؤسسة المختار للنشر والتوزيع: 2004 م، ص: 29.

المبرمة عن الذات في علاقتها بالحقيقة حتى لا يغدو الحديث عن لسانيات عربية معاصرة وهم من الأوهام، فقد ظلَّ رهان كلِّ اللسانيين العرب هو إثبات مشروعية اللسانيات العربية، وكانت قراءتهم للتراث لا تعدو إلا خدمة لهذا المشروع.

ولا شك أنَّ هاجس التراث يحرك المراجعة النقدية، والتأمل الفكري في حوارات المثقفين، لذلك نؤكد أنَّ الأسئلة التي طرحتها هذه الورقة البحثية على نفسها ليس بالضرورة أن تجد الحلَّ الحاسم لها غداً، ولكنَّها تبقى تُصِرُّ على طرحها، وتدعو الباحثين لمناقشتها مناقشة علمية هادئة هادفة بعيدة عن الارتجالية وردت الأفعال الآنية، والمرحلية؛ فلا يزال السؤال مطروحاً حتى نصل إلى الإجابة المُناسبة، والعلاج الشافي الذي من

خلاله يمكن أن يسرِّد التراث حيويته، ومكانته، وتستردُّ الأمة مزيداً من ملامح شخصيتها، ومكانتها.

يمكن أن تتعدد الرؤى، والتصورات، والرهانات، والأطروحات في تفسير جذور التماسك النصي في مدونات علوم القرآن نصياً، أو إثباتاً، لكن لا ينبغي الاختلاف حول ضرورة توحيد الجهود للارتقاء بالتراث؛ فالخطر ليس في العودة للتراث، إذ على الرغم من تباين الآراء، واختلاف وجهات النظر بين الباحثين حول تمفصلات التماسك النصي، و جذوره في مدونات علوم القرآن، لكن لا ينبغي الاختلاف حول تعزيز، وتعميق فهم التراث، والحفاظ عليه من عوامل الطمس الذي يتعرض له.

النتائج:

- إمكانية الاستفادة من التراث العربي القديم في الدراسات اللسانية المعاصرة إذا توفرت الشروط الموضوعية، والمنهجية.
- قابلية التراث العربي القديم لمحاورة الأفكار، والمناهج، والنظريات الغربية.
- إنَّ الكتابات التي حاولت أن تؤصل للجذور التراثية بعين وثقافة اللسانيات المعاصرة دون التفات إلى السياقات المختلفة التي ساهمت في إنشاء هذا التراث بأبعاده المختلفة تفقد هذه المشاريع، والقراءات كثيراً من مصدقياتها، وتصبح من دون جدوى.
- لقد تجاوزت مدونات علوم القرآن حدود الجملة، وهي تبحث عن الترابط بين السور.
- التماسك النصي الموظف في مدونات علوم القرآن ليس مجرد ترابط شكلي تجريدي؛ بل هو ظاهرة ترتبط في سياق البحث عن إعجاز القرآن، فهي ظاهرة ديناميكية تأويلية في الفهم المعرفي.
- التماسك النصي كان حاضراً بشكل لافت في كتب علوم القرآن، فقد جعلوه شرطاً أساسياً من شروط النص القرآني.
- إننا نعتزف بوجود ملامح التماسك النصي لكن دون غلو، أو إسقاطات تعسفية.
- كثير من المشاريع التي حاولت البحث عن الجذور التراثية ربطته بالبعد الأيديولوجي مما انعكس على قراءات التراث، وتوجيهه.
- عرفت الدراسات التراثية على مستوى التصور النظري إشباعاً غير مسبوق، أما في الممارسة التطبيقية فنلاحظ هناك نقص كبير لذا يجب ردم الفجوة التي تفصل بين ظهور البحوث النظرية، وبين تطبيقاتها.
- لذا ينبغي الاهتمام بالجوانب التطبيقية جنباً إلى جنب مع النواحي النظرية.

التوصيات:

- الدعوة لإنشاء نظرية تكاملية للتراث يتم من خلالها تقديم منهج جديد في تقويم التراث، وهو منهج يُعدّ في عمقه واجهة لأصحاب المشاريع الداعية والساعية إلى إعادة قراءة التراث العربي في ضوء المناهج الغربية الحديثة.
- الابتعاد عن توظيف التراث بطريقة انتقائية، بحيث يتم استدعاء التراث عندما يكون في خدمة الفكرة، بينما يتم استبعاده عندما يناقض الفكرة المراد نصرتها.

المصادر والمراجع:

- 1- بحيرى: سعيد حسن علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات مؤسسة المختار للنشر والتوزيع: 2004م.

- 2- البقاعي: برهان الدين أبي الحسن: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: دار الكتب العلمية، ط. الأولى، بيروت، 1415 هـ، 1995 م.
- 3- الهندساوي: حسام: أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي، مكتبة الثقافة الدينية الحديث، 1994.
- 4- الحاج صالح: عبد الرحمن: اللغة العربية وتحديات العصر في البحث اللغوي وترقية اللغات:، محاضرة أقيمت في الندوة الدولية حول . اللغات العالمية"، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر أيام 6-8. نوفمبر 2000. مكانة اللغة العربية
- 5- حجازي: محمود فهمي علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة: دار غريب، القاهرة 1995.
- 6- حافظ إسماعيلي علوي، امحمد ملاح: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات العربية: منشورات الدار للعلوم ناشرون، والاختلاف، ط. الأولى بيروت، الجزائر. 1430 هـ، 2009 م.
- 7- حمداوي: جميل: محاضرات في لسانيات النص: منشورات الألوكة.
- 8- حامد هلال: عبد الغفار علم اللغة بين القديم والحديث: دار المعارف، ط. 4 مصر، 1423 هـ، 2002 م، 8
- 9- ذي بوجراند: روبرت: النص والخطاب والإجراء: ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، ط. 1، القاهرة 1998.
- 10- الراجحي: عبده: النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية. 1998.
- 11- الزرقاني: حمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن: طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط. الثالثة، مصر .
- 12- الزركشي: بدر الدين: البرهان في علوم القرآن:، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط. الأولى، مصر، 1376 هـ - 1957 م.
- 13- السيوطي: جلال الدين: الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، ط. الأولى، المملكة العربية السعودية.
- 14- السيوطي: جلال الدين تناسق الدرر في تناسب السور: دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 1986، 1406.
- 15- السيوطي: جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط. 1، القاهرة، 1973،
- 16- صلاح رشيد: هدى: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب: منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، دار لآمان الرباط،، ط. الأولى، بيروت 1436 هـ، 2015 م.
- 17- صبري: خالد حميد: اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة بحث في الأطر المنهجية والنظرية: دار لآمان، منشورات الاختلاف، ومنشورات ضفاف، ط. الأولى، الرباط، الجزائر، بيروت، 1436 هـ، 2015 م.
- طه: عبد الرحمن الحق العربي في الاختلاف الفلسفي: المركز الثقافي العربي، ط. 1، المغرب 2002، 18-
- 19- الصبيحي: محمد الأخضر: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه: الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف ط. 1، الجزائر، بيروت، 2008.
- 20- عمارة: محمد: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1996.
- 21- عفيفي: أحمد نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي: مكتبة زهراء الشرق، ط. 1، القاهرة 2006.

- 22- عليان: يوسف سليمان: النحو العربي بين نحو الجملة ونحو النص مثل كتاب سيويه: ، المجلة الأردنية في اللغة العربية وأدائها، المجلد 7، العدد 1، الأردن، المحرم 1433 كانون الثاني 2011.
- 23- عيد: محمد عبد الباسط: النص والخطاب قراءة في علوم القرآن: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي ، ط 1، 2009.
- الفاقي: صبحي إبراهيم علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر 24- والتوزيع، ط 1، القاهرة.
- ، ط 1، القاهرة. 25- مارتيني: أندري: وظيفة الألسن وديناميتها: عرض سلطان ناصر الدين الثقافية العدد 22، البحرين 1999.
- 1984.. تونس 26- المسدي: عبد السلام قاموس اللسانيات: الدار العربية للكتاب
- 27- الميساوي: خليفة: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم: كلمة للنشر والتوزيع، دار لمان، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف ، ط. الثانية تونس، الرباط، الجزائر، بيروت. 1436-2015.
- نهر: هادي علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: عالم الكتب الحديث ، ط 1، ، 2008. 28.
- .m.a.and R.Hassan.london1976.: Cohésion in English: 29- Haliday

جماليات التناس الديني في ديوان "ترجمان الأشواق" لابن عربي

د. ليلى قاسمي

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله - الجزائر

الملخص:

تعالج هذه المقاربة آلية التناس التي تدرس انفتاح النصوص و تعالقتها فيما بينها، و الأثر الجمالي الذي تركه عند المتلقي. و بالتحديد التناس الديني في ديوان "ترجمان الأشواق" لابن عربي، باعتبار أن القرآن الكريم، و الحديث النبوي الشريف مصدران مهمان من مصادر الإلهام، فقد تعالقت هذه النصوص الشعرية مع النص القرآني على مستويين أساسيين أولهما مستوى الآية و ثانيهما على مستوى القصة القرآنية. و جاء التناس الديني في الديوان محل الدراسة من أجل تعميق التجربة الشعرية و الشعورية و إشراك القارئ فيها حتى يعي حاضره و يستشرف مستقبله.

الكلمات المفتاحية :

التناس ، التعالق النصي ، القرآن الكريم ، الحديث النبوي الشريف ، النص الشعري ، القصة القرآنية ، الآية الكريمة.

Abstract

The present approach deals with the intertextuality mechanism which studies the openness of texts and their interference, and particularly **Quranic intertextuality in the divan « Tourdjoumane Alachwak » of Ibn Arabi**, since the Holy Quran; and Hadit Nabawi is an important source of inspiration. These poetic texts interfered with the Quranic text on two fundamental levels: the first one is on the verse level, and the second on the Quranic story. The intertextuality with the Holy Quran comes in order to deepen the poetic experience, and so that the reader takes part in it by realizing his present and outlook his future.

Keywords: Intertextuality - Text interference - Holy Quran - Poetic text- Quranic story- Verse.

يتأسس التناس كمفهوم نقدي خطي باهتمام الباحثين و النقاد على مبدأ الطابع الحوارية الذي وصفه ميخائيل باختين "Mekhail Bakhtine"، واستغلته بعد ذلك الباحثة "جوليا كريستيفا" (Julia Kristiva) لتعلن عن ظهور مصطلح التناس في النظرية النقدية الحديثة من خلال أبحاثها، حيث استطاعت "أن تقترح رؤية نقدية جديدة تؤكد انفتاحية النص الأدبي على عناصر لغوية و غير لغوية (إشارية رمزية) متجاوزة بذلك التصور البنيوي الذي يلح على مفهوم البنية و الرؤية الاجتماعية التي تركز على الوثيقة مشيدة في الآن نفسه لشعرية جديدة تنظر إلى النص كملفوظ لغوي و اجتماعي في آن واحد"¹. و تعد أعمال "جيرار جينيت" (Gerard Genette) النقدية من أهم التأصيلات النظرية و خاصة كتابه "أطراس" (Palimpsestes)، حيث قدم مشروعاً متميزاً و الموسوم "المتعاليات النصية" (Transtextualités) حيث يؤكد بأنها "كل ما يجعل نصاً ما يتعلق بنصوص أخرى بشكل مباشر و ضمني"²، و بناء على ذلك قسم جيرار جينيت المتعاليات النصية إلى

¹ - عبد القادر بقشي : التناس في الخطاب النقدي و البلاغي (دراسة نظرية و تطبيقية)، إفريقيا الشرق، دط، المغرب، 2007، ص: 19.

² - Gerard Genette : Palimpsestes, éd, du seuil, Paris – France, 1982, p :07.

خمسة أنواع من الأنماط هي: التناص (Intertextualité)، المناص (Paratexte) و الميتانص (Méta texte) و النص اللاحق (Hypertexte) و معمارية النص (Architexte).¹

وتتميز هذه الأنماط الخمسة بالترابط و التداخل و لكنها "تختلف بالنظر إلى ماهية كل نوع ووظيفته النصية، هذا ما يجعل من التعلق النصي نوعا ذا طبيعة كلية تسمح له باستيعاب باقي الأنواع الأخرى ذات الطبيعة الجزئية مثل المناص و التناص و الميتانص، و ذلك على شكل بنيات نصية مأخوذة من النص المتعلق به".²

و للتناص وظيفتين أساسيتين تتمثل الأولى في الوظيفة الجمالية التي تكمن في إشارات العمل الأدبي و ما يستخدمه الكاتب من فنيات و تقنيات جمالية ترقى إلى مستوى اللغة، و تتجلى الثانية و المتمثلة في الوظيفة التعبيرية في استقطاب المبدع لجملة الملفوظات و المعارف المتصلة بالنص ليوظفها و يعبر بها عن أفكاره و مواقفه فيضمن السيرورة و الحيوية للنص.³

سأعمل في هذه الدراسة على مقارنة آلية التناص و بالتحديد التناص الديني في ديوان "ترجمان الأشواق"⁴ لابن عربي⁵، و بالتركيز على القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف باعتباره أيقونة تراثية زاخرة بمعاني الإشراق و دلالات الوجد و العشق الإلهي، المندرجة ضمن شعر التصوف القائم "على العبادة و الإنقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدنيا و الزهد فيما يقبل عنه الجمهور من لذة و مال و جاه، و الإنفراد عن الخلق في الخلوة و العبادة"⁶، حيث يستشعر المتصوف السكينة و الرحابة و السلام الروحي باعتبار أن التصوف "معراج روعي في مقامات يستهدف غاية مخصوصة، و الصوفي الذي يبدأ رحلته بغية الوصول إلى المعرفة يدعو نفسه سالكا يتقدم في مقامات أشبه بالأودية و العقبات خلال طريق طويل ينتهي به إلى الفناء في الحق"⁷.

و قد اتكأ المتصوفة على الشعر "لأنه أفضل وسيلة للتعبير عن مواجيعهم و أذواقهم التي لا يمكن للعقل أن يفصح عنها"⁸.

و نجد أن ابن عربي قد اتخذ من الشعر الغزلي جسرا لبلوغ لحظات الإشراق في سماء الحكم الإلهية و المقامات العرفانية

في العالم العلوي.

¹- Voir Ibid , p : 8-12.

² سعيد بقطين : انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1992، ص 132.

³ أنظر محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1992، ص 132.

⁴ محي الدين بن علي بن عربي : ترجمان الأشواق (ديوان) اعتنى به عبد الرحمان المصطوي، دار المعرفة، ط1، بيروت، لبنان، 2005.

⁵ ابن عربي (1165م - 1240م) : هو محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بـ "ابن عربي" الملقب بالشيخ الأكبر فيلسوف من أئمة

المتكلمين في كل علم، ولد في "مرسية" بالأندلس و انتقل إلى إشبيلية، ثم قام برحلة إلى المشرق فزار الشام، الروم، الحجاز، و أنكر عليه أهل الديار المصرية شطحات صدرت عنه فعمل بعضهم على إراقة دمه، و حبس ثم أطلق سراحه و استقر في دمشق و دفن بها و من آثاره :

- الفتوحات المكية : يقع في (65) بابا، يلخصها الباب التاسع و الخمسون من الكتاب نفسه كتاب في التصوف و علم النفس. اختصر الشعراني (الفتوحات) في كتابه (اليواقيت و الجواهر).

- فصوص الحكم : و هو الذي ألب الفقهاء عليه خاصة شيخ الإسلام ابن تيمية.

- ديوان ابن عربي: و هو مجموع شعره، معظم ما فيه فاتر متكلف.

- مفاتيح الغيب

- التعريفات

- مواقع النجوم و مطالع أهلة الأسرار و العلوم

- كنه ما لا يد للمريد منه

- فنة الذخائر و الأغلاق، شرح ترجمان الأشواق (من مقدمة الديوان، ص: 11)

⁶ محمد علي الكندي : في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2010، ص: 54.

⁷ عرفات عبد الحميد فتاح : نشأة الفلسفة الصوفية و تطورها، دار الجيل : بيروت (لبنان)، ط1، 1993، ص: 192.

⁸ بولعشار مرسل: الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة، ابن الفارض أنموذجا، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة وهران، 2015، ص:

و جاء ترجمان الأشواق مفعماً بالمعاني المقتبسة من القرآن الكريم، و بالدرجة نفسها من الحديث النبوي الشريف، و لذلك أثرت البحث في كيفية تعامل الشاعر مع هذين المصدرين الهامين للإلهام الأدبي، خاصة القرآن الكريم باعتباره من أهم الوسائل المنتجة للدلالات، فهو "معين لا ينضب بما يحتوي من قصص و عبر و أحداث"¹، كما أن القرآن الكريم منبع غزير للإلهام و الخلق، فقد اتكأ ابن عربي عليه في تجسيد أفكاره، و تم ذلك على مستويين أساسيين أولهما على مستوى الآية، أما ثانيهما فعلى مستوى القصة القرآنية، و ذكر بعض أحداثها بما يتناسب و المعنى المنشود.

1- التناص مع القرآن الكريم :

أ- على مستوى الآية القرآنية :

لقد اقتبس ابن عربي الكثير من الألفاظ من القرآن الكريم و لا يسعني ذكر كل هذه الكلمات بل سأركز على الأكثر وروداً و مثال ذلك ما ورد في قصيدة "وعد الخود".

وَحَيَّتْ بِغُنَائِمِهَا لِلْوَدَاعِ *** فَأَذْرَتْ دُمُوعاً تَهَيَّجُ السَّعِيرَ²

يصف ابن عربي حالة الوجد و الحزن الناتجة عن الفراق و وداع الخور، و اتكأ على اللفظ القرآني ليجسد ألم الفراق حرقه الإشتياق فوظف كلمة "سعيرا" المقتبسة من قوله تعالى: "إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا و سَيَصَلُونَ سَعِيرًا" (النساء : 10)، و قوله أيضا "و مَنْ لَمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ و رُسُلِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا" (الفتح : 13)، و هناك آيات قرآنية كثيرة وردت فيها كلمة (سعيرا) التي تحمل المعنى نفسه و المقصود (سعير من الوحدة الفعلية سَعَرَ يقال سعر النار أوقدها و هيجها و السعير النار و ليهيها)³.

فالنار المتأججة في قلب الشاعر جراء الفراق و الإبتعاد عن الهوى الإلهي و الفسحات الربانية تحرق قلبه و تكوي نفسه، و شبه ليهيها المستعر بليهيب جهنم.

كما نجد توظيف لفظة "المرسلات" في "قصيدة عربية عجماء" من خلال الملفوظ الشعري التالي :

يَأْبَى الْغُصُونِ الْمَائِلَاتِ عَوَاطِفًا *** الْعَاطِفَاتِ عَلَى الْخُدُودِ سَوَالِفَا
الْمُرْسَلَاتِ مِنَ الشُّعُورِ غَدَائِرًا *** اللَّيِّنَاتِ مَعَاقِدًا و مَعَاطِفًا⁴

و يشير الشاعر هنا إلى العقل الأول يغذي به النعوت التي تحمل المعارف الإلهية للعارفين بطريق العطف الإلهي للعطف المقدس و المرسلات إسم فاعل و هي المرسلات من الشعور كتي به العلوم الخفية و الأسرار المكتمنة التي لا يستدل عليها إلا بضرب من التلويحات البعيدة لنزاهتهما⁵، و استعانة الشاعر بالنص القرآني "و الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا" (المرسلات: 1)، حيث تقاطع المعنى المقصود في النص الشعري بالنص القرآني، فالمرسلات هي الرياح الشديدة الهبوب المهلكة كحجة للخلق، و الأسرار و العلوم الخفية المأخوذة من قبس السم و الإشراف حجة للشاعر ليطمئئني ساحات الإلهام الروحاني.

و يعدد الشاعر في قصيدة "كل لسان بها ناطق" جملة من صفات المعشوقة دون أن يقصد الوصف الخارجي لها بما يستشعره في نفسه من نبضات الوجد الإلهي و يظهر ذلك من خلال المقبوس الشعري :

¹ - حسن علي بشير بهار: التناص الديني عند أبي العتاهية، رسالة ماجستير (أدب عربي) كلية الآداب، الجامعة الإسلامية (غزة)، فلسطين، 2014، ص: 26.

² - ابن عربي، ترجمان الأشواق، ص: 84.

³ - ابن منظور: لسان العرب، المجلد السابع، دار صادر للطباعة و النشر (د.طن د.ت)، ص: 188.

⁴ - ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص: 144.

⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فَلَيْلِي مِنْ وَجْهِهَا مُشْرِقٌ *** وَيَوْمِي مِنْ شَعْرِهَا غَاسِقٌ
لَقَدْ فَلَقْتَ حَبَّةَ الْقَلْبِ إِذْ *** رَمَاهَا بِأَسْهُمِهَا الْفَالِقُ¹

و يقصد الشاعر في هذين البيتين "قد حصل لي بها علم الغيب من شعرها و علم الشهادة من وجهها فأشرق ليل هيكلي الطبيعي من نورها و صار عالم شهاداتي بوجودها عين على النظر، و هي بهذه الصورة قد فلقت حبة القلب حين رماها الفالق سبحانه"².

و هنا تناص مع قوله تعالى "فَالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوَى" (الأنعام : 95)، حيث تداخل النص الشعري مع هذه الآية الكريمة في لفظة "فالق" لتبرز معنى التأثر و التأثير أكثر اختراقاً لذهن المتلقي.

كما وظف ابن عربي هذا النوع من التناص سعياً منه لإعادة تشكيل المعاني بالاعتماد على المعنى الجوهري المقتبس من الآيات القرآنية بغية التكثيف من الدلالات و شحن مختلف الصور باستعمال الإيحاء و الانزياح و اسعاف نصوصه بالخيال و الغموض و الرمز باعتباره "كياناً مفتوحاً لا تستهلكه الشروح ولا يبوح به إلا عن طريق الكشف"³.

ويظهر تناص (ترجمان الأشواق) مع الآية القرآنية من خلال المقبوس الشعري التالي:

- رَأَى الْبَرْقَ شَرْقِيًّا فَحَنَّ إِلَى الشَّرْقِ *** وَلَوْلَاحَ غَرْبِيًّا لَحَنَّ إِلَى الْغَرْبِ
- فَإِنَّ غَرَامِي بِالْبَرْقِ وَلَمَحَهُ *** وَ لَيْسَ غَرَامِي بِالْأَمَاكِنِ وَ التُّرْبِ⁴

يُشير الشاعر في هذين البيتين إلى رؤية الحق في الخلق و التجلي، فأداه ذلك إلى التعلق بالألوان لما ظهر التجلي فيها لأن الشرق موضع الظهور الكوني ولو وقع التجلي على القلوب وهو الهوية الذي كنه عنه بالغرب لحن أيضاً هذا المحب لعالم التنزيه. فالتنزيه موجود و كائن (شرقياً أم غربياً) و حنين الشاعر لمواطن التجلي عن طريق الملح.⁵ وقد اقتبس الشاعر هذا المعنى من الآية القرآنية من سورة النور في قوله تعالى: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ... (35) (النور 35).

يعم نور الله عز وجل جميع الخلائق و الأكوان وهو هادي من في السموات و الأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون و يهداه من حيره الضلالة يعتصمون من سراج مضيء كأنه كوكب ذري و من شجرة لا شرقية ولا غربية أي ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا هي غربية وحدها فتصيبها الشمس منها إذا غابت ولكنها شرقية غربية تطلع عليها بالغداة و تغرب عليها الشمس فيصيبها حرها بالغداة و العشي⁶ وهذا هو المعنى الذي ركز عليه الشاعر حيث أن مواطن الحق و التجلي قد عمّت الأكوان كاملة بشرقها و غربها، و التجلي "رؤية الله بالقلب وهو عبارة عن ظهور ذات الله وصفاته و قيل: التجلي إشراق أنوار إقبال الحق على قلوب المقبلين عليه وهو أنواع تجلي ذاتي و شهودي و صفاتي"⁷

- كما نجد تناص آخر مع أي الذكر الحكيم من خلال قصيدة "غريق الدمع" و يظهر ذلك جلياً من خلال النص الآتي:

- سُحِيرًا أَنَاخُوا بِوَادِي الْعَقِيقِ *** وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ فِجِّ عَمِيقِ

1- المصدر نفس، ص 139.

2- نفسه، الصفحة نفسها.

3- أدونيس: الصوفية و السريالية، دار الساقي، بيروت، ط1، 1992، ص 120.

4- ابن عربي: ترجمان الأشواق (الديوان)، ص 74.

5- ينظر: ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 74.

6- ينظر: جامع البيان عن تأويل أي القرآن (تفسير الطبري)، تح: د/ عبد الله بن محسن التركي، بحر للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، بيروت، 2002، ص 130.

7- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 74.

- فَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ إِلَّا وَقَدْ *** رَأَوْ عِلْمًا لَا يَخَافُونَ نَيْقًا¹

لقد اتكأ الشاعر على قوله تعالى: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ" (الحج 27) ، قصد الشاعر "الإناخة بمطايا الهمم في وادي العقيق، الذي هو موضع الإحرام بالحج والعمرة فجعله مناخ حرمة محمدياً لأنه ميقات أهل المدينة الذي نبه عليهم بلسان الإشارة أن لا نهاية لما يطلبون فليرجعوا فإن رجوعهم سفر لاقتناص علوم لم ينالوها من قبل"².

لقد ربط الشاعر عملية التجلي والصفاء الناتجة عن تلقف العلوم واقتناص المعارف في وادي العقيق (موضع الإحرام) من طرف المريدين القادمين من كل فج عميق (أي من كل طريق بعيد) بفريضة الحج ووصول الحجاج إلى بيت الله الحرام من كل مكان ومسلك بعيد، طلباً للتوبة والمغفرة والسكينة. فالشاعر يتغنى بلحظات التنوير من خلال إدراك الله ورؤيته بالقلب وسموه في علياء الإشراق والوله كما الحاج الذي يستأنس بالحج، ويستشعر الهدوء والراحة، رغم التعب الناتج عن المناسك والفرائض. لأن "الصوفي من صفا من الكدر، وامتلاً من الفكر، وانقطع إلى الله عن البشر. و استوى عنده الذهب والمدر. ويستمر الشاعر في الاستثمار من النص القرآني واسعاف معانيه بآيات الذكر الحكيم هذا ما نستشفه في قوله:

- يَا حَادِيَ الْعَيْسِي بِسَلْعٍ عَرَج *** وَقِفْ عَلَى الْبِنَانَةِ بِالْمُـدْرَجِ
- وَنَادِهِمْ مُسْتَعِظِفًا مُسْتَلْطِفًا *** يَا سَادَتِي هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ فَرَجِ
- بِرَامَةِ بَيْنِ النَّقَا وَحَاجِرِ *** جَارِيَةَ مَقْصُورَةً فِي هَوْدَجِ
- يَا حُسْنَهَا مِنْ طِفْلَةٍ غَرَبَهَا *** نُضْرِيءُ لِلطَّارِقِ مِثْلَ الشَّرَجِ
- لَوْلَوْهُ مَكْنُونَةٌ مِنْ صَدْفٍ *** مِنْ شَعْرٍ مِثْلَ سَوَادِ السِيحِ³

يظهر التناص مع القرآن جلياً في البيت الأخير (لؤلؤة مكنونة) حيث اقتبسها الشاعر من قوله تعالى:

" يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَ حُورٍ عِينٍ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) (الواقعة 17-23)

لقد فسر الطبري (حور عِين كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) "حور حسناوات هن في صفاء بياضهن وحسنهن كاللؤلؤ المكنون الذي قد صين في كف"⁴، وقد استعار ابن عربي هذا المعنى ليؤكد على حسن المعشوقة ونعومتها وشرفها كأنها لؤلؤة مكنونة محجوبة في صهر من شعر في حجاب لاغيب مما يجعلها مطلوبة مرغوبة⁵ وهو لا يقصد (المعشوقة شخصياً) بل يسقط هذه المعاني السامية على حب الله والفناء فيه ، فمعاني (الحسن، الصفاء، الصون، البياض) المأخوذة من النص الغائب أضفت ثراءً وغنى في النص الحاضر (هذا يجعل وقعها في نفس القارئ أقوى وأعمق)⁶ ونجد أيضاً تناص آخر مع السورة القرآنية في قول ابن عربي:

- يَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ تَعَالَى *** نُورٌ لَكُمْ بِقُلُوبِنَا يَتَّالَا
- أَشْكُو إِلَيْكَ مَقَاوِرًا قَدْ جُبِّهَا *** أَرْسَلْتُ فِيهَا أَدْمُعِي إِرْسَالًا⁷

¹- المصدر نفسه، ص118.

²- نفسه، الصفحة نفسها.

³- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص182.

⁴- تفسير الطبري، ص150.

⁵- أنظر ترجمان الأشواق: ص192.

⁶- عبد السلام المسدي: الأسلوب والأسلوبية، دار العربية للنشر، ط1، تونس، 1982، ص288.

⁷- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص187.

لقد تعالق هذا النص الشعري مع النص القرآني من خلال قوله تعالى: "ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ" (الحج: 29).

مكمن التناص بين النص اللاحق والنص السابق هو عبارة " البيت العتيق " أي (القديم) والمقصود به في النص الشعري "قلب العبد العارف التقي النقي الذي وسع الحق سبحانه حقيقته، وغمر بالنور القلوب شعشعاني وظهر على الألسنة والأسماع وسائر الجوارح"¹.

فالشاعر يناجي (البيت العتيق) وكله عزم على تطهير نفسه من الآثام وتنقية قلبه من الشوائب للوصول إلى النور الرباني، وبلوغ غايات السمو والعلواء كما الحاج الذي يستعد لتأدية المناسك " وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحر ما نذر من أمر البدن والطواف بالبيت"²، كما هو مضمن في الآية الكريمة السابقة، فتشبع ابن عربي بمعاني السكون والهدوء والأمان هي التي ترفعه إلى المقامات العلوية التي ينشدها ويطلبها.

ب- التناص مع القصة القرآنية:

القرآن الكريم منبع العلوم جميعها، منه يستقي العلم مختلف القوانين الكونية، منه يستمد الفقيه أحكامه الشرعية، ومنه يستنبط اللغوي كل القواعد الصرفية والنحوية، وفيه من العلوم ما لا يعد ولا يحصى، ومن القصص ما يدهش الإنسان ويحيره، ويعتبر به، فالقصة القرآنية "رافد من روافد الإبداع الفني لما فيها من متعة وإفادة وإغناء بالإشارة وما لها من دلالات عميقة وخاصة حين تصبح هذه القصص القرآنية قناعاً فنياً أو معادلاً موضوعياً للشاعر"³، وقد تجلى هذا النوع من التناص وبشكل واضح في المقطوعة الشعرية التالية:

- كَمَا رَحَلُوا يَوْمَ بَأْتُوا الْبَزْلَ الْعَيْسَا *** إِلَّا وَقَدَ حَمَلُوا فِيهَا الطَّوَاوَيْسَا
- مِنْ كُلِّ فَاتِكَةٍ الْأَلْحَاطِ مَالِكَةٍ *** تَخَالِفُهَا فَوْقَ عَرْشِ الدَّرْبَلِقَيْسَا
- إِذَا تَمَشَّتْ عَلَى صَرْحِ الرُّجَاجِي تَرَى *** شَمْسًا عَلَى فَلَكَ فِي حِجْرِ إِدْرِيسَا
- تُحْيِي، إِذَا قُتِلَتْ بِاللَّحْظِ مَنْطِقَهَا *** كَأَنَّهَا عِنْدَمَا تُحْيِي بِهَا عَيْسَا⁴

ينفتح الشاعر على قصة بلقيس (ملكة سبا) مع النبي سليمان عليه السلام ويتضح ذلك من خلال قوله تعالى: " وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ (21) لَأُعَذِّبُنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحُنَّهُ أَوْ لَأَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (22) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحُطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (23) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (24)" (سورة النمل).

أسعف الشاعر مخياله الفني بعرش بلقيس الذي يدل "على الحضارة والرقى... وبلقيس أول ملكة اتخذت سبا مقراً لها وقامت بترميم سد مأرب الشهير، وقد ازدهرت سبأ أيما ازدهار، وقد استقرت البلاد وتمتع أهل اليمن بالرخاء والأمان والحضارة، ووطدت مملكتها بالعدل والحلم والحكمة"⁵.

¹ - المصدر نفسه، اصفحة نفسها.

² - شرح ابن كثير، ص 220.

³ - حسن علي بشير بهار: التناص الديني عند أبي العتاهية، ص 48.

⁴ - ابن عربي: ترجمان الاشواق، ص 30.

⁵ - هدى برهان سيف الدين: الملكة سبأ نموذج قيادي (رؤية من منظور بلقيس)، دار الحكمة، (دط)، الأردن، (دت)، ص 10.

وتقاطع هذا المفهوم مع المقصود بالمعنى في المقبوس الشعري السابق فبلقيس رمز صارخ للعلم، "وقد سميت بلقيسا لتولمها بين العلم والعمل فالعمل كثيف والعلم لطيف كما كانت بلقيس متولدة بين الجن والإنس فإن أمها من الإنس وأبها من الجن، ولو كان أبوها من الإنس وأمها من الجن لكانت ولادتها عندهم وكانت تغلب عليها الروحانية ولهذا ظهرت بلقيس عندنا"¹.

ترمز بلقيس إلى الحكمة الإلهية التي يتحصل عليها الإنسان وهو في لحظة الخلوة والشفافية مع الله عز وجل، فيترفع عن ذاته ليرفرف في عياء الإشراق، ويسبح في ملكوت الرحمن ويكتفى المعنى بقوله (صرح الرجاء ترى شمسا) أي النفس الصافية النقية التي تخلصت - بعد خلوتها - من كل الشوائب والمكدرات والوضيعة والمنغصات الدنيوية التافهة، لتستقبل الأنوار الإلهية الناتجة عن الحكمة (الشمس) وهذا المعنى مقتبس من قوله تعالى: "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِمَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (النمل 44).

ويذكر في النص الشعري نفسه اسم النبي إدريس عليه السلام الذي ورد وصفه في سورة مريم

"وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)" (مريم). هذا النبي الذي يرمز للصدق و العلا

والشاعر يستلهم نوره حيث كنى بإدريس عن مقام الرفعة والعلو كونها في حجره"².

أما في البيت الأخير يرد ذكر النبي عيسى عليه السلام حيث "وقع التشبيه به ولما كان الممثل به روحا في الأصل كانت في

قوة عيسى إحياء الموتى"³.

ونجد في موضع آخر وبالتحديد قصيدة: "روضة الوادي ربه الحى" تعالق النص الحاضر مع النص الغائب في قصة موسى

عليه السلام من خلال الأبيات التالية:

أيا روضة الوادي أجب ربه الحى *** وذات الثنايا الغرّيا روضة الوادي
وظلّ عليها من ظلالك ساعة *** قليلاً إلى أن يستقرّ بها النّادي
وتنصبّ بالأجواز منك خيامها *** فما شئت من ظلّ غِذاء المناد⁴

يقصد الشاعر بـ "الوادي" هو الوادي المقدس يريد مقام التقديس وكفى بالروضة عن الشجرة التي ظهر النور فيها لموسى

عليه السلام وره الحى حقيقة موسى عليه السلام فهي إشارة للعارف إلى مرتبة موسوية ورثها منه⁵ ويستشف هذا المعنى من قوله تعالى: "إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى" (طه 12).

ويعتمد ابن عربي على استنصاح القرآن الكريم والتماهي مع شخصية موسى عليه السلام والحصول على الصفاء

والطهارة التي تحقق له العروج إلى السمو في الأجواء الربانية ومن هنا يكتسب النص الشعري معنى رمزياً جديداً غنياً بالدلالات والايحاءات المغربية بالمقامات العظمى.

كما يناقش الشاعر مسألة "الخلق" بالإستناد إلى قصة آدم عليه السلام ورفض إبليس السجود له و يظهر ذلك من خلال

المقبوس الشعري الآتي :

شمس ضحى في فلك طالعة *** غصن نقا في روضة قد نصبا
ظلّت لها من حذر مرتعبا *** والغصن اسقيه سماء صيبا

¹- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 31.

²- الصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³- نفسه، ص 32.

⁴- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 110.

⁵- المصدر نفسه، ص 111.

إن طلعت كانت لعيني عجبا *** أو غربت كانت لحيني سببا
مذ عقد الحسن على مفرقها *** تاجا من القبر عشقت الذهبا
لو أن إبليس رأى من آدم *** نور محياها عليه ما أبى¹

يذكر الشاعر "شمس الضحى" ويريد وضوح التجلي عند الرؤية، و الوصول إلى لحظات التنوير والإشراق، أما الفلك فدلالة رمزية تحيل إلى الصورة التي يقع فيها التجلي وهذه الصورة متباينة بين الخلائق تظهر نتائجها جلية في روضة الجنان لما تحمله من صفات البهاء والجلال، وهذه الشمس الساطعة تبهر النفوس والعقول في جميع أحوالها (طلوعها أو غروبها)، وهي كالذهب في التيجان "و التاج زينة إلهية خارجة عن مقام الإستواء والذهب صفة كمال لكمال مراتب المقامات، فإن الذهب حاز صفة كمال الاعتدال وهو أشرف المعادن"²، ويشير الشاعر في البيت الأخير إلى قضية الخلق وتعنت إبليس، ورفضه أمر الله عز وجل للسجود لآدم عليه السلام وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) (البقرة: 30 - 34).

لقد خلق الله آدم عليه السلام و بين للملائكة شرفه وكبرياؤه عليهم في المعرفة والعلم، حيث علّمه الأسماء كلها، و مقامه عال و محفوظ عند الله عز وجل، لكن إبليس لم يقدر هذه المكانة الرفيعة و أثر الكبر والتجبر و نظر إلى نفسه بطريق المقايضة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف منه، فامتنع عن السجود فقد خلق آدم من طين، و هو من نار معتقدا أن النار اشرف من الطين، و هذا اعتقاد خاطئ فاسد لأن "الطين" أنفع و خير من النار، و لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، و النار فيها البطش والخفة والسرعة والإحتراق"³، و على الرغم من ذلك نجد أن إبليس قد "استكبر و استعلى بنظره إلى عنصره الأعلى من عنصر آدم الترابي، فلما رأى الشرف له امتنع عن النزول للأخس، و ما عرف ما أبطن الله له فيه من سبحات الأسماء الإلهية والإحاطة"⁴، فكان عقابه شديدا لأنه خالف أمر الله الذي "أمره بالهبوط من السماء و الخروج من المنزلة و المكانة التي كان قد نالها بعبادته و تشبهه بالملائكة في الطاعة و العبادة، ثم سلب ذلك بكبره و حسده و مخالفته لربه، فأهبط إلى الأرض مذموما مدحورا"⁵.

و في موضوع آخر يتكأ ابن عربي على قصة عيسى عليه السلام لينشر من خلالها مجموعة الإشراقات الربانية و يعلو بها في سماء التجلي و الأنوار و العلياء حيث يقول:

فيا حاذي الأجمال إن جئت حاجرا *** فقف بالمطايا ساعة ثم سأم
ونادي القباب الحمر من جانب الحمى *** تحية مشتاق إليكم متيم

1- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 130

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3- اسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء، ص: 20.

4- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص: 130.

5- المصدر السابق، ص: 22

فإن سَلَمُوا فَاهِدِ السَّلَامِ مَعَ الصَّبَا * ** وَإِنْ سَكَّتُوا فَارْحَلْ بِهَا وَتَقَدِّمْ
إِلَى نَهْرِ عَيْسَى حَيْثُ حَلَّتْ رِكَابِهِمْ * ** وَحَيْثُ الْخِيَامِ الْبَيْضِ مِنْ جَانِبِ الْفِمْ
وَنَادِ بَدْعُدِ وَالرِّبَابِ وَزَيْنَبِ * ** وَهَنْدِ وَسَلْمَى ثُمَّ لَبْنَى وَزَمْزَم¹

يشير ابن عربي من خلال هذا النص الشعري إلى نهر عيسى و الذي يحيلنا إلى قوله تعالى: "وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَ
أَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ مَعِينٍ" (المؤمنون: 50).

و يشير ابن كثير في تفسير هذه الآية أن الله قد أوحى إلى مريم أن ترحل إلى أرض مصر مع ابنها عيسى عليهما بعدما همت به
"بنو اسرائيل" لما رآته فيه من عجائب و حكم، و المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفاتها أنها ذات قرار و معين، و هذه صفة
غريبة الشكل، فهي ربوة، أي مكان مرتفع من الأرض الذي أعلاه مستوي يقر عليه و ارتفاعه متسع و مع علوه فيه عيون الماء المعين
و هو الجاري السارح على وجه الأرض، و يقصد هما "النهر الصغير"².

و قد استلهم ابن عربي هذه العبارة (نهر عيسى) و وظيفها في نصّه الشعري ليؤكد على مسألة صوفية مهمة و هي الحكمة
العيسوية، حيث يدعو المريد إلى التقدم إلى نهر عيسى عليه السلام، أي العلم المتسع العيسوي المشهد، فافعل معه ما فعلت و
اجعل خيام الأحبة بيضا لأن المقام العيسوي نزيه عن المغريات عفيف شريف لا يرجى منه الدنس أو الفساد.

2/ التناسخ مع الحديث النبوي الشريف:

يحتل الحديث النبوي الشريف مكانة سامية في البلاغة والفصاحة، حيث يأتي في المرتبة الثانية بعد كلام الله سبحانه
وتعالى، وقبل كلام العرب الفصحاء من شعر ونثر لما له من أثر بالغ في إغناء الملكة العربية والحفاظ عليها،... وقد أسهم إسهاما
كبيرا في حفظ اللغة العربية، واستشهد الواصفون الألوان للنحو بالحديث النبوي الشريف³ وعمد ابن عربي الاستنصاح من
الحديث النبوي الشريف لمكانته اللغوية المرموقة وقيمته البلاغية الواضحة ويظهر ذلك وبشكل جلي في قوله:

- يَا حَادِي الْأَجْمَالِ إِنْ جَاءَتْ حَاجِرًا * ** فِقِفْ بِالْمَطَايَا سَاعَةً ثُمَّ سَلِّمْ
- وَنَادِ الْقِبَابِ الْحُمْرِ مِنْ جَانِبِ الْجَمَى * ** تَحِيَّةً مُشْتَقًا إِلَيْكُمْ مُتَيَّم⁴

يتحدث الشاعر عن الحادي الذي يسوق الإبل يطلب منه إفشاء السلام على الأحبة لكنه لا يوفي الأدب في السلام جراء
الدهشة والتي غمرته والحيرة التي شدته⁵ إفشاء السلام من الآداب العامة التي حثنا عليها رسولنا صلى الله عليه وسلم حيث قال:
"لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوْلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"⁶.
واقتبس الشاعر معانيه من الحديث النبوي الشريف في البيتين الأولين من قصيدة "تنا وخت الأرواح" حيث يقول:

- أَلَا يَا حَمَامَاتِ الْأَرَاكَةِ وَالْبَبَانِ * ** تَرْفِقْنَ لَا تَضَعْفَنَّ بِالشَّجْوِ أَشْجَانِي
- تَرْفِقْنَ لَا تَظْهَرْنَ بِالنُّوحِ وَالْبِكَا * ** خَفِي صِهَابَاتِي وَكُنُونِ أَحْزَانِي"⁷

¹- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص: 39.

²- ينظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ص: 504.

³- اقبال كاظم حبيتر: أثر الحديث النبوي الشريف في تحصيل طالبات معهد إعداد المعلم... في قواعد اللغة العربية، مجلة القادسية، جامعة القادسية، ص 257.

⁴- ابن عربي: ترجمة الأشواق، 37.

⁵- نفسه، ص 37-38.

⁶- عن صحيح مسلم، ص 170.

⁷- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 58.

ترمز الحمامات للنور والرضا والتنزيه وما يحمله من معاني التقديس للأراكة لأنه شجر يستاك به وهو مطهرة للفم ومرضاه للرب وهذا المعنى مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة"¹ فالرغبة في الطهارة والنقاء واستجلاء القيم الربانية غاية الشاعر من اجترار معنى الحديث الشريف في فضل السواك وفائدته.

كما نجد تناسبا ضمنيا مع الحديث النبوي الشريف في قصيدة: "لا تعجبي" حيث يقول الشاعر:

- إني عجبْتُ لصَبِّ من محَّاسنه *** تختالُ ما بين أزهَّار وُبُستانِ

- فقلتُ لا تعجبي ممن ترين فقد *** أبصرتَ نفسك في مِرآة إنسانٍ²

ويقصد الشاعر في هذا النص الشعري الحديث عن الحضرة الإلهية ويجسدها بحيث تتعجب من العتب أي الهائل لمحبة وهنا اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله يعجب من الشاب ليست له صبوة"³، والمقصود هنا أن الإنسان في زهده وعزوفه عن المغريات التنوية لا يتيه ومقام الحضرة الإلهية تلقي بظلالها وأخلاقها فالإنسان المحب صورة للحضرة حيث يؤكد "لا تعجبي ممن ترين فإني كالمرأة وهذه أخلاقك التي تخلقت بها فنفسك أبصرت لا أنا ولكن في إنسانيتي القابلة لهذا التجلي، فهي لها كالبلستان. وهذا مقام رؤية الخلق في الحق"⁴، كما يستعين ابن عربي بحديث نبوي شريف آخر ويمكن أن نستشفه من خلال النص الشعري التالي:

- ناديتُ إذ رحلتُ للبين ناقمها *** يا حادي العيس لا تحدو بها العيسَى

- عييتُ أجيادَ صَبْري يومَ بيّهم *** على الطَّريقِ كراديسًا كراديسًا

- سألتُ إذا بلغت نفسي تر اقمها *** ذاك الجمال وذاك اللطف تنفيسًا

- فأسلمت ووقانا الله شرَّتها *** وزحزح الملك المنصور إبليسًا⁵

يذكر ابن عربي في هذه الأبيات كيفية رحيل الذاتية الروحانية عن القلب الشريف فأخذ يخاطب روحانيا بكناية الحادي و قد تمنى استدامة حالة الوجد والعشق الإلهي والتأمل في ملكوت الرحمن وفي عليائه هذا ما يقود الإنسان أو الشاعر لتملك لحظات المعرفة لله وحبه له، وتعلقه به، ويؤكد أن المعراج الروحي يكون كراديسا أي جماعات حتى يعم السلام، وتتحد الأنفاس وقد استقى الشاعر هذا المعنى من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن نفس الرحمن يأتي من قبل اليمن"⁶.

تنقسم الأنفاس إلى قسمين: روحية ورياحية، فالأنفاس الروحية أطف من الأنفاس الراحية، لأن الأنفاس الروحية أقرب للنفس الرحماني⁷ لذا نجد أن ابن عربي قد أثار التناسب الضمني مع الحديث النبوي الشريف المذكور أنفا "ليبين حقيقة اللطف الإلهي والعشق الرباني، لأن النفس الروحي إن مر بالخبت طاب، وإن مر بالطيب زاده طيبا، وأما النفس الراحية تتكيف بكيفية ما مر به فإن مر بالطيب جاء بالطيب وإن مر بالخبت جاء بالخبت"⁸، فالطيب يعم كل شيء فالمراد بالخلق ذلك التجلي في نفس

¹- صحيح البخاري، ص 243.

²- المصدر السابق، ص 58

³- عن صحيح البخاري، ص 340.

⁴- المصدر السابق، ص 57.

⁵- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 34.

⁶- صحيح البخاري: رقم 6137 (وأورده العجلوني في كشف الخفاء).

⁷- محمد بهاء الدين البيطار: النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمديّة الإدرسية، دار الكتب العلمية، (دط)، بيروت، لبنان، 1971، ص 50.

⁸- المصدر نفسه، ص 51.

الرحمن فكان رحمة للعالمين ، ويواصل ابن عربي توظيف الحديث النبوي الشريف لإثراء معانيه والتعبير عن أفكاره ويظهر ذلك في قوله:

- وناد القباب الحمر من جانب الحمى *** نخبة مشتاق إليكم متيم
- فإن سلموا فاهد السلام مع الصبا *** وإن سكتوا فارحل بها وتقدم
- إلى نهر عيسى حيث حكمت ركبهم *** وحيث الخيام البيض من جانب الفم
- وناد بدعد والرياب وزينب *** وهند وسلي ثم لبني وزمزم
- وتسلمهن هل بالحلبة الغادة التي *** تريك سنا البيضاء عند التسمم؟¹

يذكر الشاعر في هذه الأبيات المقام العيسوي وقيمه الرفيعة المتسمة بالنقاء والطهارة والعفاف ودعوته إلى استجلاء الحقائق الإلهية المختلفة والتي عبر عنها بأسماء محبوبات الأعراب (رعد، رباب، زينب، هند، سلى...) من باب الكناية وليس من باب التوظيف الأصلي والحقيقي لها أما في البيت الأخير فيشير إلى أن الحقائق الإلهية والدلائل الربانية التي تتسابق إلى كيان لتتجلى آثارها فتظهر قيمتها ويبرز سلطانها ولهذا سماها "غادة" إي مائلة إلى الكون ثم يصفها أن لها نور الشمس الساطع² متأثرا في ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم "ترون ربكم في الجنة كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحب"³ والشمس تحمل دلالة الوضوح والإشراق والاستعلاء، وكونها دون سحب أي ساطعة لامعة تنشر أشعتها في ملكوت الله، و في قلوب الخلائق و نفوسهم.

كما نجد تناصبا ضمنيا آخر مع الحديث النبوي الشريف في قول الشاعر:

- سرورا وظلام الليل أرخى سدوله *** فقلت لها: صبا غريبا متيمًا
- أحاطت به الأشواق صوتا وأرصدت *** له راشقات النبيل أيان يمها
- فأبدت ثناياها وأومضى بارق *** فلم أدير من شق الخنادس منهما

يصف الشاعر في هذا الملفوظ الشعري ذهاب المريدين ليلا وقد وظف الفعل "سرورا" الذي يتناسب مع الظلام، لأن الإسرار لا يكون إلا في الليل لأنه "محل الإسرار والتكتم وعدم الكشف"⁴ ، فيحس المرء بالهدوء وتحيط به الأشواق فيشعر بالسكينة والراحة الناتجة عن استجلاء لحظات الإرتقاء في المقامات الإلهية، أما في البيت الأخير فيشير إلى التور المنبثق في النفوس والعقول فوجد هذا المحب ذاته مشعة بالنور كما وميض البرق في ظلمة الليل وهذا المعنى يتقاطع مع قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه: "اللهم اجعل في سمعي نورا وفي بصري نورا وعن يميني نورا وعن يساري نورا وفوقي نورا وتحتي نورا واجعل لي نورا وعصبي ولحمي ودمي وسعر وبشري"⁵ ويقصد بالنور الحق ويدعو محمد صلى الله عليه وسلم أن يوظف كل جوارحه وأعضائه في سبيل إعلاء كلمة الحق وهذه الأنوار كلها يمكن حملها على ظاهرها فيكون قد سأل الله تعالى أن يجعل له في كل عضو من أعضائه نورا سيتضاء به من ظلمات يوم القيامة، ومن هنا يظهر تاجر الشاعر بهذا الحديث النبوي الشريف حيث يقول لما أضاءت زوايا كوني كلها وأضاء هيكل طبيعتي وأنا في مقام حكمة متجلية من حقيقة إلهية في صورة مثالية في مقام بسط وتبسمت هذه الصورة

1- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 38-39.

2- المصدر نفسه، ص 39.

3- أخرجه البخاري، رقم 4305.

4- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 42

5- صحيح البخاري، رقم 5957

فأشرق أرضي وسمائي بنورها واستنار ليلى واتفق معها تجل ذاتي لتبسمها لم أدر ممن أشرق كوني منهما ولا من شق خندس ذاتي من هذين التجليين بنوره¹.

ولا يتوقف الشاعر عند هذا المستوى بل يحاول استنصاح جملة من المعاني والدلالات من الحديث الشريف لإبراز صورة التجلي و رغبة المحبة في التحليق في علية المقامات الربانية والحصول على لحظات الإشراق والتنعم في ملكوت الرحمن ، ويظهر ذلك جليا في قصيدة "شموس في صورة الدمى"

- بندي سلم والدير من حاضر الحمى *** ظباء تريك الشمس في صورة الدمى
- فأرقب أفلاكا ، وأخدم بيعة *** وأحرس روضا بالربيع منمنما
- فوقتا أسى راعي الظبي بالفلا *** وقتا أسى راهبا ومنجما
- تثلثت محبوبي ، وقد كان واجدا *** كما صيروا الأقسام بالذات أقنما
- فلا تكثرن ، يا صاح قولي غزالة *** نُضِي لَغِزْلان يَطْفن على الدُمى
- فللظبي أجيادا ، وللشمس أوجها *** وللدمية البيضاء صدرا ومعضما
- كما قد أعرنا للغصون ملايسا *** وللروض أخلاق وللبرق مَبَسَما²

إن اتخاذ الشاعر لمبدأ التجلي في ملكوت الله باتخاذ كل السبل واتباع كل الطرق الممكنة فالمحب الزاغب في المقامات العليا قد يسمى راهبا أو منجما، وقد استعمل لقطعة (غزالة) كرمز للشمس ووظف الظبي و عنقه وهو إشارة للتور، وقد تطابق هذا المعنى (أعناق الظباء) بملفوظ الحديث الشريف التالي: "المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة"³، أي أكثر الناس تشوقا إلى رحمة الله عز وجل و رغبة في نيل المراتب العليا، والظفر بالخيرات والحسنات.

وينطلق ابن عربي في وصف أحوال القلب وقلبه ومدى تمسكه بدينه حيث يقول:
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة *** فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف *** وألواح تورا، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب آتي توجهت *** ركائبه فالحب ديني وإيماني⁴

يحدثنا الشاعر بلغة القلب المتقلب الذي "يتنوع بتنوع الواردات و تنوع التجليات الإلهية لسره، وهو الذي كنى له الشرع بالتحول والتبدل من المحبين تارة، و دير الرهبان أي منزلهم وموضع إقامتهم تارة أخرى، و "هذا القلب صورة بيت الأوثان لما كانت الحقائق المطلوبة للبشر قائمة به التي يعبدون الله من أجلها فسمي ذلك أوثانا، ولما كانت الأرواح العلوية حافة بقلبه سمي قلبه كعبة، ولما حصل من العلوم الموسوية جعل قلبه ألواح، ولما ورث من المعارف المحمدية الكمالية جعلها مصحفا وأقامها مقام القرآن"⁵، مقتبسا بذلك كل هذه المعاني من قوله صلى الله عليه وسلم "أوتيت جوامع الكلم"⁶، وجاء هذا التناسل الضمني ليحقق المعادلة المعنوية بين النص الحاضر والنص الغائب، كما نلمح أيضا في هذا الديوان تناسلا ضمينا مع الحديث الشريف للوصول إلى استجداء المعاني المدرجة فيه ونستشف ذلك من قول الشاعر:

¹- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 43

- المصدر نفسه، ص 56-66²

³- أخرجه البخاري، رقم (725)

⁴- المصدر السابق، ص 62.

⁵- أنظر: ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 62.

- أخرجه البخاري، رقم 5688⁶

ما عَسَى تُغْنِيكَ مِنْهُمْ نَظْرَةٌ *** هِيَ إِلَّا لِمَنْحُ بَرْقٍ بَرْقًا
لَسْتُ أَنْسَى إِذْ حَادَ الْحَادِي هِيمَ *** يَطْلُبُ الْبَيْنَ، وَيَبْغِي الْأَبْرَقَا¹

يذكر الشاعر أن هذه النظرة لا تغني من الوجد فمثلها في الفعل في القلب ما يفعله ماء البحر للعطشان، فكما ازداد شربا ازداد عطشا، فالحادي بأمر المحيين بضرورة الإبتعاد عن عالم الموجودات الفاني، و التطلع إلى الروحانيات، و ذلك بالتمسك بالأعمال الطيبة خاصة الصلاة و قد اتكأ الشاعر على النص النبوي لاستنصاح معانيه من خلال قول الرسول صلى الله عليهم و سلم: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل و ملائكة بالنهار ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم و هو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم يصلون و آتيناهم و هم يصلون، و ذلك عند الصبح و العصر"².

و يواصل الشاعر في الإستنصاح من الحديث الشريف، و اقتباس مختلف المعاني و الدلالات و دعم ألفاظه و تعابيره بشكل ضمني يثير القارئ و يحفزه للتأمل و التفكير، و نجد ذلك في قوله:

عُجَّ بِالرَّكَائِبِ نَحْوَبَرْقَةٍ تَهْمِدُ *** حَيْثُ الْقَضِيبُ الرُّطِيبُ وَالرَّوْضُ النَّدِي
حَيْثُ الْبَرْقُ بِهَا تَرِيكٌ وَمِيضُهَا *** حَيْثُ السَّحَابُ بِهَا تَرْوُحٌ وَيَغْتَدِي
وَأَرْفَعُ صَوِيَّتَكَ بِالسُّحَيْرِ مُنَادِيًا *** بِالْبَيْضِ وَالْغَيْدِ الْحَسَنِ الْخُرْدِ
مَنْ كَلَّ فَاتَكَّةً بِطَرْفِ أَحْوَرٍ *** مَنْ كُلَّ ثَانِيَةً بِجَيْدِ أُغَيْدِ³

افتتح هذا النص الشعري بفعل الأمر "عُجَّ" بمعنى: مل بالركائب و الركائب هي الإبل، و قد يعبر بالإبل عن السحاب، و يدل عليها قوله بركة تهمد فجاء بالبرق، و تهمد موضع باليمن، و القضيب الرطب نشأة الاعتدال في جميع الأشياء و الروض الندي هو المقام الذي يظهر فيه هذا النشئ الإعتدالي، و الندى إشارة إلى ما فيه من اللين و الجود"⁴، و يستمر الشاعر باستعمال صيغة الأمر "ارفع صوتك" بالسُّحَيْرِ و "السُّحَيْرِ لا يكون إلا في مقام الخطاب بالحروف في عالم المواد من حضرة التمثيل و المثال، و شرطه أن يكون له وجه إلى حضرة الأنوار ووجه إلى حضرة الظلم، و أراد برفع الصوت هنا البيان بما هو المراد من هذا الخطاب على الوجهين معا أو وجه واحد"⁵، و مناداة البيض، و البيض "كل حكمة إدرسية وردت خطابا من السماء الرابعة يكون فيها من العلوم ما يكون في الشمس من الحقائق التي أودع الله فيها"⁶، و الخرد المتسمون بالحياء و هذه الميزة تذكرنا بقوله صلى الله عليه و سلم: "الحياء شعبة من الإيمان"⁷، حيث أكد أنه "علم إيماني، أي نتيجة الإيمان ما هو نتيجة الفكر، إذ نتيجة مقدمات كونية نازلة و نتيجة الإيمان هي وهب إلي و كشف رباني ذاتي و لا سيما في هذا الموضوع الذي قرنه مع الحسان و هو مقام المشاهدة"⁸. إن الإعتدال على توظيف لفظة "الإيمان" المؤسسة للمعنى في الحديث النبوي الشريف (النص الغائب) و نقلها إلى معنى (الخرد) في النص الشعري (النص الحاضر) يفتح ذهن القارئ و يجعله يبحث في إدراج ذاكرته مما يجعل تأثيرها أقوى و دلالتها أعمق، فالإيمان هو الذي يقود إلى معرفة الله و إدراك وجوده و التعلق به.

1- المصدر نفسه، ص 81

2- أخرجه البخاري رقم 5657.

3- ابن عربي، ترجمان الأشواق، ص 113.

4- المصدر نفسه، ص 114.

5- ابن عربي، ترجمان الأشواق، ص 114.

6- نفسه، الصفحة نفسها.

7- في صحيح البخاري رقم (9) (و الحياء من الإيمان) رقم 24

8- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص: 114.

وخلاصة القول أن ابن عربي قد اعتمد على التناص الديني بنوعيه (القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف) ليؤكد على منهج الصوفية في التعامل مع النصوص الدينية المقدسة بوعي وإدراك وإثارة القضايا التي عبرت بشكل منطقي على أساس وجودي أساسه الرحمة وعماده الوحدة¹ومن هنا ظهرت قيم التسامح والسلام وحوار الأديان في الشعر الصوفي. كما نجد أن الشاعر قد وظّف التناص بأنواع مختلفة فقد اعتمد على التناص من القرآن الكريم على مستوى الآية الواحدة أو على مستوى القصة القرآنية تارة بتحليل المعنى وتارة أخرى بالاستزادة فيه سعياً منه لتشكيل تجربة شعرية خاصة به ورغبة منه إشراك القارئ فيها فاتحاً له المجال للقراءة والتأويل ليجعل المعاني أكثر بروزاً وتأثيراً في نفس المتلقي.

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع، دار الغد الجديد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، القاهرة، دت)

(1) المصادر:

- ابن منظور: لسان العرب، المجلد السابع، دار صادر للطباعة والنشر، (دط)، بيروت لبنان (دت)

- أبو بكر إسحاق بن محمد الكلابذي: التعرف على أهل التصوف، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة (دت)

- أبو محمد الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن (تفسير الطبري)، تح: عبد الله بن محسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2002.

- معي الدين بن علي بن عربي: ترجمان الأشواق (ديوان)، إعتنى به عبد الرحمان المسطاوي، دار المعرفة، ط1، بيروت، لبنان، 2005.

(2) المصاحح :

- محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار ابن كثير، مجلد 1 ، ط1، دمشق، سوريا، 2002.

- مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم، تح : نظر بن محمد الفارابي، دار طيبة للنشر، مجلد 2، ط1، دمشق، سوريا، 2006.

(3) المراجع :

- أدونيس: الصوفية والسريالية، دار الساق، ط1 ، بيروت، 1992.

- أمانة بلعلي: الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي، اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، سوريا، 2001.

- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي (النص و السياق)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1992.

- عبد القادر بقشي: التناص في الخطاب النقدي و البلاغي دراسة نظرية و تطبيقية ، إفريقيا الشرق (دط)، المغرب، 2007.

- عبد السلام المسدي: الأسلوب و الأسلوبية، الدار العربية للنشر، (دط)، تونس، 1982.

- عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية و تطورها، دار الجيل، (ط1)، بيروت، لبنان، 1993.

- محمد علي الكندي: في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 2010.

- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 1992.

¹- ينظر: أمانة بلعلي: الحركة التواصلية في الخطاب لصوفي اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2001، ص274.

- هدى برهان سيف الدين : الملكة سبأ ، نموذج قيادي (رؤية من منظور بلقيس) ، دار الحكمة، (دط)، الأردن، (دت)

4) المجالات والرسائل الجامعية :

- إقبال كاظم حبيتر : أثر الحديث النبوي الشريف في تحصيل طالبات معهد إعداد المعلمات في قواعد اللغة العربية، مجلة القادسية في الآداب و العلوم التربوية، العدد 5 ، 2008.
- بولعشار مرسلي : الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة، ابن الفارض أنموذجا، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة وهران 2005.
- حسن علي بشير بهار : التناص الديني عند أبي العتاهية، رسالة ماجستير، تخصص أدب عربي، كلية الآداب، الجامعية الإسلامية، غزة، فلسطين، 2014.

نظرية النَّسجِ على المنوالِ لدى ابن خلدون؛ من منظور التفاعلات النصّية

د. مختار بن قويدر

جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر- الجزائر

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى التلقّت إلى نظرية النسج على المنوال لدى عبد الرحمن ابن خلدون، والذي كان سبباً إلى التأسيس و التأصيل لإشكالية التفاعلات النصّية و التفاعلات الحاصلة بين النصوص السابقة على المبدع، أو المعاصرة له. إذ الدارس لنظرية ابن خلدون يجده يتلاقى مع النقاد المُحدثين - غربيين و عربياً- إزاء مصطلح التفاعلات النصّية أو ما يعرف تحديداً بالتناسخ. و قد جاءت نظرية ابن خلدون في مؤلّفه (المقدّمة) تنمّ عن وعي عميق بالعلاقات النصّية، و إدراك حصيل بالعملية الإبداعية التي تحصل للأديب عن طريق المقرئية، و الاطلاع المكتّف على أعمال السابقين لحفظها و استلهام تراكيبها و استرفاد طرائقها أثناء الكتابة الأدبية و القول الشعري.

فابن خلدون يشترط على الأديب الإكثار من الحفظ للأعمال الجيدة المنمازة، ثم نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة، فإذا نسيها - و قد تكيّفت النفس بها و تمرست على تراكيبها و حفرت أخايداً في الذاكرة- رُسمَ الأسلوب و انتقش فيها؛ كأنه منوال يؤخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى، و نصوص تضارعها في الفن المطروق.

الكلمات المفتاحية:

ابن خلدون، المقدّمة، النسج، المنوال، التفاعلات، التناسخ، الإبداع، التراكيب، الأسلوب، شعرية النسيان..

Abstract

This study aims to shed the light on Abdelrahmane Ibn Khaldoun theory of imitation, as he was the first to establish and to root the issue of textual interactions and intertextuality among texts that are previous or contemporary to the creator. The one who studies Ibn Khaldoun's theory will discover that he agreed with modern critics- Arab and Western ones- on the term "the textual interactions" which is called also "intertextuality". This theory was included in his Book 'Almukadema' which shows a deep awareness of the textual relations, and a strong perception achieved by the writer through reading, and intensive knowledge of the formers works, conserving them as well as Inspiring of their structures and using them in literary writing and poetry.

Ibn Khaldun requires the writer to increase the memorization of good and brilliant works, then forgetting it in order to delete their obvious drawings, so if he forgot them but his soul adapted with them and got used of their structures, the style would engrave in memory as it is the model to imitate by other words and other similar texts in the same artistic genre.

Key words : Ibn Khaldoun, ALmukadema, model, interactions, intertextuality, creativity, structures, style, Forgetting poetics.

توطئة:

بادئ ذي بدء، وقبل الولوج في غمار البحث و لُججه، علينا أن نبحت عن المعنى اللغوي لكلمة نَوَل و منوال، فمما لا شك فيه أن أصحاب الصناعة المعجمية قد اتركوا في تعريف المنوال على أنه تلك الخشبة التي يتخذها الحائك ليحوك و ينسج عليها الثوب أو الزبيرة أو السجادة.

التأصيل لنظرية النسج على المنوال لدى ابن خلدون:

أولاً: النسيج لغة

قبل معالجة إشكالية النسيج على المنوال من حيث الوجهة الاصطلاحية النقدية، حَرِيٌّ بنا أن نحوم حول هذا المصطلح لغوياً، إذ أن أغلب المعجميين يتفقون حول معنى الوجه والطريقة، والضمّ والإتباع، وحياسة الخيوط ونسجها لصناعة الملابس المتنوعة.

و في هذا المضممار نجد ابن منظور في لسان العرب يقول:

"النسيج: ضم الشيء إلى الشيء هذا هو الأصل. نسجه ينسجه نسيجاً فانتسج ونسجت الريح التراب تنسجه نسجا: سحبت بعضه إلى بعض. والريح تنسج التراب إذا نسجت المورّ والجولّ على رسومها. والريح تنسج الماء إذا ضربت مثنه فانتسجت له طرائق كالحبّك. ونسجت الريح الرّيع إذا تعاورته ربحان طولاً وعرضاً؛ لأنّ الناسج يعترض النسيجة فيلجّم ما أطال من السدى. ونسجت الريح الماء: ضربته فانتسجت فيه طرائق ..

ونسج الحائك الثوب ينسجه وينسجه نسجا، من ذلك لأنه ضمّ السدى إلى اللّخمة، وهو النسيج، وحرفته النّساجة، وربما سبّي الدّراع نَسَاجاً. وفي حديث جابر: "فقام في نساجة ملتحقاً بها"، وهي ضرب من الملاحف منسوجة، كأنها سميت بالمصدر. وقالوا في الرجل المحمود: "هو نسيجٌ وحده"، ومعناه أن الثوب إذا كان كريماً لم يُنسج على منواله غيره لدقته، وإذا لم يكن كريماً نفيساً دقيقاً عُمل على منواله سدى عدة أثواب، وقال ثعلب: نسيجٌ وحده الذي لا يُعمل على مثاله مثله؛ يضرب مثلاً لكل من بولغ في مدحه، وهو كقولك: "فلان واحد عصره وقريع قومه"، فنسيج وحده أي لا نظير له في علم أو غيره، وأصله في الثوب لأن الثوب الرفيع لا ينسج على منواله. وفي حديث عمر: من يدلني على نسيج وحده؟ يريد رجلاً لا عيب فيه.."¹

بعد هذا التعريف اللغوي لمعنى النسيج، نتلقت إلى المعنى الاصطلاحي لهذا المصطلح.

ثانياً: النسيج اصطلاحاً

من معاني النسيج اصطلاحاً، اقتفاء الأثر، واحتذاء النموذج في الإبداع أيّ كان هذا الإبداع شعراً، نثراً، منظوماتٍ تعليمية و هلمّ جراً.

و في باب الشعر مثلاً فإنّ "الشاعر ينسج الشعرَ و ينسجه: يحوكه، والكذاب ينسج الزورَ و ينسجه.."²

فالنسيج في المعنى الاصطلاحي يعني: حياكة الشعر ونظمه وفق أسلوب معين، ولا يكون النص الأدبي -في عمومته- نصّاً إلا إذا حقق شرط النسيج والحبك والتضام.

يرى (محمد الهادي الطرابلسي)، في تقديمه لكتاب "نسيج النص" (للأزهر الزناد)، أنّ الكلام يكتسي صبغة (النصوصية) إذا كوّن نسيجا (Tissus)، و في هذا الإطار تندرج محاولة (الأزهر الزناد) في بحث نحو "النصوص" و قد انطلق فيه من مفهوم النص على أنّه نسيج من الكلام، و ذهب إلى أنّ معنى النسيج يتوفر في المصطلح الأعجمي المقابل للنص "Texte".

ثم يقرّر (الطرابلسي) أنّ المعنى الموجود في كتاب "نسيج النص" ليس غريباً عن التراث العربي الإسلامي، و خاصة في (لسان العرب) لابن منظور، لما جمع بين (النص) و(النسيج) على أن هذا المعنى قد أدركه العرب منذ عصر (ابن منظور)، فقد تبين أنّ الكلام عندهم، يكون نصّاً، إذا كان نسيجا، و النص و النسيج، في بعض الوجوه يلتقيان و يتقاطعان.

¹ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) لسان العرب، دار صادر، ط 4، بيروت-لبنان، 2004م، ج: 14، ص: 242.

² الزمخشري (جار الله فخر خوارزم محمود بن عمر) // أساس البلاغة، قدم له و شرح غريبه و علّق عليه: د. محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، ط: 1، صيدا-

ففي اللسان (لابن منظور) ، في مادتي : [ن ، ص ، ص] و [ن ، س ، ج] ، "النص": جعل المتاع بعضه على بعض ، و "النسيج" ضَمَّ الشيء إلى الشيء . فالأول تركيب و الثاني ضَمِّ ، و التركيب و الضمّ واحد. فلما كان الأمر كذلك ، رأى المؤلف أن يبحث خصائص النسيج في النصوص بالتركيز على ثلاث مجموعات من الروابط التي تحدّد الصلة بين عناصرها المكوّنة ، فدرس الروابط اللفظية والمعنوية ، و الروابط الزمنية والروابط الإحالية..¹

وبما أنّ المبدع عموماً ينسج على منوال غيره ، فإنّه أيّ النَّاص صاحب النص - لا يمكن أن يكتب كل شيء من عندياته ، ومن عند ابتكاراته فلا شيء من العدم ، بل الإبداع راسخ القدمين في القدم والماضي ، ويؤكد هذا المعنى الباحث: فيليب سولرس P.Sollers ، ف"كل نص يقع في مفترق الطرق لنصوص عدّة ، فيكون في آن واحد ، إعادة قراءة لها".²

إذن فالنص - حسب سُولرْس Sollers - عبارة عن نقطة تجمع أو هو شبكة تنسج من خيوط جمّة وكثيرة وما هذه الخيوط إلا النصوص الغائبة ، يستحضرها النَّاصُ المبدعُ وينسج على منوالها نصه الجديد ، ولكن ، كيف يتم نسج هذا النص الجديد ؟ أليس عن طريق إعادة القراءة للنصوص القديمة الغائبة ؟ إنها تتم بهذه الطريقة " احتذاذا وتكثيفا ونقلات وتعميقا

3"

وتتجلى عملية النسيج على المنوال . حسب .سولرس . من خلال إعادة القراءة ، حيث أنّ العملية الإبداعية هي في حقيقة قراءة الأمر ما هي إلا استلهام واسترفاد لما سبق من نصوص كثيرة.

و لا يمكن للمبدع أن يكون ذا مكانة راقية من حيث قيمة الإبداع إلا إذا توكأ على غيره من المبدعين السابقين، و لذلك فإنّ طبيعة الكتابة تقتضي الاستناد إلى المخزون اللغوي الذي هو نتاج تراكم وتحصيل لعدد كبير من النصوص ، ولذلك فإنّ النص أو الخطاب الذي يقدّمه المبدع هو نتاج تفاعل نصوص لا حصر لها ، مخزونة في ذهن المبدع ، وهذا التفاعل هو الذي يُدعى بـ"تداخل النصوص" أو "تداخل الخطابات" عند رواد النقد الأسلوبي والنقد التشريحي ، وهو مفهوم متطور جدا في فهم العملية الإبداعية التي مرجعها الأساس ، كتابات أخرى سابقة ، وليس الواقع المادّي كما هو خارج النصوص أو الخطابات...⁴

انْشِغَالِ الْعَرَبِ الْقُدَامَى بِعِلَاقَةِ النَّصِّ بغيره من النصوص :

يمكن أن نضع نصب أعيننا قضية هامة أثناء هذه الدراسة ، وهي : هل يمكن أن نعتبر مسألة النسيج على المنوال ، أو قضية التعالق النصي ، قديمة أم جديدة في أدبنا العربي ؟ وهل لها جذور في النقد العربي القديم ؟

لمقد فطنت الشعرية العربية القديمة ، كما فطن غيرها ، لعلاقة النص بغيره من النصوص ، بل إنّ الشعراء العرب القدماء - منذ الجاهلية - أحسّوا بسلطة النصوص الأخرى على النص الشخصي .

فلا بد للمبدع من اعترافه بطقوس البداية و يجب ألا ينسى فضل من سبقه من الشعراء و الأدباء، و من هنا قد أحسّت الشعرية العربية القديمة ، لعلاقة النص بغيره من النصوص ، بل إنّ الشعراء العرب القدماء ، منذ الجاهلية كما رأينا ، أحسّوا بسلطة النصوص الأخرى على النص الشخصي، فانشغلوا بعلاقة النص الجديد المبدع بغيره من النصوص السابقة في الزمن عليه، لحصول المملّكة المنتجة و الأساليب المحتذاة ؛ و هذا ما أكّده ابن خلدون في نظرية النسيج على المنوال كما سنرى.

فهذا (عنترة بن شداد العبسي) يقول في مفتتح معلقته :

¹ محمد الهادي الطرابلسي (دكتور) / تقديم كتاب : " نسيج النص " للأزهر الزنّاد . المركز الثقافي العربي ، ط : 01 . (الدار البيضاء + بيروت) . د ت ، ص : 06 .

² ينظر : جماعة من الباحثين / في أصول الخطاب النقدي الجديد . تر : أحمد المديني ، دار عيون المقالات ط 2 ، الدار البيضاء . 1989 . ص 104 .

³ المرجع السابق ، ص 104 .

⁴ ينظر : نورالدين السد (دكتور) / الأسلوبية وتحليل الخطاب . دار هومة ، د ط ، بوزريعة . الجزائر . د ت . ج 02 . ص 97 .

أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ؟¹

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُثَرَّدٍ

بل إنّ (كعب بن زهير بن أبي سُلمى) -الشاعر المخضرم- يرى نفسه مسبقاً بغيره من الشعراء الذين لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة إلاّ طرقوها ، وما كلامهم إلاّ قولٌ معار من السلف أو معاد مكرور من اللفظ . يقول (كعب بن زهير بن أبي سُلمى) :

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا رَجِيعًا وَ مُعَادًا مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُورًا²

وهذا (امرؤ القيس) يشهد بأنّ (ابن حِذام) يسبقه في البكاء على الديار، والوقوف على الأطلال بقوله :

عُوجًا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لِأَتْنَا نَبِيكَ الدِّيَارِ كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامٍ³.

ونجد حسان بن ثابت -رضي الله عنه- يقول:

لَا أُسْرِقُ الشُّعْرَاءَ مَا نَطَقُوا بَلْ لَا يُوَافِقُ شِعْرَهُمْ شِعْرِي⁴

ونفى طرفة بن العبد عن نفسه سرقة أشعار غيره فقال:

وَلَا أُغَيِّرُ عَلَى الْأَشْعَارِ أُسْرِقَهَا عَنْهَا غَيْبٌ، وَشَرُّ النَّاسِ مِنْ سَرَقَا⁵

وفي العصر العباسي، وجدنا الشاعر الضربير بشار بن برد يتمنى أن يحالفه الحظ، كي ينسج على منوال امرئ القيس، ويسلك أساليبه خصوصاً في التشبيهات وظاهرة التخيل، حيث "يُروى عن بشار أنه قال: ما زلت أحسد امرأ القيس على جمعه في هذا البيت:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي⁶

بين تشبيهه شينين بشينين، حتى قلت:

كَأَنَّ مُنَارَ النَّعْجِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ⁷

فجمعت فيه بين ثلاثة و ثلاثة. ولعلنا لا نُبعدُ بعد ذلك كله إذا قلنا: إنّ امرأ القيس هو الذي ألهم الشاعر العربي على مرّ العصور فكرة التشبيه، بل هو الذي وجّهه إلى الإسراف في استخدامه، حتى عدّ ذلك ضرباً رشيقاً من ضروب الزخرف و البديع"⁸. فكان هؤلاء الشعراء. من خلال هذه الأبيات. يبرزون. من بين ما ينبغي إبرازه. سلطة طقس البداية التي أصبحت علامة على الدخول في النص الشعري ، فكانّ القصيدة الجاهلية ، والطويلة منها بخاصة لا يعترف بشاعريتها إن هي لم تكن خضوعة لتقاليد البداية المتبعة في القصائد الأخرى ، هذه هي القراءة الأولية لعلاقة النصوص ببعضها ، وللتداخل النصّي بينها. وأولوا مسألة التداخل النصّي ، عناية بعيدة ، ذات إستراتيجيات متعددة ، منها الدفاع عن القدماء أو عن المحدثين ، ومنها الموازنة بين شاعرين كما فعل

¹ عنتره بن شداد العبسي (الديوان) تحقيق وشرح : عبد المنعم عبد الرؤوف شلي. دار الكتب العلمية ط01. بيروت لبنان . (1980) ص 142.

² كعب بن زهير (الديوان)، حققه وشرحه وقدم له: الأستاذ علي فاعور، منشورات علي بيضون دار الكتب العلمية .د. ط، بيروت لبنان 1997. ص.26.

³ امرؤ القيس (الديوان)، تصحيح الشيخ : ابن شنب ، شرح : الأعم الشنتمري . ش . و . ن . ت. الجزائر (1974) ص 250.

⁴ حسان بن ثابت الأنصاري (الديوان)، شرحه و كتب هوامشه و قدم له : الأستاذ عبد.أ.علي مهنّا، ط:2، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1994، ص:106

⁵ طرفة بن العبد(الديوان) ، ، اعتنى به: حمدو طقاس، دار المعرفة، ط:1، بيروت-لبنان، 2003 ، ص:65

⁶ امرؤ القيس(الديوان)، ضبطه و صحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية . ط:5، بيروت-لبنان، 2004، ص:129.

⁷ بشار بن برد(الديوان)، جمعه وشرحه و كملّه و علّق عليه: فضيلة العالمة سماحة الأستاذ الإمام: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وزارة الثقافة(الجزائر عاصمة الثقافة العربية)، ج:1، 2007، ص:335

⁸ شوقي ضيف(دكتور)/تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، ط:24، دار المعارف -القاهرة، 1960، ص:263

الأمدي¹، أو المفاضلة بينهما كما هو عند المنجم ، أو الوساطة بين شاعر وخصومه كما هو حال القاضي الجرجاني²، أو إثبات السرقات بحد ذاتها في شعر أكبر الشعراء مثل سرقات أبي تمام لابن عمّار القطري ، وسرقات البحري من أبي تمام لبشر بن يحيى التّصبي ، وسرقات أبي نواس لمهلهل بن يموت بن المزرع ، والإبانة عن سرقات المتنبي لأبي سعيد محمد بن أحمد العميدي. بل إنّ كثيرا من البلاغيين أفردوا للسرقات (الأجبية) بابا خاصّا في نهاية كتبهم³.

كما أنّنا نجد القاضي الجرجاني أشار ، قبل ابن رشيق ، إلى صعوبة التعامل مع السرقات ، وذلك في قولته التالية : " وزعم خصمك أنّك وأصحابك وكثيرا منكم لا يعرف من السرقة إلاّ اسمه ، فإن تجاوزه حصل على ظاهره ، ووقف عند أوائله ، فإن استثبت فيه ، وكشف عنه ، وجد عاريا من معرفة واضحة ، فضلا عن غامضة ، وبعيدا من جليّه ، قبل الوصول إلى مثله ، وهذا الباب لا ينهض به إلاّ الناقد البصير ، والعالم المبرّز . وليس كل من تعرّض له أدركه ، ولا كلّ من أدركه استوفاه واستكمله .."⁴

وإذا كانت هذه الاستراتيجيات المهيمنة على قراءة الخطاب الذي تُسجّ على منوال القدماء في نقدنا القديم، تدل على انشغال الثقافة العربية بعلاقة النصوص ببعضها ، فإنها تتطلب ، في الوقت ذاته ، إعادة قراءة مختصة لها أسسها النظرية الواضحة تشمل النّص الشعري ضمن بنية الثقافة العربية.

والملاحظة التي يمكننا إثباتها بهذا الخصوص ، هي أنّ الشعراء والشاعرين فرّقوا في قراءاتهم المتفحصية بين اللغة والأسلوب من جهة ، وبنية الخطاب أكان بيتا أم قصيدة من جهة أخرى . وهكذا أنزلوا الأولى منزلة السرقة، والثانية منزلة الإيجار الذي هو شرط أسبق في بناء الخطاب⁵.

فالمهتم بمصطلح (النسج على المنوال أو التعلق النصي أو التناص Intertextualité) إذا قام بمقارنته في النقد العربي القديم ، فإنّه سيجد له حتما جذورا متينة هناك . فلقد أشار (صبري حافظ) إلى أنّ (التناص) من المفاهيم الحديثة التي نجد لها بعض الملامح الهامة والجديرة بالذكر في نقدنا القديم.

يرى (صبري) أنّ معيارية علم البديع قد مكنته من تناول مجموعة كبيرة من المفاهيم التي تثرى فهمنا للتناص. وفتح أمام أي دراسة عربية فيه الباب إلى إضافات واستقصاءات هامة يطرح مجموعة من المصطلحات البديعية التي يمكنها أن تسهم في بلورة بعض ملامح هذه الإضافات .

ولقد اجتهد (حافظ صبري) كي يحصي لنا تسعة عشر مصطلحا، استقاها من أربعة مصادر نقدية عربية قديمة ، وهي

كالآتي :

1. (الوسيلة) للمرصفي.
2. (العمدة) لابن رشيق المسيبي القيرواني .
3. (نقد النثر) المنسوب لقدامة بن جعفر
4. (خزانة الأدب) لابن حجة الحموي

¹ ينظر : الأمدي (الحسن بن بشر) / الموازنة بين الطائيين، تحقيق السيد : أحمد صفر د. ط، دار المعارف- القاهرة (1961).

² ينظر: الجرجاني(القاضي علي) / الوساطة بين المتنبي وخصومه . شرح وتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى بابي الحلبي وشركاه. ط04 . القاهرة(1966).

³ ينظر :محمد بنيس/الشعر العربي الحديث : بنياته و إبدالاتها ، دار توبقال للنشر ، ط1، الدار البيضاء- المغرب 1990. ص: 182 .

⁴ الجرجاني(القاضي علي) / الوساطة ، شرح وتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى بابي الحلبي وشركاه ، ط04، القاهرة ، (1966) ، ص 183

⁵ ينظر: محمد بنيس/ الشعر العربي الحديث: بنياته و إبدالاتها. ص: 183.

وحاول الباحث ضبط هذه المصطلحات وتحديد دلالاتها . وقد فعل (محمد مفتاح) الشيء نفسه غير أنه اقتصر على أربعة مصطلحات . وذكر (سعيد يقطين) مصطلحات قديمة تقارب مفهوم (التناص) و لكنه لم يستثمرها استثماراً فعالاً في تحليل الأعمال الروائية التي درس فيها (التعالق النصي) على الرغم من إشارته إلى رغبته في استثمارها في الجانب النظري والتطبيقي في كتابه : (الرواية والتراث السردي) .

يرى يقطين أنّ (الاقتباس والتضمين والاستشهاد) مفاهيم يشتمل عليها التعالق النصي ، وورد في (المنزع) و (الصناعتين) أنّ (التضمين) يقصد به (الإبداع) ، و (العكس) و (الاجتذاب) مفهومان يشتمل عليهما (التناص)..¹

ومما هو معلوم ، أنّ الشعراء قد يتفوقون في المعاني والألفاظ ، فتأتي أبياتهم متشابهة حدّو القُدّة بالقُدّة ، ولم يسبق لأحدهم أن التقى بالآخر ، ومع ذلك يحدث هذا الاتفاق ، والسبب في ذلك يذكره أبو عمرو بن العلاء وكذلك أبو الطيب المتنبّي .

حيث " سئل أبو عمرو بن العلاء : رأيت الشاعرين يتفكان في المعنى ، ويتواردان في اللفظ، لم يلقَ واحد منهما صاحبه ، ولم يسمع شعره ؟ قال تلك عقول رجال تَوَافَتَ على ألسنتها... وسئل أبو الطيب المتنبّي عن مثل ذلك، فقال : الشعر جادة ، وربما وقع الحافر على موضع الحافر .."²

و حسب ابن رشيق ، أنّ عملية الإبداع يجب أن تتوكّأ على عصا المبدعين السابقين، و إلا عدّ المبدع جاهلاً غير ملمّ بطرائق السابقين و أساليبهم، إذ يقول: "وأتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سُبِقَ إليه جليل ، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات ..."³

أمّا (ابن طباطبا) فنجدته يتحدث عن التعالقات النصية و التفاعلات الأدبية، في المعاني المشتركة ، ولكنه غير قاسٍ في حكمه على المبدع الذي ينسج على منوال من سبقه من الأدباء و الشعراء، بل يُوجِب الفضل لمن حسّن المعاني التي سُبِقَ إليها.

يقول: "وإذا تناول الشاعر المعاني التي سُبِقَ إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها، لم يُعيب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه. ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى إلطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني و استعارتها وتلييسها حتّى تخفى

على نقّادها والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها ، كأنه غير مسبوق إليها ، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه"⁴ و عن استراتيجية النسج على المنوال في إطار التعالقات و التفاعلات النصية، وتفنن الأديب في كيفية توظيف المعاني

التي سبقه غيره إليها، يفصح (ابن طباطبا) عن هذه الإجابة ، وكون المتفاعل نصياً ينقل المعنى من المنثور إلى المنظوم والعكس صحيح، فإذا وجد المتناصُّ الناسج على منوال غيره "معنى لطيفا في تشبيب أو غزل استعمله في المديح ، وإن وجده في المديح

استعمله في الهجاء، وإن وجده في وصف ناقه أو فرس استعمله في وصف الإنسان...و إن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام أو في الخُطب والرسائل فتناوله وجعله شعرا كان أخفى و أحسن ، ويكون ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب و الفضة

المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه، و كالصيّاغ الذي يصبغ الثوب على ما رأى من الأصباغ الحسنة... قيل (للعتّابي) : بما قدّزت على البلاغة ؟ فقال : بحل معقود الكلام ، فالشعر رسائل معقودة ، والرسائل شعر محلول"⁵

¹ ينظر: نور الدين السد / الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص ص 116. 117 .

² ينظر: بدوي طيانة (دكتور)/ السرقات الأدبية). دار الثقافة . ط : 03. بيروت . لبنان . (1977) ص ص 34 . 35

³ ابن رشيق (المسيلي القيرواني) / العمدة، تحقيق محي الدين عبد الحميد . دار الجيل ط 05 بيروت ، (1981) . ج : 2 ، ص ص : 280- 281

⁴ ابن طباطبا (محمد بن أحمد العلوي) / عيار الشعر ، تحقيق و تعليق : د . محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف جلال حزي و شركاه، ط 3 ، الإسكندرية ، د ت، ص ص 112 . 113 .

⁵ المصدر نفسه ، ص ص (113 . 114).

وقد تحدث (عبد الملك مرتاض) عن مسألة التفاعل النصّي، وكون أصحابه من "المباعدين الحقيقيين الذين يملؤون الدنيا بما يكتبون، وهم مع ذلك يدينون. في حقيقة الأمر. في كل ماكتبوا، للكتابات التي سيقتم أو عاصرتهم من حيث لا يشعرون..

11

كيف صاغ ابن خلدون نظرية النسج على المنوال:

إنّ مصطلح النسج على المنوال أو التعالقات و التفاعلات النصية، هذا المصطلح الذي يمكن أن ندرجه ضمن إطار السرقات الأدبية، عولج في مباحث البلاغة العربية، إذ أُثير تحت مسعى الاقتباس والتضمين إلى غير ذلك من المسميات والمصطلحات " ولقد تناول نقادنا القدماء هذا النوع من النقد (السرقات) فجعلوه بابا من أبواب نقودهم، وسّموه السرقات الأدبية ونظروا إلى السرق منه في غالب الأحيان نظرة نقص وريبة، ثمّ ظهر هذا النوع في البلاغة العربية بمصطلح (الاقتباس) تارة إذا كان النص المقتبس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وبمصطلح التضمين تارة أخرى إذا كان النص المقتبس غيرهما، وبمصطلح (الأخذ). طورا. على العموم، إذا أخذ الأديب معنى من المعاني، أو صورة من الصور، ثمّ جودها وتجاوزها إلى صورة أحسن منها، فهو أحقّ بذلك من غيره، وبمصطلحات أخرى في أطوار أخرى...."².

يلجّ ابن خلدون على الأديب -و الشاعر خصوصاً- أن يتمرّس على الأساليب الشعرية المختلفة لحصول الملكة، وأن يقرأ كثيرا من المدونات حتى يرتسم في ذهنه التركيب اللغوي المنماز، ففي الفصل الخامس والخمسين من المقدمة، يورد لنا بابا أسماه: "في صناعة الشعر وَ وَ جُه تعلمه" يتحدث فيه عن الشعر قائلاً: "هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم و يوجد في سائر اللغات إلا أننا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب... والملكات اللسانية كلها إنما تكسب بالصناعة و الارتياض في كلامهم حتى يحصل شبهة في تلك الملكة. و الشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده و يصلح أن ينفرد دون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تल्प في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قواليه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب و يبرز مستقلا بنفسه. ثم يأتي ببيت آخر كذلك ثم ببيت آخر و يستكمل الفنون الوافية بمقصوده. ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة. و لصعوبة منحاه و غرابة فنه كان محكا للقرائح في استجادة أساليبه و شحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قواليه. و لا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى تल्प و محاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها و استعمالها فيه"³.

و من هنا فهو -أقصد ابن خلدون- كان سابقا لعصره، و تأتي نظريته سابقة لأوانها، تفرض على الأديب أن يكون ملماً بإبداعات الآخرين حتى يحذو حذوهم و يسلك طريقهم، و ينتهج مسلكهم، و يتخيّر أسلوبهم، و ينتقر ذرهم من خلال أعمالهم المبتوثة في إبداعاتهم الغفيرة، و مدوناتهم الكثيرة.

فالشاعر- و هو ببدع نصّه- " يستخدم الذاكرة الإجرائية في لحظة الكتابة الشعرية، فالتدرب على الوزن وحفظ كم كبير من الشعر، يحوّل مسار الذاكرة باتجاه المسار الإجرائي و الذي بدوره يحوّل الكتابة إلى "روتين كتابي".

¹ عبد الملك مرتاض (دكتور)/تحليل الخطاب السردى: معالجة تفكيكية- سيميائية مركبة لرواية: زقاق المدق . ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر (1995) ص

ص 279. 278 .

² حَبَّار مختار (دكتور)/ (قراءة تناصية في قصيدة الياقوتة لسيد الشيخ) ، مجلة: (تجليات الحدائث)، معهد اللغة والأدب العربي -جامعة السانية- . وهران، ع: 1.

1992، ص: 59

³ ابن خلدون (عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين)/ المقدمة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ط: 1، بيروت-لبنان، 2004، ص: 645-646

فالشاعر المتمرس لا يفكر بالوزن أثناء كتابة القصيدة فقد تحوّل لدية الوزن و الإحساس بالإيقاع إلى ذاكرة إجرائية، و هذا لا يتأتى إلا من كثرة التدريب و التعليم .. و من ذلك ما يُروى في التراث عن شخص أتى إلى شاعر يطلب تعلّم الشعر، فما كان من الشاعر إلا أن أوصاهُ بحفظ ألف بيت من الشعر، و عندما حفظها، أوصاه بنسيانها ليبدأ عندئذ كتابة الشعر.

و كذلك ما حُكي عن خالد بن عبد الله البشري أنه قال: حَفَظَني أبي أَلْفَ خطبة. ثم قال لي: تناسها؛ فتناسيتها، فلم أَرِد بعد ذلك شيئاً من الكلام إلا سَهَل عليّ. واصطنع ابن خلدون مصطلح (نسيان المحفوظ)، ودعاه رولان بارت R.Barthes (تضمينات من غير تنصيص)، فكل (نصّ) مائل إنما هو مجموعة من (النصوص) الغائبة. إذ أنّ في البداية ذاكرة القول الشعري هي ذاكرة معنوية تحتاج لتفكير، و من ثم تتحول إلى روتين و عادة، و من أمثلة ذلك أن الكتابة الشعرية قد تتمّ تحت تأثير اللاوعي، أو في شكل مختلط للوعي و اللاوعي، و أن كتابة الشعر في المسار الآلي للذاكرة لا يتم إلا بعد تدريب كبير، مثلها مثل السباحة التي لا تتحول إلى فعل لإرادي إلا بعد تدريب طويل، بحيث تخزّن في المخيخ في المسار اللاإرادي. و من الأمثلة كذلك على دور المسار الإجرائي للذاكرة ظاهرة الارتجال في الشعر، حيث يتدخل المسار الإجرائي للذاكرة في الكتابة من خلال البعد المرتبط بالإيقاع، و من خلال بُعد استحضار نماذج القول الشعري السابق الأكثر رسوخاً في ذاكرة الشاعر، و من الأمثلة عن المسار الإجرائي ما يتعلق كذلك ببعض العادات السلوكية المرافقة لإلقاء الشعر كتحرّك اليدين و بعض التعبيرات التمثيلية و السيمائية الخاصة بشخصية الشاعر¹.

و لكن أتى للشاعر أن يحوز أسلوباً أخذاً؟ ابن خلدون يُشبه الشاعر في عمله كالبناء في بنائه، و النساج في نوله أو منواله: يذكر ابن خلدون أن النقاد البصراء، و المتذوقين الحُذّاق بفن صناعة الشعر، من أهل الذوق الرفيع، يتحدّثون عن التراكيب التي ينظّم وفقها الشاعر شعره و يوفّق إلى شعر جيّد، يتذوقه المتلقي، و إلا كان ممجوجاً.

يقول: "لنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة و ما يريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنها عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ به. و لا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب و لا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة و البيان و لا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية و إنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. و تلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب و أشخاصها و يصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب و البيان فيرصها فيه رصاً كما يفعل البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام و يقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به و توجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلوع في الشعر يكون بخطاب الطلوع كقوله: يا دار مية بالعلاء فالسند، و يكون باستدعاء الصبح للوقوف و السؤال كقوله: قفا نسأل الدار التي خف أهلها. أو باستبكاء الصبح على الطلل كقوله: قفا نبك من في ذكرى حبيب و منزل. أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله: ألم تسأل فتخبرك الرسوم. و مثل تحية الطلوع بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله: حي الديار بجانب الغزل. أو بالدعاء لها بالسقيا أو سؤاله السقيا لها من البرق .. أو مثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء.. أو باستعظام الحادث كقوله:

أرأيت من حملوا على الأعوادٍ أرأيت كيف خبا ضياء النادي

¹ حمزة رستناوي/ من الذاكرة الدماغية .. إلى الذاكرة الشعرية، الحوار المتمدّن، <http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=510906&r=0>، 26 / 3 / 2016

أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده.. أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات.. أو بتهيئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته.. أو أمثال ذلك كثير من سائر فنون الكلام و مذهب¹.

ابن خلدون يوجّه الأدباء المبدعين؛ شعراء و ناثرين كي يَخْرُجُوا عن المعيارية و ينتهكوا القياسية، إلى الأساليب الشعرية الانزياحية: لا بد للعملية الإبداعية من انزياحات أسلوبية Ecarts تخرق النسق و تنتهكه، و تنحرف عن التركيب المعروف إلى تركيب انحرافي يعدل عن المعيار إلى اللامعيار و اللامألوف، و لا يتأتى ذلك للأدباء إلا بالتزود من خبرات الآخرين، و الاطلاع على أعمالهم الشعرية و النثرية، كي يتمكنوا من بناء فضائهم الأدبي، و صورتهم الجمالية "و لا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية لذلك؛ لأننا نقول قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس. و هو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية. و هذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها و الاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر، كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق. و إن القوانين العلمية من العربية و البيان لا يفيد تعليمه بوجه. و ليس كل ما يصح في قياس كلام العرب و قوانينه العلمية استعملوه. و إنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية. فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو و بهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظرا في المستعمل من تراكييمهم لا فيما يقتضيه القياس. و لهذا قلنا: إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو: حفظ أشعار العرب و كلامهم.

و هذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين و جاؤا به مفصلا في النوعين. ففي الشعر بالقطع الموزونة و القوافي المقيدة و استقلال الكلام في كل قطعين، و في المنثور يعتبرون الموازنة و التشابه بين القطع غالبا و قد يقيدونه بالأسجاع. و قد يرسلونه و كل واحد في من هذه معروفة في لسان العرب. و المستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلف الكلام عليه تأليفه و لا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب و النساج على المنوال، فلماذا كان من تأليف الكلام منفردا عن نظر النحوي و البياني و العرّوضي².

و الذي جاء به ابن خلدون منذ عدة قرون، قد جاء به النقاد المحدثون-غربيين و عربياً- في العصر الحديث، إذ تحدّثوا عن ميزات اللغة الأدبية التي تتصف بالخروج عن المعيار النحوي القياسي، إلى لغة مُزاحة عن القياس، مُنداحة عن المألوف و عن اللغة التقريرية المباشرة.

إذ يعتبر الانزياح سمة بارزة لافتة للنظر، حيث يعمد الأديب إلى العبارة العادية، فينتهك نظامها و يخرق نسقها، و يمارس عليها الخروج عن المعيار، إلى اللامعيارية في تعبيره، فيفتن القارئ المتلقي بهذا الانزياح العجيب و العدول البارع، و التفنن الممتع. و هذا ما ذكره جون كوهن (Jean Cohen) في موضوع الشعرية، كما ذكره ابن جني في شجاعة العربية، و غيرهما. و لا شك في أنّ النقاد تنبهوا إلى دلالة هذه السمة-سمة الانزياح-، و عرفوها على أنها تعني الابتعاد و الذهاب و الخروج عن المعهود؛ إذ عدّ بعضهم هذه القضية من شجاعة العربية، و إقدامها على خرق أفق انتظار المتلقي، و كسر الرتابة المقيتة.

¹ المقدمة، ص ص: 647-648 بتصرف

² المقدمة، ص ص: 648-649

و من دلالات الانزياح - في مجملها- الميل و الانحراف، و العدول و الانصراف من أسلوب إلى آخر، و خرق نظام الكلام في الجملة، و ترتيبه ترتيبا مغايرا بغية تحقيق اللذة و المتعة أثناء تلقي العمل الأدبي. بل يكاد الإجماع ينعقد على أن الانزياح: هو خروج عن المؤلف أو ما يقتضيه الظاهر. أو هو: خروج عن المعيارية الصارمة لغرض قصد إليه المتكلم.

و الانزياح يظهر إزاء هذا على نوعين: إما الخروج على الاستعمال المؤلف للغة، و إما الخروج على النظام اللغوي نفسه أي خروج على جملة القواعد التي يصير بها الأداء إلى وجوده و هو يبدو في كلا الحالين كسرا للمعيار¹. كما أننا نجد ابن خلدون، لا يعترف بالتعريف الكلاسيكي للشعر، و لا يقرّ بالمفهوم العتيق له، بل يردّ على النقاد السابقين له حول مفهومهم للشعر، ذلك الكلام الموزون المقفّى الدال على معنى، فهو يأتي بتعريف جامع، و مفهوم للشعر مانع " فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة و الأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن و الروي، مستقل كل جزء منها في غرضه و مقصده عما قبله و بعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به. فقولنا: الكلام البليغ جنس، و قولنا: المبني على الاستعارة و الأوصاف فصل له عما يخلو من هذه، فإنه في الغالب ليس بشعر، و قولنا: المفصل بأجزاء متفقة الوزن و الروي، فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل، و قولنا: مستقل كل جزء منها في غرضه و مقصده عما قبله و بعده بيان للحقيقة؛ لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك و لم يفصل به شيء. و قولنا: الجاري على الأساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة؛ فإنه حينئذ لا يكون شعرا إنما هو كلام منظوم، لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور. و كذا أساليب المنثور لا تكون للشعر، فما كان من الكلام منظوما و ليس على تلك الأساليب فلا يكون شعرا. و بهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبّي و المعري ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب فيه، و قولنا: في الحد الجاري على أساليب العرب، فصل له عن شعر غير العرب من الأمم عندما يرى أن الشعر يوجد للعرب و غيرهم. و من يرى أنه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك و يقول مكانه الجاري على الأساليب المخصوصة"² و يلاحظ القارئ المتلقي لرأي ابن خلدون حول تعريفه لحد الشعر، أنه جاء بتعريف يكاد لم يسبقه فيه أحد، فهو يعدّد مزايا شعرية الشعر و أدبية القول المنظوم، و بالتالي يضرب صفحا عن كل التعريفات السابقة عليه و المعاصرة له، فهو يجمع شروط الشعر في هذه العبارة الجامعة: (الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة و الأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن و الروي، مستقل كل جزء منها في غرضه و مقصده عما قبله و بعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به).

و إذا أردنا أن نعدّد عناصر الجملة السابقة :

1- الكلام البليغ المبني على الاستعارة و الأوصاف .

2- المفصل بأجزاء متفقة في الوزن و الروي.

3- مستقل كل جزء منها في غرضه و مقصده عما قبله و بعده.

4- الجاري على أساليب العرب المخصوصة به.

كيفية نظم الشعر و طرائق النسخ على المنوال لدى ابن خلدون: يشترط ابن خلدون على الشاعر- كي يكون شاعرا ناجحا- أن يكتر من المقروئية، و أن يمارس عملية الحفظ للقوائد الكثيرة في جميع الأغراض المتنوعة الأساليب، و لا يحوز تلك الأساليب

(¹) ينظر: يوسف أبو العدوس/الأسلوبية: الرؤية و التطبيق، دار المسيرة للنشر و التوزيع، ط1، عمان-الأردن 2007، ص 180. كما ينظر: ابن جني (أبو الفتح عثمان)

/الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، ط: 2-بيروت، دت، ج: 2، ص: 360. و ص: 442- 444، كما ينظر: أميمة الرواشدة/ شعرية الانزياح، منشورات أمانة عمان الكبرى - الأردن، 2005، ص: 187- 188

² المقدمة، ص: 649- 650

المنمازة و ينسج على منوالها، إلا بالتلمذ على فحول الشعراء المُفلقين، و من لم يقتفِ هذه الطريقة، فإن نظمه يكون رديئاً ممجوجاً، لا قيمة لها لدى الناقد و القارئ على حدٍ سواء، لأنه فقدَ لذة النص و إلذاذ السامع، من جرّاء خلو القول الشعري من الصور المكثفة و التخيل الأخاذ.

و لقد كان العلامة ابن خلدون - في هذا المنحى - قد سبق معظم النقاد المُحدثين، أمثال: ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) صاحب الحوارية (Dialogisme)، و جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) صاحبة (كتاب: Semeiotikè و مجلة la revue Tel Quel)، و ميشال ريفاتير (Michael RIFATTERRE) صاحب كتاب: (معايير تحليل الأسلوب)، و رولان بارت (Roland Barthes) صاحب كتابي (لذة النص و الكتابة في الدرجة الصفر)، و جيرار جينيت (Gérard GENETTE) صاحب (أطراس Palimpsestes) و غيرهم من الذين نظروا لمصطلح التفاعلات النصية أو التناس في العصر الحديث.

فلنستمع إلى ابن خلدون قائلًا: "اعلم أن لعمل الشعر و إحكام صناعته شروطاً أولها: الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها و يتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب. و هذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين مثل ابن ربيعة و كثير وذي الرمة و جرير و أبي نواس و حبيب و البحتري و الرضي و أبي فراس. و أكثره شعر كتاب الأغاني لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله و المختار من شعر الجاهلية. و من كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء و لا يعطيه الرونق و الحلاوة إلا كثرة المحفوظ. فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر و إنما هو نظم ساقط. و اجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ و شذذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم و بالإكثار منه تستحكم ملكته و ترسخ. و ربما يقال إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها. فإذا نسيها و قد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يؤخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة."¹

و لقد أبدع ابن خلدون هنا- في هذه الفقرة التي بين أيدينا- أيما إبداع، هذا الإبداع ينمُّ عن خبرة خاصة، و نظرة بصيرة بصنعة الشعر- و الإبداع عموماً- إذ يحض الشاعر أن يكثر من حفظ القصائد الشعرية المتميزة أدبياً، لا تلك الرديئة المهلهلة، ثم ينساها أو يتناساها، إذ من ضروريات التعالقات النصية و التفاعلات الأدبية المتناسّة، أن يقبل الشاعر على محاولة نسيان المحفوظ أو تناسيه، ثم يقبل على العملية الإبداعية، كي يتناسَّ مع غيره من المبدعين السابقين عليه، إذ ينسج على منوالهم، و يسلك سلوكهم، و يقتفي أثرهم و يتبع أسلوبهم. و نلاحظ أنّ (ابن خلدون) يصطنع في نظريته المصطلح النقدي " نسيان المحفوظ " أو (شعرية النسيان Le poétique de L'oubli) وهو الذي يدعوه الناقد الفرنسي المعاصر (رولان بارت) ب: (تضمينات من غير تنصيص) كما أسلفنا القيل.

مُحفزات نظم الشعر لدى ابن خلدون: بعد حديث ابن خلدون عن كيفية حصول الملكة، و حيازة الأديب الأساليب المكتسبة من المبدعين السابقين للنسج على منوالها، نراه الآن يوجه النصائح لأهل الكتابة، و يقدم إليهم توجيهات رشيدة و حكماً سديدة، لأوقات الإبداع، فليست- عنده- كل الأوقات مناسبة للكتابة، بل على المبدعين أن يختاروا تلك الأوقات، و أن يتخيروا الأمكنة الرائعة الجميلة، ذات المناظر الخلابة، و الخمائيل المزهرة، و خريف المياه المنسابة، و أصوات الطيور المغردة المشققة، الباعثة على قول الشعر الرقيق.

¹ المصدر نفسه، ص: 650

يقول: "ثم لا بد له (أي الشاعر) من الخلوة و استعادة المكان المنظور فيه من المياه و الأزهار و كذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها و تنشيطها بملاذ السرور. ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام و نشاط فذلك أجمع له و أنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه.

قالوا: و خير الأوقات لذلك أوقات البُكر عند الهبوب من النوم و فراغ المعدة و نشاط الفكر و في هؤلاء الجمام. و ربما قالوا: إنَّ من بواعثه العشق و الانتشاء! ذكر ذلك ابن رشيقي في كتاب العمدة و هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة و إعطاء حقها، و لم يكتب فيها أحد قبله و لا بعده مثله. قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر و لا يكره نفسه عليه"¹.

و يمكننا أن نضع مُحَفِّزَات الكتابة على شكل عناصر كالآتي:

1- الخلوة: و ذلك حتى ينفرد الأديب بنفسه، و يتخلص من معوِّقات الكتابة.
2- و استعادة المكان المنظور فيه، من المياه و الأزهار و كذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها و تنشيطها بملاذ السرور: و اختيار المكان الجميل مدعاة للانتشاء و الاسترسال في انثيال أبيات القصيد، فمن يرى الأزهار الجميلة، و الورود الساحرة الفوَّاحة، و يستمتع لخير الأمواه و تغريدات الأطيَّار، و حفيف الرياح و انسيابها من خلال الأشجار، فلا شك أنه سيأتي بالعجب العجاب في إبداعه.

3- ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام و نشاط فذلك أجمع له و أنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه: كما ينبغي له أن يكون نشيطاً طارداً عن نفسه الخمول و الكسل.

4- و خير الأوقات لذلك أوقات البُكر عند الهبوب من النوم و فراغ المعدة و نشاط الفكر و في هؤلاء الجمام: و من مُحَفِّزَات الكتابة، القيام بكرة كما قال بشار بن برد: بِكرًا صاحبيّ قبل الهجير إنَّ ذاك التَّجَاحُ في التَّكْبِيرِ² حيث تَنَسُّمُ الهواء النقي العليل، و فراغ المعدة، فالشبع مدعاة للوسن و النوم، بيد أن عدم الشبع و البعث عن التُّخمة من عوامل نشاط الفكر و توقده. و هذا ما أوصى به الزرنوجي صاحب كتاب (تعليم المتعلِّم طريق التعلُّم)، إذ قال: "و أفضل الأوقات شرح الشباب، و وقتُ السَّحَر، و ما بين العشائين.. و كاك ابن عباس رضي الله عنه، إذ ملَّ من الكلام يقول: هاتوا ديوان الشعراء"³

5- إنَّ من بواعثه العشق و الانتشاء! ذكر ذلك ابن رشيقي في كتاب العمدة و هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة و إعطاء حقها، و لم يكتب فيها أحد قبله و لا بعده مثله: و من مُحَفِّزَات و استفزات الشعر الجنوح إلى العشق و الطرب و حب المرح، فمن كان هذا دَيْدَنَهُ سيبدع في قوله الشعري إبداعاً عجبياً.

6- فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر و لا يكره نفسه عليه: فبعد تعب النفس و كلالتها، على الأديب أن يرتاح و يأخذ قسطاً من الراحة، ثم يُقبل على نظم الشعر، و يراود نفسه شيئاً فشيئاً حتى تنقاد له، فإذا الشعر ينساب انسياباً، و إذا المعاني و الأخيلة تنثال انثيالاً لا نظير له.

مُعَمَّارِيَة القصيدة لدى ابن خلدون:

يُسَيِّدِي ابن خلدون للشاعر، طريقه عجيبة في بناء القول الشعري، فهو يدعو إلى تخيّر القافية من الوهلة الأولى في عملية نسخ نصوص القصيدة، و رصّ وحداتها لَبَنَةً لَبَنَةً، كما ينصح الأديب بالمراجعة المتتدة لعمله، فعملية المراجعة للقصيدة و تنخيلها

¹ المقدمة، ص: 650-651

² بشار بن برد (الديوان)، جمعه و حَقَّقَه: السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، د ط، بيروت- لبنان، 1981، ص: 170

³ الزرنوجي (برهان الإسلام) / تعليم المتعلِّم طرق التعلُّم، تحقيق: مروان قناني، المكتب الإسلامي، ط: 1، بيروت- لبنان، دمشق- سورية، 1981، ص: 117

كفيلة بأن تجعل العمل رائعاً، والنص مائعاً" وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه و نسجه بعضها، و يبني الكلام عليها إلى آخره؛ لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها. فربما تجيء نافرة قلقة و إذا سمح الخاطر بالبيت و لم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به فإن كل بيت مستقل بنفسه و لم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء و ليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح و النقد و لا يرضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجابة. فإنّ الإنسان مفتون بشعره.. و لا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب. و الخالص من الضرورات اللسانية فليجهرها فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة.. و يجتنب أيضا المعقد من التراكيب جهده. و إنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم. و كذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم. و إنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقا على معانيه أو أوفى منها.. و لا يكون الشعر سهلا إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن. و لهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه و ازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي و المعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر، فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر و الحاكم بذلك هو الذوق¹.

بعد توجيه النصيحة للأديب فيما يخص طريقة بناء القول الشعري، و نسجه نسجا محكما، نراه يوصيه بعدم الإغراق في الغريب من الكلام، و تجنب الألفاظ المتداولة التي تنزل عن مرتبة الشعرية و الأدبية، و يدعوه إلى تملي كتاب العمدة لابن رشيقي، فإنّ طلبته كامنة في ثنايا ذلك السفر العجيب "و ليجتنب الشاعر أيضا الحوشي من الألفاظ و المقصر، و كذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة، و كذلك المعاني المبتذلة بالشهرة، فإنّ الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضا فيصير مبتذلا و يقرب من عدم الإفادة كقولهم: النار حارة و السماء فوقنا.. و لهذا كان الشعر في الربانيات و النبويات قليل الإجابة في الغالب و لا يحذق فيه إلا الفحول و في القليل على العشر لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك. و إذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليروا ضه و يعاوده فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء و يجف بالترك و الإهمال. و بالجملة فهذه الصناعة و تعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيقي و قد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد. و من أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك. و هذه نبذة كافية و الله المعين. و قد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها. و من أحسن ما قيل في ذلك و أظنه لابن رشيقي :

لَعَنَ اللَّهُ صِنْعَةَ الشِّعْرِ مَاذَا	مِن صُنُوفِ الْجُهَّالِ فِيهَا لَقِينَا
يُؤَثِّرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا	كَانَ سَهْلًا لِلْسَّامِعِينَ مُبِينَا
وَيَرْوُونَ الْمُحَالَ مَعْنَى صَحِيحَا	وَ خَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَ لَا يَدُّ	رَوْنَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا ²

خاتمة البحث:

ختاماً لهذه الدراسة، بؤدي أن نجمل القضايا التي ذكرتها في ثناياها:

أ- تؤسس نظرية النسج على المنوال لدى ابن خلدون لقضية الإبداع المتكئ على كتابات المبدعين السابقين أو المعاصرين للمبدع.

ب- كان ابن خلدون في نظريته سباقاً للنقاد المحدثين-غربيين و عربياً- إذ نظر لإشكالية التفاعلات و لتقاطعات النصية عن طريق كثرة الحفظ.

¹ المقدمة، ص: 651

² المقدمة، ص: 651-652

- ج- دعا إلى نسيان المحفوظ أو تناسيه، كما يسعى في النقد الحديث بشعرية النسيان.
- د- دعا إلى اختيار أوقات الكتابة، فنصح الأديب إلى اغتنام أوقات البكور، وفراغ المعدة، وارتياح البال.
- هـ- دعا إلى حفظ الأساليب الجميلة، ليكون الإبداع جميلاً ينسج الأديب على منوالها و تراكيبها.
- و- وجّه الأديب إلى كيفية بناء النص الأدبي، فمعمارية النص لها أسس و خطوات يجب اتخاذها، لكتابة نص أصيل أخاذ، و الأديب -و هو يكتب- عليه أن يكون مثل البتاء في بنائه، و كالنساج في حيّاكنه.
- ز- جاء ابن خلدون بتعريف جديد للشعر، فهو ذلك القول المعتمد على التخيل و الصور، المنتهك للنسق، المتميز بالخروج عن المعيارية و التقديرية الجافة.
- ح- أرجو الدّارسين أن يهتموا بما كتب ابن خلدون في مقدّمته، خصوصاً في مجال النقد و الإبداع، و قضايا اللسانيات و اللغويات، فهناك الكثير من القضايا التي دعا إليها و استثارها، ما تزال بَكرًا، تحتاج إلى من يميّط عنها اللثام، و ينفذ عنها الغبار، و يقدّمها للقارئ العربي، فينجز حولها الدراسات و الأطارح العلمية.
- وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم

- 1- الأزهر الزّناد / نسيج النص. المركز الثقافي العربي، ط: 01. (الدار البيضاء + بيروت). د ت .
- 2- الأمدى (الحسن بن بشر) / الموازنة بين الطائيتين، تحقيق السيد : أحمد صقر . دار المعارف القاهرة (1961).
- 3- أميمة الرواشدة/ شعرية الانزياح، منشورات أمانة عمان الكبرى، د ط - الأردن، 2005.
- 4- امرؤ القيس (الديوان)، ضبطه و صحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط: 5، بيروت-لبنان، 2004.
- 5- امرؤ القيس (الديوان)، تصحيح الشيخ : ابن شنب ، شرح : الأعلام الشنتمري . ش . و . ن . ت. الجزائر (1974)
- 6- بشار بن برد(الديوان)، جمعه وشرحه و كملّه و علّق عليه: فضيلة العلامة سماحة الأستاذ الإمام: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وزارة الثقافة د ط، (الجزائر عاصمة الثقافة العربية)، ج: 2007، 1.
- 7- بشار بن برد (الديوان)، جمعه و حقّقه: السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، د ط، بيروت- لبنان، 1981
- 8- بدوي طبانة(دكتور)// السرقات الأدبية. دار الثقافة، ط: 03. بيروت. لبنان . (1977).
- 9- ابن جني (أبو الفتح عثمان) / الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، ط: 2- بيروت، دت، ج: 2.
- 10- الجرجاني (القاضي علي) / الوساطة بين المتنبي وخصومه .، شرح وتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجّاوي ، مطبعة عيسى البايي الحلبي وشركاه ، ط: 04، القاهرة، (1966) .
- 11- جماعة من الباحثين / في أصول الخطاب النقدي الجديد. تر: أحمد المديني، دار عيون المقالات ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 1989.
- 12- حسان بن ثابت الأنصاري (الديوان)، شرحه و كتب هوامشه و قدّم له :الأستاذ عبد.أ. علي مهنا، ط: 2، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1994.
- 13- ابن خلدون(عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين) // المقدمة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ط: 1، بيروت-لبنان، 2004.
- 14- ابن رشيق المسيلي القيرواني/العمدة، تحقيق معي الدين عبد الحميد. دار الجيل ط: 05، بيروت(1981)، ج: 2.

- 15- الزرنوجي (برهان الإسلام) / تعليم المتعلم طرق التعلّم، تحقيق: مروان قبّاني، المكتب الإسلامي، ط:1، بيروت-لبنان، دمشق-سورية، 1981.
- 16- الزمخشري، جار الله فخر خوارزم محمود بن عمر/ أساس البلاغة، قدم له و شرح غريبه و علّق عليه: د.محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، ط:1، صيدا-بيروت، 2003.
- 17- شوقي ضيف/ تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ط:24، دار المعارف - القاهرة، 1960.
- 18- طرفة بن العبد (الديوان)، ، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة ط:1، بيروت-لبنان، 2003.
- 19- ابن طباطبا (محمد بن أحمد العلوي) / عيار الشعر ، ، تحقيق و تعليق : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف جلال حرّي و شركاه ، ط3، الإسكندرية، د ت
- 20- عبد الملك مرتاض (دكتور) / تحليل الخطاب السردى : معالجة تفكيكية- سيميائية مركبة لرواية: زفاق المدق . ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر (1995).
- 21- عنتر بن شداد العبسي (الديوان) تحقيق و شرح : عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي. دار الكتب العلمية ، ط01. بيروت -لبنان . (1980).
- 22- كعب بن زهير (الديوان)، د ط ، حققه و شرحه و قدّم له: الأستاذ علي فاعور، منشورات علي بيضون دار الكتب العلمية، د ط، بيروت - لبنان 1997 .
- 23- محمد بنيس / الشعر العربي الحديث : بنياته و إبدالاتها ، دار توبقال للنشر ط1، الدار البيضاء- المغرب ، 1990.
- 24- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم/لسان العرب، دار صادر، ط 4، بيروت- لبنان، 2004م ، ج:14.
- 25- نورالدين السد (دكتور)/الأسلوبية وتحليل الخطاب. دار هومة بوزريعة، د ط . الجزائر د ت ج. 02 .
- 26- يوسف أبو العدوس /الأسلوبية: الرؤية و التطبيق ، ، دار المسيرة للنشر و التوزيع، ط1، عمّان-الأردن ، 2007.

الدوريات:

- حَبّار مختار (دكتور)/ قراءة تناصية في قصيدة الياقوتة لسيد الشيخ ، مجلة: (تجليات الحداثة)، معهد اللغة والأدب العربي - جامعة السانية- وهران، ع:1 . 1992.

-المواقع الإلكترونية:

حمزة رستناوي/ من الذاكرة الدماغية .. إلى الذاكرة الشعرية، الحوار المتمدّن،

2016 / 3 / 26، <http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=510906&r=0>

الانساق والانسجام النصي في التراث اللساني البلاغي

- كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي نموذجاً -

Textual Consistency and Consistency in the Linguistic Literary Heritage
.- The Book of The secret of eloquence by Ibn Sinan Al-Khafaji is a model-

د. مريم بوجناح

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر

الملخص:

نحاول في هذا العمل كشف اللثام عن بعض معالم لسانيات النص في المدونات التراثية البلاغية من خلال استقراء كتاب "سر الفصاحة لعلم من أعلام البلاغة العربية ألا وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (422هـ/466هـ) من علماء القرن الخامس الهجري، فمن خلال تتبعنا لأراء "ابن سنان الخفاجي" في كتابه "سر الفصاحة" لمسنا جانباً منها يتفق وبعض مبادئ اللسانيات النصية فيما يخص انساق و انسجام النص المؤلف، وذلك من خلال تركيزه على شروط مقبولية الرسالة أو النص عند الملتقي، والذي يفترض أن يكون فصيحاً من حيث اللفظ والمعنى حتى يتأثر ويقتنع به المخاطب، والفصاحة لا تتحقق عنده إلا من خلال مجموعة من المؤشرات النصية والتي سنذكر البعض منها مما يتفق وشروط انساق النص و انسجامه كالتكرار والحذف والمقبولية الخ

الكلمات المفتاحية: التراث البلاغي، لسانيات النص، التماسك النصي، ابن سنان الخفاجي، كتاب سر الفصاحة.

Abstract:

of textual indicators, which we will mention some of them consistent with the conditions of consistency of text and harmony, such as repetition, deletion and acceptability ... etc in this work, we try to uncover some of the features of the linguistic texts in the rhetorical heritage codes by extrapolating the book "The Mystery of Discipline to a Flag of Arab Dialogues," which is Abu Muhammad Abdullah Bin Muhammad Bin Saeed Bin Sinan Al Khafaji Al Halabi (422 AH / 466 AH) Of the scholars of the fifth century AH, following the views of "Ibn Sinan al-Khafaji" in his book "The mystery of eloquence" we touched some of them agrees with some of the principles of textual linguistics regarding the consistency and harmony of the text author, by focusing on the conditions of acceptability of the letter or text at Which is supposed to be explicit in terms of pronunciation and And the meaning is so influenced and convinced by the addresser, and this eloquence can not be achieved only through a set

keywords : the Linguistic Literary Heritage, text linguistics, cohesion, Ibn Sinan Al-Khafaji, The Book of The secret of eloquence.

1. مقدمة:

إنّ عملية الربط بين الفكر اللغوي عند العرب القدامى ونظريات البحث اللغوية الحديثة من المسائل المهمة والقضايا التي أصبحت تشغل فكر الباحثين العرب في إطار ما يسمى باستقراء التراث اللغوي العربي، فبالإمكان لدى العودة إلى مؤلفات القدامى ملاحظة المجهود الهائل الذي قاموا به في مجال دراسة اللغة والعناية الدقيقة التي بذلوها في سبيل الكشف عن أسرارها و الحفاظ عليها معتمدين في ذلك ضمناً على علوم لغوية حديثة لم تكن قد ظهرت بعد في زمانهم كلسانيات النص: وهي ذلك الاتجاه الذي يتخذ من النص محوراً للتحليل اللساني، فهو يبدأ من النص وينتهي به لكونه كائن لغوي يحمل في طياته عناصر صوتية و صرفية و تركيبية ودلالية تنتظم جميعاً في بنية محكمة بقواعد التركيب، وقد جسدت الإرهاصات الأولية لهذا الاتجاه على يد "هاريس / Harris" في النصف الثاني من القرن العشرين عند نشره لدراسته الشهيرة (تحليل الخطاب / Analyse du

(discourse) بعده أخذت الدراسات اللسانية النصية بالازدهار في الستينيات والسبعينيات خاصة مع (فان دايك/ Van Dijk) من خلاله كتابه (بعض مظاهر نحو النص Some Aspects of Texts Grammar) وأصدر سنة 1977م مؤلفاً آخر بعنوان (النص والسياق/ Le Texte et le Contexte) كما أصدر سنة 1980 كتاباً آخر بعنوان (علم النص مدخل متداخل الاختصاصات)، وبعد هذا اللساني الفدّ برز (روبرت دي بوجراند/ Robert de Beaugrande) الذي ألف كتاباً مهماً بعنوان (النص والخطاب والإجراء Text, Discours and process)، ثم أصدر كتاباً آخر بعنوان (مدخل إلى لسانيات النص/ Introduction de linguistique Textuelle) وتوالت المؤلفات إلى أن أصبحت لسانيات النص فرعاً علمياً قائماً بذاته¹

ولو أطللنا إطلالة سريعة على الدرس البلاغي العربي لأمكننا القول بأنه شمل اجتهادات كثيرة يمكن أن نتخذها مرجعاً لما اصطاح عليه "لسانيات النص" إذ انطلقت مباحث عديدة في علم البلاغة من منطلق المعالجة النصية مثل: الإيجاز، الفصل والوصل، التكرار الحذف التدرج المناسبة ومن ذلك كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، فماهي أبرز ملامح التوجه اللساني النصي في هذه المدونة التراثية البلاغية؟

2. نبذة موجزة عن المؤلف والمؤلف:

أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (422هـ/466هـ) من علماء القرن الخامس الهجري، تتلمذ على يد أبي العلاء المعري، و كان أعلم الناس في النقد والبلاغة، و من بعض مؤلفاته "سرّ الفصاحة"، "الصرفة في الإعجاز"، "الحكم بين النظم والنثر"، "عبارة المتكلمين في أصول الدين".

و لقد شغل كتابه (سرّ الفصاحة) مكانة متميزة بين كتب النقد والبلاغة، و هيأت له تلك المكانة عوامل عدّة، بعضها راجع إلى طريقة ابن سنان في عرض الموضوعات التي وردت بين دفتي الكتاب، و طريقة معالجته لها، خاصة في فنون البلاغة و الفصاحة، و بعضها راجع إلى دقته و ذوقه و رهافة حسه.

لما رأى ابن سنان الناس مختلفين في مفهوم الفصاحة و في تمييز الكلام الفصيح من غيره لعدم احتكامهم في ذلك إلى قواعد و معايير قرر وضع كتابه الموسوم "بسرّ الفصاحة"، و يتضح ذلك من خلال قوله "اعلم أنّ الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة و العلم بسرّها"² و لذلك فإنّ بيان مفهوم الفصاحة و شروطها هي الغاية التي أراد ابن سنان بكتابه أن يصل إليها، فعلم الفصاحة يضع بين يدي المرء جملة من الأسس و المبادئ التي يهتدي بها في إنشاء كلام ينوي تأليفه أو يستعين بها في الحكم على كلام أنشأه غيره .

يتألف هذا الكتاب من مقدمة و ثمانية فصول، تطرق المؤلف في الفصول الثلاثة الأولى إلى الصوت و الحرف و الكلام، بحيث أورد الكثير من المعلومات الصوتية التي تتعلق بالمخارج و أنواعها، و أسباب اختلاف الحرف، و المهموس و المجهور منها، أما في الفصل الرابع فقد تحدث عن نشأة اللغة توفيقاً أم مواضعة، و فيما يلي ذلك من فصول تطرق لبعض مزايا العربية، ثم فصل حديثه عن الفصاحة و البلاغة : إذ يرى أنّ الفصاحة خاصة بالألفاظ بينما البلاغة عامة في الألفاظ و المعاني و ذلك من خلال قوله " و الفرق بين الفصاحة و البلاغة أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، و البلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني....و كلّ كلام بليغ فصيح ، و ليس كل فصيح بليغ"³

محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، 2008، ص63، 62.

² أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1982، ص: 13.

³ المرجع نفسه، ص 59.

فالفصاحة تكون نعتاً للألفاظ عند ابن سنان إذا توافرت فيها عدّة شروط ، فمن أخذ بهذه الشروط كانت ألفاظه فصيحة ، وإن ابتعد عنها أصبحت ركيكة و ذميمة ، وقد قسّم هذه الشروط إلى قسمين أساسيين:

- **القسم الأول:** خاص باللفظة وحدها دون أن تفتقرن بغيرها.
 - **القسم الثاني:** خاص بالألفاظ مضمومة إلى بعضها البعض فالفصاحة إذن شاملة للألفاظ المفردة و المؤلفة وهو ما أطلق عليه بصريح العبارة (شروط الفصاحة) و لا تناقض عنده في قصرها مرّة على الألفاظ و مرّة أخرى على التّأليف ، و إن فصل بين اللفظة و المعنى ، فهذه محاولة منه الإقرار بترابطهما و حضورهما معا في القول البليغ و رأيه في الأمر واضح بحيث يكفي التّديل عليه يقوله "إنّ المعاني و تأليف الألفاظ هي صناعة هذا الصّانع التي أظهرها في الموضوع"¹.
- إنّ رصد وجوه الفصاحة في الألفاظ عند الخفاجي لا يتمّ بمراعاة الجوانب التي ترتكز على تلاؤم حروفها، و علاقتها بجهاز النطق و السّمع فقط و إنّما بجوانب أخرى منها النّظر في سلامة مخارج الحروف، و مدى تأثيرها الموسيقي على جهاز السّمع، و ارتباطها بالعرف العربي سليقة و ملكة، و ما يوجد فيها من خصائص الطبع و الدّوق و البعد عن الغريب الحوشي و المبتذل و الشّاذ، كما يقيم فصاحة التّأليف على أصول منها التّقديم و التّأخير، و صحّة النّسق و النّظم و رعاية مقتضى الحال و التّناسب، و من خلال ذلك يناقش كثيراً من آراء سابقيه كالرّماني، و القاضي الجرجاني، و الصولي، كما كان حديثه عن فنون البلاغة من صور بيانية و بديع في ثنايا حديثه عن سرّ الفصاحة التي تشمل حسن اللفظ و حسن المعنى.

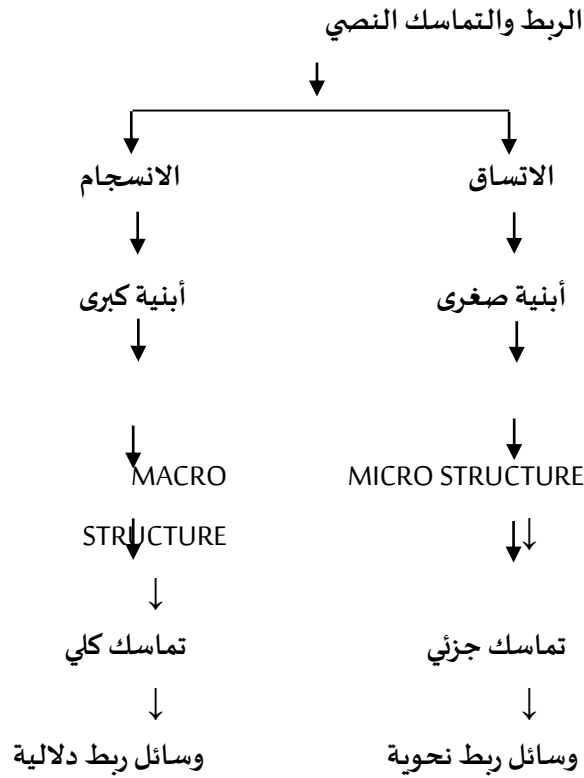
3. معالم الاتساق و الانسجام النصي في كتاب البرهان.

يشترك كل من الاتساق و الانسجام في مهمة الربط، غير أنّ الانسجام هو ربط دلاليّ بينما الاتساق فهو ربط نحويّ لغويّ، وشرح "سعيد حسن بحيري" هذا الفرق بقوله: "النّص يتشكل من أجزاء مختلفة تقع من الناحية الدلالية على مستوى رأسي، ويتكون المستوى الأول من وحدات نصية صغرى تربط بينهما علاقات نحوية، ويتكون المستوى الثاني من تصورات كلية بينهما علاقات التماسك الدلالية المنطقية"².

إذن يعتمد الربط في هذا المستوى على أدوات ربط نحوية، أمّا على المستوى الثاني فإنه فيعتمد على وسائل ربط دلالية، ويرى علماء النّص أنّ الربط النحوي يتم على مستوى الأبنية الصغرى، بينما الربط الدلالي فيتم على مستوى الأبنية الكبرى، ويمكن عكس هذه المعلومات و تجسيدها في المخطط التالي:

المرجع نفسه، ص 95. 1

2 سعيد حسين البحيري، علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر، ط 1، 1997، ص: 119.



وعليه فإنّ تلاحم النصوص وتآلفها يرتكز على مبدئين هما:

الاتساق والانسجام، وقد أكدت خولة طالب الإبراهيمي على أهميتها لضمان نصية النص بقولها: "النّص لا يكون مترابطا فحسب بل ينبغي أن يتصف بالاتساق... ولا تستقيم نصية القطعة إلاّ بانسجامها"¹ فالاتساق بحاجة إلى الانسجام، والانسجام بدون اتساق لا يستطيع كذلك تكوين بنية متكاملة مترابطة للنص.

ومن أهمهم وسائل الاتساق و الانسجام التي وقف عندها ابن سنان الخفاجي كمظاهر لتحقيق فصاحة الخطاب نذكر:

1.3. التكرار: مثلما يوجد اتساق نحوي يوجد اتساق آخر وهو معجمي، غير أن الهدف واحد داخل النّص وهو ربط معالم

النّص ووحداته ببعضها البعض، ويتم الاتساق المعجمي بواسطة التكرار والتضام، إن الاتساق المعجمي التكراري (Le Réurrence) هو إعادة عنصر معجمي بذاته أو بمرادفه أو بشبيهه أو بعنصر عام يشمله فمثلا تكرار عنصر (الصعود) في العبارة

التالية " شرعت في الصعود إلى القمة" يحتمل الأوجه التالية:

- ← كان الصعود سهلا ← تكرار العنصر نفسه
- ← كان التسلق سهلا ← تكرارا بالمرادف (الصعود= التسلق)
- ← كان المشي سهلا ← تكرار بالتشبيه
- ← كان هذا سهلا ← تكرار عنصر عام²

¹ خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2000، ص: 169

² عمر أبو خرمة، نحو النّص- نقد النظرية وبناء أخرى، عالم الكتب الحديثة، الكويت، ط1، 2004، ص: 81.

وهناك من يرى أن الاتساق المعجمي التكراري هو نفسه التوكيد اللفظي الذي يكون بإعادة العنصر المعجمي ذاته أو بمرادفه، وعرفه الفقي بقوله: "التكرار هو إعادة ذكر لفظ أو عبارة أو جملة أو فقرة، وذلك باللفظ نفسه أو بالترادف وذلك لتحقيق أغراض كثيرة أهمها تحقيق التماسك النصي بين عناصر النص المتباعدة"¹

فامتداد العنصر المكرر من بداية النص إلى آخره يساهم مساهمة كبيرة في تحقيق التماسك النصي، إذ أن "العناصر المتكررة أو التوكيدات تخص بصفة أساسية العلاقات بين وحدة نصية وأخرى فهي إذن أساسية في تحقيق التماسك النصي".² تكرر معجمي تتوسع فيها العناصر بطريقة تضمن اتساق النص.

وعليه فقد أقرت لسانيات النص بأن التكرار عنصر مهم من عناصر انسجام النص لكن المبالغة فيه بالخروج إلى التكرار الممل أو ما يطلق عليه بالتكرار غير الفني غير مقبول، وهذا ما بينه ابن سنان من خلال دعوته إلى اجتناب تكرار الحروف المتقاربة في اللفظة الواحدة وفي التأليف أقيح لأنه سيفسد المعنى وبالتالي التأثير على مقبولية النص عند السامع بالسلب ومثل لذلك بقول الشاعر:

لم يضرّها والحمد لله شيء *** وانثنت نحو عزف نفس ذهول

فالمصرع الثاني من هذا البيت يثقل التلّفظ به وسماعه لما فيه من تكرار حروف الحلق³ ومثل كذلك بقول المتنبي في مدح بن عبد الله الخصبيني:

العارض الهتنّ ابن العارض الهتنّ *** ابن العارض الهتنّ ابن العارض الهتنّ

بحيث يرى ابن سنان أنّ هذا البيت من أقيح ما يكون من التكرار وأشنع، وإذا كان بقبح الحروف المتقاربة المخارج، فتكرار الكلمة بعينها أقيح وأشنع⁴ بينما التكرار الذي لا يحصل المعنى إلا به وهو التكرار المحمود فقد أجاز ابن سنان ورأى فيه شرطاً لاستقامة التأليف، واستدلّ ببيت الحطيئة عند قوله:

ألا حبذا هند وأرض بها هند *** وهند أتى من دونها النأي والبعد

فأجاز أبو العلاء هذا التكرار وعلّله بأنّ الحطيئة من حبّه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيباً ولأنّه يجد للتلقظ باسمها حلاوة، فلم ير من الاعتذار للتكرير إلا هذا العذر⁵ وكذلك قول شاعر:

ولولا دموعي كتمت الهوى *** ولولا الهوى لم تكن لي دموع

فهذا البيت حسب ابن سنان ليس من التكرار المكروه، وذلك أنّ المعنى مبني عليه، ومقصود على إعادة اللفظ بعينه، فمتى وجدنا المعنى عليه ولا يتم إلا به لم نحكم بقبحه، وما خالف ذلك قضينا عليه بالإطراح ونسبناه إلى سوء الصناعة⁶

2.3. وضع الألفاظ موضعها:

¹ صبيح إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2000. ص: 20.
Joelle Gardes/Tamine Marie/Antoianette Pellizza, La construction du : *texte de la grammaire au style*, Paris 1998 p 151²

³ ابن سنان الخفاجي "سرّ الفصاحة" ص 98.

⁴ المرجع نفسه ص 102.

⁵ المرجع نفسه ص 103.

⁶ المرجع نفسه ص 107.

هذا الشرط يناسب ما اصطلاح عليه في لسانيات النص " بتنظيم الخطاب وتدرجه " فمن الضروري جداً أن يتوفر النص على نوع من التدرج في عرض مادته سواء أكان الأمر مُتعلّقاً بالعرض أو بالسرد، أو بالتحليل لأن: "النص الذي يبقى في مرحلة ما من إنجازهِ يُراوح مكانه، ولا نحس فيه تقدماً نحو تحقيق مقصدية، يُعدّ نصّاً ناقصاً"¹ وهذا لأن مبدأ التدرج يعمل على تهيئة عقل القارئ لاستيعاب الحقائق والأحداث التي يفترض أن لا تُقدم دفعة واحدة خاصة في النصوص المطولة (النص القصصي) التي تحتاج إلى منهجية خاصة تقوم على التدرج المنطقي، لذلك يرى "Dominique Maingueneau" أنّ "سيرورة النصّ في عرض المعلومات وتواصلها تخضع إلى ظاهرتين هامتين هما: " التكرار والتدرج " ذلك أنّ الكاتب يذكر أحياناً في مرحلة ما من مراحل النصّ أشياء سبق ذكرها محاولاً بذلك ربط السابق بالأحق، وممهّداً للانتقال إلى معلومات جديدة"²

وعليه فإنّ معيار التدرج يجعل القارئ يحسّ أنّ للنص مساراً مُعينا، وأنّه يتّجه نحو هدف محدد، ويجعله كذلك يتوقع في مرحلة ما من مراحل النصّ ما سيأتي بعدها.

ولخصه ابن سنان في أن لا يكون في الكلام تقديم أو تأخير يؤدّي إلى فساد معناه وإعراجه، و ضرب مثالا بما أنشده "عروة بن الورد العبسي":

قُلْتُ لِقَوْمٍ فِي الْكِنِيفِ تَرُوحُوا *** عَشِيَةَ بَتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُوحِ

تَنَالُوا الْغَنَى أَوْ تَبْلُغُوا بِنَفْسِكُمْ *** إِلَى مَشْرَاحٍ مِنْ حَمَامٍ مَبْرَحِ

فالتقدير قلت لقوم رزح في الكنيف عشية بتنا عند ماوان تروحو تنالوا الغنى، ففصل بين الصفة والموصوف والأمر و

جوابه³

و مثله قول المتنبي:

المجد أخسر والمكارم صفقة *** من أن يعيش لها الهمام الأروع

فجاء هذا المجرى، وفيه تقديم وتأخير و فصل بين الصلة والموصول، و تقديره المجد و المكارم أخسر صفقة⁴

و يرى ابن سنان أنّ من حسن وضع الألفاظ في موضعها حسن وضع الصور البيانية و المحسنات البديعية و مثل بحسن

الاستعارة بقول ذي الرّمة:

أقامت به حتى ذوى العود والثرى *** ولفّ الثريا في ملاءته الفجرُ

لأنّ الفجر لمّا غطى اللّيل ببياضه و شمل الأرض عند طلوعه حسنت استعارة الملاءة له لتضمنها هذا المعنى، و عبّر بطلوع

الثريا وقت طلوع الفجر بأنّه لقمها في ملاءته، و تلك أحسن عبارة و أوضح استعارة⁵.

و مثل لقبح الاستعارات بقول أبي تّام:

وكم أحرزت منكم عل قبح قدّها *** صروف النوى من مرهف حسن القدّ

فإنّ استعارة القدّ لصروف النوى من أبعد ما يقع و أقبحه، و إنّما يقود أبا تّمام إلى هذا و أمثاله رغبة في الصنعة⁶

المرجع نفسه ص 107.

² محمد الأخضر الصبيحي، "مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقية"، ص: 83.

Maingueneau Dominique, élément de linguistique pour le texte Littéraire, 3ème édition, Nathan, Paris, 2000, p157³

المرجع نفسه ص 112.

⁵ المرجع نفسه ص 122.

⁶ المرجع نفسه ص 122.

و مثل بحسن وضع المحسنات البديعية بالسجع بحيث قال: "فكما أنّ الشعر يحسن بتساوي قوافيه كذلك النثر يحسن بتمائل الحروف في فصوله"¹ و أكد على ضرورة أن لا يكون السجع مستكره متكلف حتى لا يُذهب بطلاوة الكلام إذ قال "السجع محمود إذا وقع سهلاً مُتيسراً بلا كلفة ولا مشقّة، و بحيث يظهر أنّه لا يقصد في نفسه، و لا أحضره إلاّ صدق معناه دون موافقة لفظه، و لا يكون الكلام الذي قبله إنّما يُتخيل لأجله"²

و مثل لسوء استخدام السجع بقول أبي الحسين بن سعد في بعض رسائله "..... فلم أجد لسوء الظن مساعاً، و لا لظاهر الإعراض قبولاً، لأنك الأخ المبلّوة أخباره، المتكافئة في الجميل أفعاله، غير أنّ النفس تستوحش لما تنكر من حيث عرفت، و تدم من حيث حمدت، و يتضاعف عليها الأسف للجفاء إذا وقع من معدن البر، و الارتياب إذا كان رديفاً للثقة....." فإنّ في هذا الكلام تركاً للمناسبة بين الألفاظ لأنّ "قبولاً" ليست على وزن (مساغ)، و تستوحش ليس بإزائها كلمة و كذلك (البرّ) لا يناسب (الثقة) في الصيغة³، و من الأسجاع المحمودة ذكر الخفاجي ما يلي: قال بعضهم: (سلّ الأرض من شقّ أنهارك، و غرس أشجارك، و جني ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً)

فهذا سجع يتبع المعاني غير متكلف و لا مستكره⁴، كما مثل في باب المحسنات للطباق الذي به تتناسب الألفاظ وسمّاه بالتضاد و في هذا إشارة إلى الاتساق المعجمي الذي يحدث بالترادف و التضاد في إطار لسانيات النصّ إذ شرح ابن سنان هذا التناسب بقوله: "تناسب الألفاظ من طريق المعنى فإنها تناسب على وجهين: أحدهما أن يكون معنى اللفظين متقارباً، و الثاني أن يكون أحد المعنيين مضاداً للآخر أو قريباً من المضاد، فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمناسبة"⁵

3.3. الحذف:

لقد أقرت لسانيات النصّ بأن الحذف وسيلة من وسائل الترابط داخل النصّ، وهذا ما أقرّه ابن سنان بقوله "من شروط الفصاحة و البلاغة الإيجاز و الاختصار و حذف فصول الكلام حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة"⁶ فالحذف إذن هو عنصر إحالي مهم يقوم على حذف ما ليس له وظيفة في النصّ، فمثلاً لو أخذنا النص التالي "مرت فتاة ترتدي ثوبا أصفرًا"، نجد أنفسنا حيال ثلاثة أقوال:

أ- مرت فتاة.

ب- ترتدي ثوبا.

ج- الثوب أصفر اللون.

ويمكننا أن نحصر هذه الأقوال في < أ > و < ب > أو إلى < أ > فقط إذا كان تفسير النص لا يحتاج إلى معرفة أن الفتاة ترتدي ثوبا وليس بنظوننا مثلاً، وأن الثوب كان أصفرًا وليس أسود اللون إذ نعتبر هذه المعلومات في تلك الحالة قليلة الأهمية بالنسبة للنص الكامل، وليس معنى هذا أنّ المعلومات في ذاتها ليست هامة، بل يدل فحسب على أنها ثانوية بالنسبة لدلالة النص أو لتفسيره على المستوى الأعلى الشامل⁷.

¹ المرجع نفسه ص 125.

² المرجع نفسه ص 171.

³ المرجع نفسه ص 171.

⁴ المرجع نفسه ص 176.

⁵ المرجع السابق، ص 176.

⁶ المرجع نفسه ص 178.

⁷ المرجع نفسه ص 199.

فبإمكاننا الحذف إذا وُجد في النص من القرائن الحالية والمقالية ما يُغنى عن ذكر المحذوف ، ولو بقي فإنه يعتبر زيادة لا طائل منها.

وأما عن الاختلاف بين الاستبدال والحذف فإن " الحذف لا أثر له إلا الدلالة فلا يحل شيء محل المحذوف... أما الاستبدال فيترك أثرًا يسترشد به الملتقي، وهو كلمة من الكلمات المشار إليها في الاستبدال"¹.

لذلك يُطلق على الحذف تسمية: "الاستبدال بالصفير" أي دون أن يترك أثرًا، وللحذف أنواع هي:

- الحذف الاسمي: وهو حذف اسم داخل المركب الاسمي: مثل أي الطريقين ستأخذ؟ سأخذ الأسهل. فحذفنا الطريق لأن الأسهل يدل عليه.

- الحذف الفعلي: وهو حذف فعل داخل المركب الفعلي

مثل في أي مشكلة تفكر؟ المشكلة التي أرقنتي، فحذفنا (أفكر).

- الحذف الحرفي: كحذف حرف النداء في "محمد أقبل" والأصل "يا محمد أقبل"

- الحذف الجملي: ويكون بحذف الجملة كاملة كحذف جملة القسم وترك الجواب كقولنا: "لأقول الحق" والتقدير "والله لأقول الحق".

و يرى ابن سنان الخفاجي أنّ الحذف ظاهرة تكثر في القرآن الكريم كحذف الأجوبة لدلالة الكلام عليها كقوله تعالى في سورة الرعد آ 31 "و لو أنّ قرآنًا سُئرت به الجبال، أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى" كأنه يريد لكان هذا القرآن، و ممّا قصد به الإيجاز كذلك حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه بحيث يقع العلم و يزول اللبس كقوله تعالى في سورة يوسف آ 82 "و أسأل القرية التي كنتا فيها، و العير التي أقبلنا فيها" و المعنى أهل القرية و أصحاب العير.

4.3. صحّة النسق والنظم :

هذا المبدأ موافق لما أصطلح عليه في لسانيات النص " بالوحدة الموضوعية و حسن اختتام النص" فمن العوامل التي تحقق للنص انسجامه وترابطه الدلالي وحدته الموضوعية، والتي لا تتحقق إلا إذا ساهمت كلّ جملة منه في الكشف عن موضوعه العام، لذلك يرى " فان دايك" أنّ "مجموعة من الجمل التي لا تدور حول موضوع ما، يصعب إيجاد روابط بينها، وبالتالي لا يمكن أن تكون نصاً"².

ويُضيف قائلاً: "موضوع النص هو مصطلح لا يتحدد بالنسبة للقضايا المفردة، بل بالنسبة للتتابعات كاملة فقط"³، وعليه يتحدد موضوع النص من خلال الأبنية الكبرى للنصوص، وهذا يعني أن كلّ جملة تشكل نسيجاً مع الجمل السابقة واللاحقة المكونة للنص من أجل إبراز موضوع النص في ترتيب محكم، وعليه "تقتضي الوحدة الموضوعية تجنب التناقض، والانتقال غير المبرر من فكرة إلى أخرى، لا تربطها بها أي صلة منطقية"⁴. لذلك عُدت الوحدة الموضوعية معياراً أساسياً للنص المقبول دلالياً، ويرى "مفتاح بن عروس أنّ قضية النمو الموضوعي للنص مرتبطة بعنصري المحمول والموضوع وشرح ذلك بقوله "إنّ اعتبار النص مساراً يفترض وجود عناصر قديمة تحقق الترسخ وعناصر جديدة تستند على هذه العناصر القديمة لتحقيق نمو النص، والكلام بمفهوم العنصر القديم والعنصر الجديد يضعنا أمام تحاليل عدة تستعمل مصطلحي المحمول والموضوع (thème /

¹المرجع نفسه ص 205.

²صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص، عالم المعرفة، الكويت، (د.ط.)، 1992، ص: 258.

³أحمد عفيفي: اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة، 2001، ص 126

⁴تون أفان دايك: علم النص- مدخل متداخل الاختصاصات، تر/سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط1، القاهرة، 2001، ص: 70.

(Rhème أو thème / Propos)¹. وعليه يفترض أن يكون لكل جملة في النص محمول وموضوع مرتبطان بالمحمول والموضوع السابقين ومنه وجود موضوع كلي في النص تنضوي تحته قضايا فرعية.

و عرفه (ابن سنان الخفاجي) بقوله و من الصحة كذلك صحة النسق و النظم و هو أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلّص إليه، حتّى يكون متعلّقاً بالأوّل و غير منقطع عنه"² و من هذا الباب خروج الشعراء عن النسب إلى المدح، فإنّ المحدثين أجادوا التخلّص حتّى صار كلامهم في النسب متعلّقاً بكلامهم في المدح لا ينقطع، فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة، و إنّما كان أكثر خروجهم من النسب إما منقطعاً وإمّا مبنياً على وصف الإبل التي ساروا إلى الممدوح عليها، و ممّا يستحسن من خروج المحدثين قول أبي عبّادة البحتري، يصف الروض في قصيدة له في مدح إبراهيم بن الحسن بن سهل³

شقائق يحملن الندى فكأنه *** دموع التصابي في حدود الحرائر
كأن يد الفتح بين خاقان أرفلت *** تليها بتلك البارقات الرّواعد
ولو أنّي أعطيت فيهنّ المني *** لسقيتهنّ بكفّ إبراهيم

هذه بعض اللّمحات التّراثية عند ابن سنان الخفاجي و التي رأينا فيها توافقاً مع بعض مبادئ اللّسانيات النصّية خاصة في قضية التماسك النصّي من خلال الاتساق و الانسجام، و إن لم يسم القدامى المسميات بأسمائها الآنية ك معايير النصّية و اللّسانيات النصّية، غير أنّهم مارسوا تطبيقاتها على اللغة العربية بنصوصها المتشعبة، و ممّا لا شكّ فيه أنّ ابن سنان كان في كتابه حلقة وصل مهمّة في تطوير القيم الفنّية للبلاغة العربيّة لا سيّما و هو يوليّ اهتماماً كبيراً لصحة النسق و النظم و التناسب كأساس لفصاحة التّأليف و حسنه و منه مقبولية النّص من طرف المتلقّي.

4. خاتمة:

من خلال هذا العرض الموجز لمعالم التماسك النصّي في المدونات التراثية العربية. مدونة سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي. توصلنا إلى النتائج و التوصيات التالية:

. التراث اللّغوي العربي ساهم بطريقة مباشرة في بلورة و صياغة أسس العلوم اللّغوية الغربية المعاصرة.

. تختلف اجتهادات اللّغويين العرب القدامى عن العلوم اللّغوية الراهنة الغربية في المسميات فحسب بينما المضمون يكاد يكون متطابقاً إلى حد كبير.

. تنطلق جلّ الدراسات التراثية اللّغوية من النظرة الكلية للنّص تمّ تغوص في جزئياته المكونة لتماسكه الصوتي والمعجمي و التركيبي و الدلالي .

. العديد من المدونات التراثية لم يسلط عليها الضوء بعد وهذا ما يستدعي استقرائها على ضوء اللّغويات الغربية.

. ضرورة التفكير في التأسيس للدرس اللّغوي العربي النصّي.

. إدراج مقياس لسانيات النّص العربيّة في الجامعات و المدارس العليا.

1 المرجع نفسه، ص: 71.

2 محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص، ص: 82.

3 مفتاح بن عروس، "الاتساق النصّي، دراسة لظاهرة العائد في العربية"، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في اللغة العربية، إشراف الحواس مسعودي، جامعة الجزائر، 1996 - 1997، ص: 07.

البلاغة العربية: من الجملة إلى النصّ

د. مسعودة سليمان

جامعة مولود معمري تيزي وزو - الجزائر

الملخص:

ارتبطت البلاغة العربيّة منذ نشأتها بالنصّين القرآنيّ والشّعريّ، وحاولت تقديم نماذج عن أسرارهما البلاغيّة وتصنيف ذلك في أبواب. وتدلّ بدايات الدّراسة البلاغيّة على اعتماد التّركيب لا التّحليل، فالغاية من هذا كلّ هو الانتفاع بالنصّ مجملاً. لكنّ الدّرس البلاغيّ العربيّ اقتصر على الجملة دون تجاوزها إلى الفقرة أو النصّ باستثناء مبحث الفصل والوصل الذي يعالج قواعد الرّبط بين الجملتين، وهنا يمكن التكلّم عن الممارسة النصّية.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، الجملة، النصّ، الممارسة النصّية، الفصل والوصل.

الملخص باللغة الإنجليزية:

Title of the paper: Arabic rhetoric between the sentence and the text

Abstract: Arabic rhetoric has been associated since its creation with quranic and poetic texts. It tried to present models of their rhetorical secrets and to categorize them in sections.

At the beginning, the rhetorical study adopted the structure rather than the analysis in order to benefit entirely from the text. However, it focused neither on the paragraph nor on the text but only on the sentence, except for separation and connection dealing with the rules of linking between two sentences. So, in this context, we can talk about the textual practice.

Key words: Arabic rhetoric, the sentence, the sentence, except for separation and connection, the text, the textual practice.

مقدمة:

لا يختلف ما أنجزه القدامى في قضايا الممارسة النصّية كثيراً عما قرره الدرس اللساني النصّي الحديث ويتجلى ذلك في عدة ميادين ومن ذلك ميدان البلاغة. لكن لا يمكن تجاهل اقتصر الدرس البلاغي العربي على الجملة دون تجاوزها إلى الفقرة أو النصّ ممّا أبقى مادة البلاغة العربيّة هي الشّواهد المنعزلة والأمثلة المجتزأة، فهي بلاغة الشّاهد والمثال والجملة المفردة، باستثناء مبحث الفصل والوصل الذي يعالج قواعد الرّبط بين الجملتين وهنا يمكن الحديث عن الممارسة النصّية، فقد كان لمبحث الفصل والوصل عند البلاغيين في تراثنا حظاً وافراً من الاهتمام. وإنّ هذا المبحث يتطلّب تجاوز النّظر في الكلمة أو الجملة المفردة إلى البحث في دراسة علاقة الجملة الأولى بالتّانية والثّانية بالتّالثة وهكذا.

ولمعالجة هذه التّقاط اشتملت هذه الورقة البحثية على ما يأتي:

- الجملة والنصّ عند الغرب؛

- الجملة والنصّ عند العرب؛

- البلاغة العربية بين الجملة والنصّ؛

- الفصل والوصل بابّ في الدّراسة النصّية.

الجملة والنصّ عند الغرب: هناك تعاريف مختلفة للجملة ومعايير مختلفة لجمليّة الجملة كالاعتماد على المعيار الدّلالي ومثال ذلك: الجملة عبارة عن فكرة تامّة، أو على المعيار الشّكليّ ومثال ذلك تعريف (تنيار Tinjar) للجملة بأنّها "مجموع العناصر

المنظمة المكونة من الألفاظ¹. أو على معيار يزواج بين الجانبين الشكلي والدلالي ومثال ذلك تعريف (جون كوهين) للجملة بأنها "وحدة بالصوت والمعنى في آن معا²

وهناك من اعتمد مقاييس نفسية ك (جورج مونان George Mounin) الذي يعرف الجملة بأنها "الإحساس بالحاصل بأنها تعبر عن فكرة تامة³". وقد صرح (جورج مونان) بأن "إعطاء تعريف نحوي دقيق للجملة يعد إشكالا يعترض اللساني لأنه يكون أمام كم هائل من المقاييس التي تختلط عند اشتغالها في وقت واحد⁴".

وهناك من نظر إلى أنواع الجمل باعتبار النص، فقسّم الجملة إلى قسمين:

● جملة نظام: وهو الشكل المجرد للجملة الذي يتولد عنه جميع أشكال الجمل الممكنة في اللغة وهذا ما يعطي للجملة معنى مستقلا عن السياق.

● جملة نصية: وهي الجملة المنجزة فعلا في مقام، يقصد منها التوصل، وهي محتواة في نص ما، ولا يفهم معناها إلا بإدماجها في نظام الجمل السابقة والأحقه لها، فتكتسب دلالتها من خلال الاتساق والانسجام.

ومن هؤلاء (ليونيس) الذي يفرق بين جملة النظام phrase de système وجملة النص phrase de texte "فالأولى شكل مجرد تابع لنحو اللغة، أما الثانية فليست من اللغة وتابعة للنص⁵" حيث يفرق (ليونيس) بين اللغة والنص على أساس الاتصال أو التنصل من ظواهر السياق، إذ اعتبر كل الظواهر المتحققة بالاعتماد على السياق المقالي أو المقامي ظواهر تابعة لجمل النص. ومن تلك الظواهر الإضمار، الحذف، التعريف، التقديم والتأخير. وقد كان هذا التفريق بين الجملة باعتبارها شكلا نظريا مجردا والجملة باعتبارها صيغة منجزة في سياق معين في كتابه (مبادئ في الدلالة) (1978)، واتبع (هاليداي) و(رقية حسن) في كتابه الثاني (الدلالة الغوية) (1980) لما اعتبر أن النص تابع للاستعمال لا للنظام على عكس (فان دايك) و(دريسلر) اللذين يعتبران النص وحدة نظامية تابعة لنظام اللغة.

تعددت تعاريف النص وتشعبت مثلما هو الحال مع الجملة حسب الاتجاهات المتناولة لتحديد مفهومه، ومن ذلك: تعريف (دريسلر Dressler) الذي يعرف النص باعتبار مكوناته الجمالية، فيقول: "النص يتكون من جملة فقط، أو جملة + رابطة + نص⁶". وهنا إشارة إلى التناص حيث يظهر من هذا التعريف أن النص مركب من عدة نصوص، وفيه تعارض مع اعتبار النص بنية واحدة مركبة ومتماسكة لا مجرد جمع عدد من الجمل وال فقرات.

ويعرف (فاينرش H. Weinrich) النص بقوله: "تكوين حتمي أجزاءه ثابتة، بمعنى أنه كلية مترابطة الأجزاء، تتابع الجمل فيها وفق نظام، وتسهم كل جملة في فهم ما يليها كما تسهم المتقدمة في فهم المتأخرة، بحيث يتحقق المعنى من خلال معاني الأجزاء وتآزرها في بنية كلية كبرى⁷" ومعناه أن الفصل بين أجزاء النص المختلفة يؤدي إلى عدم وضوح المعنى الكلي للنص، كما أن عزل أو إسقاط عنصر ما يؤدي إلى عدم الفهم.

1-دليلة مزوز، الأحكام النحوية بين النحاة وعلماء الدلالة دراسة تحليلية نقدية، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن: 2011، ص368.

2- نفسه، الصفحة نفسها.

3-دليلة مزوز، الأحكام النحوية بين النحاة وعلماء الدلالة دراسة تحليلية نقدية، ص368.

4- نفسه، الصفحة نفسها.

5-محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ج1، المؤسسة العربية للتوزيع، دط، تونس: 2001، ص57.

6- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، دط. القاهرة: 2004، ص101.

7- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ج1، ص33.

وحسب (جاكسون) كل كلام يقوم على عمليتين، الأولى، انتقاء لضرب من الوحدات اللغوية والثانية، توليف وتركيب بين الوحدات التي تم اختيارها. وقد لاحظ أن قواعد التركيب متفاوتة من حيث الحرية المتاحة للمتكلم في التوليف بينها، وعليه تكون صرامة قواعد التركيب متناسبة عكسياً مع درجة تعقد تركيب الوحدات اللغوية، ويكون ذلك في مستوى التوليف بين السمات التمييزية للصوت، وفي مستوى التوليف بين الصواتم للحصول على الكلمات، إلى منزلة بين بين في تركيب الجمل بالكلمات "فإلى منزلة تتعطل فيها القيود التركيبية الإعرابية، ويكون ذلك عند التوليف بين أكبر الوحدات أي الجمل في شكل خطاب"¹. وإن طبق هذا على ائتلاف الجمل في مستوى النص فهو يؤدي حتماً إلى القول بأن:

- أشد القواعد المتحكمة في الربط بين الجمل صرامة أضعف من أضعف القواعد المتحكمة في الربط بين عناصر الجملة الواحدة؛

- إذا كانت الجملة أقصى أشكال التركيب، فإن هذا سيؤدي بقواعد التركيب بينها في مستوى النص إلى الزوال؛

- إذا كانت الروابط بين الجمل ضعيفة إلى هذا الحد فماذا نقول عن الروابط بين أجزاء النص المتجاوزة للجملة كالفقرات.

ولكن "ليس في كلام (جاكسون) هذا نص صريح على نفي كل علاقة بين الجمل المؤلفة للخطاب كل ما في الأمر أنه قال بأن تلك العلاقات ليست من قبيل العلاقات التركيبية الإعرابية المتحكمة في توليف العناصر المكونة للجملة وتكهن بأنها أقل استلزماً وليس هذا بالأمر الهين"²؛ لأنها في الحقيقة علاقات لا تقل أهمية عن العلاقات التركيبية الإعرابية.

وفي المقابل زهد بعض الدارسين في أهمية الوحدة القائمة على الجملة في تناول النصوص باعتبار أن البحث عن الحدود الفاصلة بين الجمل أمر غير مفيد لأن ضبط الحدود الحقيقية للجملة غير ممكن، ومنهم (جون ليونس) الذي رفض اعتبار النص سلسلة من الجمل قائلاً "هذه الإجابة ليست مقنعة تماماً إذا كانت هذه الجمل المشار إليها هي جمل النص، فهذه سمة النصوص (الشكلية) ذات الصيغة الكلية، إلا أن هناك كثير من النصوص المستخدمة تتكون من جمل مختلفة - مزيج من الجمل - شظايا جمل - تعبيرات جاهزة... فإن النص ب كليته لا بد أن ينطوي على مجموعة مميزة من الخصائص التي تفضي إلى التماسك والانسجام"³ ومن ثم لا يمكن تحديد النص باعتماد الجمل المعزولة عن بعضها البعض، ويجب التركيز في تحليل بنيته على كليته الموحد.

ويذهب (برينكر Brinker) إلى أن النص "تتابع متماسك من علامات لغوية أم مركبات من علامات لغوية لا تدخل تحت أية وحدة لغوية أخرى أشمل"⁴، فالنص عنده بنية كبرى تحتوي على وحدات صغرى متماسكة ليست جملاً وإنما أجزاء متوالية. ونفهم من هذا التعريف أن النص يمكن أن يكون كلمة واحدة، أو جملة واحدة لا تندرج تحت وحدة أشمل مثل عناوين الصور. ول (برينكر) تعريف آخر للنص أدخل فيه التماسك التداولي حيث يقول: إنه "هو ربط أفقي أو متدرج لأفعال كلامية، وعلى أنه فعل كلامي معقد أيضاً"⁵، ويحقق النص حسب هذا التعريف وظيفة اتصالية لأغراض معينة، فهو أداة اتصال يتم فهمها من الناحية اللغوية على شكل أفعال كلامية.

¹- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ج 1، ص 32.

²- نفسه، ص 53.

³- أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، ط 1، القاهرة: 2001، ص 23.

⁴- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ج 1، ص 27.

⁵- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص 101.

و يرى (هيلمسلاف) أنّ "أبعاد العلامة لا تمثّل منظورا مناسباً لتدريسها بحيث نجد كلمة واحدة مثل "نار" يمكن أن تكون علامة، في مقابل عمل روائيّ ضخم، فكلّ منهما يمكن اعتباره "نصّ" وذلك بفضل استقلاله، بغضّ النظر عن أبعاده ومدى طوله"¹ فالعبرة بالاستقلالية لا بالحجم.

هذا وقد وضع (فان دايك) تصوّراً كاملاً لنحو النصّ بدءاً من العام 1972 في كتابه (بعض مظاهر نحو النصّ some aspects of text gramaire) وقد كان يساوي بين النصّ والخطاب في كتابه هذا، ولكنّ الأمر تغيّر في كتابه الصادر في العام 1977 (النصّ والسياق text and context) حيث فرّق بين المصطلحين؛ "ومثل هذا الإكثار من إقامة المستويات والأقسام يكون رهين النتائج التي يمكن أن يحققها، فإذا كان في الفصل بين اللغة والكلام ما يفضي إلى مجانية حقيقة الظاهرة اللغوية، فإننا نرجح أنّ الفصل بين النصّ والخطاب سيزيد الشّقة بين النظريّة والواقع اتساعاً وبعداً"² وتتجسّد آثار هذه الشّقة في إقامة أصناف من الوحدات والظواهر اللغوية، صنف تابع للجملة وللنظام، وآخر تابع للنصّ كالإضمار والإحالة، وصنف آخر تابع للخطاب غير موجود لا في الجملة ولا في النصّ، فنجد مثلاً (بيرندونر Berendonner) قد وجد في عبارات من قبيل (باختصار) أو (في الخلاصة) أو (ما قصدت إليه) محققات أو مجسّمات للنصّ في الخطاب كما أنّ الإحالة مثلاً تجسّم الجملة في النصّ "ومثل هذا التميّز يبقى مشروطاً بوجاهة الفصل القاطع بين وجوه الإجراء والأشكال النظريّة المستنبطة منه... ليس التفرّج في العلم شراً في حدّ ذاته... إنّما الشرّ في التفرّج الذي يقام على حدود واهية بين الفروع فتكون النتيجة التفتت والتكرار والتنازع في قسمة مختلف الظواهر والمسائل اللغوية على مختلف العلوم"³ وفي هذا الأمر من الخلط والضّرر ما فيه.

وقد حاول (فان دايك) إقامة نحو عامّ للنصّ تؤخذ فيه كلّ الأبعاد البنوية والسياقية والثّقافية بعين الاعتبار. واعتبر (فان دايك) أنّ الوظيفة الأولى لعلم لغة النصّ هي دراسة نحو النصّ، وقد كان نحو النصّ "متساوقاً في أوّل الأمر مع علم اللغة النصّي، وعلم النصّ، ونظريّة النصّ، إلى أن أصبح في طريقه للاستقلال"⁴ على يد (فان دايك) و(هاليداي) و(روبرت دي بوجراند) وآخرين. الجملة والنصّ عند العرب: كان المبرّد (ت 285 هـ) أوّل من استعمل مصطلح الجملة بمفهومه الحديث، ويعرّفها بما "يحسن علمها السكوت وتجب بها الفائدة للمخاطب"⁵. أمّا (سيبويه) فقد تكلم عن هذا المفهوم مستعملاً مصطلح الكلام، ومن ذلك قوله: "...وهذا النحو في الكلام كثير يقول الرّجل أعطيت زيدا وإنّما يريد لمكان زيد أعطيت فلاناً"⁶. ويقول (ابن جني): "أمّا الكلام فكلّ لفظ مستقلّ بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسمّيه النحويّون الجمل، نحو زيد أخوك"⁷ فقد ساوى (ابن جني) بين مصطلحي الكلام والجملة.

وقد اهتمّ العرب القدامى بالجملة، وبيّنوا العلاقات بينها وبين سابقتها ولاحقتها، فتكلّموا عن الجمل الكبرى والجمل الصغرى والجمل التي لها محلّ من الإعراب والجمل التي ليس لها محلّ من الإعراب، والجمل الابتدائية والجمل الاستثنائية، والجمل الاعترافية، كما اهتمّوا بذكر أنواع الجمل حسب الخصائص الذاتية لها فكان الحديث عن الجملة الاسميّة والجملة الفعلية، كما تمّ إرجاع كلّ الجمل إلى الإسناد.

¹-صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دط، الكويت: 1992، ص 214.

²- محمد الشّاوش، أصول تحليل الخطاب في النظريّة النحوية العربية، تأسيس نحو النصّ، ج 1، ص 101، 102.

³- نفسه، ص 102.

⁴- أحمد عفيفي، نحو النصّ اتجاه جديد في الدرس النحويّ، ص 34.

⁵- محمد بن يزيد المبرّد، المقتضب، تج: محمد عبد الخالق عزيمة، ج 1، عالم الكتب، دط، بيروت: دت، ص 8.

⁶- عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تج: عبد السلام هارون ج 1، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة: 1988، ص 83.

⁷- عثمان أبو الفتح بن جني، الخصائص، تج: محمد علي النّجار، ج 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، مصر: 1987، ص 18.

أما كلمة (نصّ) فلم تكن تدلّ عند القدامى على الحدث والقيام بالعمل ولا تعني الأمر الناتج عنه "ويمكن أن نذهب إلى أنّ كلمة "نصّ" لا تزال حتى عصر الاستريادي مستعملة استعمال المصدر الدالّ على معنى الحدث لا بمعنى المنصوص¹". ويمكن تحديّد الاختلافات بين استعمال النّحاة لكلمة (نصّ) واستعمالها المعاصر في النّقاط التّالية:

- يمكن أن يدلّ النصّ باعتباره مصدرا على معنى الحدث غير المقترن بزمان، وهو من الناحية النّظرية يمكن أن يدلّ على معنى

الاسم؛

- النصّ عند النّحاة القدامى استعمل فقط بمعنى الحدث والدليل عدم وجود جمع النصّ على نصوص في كتبهم لأنّ الجمع

دليل على انتقال الكلمة من قسم المصادر إلى قسم الأسماء؛

- في استعمالنا المعاصر نستعمل كلمة "نصّ" في أغلب الأحيان على أنّها اسم، أمّا استعمالها كمصدر فيقوم على الإضافة اللفظية، وعاملا في المفعول كقولنا نصّ فلان على كذا، "ونحن فيما تتبعنا من كتب النّحاة وغيرهم لم نقف على سياق استعملت فيه هذه الكلمة بالمعنى الذي لها اليوم"². ومن أمثلة استعمال القدامى لـ (النصّ) قول (السكاكي) في باب التّمييز: "هو رفع الإبهام في الإسناد أو أحد طرفيه بالنصّ على ما يراد هناك من بين ما يحتمل كنعوّ "طاب زيد نفسا"³ وكذا قول (ابن جني): "فعلم بذلك وبنصّه عليه في غير هذا الموضع أنّ "أن" مضمرة عنده بعد "حتى" ..."⁴. ويفترض (محمد الشّاوش) أنّ بداية استعمال كلمة (نصّ) بمعنى المنتج كانت مع (الزّمخشري) في مقدمة (المفصل) حيث يقول: "...والنّفاسير مشحونة بالزّوايات عن سبويه والأخفش والكسائيّ والفراء وغيرهم من النّحوّيين البصريّين والكوفيّين والاستظهار في مآخذ النّصوص بأقوالهم والتّشّيت بأهداب تفسيرهم وتأويلهم"⁵ أي لم يكن (النصّ) قبل (الزّمخشري) يعني (مطلق الكلام المنجز) مثلما هو الأمر اليوم عند النّحاة والبلّاغيين والأصوليين رغم وجود مادة (ن، ص، ص) ويرجع السّبب في عدم تهيئة هذا المصطلح ليدلّ على المعنى المستعمل اليوم إلى أحد الأمرين:

الأول: استعملت كلمة "نصّ" بمفهوم آخر كما هو ظاهر في استعمال النّحاة والأصوليين.

الثّاني: كان مفهومها الحالي مشغولا بمصطلحات أخرى من قبيل: القول، الكلام، الخطاب في مجال الأسماء الدالّة على النّحو؛ والخبر، الخطبة، القصيدة، المعلقة، الرّسالة، الكتاب المقامة،..... في مجال الأسماء التي تطلق على كلّ ضرب من فنون الكلام.

وتعني العمليّة المعجميّة انتقال الكلمة من صنف المصدر إلى صنف اسم الذات، وأهم دليل على هذا إمكان جمع نصّ على نصوص بعد أن كان ذلك متعدّرا لكونه مصدرا دالا على الحدث. ويؤكّد (محمد الشّاوش) أنّ "ما ذكره الزّمخشري من جمع النصّ على نصوص يبقى دخيلا عن النّحو وقائما على نوع خاصّ من الكلام تتحقّق فيه الدلالة على خاصّ أيضا. وعلى هذا اعتمدنا عندما ذهبنا إلى أنّ مصطلح النصّ بالمفهوم الذي له اليوم أمر دخيل على النّظرية النّحوية العربيّة"⁶. وإنّنا نجد أنّه لما احتاج النّحويّ إلى تسميّة المادة اللّغويّة يستعمل كلمات من قبيل الكلام بمعنى: (المتكلّم به)، والقول بمعنى (المقول) معتمدا في ذلك على إمكان دلالة المصدر على الاسميّة، فكثيرا ما تدلّ صيغة المصدر على اسم المفعول. أمّا ما هو مشتقّ من مادة (ن، ص، ص) كالفعلين

1 - محمد الشّاوش، أصول تحليل الخطاب في النّظرية النّحوية العربيّة، تأسيس نحو النصّ، ج 1، ص 185.

2 - نفسه، ص 189.

3 - يوسف بن أبي بكر بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت: 1987، ص 93.

4 - عثمان أبو الفتح بن جني، الخصائص، ج 2، ص 205.

5 - محمد الشّاوش، أصول تحليل الخطاب في النّظرية النّحوية العربيّة، تأسيس نحو النصّ، ج 1، ص 188.

6 - نفسه، ص 192.

(نصّ) و(نصّص) والمصدر منهما على التوالي (نصّ) و(تنصّيص) فهو من الأفعال أو المصادر الدالّة على الحدث أو العمل الذي يقوم به المتكلّم، لا على النّاتج الحاصل من ذلك العمل.

وما قيل عن النّحو يقال عن البلاغة والنّقد والتّفسير، وهي علوم متّصلة بالنتاج الكلامي، فلا توجد كلمة (نصّ) على دلالتها الحالية، وإنّما توجد تسمّيات لمختلف الأنواع النّصّية كالقصيدة والرّسالة، والمقامة... إلخ، وقد ظهر مصطلح النّصّ بالمعنى الحالي في ميدان الأدب ترجمةً لمصطلح *texte*.

البلاغة العربية بين الجملة والنّص: أصبح يقصد بالبلاغة في السّياق الأدبيّ مجموع الأساليب الشّعريّة لتوصيل الرّسالة، وإنّ الأبواب والوجوه البلاغيّة عند البلاغيّين العرب القدامى تمثّل نوعاً من الأساليب التي تكوّن صناعة الأديب "غير أنّها - في معظمها - أساليب جزئية وضيقّة مهما تعظم فائدتها، فمساحتها البيت الشّعري المستقلّ والجملة النّثرية المعزولة، وسياقها أو حقل إجرائها اللّغة، لفظاً وتركيباً ودلالة"¹ مع أنّ المستوى اللّساني لا يشكّل إلاّ أحد المستويات التي تتكوّن منها صنعة العمل الأدبي. ويكون تحوّل البلاغة من نظريّة في الخطاب إلى نظريّة في الاستعارة "هو إقرار بتحوّل موضوع البلاغة من النّصّ إلى الكلمة ومن التواصل إلى التّحسين، أي من بلاغة كليّة إلى بلاغة جزئية"². ونخلص من هذا إلى أنّ البلاغة العربيّة القديمة قد عيب عليها:

- الوصف والتّصنيف بدل التّفسير والتّأويل؛

- اشتغالها على اللّفظ والجملة بدل النّصّ.

وقد حاولت البلاغة العربيّة أن تخرج من هذا الإطار الضيّق متّجهة نحو البلاغة الأوسع، فقد ارتبطت منذ نشأتها بالنّصّين القرآنيّ والشّعريّ، وحاولت تقديم نماذج عن أسرارهما البلاغيّة وتصنيف ذلك في أبواب، لكنّها ارتبطت دائماً بسياق ربط النّصّ بمعيار اللّغة العامّة ساعية إلى تفسّير وتوسيع صور الانزياح وسياق الشّغف بعبقريّة اللّغة العربية وشاعريّتها. ومن بين محاولات توسيع البلاغة العربيّة لتتجاوز حدود الأسلوب بمفهومه اللّغويّ القائم على اللفظ والتّركيب والدلالة محاولة (أمين الخولي) الذي يقول في كتابه (فن القول): "وقفت بلاغتنا عند بحث الجملة وأهملت المعاني الأدبيّة، ولم تنظر إلى العمل الأدبيّ بجملته، ولم تُعنّ بالنّظر في الفنون القوليّة، فهي في حاجة إلى سعة شاملة، وبسطة وافرة، ممّا هو ضروريّ لدقّة الدّرس ومسايرته درجة التّفنّم الإنساني"³. وإنّ في إشارة (أمين الخولي) إلى النّظر في الفنون القوليّة نقداً للبلاغة المعمّمة ودعوة إلى البلاغات التّوعيّة الخاصّة، بتبيان خصائص كلّ فنّ من الفنون القوليّة والوقوف على المقومات التي يقوم عليها جانبها الجماليّ الفنيّ، لكنّها بلاغة موسّعة نحو الفقرة الأدبيّة ثمّ القطعة الشّعريّة الكاملة فترتبط البلاغة بوحدة العمل الأدبيّ بنظرها إليه ككلّ متكامل ومتواصل.

ولكن رغم انحصار البلاغة العربيّة القديمة في تصنيف وتبويب الوجوه المستندة إلى معيار اللّغة العامّة، لم تعدم الاستناد إلى معيار النّصّ الأدبيّ لبلورة وجوه بلاغيّة. وتدلّ بدايات الدّراسة البلاغيّة على اعتماد التّركيب لا التّحليل كاعتماد المعنى المجازي ولازم المعنى، فالغاية من هذا كلّ هو الانتفاع بالنّصّ مجملاً. لكن لا يعني التّشابه في الهدف الاتّحاد في المنهج، فليس معنى وجود هذه الإشارات في التراث العربيّ أنّ المنهج التراثيّ خالٍ من النّقائص والهانات، وإنّ أهمّ النّقود والمآخذ التي تعلّقت بالمنهج التراثيّ في تناول النّصوص هو الطّريقة المعتمدة في شرح هذه الأخيرة، حيث لم يكن يُشرح النّصّ بالنّظر إليه ككل واحد ذي وحدة عضويّة يفسّر بعضه بعضاً، بل كان الشّرح مرتكزاً على المفردات متعمّقا في دلالتها دون كبير التفات إلى العلاقات العضوية بين أجزاء النّصّ والأمر نفسه يقال على عمل المفسّرين وشرحهم للنّصّ القرآنيّ. ولا تخلو الثّقافة العربيّة من النّظر العقليّ بسبب احتكامها

¹ - محمد مشبال، البلاغة والأدب من صور اللّغة إلى صور الخطاب، دار العين للنّشر، ط1، القاهرة: 2010، ص 73، 74.

² - محمد مشبال، البلاغة والأدب من صور اللّغة إلى صور الخطاب البلاغة، ص 33.

³ - ع/ نفس المرجع، ص 83.

إلى النصوص، وذلك يرجع حسب (تمام حسّان) إلى سببين: "أما الأول فإنّ النصوص مهما كثرت وتشعبت لا يمكن أن تقدّم حلولاً جاهزة لكل ما يعرض للنّاس من مشكلات. ومن هنا كان لابدّ للنّشاط الثّقافي العربيّ والإسلامي من أن يقوم على أصول ومناهج. وهذا أمر طبيعيّ "لأنّه لا يغفل أن تطالب فكرة عمرها ألف عام ويزيد بالوفاء بمقتضيات النظريات الحديثة أو تحاكم الأفكار القديمة في ضوء أفكار عصرنا لاختلاف المقالات والمقامات ومقتضياتها من عصر لآخر"¹.

والثّاني: أنّ ما أثر عن اليونان من نظر عقليّ لم يكن هو التّمودج الوحيد للتّفكير بحيث لا يخرج عن إطاره نشاط عقليّ مهما كان² "لأنّه لو كان هذا صحيحاً لنفينا النّظر العقليّ عن كلّ الحضارات التي سبقت الفلسفة اليونانية، وإنّ "اعتماد الثّقافة العربيّة على النّصوص في أوّل أمرها ما كان ليحرمها نعمة التّفكير المنطقيّ الذي يتطلّبه الاجتهاد"³ ويظهر هذا في أعمال الأصوليين من الفقهاء في الاستدلال والقياس والتعليل وغيرها. وقد عنيت الدراسة التحليلية بالفهم أي التلقّي ولم تُعن بجانب الصّيغة إلا قليلاً، فلا نكاد نجد في تراثنا العربيّ غير (عبد القهار الجرجاني) ممن عني بالصّيغة، حيث اقترح لها أربع مراحل هي: النظم والبناء والترتيب والتعلّيق، مستمداً هذا الإطار الفكري من مذهب الأشاعرة في ما يتعلّق بمسألة الكلام النفسيّ.

هذا وقد دعا (أمين الخوليّ) في أواخر ثلاثينات القرن العشرين إلى تجاوز مستوى الجملة في التّحليل البلاغيّ إلى مستوى الفقرة والنّصّ بعد أن تطرّق إلى فاعليّة البديع في الرّبط بين أجزاء النّصّ. وإنّ "مسألة الانتقال بالبلاغة العربيّة من (بلاغة الجملة) إلى (بلاغة النّصّ) إنّما هي مشروع جيل أو أجيال يستلزم تحقيقه تضافر جهود وتكاملها وتتابعها"⁴، ويعدّ (أمين الخوليّ) أوّل من التفت إلى اقتصار الدّرس البلاغيّ العربيّ على الجملة دون تجاوزها إلى الفقرة أو النّصّ حيث يقول: "تبدأ البلاغة على آخر نظام لها بالبحث في المفردات وخصائصها وهو علم المعاني، ثمّ البحث في المركبات ودلالاتها وهو علم البيان، ثمّ تحسّين ثانويّ وهو علم البديع، وفي هذا كلّه لم يتعدّ البحث دائرة الجملة وأوها نظرية القضية كما سمعنا، فالبحث في المعاني إنّما هو بحث في طرفي الجملة - المسند والمسند إليه - وتوابعهما... ونجد أبحاث البيان لا تتجاوز دائرة الجملة أيضاً، إلاّ أن تكون جملاً متماسكة في أداء معنى واحد كتشبه مركّب أو مجاز كذلك، وهي جمل في منزلة الجملة الواحدة... أما وراء بحث الجملة فلا تجد شيئاً"⁵. ويرجع السّبب في ذلك - حسب (الخوليّ) - إلى توقّف الصّلة بين المنطق والبلاغة لدى أصحاب المدرسة الكلاميّة أو الفلسفيّة مثل (السكاكيّ)، حيث كانت الجملة عند النّحاة والبلاغيين مثل القضية عند المناطقية. وعن هذا يقول (سعد مصلوح): "ظلّت مادة البلاغة العربيّة هي الشّواهد المنعزلة والأمثلة المجتزأة، فهي بلاغة الشّاهد والمثال والجملة المفردة، باستثناء مبحث الفصل والوصل الذي يعالج قواعد الرّبط بين الجملتين، وإنّ نظرة أمين الخوليّ تلك "نظرة تقديمية رائعة كانت حريّة أن تحدث ثورة في الدرس اللسانيّ والبلاغيّ العربيّ والعالميّ لكنها ذهبت أدراج الرياح لأننا لا نقدر جهد أبنائنا بقدر ما نمجد الغربيين"⁶.

كما نجد نظرة ثانية وهي نظرة تطبيقية كانت على يد سيد قطب حيث ربط بين أجزاء السورة القرآنية الواحدة والسور المختلفة في السياق القرآنيّ العام.

ويذكر لنا (عبد الفتاح الخالدي) أسباب اهتداء سيد قطب لهذه الظاهرة وهي كالآتي:

1 - مداومة النظر في تدبير معاني القرآن ومعايشته.

¹ - أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، دراسة في النّحو والدلالة، دار حامد، ط1، الأردن، 2011، ص28.

² - تمام حسّان، الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللّغوي، النّحو. فقه اللّغة. البلاغة، عالم الكتب، دط، القاهرة: 2000، ص46.

³ - نفسه، ص49.

⁴ - جميل عبد المجيد، بلاغة النّصّ مدخل نظري ودراسة تطبيقيّة، دار غريب، دط، القاهرة: 1999، ص8.

⁵ - أمين الخوليّ، مناهج تجديد في النّحو والبلاغة والتّفسير والأدب، مجلد10، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، دط، القاهرة: 1995، ص ص 165، 166.

⁶ - إبراهيم عبد الفتاح رمضان عبد الباقي، بين البلاغة وعلم النص، <http://kenanaonline.com/users/ebraheemramadan/posts/763983>

2. ثقافة سيد قطب الأدبية وموهبته الشعرية وقدرته وتجربته النقدية.

3. أن القرآن له موضوع أساسي هو العقيدة وهي الأصل الذي ينبثق منه سائر التصورات والمبادئ والمناهج، وهي محور

تُشدُّ إليه الفروع والجزئيات¹.

لكن لم يقدر لهاتين النظرتين النمو، ولو كان العكس لعاد الأمر بالخير الكثير على البلاغة العربية واللسانيات العربية بصفة عامة.

وغني عن البيان أن الدرس الأسلوبية اللساني يستحيل أن يتخذ مادة فصيحة من الشاهد والمثال؛ والبدل لذلك - عنده - معالجة للنص أو خطاب أو مدونة corpus تشتمل على مجموعة من النصوص يجمع بينها جامع من مؤلف أو موضوع أو فن أو عصر². حيث اتصفت البلاغة بالطابع المعياري الذي يحدد القواعد المنطقية بمفهومها الصوري الأرسطي ويحدد التعريفات والتصنيفات العقلية المتعالية عن حركية الإنتاج الأدبي، إذ "إنها تنطلق من الفكرة المجردة، التي قد تستلهم ملحما جزئيا منفردا، فتقدم تعريفا له، ثم لا تلبث أن تعتمد على تصنيفه وتحديد أنماطه الممكنة، ثم تأخذ في التقاط شواهدا، وتختارها إن لم تجدها في النصوص الأدبية الحية"³، لذا كثيرا ما تتكرر الشواهد من كتاب إلى آخر دون لجوء البلاغيين المتأخرين إلى شعراء عصرهم لأخذ الشواهد منهم.

ويخلص (صلاح فضل) إلى نتيجة هامة وهي أن: "البلاغة في عصر العلم لا بد أن تعتمد على مرتكزاته دون مخالفة لشروطه وقوانينه. فعملها أن تتخلى عن الطابع المعياري التقييدي لتتجه إلى وصف لغة الأدب وأشكالها"⁴ ولما كانت مادة الأدب بأجناسه المختلفة متغيرة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، وعليه تصبح البحوث الأسلوبية التجريبية هي المقدمة الضرورية للبحث البلاغي المفتوح، القائم على الحقيقة العلمية المتغيرة لا القانون المعياري الدائم، "وإذ كان تجديد المصطلح على النطاق العالمي ضروريا، لأنه يعطي للحركة العلمية إيقاعها، ويمثل تطورها المعرفي، فإنه أشد إجحاحا بالنسبة للأفق الثقافي العربي، لمحاولة كسر طوق الدراسات التاريخية لمشكلات الخطاب النصي. وإتاحة الفرصة لمعطيات الألسنية الشعرية وتقنيات البحث الدلالي أن تجدد في مفاهيم بلاغتنا العربية وإجراءاتها"⁵. لذا فوضع مصطلح علم النص بجوار البلاغة أو إحلاله محلها يمثل تغييرا منهجيا تفرضه النظريات الحديثة وحركة الإبداع النصي في مختلف الأجناس والفكر الذي يتمثل كيفية إنتاجها.

هذا وإن هناك من رأى أن هناك عوامل تدعو إلى ضرورة تجديد البلاغة لعدم كفاية مشروعها التخطيطي واتجاهها الشكلي،

والانتقال إلى البلاغة النصية لعدة أسباب منها:

1. أنه لا مفر من أن تقوم البلاغة الجديدة بدور الأفق المحدد لتداخل الاختصاصات في العلوم الإنسانية في تطورها الحديث، مثلما كانت تتداخل فيها - منذ أرسطو علوم المنطق والأخلاق والفلسفة والشعر - فتكون البلاغة وعاء ثقافيا متداخل الاختصاصات يهدف إلى استثمار نتائج البحوث المختلفة في العلوم الإنسانية الأخرى. فقد أجمع الباحثون على أن البلاغة هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداولية وعلم النص والسميولوجيا وهي النموذج المعول عليه للعلم الإنساني الشامل الجديد.

2. تطور الدراسات اللغوية في الآونة الأخيرة؛ فقد انتقل الاهتمام من الألسنية التي تركز على اللغة إلى الألسنية الكلام، وبرزت

ظواهر العلاقة بين المرسل والمتلقي في مجال التداولية، وكل هذا حدا بكثير من علماء اللغة إلى العودة إلى البلاغة.

¹ إبراهيم عبد الفتاح رمضان عبد الباقي، بين البلاغة وعلم النص، <http://kenanaonline.com/users/ebraheemramadan/posts/763983>

² ع/ مصطفى صلاح قطب، علم اللغة النصي، النظرية والتطبيق، عالم الكتب، ط 1، القاهرة: 2014، ص 159.

³ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 99.

⁴ نفسه، ص 102.

⁵ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 234.

3. أنّ تحول البلاغة الجديدة إلى علم النص يرتبط بمدى قدرة البلاغة- في جميع الثقافات- على تكوين نموذج جديد لإنتاج الخطاب بكل أنماطه دون الافتقار على لون واحد منه كما كانت البلاغة القديمة؛ فالبلاغة منوط بها أن تشكل أجرومية أو علم نحو لإنتاج الخطاب، ولن يكون ذلك إلا بأن تتحول إلى الجانب الوصفي للنصوص دون المعيارية المتحكمة فيها من ذي قبل¹. وفيما يأتي بيان للدراسة النصّية في البلاغة العربية القديمة في باب الفصل والوصل.

الفصل والوصل باب في الدراسة النصّية: ذكرنا فما تقدّم أنّ البلاغة العربية كانت بلاغة الشّاهد والمثال والجملة المفردة، باستثناء مبحث الفصل والوصل الذي يعالج قواعد الرّبط بين الجملتين. وقد أخذ هذا الباب قدرا هاما من البحث والاهتمام عند البلاغيين في تراثنا خصوصا مع (عبد القاهر الجرجاني)، و(أبي يعقوب السّكاكي)، حتى ورد عند البلاغيين تعريفهم للبلاغة بأنّها: (معرفة الفصل من الوصل) وإنّ هذا الباب يتطلّب تجاوز النّظر في الكلمة أو الجملة المفردة إلى البحث في دراسة علاقة الجملة الأولى بالتّانية والثّالثة وهلمّ جرا. ويقول (عبد القاهر) عن هذا الباب: "واعلم أنّه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنّه خفيّ غامض، ودقيق صعب، إلّا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدقّ وأصعب"². ويقول في موضع آخر: "مما لا يتأتّى لتمام الصّواب فيه إلّا الأعراب الخلّص وإلّا قوم طبعوا على البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد"³. ويقول (السّكاكي) عن حصر البلاغة بمعرفة الفصل من الوصل: "وما قصرها عليه لأنّ الأمر كذلك، وإنّما حاول بذلك التّنبيه عن مزيد غموض هذا الفنّ، وأنّ أحدا لا يتجاوز هذه الحقيقة من البلاغة إلّا إذا خلّف سائر عقباتها خلفه"⁴. كما سئل (الفارسي) عن ماهية البلاغة فقال: "معرفة الفصل من الوصل"⁵، وكان (يزيد بن معاوية) يقول: "إياكم أن تجعلوا الفصل وصلا... فإنّه أشدّ وأعيب من اللّحن"⁶. وقد أرسى (عبد القاهر) جملة من المبادئ في موضوع الفصل والوصل منها ما يتعلّق بالإعراب حيث يقول عن عطف المفرد على المفرد: "ومعلوم أنّ فائدة العطف في المفرد أن يشرك التّاني إعراب الأوّل، وأنّه إذا أشركه في إعرابه فقد أشركه في حكم ذلك الإعراب"⁷، وينطلق في عطف الجملة على الجملة من منطلق عطف المفرد على المفرد، أمّا عن الجملة المعطوفة على جملة لا محلّ لها من الإعراب فيقول: "لا سبيل لنا إلى أن ندعي أنّ "الواو" أشركت التّانية في إعراب قد وُجِبَ للأولى بوجه من الوجوه"⁸ لذا وجب البحث عن شيء مشترك غير الاشتراك في الحكم الإعرابي، حيث إذا: "لم يكن العطف أو تركه ناشئا من مراعاة هذا الاعتبار أو ذلك فلا بدّ أن نبحث عن شيء آخر غير الاشتراك في الحكم، وهذه الأشياء التي ينبغي مراعاتها ترجع إلى المعاني التي تكون بين هذه الجمل"⁹ فالمعنى هو الشّيء المشترك والتّقطة الجامعة..

ومثلما يكون الوصل بالواو وسيلة من وسائل تماسك النّصّ يكون الفصل أيضا من وسائل التّماسك، لكنّه تماسك يربط معنويّ لا لفظيّ، ومثاله وجوب الفصل عندما تكون الجملة التّانية مؤكّدة للأولى، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 2) ف"لا ريب فيه بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: ذلك الكتاب"¹⁰. ولا يشترط في العطف أن يكون بين جملتين متتابعين بل قد تعطف الجملة الثّالثة أو الرّابعة على الجملة الأولى، ومثال ذلك قول (المتنبيّ) (من الوافر):

¹- إبراهيم عبد الفتاح رمضان عبد الباقي، بين البلاغة وعلم النص، <http://kenanaonline.com/users/ebraheemramadan/posts/763983>

²- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تج: محمود محمد شاكر أبو فهر، ج 1، مطبعة المدني، ط3، القاهرة: 1992، ص231.

³- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ج 1، ص222.

⁴- يوسف بن أبي بكر بن علي السّكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1987، ص251.

⁵- الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تج: علي محمود الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، دط، بيروت: 1419هـ، ص438.

⁶- نفسه، ص440.

⁷- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ج 1، ص222.

⁸- نفسه، ص223.

⁹- مصطفى صلاح قطب، علم اللّغة النّصي، النظرية والتطبيق، ص 100.

¹⁰- نفسه، ص101.

تَوَلَّوْا بَغْتَةً فَأَنَّ بَيْنَا
تَهَيَّبَنِي ففاجأني اغْتِيالاً
فَكَأَنَّ مَسِيرَ عَيْسِيهِمْ ذَمِيلٌ
وَسَيْرُ الدَّمْعِ إِثْرُهُمْ إِهْمَالاً

فقد عطفت جملة (فكأن مسير عيسيهم) على جملة (تولوا بغتة) وعن هذا يقول (عبد القاهر الجرجاني): "ألا ترى أن الغرض من هذا الكلام أن يجعل توليهم بغتة؟، وعلى الوجه الذي توهم من أجله أن البين تهيبه، مستدعيا بكاءه وموجبا أن ينهمل دمه، فلم يعنه أن يذكر ذملان العيس إلا ليذكر هملان الدمع، وأن يوفق بينهما"¹. ومثال ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء: 112)، فالرابط هنا مكون من مجموع الجملتين المعطوفة والمعطوف عليها لا من واحدة منهما فقط. وإذا "كان النحاة العرب قصرُوا استخدام الأدوات السابقة في الربط على مستوى الجملة أو الجملتين فليس معنى ذلك أن هذه الأدوات لا تسهم بدور في التماسك على مستوى النص بكامله"². وقد بدأت دراسة حروف العطف المختلفة وما بينها من فروق في النظم مع (السكاكي) الذي يقول في بحث المسند إليه: "وأما الحالة التي تقتضي العطف فهي إذا كان المراد تفصيل المسند إليه مع اختصار كقولك جاء زيد وعمرو وخالد أو تفصيل المسند مع اختصار، كقولك جاء زيد فعمرو فخالد أو ثم عمر ثم خالد أو جاء القوم حتى خالد"³، بمعنى أن الواو لتفصيل المسند إليه، في حين تكون الحروف الأخرى تفصيلا للمسند. وطبعا هناك نماذج كثيرة وردت في عطف الإنشاء على الخبر في القرآن الكريم والشعر بصفة خاصة "مما يخرق القواعد العامة للوصل والفصل عند البلاغيين، وهذه النماذج جديرة بإعادة النظر في قواعد الفصل والوصل، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال الدراسات العميقة التي تتوقر على أسلوب القرآن والأساليب الإبداعية، وذلك من أجل الوصول إلى تصوّرات وأطر في موضوع الوصل والفصل يكون منطلقها النص لا الأمثلة المجتزأة"⁴. إذ لم يتجاوز التحليل في مبحث الوصل والفصل الجملة إلى النطاق الدلالي للفقرة أو النص الكامل إلا مرة واحدة، وهي التحليل الذي قام به (حازم القرطنجاني) لقصيدة (المتنبي)*، حيث سعى كل قسم منها فصلا، وميّز بين مطلع القصيدة (البيت الأول) والمقطع (مكان الوقوف)، وأشار إلى طريقة وصل الفصول في ما بينها، واشترط ذلك، حيث يكون معنى كل فصل تابع لمعنى الفصل السابق له ومنتسب له في الغرض. ويُطلق على هذا مصطلح (الاطراد في تسويم رؤوس الفصول). وقد جاء بقصيدة (المتنبي) كاملة وحلل العلاقة بين أجزائها على أساس دلالي لا يقف عند التعالق النحوي بين جملتين كأقصى حد للتحليل.

وقد كان التضمين* من العيوب عند البلاغيين، التي لا يجب الوقوع فيها، وهذا دليل على أنهم اهتموا بالطابع الكلي للنص الشعري، ومثاله قول الشاعر (من الوافر):

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قَبِيلَ يَغْدَى بَلِيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يَرَأُحُ
فُطَاةٌ غَرَهَا شَرِكُ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلَقَ الْجَنَاحُ

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ج 1، ص 245.

² - مصطفى صلاح قطب، علم اللغة النصي، النظرية والتطبيق، ص 150.

³ - يوسف بن أبي بكر بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ج 1، ص 190.

⁴ - مصطفى صلاح قطب، علم اللغة النصي، النظرية والتطبيق، ص 167.

* - مطلع القصيدة: أغالب فيك الشوق والشوق أغلب.

* - التضمين هو الارتباط الدلالي المباشر أو التعالق النحوي.

وقد عاب (أبو هلال العسكري) هذا قائلاً: "فلم يتمّ المعنى في البيت الأول حتى أتمّه في البيت الثاني، وهو قبيح"¹، ولم يسلك أبو هلال وحده هذا المسلك المعبر عن النزوع الجزئي اللفظي للبلاغة العربية². يظهر ممّا سبق أنّه يمكننا القول بأنّ "الغربيين سبقوا إلى التنظير، وسبقنا نحن إلى التطبيق؛ فقد عرف تاريخنا نصاً مقدساً دارت حوله دراسات عديدة بل قد كان محور الدراسة عند أسلافنا القدماء. فإذا كان الغربيون قد نظروا لعلم لغة النص فقد سبقناهم بالتطبيق لكننا لم نحسن التنظير"³ والشواهد على هذا الكلام كثيرة في إعجاز القرآن والتفسير وعلوم القرآن وأصول الفقه وغيرها.

خاتمة: تبين ممّا سبق وجود إشارات إلى الممارسة النصّية في المادة البلاغية العربية، لكن لا يعني هذا الاتحاد في المنهج مع الدرس اللساني النصّي الغربيّ، فقد عيب على المنهج الترائّي في تناول النصوص عدم شرح النصّ بالنظر إليه ككل واحد ذي وحدة عضويّة يفسر بعضه بعضاً، بل كان الشرح منصباً على المفردات والتعمق في دلالتها دون التفات كبير إلى العلاقات العضوية بين أجزاء النصّ. وهذا الاختلاف أو النقص أمر طبيعي لأنّ الأمور تبدأ أفكاراً متشعبة وأعمالاً متفرقة لا يمكنها التطابق مع مقتضيات النظريات الحديثة.

قائمة المراجع:

الكتب:

- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، مجلد 10، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، القاهرة: 1995.
- جميل عبد المجيد، بلاغة النصّ مدخل نظري ودراسة تطبيقيّة، دار غريب، دط، القاهرة: 1999.
- أحمد عفيفي، نحو النصّ اتجاه جديد في الدرس النحويّ، مكتبة زهراء الشرق، ط 1، القاهرة: 2001.
- أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيويه، دراسة في النحو والدلالة، دار حامد، ط 1، الأردن: 2011.
- الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكريّ، الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمود البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، دط، بيروت: 1419هـ.
- تمام حسّان، الأصول، دراسة إيبستيمولوجية للفكر اللغويّ، النحو. فقه اللغة. البلاغة، عالم الكتب، دط، القاهرة: 2000.
- دليلة مزوز، الأحكام النحوية بين النحاة وعلماء الدلالة دراسة تحليلية نقدية، عالم الكتب الحديث، ط 1، الأردن: 2011.
- سعيد حسن بحيري، علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، دط، القاهرة: 2004.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دط، الكويت: 1992.
- عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاکر أبو فهر، ج 1، مطبعة المدني، ط 3، القاهرة: 1992.
- عثمان أبو الفتح بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النّجار، ج 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، مصر: 1987.
- عمرو بن عثمان بن قنبر سيويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون ج 1، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة: 1988.

¹ الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، ص 36.

² ينظر: مسعودة سليمان، تعليمية النحو في الجامعة الجزائرية بين معيارية القاعدة وبلاغة النصّ، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تيزي. وزو:

2016.

³ إبراهيم عبد الفتاح رمضان عبد الباقي، بين البلاغة وعلم النصّ، <http://kenanaonline.com/users/ebraheemramadan/posts/763983>

. محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ج 1، المؤسسة العربية للتوزيع، د ط، تونس: 2001.

- محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تج: محمد عبد الخالق عزيمة، ج 1، عالم الكتب، دط. بيروت: دت.

. محمد مشبال، البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب، دار العين للنشر، ط 1، القاهرة: 2010.

- مصطفى صلاح قطب، علم اللغة النصي، النظرية والتطبيق، عالم الكتب، ط 1، القاهرة: 2014.

- يوسف بن أبي بكر بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت: 1987.

الأطروحات:

. مسعودة سليمان، تعليمية النحو في الجامعة الجزائرية بين معيارية القاعدة وبلاغة النص، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه،

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تيزي. وزو: 2016.

المواقع الإلكترونية:

. إبراهيم عبد الفتاح رمضان عبد الباقي، بين البلاغة وعلم النص،

<http://kenanaonline.com/users/ebraheemramadan/posts/763983>

بين البلاغة الأدبية والبلاغة الحجاجية مجالات التقابل والتقاطع في مصنفات البلاغة العربية-

د. نسيبة العرفي

جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله - الجزائر

الملخص:

إذا كانت البلاغة الأدبية في أغلب كتاباتها تركز على دراسة الصّور البلاغية كالاستعارة والكناية والمجاز المرسل...، فإن بلاغة الحجاج تتجه إلى دراسة الخطاب في وظيفته وفعالته، بمعنى دراسة الملفوظ الذي ينتجه المتكلم في مقام تواصل محدد ليؤثر في المخاطب ويغير رؤيته واعتقاده ويحمّله على الفعل وهذا ما لا يتأتى إلا في حدود ما يتيح له فعل التلطف بمكوناته (المتكلم، الخطاب، المخاطب)، وبذلك يعمل المتكلم على تحريك الأهواء والتحكم في الإرادات وتوجيهها ويجعل خطابه مقنعا بالحجج التي يقوم عليها. إنه التصور التداولي للخطاب الذي تجاوز المستوى الأسلوبي في أغلب مصنفات التراث، فالبلاغة الشاملة الرحبة لم تهتم ببنية اللغة بل نظرت في الآثار التي يحدثها الخطاب في المتلقي وبذلك فهي تركز على مكوّناتها التداولي الأساسي الذي تلاشى شيئا فشيئا مع البلاغيين المتأخرين من شراح السّكاكي.

يحاول المقال أن يضيء جوانب هامة من حضور الخطاب والنّص في منظومة التفكير البلاغي عند العرب القدماء لإحياء البلاغة وبعثها في صورتها الأولى الشاملة والواسعة قبل أن تتحول إلى مقولات جامدة وتقسيمات ضيقة، وإثبات أن اختفاء التصوّر الحجاجي التداولي للبلاغة لا يعني انعدامه في نصوص التراث البلاغية.

الكلمات المفاتيح: (البلاغة، الحجاج، التفكير البلاغي، التداولية، الإقناع، الأسلوب، المحسنات ...)

Abstract:

If the literary rhetoric in most of its writings is based on the study of rhetorical images such as metaphor, metaphor and sentencing ..., the eloquence of argumentation tends to study the discourse in its function and effectiveness, in the sense of studying the output produced by the speaker in a specific address to affect the communicator and change his vision and belief and carry on the act This is what can not be achieved except within the limits of what it allows him to do the pronunciation of its components (speaker, speech, address), so the speaker works to move the passions and control the wills and guidance and makes his speech convincing arguments on which it is based. The deliberative perception of the speech that exceeded the stylistic level Works of heritage, comprehensive spacious did not care about the structure of the language but considered the effects caused by the speech of the recipient so that they are based on the basic component, which Deliberative faded slowly with « Albalageyen » of the later commentators

The article attempts to illuminate important aspects of the discourse and text in the rhetorical system of the ancient Arabs to revive the rhetoric and send it in its first comprehensive and wide image before turning into rigid statements and narrow divisions, and proving that the disappearance of the dialectical deliberation of eloquence does not mean its absence in the texts of rhetorical heritage

تعتبر البلاغة من أعتق الحقول التي جعلت من الخطابات اللّفظية موضوعا لها، صدرت عنه في صياغة مفهوماتها ومبادئها، لذلك يتوجّب علينا دائما السّعي إلى فهمها وإعادة النّظر إليها في سياق علاقاتها بالحقول المجاورة، ذلك أنه لا يمكننا أن نتصور قيام أي نظرية بعيدا عن النّظرية البلاغية فستظل موجودة وحاضرة فيها وإن قامت على أسس جديدة مغايرة.

وتميل كثير من الدّراسات إلى النّظر في العلاقة بين النّظرية البلاغية والنّظرية الأدبية بمختلف اتجاهاتها كما تميل إلى رسم الحدود الحاسمة بين النظريتين، إذ تهتم الأولى بالوظيفة التواصلية الإقناعية التي تنطوي عليها الخطابات التداولية بينما تصبّ الثانية في الوظيفة الجمالية شأن الخطابات التخيلية، لكن رغم الاختلاف القائم بين الخطابين التداولي والتخييلي، لا

يمكننا تجاهل ما بينها من ائتلاف كما لا يمكننا تجاوز ما بين الخطاب الأدبي وهو مجال النظرية الأدبية وبين الخطاب الإقناعي وهو مجال النظرية البلاغية ، فلطالما اعتمدت البلاغة في بناء وظيفتها الإقناعية على المكونات الأدبية كما أن النصوص الأدبية التخيلية أيضا تعتمد الآليات الخطابية وظل تحرك المقاربة البلاغية بالمقارنة مع المقاربات النصية الأخرى محصورا بين النص والمتلقي لتجيب عن كفاءات التأثير فيه جماليا وتداوليا ، فيتداخل النصي الجمالي بالإيديولوجي التداولي

ولطالما تبادل الأدب مع الخطابة التأثير وهذا ما تؤكدته كثير من مصنفات النقد والبلاغة القديمة العربية وغير العربية، فالعلاقة بينهما علاقة تبادل التأثير والاقتران واختلاف أسسهما الإستمولوجية لم يمنع التقاءها بل غالبا ما يسوغ لنا ربط النظرية البلاغية في علاقتها بالنظريات النقدية الأدبية على أساس التلاقي والتفاعل رغم الاختلاف في الظاهر¹.

تعنى كثير من الدراسات البلاغية التي تشتغل على النص الأدبي بالوجوه الأسلوبية والاستخدامات اللغوية التي تنزاح عن معيار اللغة العادية وعليه فهي تعتبر البلاغة والأسلوبية والشعرية شيئا واحدا، فتنتقل جميعا من تصنيف صور الأسلوب انطلاقا من الخطابات الأدبية ولقد كان " للثورة التي أحدثتها اللسانيات البنوية في العلوم الإنسانية ، أثارها في توجه النقد الأدبي نحو الاهتمام ببنية النص والوسائل التي تصنع أدبيته، وعلى الرغم من الخصومة التي أظهرتها الأسلوبيات البنوية نحو البلاغة وإدانتها لمعياريتها إلا أن وجه التلاقي بينها لا يخفى على بال وهو ما سيبينه اهتمام العديد من الشعريين البنويين بإعادة الصلة بالبلاغة واستعمال مصطلحاتها ومفوماتها"²، وهذا ما يتجلى لنا واضحا عند كثير من اللسانيين واللغويين من أمثال جيرار جنيث وجون كوهن وتودوروف... ممن أولوا اهتماما واضحا للصورة البلاغية .

ويمكننا القول إن الاتجاه البلاغي قد تبلور في الثقافة الغربية منذ القرن السادس عشر ثم بلغ ذروته في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ليظهر في صورته الجديدة مع صعود الشعريات البنوية وهو أمر اقتضته تحولات النظرية الأدبية المعاصرة ويمكن أن نشير هنا إلى المقاربات الأسلوبية الحديثة للتصويع عند سبيتزر¹ وأولمان² وكذلك المقاربة الشعرية للسرد عند جيرار جنيث³ .

ونجد في الدراسات النقدية البلاغية العربية المعاصرة من يوظف البلاغة لوصف الوظيفة الجمالية للنص الأدبي بعيدا عن الوسائل التي تتحقق بها هذه الوظيفة سواء أكانت تنتمي إلى الصور المجازية أم إلى الوجوه الأسلوبية أو إلى أي مكون جمالي آخر كالتناص والتكثيف والتوتر والدرامية وغيرها من المكونات التي تفرضها أنواع أدبية مخصصة، فبلاغة النص الروائي على سبيل المثال وأدبيته تتمثل في حبكة السردية وانسجام مكوناته.

إن استخدام البلاغة بهذا المفهوم ينطوي على توجه يروم تحويلها من نظرية في الخطاب الإقناعي إلى نظرية في الخطاب الأدبي، وهو تصوّر بعيد عن الرؤية الأرسطية التي تحصر على الفصل بين الشعرية والبلاغة، فالأولى تهتم بالتخييل، أما الثانية فتهم بالحجاج بصرف النظر عن القضايا المشتركة بينها.

وتتجه بلاغة الحجاج منذ بداياتها الأولى مع اليونان واللاتين إلى دراسة الخطاب في وظيفته وفعالته، أي دراسة الملفوظ الذي ينتجه المتكلم في مقام تواصل محدد قصد التأثير في المخاطب ليغير رأيه واعتقاده ويحمله على الفعل وهذا ما لا يمكن أن

¹ ينظر محمد العمري ضمن كتاب البلاغة والخطاب ، إعداد وتنسيق محمد مشبال، البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب ص: 15 – 29

² محمد مشبال ، البلاغة والسرد ، ص: 17

¹ leo spitzer, etudes de style, editions Gallimad, 1970. pp.397-531

² أولمان، الصورة في الرواية ، ترجمة رضوان العياد ومحمد مشبال ، ص: 32-36

³ Gerard Genette " Metonymie chez Proust, figures III Paris Seuilp : 41-63

يتحقق دون تفعيل كل الوسائل التي يتيحها له فعل التلفظ من متكلم وخطاب ومخاطب فينتج المتكلم فعل التّواصل مركزا على جلب ثقة السّامعين لكسب ثقتهم، فيحرك أهواءهم ويتحكّم في إرادتهم ويوجهها ، لذلك يقف معظم البلاغيين المعاصرين في الغرب من بلاغة الأسلوب موقفا يتلخص في كونها بلاغة انحرفت عن بلاغة الخطاب التي شيدها أرسطو قديما واحتفت بالنصوص ذات البعد التداولي الذي موضوعه الخطابة أو الكلام الفعال الذي يؤثر في المتلقي ، فالأمر مرتبط في هذه البلاغة بوظائف الكلام لا ببنيته التي تعتبر وسيلة للتواصل .

إن ما يجعل بلاغة "الحجاج" أو الإقناع تتجاوز المستوى الأسلوبي الذي ركزت عليه البلاغة الأدبية هو توظيفها في عملية الإقناع الإيتوس : أخلاق المتكلم، الباتوس : أهواء السّامع، اللّجوس: حجج الخطاب وهو تصور تداولي للخطاب لا يهتم ببنية اللغة بقدر ما يهتم بوظيفتها وبالآثار التي تحدثها في المتلقي .

ومجمل القول هنا، هو أن البلاغة بعد استرجاعها لمكوناتها التداولي الذي فقدناه عبر التاريخ أصبحت تجيب عن سؤال كيف يحصل الإقناع في مقام معين وما هي وسائله الخطابية المستخدمة ؟ فإذا كانت بلاغة الأدب تقوم على وصف وتصنيف الصور والوجوه الأسلوبية، فإن بلاغة الحجاج تقوم على وصف آليات الخطاب في توجيهه نحو الآخر لإقناعه في مقام تواصلية معين، بهذا يتشكل موضوع البلاغة من كل المقومات الخطابية المتداخلة التي تسهم في عملية الإقناع كالأخلاق والأهواء والحجج من جهة وبناء الخطاب وترتيبه من جهة ثانية والصور والوجوه الأسلوبية من جهة ثالثة وهي عملية متداخلة يتم من خلالها اختيار العناصر المتفق عليها بين المتكلم والمخاطب برؤية استراتيجية ثم تقديمها على نحو يسهم في تقوية حضورها والزيادة في فعاليتها

لقد عاود التّصور الحجاجي والتّداولي للبلاغة الظهور من جديد في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين لا سيما مع مؤلفين أثرا كثيرا في ظهور الكتابات من منظور بلاغة الحجاج وهما مصنف "الحجاج: البلاغة الجديدة" لبرلمان وكتاب "استخدامات الحجاج" لتولمين بالإضافة إلى الدّور الذي اضطلعت به لسانيات التلفظ والتّداوليات في دفع الدراسات البلاغية الحجاجية التي أنتجت هي نفسها مفهومات بلاغة الحجاج التي استثمرتها الدراسات الحجاجية كمنظريّة أفعال اللغة عند أوستن وسورل ، لكن انتشار نظريات الأدب والمناهج النقدية البنوية في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي لم تسمح بازدهار بلاغة الحجاج كما أنها لم تفسح المجال لظهور مفهومات حجاجية تداولية من قبيل مقصدية المؤلف ، التوافق مع السامع، الموقف التواصلية وغيرها مما يتعارض مع المبادئ التي تقوم عليها البنوية ومنها في الأساس موت المؤلف.

والحق إن البنية النظرية لبلاغة الحجاج تشكل نسقا نظريا موحدًا رغم اختلاف مسمياتها اليوم بين البلاغة الحجاجية أو البلاغة الجديدة أو الحجاج في الخطاب أو فنّ الحجاج أو النقد البلاغي ، ويبقى ذلك الحقل المهتم ببنية الإقناع وجريانه في الخطابات التّواصلية العمومية أو غيرها من الخطابات اللفظية، ورغم انفتاح البلاغيين المعاصرين على حقول معرفية جديدة تعنى باللّغة والخطابات، فإن ذلك لم يقوض أسس الموروث البلاغي بقدر ما منحه عمقا نظريا وامتدادا تطبيقيا جديدا ومنه يمكن القول إن الإقناع والتوافق مع المخاطب والموقف التواصلية الملموس والاستراتيجيات الخطابية الإقناعية وغيرها ستظل أسسا تحدد ماهية الخطاب البلاغي منذ أرسطو¹ وهذا أيضا لا يعني أن بلاغة الحجاج نسخة جديدة للبلاغة .

ولعلّ النشأة الأولى للبلاغة العربية قد ارتبطت بتأملات الشّعور الجاهلي لكن سرعان ما تطورت لتبلور مفاهيمها ومقولاتها الأولى في سياق التحولات الثقافية والحضارية الناتجة عن مجيء الإسلام وعن احتكاك العرب بالحضارات الأخرى : الفارسية

¹ ينظر عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب : مقارنة لغوي تداولية ص: 67

والسريانية واليونانية وتزامن ذلك مع نشأة النحو وعلم الشعر وعلم الكلام والفقه ومباحث الإعجاز القرآني، وهذا ما أفضى إلى نظريات بلاغية مختلفة تحكمت فيها مقصديات كلامية ودينية وجمالية متباينة.

والحق إن جهود العلماء العرب قد صرفت في بناء البلاغة كل من جهته وانطلاقاً من أسئلته وخلفياته المعرفية والكلامية، فهذه بيئة اللغويين تسهم في تطوير التفكير البلاغي من خلال تأملها للظواهر اللغوية وما يكتنفها من مجازات وتصوير ونذكر هنا الأصمعي وأبا عبيدة وابن حبيب والأخفش الأوسط والزجاجي والكسائي والفراء والمفضل الضبي، الذين امتدت تأملاتهم لتشمل حتى الجانب البلاغي.

ويستخلص بعد ذلك ابن المعتز في القرن الثالث، بعض الظواهر البلاغية التي جمعت تحت مصطلحي البديع ومحاسن الكلام، كما رسم الجاحظ للبلاغة تصوراً من خلال مفهوم البيان على أرضية الخطابة بوصفها فناً لغوياً حجاجياً يرمي إلى الإقناع والإقناع.

وتتوالى التنظيرات في السياق نفسه وكانت كلها تصب في تطوير البلاغة من حيث رؤيتها العامة وكذا من حيث امتداداتها في مباحث أخرى كالآداب والفقه والتفسير لا سيما في القرن الرابع مع قدامة بن جعفر وأبي الحسن الرّماني والقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري وفي القرن الخامس مع الباقلاني وابن رشيق وابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني وفي القرن السادس مع الزمخشري وأسامة بن منقذ ثم بعدها مع الرازي وابن الأثير والسكاكي وحازم القرطاجني وغيرهم.

وظلت البلاغة العربية خلال هذه القرون تتأرجح بين الاتساع والشمول من جهة والتضييق من جهة أخرى إلى حدود القرن السادس حيث أصبحت علماً مختزلاً يصف الظواهر البلاغية منفصلة عن سياقاتها الأدبية من خلال مقولات جامدة ولعلّ كتاب السكاكي مفتاح العلوم مرجع لهذا النوع من البلاغة التي تداولتها الشروح والتلخيصات على أن مشروع السكاكي في حقيقة الأمر كان أرحب وأشمل من شراحه وملخصيه، ولا يمكن أن نفهم التطور الذي عرفه الدرس البلاغي العربي دون أن نستحضر المفهوم الذي استقرت عليه البلاغة طيلة قرون من خلال المصنّفات الكثيرة التي انصبت على بلاغة السكاكي بالشرح والتلخيص، وانتهت في بداية العصر الحديث إلى تحنيط هذه البلاغة في كتب تعليمية قدمت منذ مطلع القرن العشرين باعتبارها عصارة ما انتهى إليه الاجتهاد البلاغي العربي¹.

لكن سرعان ما بدأت الأبحاث البلاغية العربية تتجه إلى إحياء البلاغة العربية بصورتها التي كانت عليها قبل اختزالها من قبل شراح السكاكي وذلك في نهاية القرن العشرين، لتصبح علماً شاملاً للنصوص بمختلف أنواعها ومبحثاً للخطابات في مختلف جوانبها الجمالية والتداولية ليشهد الدرس البلاغي العربي في العقود الثلاثة الأخيرة تطوراً ملحوظاً تجلّى في الأبحاث التي حاولت الانفتاح على آفاق التداول وتحليل الخطاب، وبهذا أعاد البلاغيون الجدد للبلاغة سماتها التي كانت في نشأتها تشمل الأسلوب والجوانب الخطابية المتعلقة بالباء والمتلقي، فالبلاغة عند أرسطو كانت تشمل العناصر الثلاثة: الأيتوس واللوعوس والباتوس لكن الظروف شاءت أن تختزل في جوانب الأسلوب والمحسنات وأن تستولي على أبعادها التداولية والحجاجية علوم أخرى كالفلسفة والمنطق وعلم النفس واللسانيات والسيميائيات... الخ.

القراءة الباعثة للبلاغة العربية القديمة: من التحسينات اللفظية إلى الإقناع

¹ ونذكر هنا كتاب علوم البلاغة لمصطفى المرغني الذي يختزل البلاغة في ثلاثة علوم واعتبر مصدراً أساسياً لتدريس البلاغة في العالم العربي

وهنا نشير إلى قراءات مخصبة تبين عن خصائص كانت خافية في المنوال البلاغي العربي وأدرجت البلاغة العربية في بعض مدارات الأسئلة العلمية الحديثة ومن ذلك مشروع القراءة الذي قدمه البلاغي حمادي صمود في ثمانينيات القرن الماضي، إذ يمكن اعتبار أطروحته حول التفكير البلاغي عند العرب سابقة في إعادة قراءة البلاغة العربية القديمة وفق التصور الجديد. ينتقد صمود الدراسات البلاغية التي سبقت كتابه التفكير البلاغي عند العرب والتي اهتمت في عمومها بالتأريخ للبلاغة ومصطلحاتها ومواضيعها وكذا التعريف بأعلامها¹ فهو يرى بأن غياب بلاغة الإقناع عن البلاغة العربية سببه انحصار هذه الأخيرة في دراسة الأسلوب نتيجة انكبابها على دراسة الإعجاز القرآني والشعر، من هنا راح صمود يفكر في إعادة النظر في نقطة ارتكاز الدراسات السابقة للبلاغة العربية القديمة، ففي حين كانت الدراسات تركز على مفتاح العلوم للسكاكي والشروح والتلخيصات التي دارت حوله، يقترح حمادي صمود بلاغة الجاحظ بوصفها نقطة ارتكاز بديلة " فكان لا بد لدراسة أطوار البلاغة العربية على مدى يزيد على ستة قرون، تحتوي هذا العلم نشأة وتطورا واكتمالا من البحث عن نقطة ارتكاز تكون بمثابة مركز الثقل لذلك المحور الزمني الطويل، تذلّل أمامنا بعض العقبات وتقوم علامة بارزة تهدينا في محاولتنا تبين ما ساهمت به الفترات قبلها وبعدها في بناء العلم...، وتحديد نقطة الارتكاز تلك أمر دقيق وصعب لا يمكن أن يقوم على المواضع المنهجية البسيطة ومجرد الافتراض .."² والحاصل من هذا الشاهد أن تحويل نقطة الارتكاز لا يعني سوى تحويل مفهوم البلاغة نفسه، فلم تعد المحسنات هي أساس الدراسة البلاغية، بل الإقناع، ذلك لأن الباحث كشف ما انطوت عليه بلاغة الجاحظ من أبعاد تواصلية وحجاجية تضاف إلى الأسلوب وأساس ذلك هو الاهتمام بالأطراف الثلاثة لعملية التواصل: (المتكلم، النص، والمتلقي) مع ربطها بالوظائف الثلاث: الوظيفة الإلهامية، الوظيفة الخطابية والوظيفة الشعرية.

وأهم من هذا، يتناول حمادي صمود مفهوم البيان عند الجاحظ ويبين ما ينطوي عليه هذا المفهوم عنده من أبعاد إقناعية وتواصلية تتجاوز المفهوم الضيق الذي حصره فيه المتأخرون، ونقصد هنا التقسيم الثلاثي المعروف، ويستعمل المصطلح في معنى أوسع يضم طرق الدلالة والوسائل التي تمكن المتكلم من أداء المعنى " فالبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير"¹ وسنركز من هذا الشاهد على (اسم جامع لكل شيء كشف لك المعنى)، أي أنّ كشف المعنى لا يقتصر على اللغة فحسب، وعليه "جاءت الدلالات أنواعا ومراتب أما الأنواع فمن جهة أن الإنسان يبين عن مراده بوسائل شتى لا تنحصر بالضرورة في اللغة، وأما المراتب فمرتبطة في رأي الجاحظ بأقسام المخلوقات وافتراقها في مناهج الدلالة من جهة، والأطراف التي يتم بينها التواصل والبيان من جهة ثانية"²، فالبيان لا يتم إلا بعلامات تتناسب مع جنس ما يتفاهمون ويرفعون بها مؤونة جهد الكشف عن المعنى فالتناسع عن الناس أفهم...³ وأما التواصل مع أطراف خارج الجنس أو النوع فيحتاج إلى "العقل الثاقب اللطيف والنظر التام النافذ والأداة الكاملة والصبر على مكروه الفكر والاحتراس من وجوه الخدع والتحفّظ من دواعي الهوى لأن الشكل أفهم عن شكله وأسكن إليه وأصبّ به"⁴

إن تعرض حمادي صمود لمفهوم البيان بالتصور الذي جاء في مشروعه التفكير البلاغي يكشف عقم الدرس البلاغي العربي الذي ظل مكبلا بقيود المحسنات والأسلوب ويحوّل النظر إلى البلاغة العربية في أبعادها التداولية والتخييلية.

¹ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) ص: 9-10

² حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص: 15

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1 ص: 76

² حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص: 145

³ الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص: 45

⁴ نفسه، ج 1، ص: 45

ولئن كانت جهود صمّود مجرد مشروع قراءة كما يسمّونها، يمهد من خلالها الطريق لتجديد الدرس البلاغي، فإن جهود محمد العمري قد رامت إعادة قراءة البلاغة العربية وتجديد الدرس البلاغي حيث قدم في مؤلفه "بلاغة الخطاب الإقناعي" رؤية جديدة لدراسة الخطابة العربية أساس التحليل فيها الإقناع وآلياته وأدواته⁵

لقد ساعد اطلاع العمري على التراث اليوناني من جهة وتصورات البلاغة الغربية الجديدة على تدقيق كثير من المسائل والقضايا المتعلقة بالصور البلاغية الشعرية والأبعاد التداولية الحجاجية ليسترد مفهوم البلاغة بعده التداولي الذي لفه النسيان إن مشروع العمري يبدأ من حيث ينتهي مشرع حمادي صمود وإذا كان الأول قد اقتصر على قراءة البلاغة من منظور بنيوي لساني فإن الثاني قد أضاف إلى بحثه جمالية التلقي في بعدها التاريخي الأمر الذي جعله يتلافى كثيرا من النقص الذي عاب الدراسات البنيوية الصّرف والدراسات التحقيقية الوضعية¹، ويعتمد العمري منهجا شموليا يجمع فيه بين المقاربة البنيوية النّسقية ونظرية التلقي ليراجع مفهوم البلاغة الذي ظلّ مهيمنا على الدرس البلاغي بعد تكريس تصور السكاكي وشرّاحه ممثلا للبلاغة العربية، بالإضافة إلى إعاد الصّلة بين البلاغة وتاريخ الأدب والنقد أي الحركة حول النصوص الحية وعملية الانتاج .

ويميز العمري في إطار البحث عن الأنساق البلاغية الكبرى بين اتجاهين بلاغيين اثنين ، اتجاه لغوي انكب على دراسة النّص الخاص (الشّعر والقرآن)، ويقصد هنا مباحث الإعجاز والمجاز وضرورة الشعر، واتجاه خطابي اهتم بوجهة النّظر إلى النّص بنظرة شموليّة ويميز هنا الجاحظ بنظرية "الفهم والإفهام" وكذا حازم القرطاجني بمقولة "البلاغة علم كلّي يستوعب الشعر والنثر". إذن فمجرد التأمل في حلقة البحث البلاغي عند العرب من الجاحظ إلى حازم القرطاجني تكفي لنا لنقول بأن إنجازات البلاغة العربية لا تنحصر في دراسة الأبعاد الأسلوبية للنصوص بل تذهب إلى أعمق من ذلك ، تذهب إلى سؤال المناسبة المقامية التداولية ويتجلى ذلك في " البحث عن فعالية علمية إقناعية خطابية من جهة عند الجاحظ مثلا ، كما ارتبط من جهة أخرى بملاءمة العبارة للمقاصد ضمن نظرية النظم الإعجازية أو ما يمكن أن ندعوه تداولية لسانية في مقابل التّدالوية المنطقية الإقناعية النّصية وارتبط من جهة ثالثة بالبحث عن بلاغة كلاسيكية ذوقية تقوم على الصّحة والمناسبة عند ابن سنان مثلا²" وما دام موضوع البحث عند العمري في أصول وامتدادات البحث البلاغي، فقد تتبع الحلقات الكبرى للتفكير البلاغي عند العرب ليكشف ما يمكن أن تنطوي عليه من أبعاد تخيلية وتداولية كالحال مع العسكري والقرطاجني والخفاجي والسكاكي والقرطاجني الذين وقفوا جميعا عند الصور الشعرية والوسائل الخطابية مبرزين المستويين التداولي والنصي مركزين على مبدأ المناسبة أو التناسب .

إن التنوع والثراء الذين ميزا مصنّفات التراث لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسمحا بحصر البلاغة العربية في أقسام ثلاثة وهي إن اطلعنا عليها بعمق نجدها تتسم بامتداد في الطرح يتجاوز الجانب الشكلي إلى المستوى التداولي الإقناعي الحجاجي فالصّورة والأسلوب والمحسنات لا تتوقف عند ابراز خصائصها الجمالية والتخييلية بل تتجاوزها إلى ابراز جوانب حجاجية يحددها السياق ومقتضيات القول ، لذلك فمفهوم الصورة جاء متطورا في التراث البلاغي بالنظر إلى القيمة التي حظيت بها هذه الصورة ولعل نموذج الجرجاني والقرطاجني أحسن مثال للتعبير عن ذلك، فالجرجاني يعتبر الاستعارة سيدة المقومات البلاغية ويحلّلها من منطلقات دلالية تركيبية نظمية وتداولية¹ ، أما القرطاجني في منهاجه الذي ينطلق فيه من منطلقات أرسطية كيفية مع البيئة الثقافية العربية فإنه مثلا ، يعتبر الاستعارة أهم أنواع المحاكاة والتخييل وحلّلها من زاويتين، نصّية وخطابية منّها إلى وظيفتها

⁵ محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ، الخطابة في القرن الأول نموذجا

¹ ينظر محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص: 43

² محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 32

¹ الجرجاني ، أسرار البلاغة ، تحقق: عبد المنعم خفاجي ، ص: 120/1

الانفعالية الوجدانية². فالتخييل الاستعارية تحتل مرتبة مهمة في نظر القرطاجي، وهي تخييل معنى تلعب دورا مهما من حيث التأثير التخيلي والطاقة الجمالية³

لقد ارتكز البلاغيون الجدد على البحث التداولي لإعادة قراءة البلاغة العربية القديمة قراءة جديدة تكشف أبعادها الحجاجية وتخلصها من هيمنة الصورة والمحسنات الأسلوبية. و يذهب البلاغيون العرب إلى أن البلاغة في مجملها تهدف إلى الوضوح والتأثير ، والتأثير والإبانة يتطلبان الإبانة والوضوح وأساليب الإقناع ومنه يمكن الإقرار بوجود حجاج بلاغي عناصره الأساسية في المعاني البلاغية بوصفها أدوات إقناعية ، ذلك أن البلاغة قبل كل شيء هي عتاد بنائي تبليغي يتوسل به الخطيب أو القائل بهدف فرض رأيه أو موضوعه أو اقتناعه قصد كسب الآخر والتأثير فيه غير أن الصورة البيانية والحيل المجازية واللغوية وحدها لا تحقق التصديق والتدليل ما لم تسند بأدوات ترجيح الرأي وتسويغه عقليا وهنا تتدخل الأدوات التي يوفرها الحجاج⁴ إن المطلع على مصنفات البلاغيين العرب يلاحظ بأنهم قد حدّدوا وظائف الفنّ الخطابي في ثلاثة أهداف هي الإفادة والإمتاع والإثارة وتحقق هذه الوظائف انطلاقا من مقدمة الخطاب، ومنتج الخطاب لا يمكنه تجاهل هذه الوظائف عند مواجهة متلقين مختلفين بحمولات فكرية واجتماعية متباينة فمقامات تلقي الخطاب وسياقاته تختلف ، من هنا كان استحضار المحسنات البلاغية في بعدها الجمالي ضرورة لأجل التأثير في المتلقي وجعله ينقاد لكلّ ما يقال له، هكذا تتجرد اللّغة من وظيفتها الأولى وهي التواصل لتستعين بالمحسنات اللّفظية التي لا يصبح هدفها مقتصرًا على خدمة المعنى بل على خدمة ذاتها " فالزّيّ الذي ابتكر تحت ضغط الحاجة لحماية الجسد من البرد قد تحول فيما بعد إلى أداة زينة كذلك اللّغة ابتكرت في البداية تحت ضغط الحاجة لتوصيل الفكر إلا أنها تحولت فيما بعد لكي تصبح مادة تزيينية"⁵ ويتوسّل منتج الخطاب في جميع الحالات بكلّ ما من شأنه أن يساعده على توصيل المعلومة وبالتالي تحقيق عملية التّواصل التي تفضي إلى الإفهام والإقناع، ولنا هنا عودة إلى الجاحظ في "الفهم والإفهام" وكيف سيطرت هذه الوظيفة على تفكيره البياني، والكلام إذا كان خلوا من هذه الوظيفة يعتبر ضريبا من اللّغو وبابا من أبواب العيّ والحصر .

والثّابت لدى الجاحظ أن البيان في مفهومه العام يقتصر على تحقيق هذه الوظيفة : الفهم والإفهام والأمر هنا مرتبط بقضاء الحاجات وتحقيق التواصل " فالبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كأننا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار القول والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع"¹ إن المتتبع لقول الجاحظ يلاحظ بأن وظيفة "الفهم والإفهام" بكلّ ما تحمله من معاني البيان والتبيين والإقناع أيضا تعتبر الغاية التي يجري إليها الكلام في كلّ صوره العادية المألوفة أو الفنّية الجمالية، ذلك أنّنا إذا حملنا الكلام مقاصد أدبية في تصوّر الجاحظ ستبقى وظيفة "الفهم والإفهام" هي الغاية والأساس، وليس الحرص على الخصائص الفنّية إلاّ وسيلة لبلوغ الغاية من أحسن السبيل وأوضحها وفي هذا تأييد لأولى منازل البلاغة عند بشر بن المعتمر " فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ويكون معنك ظاهرا مكشوفًا وقريبا معروفا إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت.... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني

² القرطاجي ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحق: محمد الحبيب بن الخوجة ، ص:190

³ ينظر محمد الولي ، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، ص:7

⁴ ينظر رجاء عيد ، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، ص: 12 - 22

⁵ محمد الولي ، من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات ، ص:136

¹ الجاحظ ، البيان والتبيين ، ص: 76 ج:1

الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتف عن الدهاء ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام² ، هذا القول لبشر بن المعتمر وغيره من المؤلف نفسه يدل على كلف العرب بالفهم والإفهام وتمسكهم الشديد بهما.

انطلاقاً من كل هذا لا بد من الإقرار بطغيان البعد الوظيفي في التفكير البلاغي عند العرب فجملة الوظائف كانت مركزة على فعل الكلام في المستقبل فضلاً عن أن نظرة الجاحظ وغيره من مؤسسي التفكير البلاغي عند العرب تقوم على مبدأ المنفعة والتّجاعة، فمدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة أي على ما يوقعه الكلام من أثر في المتلقي.

ولئن ارتبطت نشأة البلاغة العربية بداية بالنظر في الشّعْر كما سبق أن أشرنا، فإنها أرست مفاهيمها الأولى في سياق التحول الحضاري لتتبلور نظريات بلاغية مختلفة تتحكم فيها مقصديات كلامية ودينية وجمالية متباينة، لذلك انصرفت جهود البلاغيين في بناء البلاغة كلّ من جهته وانطلاقاً من الأسئلة والخلفيات المعرفية والكلامية لكل جهة، وامتد ذلك من القرن الثّاني إلى القرن السّابع الهجري وكلها اجتهادات وتنظيرات تصبّ في تطوير البلاغة من حيث رؤيتها العامة والشاملة التي تمتد إلى النّصوص في مباحث مختلفة كالأدب والفقه والتفسير، فتكون بذلك علماً شاملاً للنصوص بمختلف أنواعها وأجناسها ومبحثاً عاماً للخطابات في مختلف جوانبها الجمالية والتداولية .

فإذا كانت بلاغة النّص الأدبي في المنظور الضيق للبلاغة تعني الوجوه الأسلوبية والاستخدامات اللغوية التي تتّسم بالانزياح عن معيار اللغة العادية، وإذا كانت البلاغة الأدبية في أغلب كتاباتها تركز على دراسة الصور البلاغية كالاستعارة والكناية والمجاز المرسل...، فإن بلاغة الحجج تتجه إلى دراسة الخطاب في وظيفته وفعالته، بمعنى دراسة الملفوظ الذي ينتجه المتكلم في مقام تواصل محدد ليؤثر في المخاطب ويغير رأيه واعتقاده ويحمله على الفعل وهذا ما لا يتأتى إلا في حدود ما يتيح له فعل التلطف بمكوناته (المتكلم، الخطاب، المخاطب)، وبذلك يعمل المتكلم على تحريك الأهواء والتحكم في الإرادات وتوجيهها ويجعل خطابه مقنعاً بالحجج التي يقوم عليها. إنه التصور التداولي للخطاب الذي تجاوز المستوى الأسلوبي في أغلب مصنّفات التراث، فالبلاغة الشاملة الرحبة لم تهتم ببنية اللغة بل نظرت في الآثار التي يحدثها الخطاب في المتلقي وبذلك فهي تركز على مكوّناتها التداولي الأساسي الذي تلاشى شيئاً فشيئاً مع البلاغيين المتأخرين من شراح السّكاكي فاخترال البلاغة وانحسارها من نظرية في الخطاب إلى نظرية في الاستعارة فيه إقرار بتحوّل موضوع البلاغة من النّص إلى الكلمة ومن التّواصل إلى التّحسين أي من الكلّي إلى الجزئي والبلاغة القديمة ممثلة في أرسطو جاءت شاملة للخطاب في كليته ونقصد هنا الغرض البلاغي أو مقاصد الخطاب .

والحق إن الإقرار بحضور الخطاب والنّص في منظومة التفكير البلاغي عند العرب القدماء ضرورة لإحياء البلاغة وبعثها في صورتها الأولى الشّاملة والواسعة قبل أن تتحول إلى مقولات جامدة وتقسيمات ضيقة، وضرورة أيضاً لإثبات أن اختفاء تصوّر الحجاجي التداولي للبلاغة لا يعني أبداً انعدامه في نصوص التراث البلاغية.

² نفسه ص: 136 ج: 1

المصادر والمراجع :

المصادر القديمة

الجاحظ: البيان والتبيين ، تحق: عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي ط3، القاهرة

الحيوان ، تحق: عبد السلام هارون: ط3

الجرجاني عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تحق: هريتر، إستنبول

دلائل الاعجاز ، تحق: عبد المنعم خفاجي، القاهرة

قدامة بن جعفر : نقد الشعر : تحق: بونيباكر

ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة تحق: علي فودة ط1 القاهرة ، 1932

السكاكي : مفتاح العلوم ، مط : الحلبي ، ط1 ، مصر، 1937

العسكري : الصناعتين ، تحق: علي محمد البجاوي وابو الفضل ابراهيم، ط2 ، القاهرة، 1971

ابن قتيبة : الشعر والشعراء ط. ليدن 1902

حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس 1966

ابن المعتز : البديع ، تحق: كرانشكوفسكي ، لندن ، 1935

المراجع الحديثة

محمد مشبال : البلاغة والسرد ، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ ، منشورات كلية الآداب جامعة عبد المالك السعدي

البلاغة والخطاب إعداد وتنسيق محمد مشبال ، منشورات ضفاف والاختلاف، الرباط ، ط1

أولمان : الصورة في الرواية ، ترجمة رضوان العياد ومحمد مشبال ،

عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب : مقارنة لغوي تداولية ، دار الكتاب المتحدة 2004

حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط2

، 1994

محمد العمري : في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ، الخطابة في القرن الأول نموذجاً

، دار الثقافة ، الدار البيضاء ط1 ، 1986

البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا شرق ، الدار البيضاء ط2 2010

رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط2

محمد الولي : من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات ، إفريقيا شرق، الدار البيضاء ط1

المراجع الأجنبية

leo spitzer, etudes de style, editions Gallimad, 1970.

Gerard Genette " Metonymie chez Proust, figures III Paris Seuil

إستراتيجية التناول البلاغي عند عبد الله بن المعتز

قراءة في كتاب البديع

د. نعيمة بوزيدي

جامعة البليدة 2 - الجزائر

الملخص:

البديع علم به يُعرف وجوه تحسين الكلام، واهتمامي باستراتيجية التناول البلاغي عند ابن المعتز من خلال كتاب البديع يعود لأسباب عدة منها: أنّ الكتاب ليس قاصرا على البديع بالمعنى الضيق، وإنّ أثره كان واسعا في أدب الجيل الذي عاصره رغم أنّ عبد الله بن المعتز (ت 296هـ) كتبه قبل أن يتعمّق في دراسة الثقافات الأخرى، وقد حاول من خلاله رصد شكل التّعبير الذي اعتبر علامة مميّزة للاتجاه الشعري المحدث مقدّما بذلك الخطوة النظرية الحاسمة في أفق بلورة شعرية نصية شكلا نية تحابى المكوّنات الصوتية والدلالية التي يستوعبها البديع.

وتحاول الدراسة أن تبيّن كيف رصد ابن المعتز الظاهرة البديعية؟ وكيف حدّد الإطار الملائم والسقيم من شواهدة؟ وكيف صادق على هوية المصطلح دون أن يغلق الباب أمام إمكان التوسع؟ وكيف مثّل الخلاصة التركيبية النموذجية في سياق ما أنتج من ملاحظات وردود أفعال حول الأدبية منذ العصر الجاهلي إلى حدود عصره؟ وما هي محاسن الكلام والشعر التي أضافها إلى البديع لتجعله كتابا مهما في البلاغة العربية، هذه أسئلة وأخرى تحاول الدراسة أن تجيب عنها.

الكلمات المفتاحية: إستراتيجية، التناول البلاغي، البديع، عبد الله ابن المعتز

Abstract:

The book is not limited to the (figures of speech) in the narrow sense, and its impact was widespread in the literature of the generation that he lived despite the fact that Abdullah bin Mu'taz (v) 296 e) written before studying the depth of other cultures, and he tried to monitor the form of expression, which was considered a distinctive feature of the poetic trend, thus advancing the decisive theoretical step in the horizon of the crystallization of poetic poetry form the intention to match the sound and semantic components absorbed by the (figures of speech).

The study attempts to show how Ibn al-Mu'taz observed the phenomenon of the deception? How did he define the appropriate and the proper framework of his evidence? How did he authenticate the term without closing the door to the possibility of expansion? How did the typical synthesis emerge in the context of the observations and reactions on literature from the pre-Islamic era to the limits of his age? And what are the beauties of speech and poetry that he added to al- (figures of speech) 'to make him an important book in Arabic rhetoric, these are

questions that the study tries to answer.

Key words: strategy, rhetoric, (figures of speech) ibn elMu'taz

مقدمة:

يعدّ عبد الله ابن المعتز (ت 296هـ) من أئمة البيان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وأول من أسس علم البديع وذلك سنة 274هـ حين ألف كتابه "البديع فصّل فيه القول وذكر فنونه وشواهدة وهو في سن الشباب قبل أن يتعمّق في دراسة الثقافات الأخرى¹،

¹ طبع كتاب البديع بأوروبا عام 1935 هـ، وأعيد طبعه عام 1945 هـ، وقد ألفه ابن المعتز عام 274 هـ، يشتمل الكتاب على 312 شاهدا من عيون الشعر العربي تبلغ 425 بيتا

أو تزيد فو ما اشتمل عليه من بليغ النصوص والشواهد من الذكر الحكيم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة والأعراب وبلغاء العرب، ينظر خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، دار الجيل بيروت، 1991، ص 122

والمتمحدث عن آراء ابن المعتز النقدية في البديع وغيره لا بدّ أن ينطلق أولاً من حقيقة كونه شاعراً قبل أن يكون ناقداً أو بلاغياً ليعرف مدى تأثير شاعريته واتجاهه الفني في آرائه النقدية، "فدراسة تأليف البديع يجب أن لا تنفصل عن شخصية ابن المعتز الشاعر وعن مواقفه النقدية الأخرى"¹

فالكتاب إذاً صدى لشاعريته وفنه الشعري الذي اتّسم بالتفنن في استخدام البديع "وكان يجري في شعره على سنة المحدثين ومذاهبهم، وكان مذهبه البديع من أشهر هذه المذاهب في عصره منذ أن فتح القول فيه مسلم بن الوليد، وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع الذي لقب هذا الجنس البديع وتبعه فيه جماعة "وأشعرهم أبو تمام فإنّ شعره كله واحد فيه"²

وإذا تتبعنا القدماء في أوصافهم لشعر ابن المعتز وجدناهم يجمعون على توافر ميزتين واضحتين في شعره

1. ميله إلى البديع والتشبيهات المبتكرة

2. التألق في اللغة الشعرية

وقد أثنى القدماء على إجادة ابن المعتز في قول الشعر، ووصفوا اقتداره على اختراع المعاني بأسلوب بليغ جميل³، فكان شاعراً مطبوعاً مقتدرًا على الشعر سهل اللفظ، جيد القريحة حسن الإبداع للمعاني مغرماً بالبديع في شعره⁴، وقد نشأ ابن المعتز في عصر لم يخل من أثار البغض للتراث الأدبي القديم ومن المنكرين لمذاهب المحدثين في البيان والناعين عليهم ما افتتوا فيه من ألوان البديع التي اثر منها بشار ومدرسته⁵

قيمة الكتاب ومنهجه:

لقد عرف "ابن المعتز" البديع بأنه "اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو" وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه احد⁶، وقد أحسن ابن المعتز في إشارته هذه؛ لأنّ الشعراء ومن يهتم بالشعر من النقاد هم الذين يعرفون البديع؛ لأنه شاع في أساليب الشعراء المحدثين في العصر العباسي، وأثار ميلهم إلى الإكثار منه اهتمام النقاد، إلا أنّهم لم يفرّدوه بكتاب، ولا عُنوا بوضع أسماء ومسميات لأنواعه وأقسامه. وكتاب البديع ينقسم إلى قسمين الأول من (ص1 إلى ص58)، وفيه يُحصي المؤلف خصائص المذهب الجديد الخمس، وفي الجزء الثاني من (ص58 إلى 77) يذكر بعض محاسن الكلام والشعر

وقال عنه بدوي طبانة: "وعلم البديع كان أول من ألف فيه ابن المعتز وجمع مؤلفه ما وقع من ضروب تحسين الكلام"⁷

ويعدّ كتاب البديع نقطة تحوّل هامة في مسار الدراسات البلاغية، وعلامة بارزة في مجال النظرية النقدية عند العرب، هذا ما جعل مكانة ابن المعتز في تاريخ البلاغة تشبه مكانة سيبويه في تاريخ البحوث اللغوية والنحوية⁸؛ لأنّه يعمد في كتابه إلى أمرين أما أحدهما فدفاعي عن أصالة البلاغة العربية، وأما ثانيهما فنقدي، فالكتاب محاولة نادرة لإرساء أصول البلاغة على

¹. ينظر مرهون الصفار(ابتسام) وحلاوي(ناصر)، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، جبهة للنشر، 2006، ص201

². إبراهيم قاسم (جمال)، البلاغة الميسرة، دار ابن الجوزي، ط1، 2012، ص21

³. مرهون الصفار(ابتسام) وحلاوي(ناصر)، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، مرجع سابق، ص191

⁴. ينظر عتيق(عبد العزيز) علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1985، ص13

⁵. ينظر خفاجي(محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ص570

⁵. ابن المعتز(عبد الله)، البديع، دار الجيل، بيروت 1990، ص17

⁶. المصدر نفسه، ص88

⁷. شروح التلخيص، ص46 نقلا عن رجاء عيد، المذهب البديعي في الشعر والنقد، مرجع سابق، ص28

⁸. صمود (حمادي)، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص372

أسس عربية صريحة، كما أنه أول كتاب يتناول الأدب تناولاً جمالياً برغم أنّ "عبد المالك مرتاض" يرى أن تأسيسه لم يقم على خلفية نظرية عميقة، وإنما قام عمله بحكم أنّه رائد في بابهِ على عرض مجموعة من النصوص بعد أن يقدم لكلّ ضرب بلاغي بتعريف بسيط، وفي بعض الأطوار لا يأتي بأيّ تعريف كما جاء ذلك حين ذكر الاستعارة، فانتقل إلى الاستشهاد بالنصوص القرآنية والشعرية دون أيّ تعريف أو تمهيد¹.

ويبدو أن ابن المعتز ألف الكتاب رداً على من زعم من معاصريه أن بشار بن برد ومسلم بن الوليد الأنصاري وأبا نواس هم السابقون إلى استعمال البديع في شعرهم، وعن ذلك يقول في مقدمة كتابه: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أنّ بشاراً ومسلماً وأبا نواس من تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُغف به حتى غلب عليه وتفرغ فيه وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ذلك²

فالبديع هو العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام، أو هو الفن المعني بزخرفة الصياغة الشكلية وتوشيتها بضرور الحلي المختلفة كالجناس والطباق... وغيرهما، لكنّه عند النقاد والشعراء المبكرين بما في ذلك ابن المعتز كان يشمل كل الفنون البلاغية المتعلقة ببنية الأداء والتصوير بما في ذلك التشبيه والاستعارة والكناية³

وقد أراد ابن المعتز إثبات وجوده في هذا المجال بالإضافة إلى محاولة التسليم بأنّ البديع قيمة فنية شكلية تتجلى فيها مهارة الصنعة التي هي صلب تميز الشعاعية، ولكنها لا تؤتي ثمارها إلا من باب انجازها الدلالي غير أنّ هذه القيمة تتحول إلى أداة سلبية عند الإفراط والتكلف و"الكتاب يمثل حجر الأساس في أصول البلاغة العربية فقد ضم الكتاب ألوان البديع المشهورة التي كانت سائدة في عصره وقبل عصره التي لم يجمعها احد قبله بهذا الشكل علماً بأنّ الكثير منها كان معروفاً⁴

و تأليفه الكتاب "يمثل محاولة جادة للوقوف في وجه التيار النقدي المناصر للقديم، ويدل على قوته، إذ قال في صدر مقدمته "قد قدمنا وقد أجهد نفسه في استحضار الشواهد الغزيرة التي تؤكد استخدام القدماء لوجوه البديع المختلفة التي استوفى منها ثمانية عشر باباً في كتابه" فعّد بذلك أول محاولة منظمة ومنهجية لوضع أسس البلاغة العربية وتحديد مباحثها ومصطلحاتها⁵. وقد حاول أن يثبت أن ألوان البديع كانت معروفة عند الشعراء القدامى والإسلاميين وألما بها في شعرهم كما ألمّ بها المحدثون فهي ليست غريبة عن الشعر الجاهلي والإسلامي، وليست جديدة على أساليب البيان في شعر المحدثين⁶ فمحمد عبد المطلب يرى "أن هذه الصنعة اللفظية مثلت نوعاً من الحدائث التعبيرية التي وظّفها المبدعون في إنتاج خطاب أدبي فيه كثير من الملاءمة بين ذواتهم، وبين ما يقولون من شعر من ناحية، ثم الملاءمة بين هذا الشعر وطبيعة الحياة الجديدة التي كانت المفارقة الاجتماعية والثقافية أهمّ ملامحها من ناحية أخرى⁷. فهو يمثل "الخطوة النظرية الحاسمة في أفق بلورة شعرية نصية شكلانية تحايي المكونات الصوتية والدلالية التي يستوعبها المصطلح الجديد (البديع) وهي الاستعارة" وهي الباب الأول في كتاب البديع

¹. ينظر مرتاض(عبد الملك)، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط2، 2010، ص76

². ابن المعتز(عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص1

³. ينظر رزق(صلاح)، أدبية النص محاولة لتأسيس منهج نقدي عربي، دار غريب، 2002، ص110

⁴. أبو العدوس(يوسف)، البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1999، ص30

⁵. إبراهيم قاسم(جمال)، البلاغة المبسرة، مرجع سابق، ص22

⁶. خفاجي(محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص55

⁷عبد المطلب(محمد) البلاغة العربية قراءة أخرى مكتبة لبنان، 1997، ص347

عرّفها ابن المعتز بأنها استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها¹، وذكر كثيرا من شواهدا ومثالا لقبيحها، وكان الحديث عن التجنيس ويعد ابن المعتز الواضع لهذا المصطلح، وهو أول من درسه وجمعه وفيه قال: "التجنيس أن تعي الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر أو كلام² والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي وهو إيراد حجة على المطلوب على طريقة أهل المنطق، وهي أن تكون المقدمات مستلزما للمطلوب، والجاحظ هو الذي سماه هذا الاسم، وابن المعتز ذكر أقسامه وشواهد كثيرة له، وبين ما عيب منه³ وأنه ليس في القرآن منه شيء وأنه ينسب للتكلف ويذكر شواهدا ومثالا للمعيب منه⁴، يلي فصول تلك الأنساق البلاغية الخمسة التي ارتضاها قسم يعالج فيه اثني عشر نوعا من محاسن الكلام ممّا قد أضافه ابن المعتز للبديع. كما صرح، على حين عدّها آخرون من أسسه "ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن عمله وذكره"⁵. ورأى ابن المعتز أنّ فنون البديع الخمسة هي المحك الذي يكشف عن أصالة الشاعر، ولكنّه ترك الباب مفتوحا لتغير الأحوال والمفاهيم والبيئات، و"أن محاسن الكلام درجة أقل في نظره من فنون البديع، أو هي الدرجة السائدة من الجودة التي لا تشهد بتميز أو ابتكار"⁶. ولهذا جعل لفنون البديع الخمسة الصدارة.

ويعدّ كتاب البديع من العلامات البارزة في حياة البلاغة بعامة، والبديع بخاصة،⁷ مما يجعله رائدا في هذا المجال "فهو أول محاولة لوضع مبادئ نظرية⁸؛ لأنّه أول مؤلف في البديع وصنعة الشعر كما اجمع على ذلك الباحثون، وأهم كتب ابن المعتز بالنظر إلى اختصاصه في هذا الفن بشهادته إذ يقول: "وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد"⁹

ويعتبر كتاب البديع دراسة فنية لعناصر الجمال في الأدب، وقد جمع فيه مؤلفه محاسن الكلام التي ازدان بها كلام الفحول من الجاهليين والإسلاميين، ووردت في الكتاب الكريم وفي حديث الرسول الكريم وكلام الصحابة، ولم يكن ابن المعتز يعني بالبديع ما يعني به البلاغيون المتأخرون الآن من أنّه العلم الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد، وإنما كان يعني به سائر فنون البلاغة، ولهذا نراه يخوض في فصول من البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية والتعريض، وفي فصول من علم المعاني كالالتفات والاعتراض فضلا عن بعض المحسنات البديعية كالتجنيس والمطابقة.

ويختم كلّ لون بذكر ما عيب من شواهد المتكلمة السقيمة، والكتاب حافل بشتى النصوص التي جمعها ابن المعتز، وساقها في عرض جميل ونظام محكم، يؤكد أنّ "لون الثقافة الشائعة في الكتاب هي الثقافة العربية العميقة الخالصة من شوائب الثقافات الأخرى"¹⁰

ونبه ابن المعتز في كتابه على أنه اقتصر بالبديع على الفنون الخمسة السابقة اختصارا من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة¹¹، وهذا دليل على أنّه واع بأهمية فنون البديع الخمسة

1. ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص 17

2. المصدر نفسه، ص 71-73

3. ينظر المصدر نفسه، ص 100

4. ينظر المصدر نفسه ص 105-106

5. المصدر نفسه، ص 58

6. سلطان (منير)، البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف الإسكندرية، 1986، ص 13

7. سلطان (منير)، البديع تأصيل وتجديد، مرجع سابق، ص 13

8. الكواز (محمد كريم) البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، الانتشار العربي، ط 1، 2006، ص 228

9. ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص 106

10. خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص 575

11. عتيق (عبد العزيز)، علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1985، ص 14

وقد جمع ابن المعتز في كتابه أبواب البلاغة بعلمومها الثلاثة وربما يعود السبب في ذلك إلى عدم الدقة في تعريفه للبديع، ولهذا قال أحد النقاد المعاصرين "وليس لكلمة البديع التي جاءت على عنوان الكتاب صلة بما سماه البلاغيون في العصور المتأخرة (علم البديع)... وإنما المقصود بها ألوان طريفة من التعبير، لم تكن شائعة مألوفة في استعمالات الشعراء والكتاب"¹ ومع أنّ كتاب ابن المعتز قد سمي بالبديع وهو موضوعه الرئيس، فإنه أضاف إليه بعض محاسن الكلام والشعر لتعم فائدته فذكر ثلاثة عشر فناً بديعياً فتحدث في الالتفات والاعتراض الرجوع، حسن الخروج تأكيد المدح بما يشبه الذم تجاهل العارف، الهزل الذي يراد به الجِد، التضمين التعريض الكناية الإفراط في الصفة (المبالغة) و، حسن التشبيه إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له وهو ما عرفه البلاغيون المتأخرون بلزوم ما لا يلزم من القوافي، وحسن الابتداءات، وقد ذكر أنّ هذه الأنواع الثلاثة عشر هي "بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضهما عن عمله وذكره"² فإذا أضفنا إلى ذلك أصول البديع الخمسة كان معنى ذلك أنّ ابن المعتز قد اخترع ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع فكأنه كان يضع كتاباً في البلاغة مصراً على أن لفظة البديع لا تتناول إلا الخمسة الأولى منها، ولهذا فالنقاد الذين جاءوا بعده شغلوا أنفسهم ببعض هذا المصطلح البلاغي في تفويهم للشعر و"أنّ الروح التي أملت الكتاب كانت تمثل جانباً من الحركة النقدية في القرن الثالث الهجري؛ حيث ذهب ابن المعتز ينصف القديم في وجه تيارات الجديد الغارقة في بحر الصنعة والزخرفة، وقد أكد عن هذا الطريق أنّ البديع هذا لم يكن بدعاً مستحدثاً من قبل هذا أو ذاك من الشعراء، وإنما كان الفضل فيه للقدماء"³ فالبديع إذاً جزء من الموروث الكبير

وابن المعتز انطلق في مؤلفه من محاولة نسف الفرضية التي تثبت التفوق والاستثناء بالمكونات الشعرية الموسومة بالبديع للمحدثين دون القدماء قائلاً: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أنّ بشاراً (ت167هـ) ومسلماً (268هـ) وأبا نواس (198هـ) ومن تقلّهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه"⁴، فهو ينفي سبق المحدثين إلى هذا الفن ولكنه يعترف بكثرة في أشعارهم⁵ فيقول: "وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أنّ المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى أي شيء من أبواب البديع"⁶

لقد راهن ابن المعتز في إطار توجهه نحو الملاحظة والرصد وتقصي الصور التعبيرية على بعدين بعد مسمياتي وبعد توليدي⁷، ورصد الظاهرة البديعية وصفاً واستقصاءً في إطار النصوص، وحدّد الإطار الفرضي الملائم، وصادق على هوية المصطلح دون أن يقفل الباب أمام إمكانية التوسيع والإضافة وتوليد صور تعبيرية أخرى كما يستفاد من كلامه في معرض حديثه في القسم الثاني من كتابه ضمن ما سماه "محاسن الكلام والشعر" وهو قسم مستقل عن البديع بنية ووظيفة يقول: "فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعّل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع، ولم يأت غير رأينا فله اختياره"⁸ وعلى المستوى التوليدي الصرف يلاحظ أنّ الصور الأسلوبية التي عدّها ابن المعتز بديعاً قد شكّلت الأساس اللساني والمنطقي

1. شفيح (السيد)، البحث البلاغي عند العرب (تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1987، ص 69)

2. خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص 689

3. إ. ج. كراتشكوفسكي علم البديع والبلاغة عند العرب، ترجم محمد الحجري، دار الكلمة للنشر، ط 2، 1983، ص 30

4. ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق ص 74

5. محمد احمد قاسم، علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2008، ص 56

6. ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص 76

7. حسين بيزاري، في بلاغة النص الشعري، افريقيا الشعب، 2016، ص 26

8. حسين بيزاري، في بلاغة النص الشعري، المرجع السابق، ص 152

العميق الذي اشتقت منه قواعد إنتاج عشرات المصطلحات البديعية بالنسبة إلى من جاؤوا بعده من البديعيين كما شكّلت أرضاً ملائمة للتأويل واستقصاء الأمثلة، وبناء التعاريف على غرار ما يلاحظ عند أسامة بن منقذ في كتابه "البديع في نقد الشعر" وعند "أبي الأصبغ" في كتابه "تحرير التحرير" وعند ابن حجة في كتابه "خزانة الأدب".

وتقول سوزان ستيتيكفتش في ذلك: "إنّ تأثير ما قد يصطلح على تسميته بانبعث الاتجاه المتشدّد في فهم شعر البديع قد يبدو أوضح إذا راجعنا كتاب البديع لابن المعتز، فهو أول سابقة من نوعها لوضع تعريف للشعر الجديد، ومن ثمّ فقد وضع أسساً احتذاها النقاد من بعد"¹، وهذا ما سنتبعه فيما سيأتي

فلقد كان ابن المعتز معنياً بتأييد شرعية الشعر الجديد وإجازته، كما اهتم بمن يحطون من قدره ممن ادّعوا خروجه عن حدود التقليد الشعري العربي، أو ادّعوا أنه يمثل فساداً داخل التقليد و"كان هو من هؤلاء المجددين في المعاني وفي الصورة والأسلوب"²

وقد استند في دفاعه عن شعر البديع الجديد على أساسين: الأول أن أسلوب البديع يتكئ على توليد أنساق بلاغية بعينها وعلى الزخارف، والثاني أنّ تلك الأدوات أو الأنساق بذاتها ليست إبداعات من صنع شعراء البديع بل هي متوفرة في المصادر العربية القديمة كالقرآن والحديث والشعر القديم وكلام الأعراب كما ذكرنا سابقاً

ويرى "كراتشكوفسكي" أنّ هذا الرجل كان يتميز بكل صفات العالم القدير المتمكن الذي يستلهم باستلهاماته النافذة ما سيحدث لهذا الابتداع من تطوير وتوسيع واعتراضات تفرضها مستلزمات العصر، ولكن جميع العلماء يقدّرون له عمله ويسمونونه بالبحاثة الأول في أساليب البديع"³، ويعقد مقارنة بين الصور الخمس التي اعتمدها ابن المعتز وبين ما ورد في البديع اللاتيني اليوناني الروماني حيث بيّن الصفة الخاصة باللغة العربية التي تنطبع بها هذه الصور الجمالية⁴

ويضيف أن في كتاب البديع "لكل كلمة معناها المحدد والمصطلحات عند ابن المعتز تستل كل الاستقلالية تقريباً عن معناها اللغوي"⁵

وكان ابن المعتز مدركاً وجود بعض الاختلافات بين الشعر القديم والشعر الجديد وإن كان يردّها أساساً لعدم الحذر والحماس الزائد "يقول" ثم أنّ حبيب بن اوس الطائي (أبا تمام) من بعدهم شُغف به حتى غلب عليه وتفرغ فيه وأكثر منه في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمره الإسراف، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين من القصيدة وربما قرأت من شعر احدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً، أو يزداد حظوة بين الكلام المرسل⁶ ويكمن الامتياز الوحيد لفهم ابن المعتز على أي شرح أو تعريف لأسلوب البديع في الاختلاف في عدد تصنيفات الأشكال البلاغية⁷، فبدأ بالاستعارة ثم التجنيس

ومثلت المطابقة الصورة الثالثة، وهي تعني التماثل، أما الصورة الرابعة فهي رد العجز على الصدر والمذهب الكلامي آخر صورة من صور البديع الذي ذكره ابن المعتز "وقد اقتبس تسميته هذه عن الجاحظ إلا أنّه لم يعط تفسيراً واضحاً أو تحديداً

¹ سوزان ستيتيكفتش، إعادة صياغة البديع فصول قراءات تراثية مج 13، ع 3، 1994، ص 275

² سلامة (إبراهيم) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الانجلو المصرية، ط 2، 1952، ص 58

³ ج كراتشكوفسكي علم البديع والبلاغة عند العرب، ترجم محمد الحجيري، مرجع سابق، ص 24

⁴ المرجع نفسه، ص 24

⁵ المرجع نفسه، ص 24

⁶ ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص 1

⁷ المصدر نفسه، ص 3

لهذا الأخذ¹ وبعدهما أنهى ابن المعتز حديثه عن علم البديع في الأدب العربي انتقل إلى الجماليات الأدبية بشكل عام وقد وزعها بين ثلاث عشرة صورة جاءت على النحو الأتي (الالتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج من معنى إلى معنى، تأكيد المدح بما يشبه الذم، تجاهل العارف، هزل يراد به الجد، حسن التضمين، التعريض والكناية، الإفراط في الصفة، المبالغة، حسن التشبيه، إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له وهو ما عرفه البلاغيون المتأخرون بلزوم ما لا يلزم من القوافي، حسن الابتداءات اذكر منها:

1. الالتفات: وهو أول شيء تناوله ابن المعتز في الجزء الثاني من الكتاب فعرّفه وذكر شواهد، ويعني به الانتقال من الكلام المباشر إلى الكلام غير المباشر أو بالعكس ولكنه أضاف في نهاية هذا التحديد أن هذه الصورة تعني "انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى معنى آخر"²

2. الاعتراض: هذه هي الصورة الثانية "وهي تعني" شكلا جديدا للكلام المتناقض أو المعاكس³، ويعرفه بأنه اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد"⁴

3. الرجوع: وبعده ابن المعتز أول من ابتكر هذا اللقب فكانت الرواة تعيب مثل هذا الأسلوب؛ لأنّ الشاعر يكذب نفسه⁵ عرفه ابن المعتز بان تقول شيئا وترجع عنه وذكر شواهد له⁶

4. حسن الخروج: ويريد به ما يشمل التخلص والاستطراد كما بين ذلك ابن رشيق⁷.

ويعدّ البديع مذهباً شعرياً له خصائصه الفنية وقالبه الفكري الخاص اوضح بتأليف ابن المعتز كتابه البديع وقد عدّ كتابه أول دراسة نقدية في البديع وقد سار على هذا المعتقد كثير من النقاد المحدثين والقدماء وغيرهم يقول "بهاء الدين السبكي" (ت 733هـ): اعلم أنّ أنواع البديع كثيرة وقد صُنّف فيها وأول من اخترع ذلك عبد الله بن المعتز وجمع فيها سبعة عشر نوعاً⁸ ونرى أنها أكثر من ذلك؛ لأنّ الأنواع الثلاثة عشر إذا أضفنا إليها أصول البديع الخمسة أصبحت ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع، وما ذكره ابن المعتز يعد من وجوه البلاغة ولا فرق بينها واختلاف التسمية بين الاسمين لا يعدو أن يكون اختلافاً لفظياً منشؤه إما نهوض ابن المعتز بعمله على مرحلتين متعاقبتين في المرحلة الأولى عرض لطائفة من الأساليب، وفي المرحلة الثانية تناول طائفة أخرى يصدق عليها الوصف بالجدّة والطرافة مثل الطائفة الأولى، وغاية ما هنالك انه اختار لها اسماً آخر لا يبعد في دلالته عن الاسم الأول⁹

ومنهج المؤلف في دراسة كلّ فن من هذه الفنون التي عدّها فإنّه يقوم على تعريف هذا الفن أولاً، و الإتيان بشواهد نثرية مختارة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ومن كلام العرب في الجاهلية والإسلام ثم يردفها بشواهد مختارة من الشعر القديم جاهلية وإسلامية يتبعها بالأمثلة التي يختارها من شعر المحدثين ونثرهم ثم يختم البحث في كل فن يذكر ما جاء فيه من

1. إ.ج كراتشكوفسكي علم البديع والبلاغة عند العرب، ترح محمد الحجري، مرجع سابق، ص 44

2. ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص 106

3. المصدر نفسه، ص 59

4. المصدر نفسه، ص 108

5. خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص 582

6. ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص 108

7. القيرواني (ابن رشيق) العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تح محمد معي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1981، ج 1، ص 206

8. رجاء عيد، المذهب البديعي في الشعر والنقد، منشأة المعارف الإسكندرية، ص 28

9. ينظر السيد (شفيق) أساليب البديع في البلاغة الغربية رؤية معاصرة، دار غرب، 2006، ص 11

الغيب ولا يعرج إلا في القليل على بعض الألفاظ فيشرحها أو يذكر مناسبتها وهو في كل هذا يعزو القول إلى صاحبه والكلمة إلى قائلها ما وسعه ذلك¹

"وليس في كتاب ابن المعتز ذكر لباحث قبله في قضايا البديع سوى الأصمعي الذي قال إن له بحثا في الجناس وسوى الجاحظ الذي قال إنه أول من سعى المذهب الكلامي"² و ذكره للأصمعي والجاحظ دليل على تأثره بهما ويرى "محمد مندور" أنّ ابن المعتز قد ساعد على خلق النقد المنهجي بتحديد خصائص مذهب البديع ووضعه اصطلاحات لتلك الخصائص³.

ويمكن أن يعدّ كتاب البديع لابن المعتز حدا فاصلا بين النقد والبلاغة إذ قصد ابن المعتز أن يدرس بعض الظواهر البلاغية مستندا إلى المأثور من الشعر وقد ترك هذا العمل أثارا واضحة في منهج من جاء بعده بحيث يمكن القول أن علوم البلاغة منذ كتاب ابن المعتز أصبحت واضحة المعالم طبقها المؤلفون فأحدثوا ما سعى بالنقد البلاغي وهو نقد يهدف إلى تقويم الأدب على وفق أصول البلاغة، وعلى الرغم من أن النقد البلاغي قديم إذ يرقى إلى الجاحظ ولكنه توضح على يدي ابن المعتز ومن سار على نهجه⁴

وقد أشار القدماء إلى فضل ابن المعتز في هذا الكتاب، فقال ابن رشيق: "فانتهى علم البديع والصنعة إليه وختم به، وإنه أول من نحا هذا المنحى في الجناس وجمعه"⁵

وذكر السيوطي أن أول من اخترع ذلك (البديع) ابن المعتز فجمع في سبعة عشر نوعا⁶ وهو ثمانية عشر نوعا كما جاء في الكتاب، وهو يريد اختراعه المسميات وتسجيلها في كتاب واحد: لأنها كانت موجودة فعلا قبل كتابه متفرقة حتى جاء فجمعها" وحق لابن المعتز أن يوصف بأنه قد تسلم زعامة المدرسة البيانية في الحكم على الأدب وفي تذوقه⁷ وأن كتابه محاولة فريدة لإرساء أصول البلاغة العربية على أسس عربية صريحة⁸

وكان ابن المعتز في إيراد الشواهد لا يكتفي بالرد والإيراد بل يقف أمام بعض الشواهد ويستحسنها ويجافي بعض الشواهد وينكرها فهو إذا ناقد للمرة الثانية كما كان ناقدًا في المرة الأولى عند وقوفه أمام شواهد أبي تمام والفرق بين المرتين انه قبل تأليف الكتاب كان ينقد نقدا ذاتيا وبعد تأليف الكتاب كان نقده مؤسسا على المقاييس البلاغية التي اخترعها أو التي اخترع بعضها وكشف عن البعض الآخر⁹ "وينبّه ابن المعتز إلى عدم الإكثار من الشواهد الرديئة لما له من أثر سيء في نفس المتعلم خلاف ما تركه النماذج الفنية العالية من تأثير في صقل الموهبة وخلق الإحساس المدرك للجمال الفني

و"ابن المعتز غير ملتزم بالتسلسل التاريخي لترتيب شواهد وغير ملتزم بتقديم النثر على الشعر

ويرى "داود سلوم" أن كتاب البديع دفاع عن الشعر المحدث إلا أن ابن المعتز سلك فيه الباب الخلفي عن قصد أو غير قصد(فهو وإن كان في الواقع يريد أن ينفي ادعاء المحدثين حق ابتكار ما سماه المحدثون البديع قد أكد حقيقة أخرى من حيث لا

1. أبو العدوس(يوسف)، البلاغة والأسلوبية، ص30

2. خفاجي(محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص602

3. الحصري(أبو إسحاق)، زهر الآداب وثمر الألباب، تحق وشرخ وضبط زكي مبارك، دار الجيل بيروت(د.ت) ج1 ص177

4. الكواز(محمد كريم)، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، الانتشار العربي، ط1، 2006، ص225

5. ابن المعتز(عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص110

6. السيوطي عقود الجمال، ص92 نقلا عن الخفاجي، ابن المعتز، 603

7. طبانة(بدوي)، دراسات في نقد الأدب العربي، مكتبة الانجلو مصرية، 1953، ص256

8. مندور (محمد) النقد المنهجي عند العرب، ترح لانسون مايبه، نهضة مصر للطباعة، ط1، 1996، ص24

9. ينظر سلامة (إبراهيم) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مرجع سابق، ص102

يشعر هي ان الشعر الحديث لم يخرج على أصول العربية وعمود الشعر في استعمال البديع وإذا كان قد أسرف فيه المحدثون فهو شيء آخر¹

وابن المعتز بوضعه كتاب البديع قد قام بالمحاولة الأولى في سبيل استقلال هذا العلم البلاغي وتحديد مباحثه

الدراسات البيانية بعد ابن المعتز:

أثر ابن المعتز كثيرا في أدب الجيل الذي عاصره:

1. قدامه ابن جعفر: "إن كثيرا من الاستعارة عند قدامه في كتابه "نقد الشعر تجدها عند ابن المعتز، وعاد إليه أيضا في دراسته للطباق والالتفات "فبحوث صناعة الشعر فهي أو الكثير منها مما يستقل به ابن المعتز في بديعه"²
2. الأمدى في كتابه "الموازنة" يتخذ البديع مصدرا مهما من مصادره العلمية فحديثه عن نشأة البديع، وان المحدثين وأبا تمام ليسوا أول السابقين إلى اختراعه، وأن أبا تمام أفسد الشعر بالبديع نقلها الأمدى عن ابن المعتز، وفاض في شرحها بالإضافة إلى أمثلة التجنيس الكثيرة المأخوذة من كتاب البديع ويشيد بفضل ابن المعتز وعلمه بالشعر وحسن اختياراته³
3. ابن رشيق في كتابه العمدة يرجع إلي البديع ويحتديه، فهو يشير إلى الكتاب وينوّه به، وينقل عنه تعريف التجنيس، ويقول هو أول من نحا هذا النحو، وفي باب التصدير (رد العجز على الصدر) والالتفات تأثر فيهما بابن المعتز والمذهب الكلامي في كتاب العمدة منقول من البديع، وبعض شواهد باب التضمين مأخوذة من البديع.⁴
- أما الباقلاني "فيعتمد في كتابه إعجاز القرآن على بديع ابن المعتز اعتمادا كبيرا، فهو يذكر معنى المطابقة عند ابن المعتز وكذا التجنيس وسواه"⁵

و وأبو هلال العسكري وثق كتابه الصناعتين على دراسة أنواع البديع وفي دراسته لباب التشبيه أيضا يكاد يكون صورة مطابقة لبديع ابن المعتز فهو يعرض اللون البديعي كما عرضه ابن المعتز، وينقل كثيرا من شواهد كتاب البديع، ولا يزيد عليها إلا القليل من شعر الشعراء المتأخرين عن عصر ابن المعتز، هذا بالإضافة إلى كثير من علماء البلاغة المتأخرين الذين اعتمدوا اعتمادا وثيقا على كتاب البديع⁶ كالخطيب ومن سواه

"فتوالت التأليف حتى وصل عدد المحسنات البديعية عند عبد الغني النابلسي في بديعته إلى مائة وستين نوعا منها المحسنات البديعية المعنوية وهي التي يكون التحسين بها راجعا إلى المعنى وان كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ وعلامتها انه لو غير اللفظ بما يرادفه لم يتغير المحسن المذكور فالغاية من هذه المحسنات تحسين المعنى، وأما المحسنات اللفظية فالغاية منها تحسين اللفظ وان حسنت المعنى أحيانا تبعا وعلامتها انه لو غير اللفظ الثاني إلى ما يرادفه زال ذلك المحسن⁷

المأخذ على الكتاب:

أخذ بعض المهتمين بالحقل البلاغي "ابن المعتز" في مجموعة من النقاط نذكر تعليق محمد عبد المنعم خفاجي على قول ابن المعتز عن نفسه "وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد" حيث قال فلا شك أن لأستاذه ثعلبا الفضل في أنه جمع في كتابه قواعد الشعر أهم ألوان البديع التي ذكرها ابن المعتز في كتابه مثل التشبيه والاستعارة ولطافة المعنى والتعريض و مجاورة

¹. ينظر سلوم (داود) مقالات في تاريخ النقد والأدب، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1987، ص 173

². خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص 591

³. خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص 592

⁴. ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص 593

⁵. خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص 594

⁶. للاستزادة ينظر المرجع نفسه، ص 594 وما بعدها

⁷. ينظر أبو العدوس (يوسف) مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني. علم البيان. علم البديع، دار الميسرة، 2007، ص 238

الأضداد والمطابق وهذه الأنواع هي أهم ما في كتاب البديع لابن المعتز¹، ويبدو هذا صحيحا إذا عدنا إلى كتاب ثعلب وأجرينا مقارنة بين الكتابين، هذا وقد عاد ابن المعتز إلى كتاب البيان والتبيين للجاحظ وأخذ منه كثيرا من النصوص والشواهد المختارة من بديع النثر الأدبي، كما خذ ابن أيضا من حماسة أبي تمام بعض شواهد البديع من الشعر والنصوص النثرية التي تمثل بها في كتابه فقد كانت حصة العباسيين فيها أكبر بكثير من حصة الأمويين ثم أقوال الصحابة فأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فالآيات الكريمة إلى أن نصل إلى أقوال الجاهلين ونجده يكثر من التمثيل بأشعاره وأقواله هو بالذات²

وقد قال "محمد الحجري": "كتاب البديع" يعتبر عملا مبتكرا لكنه ليس الكتاب الوحيد³ وابن المعتز برغم تقنيته للمذهب البديعي نراه يأتي بأبيات لبشار وهي خالية من البديع كما حدده في كتابه، ومع ذلك يسميها بديعا، وهذا دليل على أن البديع بمعناه العام هو كل صورة فنية ذات معنى فني فيه جدة، أو فيه ما يثير الإعجاب⁴ ويذهب "رجاء عيد" إلى القول: لقد نعى الذين تحدثوا عن ابن المعتز وقالوا بأنه أول من ألف في البديع نسوا بأن الرجل لم يدع التأليف وإنما قال: "وما جمع فنون البديع ونحن نعتقد أن هناك فرقا بين التأليف والجمع⁵ والملاحظ أن معظم النماذج التي تحفظ عندها الرواة كانت ذات طبيعة تحسينية واضحة فابن الأعرابي عندما سمع قول الشاعر:

وعاذل عدلته في عدله فظنّ أني جاهل من جهله

فيلفته هذا الأول ويأمر صبيانه بتدوين البيت ظنا أنه لبعض الأعراب فلما عرف أنه لأبي تمام قال: خرّ خرّ⁶ فهذه الصنعة البديعية مثلت نوعا من الحداثة التعبيرية، التي وظفها المبدعون في إنتاج خطاب أدبي فيه كثير من الملاءمة بين ذواتهم، وبين ما يقولون من شعر من ناحية، ثم الملاءمة بين هذا الشعر وطبيعة الحياة الجديدة التي كانت المفارقة الاجتماعية والثقافية أهم ملامحها من ناحية أخرى⁷ ويلاحظ "ابن رشيق" هذه الحداثة التعبيرية فيرى انه لم يكن في الأشعار المحدثه قبل مسلم إلا النبذ اليسير...⁸ أما تفتيق البديع والتفنن فيه فأولويته كانت عند بشار وابن هرمة⁹ والتحديد الذي أعطاه ابن المعتز للتجنيس أثار جدل العلماء والدارسين المتأخرين حوله فأروا عدم استناده إلى أي أساس علمي فقالوا عنه: "إنه تحديد دائري" يقول ابن المعتز: التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها¹⁰

¹. ينظر خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ص 607

². ينظر مثلا الصفحات 640، 156، 683، 687...

³. إ. ج. كرا تشكوفسكي، علم البديع والبلاغة، مرجع سابق، ص 71

⁴. عيد (رجاء)، المذهب البديعي في الشعر والنقد، مرجع سابق، ص 71

⁵. المرجع نفسه، ص 29

⁶. سر الفصاحة، ص 271 نقلا عن عبد المطلب (محمد)، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 347

⁷. عبد المطلب (محمد)، البلاغة العربية، ص 347

⁸. المرجع نفسه، ص 347

⁹. عبد المطلب (محمد)، البلاغة العربية قراءة أخرى

¹⁰. ابن المعتز ص 25

إن النقطة المهمة التي نؤكدُها أنّ مُرادَه بالبديع حينذاك هو ما كان يوصف من الأساليب والصوّر التّعبيرية _ على أيدي رواة الشعر_ بالطرافة والحسن وليس مختصا بما تمّ وضعه مؤخرا تحت اسم "علم البديع"¹ مما يؤيد ذلك أنّ الاستعارة التي تناولها في القسم الأول تحت اسم البديع كما كانت الكناية وحسن التشبيه من بين أنواع القسم الثاني الذي سماه محاسن الكلام وتلك الأساليب الثلاثة قد استقرت دراستها كما نعرف منذ القرن السادس الهجري تقريبا وحتى الوقت الحاضر ضمن علم البيان بل إنها تكاد تشكل لباب موضوعاته ومباحثه، وإذا قلنا أن ابن المعتز ألف في البيان فقد سرنا مع الحق والتفكير السليم، وإذا قلنا انه ألف في البديع فقد ضيقنا دائرة البحث بغير مبرر وإن كان البديع في الاصطلاح المتأخر جزءا من البيان وبالمعنى القديم يرادف البيان أو البلاغة²

فالبديع أصبح أداة تعبيرية يعتمد المفارقة الحسية والمعنوية لغة بذاتها كما يجعل من الإيقاع التكراري خاصية بذاتها، وكل ذلك يمثل عملية تنظيم للأدوات التعبيرية التي كان الإلحاح عليها وسيلة لقبولها أولا ثم الإعجاب بها ثانيا³. حتى صارت هدفا بذاتها وابن المعتز في الفصل الذي عقده لمحاسن الكلام والشعر ذكر كثيرا من أبواب البيان والبديع وعدّها حلقة يجمّل بها الشعر، ويحسن واعتبر الألفاظ والصوّر الفنية شكلا من أشكال التزيين للشعر ومن ثمّ كان المعنى عنده هو الجوهر والألفاظ وسائل من التزيين والتنميق، وكان اهتمام ابن المعتز منصباً على تقسيم أبواب محاسن الكلام والاستشهاد لها فهو يتحدث عن الاستعارة والطباق والجناس وغيرها ما يتصل بالصنعة الشعرية والصياغة الفنية⁴ ولكنه لم يستطع أن يحدّد العلاقة بين الصورة الشعرية والتعبير الشعري فهل هي علاقة الجزء بالكل أم علاقة الشيء المستقل المتفرد بقيمته؟ ويبدو انه كان متأثرا بعبارة الجاحظ التي جعلت الشعر صناعة وضربا من النسج وجنسا من التصوير، فلم يستطع أن يقدم مفهوما محددا لعملية الخلق الأدبي التي يدوب فيها الشكل الخارجي في المضمون بشكل كامل، كما أنّه لم يستطع أن يوضح العلاقة الحية بين التّعبير والجمال، أو ما يسمى بالتعبير العاري والتّعبير المزخرف، بل لقد بدا من دراسته أنه يفصل بينهما وذلك حين جعل الذهن ينصرف إلى أن الصورة الخارجية للشعر ضرب من الصنعة والتزييق وليست جزءا من المعنى⁵

إنّ النظر في البحث البديعي . في مجمله . يؤكّد أن رجال البلاغة قد أهمهم تحسس بناء الجملة بوصفه الوحدة الصغرى للخطاب اللغوي، واعتمدوا في ذلك على توصيف عناصر هذه الجملة توصيفا يبدأ من الحرف المعزول عن الدلالة وصولا إلى التّركيب بكلّ مكوناته الإفرادية وبكلّ علاقاته النحوية⁶

الاستنتاج:

نستنتج أنّ ابن المعتز بوضعه كتاب البديع قد قام بالمحاولة الأولى في سبيل استقلال هذا العلم البلاغي، وتحديد مباحثه التي كانت من قبل مختلطة بمباحث علم المعاني وعلم البيان⁷ وميزة كتاب البديع أنّه ينحو في دراسة ألوان البديع وفنونه نحواً تطبيقياً له أثره الكبير في تكوين الملكة والذوق وهو مطبوع بالطابع الأدبي الخالص فهو خلو من المصطلحات العلمية وتحديدات المنطقيين العميقة⁸

1. السيد (شفيق) أساليب البديع في البلاغة العربية رؤية معاصرة، دار غريب، 2006، ص 11

2. ينظر خفاجي(محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، مرجع سابق، ص 565

3. عبد المطلب(محمد)، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 348

4. ابن المعتز(عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص 58

5. العشماوي(محمد زكي) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1979، ص 285

6. عبد المطلب(محمد)، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 349

7. عتيق(عبد العزيز)، علم البديع، مرجع سابق، ص 16

8. ينظر خفاجي(محمد عبد المنعم)، ابن المعتز، مرجع سابق، ص 604

وقيمة الكتاب لا تكمن في مضمونه لا من حيث عدد الوجوه التي اشتمل عليها ولا من حيث الصياغة النظرية لبعض تلك الوجوه وما يتعلق بها من تقسيم وتحديد فلم يكن حريصا على تجميع هذه الألوان وإحصائها بدقة، وإنما أتى ببعضها ليدل به على بعضها الآخر، فيقول في مقدمة القسم الثاني من الكتاب "ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم الإحاطة بها"¹

فالكتاب يعدّ نقطة تحوّل هامة في التأليف البلاغي، ومشاركة فعالة في تطوير هذا العلم، ومحاولة جادة لتخليصه من تبعية العلوم الأخرى مثل علوم اللغة والنحو، وصار مصدرا من مصادر البلاغة.

قائمة المصادر والمراجع:

- خفاجي (محمد عبد المنعم)، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، دار الجيل بيروت، 1991،
- مرهون الصفار (ابتسام) وحلاوي (ناصر)، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، جبهة للنشر، 2006
- إبراهيم قاسم (جمال)، البلاغة الميسرة، دار ابن الجوزي، ط1، 2012
- عتيق (عبد العزيز) علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1985
- ابن المعتز (عبد الله)، البديع، دار الجيل، بيروت 1990، ص 88
- صمود (حمادي)، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981
- مرتاض (عبد الملك)، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع ط2، 2010
- رزق (صلاح)، أدبية النص محاولة لتأسيس منهج نقدي عربي، دار غريب، 2002
- عبد المطلب (محمد) البلاغة العربية قراءة أخرى مكتبة لبنان، 1997
- سلطان (منير)، البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف الإسكندرية، 1986،
- الكواز (محمد كريم) البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، الانتشار العربي، ط1، 2006
- عتيق (عبد العزيز)، علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1985
- شفيع (السيد)، البحث البلاغي عند العرب (تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1987
- إ. ج كراتشكوفسكي علم البديع والبلاغة عند العرب، ترح محمد الحجيري، دار الكلمة للنشر، ط2، 1983
- محمد احمد قاسم، علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس. لبنان، 2008
- حسين بيزاري، في بلاغة النص الشعري، افريقيا الشعب، 2016.
- سوزان ستيتيكفتش، إعادة صياغة البديع فصول قراءات تراثية مج13، ع3، 1994
- سلامة (إبراهيم) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الانجلو المصرية، ط2، 1952
- رجاء عيد، المذهب البديعي في الشعر والنقد، منشأة المعارف الإسكندرية، 1993
- السيد (شفيع) أساليب البديع في البلاغة الغربية رؤية معاصرة، دار غريب، 2006
- ¹ أبو العدوس (يوسف)، البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، 1999
- الحصري (أبو إسحاق)، زهر الآداب وثمر الألباب، تحق وشرخ وضبط زكي مبارك، دار الجيل بيروت (د.ت) ج 1

¹ ابن المعتز (عبد الله)، البديع، مصدر سابق، ص58

- .الكواز(محمد كريم)، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، الانتشار العربي، ط1، 2006
- .أبو العدوس(يوسف)مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني .علم البيان .علم البديع، دار الميسرة، 2007
- .السيد (شفيع) أساليب البديع في البلاغة الغربية رؤية معاصرة، دار غريب، 2006، ص11
- .العشماوي(محمد زكي) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1979
- .دوب(رابح)، البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفجر للنشر والتوزيع ، ط1، 1997، ص37
- .القيرواني(ابن رشيق) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1981، ج1، ص206
- ¹.طبانة(بدوي)، دراسات في نقد الأدب العربي ، مكتبة الانجلومصرية، 1953، ص256
- .مندور (محمد)النقد المنهجي عند العرب، ترح لانسون مايبه، نهضة مصر للطباعة، ط1، 1996
- . ينظر سلامة (إبراهيم) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مرجع سابق، ص102
- . ينظر سلوم(داود)مقالات في تاريخ النقد والأدب، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1987

الفصول الكلامية رؤية تراثية مبكرة في استراتيجيات التكامل النصي (حازم القرطاجي نموذجاً)

د. رواق هادية

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2- الجزائر

ملخص:

ظلّ التراث العربي هو المحور الأساس، الذي تدور في فلكه أغلب الدراسات العربية الحديثة والمعاصرة، وإذا استطاعت اللسانيات الغربية أن تتجاوز البحث في الجملة، لتنفذ إلى أعماق النص، فإن ذلك ما يدفع إلى التساؤل المشروع، ما نصيب التراث العربي من بحث استراتيجيات التكامل النصي؟ وما الذي قدّمته المدونات التراثية بتنوع مضامينها واختلاف مقاصدها؟ نروم من خلال هذه الورقة البحثية، التنقيب في مدونة "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجي، لتتحري رؤيته في اتجاه النص، ونظراته الشاملة في نظم النص الشعري، ذلك أنه لم يقف عند حدود الجملة، بل إن النظم عنده قد تضمن أجزاء القصيدة كلها، فحدّد جملة من الخصائص التكوينية (فكرًا ومعنى وتركيبًا وترتيبًا وإيقاعًا) رغبة منه في تأسيس النص الشعري تأسيسًا محكمًا، وقدّم بذلك كمًا هائلًا من المصطلحات والأدوات والآليات، التي تعبر عن أصالة النص التراثي وثنائه. الكلمات المفتاحية: بنية النص، الترتيب، الانتقاء، التنسيق، نظم الشعر، الفصول الكلامية.

Abstract:

The Arabic heritage has always been the main topic dealt in modern and contemporary Arabic studies. We must point out that western linguistics, in addition to studying the sentence, is studying the text. This fact incites us to ask the following question: How does the Arabic heritage take part of the research that deals with text integration strategies? What is the contribution of heritage writings with different contents and objectives?

This paper aims at analyzing the Hazim Kartajjani's corpus, titled: "minhaj al Bulaga wa Siraj al-udaba". The objective of this analysis is to have an idea about his vision according to the text direction and his global vision according to the poetization. This is because he does not concentrate on the sentence, but his poem was characterized by the system and many formative characteristics of the sentence were identified. Thus, he presents a well-founded poetic text. He provided a big number of terms, tools and mechanisms that translate the authenticity and the richness of the heritage text.

Keywords: Text structure, hierarchy, selection, combination, poetization.

إنّ الولوج بالنسق والنظام، والبحث عن الآليات والأدوات الفاعلة في تقصي حقائق البنيات النصية بمختلف أشكالها ومواضيعها، قد أخذ منحاً كثيرة متنوّعة، وحققت نتائج أسست لعلم النص بإحكام، وتحول الأمر في الدراسات الغربية الحديثة من التركيز على بحث الجملة إلى تقصي بنية النص، حيث ذهب زليغ هاريس (z. harris) بوصفه أحد أبرز رواد الدراسات النصية، إلى نقل أبحاثه من إطار الجملة إلى إطار النص، وقدّم دراسته التطبيقية "تحليل الخطاب" discours analyse على مجموعة نصوص بعينها متجاوزاً بذلك الدراسات القديمة، التي ركّزت على تحليل الجملة كأكثر وحدة قابلة للتحليل، وبذلك تمّ تنصيب لسانيات النصّ علمًا قائمًا بذاته له أدواته ومصطلحاته وأساسه وآلياته، وأعطى وصف العلم الشامل، ثم أُلزم "عالم اللغة النصي أن يُبقى بحثه محصوراً في أبنية النصوص وصياغتها مع إحاطته بالعلاقات الاتصالية والاجتماعية والتفسيّة العامّة".¹ وقد اعترف اللغوي الألماني "روك Rook" بالجهود التي قطعها هذا العلم الحديث، والمكانة التي حقّقها بفضل مساعيه الثابتة في سبيل

¹ فولفجانغ ماينيه وديتر فيهفجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح بن شبيب العجوي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1998.

تحقيق الفهم الكلي لحقائق البنيات النصية حين قال: "أخذت اللسانيات النصية بوصفها العلم الذي يهتم ببنية النصوص اللغوية وكيفية جريانها في الاستعمال شيئا فشيئا مكانة هامة في النقاش العلمي للسنوات الأخيرة، فلا يمكن اليوم أن نعدّها مكملًا ضروريًا للأوصاف اللغوية التي اعتادت أن تقف عند الجملة معتبرة إيّاها أكبر حدّ للتحليل، بل تحاول اللسانيات أن تعيد تأسيس الدراسة اللسانية على قاعدة أخرى هي النص ليس غير"¹ وبذلك فقد قطعت الدراسات النصية عند الغرب شوطًا هامًا في التأسيس للنص.

أمّا الدراسات العربية التراثية خاصّة، والتي تمحورت في الغالب حول القرآن الكريم، فإنّ الأساس الذي قامت عليه، هو البحث عن الحقيقة في أقصى معانيها، ثم تحقيق التكامل بين فروع المعرفة خدمة للحضارة الإسلامية، وقد نشأت نشأة متدرّجة، من علم إلى آخر حسب حاجات ومتطلبات الحياة العلمية، ومنه فإنّ ما توصّلت إليه البحوث التراثية في مجال النص، لا يمكن فهمه إلّا في سياقه الذي ظهر فيه، وهو التدرّج والتكامل المعرفي.

وإذا انتحينا منحى التراث النقدي البلاغي وهو المقصود بالحديث، فالثابت أنّ النقاد والبلاغيين القدماء، وقد خاضوا معركة إصلاح الكتابة والتأليف الأدبي شعره ونثره، بآليات ومصطلحات كثيرة متنوعة، وكان لهم من يقظة الذهن وحيوية الفكر، ما دفعهم إلى البحث في اتجاه النص، قال ابن طباطبا في الحديث عن بنية النص الشعري: "وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظامًا يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، ويجب أن تكون القصيدة كلّها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجًا وحسنًا وفصاحة، وجزالة ألفاظ، ودقّة معاني، وصبوب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كلّ معنى يصنعه خروجًا لطيفًا، حتّى تخرج القصيدة كأنّها مفرغة إفرغًا لا تناقض في معانيها، ولا وهّي في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضي كلّ كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلّقًا بها مفتقرًا إليها".² دلّ ذلك على أنّ مؤشرات البحث في بنية النص وكشف آلياته، قد بدأت تلوح في آفاق الفكر التراثي منذ فترة مبكرة، وفي الوقت نفسه ظلّت دوافع استبطان النص باستكشاف بنياته، الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية منها قائمة، حتّى انتهى بهم الحال إلى إرساء معالم نظرية رائدة؛ هي نظرية النظم التي عُدت أضبط فكرة نظرية وتطبيقية شهدتها البلاغة العربية حتّى القرن الخامس الهجري.

وقد تركّزت تلك الجهود على البنية؛ بنية الجملة باعتبارها أكبر وحدة مفهومية، رغم أنّ نظم الجملة ذاته لم يكن هو الغاية والمنتهى عند قوم اختصت حضارتهم في خصوصيتها النوعية بالمقوم اللغويّ أساسًا، ثم ما فتئت الأبحاث تتلاحق محاولة الإجابة عن الأسئلة التي تفتقت بها الأذهان منذ نزول القرآن الكريم.

مؤشرات الخروج من دائرة الجملة إلى دائرة النص.

قبل حازم القرطاجي نجد أنّ حديث عبد القاهر الجرجاني في فكرة النظم، وتوسّعه في مباحثه حدّ الإحكام، يعتبر خطوة هامة في هذا السبيل خاصة مع جملة مفاهيم النحو النفسي والتعليق والتعلّق والترتيب والفصل والوصل والتقديم والتأخي³ غير أنّ هذا الجهد الوفير قد شابّه الوقوف عند حدود الجملة الواحدة ممّا جعل دراسته مبتورة في كثير من أجزائها.⁴ على حدّ قول محمد عبد المطّلب، وهو الأمر الذي جعل النقاد يحصرّون بلاغة عبد القاهر من خلال نظرية النظم، في بلاغة الجملة، لأنّه حين طبّق فكرة النظم لا نراه يتعدّى حدود "الجملة أو الجملتين أو الجمل كما في الوصل والفصل"،⁴ ولا يتجاوز ذلك إلى القطعة

¹Heribertruck ; linguistique textuelle et enseignement du français ; jean paul colin ; hatier ; credif ; paris ; 1980 ; p9.

²محمد أحمد ابن طباطبا العلوي : عيار الشعر ، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر مراجعة نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 2 ، ت ط 2005 م ، ص 131.

³محمد عبد المطّلب البلاغة والأسلوبية ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط 1 ، ت ط 1994 ، ص 3.

⁴عبد القادر حسين : أثر النحاة في البحث البلاغي ، دار غريب ، للطباعة والنشر والتوزيع ، ت ط 1993 ، ص 112.

الكاملة، أو القصيدة التامة ويجتهد الباحث في تفسير تلك المواقف بإيعازها إلى الوحدة النقدية، لأنّ العرب لم تكن تعرف وحدة القصيدة، ومن هنا كانت الوحدة التي يناشدها عبد القاهر في الدلائل والأسرار " هي وحدة الجملة لا وحدة النّص " ¹ وفي هذا المجرى الضيق وهو حد الجملة، سكنت البلاغة العربية، ثم لجأت إلى الشروح والتلخيصات، ومن النقاد من وصف هذا الحد بالركود، ومنهم من يُعزي اعتماد البلاغة العربية على نحو الجملة، أو لسانيات الجملة بوصفها أكبر وحدة قابلة للتحليل إلى " انحصار البحث في معالجة الشاهد أو المثال وقبوله لتفتيت الظاهرة الواحدة " ²، ومع كلّ هذه النصوص التي تصب في مستوى الجملة يشير عبد القاهر إلى رؤية أشمل في تقصي أبعاد الكلام وذلك عند قوله: " واعلم أنّ من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينظم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ولا تقضي له بالحدق والأستاذية، وسعة الدرع وشدة المنّة حتى تستوفي القطعة وتأتي على عدّة أبيات " ³ غير أنّ ما تمّ التوسّع فيه عبر الدلائل والأسرار حقا هو النظم على مستوى الجملة، لأنّ النظم على مستوى النّص ظلّ في شكل محاولات نظرية تنم عن بعد نظري، وتصوّر للنّص في أعماق أبعاده، ومنه فقد كاد عبد القاهر " أن يتخطى حدود الجملة في نظريته ولكن ذلك التخطي لم يصل إلى الناحية التطبيقية، وإنما ظلّ إشارات " ⁴ اعتبرها المتأخرون تطويراً في اتجاه النّص، وذهب العمريّ إلى أنّه لو تمّ تناول قضية البناء على الصوّر بعمق، ولو تمّ إدراك أهدافها لتبين " أنّ البلاغة العربية لم تكن كما هو شائع بلاغة جملة على الإطلاق، بل كانت إنجازاتها المتقدمة العميقة، قد انتقلت إلى مستوى النّص؛ تبنى المعاني بعضها على بعض، ويُفهم النّص بعضه من بعض " ⁵ وبذلك فإنّ هذه الفكرة علامة من علامات التّطلّع لفك شفرات النّص، وقد تنبّه الجرجاني فعلا لهذه القضية، وإن لم يتوسّع في شرحها والتطبيق عليها .

الفصول الكلامية هي رؤية حازم في اتجاه النّص

حين نقف على أعتاب القرن السابع الهجري مع العلامة حازم القرطاجني ت 684هـ من خلال المنهاج، عبر رؤيته في النّقد البلاغي، تبدّى لنا نزعتة إلى تأسيس القصيدة الشعرية، تأسيساً محكما ومسعاها الجادّ في استقراء الشعر العربي، ليفيد منه في استجلاء أحكامه النقدية، التي استقاها من معين ثقافات متعدّدة راجت في عصره، أبرزها ما تمّت ترجمته عن الفكر اليوناني، وفي محاولة حازم تتجلى لنا فكرة البنية المتكاملة للنّص الشعريّ، وهو ما استدعى مصطلح الفصول الكلامية*، لأنّه حاول أن يُقدّم من خلال دراسته التطبيقية على الشعر العربي، كمّا هائلا من المصطلحات والمفاهيم والآليات، التي عدّها النّقاد والبالغيون تطويراً في اتجاه النّص، وسعيّاً نوعياً إلى تحقيق فرضية التوسّع، وبوجود هذا المصطلح الفصول الكلامية في التراث النّقدي البلاغي يمكن القول بوجود ثلاثة قوالب لغوية مؤدية للمعاني في التراث العربيّ وهي ⁶:

أ مستوى الكلمة بعدّها وحدة معنوية تصويرية،

ب مستوى الجملة بعدّها وحدة تركيبية إفهامية،

¹عبد القادر حسين، نفسه، ص 412.

²سعد مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، مجلس النشر العربي، جامعة الكويت، ت ط 2003م، ص 71.

³عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، شكل وشرح وتخريج وتقديم ووضع الفهارس لياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، للطباعة والنشر، ط 1، صيدا بيروت، ت ط 1998م، ص 133.

⁴محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص 64.

⁵محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، بيروت لبنان، ت ط 1999م، ص 31.

*مصطلح الفصول الكلامية لم نجد له مقابل في اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وإن تحدّد معناه في العربية من خلال ما قدّمه ابن طباطبا وحازم فهو ما يستدعي أن نبحت له عن مقابل في هاتين اللغتين.

⁶عيسى بن سديرة: الخصائص التركيبية والأسلوبية في المكي والمدني من القرآن الكريم، رسالة دكتوراه دولة في اللغة العربية جامعة الجزائر، غير منشورة، ص 140.

ج مستوى الفصل الكلامي بعده وحدة سياقية معرفية إدراكية،

لذلك نرصد في المنهاج بعض المصطلحات والأدوات التي تخدم النص منها:

النص *texte*: أتى حازم بمصطلح الفصل. الفصول الكلامية وقد قدّمه على شكل معلم تحت عنوان " في الإبانة عمّا يجب في تقدير الفصول وترتيبها ووصل بعضها ببعض وتحسين هيئاتها، وما تعتبر به أحوال النظم في جميع ذلك من حيث يكون ملائماً للنفوس أو منافراً لها " ¹.

المقدّمة الخاتمة ومن المصطلحات: رأس الفصل. صدر الفصل. المبدأ. التخلّص. التسويم. التحجيل. الاستهلالات. المطالع والمقاطع. وهي بمثابة الأعلام والإعلام بالمغزى والاختتام.

السبك والترابط النحوي: أو الاتّساق *cohesion* وهو مرتبط باللفظ.

الحبك والتماسك الدلالي: أو الانسجام *coherence* وهو مرتبط بالمعنى ²: من مصطلحاته الائتلاف (المؤتلفة) التجانس في المسموعات والمفهومات. الاتّساق (استوسق الإبداع). استواء النسج . تشاكل الاقتران . تناسب الغرض مع الطول والقصر. لطف الانتقال . حسن الملاءمة. المناسبة بين الاستهلالات والمقاصد والأغراض.

الانتقاء والتنسيق: *combinaison et selection* ³: التأنق والاستجداد. المراوحة والاختلاف بين المعاني. الموالات.

التقديم والتأخير: *deplacement et manipulation syntaxique*

الترتيب والبناء: *structuration et constitution*

الشكل المضمون: *fond et contenu* الاستقصاء. استيفاء الأركان. استيفاء المقدار. المتصورات الأصيلة. المتصورات

الدخيلة. معنى أول. معنى ثانٍ. معنى عمدة. التركيب. الجمع. التآليف. الضمّ. المواقع والهيئات. الأوضاع.

وهي كلّها مصطلحات أوردها حازم في سياق الحديث عن الفصول الكلامية، ورغم أنّ مصادر البحث في مصطلح الفصول الكلامية قليلة بسبب جدة الطرح، إلا أنّ مصطلح الفصل قد أورده أبو هلال العسكري في قوله: " الفصل يكون في جملة واحدة، وهذا فصل في الكتاب، لأنّ الكتاب جملة واحدة، ثمّ كثر حتّى سُمّي ما يتضمّن جملة من الكلام فصلاً، ولهذا يُقال لما تضمّن جنساً من الكلام فصلٌ واحد لظهوره وتجليه." ⁴ ومنه فإنّ التعريف اللغوي للفصل في التراث العربي يتعدّى حدّ الجملة بمفهوم التركيب النحوي، ويتفق مع ما زاد عن حدّ الجملة، ونعثر منها على لمحات دالة، تعطي الإشارة مؤكدة سلامة الطرح، من ذلك إقرار أحد الباحثين أنّ حازم لم يقتصر في منهاجه على البحث في بلاغة الكلمة والجملة " وإنما هو بحث في بلاغة الكلمة وبلاغة الجملة و بلاغة النص." ⁵ وهو ما تمت تسميته الفصول الكلامية، ويرى آخر " أنّ حازم القرطاجيّ نظر في شمول إلى النّظم، ولم يقف عند حدود الجملة، بل كان النّظم عنده يتضمّن أجزاء القصيدة كلّها، ويصل بين الأبيات بعضها ببعض، والفصول بعضها مع بعض " ⁶ وبذلك نمت الرّؤية في اتّجاه النصّ " مناشدة الفضاءات التكوينية العامّة للنصوص اللّغوية " ⁷ وإذا تمّ تداول المصطلح قبل حازم، فإنّ الجديد معه أنّه جعل منه " مصطلحاً تحليلياً لغوياً ينطوي على مفهوم علمي محدّد، يتعلّق بمستوى خاص من

¹ حازم القرطاجيّ: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق وتقديم محمد الحبيب بن الخوجة، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص 1981، ص 287.

² الطيب الغزالي قواوة: مقال من نحو الجملة إلى نحو النص، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، مجلد 9، عدد 1، ت ط 2018، ص 343.

³ فاطمة الطيال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، دراسة ونصوص، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، ت ط 1993، ص 38.

⁴ العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الفروق اللّغوية، تعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 3، ت ط 2013، ص 168.

⁵ عمر أوكان: اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، بيروت، ت ط 2001م، ص 119.

⁶ عبد القادر حسين: أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 412.

⁷ عيسى بن سديرة، مرجع سابق، ص 136.

مستويات التحليل السياقي للنصوص الكلامية¹ وقد كان لحازم من دقة التصور، ما انتهى به إلى وضع بعض قوانين الفصول الكلامية وذهب إلى " أن الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلفة من الحروف، والقصائد المؤلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفاظ. فكما أن الحروف إذا حسنت، حسنت الفصول المؤلفة منها إذا رتبت على ما يجب ووضع بعضها من بعض على ما ينبغي كما أن ذلك في الكلم المفردة كذلك. وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان، كما يحسن اثتلاف الكلام من الألفاظ الحسان إذا كان تأليفها منها على ما يجب."² وهي الأمور تتدرج من البسيط إلى المركب، فكما يحسن اللفظ باختيار ونظم حروفه، يحسن التركيب باختيار ونظم ألفاظه، يحسن الفصل باختيار ونظم أبياته، وكأن الكل يحسن بحسن الجزء المحتوى فيه، والذي تركب منه .

جدول مقابلة الشعر بالكلام في سبيل تحقيق الوحدة في سياق النص .

الشعر	نظيرا	للكلام
الأبيات = مجموعة الألفاظ	نظائر	الحروف المقطعة
الفصول = مجموعة الأبيات	نظائر	الكلم = مجموعة الحروف
القصائد = مجموعة الفصول	نظائر	العبارات = مجموعة الألفاظ

3

أحّ حازم في المنهاج على الاختيار والانتقاء والاستجداد والترتيب للكلمات والمعاني، لتتكزّر هذه المطالب على مستوى النص، لذلك فإن ما سنصادفه في قوانين الفصول هو نفسه ما يتعلّق باستجداد المواد وانتقائها، وحسن ترتيبها والملاءمة بينها، وبهذا يكون حازم " قد دلّنا منذ أزيد من سبعة قرون على موقع المفتاح الأنسب الذي يمكن أن يفتح به السياق النصي، ويفسّر لماذا ينتج الشعراء هذا المنعى من التقسيم فيقول: " اعتمدوا في القصائد أن يقسموا الكلام فيها إلى فصول يُنعى بكل فصل منها من معنى من المقاصد ليكون للنفس في قسمة الكلام إلى تلك الفصول والميل بالأقوايل فيها إلى جهات شتى من المقاصد وأنحاء شتى من المآخذ استراحة واستجداد نشاط، بانتقالها من بعض الفصول إلى بعض وترامي الكلام بها إلى أنحاء مختلفة من المقاصد - فالراحة حاصلتها لافتنان الكلام في شتى مذاهبه المعنوية وضروب مبانيه النظمية."⁴ ولعل في عبارة " مذاهبه المعنوية ومبانيه النظمية " ما يدعو إلى الاهتمام في شتى طرق التأليف والمعنى والمبنى على حد السواء، وفي تلك المراوحة والاختلاف بين معنى ومعنى، و مبنى ومبنى ، والاتفات بالكلام تحدث النقلة، فتحصل الراحة والنشاط، لوجود عامل التجديد والمراوحة والمغايرة ذلك أنّ الرتبة من عوامل الملل .

الخصائص التكوينية المميزة للفصول الكلامية

إنّ الخصائص التكوينية للفصول الكلامية، لا تعدو أن تكون امتدادا للتأليفات اللفظية والمعنوية، و محاولة رصد تلك الخصائص التمييزية في حديث حازم يعترضه بعض التداخل، حاولنا جمعه في أربعة أصناف هي الخصائص المعنوية، والتركيبية، والترتيبية، والإيقاعية، قال حازم :

¹ عيسى بن سديرة، نفسه ص138.

² حازم القرطاجي: المنهاج، ص 284.

³ * مستوحى من المنهاج ص287.

⁴ حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص296.

"و كما أنّ الكلم لها اعتباران : اعتبار راجع إلى مادّتها وذاتها واعتبار بالنسبة إلى المعنى الذي تدلّ عليه، كذلك الفصول تعتبر في أنفسها وما يتعلّق بهياتها ووضعها، وتعتبر بحسب الجهات التي تضمنت الفصول الأوصاف المتعلقة بها" ¹ وفي هذا التخصيص للفصول نوعٌ من التمييز للفصل الواحد عن غيره من الفصول، حيث لم يترك عملية الانتقال من معنى إلى معنى ومن غرض إلى غرض تتم بعفوية، بل قد دفعه الوضع إلى سن قوانين مناسبة وجعل الكلام في ما يرجع إلى ذوات الفصول وإلى ما يجب في وضعها وترتيب بعضه من بعض يشتمل على أربعة قوانين؛

القانون الأول: (الانتقاء) في استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها.

القانون الثاني: (الترتيب والبناء) في ترتيب الفصول والموالات بين بعضها البعض.

القانون الثالث: (ترتيب المضامين) في ترتيب ما يقع في الفصول.

القانون الرابع: (التركيب والتقديم والتأخير) في ما يجب أن يقدّم في الفصول وما يجب أن يؤخّر فيها وتختتم به .

ففي القانون الأول يجب أن يتوقّر الفصل على تجانس وانسجام في المسموعات والمفهومات، وينبغي أن يكون نمط نظم الفصل مناسباً للغرض من حيث الطول والقصر.

وفي القانون الثاني يضع حازم منهجاً أصلياً في الترتيب، وهو أن يُقدّم الأهم فالأهم، إلى أن يأتي ما يدعو إلى التخلّي عن القانون الأصلي في الترتيب، ونستطيع أن نقرن المعنى الأساسي في الفصل بما سمّاه حازم بالمتصورات الأصيلة والدخيلة فيكون المعنى المهم متصوّر أصيل، والذي يليه متصوّر دخيل،

وفي القانون الثالث والرابع يذهب حازم إلى أن يبدأ الشاعر بالمعنى المناسب لما قبله، وإن تأتّى مع هذا أن ذلك المعنى هو عمدة معاني الفصل الأساس فيها، والذي له نصاب الشرف كان أبهى ² وهو المبتغى، والمطلوب من الشاعر أن يشتغل دائماً بالبحث عن أساس سليم للموالات بين آخر غرض تكلم فيه، وما يطلبه في الغرض الذي سيقبل عليه، وليس ذلك إلا أصلاً في حسن التنسيق والترتيب، وسعياً وراء نص متعالق منسجم معنى ومبني، وقد تحدّث حازم في هذا السياق أيضاً عن بعض القوى التي يجب أن تتوقّر في مُنتج النص فتجعله صاحب نسقٍ فكري، وهي ما اصطلاح عليه بالقوة الحافظة والتي يشير فيها إلى انتظام الفكر والخيال، كما في قوله: "فأمّا القوة الحافظة فهي أن تكون خيالات الفكر منتظمة، ممتازاً بعضها عن بعض محفوظاً كلّها في نصابه" ³ وفي ذلك تحديد للعلاقة بين الفكر المُبدع والنص المُبدع، وهي علاقة تلازمية تجعل التّصورات في الذهن أوضح ممّا هي عليه في الواقع، أمّا القوة المائزة فالمقصود بها قدرة الشاعر الفائقة على التمييز فيقول حازم "القوة المائزة هي التي بها يميّز الإنسان ما يلائم الموضوع والنظم والأسلوب، والغرض ممّا لا يلائم ذلك، وما يصحّ ممّا لا يصحّ" ⁴ فهي التي تميّز الجيد من الرديء، وتتولى عملية الفرز والانتقاء حسب الموضوع والغرض والأسلوب، وإذا تسلّح الشاعر بالذوق المائز، وضع الأمور في نصابها، وأجاد النظم واستطاع أن يربط بين أعماق فكرته والنص في غاية اكتماله، ومن أخطأه الذوق أخطأه الحظ، ولا نصيب له في الإبداع، كما تحدّث عن القوة الصانعة وهي التي "تتولّى العمل في ضمّ بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية، والمذاهب الأسلوبية إلى بعض، والتدرّج من بعضها إلى بعض؛ وبالجملة هي التي تتولّى جميع ما تلتئم به كليات هذه الصناعة" ⁵ لذلك تأتي القوة الصانعة كنوعٍ من البراعة في التّأليف، وتكون بمثابة تركيب بين القوتين السّابقتين، فإذا أتقن الشاعر العمل بالقوة الحافظة، وأجاد التّألق

¹ حازم: المنهاج، ص 287.

² حازم: المنهاج، ص 289.

³ حازم: المنهاج، ص 42.

⁴ حازم: المنهاج، ص 43.

⁵ حازم: المنهاج، ص 43.

بالقوة المائزة، استطاعت القوة الصانعة أن تؤلف بين الجميع، وتعبّر عن كفاءة الشاعر في إنتاج النصّ، وفي ذلك مراعاة للفضاء الذهني المشترك بين الشاعر والنصّ.

الخصائص المعنوية للفصول الكلامية:

يستوحي حازم معاني الفصول الكلامية من معين الشعر العربي، لأنّ دراسته كانت في الأساس دراسة تطبيقية، وقد وجد تباينا شاسعا في استعمالات الشعراء من حيث المعاني التي ضمّنها فصولهم، فتحدّث عن كيفية إبراز معاني الفصول من حيث ذكر الحقيقة والمبالغة معتمدا على مقادير محدّدة فقال:

من الشعراء من يقصد المبالغة في تكثير الأوصاف فيستقصي من ذلك ما كانت له حقيقة، وربّما تجاوز ذلك

. و منهم من يقتصر في أوصاف الجهات على الحقيقة وما قاربها،

. وفهم من لا يدلّ بألفاظه إلا على الحقيقة أو ما قاربها.¹

أما من حيث الاكتفاء بأركان المعاني أو الاستقصاء في تتبع أجزائها ففهم من يستقصي الأوصاف التي بها يكمل اتّساق الفصول، وفهم من يكفي باستيفاء المقدار.²

أما من حيث النقص والكمال ففهم من يخلّ بالمعاني ويترك كثيرا من أركانها وفهم من يتخطّى أوصاف الجهة اللانقطة بمقصده. أما من حيث قصد المعاني الجزئية والكلية، فمنها ما يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمّنها معاني جزئية تكون مفهوماتها شخصية، ومنها ما يقصد في فصولها أن تضمن المعاني الكلية التي مفهوماتها جنسية أو نوعية، و منها ما يقصد في فصولها أن تكون المعاني المضمّنة إيّاها مؤتلفة بين الجزئية والكلية "فمعالجة المعنى ضمن الفصول لم يكن إلا امتدادا لمعالجة قضايا المعنى في باب المعاني، وهنا يصح القول أنّ حازما قد نظر إلى النظم في شمول.

أما عن الاستقصاء فهو يُسوِّغ في القوائد الطوال، ويُرفض في القصار والمتوسطة، أمّا عن المعاني الكلية والجزئية، فهو يفضّل مبدأ الائتلاف بين الجزئية والكلية، وقد استقى كلّ ذلك من معين الشعر العربي، لأنه يمثل بقصائد ابن الرومي والمنتبي، ومثلما اجتهد البلاغيون في الحديث عن المعنى في الكلام يجتهد حازم في الحديث عن معاني الفصول، وعند هذا الحد نستطيع القول بأنّ الفصول الكلامية إنّما نُفِدت ضمن السّياق النصّي العام، لكي تؤدي من المعاني والأغراض مثلما تؤدّيه الكلمات المؤتلفة في نسق الجملة الواحدة.

الخصائص الترتيبية والتركيبية للفصول الكلامية:

بعد الفراغ من انتقاء مواد الفصول، ومراعاة النسب المطلوبة، التي يستحسن إيرادها وتقبلها النفوس فتأسر لها، كيف يتم تنزيدها وإبرازها في شكل فصل كلامي، فتكون الرسالة بذلك تامة معنى ومبنى، يقول ابن المدبر في هذا السّياق: "سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول: "لا ينبغي أن يكون الكاتب كاتباً حتى لا يستطيع أحد أن يؤخّر أول كتابه، ولا يقدّم آخره"³ فابن المدبر لم يصرّح بذكر المقدمة والتخلّص، إلا أنّ الكلام المتناسق يقتضي أن توضع الأمور في نصابها، والذي يصرّ عليه هو حقيقة، هو ضرورة مراعاة أولوية الأوّل وتأخير المتأخّر، لذلك فقد أعطى حازم لمفتتح الفصل أهميّة كبرى وأورد لنا مصطلح.

¹حازم: المنهاج، ص 292

²حازم: المنهاج، ص 292

³ إبراهيم ابن المدبر الرسالة العذراء: نقلا عن أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 376.

المطالع والمقاطع لها في النص قيمة كبرى لأنها هي أول ما يقرع سمع المتلقي وبه هي " رائدة ما بعدها إلى القلب. فإذا قبلتها النفس تحرّكت لقبول ما بعدها، وإن لم تقبلها كانت خليقة أن تنقبض عمّا بعدها" ¹ فهي مفتاح النص ورسالته، وهو الأمر الذي يقف عنده حازم بقوة ويشرحه شرحا مفصلا ويمثل له تمثيلا بارعا، فيعطيه مصطلحي التسويم والتججيل، أو ما عرف بالمطالع والخواتيم فيقول: " فأما ما تجب العناية بالتأثق فيه على الوجه المختار فتحسين المبدأ والتخلص" ² وتنبع هذه الأهمية في المطالع من كون أنّ الفصل من الكلام يأخذ شهرته وبهاءه من هذا الموقع، وقد يكون علامة على مقصد الشاعر وإعلاما بمغزاه لذلك " لَمَّا كان اعتماد ذلك في رؤوس الفصول ووجوهها أعلاما عليها وإعلاما بمغزى الشاعر فيها، وكان لفواتح الفصول بذلك بهاء وشهرة وازديان حتى كأنها بذلك ذوات غرر رأيتُ أن أسّي ذلك بالتسويم وهو أن يُعلّم على الشيء وتجعل له سيمي يتميز بها. وأيضا فإننا سميننا تحلية أعقاب الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية بالتججيل ليكون اقتران صنعة رأس الفصل وصنعة عجزه نحوًا من اقتران الغرة بالتججيل في الفرس" ³

فهي مجموعة مصطلحات وأدوات يمكن اعتمادها بدائل تُغني وتفي بالغرض، كما يفضل حازم أن تتميز رؤوس الفصول الكلامية ضمن السياق النصي العام وذلك باعتبار أهمية الرسالة التي يتضمنها " ويحسن أن يُصاغ رأس الفصل صيغة تدل على أنه مبدأ فصل، وإن تمكّن مع هذا أن يناط به معنى حسن موقعه من النفوس بالنسبة إلى الغرض كالتعجب والتمني والدعاء وتعدد العهود السوالف وما أشبه ذلك فهو أحسن. " ⁴ ثم دعا إلى أن يتم الاهتمام بها على الوجه المختار، اعتبارا لما يُحدثه المطالع من جذب للسامع فيصرفه إلى الإصغاء والاستيعاب، كما ينبغي للخاتمة أن تحمل المعنى الذي يؤذن السامع بأنها الغاية والمقصد والنهاية، وأن لا مطمع وراءها ولا غاية بعدها، وكما يعلم السامع انتهاء الكلام وقطعه، باعتبار هذه الأهمية التي تكتسبها المطالع، وبسبب حيوية الدور الذي تقوم به في تحقيق إبلاغية النص، وجب أن تكون :

" جزلة، حسنة المسموع والمفهوم، دالة على غرض الكلام، وجيزة، تامة، وكثيرا ما يستعمل الشعراء فيها النداء والمخاطبة والاستفهام، ويذهبون بما مذاهب من تعجيب أو تهويل أو تقرير أو تشكيك، فهذه الأوصاف التي تضمنها نص المنهاج يطلها حازم لتقوم بدورها في السياق النصي العام وهو القصد إلى الغرض والدلالة عليه بوجه من الوجوه، ويجعل حازم للمطالع أهمية كبرى لأنها هي " الطليعة الدالة على ما بعدها المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة تزيد النفس بحسنها ابتهاجا، وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها" ⁵ وهي قيمة استشرافية، لأنّ مضمون النص يقتصر على العنوان أو البيت الأول في أبعد الحدود، ولذلك فهو ينزلها منزلة الوجه من الجسد، وربما أدت هذا الدور وزادت عليه أن غطت بحسنها على القبح والنقص في ما بعدها، لا بل إنّ المطالع أو الاستهلال سيكون هو لحمة النص من حيث جعله يفوق ويتجاوز بموقعه استطلاع كل عناصر الإبداع يقول حازم: " ولا يخلو الإبداع في المبادئ من أن يكون راجعا إلى ما يقع في الألفاظ من حسن مادة و استواء نسج ولطف انتقال وتشاكل اقتران... أو إلى ما يرجع إلى المعاني من حسن محاكاة ونفاضة مفهوم... أو إلى ما يرجع إلى النظم من إحكام بنية و إبداع صيغة و وضع... أو إلى ما يرجع إلى الأسلوب من حسن منزوع ولطيف منجى و مذهب" ⁶ فقد ينال النص الشعري حظه من جملة أدواته الجزئية، فتتوفر له بذلك ملامح الحسن، لكن قد يوفي الشاعر اللفظ حقه من المطلوب ويؤدّي المعنى بكل مواصفات

¹ حازم : المنهاج ، ص 286.

² حازم : المنهاج ، ص 306.

³ حازم : المنهاج ، ص 297.

⁴ حازم : المنهاج ، ص 289.

⁵ حازم : المنهاج ، ص 309.

⁶ حازم : لمنهاج ، ص 309.

الكمال ويُحكم النظم غاية الإحكام وينحي بالأسلوب أطف الأنحاء، غير أن الحسن لن يكتمل لأنّ " ملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسباً لمقصد المتكلم من جميع جهاته " ¹ فمعقد الكمال وغاية الحسن أن يوفق الشاعر في حسن الملاءمة والمناسبة بين الاستهلال والمقصد والغرض، بمعنى أن يحسن التقديم لغرضه بما يلائمه به، لينظر حازم بعد ذلك إلى الكلام في شمولٍ ويجعله قسامين، فمنه ما يصلح للمبادئ ويليق بالمطالع ومنه ما لا يليق، ولابد من الانتقاء النوعي في هذا الموقع من الكلام.

الاتّساق والفصل والوصل بين الفصول المؤتلفة (المركبة) :

الفصول المؤتلفة أو المركبة هي التي تنوّعت أغراضها واختلفت مقاصدها، ولهذا النوع دلالة جمالية لكتّابها لن تحدث دون أن يكون الانتقال من بعض صدور الفصول إلى بعض على النحو الذي يوجد التابع فيه مؤكّداً لمعنى المتبوع، ومنتسباً إليه من جهة ما يجتمعان في غرض " ² * ولم يترك حازم الانتقال بين الفصول يتم بطريقة عفوية، وإنّما اهتم بقضية وصل الفصول والتي تعد امتداداً لقضية الفصل والوصل في الجمل، مراعيًا في ذلك معاني التبعية والإبدال وكمال المعنى واتّصاله والإشراك في الحكم النحوي، وقد جعل له أربعة أضرب كما استقرأها في نتاج الشعراء :

1. ضرب متصل العبارة والغرض
2. ضرب متصل العبارة دون الغرض
3. ضرب متصل الغرض دون العبارة
4. ضرب منفصل الغرض والعبارة.³

النوع الأول يكون فيه الغرض والعبارة شركة بين الفصلين فيكون التطالب وارداً، ويكون الاتصال نحويًا من جهة الإسناد والربط، فلا يكتمل الفصل السابق إلّا في الفصل اللاحق وذلك من جهة الغرض والعبارة.

النوع الثاني: هو ضرب منحط قليل القيمة بسبب ما يشتمل عليه من تباين وانفصال في الأغراض واتّصال في العبارة بين الفصول.

النوع الثالث: هو أفضل الأضرب يشتمل رأس الفصل فيه على كلام متصل بالفصل الذي قبله من جهة المعنى، منفصل من جهة العبارة و اللفظ .

النوع الرابع: هو ضرب يحدث فيه انبثاق وقطع بين فصوله، فيكون الانتقال من غرض إلى غرض دون تمهيد أو مقدمات، لذلك فهو ضرب مشتت لا تطالب بين أغراضه و تعابيره بسبب انعدام طرق الوصل، وقد اهتم حازم في الفصول المؤتلفة بالاستهلالات ورأى ضرورة التأنق في صدورها وخواتيمها بإحداث نوع من التناسب والانسجام الذي يطوي الفراغات فيقول: " ويجب أن تكون الصدور متناسبة النسج، حسنة الالتفاتات، لطيفة التدرج، مشعشة الأوصاف بالتشبيهات. ويجب أن يكون التخلص لطيفاً " ⁴ فغاية ما يطلبه حازم من استفتاحات الفصول أن تكون حسنة الوقع من النفوس، لتعدّ النفس لتلقّي ما يتبع رؤوس الفصول، ومتى ما كان الشاعر قادراً على هذا العمل وأورد " فواتح فصوله على هذه الصفة واستوسق له الإبداع في وضع

¹حازم : المنهاج ، ص310.

²حازم : المنهاج ، ص297.

*يعد حازم أنّ أجود شاعر نظم في المؤتلف هو المتنبي لأنه كان يجيد الانتقال بين الأغراض ويحسن ترتيبها ويحكم وضع فصولها.

³حازم : المنهاج ، ص290.

⁴حازم : المنهاج ، ص306.

مباديها على أحسن ما يمكن من ذلك صارت القصيدة كأنها عقد مفصل، وتألّفت لها بذلك غرر وأوضاع وكان اعتماد ذلك فيها أدعى إلى ولوع النفس بها وارتسامها في الخواطر لامتياز كل فصل منها بصورة تخصّه¹

تتكرّر مصطلحات الاستهلال والمطالع والصدور، وذلك دليل أهميتها في النص، الذي أخضعه حازم للسياق والمقام ومقتضى الحال، فيكون المقال مناسباً للمقام، سواء في الاستهلال أو في الاختتام أو في الفصل جميعه، وبذلك فالفصل من الكلام رسالة ينبغي أن تأخذ بنية خاصة لتؤدي وظيفتها الإبلغية كاملة، أمّا ما يخصّ المقاطع التي هي أواخر القصائد فالرأي أن " لا شيء أقيح من كدر بعد صفو وترמיד بعد إنضاج"² لذلك فالواجب أن يتحرّز الشاعر وينتبه في هذه المواقع من قطع الكلام على لفظ مستكره، ويتحفظ شديد التحفظ في أول البيت الواقع مقطعا من كل ما يستكره .

الخصائص الإيقاعية ودورها في تحقيق التّكامل النّصي :

إيقاع النص بمعناه البسيط هو البحر الذي تنتهي إليه القصيدة، والتي تكاد تكون وقفا على الرّوي والقافية، وتكرار النغم أو تناوبه، وليس ذلك هو المقصود الأسمى، لأنّ الإيقاع بمفهومه الواسع ينطوي على " وظيفة أسلوبية تتجلى في علاقة الوزن بموضوع القصيدة، ومن هنا كان الوزن شيئا واقعا على جميع اللفظ الدال على معنى"³ وهذا ما دفع الدراسات الحديثة إلى الاهتمام بالإيقاع الشعري، والسير به خطوة متقدمة صارت تهدف إلى تمييز الشعر المنطوق من المكتوب والتسجيلات الصوتية للشعر، وإذا كان الإيقاع هو " التكرار الدوري للعناصر المختلفة في مواضع متطابقة وهو كيان معارض للوزن الذي هو نظامي، ذلك أنّ الإيقاع متغير أما الوزن فثابت." ⁴ وبين الثابت والمتغير تنتظم الكلمات ليحدث الصراع داخل النص الشعري، فتتجلى قدرة الشاعر ومهارته في التأليف والتنضيد والقياس، ومتى ما كان الشاعر قادرا متمرسا استطاع النفوذ إلى نفس المتلقّي، ومنه فإنّ إيقاع النص الشعري ليس عنصرا إضافيا أو تكميليا، وإنّما هو مكون ذاتي، لا تكتمل شعرية القصيدة بغيابه. اهتم حازم بالمستوى الصوتي الإيقاعي ليفرّع عنه درس الوزن والقافية، حرصا على تخريج النص الشعري تخريجا متميزا بتأسيسه على علائق الانتظام الإيقاعي للصوت، وجعل الوزن والإيقاع ركنا جوهريا في عملية الإبداع الشعري، لتحقيق القدرة على الملاءمة بين الحروف بتجنب التنافر كما هو معروف في مبحث الصوت، وهو ما سيكون أساسا في الإيقاع والوزن، فقد قرّر كوليرج أنّ من افتقرت روحه إلى الموسيقى لا يستطيع أن يكون شاعرا، أمّا حازم فإنّه يجعل قانون الاعتبار الصحيح هو سلامة الذوق وملاءمة الفطرة لأنّ " من لا ذوق له قلّما يتأتّى له التوصل إلى تمييز ما يحصل في مجاري الأوزان و مباني النظم ممّا يقبح فيهما"⁵، نظر حازم للبعد الإيقاعي في شمول، وجمع بين البحر والقصيدة بصفة عامة، ثم طرح أسئلة ذات قيمة منهجية كبرى مثل علاقة الأوزان بالألفاظ والتراكيب والأحوال الممكنة في ذلك بالنسبة لكل بحر، وله آراء عميقة لن تجد صعوبة في الطريق إلى أحدث النظريات، بدءا من اعتبار الإيقاع وسيلة تأثير، وصولا إلى أنّ الإيقاع ضرورة لمراقبة البلاغة، بل إنّ ابن سينا يجعل الأوزان هي الضلع الثاني للشعرية، أمّا حازم فيقول في هذا المقام: " وللنفس في النقلة من بعض الكلمة المتنوعة المجاري إلى بعض على قانون محدود، راحة شديدة واستجداد لنشاط السمع بالنقلة من حال إلى حال؛ ولها في حسن أطراده في جميع المجاري على قوانين محفوظة قد قُسمت المعاني فيها على المجاري أحسن قسمة، تأثرا من جهة التعجيب والاستلذاذ"⁶ فقد ارتأى أن تُصبّ الألفاظ بمعانيها في

¹ حازم : المنهاج ، ص 297.

² حازم : المنهاج ، ص 285.

³ نور الدين السد : المكونات الشعرية في يائبة مالك بن الرّيب، مجلة اللغة والأدب العربي، ملتقى علم النص، العدد 14، ت 1999، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها،

ص 30.

⁴ محمد عزام : نحو تحليل سيميائي للأدب، (دراسات نقدية عربية)، مطابع وزارة الثقافة دمشق، تط ط 1996، ص 63.

⁵ حازم : المنهاج : ص 265.

⁶ حازم : المنهاج ، ص 122، 123.

أوزان ثابتة تتغير بتغير الإيقاع، ومادام هناك ثبوت وتغير، فهناك قانون للقسمة يتحكم في عملية التوزيع، وما يحدث في القصيدة جملة هو عملية تألف حيث تعتمل الحروف والأصوات والألفاظ والمعاني بالأوزان لينتج النص الشعري، وعلى هذا يكون نظام الأوزان مطلباً أساسياً في القصيدة الشعرية، لأنه يتولّى الربط بين الوزن والغرض والمقصد، ثم يزيد من توطيد العلاقة بين الوزن والنص الشعري والغرض فيقول: "ولما كانت أغراض الشعر شتى و كان منها ما يقصد به الجد والرصانة، وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يقصد به الهاء والتفخيم، وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تُحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان" ¹ بمعنى أن يكون الوزن مناسباً للكلام، فإذا كان الكلام جادا تختار له الأوزان الجادة الرصينة، وإذا كانت غير ذلك تختار الأوزان المناسبة، أما الإيقاع على مستوى الفصل، فيضع له أحكاماً تلزم الشاعر بانتحاء نظام خاص بكل موقع من مواقع الفصل، من ذلك ما يخص الاستهالات والمطالع لأنه مع الاستهلال تدرك أولى وأهم عوامل بناء النص الشعري دفعة واحدة، وذلك حين تلتحم العبارة الحسنة مع المعنى الشريف، مع الدلالة الواضحة، مع اللفظ المستعذب، مع الإيقاع المستلذ، وهنا تجد حازم يدمج كل العناصر التكوينية في نقطة واحدة من الفصل وهي المصراع الذي تأتي أهميته من كونه دليلنا إلى قافية القصيدة، أما ما يخص مفتتح المصراع فالرأي أن يكون دالاً على غرض القصيدة، عذب السمع، لم يتردد على ألسنة الشعراء في المطالع حتى أخلق وذهبت طلاوته، عبر كل نصوص المنهاج التي توضح الوزن والإيقاع، يركّز حازم على الدلالة والغرض والعبارة، ولا تكون "القافية على هذا التصوّر عنصراً موسيقياً يؤتى به لإحداث الانسجام الصوتي فحسب، وإتّما هي عنصر حيوي في لحمة نظام النص، يتطلب الإبداع وتفادي التكرار.

وقد وضع حازم تصوراً واضحاً للإيقاع على مستوى النص، ووقف على وجه الصعوبة التي تتجسد عند قصد هذا المستوى الإبداعي، لأنّ القوافي تكون قد ضاقت على الشاعر، ويصعب عليه ضبط كلّ المطالب السابقة، من الصوت واللفظ والدلالة والمقصد والعبارة والتركيب والوزن، إذ المعتبر هو تحقيق التوافق والتآلف في انسجام الوزن وهيئات الكلام بحثاً عن النص المنشود.

ولاشكّ أنّ نظام اللغة الذي يفرض على المتكلم مراعاة النسب المتبعة في صياغة الكلام إفراداً و تركيباً، هو ذاته الذي يلزم منشئ النصوص اللغوية بالبحث عن الكيفيات والهيئات المنتظمة لتأليف النصوص الكلامية تركيباً وإبداعاً، وبه فإنّ معرفة جهات التناسب في تأليف الألفاظ إلى بعضها إلى البعض، ووضع بعضها تالية لبعض، أو الموازنة بينها في الرتبة، يتطلب يقظة ذهن وحصافة فكر، ومعرفة بتلك الجهات والنسب والمسموعات والمفهومات وكل المعطيات، وتلك لا يتوصل إليها المبدع " بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة" ² التي سمّاها حازم البلاغة المعضودة* والتي تختلف عن البلاغات الجزئية، ومنه يمكن اعتبار رؤية حازم في اتجاه النصّ وتطويره "إسهاماً عميقاً ونظرةً لا تقلّ أهميّة وخصوبة عمّا قدّمه الغربيون" ³ سواء في أبعادها اللغوية أم البلاغية أم الفلسفية حتّى، وهي رؤية شاملة متكاملة انتهى حازم من خلالها إلى وضع تصوّر دقيق للقصيدة الشعرية، وقدّم الإجابة الشافية لكيفية تمفصل أركان النص الشعري، وتحقيق التكامل بين مختلف عناصره، باختيار وتصرف مبدعه.

¹ حازم: المنهاج، ص 266.

² حازم: المنهاج، ص 226.

*مصطلح البلاغة المعضودة هي البلاغة التي تضافرت أحكامها بالفلسفة والمنطق وقد جعل حازم مصطلح البلاغة الجزئية والبلاغة المعضودة فهما مختلفين

³ محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، بيروت 1991م، ص 95.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

1. حازم القرطاجي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق وتقديم محمد الحبيب بن الخوجة، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ت ط 1981.
 2. سعد مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، مجلس النشر العربي، جامعة الكويت، ت ط 2003م.
 3. الطيب الغزالي قواوة: مقال من نحو الجملة إلى نحو النص، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، مجلد 9، عدد 1، ت ط 2018.
 4. عبد القادر حسين: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، للطباعة والنشر والتوزيع، ت ط 1993.
 5. الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، شكل وشرح وتخرير وتقديم ووضع الفهارس ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، للطباعة والنشر، ط 1، صيدا بيروت، ت ط 1998م، ص 133.
 6. العسكري: أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الفروق اللغوية، تعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 3، ت ط 2013.
 7. عمر أوكان: اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، بيروت، ت ط 2001م.
 8. عيسى بن سديرة: الخصائص التركيبية والأسلوبية في المكي والمدني من القرآن الكريم، رسالة دكتوراه دولة في اللغة العربية جامعة الجزائر، غير منشورة.
 9. فاطمة الطبال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، دراسة ونصوص، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، ت ط 1993م.
 10. فولفجانغهاين مانيه وديتر فيهيفجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح بن شبيب العجوي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ت ط 1998م.
 11. محمد أحمد ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2، ت ط 2005م.
 12. محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، بيروت لبنان. ت ط 1999م.
 13. محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، بيروت 1991م.
 14. محمد عبد المطلّب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1، ت ط 1994م.
 15. محمد عزام: نحو تحليل سيميائي للأدب، (دراسات نقدية عربية) مطابع وزارة الثقافة دمشق، ت ط 1996م.
 16. نور الدين السد: المكونات الشعرية في يائية مالك بن الرّيب، مجلة اللغة والأدب العربي، ملتقى علم النص، العدد 14، ت ط 1999م، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها.
- Heribertruck ; linguistique textuelle et enseignement du français ; jean paul colin ; hatier ; credif ; paris ; 1980 .

الشعر العربي: حقيقته وجوهه

قراءة محمد العمري لتصوير ابن وهب الكاتب. المنظر البلاغي.

د. هندة بوسكين

جامعة الجزائر 02 أو القاسم سعد الله - الجزائر

ملخص:

إن مهمة ضبط القضايا و الفصل فيها دون الوصول إلى البعد النسقي الذي يُشغّلها أمر محفوف بالمخاطر و المزالق. ومن القضايا البلاغية الشائكة التي تعرض لها الباحث محمد العمري و شغلت باله هي انتقاده لأفكار حديثة ترسخت عند دارسي الشعر العربي القديم، تعمل على تعميق نسبة الشعر العربي إلى التكسب أو " الكدّية " و " التهم الكريهية "، بل و منها ما يثبّت أصالته بالتنويه به و إعادته إلى مركز الاهتمام تحت ضغط المقامية الخطابية التداولية مما يشوه الصورة الحقيقية للبلاغة العربية. و برؤية جديدة تنسق البلاغة العربية كلها خطابة، شعرا و كتابة يحرض محمد العمري على ردّ ما يشوّه الشعر العربي بقراءة نموذج تراثي يعود إلى منتصف القرن الرابع للهجرة طرح صاحبه تصوره للشعر العربي في مصنفه " البرهان في وجوه البيان " مبرزا معناه الرفيع لأهل زمانه و يذكرهم به.

الكلمات المفتاحية: الشعر العربي، المقام التأديبي، المقام التكميلي، التراث، الأنساق البلاغية العربية، القراءة النسقية.

Arabic Poetry: its true nature and essence

Mohammad El-Omari's study of the conception of Ibn Wahb Al Kateb – the rhetoric theorist

Determining precisely research topics without considering the systemic dimension that runs them is indeed a risky and faulty path to take. One of the critical topics in rhetoric, which Mohammad El-Omari long dealt with, was criticising new fixed ideas that classical Arab poetry researchers hold about this very poetry. Their common standpoint is that classical Arab poetry was but a greedy race to realize profits. However, some of their ideas sustain its originality by paying tribute to it and making it a field of interest under the constraints of pragmatic illocutionary situationality. This distorts the real image of Arabic rhetoric. Through a new vision that coordinates Arabic rhetoric under all its aspects - oratory, poetry and prose - Mohammad El-Omari endeavours to redress all that distorts the image of classical Arab poetry by studying some classical examples which go back to the mid 4 AH. In his book "Al Burhan Fi wujuh Al Bayan", he puts down his conception about Arabic poetry and exposes its high significance to his contemporaries.

Keywords: Arabic poetry – situationality – classical heritage – rhetorical Arabic systems – systemic study

1. البلاغة في ضوء أسئلة المنجز العربي الحديث: نحو قراءة منتجة للتراث:

في مرحلة يعمّ فيها الاهتمام بالقراءة و القارئ تزداد الحاجة إلى تنسيق البلاغة العربية كلها: خطابة، شعرا و كتابة، من خلال مراعاة " منظومة جديدة ناتجة عن حوار بين الرصيد البلاغي العربي الغني و المعرفة الحديثة المنظّمة المفعّلة في اتجاه كونية المعرفة ".¹ ضمن هذه الرؤية الجديدة صاغ محمد العمري تصوره الجديد للبلاغة العربية و نشره على أوسع نطاق منذ عقدين من الزمن؛ و " ظهرت الحاجة إلى إعادة التذكير به في كل مناسبة، وإلا تعذر التواصل مع الآخر الذي يظل ملصقا بمفاهيم البلاغة المختزلة المتحصنة في مقامية خطابية ضيقة ".² شكّل هذا المسار بالنسبة إلى مشروع البلاغة العامة عائقا كبيرا في تمرير مشاريع القدماء و منجزاتهم إلى واقع الدرس البلاغي مما أخلّ بفهم التصور العام و النهائي لكل مؤلف أو مدرسة.

¹ العمري محمد، المحاضرة و المناظرة في تأسيس البلاغة العامة، مواجهة بين زمن الجرجاني و زمن القزويني، أفريقيا الشرق، المغرب، 2017، ص: 41.

² نفسه، ص: 12.

في هذه الظروف وضمن هذا الواقع، يؤلف محمد العمري كتابه الأخير " المحاضرة و المناظرة في تأسيس البلاغة العامة، مواجهة بين زمن الجرجاني و زمن القزويني" الذي يعيد تعريف البلاغة تعريفا عاما يؤسس لها بالإجابة عن الأسئلة المختلفة المطروحة عليها، و الردّ على الشبهات المثارة حولها. فهو كتاب الذي جمع فيه محمد العمري لأول مرة بين ثلاثة قضايا كبرى للبلاغة العربية¹ كان السبب الرئيس في جمعها هو صدور كتاب " التبالغ والتبالغة، نحو نظرية تواصلية في التراث"² شكّل متنه مناسبة فريدة و قاعدة نقاش اقتضت من العمري " إعادة تعريف البلاغة تعريفا يراعى الجهود الحديثة في مدّ سلطانها لاسترجاع ما ضاع منها في ظروف وهنبا، و يستوعب كل منجزات البلاغة العربية"³.

هذه المعطيات الجديدة، ألزمت محمد العمري أن يطرح هذه القضايا في ظل ما يقتضي جمعها و هو التأسيس لبلاغة عامة حيث لا قيام لهذه البلاغة دون حسم الجوهر في قضاياها. و يستوقفنا منها في موضوع إشكالنا ما تعلق بقضايا " الأنساق البلاغية" العربية، و كيف يمكن فهم بناء " المشاريع و المنجزات" و مخاطر غياب البعد النسقي في قراءة التراث، و الأخطاء الكبيرة التي تُوقع فيها بلاغة الانحسار" الاختزال" حين تُحكّم في بلاغة الانتشار" العامة"؟

دفعت هذه القضايا الشائكة بالقارئ الواعي للتراث أن يُبقي باب الاجتهاد مفتوحا و التعديل من حين لآخر، مشروعا لأن بتغيّر المعطيات التي يمتلكها، و الإمكانيات التي يسخرها، و تغيّر الأسئلة التي يطرحها، يكون من اللازم إعادة الكتابة وفق شروط القراءة و ظروفها.⁴ و قد تطلبت قراءة التراث من العمري في كتابه الأخير أن ينحو منحى مزدوجا يجمع بين التنظير و الحجج، فالمنحى الأول يعرض الأسس المعرفية للبلاغة العامة، و يطور النظر فيها، و المنحى الثاني ينتقد جمود البلاغة و يردّ حجج القائمين عليها.

يتبين من سابق، أن هناك معوقات كثيرة تشد قارئ التراث إلى الوراء، و تجاوزها يعني أن تدرك باختيار واع نوع القراءة المطلوبة لإعادة إنتاج التراث بما يعين على التصدي لمن يحكم على البلاغة القديمة، و هي شديدة التنوع و الغنى، من واقع درس بلاغي شديد الفقر و الضيق؛ إنه واقع يجمع بين كل القوى المعادية لهذا التراث بقصد أو بغيره. و المخرج من هذا المأزق هو أن تحترم قراءتنا إستراتيجية المؤلفات، و إذا شئت أن تكون قراءتك للتراث بناءة فحاول أن تكون نسقيا:

1. بنقل النصوص التراثية ووعي أسئلتها و أجوبتها، في ضوء ما يراعى أنساق مصادرها المقتطف منها، حيث إن كثيرا من المؤلفات القديمة بدأ من مراهنة و انتهى بما يخالفها أو يناقضها.⁵
2. بالتنسيق" و ذلك بتحديد الجوهر و المدار قبل التسييق و إلاّ تحوّل أمره إلى تفرّعات مقولية بدون محتوى.⁶
3. بتعيين النص من هامشه، و مركز الاهتمام من استثنائه" لا تلتقط كلمة من هنا و كلمة من هناك، و تحمّلها ما قبّل لها به، و لا تقفز من فَنّ إلى فَنّ قبل ضبط مدى المسافة و الزمن".⁷

¹ قضايا إبستمولوجية تخص بناء الخطاب البلاغي، قضايا " الأنساق البلاغية" العربية، وقضايا البلاغية منها "الكشف عن أساليب المغالطة، و الاختلالات الحججائية التي تشوب الدفاع عن بلاغة الانحسار. نفسه، ص:31.

² يحيواي رشيد، التبالغ و التبالغة، نحو نظرية تواصلية في التراث، كنوز المعرفة، ط1، الأردن، 2014، ص9 إلى 16.

³ المحاضرة و المناظرة، ص:12.

⁴ ينظر، العمري محمد، البلاغة العربية، أصولها و امتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص:7.

⁵ ينظر، البلاغة العربية، أصولها و امتداداتها، ص:11/10.

⁶ ينظر، المحاضرة و المناظرة، ص:322.

⁷ نفسه، ص:320.

4. بحفظ سياقات النصوص، لأن الخروج منها قد يعني "الاستدلال بها على ما ليست دليلاً عليه، أو محاكمتها من زاوية هي غير معنية بها، أو بترها و الاكتفاء ب " إذا " و إهمال "أما إذا".¹

برؤية تنسق البلاغة العربية كلها و بطريقة نسقية متدرجة، يقرأ محمد العمري التراث قراءة تنظر. من جهة. للتأسيس لبلاغة عامة، و تحتاج. من جهة ثانية. لظاهرة جديدة بدأت تتشكل بين البلاغتين: البلاغة الجديدة و واقع الدرس البلاغي، و هي بلاغة يصوغ القائمون لها في مصطلحات و مفاهيم جديدة تُوهم بأنها " خلق جديد".² تدعي الاهتمام بالتراث إلا أن القائمين عليها " لا يقدم التراث بكفاءة الدارسين التقليديين و تحقيقهم، بل يشوهه و يبتر أحسن ما فيه، و يقحمه في أطر ضيقة لا تستوعبه ...، يضره من حيث يدعي خدمته".³

تتوزع جهود محمد العمري في هذا الواقع أمام نوعين من المتلقين، متلق في وضع المنكر و هذا يقتضي حشد الحجج المناسبة لدرجة إنكاره، و متلق في وضع المتقبل المتطلع للجديد المنفتح على الكوني، و هذا يقتضي تسليحه بالمعرفة البديلة لما يُعرض عليه من واقع التقليد و الاجترار، و ما تولد عنه من تشوّه، و يختار العمري كفة الباحث المبتدئ المتقبل، لأنه المستقبل الذي يجب أن يوليه العناية و الاهتمام و يجتهد في إمداده بالمعرفة المؤسسة، و تنبيهه من كل وهم خادع.⁴ بهذا يعزم العمري على قراءة التراث قراءة نسقية تؤسس لبلاغة عامة و كل همّة⁵:

- التخلص من " تمقيمات البلاغة المأسورة"⁶ " فهي بلاغة دون قلب و روح: انفصلت عن الفلسفة و الشعر و الحياة و تقيدت بقيود الأشكال المنطقية و النحوية" نعتها العمري ببلاغة الاختزال أو " الجمود".
- و التحلي في قراءة التراث بالصدق و الأمانة في التعامل، و عدم ممارسة التشويه و البتر، كما حدث مع تصور ابن وهب⁷ الرفيع في معنى الشعر العربي و أدواته، و وظيفته التي تنوّه بمقام شعر التأدب الأصل في مقابل مقام التكسب العابر.

2. مشروع ابن وهب الكاتب من منظور محمد العمري: الشعر العربي أنموذجاً.

من القضايا البلاغية الشائكة التي تعرض لها الباحث محمد العمري و شغلت باله هي إعادة قراءته لأفكار حديثة، ترسخت عند دارسي الشعر العربي القديم تنسب الشعر العربي إلى التكسب" أو "الكدية" و " النهم الكريه" و باستهجان الحركات الأدبية الحديثة و المختلفة لهذا النوع من الشعر، عمقت الشعور عند المهتمين العرب بتكسبية الشعر العربي.⁸ خاصة إذا سلم المهتمون من دارسي الشعر العربي القديم بأن كبار الشعراء في العصر العباسي و ما بعده من المتكسبين، و أن تسعة أشعار ديوان المتنبي في المدح التكسبي.

إذا انطلقنا من هذا المعطى فإننا بانتظار أسئلة قراءة تعيد تقويم المنتوج الشعري العربي تقويماً شمولياً يفصل في مدى صحة تحكيم واقع ما، أو مقام ما على كل الشعر العربي و تعميم الحكم عليه بهذا المعيار: ثم ما أثر هذا التحكيم على المعنى

¹ نفسه، ص: 115

² ينظر، نفسه، 29.

³ نفسه، ص: 29.

⁴ ينظر، المحاضرة و المناظرة، ص: 32

⁵ ينظر، ص: 313.

⁶ مسار تمقيم البلاغة، ترتكز فيه البلاغة على الاضطرار لا الاختيار، و هذا إقصاء للتخييل و الوجدان، و اختزالها في الإفهام حسب المقام، راجع التباليغ و

التباليغ، ص: 11.

⁷ صاحب كتاب البرهان في وجوه البيان، ألفه في منتصف القرن 4هـ، قرأ من خلاله مشروع بيان الجاحظ من منظور نظرية المعرفة.

⁸ ينظر، المحاضرة و المناظرة، ص: 59.

الرفيع للشعر الذي تبناه النقاد القدماء و علماء الشعر و اعتبروه معيارا يُقَوَّم على أساسه الشعر الحق؟ إن موضوع الشعر يشكّل زاوية من زوايا عدّة في البلاغة العربية ما تزال مظلمة و تنتظر الإجابة عنها.

إن تحويل قضية الشعر العربي و إتلاف الطرف الأدخل فيه، شدّت انتباه محمد العمري حينما انتهى صاحب "التباليغ و التباليغية" إلى الاحتفال بشعر التكسب و إهمال شعر التأدب في سياق بناء نموذج بلاغي؟ يدعو إلى "تمقيم" البلاغة تمقيما خطابيا ضيقا¹. و لاستيفاء هذا المسعى أهمل المؤلف عن قصد أو دونه "الأنساق البلاغية" العربية و انتهى إلى القول بتكسبية الشعر العربي مع الإهمال المطلق لقول الشعر تأديبا! و إن كان موقف المحلل غريبا إلا أنه عند العمري مفهوم لأنه " ناتج عن ظاهرة تخدم توجه صاحبه، لا توجه البلاغة العربية.

يعترض العمري على ما أفضى إليه كتاب " التباليغ و التباليغية" في قضية حقيقة الشعر العربي و جوهره من جانبين: المحتوى و الشكل، أما المحتوى فمن حيث تحكيم التكسب في التأدب، أي تسخير البلاغة للتكسب غير المشروع. و من حيث الشكل على تحكيم المقام الخطابي في الشعر.² فالنتيجة التي توصل إليها دارس نص ابن وهب في معنى الشعر أفرزها تعامله الجزئي مع جوهر كلام ابن وهب و ذلك حينما ترك النص و أخذ هامشه³ الذي شوّه الحقيقة و أتلّف الجوهر، و أعطى صورة غير حقيقية عن البلاغة العربية كونه حرم نفسه من إثارة فضول علمي مكّمه المبالغة بين الشعريين كما فعل ابن وهب البلاغي المنظر، مما يضمن له دخول البلاغة العربية من بابها الواسع، و يخلد مشروعه كما يحدث مع ابن وهب الكاتب.

يشخص العمري أمر هذه الأخطاء الكبيرة و يرجعها. أولا. إلى عناد بلاغة الانحسار و قيودها الملتفة حول بلاغة الانتشار "الغنية الواسعة"، وثانها غياب البعد النسقي بقصد أو بغيره في قراءة قضايا التراث التي من نتائجها تحميل ابن وهب الكاتب مسؤولية " قول الشعر تكسبا" و هو بريء منها. و من هنا لا يهدأ بال محمد العمري إلا بعد أن يزبح ما تم تحميله لهذا الناقد البلاغي التراثي، و ذلك بإعادة الوجه الآخر من الشعر العربي إلى مركز الاهتمام و تحويل " قول الشعر تكسبا" إلى هامش الشعر العربي، مما يُنصف الشعر و يُعطي للبلاغة العربية صورتها الحقيقية. إن انشغالنا بهتم بكيفية قراءة محمد العمري تصور ابن وهب الكاتب، و كيف مكّن نفسه من وعي نسقه، و إدراك إستراتيجيته في مفهومه المبكر للمقام؟

3. تصور ابن وهب الكاتب في ضوء نظرية المعرفة و واقع الشعر العربي:

تدرّج المفكر البلاغي محمد العمري في تفكيك تصور ابن وهب الكاتب، و هو يتطلع إلى النص من داخل نسقه و من حيث إدراك مختلف سياقاته التي شكلت خريطة دوائر ضمنّت قراءة نسقية، عملت على تحديد الجوهر و المدار حيث إن "الأصل في الشعر العربي التأدب"، و كذا المهمة و الوظيفة المنوط بها "كونية استكمال إنسانية الإنسان" حيث إن ابن وهب اختار الانتماء إلى الجهود الكونية في امتداداتها المختلفة.⁴ من هذا البعد ننتظر أن تُطرح أسئلة القراءة النسقية من زاوية أن إعادة " قول الشعر تأديبا" إلى مركز الاهتمام و تحويل " قول الشعر تكسبا" إلى الهامش، و التنقيص من حدّته لذلك بدأ العمري من نهاية نص ابن وهب و التي خاتمها بمقام الشعر التكسبي:⁵

1. في أي سياق تحدث ابن وهب عن مقام التكسب؟ عند حديثه عن الشعر،

¹ ينظر، التباليغ و التباليغية، الفصل الرابع من ص: 269 إلى 406. و ردة فعل العمري، راجع: 59 "السبب أن" مقام التكسب" هو الوحيد الذي يفني ببناء صرح بلاغة مقامية" ص: 306 فكان له أن يقزم الشعر العربي ليحل في التقييم "التباليغ" فمقام التأدب يرفض التقييم التباليغي 317.306.

² ينظر، المحاضرة و المناظرة، ص: 323.

³ ينظر، نفسه، ص: 63.

⁴ ينظر المحاضرة و المناظرة، ص: 305.

⁵ ينظر، نفسه، ص: 322.

2. و في أي سياق كان حديثه عن الشعر؟ عند حديثه عن " العبارة"،
3. و في أي سياق كان حديثه عن العبارة؟ عند حديثه عن " البيان"،
4. و في أي سياق كان الحديث عن البيان؟ عند قراءته بيان الجاحظ في ضوء نظرية المعرفة، من جهة ، و واقع الشعر العربي من جهة ثانية. إن مسعى ابن وهب ينحو " نحو القيمة الشعرية الفلسفية حاملا إليها واقع الشعر العربي، فهو يفسح المجال للشاعر في التخيير " هذا ما ينبغي أن يكون (الشعور/ الذات/ الوجدان/ التأدب)، فإن اقتضى الأمر ما دونه (التكلف/ الغيرية/ التكسب) فهذا طريقه: السوق"¹
5. و ما سياق نظرية المعرفة؟ إذ هو اللقاء المعرفي بين المجال العربي و اليوناني، أو الكوني عامة. يصل العمري بقراءته النسقية إلى أن كلام ابن وهب يصب " في عمق الحوار الفلسفي اللساني حول المعرفة و الإدراك؛ و بين الحواس و الملكات العقلية الكامنة، أو المتكونة عبر العصور."² و يختم حديثه بقوله " هذا هو سوق ابن وهب الكاتب لمن أراد أن يتسوق فيه، أما من انحطت همته من الشراء عن هذا المستوى، و أراد أن يتبدل بضاعته فلا يبقى أمامه إلا سوق التكسب. و عليه حينئذ أن يتنازل عن شعوره و يحلّ محله شعور من سيدفع له"³

4. موقع كلام ابن وهب من منظومته ورأيه في الشعر العربي:

بني المنظر البلاغي، ابن وهب تصوره على أسس علمية تؤطّرها رؤية نقدية قائمة على مقولات و أطروحات لا يجوز بترها، و السكوت عن طرفها الأدخل في جوهر الموضوع، حيث إنه يتحدث عن معنى الشعر بطريقة قابل فيها بين طرفين متضادين: " شعر التكسب" و " شعر التأدب"، و الأدخل فيهما يمثل جوهر الشعر و هو " شعر التأدب".⁴ عشرون صفحة تقدم بها ابن وهب للحديث عن " شعر التأدب" قبل أن يذكر كلمة " سوق" و " كلام ابن وهب عن سوق التكسب في سياقه المعرفي يعتبر " خروجاً " عن الحديث عن الشعر، و ليس دخولا فيه".⁵ يتضح أن كلمتي⁶ " تأدب" و " تكسب" لم تردا في كلام ابن وهب عشوائيا، بل لقد انقسم الشعر العربي على أساسهما إلى لونين متميزين: فالقيمة في التمييز أولا، ثم في محتوى طرفيه ثانيا⁷ و تضيع النسقية عندما يلتقط الباحث جزئية أو أكثر خارج النسق، كأن يأخذ التكسب وحده أو التأدب وحده، مما يفسد إستراتيجية ابن وهب في مشروعه.

على مدار عشرين صفحة، يقرأ محمد العمري تصور ابن وهب في معنى الشعر⁸ بمعناه الرفيع لا بمعناه الوضيع "الداعر" معتبرا هذه الصفحات نصا متماسك الأطراف⁹ يبسط نسق رؤية ابن وهب المتمثلة في " شعر التأدب"، و بما أنه أدخل الطرفين أخذ في تفصيل جواهرها على مدار عشرين صفحة، ليختمها بكلام توجه به إلى من اختار قول الشعر تكسبا و لم يتعد في ذلك بعض السطور.

¹ نفسه، ص 321

² المحاضرة و المناظرة، ص 62

³ نفسه، ص: 62

⁴ ينظر، ص 311

⁵ نفسه، ص 312

⁶ التأدب:: الجناح الثاني الذي فصله ابن وهب و رفع من شأنه، يشكل الجوهر في الشعر العربي، و بتره هو تشويش في حقيقة البلاغة العربية" 327 و في تصوره مدلول واسع يمد مقام الشعر التأديبي من التفاعل الوجداني الفكري الأخلاقي مع القضايا الجماعية إلى رثاء الذات حيث أنتج أروع الشعر 121، و أما التكسب: مجرد استثناء، أو إجراء فرضه المنجز على رؤية ابن وهب الفلسفية 327 و الألفاظ المختار في نصه تدل معانها " على أنه يقلل من شأنه و يحتقر مرئادي سوقه العارضين و المشتريين، احتقره باستعمال كلمة سوق نفسها.

⁷ نفسه، ص 313.

⁸ البرهان في وجوه البيان، ص في " باب العبارة"

⁹ نفسه، ص: 129، 149.

إن الطرح بهذه الصيغة ألزم العمري مراجعة تعريف ابن وهب للشعر، و الأدوات التي تصنع منه شعرا بعيدا عن الوزن و القافية¹، وكذا وظيفته التي أبرز فيها معياري "العقيلية" ... و "التخليقية" و على أساسها بنى ابن وهب رأيه في الشعر حاملا إياه من واقعه إلى معنى الأدب في ثقافة عصره. بإدراك النسق يحوّل محمد العمري "قول الشعر تكسبا" إلى هامش الشعر العربي وينقص من حدته لأن رؤية ابن وهب مفادها أن الشعر: "إما أن يكون تأدبا، وهذا هو الأصل، و إما أن يكون تكسبا، وهذا هو الطارئ الذي أفسد الشعر العربي، كما يقول النقاد القدماء. و بين قطبي التكسب و التأدب مراتب، هذه مسألة منهجية"². و إن استمد ابن وهب رأيه من مدار كلام البلغاء و النقاد في الشعر العربي في مراحل الأولى فإنه صاغه في امتداد فلسفي يصل إلى "نظرية التطهير"³ لأن مهمته لم تنحصر في التنظير للشعر العربي بل كان إلى جانب ذلك يقوم عصره و يذكر أهل زمانه وهذا ما استدعى في ختام نصه يناقش "التكسب" و يتحدث عنه برغم أنه لا يحقق شروط الجودة إلا أنه موجود⁴. إن الإشكالية لا تتوقف بالتحديد على الأسطر القليلة المتعلقة بالتكسب السوقي المفتوح على الكلام الداعر و هو ما ختم به حديثه عن تصوره للشعر العربي لأن ذلك لا يحدد نسق رؤيته المبسوط من الصفحة 129 إلى الصفحة 149. إن موقع كلام ابن وهب من منظومته لا يمكن فهمه إلا إذا حددنا المتن من الهامش، فلا نأخذ بالاستثناء الذي استهجنه ابن وهب، و ننسى باقي الصفحات السابقة له، و التي تحث الشعراء على الاحتكام إلى الشعور، أي إلى الذات، و الوجدان. فابن وهب يصف واقع الشعر العربي، فهو "منظر أولا، ثم مقوم ثانيا. و قد أعطى المرتبة الأولى للجوهر، وهو الشعور المتميز، أي الشعور بما يشعر به الآخرون، ثم التفت إلى واقع عصره فتعامل معه بما هو معروف فيه"⁵ إذا استوعبنا كلامه و احترمنا مواقعه دون بتر أو اقتطاع فلا تُترك القاعدة، و لا يُحول المتن إلى الهامش.

5. إستراتيجية ابن وهب الكاتب البلاغي المنظر و تصوره المبكر للمقام:

بنى ابن وهب إستراتيجيته بهدف التمييز بين مقامين، و ما خصّصه من مساحة لشعر التأدب انتهى به إلى تصوره الرفيع لمعنى الشعر، و أدواته، و وظيفته التأديبية "العقيلية و التخليقية" ليختم بحاشية فرضها واقع إفساد الشعر في عصره، فقال: "و ينبغي لمن كان قوله تكسبا لا تأدبا أن يجعل إلى كل سوق ما ينفُق فيها"⁶ و بهذا يستثني مريدتها مما سبق من اقتناء جواهر شعر التأديب. فما خطوات ابن وهب في بناء إستراتيجية تصوره لمعنى الشعر الرفيع؟

1. نص "معنى الشعر" من منظور بعده النسقي:

يضع العمري نص ابن وهب بأمانة بين أيدي القراء في القسم الأول من كتابه "المحاضرة و المناظرة"، و هو نص مدار نسقه "شعر التأدب"، و هو الشعر الذي نوّه به ابن وهب و ميّزه في مقابل شعر التكسب الذي استهجنه. ينوه العمري بتمييز ابن وهب بين مقام التكسب و مقام التأدب و تهجينه مقام التكسب⁷ و هذا المقصود منح كلا الشعرين بضاعتها. و ما قاله ابن وهب عن مقام التكسب في نظر العمري هو من "أجمل حقا ما قيل عنه في العربية، لسببين: إستراتيجي نسقي، و قيمي أخلاقي. أما البعد الإستراتيجي النسقي: يتمثل في وضع شعر التكسب و شعر التأدب في مواجهة ضدية. و لقد استحضّر ابن وهب من مرجعية عصره

¹ يخالف ابن وهب معاصره قدامة بن جعفر في نظرتة للشعر، البرهان، ص: 130.

² المحاضرة و المناظرة، ص: 313

³ نفسه، ص: 313.

⁴ نفسه، ص: 324.

⁵ لم يكن ابن وهب مشرعا بل كان يدين واقعا قائما بأبشع النعوت. نفسه، ص: 321

⁶ البرهان في وجوه البيان، ص: 149

⁷ المحاضرة و المناظرة، ص: 303.

الدينية وكذا الثقافية من أقوال مأثور، و البعد الثقافي لمعنى "الأدب" و "التأديب" في التراث العربي و اليوناني، وله في الثقافتين معنى رفيع؛ وأما البعد القيمي المضاد للتأديب: يتمثل في ربط قيمة شعر التكسب بالرواج في سوق يتسع للكلام "الداعر"¹.
 بقراءة متفحصّة من العمري في نسق النص، في بدايته و نهايته يعثر على ما يجعل التكسب محتقرا في نظر ابن وهب إذ " حدد ما يعنيه بالتكسب، حين ذكر "السوق" و الكلام "الداعر"، و ترك لنا أن ندخل في التأديب كل ما ليس معروضا في السوق للبيع و الشراء"² ومن ذلك ما رسم من طريق للقارئ من حيث بدأ كلامه عن الشعر و خاصة عندما " وضع المديح في قالب فلسفي قيمي؛ جمع فيه العديد من الأغراض الفرعية"³

2. الشعر أو اللالشعر:

إن الشعر في تصور ابن وهب البلاغي المنظر يحتكم إلى بضاعة شعرية عرضها في شكل جواهر و تحف من دخلها علم " من أول نظرة، أن "بضاعة التكسب" مطرودة من سوق ابن وهب، سوق "كمال إنسانية الإنسان". فما استعاره ابن وهب من معجم يدل على أن حال نصّه من بدايته إلى نهايته هو حديث عن الشعر و بالضبط عن شعر التأديب الذي مداره معجمه الشعري: الغرابة و التخيل و الإنزياح و الإيهام، و العدول، و هو المعجم المذكور عند أئمة البلاغة و البيان⁴
 لذلك فإن تنصيبه على الطبيعية الوجدانية للشعر العربي يجعله "يباعد بين الشعر و المقامية الخطابية، من جهة، و بين الشعر و مطلق الوزن"⁵ حيث بدأ قوله بالتنصيب على طبيعته " و الشاعر من شعُر يشعر فهو شاعر، و المصدر الشعر. و لا يستحق الشاعر هذا الاسم حتى يأتي بما لا يشعر به غيره فكل من خرج من هذا الوصف فليس بشاعر، و إن أتى بكلام موزون مقفى..."⁶ " المسافة الفاصلة بين التعبير عن الشعور بما لا يشعر به الغير، و بين الاستجابة لسوق التكسب حيث تهيم إرادة الأخر، و يُنفى وجدان الشاعر"⁷

3. الشاعر الحق أو المتكسب السوقي:

إن الشاعر عند ابن وهب و من منظور العمري يتنزل في مقامين لا ثالث لهما، أما المقام الأول يتربع على عرشه الشاعر الحق و هو عنده " الذي يشعر بما لا يشعر به غيره" و ليس صفات هذا المقام و معجمه مما يقتضيه مقام شاعر التكسب و هو المقام الثاني " فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر، و إن أتى بكلام موزون مقفى"⁸ سماه شاعرا تجوزا لمظهر كلامه"⁹ نلاحظ أن ابن وهب الكاتب لا يخاطب في هذا المقام "الشاعر" باعتباره شاعرا، بل يخاطب "المتكسب" السوقي الذي يتنازل إلى درجة قبول إنشاء الكلام الداعر ليحصل على المال و الجاه"¹⁰ يأتي إطلاق ابن وهب لقب الشاعر على المتكسب تسامحا اقتضاه الشكل المحصور في الوزن و القافية. لذلك لا ينبغي التعميم.

¹ نفسه، ص: 303

² نفسه، ص: 320

³ ينظر، نفسه، ص: 320

⁴ ينظر، نفسه، ص: 327/326

⁵ نفسه، ص: 60

⁶ البرهان، ص: 130

⁷ المحاضرة و المناظرة، ص: 60

⁸ ابن وهب الكاتب، ص: 130.

⁹ المحاضرة، ص: 322.

¹⁰ نفسه، ص: 322

4. البضاعة الشعرية أو البضاعة السوقية:

1. وإن جعل معاصروه الوزن السمة المميزة للشعر فإن ابن وهب كان أقرب بتصوره من أرسطو و الفلاسفة المسلمين بالنسبة لموقفه من الوزن في الشعر إذ نجده قد وظف التمييز الأرسطي بين الشعر و النظم.¹
2. وعي ابن وهب المبكر للمقام يجعله في قول له يضرب بالمقامية الخطابية عرض الحائط " و للشاعر أن يقتصد في الوصف، أو التشبيه، أو المدح، أو الذم، و له أن يببالغ، و له أن يسرف حتى يناسب قول المُحال و يضاهيه. و ليس المستحسنُ السرفُ و الكذب و الإحالة في شيء من فنون القول إلا في الشعر"². و هذا كلام بعيد عن التقييم الخطابي و بعيد عن البلاغة المختزلة: " كلام ينتهي إلى بيئة حية متحركة لا يمكن أن يفهمه، أو يستسيغه، بلاغيون عاشوا في عصر ماتت فيه الفلسفة ، و تحولت نار الشعر إلى رماد"³
3. لم يخطر ببال ابن وهب في غرض المديح أو مقام المديح أن يشوبه بسوقية التكسب و الدليل أنه قدم تفصيلا في معناه " فيكون من المديح: المرثي، و الافتخار، و الشكر، و اللطف في المسألة، و غير ذلك مما أشبهه و قارب معناه"⁴، فابن وهب متأثر بالتأويل الفلسفي لنظرية المحاكاة أين صار المدح يضم كل صور التحسين، و ضده الهجاء الذي يضم كل صور التقبيح و بينهما جرثومة الميل إلى هذه الجهة أو تلك"⁵ و ما تقسيم ابن وهب الشعر إلى أصناف أربعة " و للشعراء فنون من الشعر كثيرة يجمعها في الأصل أصناف أربعة، و هي: المديح، و الهجاء، و الحكمة، و اللهو، ثم يتفرع عن كل صنف فنون"⁶ فمن قايس التكسب بالمدح يشكل بفكرته انزلاقا معرفيا و قيميا خطيرا.⁷
4. " و الشعر عند ابن وهب صناعة في اللغة، تفاعل بين الذات الشاعرة بما لا يشعر به الغير و بين اللغة التي يشترك فيها القوم. و ليس مجرد تلفيق لما يناسب أسواق التكسب و الكدية،"⁸ حيث قال: " و الذي يسمى به الشعر فائقا، و يكون إذا اجتمع فيه مستحسنات رائقا: صحة المقابلة، و حسن النظم، و جزالة اللفظ، و اعتدال الوزن، و إصابة التشبيه، و جودة التفصيل، و قلة التكلف، و المشاكلة في المطابقة، و أضداد هذه كلها معيبة تمجها الأسماع ، و تخرج عن وصف البيان"⁹.
5. وظيفة شعر التآدب:
- ينطلق ابن وهب في تصوره الرفيع للشعر العربي من كلمة " أدب" و " تآدب" تفسرها مقدمته في كتابه " البرهان"¹⁰ تفسيراً ينبئ عن مرجعيات متنوعة استأنس بها ابن وهب في بناء تصوره العام و النهائي "للبيان" فابتدأ حديثه باحتفاله بالعقل بشكل باهر، قسمه إلى " موهوب" و " مكسوب". "فالموهوب ما جعله الله في جبلّة خلقه" و " المكسوب ما أفاده الإنسان بالتجربة و العبر، و الأدب و النظر" فالعقل الموهوب غريزي، و هو الاستعداد الفطري للإنسان، و المكسوب هو الذي يتكون بالتآدب لقول ابن وهب " و العقل المستفاد بالأدب لا يتم إلا بالعقل الغريزي"¹¹ و شبه الأول بالبدن و الثاني بالغذاء " فكما أن البدن إذا عدم الغذاء

1 نفسه، ص:60.

2 ابن وهب، ص:146

3 المحاضرة، ص:61.

4 البرهان 135

5 مح 61

6 ابن وهب، ص:135.

7 ينظر، المحاضرة، ص:61

8 نفسه، ص:61

9 ابن وهب، ص:139.

10 ابن وهب، ص:53.

11 ابن وهب، ص:54

لم يكن له بقاء، فكذلك العقل الغريزي إذا عدم الأدب¹ يدلنا كلامه العميق النابع من الحوار الفلسفي اللساني حول المعرفة و الإدراك؛ و بين لالحواس و الملكات العقلية الكامنة، أو المتكونة عبر العصور على أن الوظيفة الحقيقية للشعر: التأديبية، التعقلية والتخليقية.

انطلاقاً من هذه الفلسفة يجيب المفكر البلاغي المغربي على وجهة نظر قوم كرهوا قول الشعر و استماعه، و كان رد ابن وهب " و إنما الشعر كلام موزون ، فما جاز في الكلام جاز فيه، و ما لم يجز في ذلك لم يجز فيه"² حجة منطقية عضدها بحجة تاريخية و دينية" و قد سمع رسول الله . صلى الله عليه و سلم . الشعر و استنشدته و أثاب عليه، و أنشد في مسجده على منبره"³. و بعد رد الشبهة و تحقيق المشروعية من خلال التمييز بين الشعراء و بين أشعارهم من الكتاب و السنة و الأثر يورد ابن وهب وظيفته في الثقافتين ففي اليونانية هو " حجة مقنعة " ، و في مرجعيتنا الدينية فهو " حكماً" لقوله: " إن من الشعر لحكماً" لينتهي إلى دوره التأديبي في قوله " حسبك من الأدب أن تروي الشاهد و المثل"⁴ و الشعر هو معرض الشواهد و الأمثال من خلال ما عرض ابن وهب من أبيات تأديبية⁵.

وعى المفكر البلاغي المغربي محمد العمري نسق المشاريع و المنجزات، و صحح الخطأ الذي وقع فيه القائمون على بلاغة الانحسار و الجمود و بهذا أعاد ما قدمه ابن وهب ونوّه به و اعتبره شعراً بشروطه، و جعل وظيفته في التأديب، أي التعقليل و التخليق. و بهذا حول العمري " قول الشعر تكسبا" إلى هامش الشعر العربي و أنقصه ليعدّ، من وجهة نظره، من أحسن ما أنتجته البلاغة العربية، و لذلك فالتنويه به و إعادته إلى مركز الاهتمام، و البناء عليه، نكسة أخلاقية ترفضها حساسية العصر الحديث كما رفضها الأوائل.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقق: حفي محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة. د.ت.
2. العمري، محمد:
- البلاغة العربية، أصولها و امتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999.
- المحاضرة و المناظرة في تأسيس البلاغة العامة، مواجهة بين زمن الجرجاني و زمن القزويني، أفريقيا، الغرب، 2017.
3. يحيواي رشيد، التبالغ و التبالية، نحو نظرية تواصلية في التراث، كنوز المعرفة، ط1، الأردن، 2014.

¹ نفسه، ص: 54

² نفسه، ص: 130

³ نفسه، ص: 130

⁴ نفسه، ص: 134

⁵ نفسه، ص: 134/135

لسانيات المدونة (المتون) وفضلها التوثيقي وعلى البحث السياقي

. فاعلية النص المترابط .

د. يوسف مقران

المركز الجامعي مرسلبي عبد الله . تيبازة - الجزائر

ملخص:

إنّ المقاربة المنشودة في العمل النصي التوثيقي هي مقارنةً ترتاح كثيراً إلى لسانيات المُتُون (Linguistique du corpus) حيث المتنّ النصّي قاعدَةٌ ارتكازها واللسانيات سيّدة الموقف من ناحية التحليل؛ وهي ما يمكن الإطلاق عليه أيضاً لسانيات المدوّنة. في الحقيقة يتعلّق الأمرُ حينها بـ "لسانيات المدوّنة النصيّة". يمكن اختصار المصطلح كلّه في لسانيات المُتُون: أولاً، للعناية المركّزة على كلمة المدوّنة التي وإن كانت تدين كثيراً لصناعة الجذاذات المقيدة للمصطلحات (Fiches terminologique) والتي عرفها العمل التوثيقي الآني (Travail documentaire ponctuel) والبحث التوثيقي الذي ينشد جمع معطيات بناءً على وثائق جديرة بالاعتماد، يُتحرى أن تكون نصيّة في الغالب: فيؤول الأمرُ بنا إلى الحديث خلال المداخلة عن ظاهرة التنصيص (Textualisation). ثانياً، لكي ينتهي بنا المطاف إلى تبادي الالتباس مع اللسانيات النصيّة التي تتخذ من النصّ هدفاً لا وسيلة، حيث يختلط فيها ما هو حاصل ومحصول وما هو من جنس الافتراض؛ في حين يتم الاستناد في لسانيات المدوّنة على الواقع النصّي ولا يجحد منه شيئاً ولو مثقال ذرّة.

كلمات المفاتيح/ لسانيات المدونة . البحث التوثيقي . النص المترابط . الجذاذات . التنصيص

Abstract

The recommended approach in the field of Langage Documentary Research is that inspired by Corpus Linguistics. This branch of Linguistics will draw its bow from what it would tend to take in charge as object of its implication, namely the texts which would be question in the field of predilection of said research. Our communication will focus on the contribution of this linguistic branch of a practical nature and the methodological requirements worthy of impregnating any maneuver targeting the reconstruction of corpora, all types combined, after having been subjected to the steps of collecting (or collecting data) , parallel classification. The foundations relating to both philology and hermeneutics, which is as much a matter of computerized databases created for linguistic research, as of textual linguistics, and especially of discourse analysis, are characteristic of the interdisciplinary nature of our discipline. This is why, during our analysis, we will call upon the concepts developed within this multidisciplinary and resulting from this well-defined interdisciplinarity.

Keywords / Corpus Linguistics – Langage Documentary Research – Hypertext – Computerized Databases - Textualisation

مقدمات

إنّ "لسانيات المدونة" مجال حديث للغاية ومثير للجدل، وعليه فإنّ مفهومها أخذ يطرح العديد من التساؤلات. وأهمّ تساؤل يهنا في هذا المقام يتمحور حول جدوى هذه اللسانيات في باب التوثيق والتنسيق اللذين يسجّلان رواجاً عالمياً كاسحا ولاسيما في ظلّ الطفرة الرقمية. ونحن نفترض في ورقتنا هذه أن قيمة هذا الفرع اللساني . أو بالأحرى وظيفته . لا تؤثّر كثيراً في الجدوى أو بطلانها نظرا لكونها تنبع من تبعية الفرع لللسانيات المشهود بفضلها عالمياً أيضا، وذلك بوصفها العلم الرائد والريان¹

¹ لقد نوّه بهذا الطموح الذي راود اللسانيات في إحدى طفراتها والذي صار حقيقة ولاسيما في الستينيات من القرن العشرين، أكثر من باحث كلّ لاعتباريّ ما، كالنقلاقي بينها وبين الأدب والنقد مثلاً، على غرار أسوالد ديكر، وتودوروف، ودومنيك منغيمو. يُنظر مثلاً: D. Maingueneau, *Éléments de Linguistique pour le texte Littéraire*, 3^e éd Dunod (revue & augmentée), Paris, 1993.

(Science pilote)؛ وبالتالي فلا شيء يمنع أن يشارك في هذا المضار ببحوثه في إثراء القضايا النظرية والمنهجية الراهنة، وكذا في حسم الإشكاليات الدائرة حول الوثيقة الرقمية وإمكانيات تطويرها في إطار تقاطع أدوارها مع كثير من أفرع هذه اللسانيات على غرار اللسانيات المعرفية واللسانيات الحاسوبية، وكذا تحليل الخطاب ولسانيات النص.

وعلى الرغم من أن لسانيات المدونة تعدّ أقرب هذه الأفرع إلى مجال التوثيق وتحديد دائرة المادة اللغوية " المعرفية العملية " التي سينكب عليها البحث السياقي المنشود، فمن المتوقع أن تكون هناك أسباب وجيهة لضرورة إعادة الاعتبار لهذا الفرع. وأهمها أنه كثيراً ما بدت زاوية لسانيات المدونة هامشيةً في أعين بعض الباحثين. أما في تقدير أوساط المشتغلين بالنصوص في خضمّ النشاط الفكري والعقلي الذي يضطلع به العلماء في مخابرتهم وما يُتَجَوَّن من الخطابات العلميّة الدقيقة، فإنّ النصوص تعرف نضجاً وتداولاً وإقبالاً على قدر تفاعلها مع ذلك النتاج الفكري الذي يوكل إليه شأن تخزينه. وكلّ لغة يُستعان بها في هذا السياق تُصبح عرضةً للتطوّر والصرامة والدقّة. وهذا التداخل بين النصوص والفكر واللغة والثقافة والواقع لم يعد مجالاً للسّجال.

أما الجدوى والنفعية فقد نبحت عنهما في موقع آخر، ونرى أن هذا الموقع هو ما يحتلّه البعد التعدّدي والبيبي الذي نتوسّمه في هذه اللسانيات التي تسهم في جمع المدونات النصّوصية (الشفاهية الكتابية) وما نلتتمسه منها وهي تعتدّ على كل من الرقمنة والشابكة كوسيط ناجع¹: لعلها تسترعي انتباه المعجميين والمترجمين والمصطلحيين والحاسوبيين والإعلاميين والتعليميين خصوصاً. وكذا القائمين على تزويد المدونات بالنصوص مختلفة الأجناس والأغراض والتداول، فيستقطب اهتمامهم ما تضعه من الإجراءات المنهجية في سياق عملها وبحثها واستكشافها، وكذلك سيكون للتغيير الحقيقي في عادات القراءة نتائج مهمة تؤثر على القطاع (النصوص المرقمنة) بأكمله وعلى طريقة تلقي اللغة بل تعلمها واستعمالها.

1 في لسانيات المدونة

1.1 ماهية " المدونة "

بدايةً من الضروري أن نقف عند تحديد ماهية المدونة عامة، ثم نشرح ما تمثّل " المدونة اللغوية " في اللسانيات خصوصاً. تدل كلمة (Corpus) المكّرسة في أغلب اللغات الغربية، على معنى " المجسّم " الذي يقوم على حدود واضحة المعالم، أو " جسد " الفرد أو الحيوان حيا كان أو جثة، وهو ما يشهد عليه تأثيلها الممتد إلى معنى " جسم " الذي تدلّ عليه لفظة (Corpus) اللاتينية، لذلك يطلق على " الأرشيف " الذي يمكن البينات بالتواجد الفعلي (المحسوس ويكفل حفاظ وثائق إدارية وتاريخية ذات قيمة إسهادية معينة، وكذلك اقترن الأرشيف بكلمة النصوص. لا ننسى أن الموضوع الاختباري الذي تهتم به اللسانيات يتكون من نصوص شفاهية كانت أو كتابية، وقد دخل هذا التعريف في موسوعة لاروس الخاصة باللغة الفرنسية في 1961 حيث تعرّفه على أنه « مجموع محدودة من البيانات الحقيقية أو الملفوظات المحيئة التي تم جمعها لغرض التحليل اللساني للغة »². وفي لغة القانون، يعبر عن « جمع الوثائق والمستندات المتعلقة بنفس القانون (المواد القانونية) »³. في هذا الصدد، توصف المدونة إذن على أنها تشكل أساساً مادياً يسخر لتحليل لغوي ووصفاً للغة مكتوبة بالإضافة إلى لغة منطوقة (تم نسخها لأغراض البحث).

¹ ثمة اختلافٌ صريحٌ بين مدلولي (الوسيلة/الأداة) و(الوسيط): الوسيلة أو الأداة = المطرقة التي من حيث الوظيفة تنطوّر بشكل بطيء ومجازي ومخالف للعادة، بينما يأخذ مصطلح (الوسيط) مفهوم التطوّر الطبيعي نظراً لعنصر الذكاء الذي يكون قد زوّد به على إثر التقاء علوم الاستعراف بعلم النّفس أولاً؛ فاللسانيات، ثم الحاسوبيات .. الخ.

² تصفح: <https://www.larousse.fr/encyclopedie>

³ ينظر: François Rastier, Enjeux épistémologiques de la linguistique de corpus, in *Actes des journées de Linguistique de Corpus* (Dir. Geoffrey Williams), Ed. : Presses Universitaires de Rennes, <http://www.revue-texto.net.abrégée> », *Semen* [En ligne], 27 | 2009, mis en ligne le 01 avril 2009, consulté le 06 janvier 2019.

URL : <http://journals.openedition.org/semen/8914>

أما كلمة (مدونة) فقد حظيت باستعمال على المستوى العربي إلى جانب كلمة (متن) بالإنفراد و(متون) جمعاً. ترجع الأولى إلى ما عرفته من استعمالٍ في حدود نسخ المخطوطات التي يتم جمعها لغرض الوصف بالدلالة ثم الوصف النحوي، وتوحي بالطابع الاصطناعي الذي يتأتى عن فعل الانتقاء الذي يضطلع به الباحث اللساني ضمن نصوص مختلفة بحسب موضوع الدراسة والبحث والفرضيات والزوايا والمنهج، في حين ترجع كلمة علم متن اللغة (Lexicographie) الذي له مصراع تطبيقي أي (Lexicographie) عرفهما التراث العربي. تحيل كلمة (المتن) إلى الرصيد المفرداتي المعجمي الذي يتم جمعه من قبل جماع اللغة. كما تمتد الكلمتان معاً إلى مفهوم الديوان الذي كرسته مقولة " الشعر دوان العرب " بوصفه يشكّل شواهد لغوية بامتياز. « وكان للغة العربية الجاهلية عونٌ كبيرٌ لهؤلاء وأولئك جميعاً لمدّهم بمعانٍ دقيقة لمُصطلحاتهم الجديدة، لأنهم عمدوا إلى استنباطها من تلك المُدونة الأدبية التريّة الجاهلية، وكثيراً ما كانت معايير مُصطلحاتهم لا تُعدو هذه المُدونة، هذا فضلاً عما كان في هذه اللغة من مُصطلحات علمية وثقافية واجتماعية جاهزة تبنّتها العربية الجديدة»¹.

بناء على ما سبق من البيانات يتم تعريف المدونة في الواقع على أنها المدونة الملموسة التي تنطبق عليها الإشكالية المعالجة والمزعم حلها. إنها دراسة نوعية تطال الوثيقة النصية بتحديد طبيعتها من حيث التصنيف والتبويب، وقد تكون دراسة من الطابع الكمي أي بتقدير الحجم وغير ذلك من المتغيرات المتعلقة بتواجدها الفيزيائي. وبفضل الزيادة في مشاريع الأجهزة الإلكترونية، ينطبق مصطلح "corpus" في الأساس على مجموع النصوص المخزن في شكل إلكتروني يمكن قراءتها آلياً ويمكن معالجتها عن طريق الكمبيوتر. تضيف بعض التعريفات أن هذه المجموعة يجب أن تكون منظمة ومكتوبة وتلي متطلبات أخرى بالنظر إلى غرضها الملموس.

عرفت كلمة (مدونة) شيوعاً واسعاً في ثلاثة حقول هي: الدين والقانون والأدب². وأسفر هذا الشروع عن مقارنة في ظل ما صار يسمى (لسانيات المدونة) هي مقارنة فيلولوجية هرمينوطيقية. في مقابل المقاربة المنطقية النحوية التي تتسم بالصرامة الشديدة لقيامها ضمن علم المنطق وعلم النحو اللذين تطغى فيهما المعيارية.

من هنا يبدو مفهوم " المدونة"، للوهلة الأولى، مفهوماً بسيطاً إلى حد ما ومثبناً في تقاليد معينة من العلوم الإنسانية والاجتماعية، على سبيل المثال، في علم القانون أو القانون، والفيلولوجيا، والأدب كما أسلفنا. ويمكن الاصطلاح على أنّ المدونة مجموع مُبتئين من نصوص أصلية، أي وثائق تمّ لُمها وإثراؤها وتصنيفها: من الناحية النظرية أخذاً في الاعتبار الخطابات التي تأتي عليها وأجناسها أي صنفاتها. ومن الناحية العملية بالنظر إلى باقية التطبيقات التي تتصل بها³.

إن المدونة ليست مجرد وعاء قائم على نصوص بل هو شبكة وتناص وروابط نصية، وإحالات ويلجأ فيه إلى الاتساق والانسجام، من هنا تقوم علاقات بين لسانيات المدونة وتحليل الخطاب ولسانيات النص. فطابعها النسقي بوصفها تتكون من مجموعة من البيانات المختارة والتي يتم جمعها للاهتمام بالأنظمة نفسها، جعل من الفكرة تصبح أكثر تعقيداً في العقود الأخيرة، اعتماداً على تنوع الممارسات والأهداف النوعية.

2.1 ميدانية لسانيات المدونة

إنّ لسانيات المدونة لسانيات ذات بعد عملي تطبيقي. لذلك فهي فرع من اللسانيات التطبيقية، بوصفها تستغل تقنيات الحاسوبيات في بحوثها وتحرياتها. وبوصفها لسانيات تتخذ من اللغة دراسة ميدانية لغرض استخراج المخطوطات التي يعتد بها في

¹ عبد الجليل مرتاض، اصطلاح المُصطلح في اللغة العربية، المُصطلح، ع.07، مخبر تحليلية إحصائية في العلوم الإنسانية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر)، مارس

2002، ص.17.

² ينظر: F. Rastier, Op. cit.,

³ ينظر: F. Rastier, Op. cit.,

تعليمية اللغة. وكذلك لها طموح ما يحدو المعجميات من جمع اللغة انطلاقاً من المتون اللغوية الحقيقية أي التي تجسّد استعمالات وقعت في ظروف محددة من قبل أشخاص معيّنين. وتُسهم في إنشاء المعجمات وتضع القواعد النحوية التي تصوغها بناء على استقراءها للوقائع اللغوية التي ترجع إليها ميدانياً أي تلك الملفوظات التي تستجمعها من مواقع استعمالها. إذن يفرض التأويل إذن نفسه كإطار نظري للسانيات المدونة التي تسعى إلى إقامة الجسور بين اللغة والمجتمع. لم تدخل لسانيات المدونة المشهد حتى الستينات من القرن الماضي¹.

لقد ارتبط اسم اللسانيات بـ (المدونة) في ظل ما غنمته المصطلحيات التابعة للسانيات التطبيقية من إمكانات الرقمنة التي أمدتها بزاد مفهومي وتقني معاً، وكان ذلك إيذاناً ببداية التطبيقات المصطلحية التي تعتمد المتون كمدونة البحث. وكما ذكرنا، فإنّ لسانيات المدونة تدين جزئياً للتكنولوجيات الرقمية المتواجدة بقوة والمتطورة والمتّصّفة بسرعة تسجيل البيانات ومعالجتها وأرشفتها. من هنا يستند إلى هذه اللسانيات دور تأطير التوثيق نظرياً ومنهجياً وتطبيقياً، وهو ما يسجّل لها قفزة مفاهيمية، كما نتبيّنه في المبحث الآتي.

2 لسانيات المدونة والتوثيق

ولمّا كانت لسانيات المدونة تهتمّ بتوثيق المصطلحات وتيسير استعمالها سواء أكان هذا التوثيق آلياً بالحاسوب أم كتابياً بنشر المعاجم المتخصصة الورقية، فإنّ الصنّيع الحكيم من أجل تكريس الهامش المفيد، هو أن توضع مثل تلك المصطلحات التي تُناقش على الهوامش موضع البحث والتحليل من قبل المصطلحيين للخلوص إلى نتائج تترأى من خلالها العوامل التي ترجع إليها المشكلات التي يعاني منها المترجمون حين تأدية عملهم الترجمي ولاسيما في مجال اللسانيات، وتتضمّن صياغة الحلول المتوقّعة على شكل مقترحات تقدّم في الأقل. للعاملين في ميادين شتى ولاسيما الترجمة على السواء.

إنّ التوثيق (Documentation) أحد حدود العمل المصطلحي بل يعتبره غي رونديو (Guy Rondeau) عصب المصطلحيات، فلا يمكن الفصل بينهما؛ فنشاط المصطلحي مسجّل أيضاً في مصراع التوثيق². وفي هذا الصدد يقول روبير ديبك: «إنّ الممارسة التي يتولاها المترجم أو المصطلحي لم تعد قائمةً حصرياً على استقصاء المعارف اللسانية، فعلى المترجم والمصطلحي أن يتمكنوا من الاعتماد، إلى حدٍ بعيدٍ، على شيءٍ يبيّن بياناً مبتدلاً كالتوثيق»³. والتوثيق يشمل التنظيمات الحرفية، علماً أنّ أصول هذه التنظيمات متغيرة⁴. «إنّ المشكلة تزداد تعقيداً إذا ما انتقلنا من منطقة إلى أخرى، إنّ ذات المفردات تحمل معاني ودلالات مختلفة تبعاً للأقاليم والبلاد. وكذلك فإنّ بعض المفردات أو المصطلحات التي اندثرت هنا لا تزال حيّة وشائعة هناك. وأحياناً فإنّنا نعطي لذات المعنى أكثر من اسم أو مصطلح، يُرجح استخدام إحداها في مكان واستخدام الآخر في مكان آخر»⁵.

¹ ينظر: Wolfgang Teubert, « La linguistique de corpus : une alternative [version abrégée] », *Semen* [En ligne], 27 | 2009, mis en ligne le 01 avril 2009, consulté le 06 janvier 2019. URL : <http://journals.openedition.org/semem/8914>

² يُنظر: Nada Kerpan, وكذلك: Guy Rondeau, Terminologie et documentation, *Meta*, vol. 25, n° 1, Ed. Les Presses de l'Université de Montréal, 1980, (p.152-170).
La documentation et les services linguistiques, *Meta*, vol. 25, n° 1, Ed. Les Presses de l'Université de Montréal, 1980, (p.07-10)

³ يُنظر: Robert Dubuc, Pour une saine gestion de la documentation en terminologie et en traduction, *Meta*, vol. 25, n° 1, Ed. Les Presses de l'Université de Montréal, 1980, (p.11-20), p.11.

⁴ يُنظر: خالد زيادة، *إركيولوجيا المصطلح الوثائقي*، الجامعة اللبنانية، طرابلس، 1986، ص.26.

⁵ يُنظر: المرجع نفسه، ص.18.

وبفضل ما تتيحه الحاسوبيات من القدرة التخزينية، أضحى العمل على النصوص ذاتها أمراً ممكناً بل مقدماً على أي نشاطٍ يأمل جمع اللغة، إلى درجة أنه قد يحل محل المعجمات الورقية، وهو ذو أهمية في سبيل إنشاء معجم سياقي¹. ولكن بشرط أن يسبق ذلك التحليل اللساني والمعجمي للمعطيات المراد تناولها ثم تخزينها².

« إن الممارسة التي يتولاها المترجم أو المصطلحي لم تعد قائمة حصرياً على استقصاء المعارف اللسانية، فعلى المترجم والمصطلحي أن يتمكنوا من الاعتماد، إلى حدٍ بعيدٍ، على شيءٍ يبين بياناً مبتدلاً كالتوثيق³». وعندما يتحدث بيار لوراه عن المظاهر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للمصطلح يطرحها من جانب دوره كحامل المعرفة وناقل الثقافة ومحول لهذه وتلك من ثقافات وحضارات إلى أخرى⁴. لكن بعد إمعان النظر في هذه النقطة، يجد أن إيلاء هذه الناحية اهتماماً يستتبع البحث فيما يساعد ذلك المصطلح في أن يتولى ذلك الدور الحضاري، فيجده في التحرير الفني⁵.

3 استكشاف المدونة وتصورها

انطلاقاً من التصورين المستعرضين سابقاً، يتم استكشاف المدونة عادةً على أساس عملية التقابل المنهجي بين ضربين من المقاربات، أولاً: من جهة ما يُدعى المقاربة الحوصلية التراكمية (« Approche « résultative et cumulative »)، ثانياً: من قبيل ما يمكن تناوله باعتباره يمثل المقاربة الاستشرافية البرمجية (« Approche « prospective et programmatique »). ذلك أن المقاربة الثانية مبنية على نتائج الأولى، وحسب ما تقتضيه البداهة من ضرورة تقديم رصد الواقع ومعاينته وتحليله على كل توقع سيقدر مدى تحصيله لاحقاً⁶.

1.3 ضرورة بناء الموضوع

1.1.3 جمع المعطيات بمقتضى التصور

إن موضوع التحليل الذي يخوض فيه اللساني لا يتواجد منذ الوهلة الأولى، ما يضطره إلى بناء موضوعه أولاً عوض الانشغال على معطيات يُتصور أنها متوفرة سلفاً، وهذه معضلة كل العلوم التي تشتغل على اللغة، كما هو شأن البحث التوثيقي. وإذا توقرت تلك المعطيات (المزعومة) فهو توقّر افتراضي. ما يوجد في مدونة اللغة (غير المتناهية). ويجب عليه أن يتخذ عينته منها، لأنه من المستحيل ضبط ما هو في حالة نشاطٍ وغير متناهٍ مهما يشفع لذلك مبدأ القياس الذي اشتهر في مجال الدراسات اللغوية⁷. وبين العينته والواقع اللغوي بؤن ذو حجمٍ مهمٍ تقديره لقياس صعوبة المهمة المنوطة على عاتق ذلك اللساني. ثم إنه لم يكن لدى الدرس اللساني مدونة مغلقة، بل كان دائماً ترافقه آراء وإشارات إلى ضرورة تناول موضوعات أخرى مُجانبية وعلى التماس مع اللسانيات. وذلك من جهة، نظراً للصلة بين اللغة وأنماط الإشارة الأخرى (الأزياء، الآداب، السلوك).

¹ يُنظر: Daniel Gouadec, Dictionnaires terminologiques : l'impact des nouvelles technologies, *Meta*, vol. 42, n° 1, Ed. Les Presses de l'Université de Montréal, 1997, (p.24-32), p.30.

² يُنظر: J.-P. Benzécri, *Pratique de l'Analyse des Données : linguistique et lexicologie*, Ed. DUNOD, Paris, 1981.

³ يُنظر: Robert Dubuc, Pour une saine gestion de la documentation en terminologie et en traduction, *Meta*, vol. 25, n° 1, Ed. Les Presses de l'Université de Montréal, 1980, (p.11-20), p.11.

⁴ يُنظر: Pierre Lerat, Intégrer la terminologie à la rédaction technique, in *Terminologie et enseignement des langues* (Actes du colloque international organisé par l'Association Européenne des linguistes et des Professeurs de Langues, les 13 janvier et 1^{er} février 1991 à Cergy-Pontoise, au Conseil Général du Val-d'Oise), Ed. La TILV, coll. Paroles & Actes, Paris, 1991, (p.55-57), p.55.

⁵ يُنظر: Rostislav Kocourek, Textes et termes, *Meta*, vol.36, n°1 (La terminologie dans le monde : orientations et recherches), Département de linguistique et de traduction, Université de Montréal, Ed. Les Presses de l'Université de Montréal, Québec, mars 1991, (p.71-76), p.72-74.

⁶ ينظر مفهوم المقاربتين: Franck Naveu, Pour une description terminographique des sciences du langage, in *Aspects de la recherche en langues de spécialité* (ed. John Humbley), Cahier du CIEL, Université Paris VII, UFR EILA, 2007-2008, (p.87-104).

⁷ ينظر: Jean-Philippe Dalbera, Le corpus entre données, analyse et théorie, *Revue Corpus*, n°1, Nov. 2002.

إزاء مفارقة عدم تناهي موضوع اللسانيات لا يُستساغ التغاضي عن ارتباط ذلك الموضوع بالمشاهدة مباشرة؛ ولا إبقاء هذا الأمر على حياده وعلى هامش المسؤولية في مسألة القضايا المصطلحية المترتبة عن ظاهرة اعتماد النص المترابط. وهو هو بمثابة تكوين ما يسميه سيلفان أورو (Sylvain Auroux) بـ (المرصد) (Observatoire)¹. ويطال بناء الموضوع المجالات كلها، وذلك على غرار مدونة الخطاب العلمي الذي ينتقى من مدونات نصية ليس من السهل تحقيق عنصر التجانس للوهلة الأولى، وتتدخل حينئذ النمذجة التي تستجيب لشرط الشكلنة (Problématisation). أي طر الإشكاليات الخاصة والدقيقة بحسب الحاجة والضرورة².

2.3 شهادة المدونة على المفاهيم الموجدية

من ناحية اعتبار اللغة مدونة نعلم الآن أن الشيء الوحيد الذي يقع تحت المشاهدة هو النصوص، مكتوبةً كانت أم شفاهية. لهذا أصبحت لسانيات المدونة في حاجة ملحة إلى تصوّر أنساقٍ قواعديةٍ نحويةٍ أو شبكاتٍ معجميةٍ معرّفةٍ نسبياً، وهي جديدة بأن تنبئ عن عدم تناهي النصوص التي يمكن إنتاجها. وكذلك ينبغي استحضار حقيقة مؤداها أن الدلالات كأنماطٍ طرازيةٍ لها وجود قائم وتقع تحت تأثير الاستعمال اللغوي، ما يجعلها تتأرجح بين كيانها القائم والإيحاءات اللغوية، ولكن هذه الأخيرة لا تمنعها من أن تتطور بتغيّر المفاهيم الموجدية (Concepts ontologique). وهذا يتطلب. علاوةً على البينة اللغوية الخالصة. قدرة تخيلية تصويرية أخرى أكثر تعقيداً تقع في حدودٍ بين كيفية عمل اللغات وتحدي العالم الخارجي (الواقعي) الملموس حيث يعيش الناس بتصوراتهم الخاصة ونظراتهم إلى العالم المتفاوتة: وهذه القدرة التخيلية التصويرية هو حقل الإدراك الحسي والتجريدي. وتشارك كل الدراسات التي تتم على المستوي التصوري في تصديها لهم بناء تمثيلات جوهريّة، وأساسية، من حيث تتفرّع التعقيدات التي تعبّر عنها اللغات الطبيعية. من هنا أخذ برنار بوتيه يقيم تميزات بين البيانات والمصطلحات الواصفة و السيمات (Sèmes)³. فإذا اعتبرنا نظرية أفعال الكلام التي تُميّز اللغة بواسطة الأحداث التي تعقب الملفوظات وتحللها إلى أفعال إنجازية (إنشائية) وأخرى تقريرية (إخبارية). وتفرّعها إلى ثلاثة أقسام لا يتسع المقام لعرضها هنا⁴. وذلك باعتبار اللغة أجل من أن تُحصّر في شأن التعبير والإخبار مهما قيل من أنها وضع أو نظامٌ يؤديّ الوظيفتين بكلّ أمانة ومرونة؛ فقد بشر بها جون أوستين (John Langshaw Austin) في إطار انشغالاته الفلسفية اللغوية، وعمل على بلورتها آخرون في ظلّ المدّ اللساني انطلاقاً من إميل بنفنيست وأوسوالد ديكر، ولا تزال فئة من الدارسين يسعون إلى تأصيلها في الدرس البلاغي. كما أنّها نظرية لا تزال تصنع شبكةً من العلاقات التي تكشف عن إمكانية ضبط ما تنجم عنه تلك الدلالات المنجزة للأفعال. لذلك تستدعي هذه النظرية مقام الحال الذي يُعزّز المقاطع اللغوية ويحصّلها. فمهما نُجّر قولبة الظواهر اللغوية في نظريات يُزعم أنّها لسانية فلا يستغني المرء عن البحث في الجانب التسموي الذي ينهض بها داخل اللسانيات. الطريف في الأمر هو أن يُوحّد استعمال هذا المصطلح في العربية (أفعال الكلام) وهو أقرب إلى ما تقول به هذه النظرية ولا يزال يقال بالفرنسية: (Actes de langage) و (Actes de parole) على سبيل التنوع الترادفي. وتصبّ بعض التطوّرات التي عرفتها اللسانيات في نوعٍ من القراءة الجديدة للعلامة، وللدليل اللغوي على الخصوص، فهذه نظرية التلقظ⁵ مثلاً ظلّت تحتلّ المكانة المرموقة التي استقتها أول الأمر من جدّة الموضوع الذي أقام شارل

¹ ينظر: Sylvain Auroux, *La raison, le langage et les normes*, Ed. PUF, Paris, 1998, p.166-169.

² يُنظر: Martine Jaubert, *Langage et construction de connaissances à l'école: un exemple en sciences*, Presses Universitaires de Bordeaux (Etudes sur l'éducation), Bordeaux (France), 2007, p.183-185.

³ ينظر: B. Potier, *Activités mentales et structures linguistiques*, AL-LISANIYYAT, n° 11, CRSTDLA, Alger, 2006, (p.15-38), p.17.

⁴ ينظر: J. L. Austin, *Quand Dire, c'est faire* (How do things with words), Trad. de l'Anglais par Gilles Lane ; Postface de François Récanati, Ed. Seuil, Paris, 1970.

⁵ ترجمة للمصطلح الفرنسي (Enonciation) الذي أشار إليه اللساني السويسري شارل بالي في كتابه: (اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية) Linguistique générale et linguistique française الذي ظهر في 1932.

بالي عليه نظريته الجديدة في عالم اللسانيات التي انطلقت من دي سوسير حيث لم يخرج عن معالجة اللغة من الناحية الأنية¹ لكن من دون أن ينسى أن يضيف تصوّره للتلقظ (والملفوظ) الذي أقامه أساساً على الدليل اللغوي وعلى مدرج الكلام وتركيبه. ويندرج الدليل اللغوي تحت الثنائيات التقابلية السوسيرية التي فرضها همّ التنظير واستجابةً للمسلك المنهجي الذي انتهجه دي سوسير نفسه، وذلك باعتبار قسيميه: الدال والمدلول. وتكاد تكون نظريته هي التي أقامت معالم لسانيات دي سوسير. كما يُعول عليه في الدراسات التقديّة المعتمدة على التحليل اللساني، فتفجّر طاقاته التعبيرية التي تستوي على عدة مستويات بما فيها المحور الاستيدالي والمحور التركيبي. وكذلك يرتبط بالقيمة اللغوية. غير أنّ الدراسات اللسانية العربية وهي التي حفلت به عن طريق الترجمة تاهت في تضارباتٍ وذلك بحكم العشوائية التي وقعت فيها أثناء اختيار المصطلحات المناسبة للتعبير عن المفاهيم المقصودة وكذا التردّد بين اعتماد التراث أو تجاوزه في تناولها، فحدث نوعٌ من التوفيق الشبيه بالتلفيق، خاصّة عند الذين لم يأتوا إليها من باب الدراسة. كما أسفر ذلك عن ارتباكٍ موح. فالدليل اللغوي جوهر المسألة اللغوية، سادت هذه الحقيقة منذ القدم، إذ يُعدّ مفهومه حجر أساس كلِّ مجال معرفي يُعنى باللُّغة، ولاسيما اللسانيات التي جعلت منه نظريّة خاصّةً وهاهي المصطلحيات ترجع إليه من الباب الذي يهتّمها. ولتطبيقات العلم باعتباره قد اكتمل دورٌ في مراجعة بعض جوانب موضوعه كما أسلفنا. ويُعتبر ذلك من قبيل استفادة ذلك العلم ممّا يُتاح له أثناء تطبيقه من إدراك أبعادٍ كانت لا تزال في حكم الغيب. فحينما طبّق بنيامين لي وورف (Benjamin Lee Whorf) اللسانيات على الأنثروبولوجيا² في فترة مبكرة فتحت أبواب الحديث عن الموضوع المشترك بينهما وصار يتحدث عن مقتضيات علمية من وجهة نظر إبستيمولوجية وبموجب اقتناعه بعلمية الدرس اللساني ووصفيته على الرغم من التخمينات التي سمح لنفسه للإدلاء بها كمدى تأثر اللغة بطريقة التفكير³.

3.3 وجهة المدونة النصية

إن نقص العناية بالمعطيات والبيانات والمعلومات. بل المعرفة. من خلال مُدوناتٍ نصية، والاعتماد فقط على عزل المصطلح. الذي يؤدي المفهوم المرتبط بتلك المعرفة. عن السياقات الحقيقية التي يكون قد ورد في إحداها قد لا يُتيح فرص النظر الشاملة والدقيقة وبعيد عن التحليل البناء والمعالجة السليمة للبيانات.

وإذا رجعنا إلى موضوع النصّ الذي استجدّ على اللسانيات، نلفي معظم ما طرّقه اللسانيون من الظواهر ودرّسوه من المفاهيم على مستوى الجميلة كوحدة لغوية قائمة⁴ لا يتنافى في جوهره مع ما يُعاد تناوله على مستوى النصّ كوحدة للعلم الذي ينبغي أن يتناولها بالدراسة (لسانيات النصّ)، وذلك على غرار: *العائد، والضمائر، والوظائف والمحلّ*، لكن تحت تسمياتٍ جديدة كأنّ الموضوع امتدّ فلا بدّ أن تتمدّد التسميات بالموازاة: فما كان يُدعى (Antécédent) في *لسانيات الجملة*⁵ عاد إلى الواجهة في عداد مصطلحيّة *لسانيات النصّ* فأعيد توظيفه كمفهوم (مسائر / مغاير) تحت تسمية⁶ (Anaphore) *الإحالة القبليّة والبعديّة*⁷. وكذلك

¹ مصطلح الأنية من المصطلحات البنوية الرئيسية، وهي علامة فارقة تخرج بها من دائرة اللسانيات التاريخية، وتميزها منها. كما أنه علامة فارقة على تحول الفكر الذي ساد في غضون القرن التاسع عشر وانتقاله من الاحتكام إلى الماضي، إلى الحاضر

² تتداخل الترجمات في العربية بين المصطلحات المقابلة لـ (Anthropologie) وتلك المقابلة لـ (Ethnologie): لهذا تفادينا الترجمة بالمقابل الأصيل كأن يقال علم الأجناس، ولا تعلم لأيّ منهما، وكذا علم الأعراق البشرية وعلم الإنسان وعلم الإناسة، الإثنية.

³ Benjamin Lee Whorf, Linguistique et anthropologie, Trad Claude Carre, Ed. Denoël, Paris, 1969.

⁴ وإن كان المثال الذي أوردها هنا أي *العائد* يوضّح نسبة هذه الحقيقة، ربّما هذا ما سوّغ الانتقال إلى مجال آخر (لسانيات النصّ) لدراسة ظواهر منفصلة من عقال لسانيات الجملة.

⁵ مع العلم أنّ اللسانيات ظلّت فترة طويلة مُحتفظاً على مقامها كورثة علم النحو، ولاسيما فيما يخصّ المصطلحات النحوية التي تبتّها مع تعديلات على مستوى المفهوم.

⁶ دومينيك ماتقونو، المصطلحات المفتاح لتحويل الخطاب، ترجمة محمّد يحياتن، الجزائر: 2005، منشورات الاختلاف.

⁷ استوحينا هذه الترجمة من عبد القادر الفاسي الفهري وهو يتحدث عن الصفة القبليّة والبعديّة؛ يُنظر: نادية العميري، تركيب الصفات في اللغة العربية: دراسة مقارنة جديدة، الدار البيضاء: 2008، دار توبقال للنشر. حيث تقول الباحثة: «يعود استعمال مصطلحيّ البعديّة والقبليّة إلى أعمال الفاسي الفهري (1997، 2000). فهو أول من استعمل مصطلح البعديّة للإشارة إلى الصفة التابعة للموصوف، والقبليّة للإشارة إلى الصفة في موقع قبل الموصوف» ص 16.

الشأن بالنسبة لـ *الاتساق* (Cohésion) الذي تُسهّم أدوات العطف في تحقيقه كما *الروابط* (Connecteurs) التي تُسخر في لسانيات النص¹. وكذا *الانسجام* (Cohérence) الذي كان البلاغيون يستدعونه من أجل تفسير خروج الأساليب من حقيقتها إلى المجاز. ثم إن تعريف مفهوم (الخطاب) ومفهوم (النص) يتفاوت حسب تفاوت الغرض من دراستهما². ولكن فكرة الجدة هذه تظلّ ماثراً خلاف بين الدارسين. فأن تذهب الباحثة روسيتزا كمانج إلى استقصاء مفهوم النص وتبحثه في حدود عالم لساني عريق من أمثال لويس يلمسلف وتُسند إليه، فهذا يدلّ على عراقية موضوع النصّ في اللسانيات، بل هو من صميم البحث اللساني³. ولك ما يُثبته فرانسوا راستي حيث يقول أنه إذا كان المورفيم هو الوحدة الأساسية للسانيات فإنّ النصّ هو الوحدة الصغرى. وبين الوحدة الأساسية والوحدة الصغرى لا يوجد تناقض إن لم نقل بل يوجد تكامل. وهذه ليست دعوة منّا إلى إلحاق كلّ الأنساق الدالة ممّا (جاء) بعد الجملة بنموذج الجملة التعبيري بوصفها النواة أو القضيّة بالمفهوم الفلسفي والمنطقي. هذا الحرج بالذات ما أدّى بالمشتغلين على النص ولو من باب الدرس اللساني. إذن في حدود لسانيات النصّ. يعمدون إلى توليد مصطلحات مغايرة على الرغم من توقّر نصيب من المفهوم الذي يتعلّق الأمر به في لسانيات الجملة. يقول فان دايك في هذا الموضوع: « وفي علم اللّغة الحديث تصاغ أبنية المنطوقات اللّغوية على مستويات أشدّ تبايناً وكذلك على أساس أنظمة رياضية ومنطقية في الغالب فعلى سبيل المثال/ سيعاد تقديم أبنية دلالية في لغة منطق المحمولات أو منطق الجهات. وتمتاز هذه الإعادة بأنّها واضحة في الأساس وغير مهمة. وتمتاز تلك اللّغة المنطقية بأنّها ذات تفسيرٍ دقيق (علم الدلالة المنطقي)، ولكن ما يعيب ذلك أيضاً هو أنّ عدداً من الأبنية المهمة لغوياً لا يمكن أن تنقل ببساطة إلى لغة منطقية، وهذه الطريقة خاصة يمكن أن يتحقّق اقتراب من اللّغة الطبيعية⁴. إنّ النفور عن التماهي بهذا الشكل الذي أخذ يطغى على اللسانيين والانهماك دائماً على البحث عن بدائل مصطلحية أمرٌ غريب. ويكاد يكون علامة ضعفٍ فيهم. إذا ما قورن بما هو سائدٌ في فروعٍ أخرى كالرياضيات التي على الرغم من تفرعاتها المتنوّعة فهي كثيراً ما تظلّ محتفظةً برصيدها التراثي، حيث يتمّ الاحتفاظٌ مثلاً بمصطلح (Fonction)، ثمّ يُستعمل مركّباً مع غيره من الألفاظ على غرار (Fonction alomorphe) و (Fonction multivaluée). وما دامت هذه حيلة توقّرها اللّغة فلماذا يقع التهاون في تسخيرها؟ بيد أنّ التغيير قد يكون ضرورياً وصالحاً في بعض الحالات، وذلك عندما يُلاحظ أنّ أيّ مصطلح أصبح يُتناول في غير ما محلّه؛ وهو ما حدث لمصطلح (Contexte) الذي لم يعد يختلف عن مصطلح (Situation)، إذ صار يُطلق على مفهوم (الموقف) أو (المقام)؛ وهو ما يحيط أيّ خطابٍ من العناصر التي يُحصّل فيها كالزمان والمكان والمتخاطبين أنفسهم (وما يحيل إليه من المراجع أحياناً)، وكذلك يُدعى في العربية سياق الحال. فلم يعد مصطلح (Contexte) يدلّ على العناصر اللّغوية التي تقترب بها أيّ وحدة لغوية. بل قد تُعرّف بها⁵: فوضع، جراء هذا التخليط، مصطلح (Cotexte) للدلالة على (السياق اللّغوي) فحسب وظلّ مصطلح (Contexte) ينوب عن كلّ الأنواع الأخرى من السياق⁶.

4 فاعلية النص المترابط

1.4 الفاعلية ودينامية الخطاب

¹ Georges Kleiber, Anaphores et pronoms, Ed. Duculot, Louvain-la-Neuve, 1994, Ch. 3.

² Jean-Paul Bronckart, Activité langagière, textes et discours : pour un interactionnisme socio-discursif, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchâtel et Paris, 1997.

³ R. Kyheng, Hjelslev et le concept de *texte* en linguistique, In *Texte* [en ligne], septembre 2005, vol. X, n°3. Disponible sur : http://www.revetexto.net/Inedits/Kyheng/Kyheng_Hjelslev.html

⁴ تون فان دايك، علم النصّ: مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد البحري، القاهرة: 2001، دار القاهرة للكتاب، ص 454.

⁵ يُعرّف القونيم في بيئة المقطع أو المورفيم (أو المونيم)، ويعرّف هذا الأخير في سياق الجملة، فهكذا دواليك.

⁶ يُنظر هذا التعليل لوجود مصطلح *Cotexte*: Marie-Noëlle Gary-Prieur, Les termes clés de la linguistique, Ed. Seuil, Paris, 1999, p.19.

نظراً لمطاطية مصطلح (الخطاب)، فإنّ المفهوم الذي نرتضيه له في هذا السياق من باب الافتراح المبني على الاختبار؛ هو ما نرى من خلاله أنّه " خطاب التعريف بالمسائل المتعلقة بموضوعه عن طريق وصفها وتصنيفها وتفسيرها وتعليلها. فينطبع حينئذ بنظام تمثيل وتواصل متغاير بحسب تغاير الثقافات التي يتولّد ويتجلّى في دوائرها. وهو خطاب حجاجي واسترجاعي [إدماجي [واستشراقي؛ لذلك يسوده التناسخ والتناقض بامتياز وبما يشهده من تواتر للمصطلح المترابط؛ وما يشمل عليه متنه وهامشه من متناقضات في أسلوبه تتراوح بين التكتيف والحجاج والاسترسال في آن. وهو خطاب تعليلي تأويلي إحصالي، يتنوع بتبدل زاويا النظر التي ينفذ من خلالها إلى قضاياها. وغرضه التوعوية وتبليغ المعرفة اللسانية إلى مؤلّفين متنوعين، وتبسيطها وتعميمها. دون ابتذال ولا اختزال ولا إخلال¹. لهذا فهو. في خاتمة المطاف. ذو نزعة ثلاثية الأبعاد: 1. تعليمية (أكاديمية)، 2. معيارية تقييمية، 3. توجيهية تقييمية [وهذا ليس شأن اللسانيات طبعا²] ". ولما كانت أرصدة العلوم عاجزة عن النهوض تماما على مدوّنات معرفيّة متينة، صار تحليل الخطاب الذي تنقل تلك المعرفة أمراً محتوماً بالفعل. من هنا فقد اهتم الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو (Michel Foucault) بأداء هذه المهمة بجدارة وعناية تامة.

إن الخطاب مهما يكن من شأنه أن يفعل كل مميزات المدونة القائمة على تشغيل النص المترابط. ذلك أن المدوّنة مكوّنة من مصطلحات تقترن بنسقي من تعريفات منتظمة داخل فرعٍ من أفرع المعرفة. وأكثر من ذلك يقوم الخطاب ضمن بنية تابعة على تعريف مصطلحات العلم المعني. أو المجال. بعقد علاقاتٍ بينها: لذلك تخترقها جملة من المعالجات المصطلحية التي تُسهم في تكوين مجالات تعريفية محدّدة يتداولها كلٌّ من يشرع في إعادة نسج ذلك الخطاب على المنوال الذي يختاره كباقي له درجة علمية معيّنة أو كمؤلف يملك لقباً علمياً أو (اسماً تجارياً). ولما كان تحري خصائص الخطاب التعريفي جزءاً من العمل المصطلحي لكون ذلك التعريف يتعلّق بالمصطلح ومفهومه. ولأنّه يساعد على تقنين الخطاب العلمي والمتخصّص (والجامعي)، ويعدّ سبيلاً إلى تنميته³. أضحي من الصعب على المصطلحي أن يتعامى عن ملاحظة ما يجري في الخطاب اللساني من آيات التعريف وآليات التصنيف. فهذه دانيال كوندل (Danielle Candel) ترى أنّ الخطاب التعريفي هو عبارة عن كشّافٍ للنشاط التعريفي وعن تفكيرٍ حول الكلمات، وذلك حينما تقول: «يتشكّل ما يُسمّى بالخطاب التعريفي و" المفيد للمعلومات "*" من مجموع الملفوظات التي تكشف عن نشاط تعريفيّ أو، بصورة عامّة، عن تفكيرٍ حول الكلمات، من شأنه أن يساعد على استيعاب المعنى بطريقة أحسن»⁴. ولذا نتساءل: لماذا يشتغل ذلك النشاط التعريفي كثيراً في الخطاب اللساني على الخصوص؟ ثم، ألا يدلّ ذلك على أزمة معيّنة؟ ويتحكّم في هذا النشاط قلق تكوين المادة اللغوية المقصودة.

من هنا فلا نستغرب أن نلفي شيوخ تأليف المعجمات الموسوعية في مجال اللسانيات مثلاً. على غرار القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان⁵. حيث التصرف في ترتيب المصطلحات المدخل وتكثيف التعريفات بشكلٍ يثير الانتباه إلى كثرة الاقتباس

¹ يبقى أن هذا الحد. أي التبسيط والتعميم. من صرف ما يطمح إليه؛ ذلك أن قسماً كبيراً من الخطاب اللساني لا يزال يكتنفه غموض وتعقيد أبعداه عن هم التبسيط العلمي (Vulgarisation scientifique). وهو ما أثار تسلسل أسباب هذا البحث في حد ذاته، والذي يبدي ما يحتم من أنواع الجدل في شأن فائدته أو عدمه.

² وذلك على الرغم من نسبة اللسانيات عند بعض الباحثين إلى الأطر الجامعية تبعاً لشهادة مبارك حنون. في الهامش رقم 42. حول الوضعية اللسانية في المغرب التي استشهدنا بها سابقاً والتي يمكن مناقشتها بالقول إن ما ينسب إلى الحرم الجامعي أكثر هو الخطاب اللساني الذي هو بمثابة "أوجه مختلفة لتلقي اللسانيات" وذلك بوصف الخطاب اللساني إما أنه علمي أو إعلامي أو تعليمي كما سيأتي.

³ Abdelmadjid Ali Bouacha, Le discours universitaire : la rhétorique et ses pouvoirs, Peter Lang, Berne, 1984.

* ترجمة حرفية (للمعنى) لمصطلح: Informatif لعدم توقّر، في المعاجم العربية المتخصصة (المصطلحية)، مقال يؤدّي المفهوم الوارد أعلاه بين قوسين (اقترح شخصيّ أي).

⁴ Danielle Candel, Le discours définitoire : variations discursive chez les scientifiques, in Parcours linguistique de discours spécialisés, BU de Grenoble, 1993,

p.34.

⁵ يُنظر مثلاً: Oswald Ducrot & Tzvetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Ed. Seuil, Paris, 1972. أو زوالد ديكر و جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، ط. 2. (منقّحة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2007.

من أقوال اللسانيين والإحالات إلى مؤلفاتهم في مجال اللسانيات. ما يدعو إلى اعتبار تلك المعجمات توليفاً لما يُدلي به كلُّ لسانيٍّ من زاويته وبالتالي لا نستغرب كذلك أن تُتعهد تلك المعجمات بالدراسة والنقد من قبل المصطلحيين بالدرجة الأولى ثم من طرف اللسانيين أو المعجميين بعد ذلك. وكذلك ورد مصطلح خطاب التعريف لدى طالب بن عثمان فيقول: «خطاب التعريب بناء دلالي للمفهوم الخاص، مبين لخصائص المرجع ومحدد لموقع المصطلح في النظام المصطلحي»¹. ومعناه أن هذا الخطاب ينبغي أن يستجيب لثلاثة مطالب، أولها أن يذكر الخصائص أو السمات الدلالية التي إن حضرت مجتمعة حضر المصطلح، والعكس صحيح. وهذا تصور يعتمد على ما يسمى التحليل بالمقومات، خلا أنه معتمد هنا لضبط المفهوم الخاص، لا لضبط معاني المفردات ضبطاً معجمياً. المطلب الثاني هو أن يبين خطاب التعريف خصائص المرجع. والثالث أن يحدد موقع المصطلح في المنظومة المصطلحية، أي علاقته مع المصطلحات التي تجاوره وتتعاون معه لتحديد حقل معرفي بعينه، أو اتجاه معلوم داخل هذا الحقل.

1.1.4 رعاية النص المترابط للسياق

من المعروف أن أحد الفروق الكائنة بين اللّغة العامّة واللّغة المتخصّصة يكمن في خصوصيّة سياق الاستعمال الذي يميّز هذه الأخيرة. وبالتالي فإنّ القضيّة الحاسمة هي قضيّة الزوايا التي يُنظر من خلالها إلى أيّ موضوع وبالتالي إلى فريدة استخدام المصطلح الذي يُعين ذلك الموضوع بالتواضع المتواتر². ومن هنا شاء بعض اللسانيين أن يستثمروا إمكانية تغيير المنظور في مسعاهم الاستشراقي هذه المرة وانطلاقاً من تجدد أحوال اللّغة بتغيّر أحوال مستعملها³.

لكن لا يمكن إتمام هذه المهمة إلا بالوفاء دائماً بالمبادئ الأربعة المعروفة في مجتمع اللسانيين الغيورين على علمهم. وهي كما يحددها فرانك نيفو (Franck Neveu). الشفافية والملاءمة والاتساق والاقتصاد⁴. لكن، وعلى الرغم من صمود هذه المبادئ فهناك من لا يتردد في إثبات وجود تناقضات كثيرة في اللسانيات يسبب كثرة التداول على تغيير زوايا الدراسة. وهو ما نبّه إليه جاك موشلر (Jacques Moeschler) حينما أقبل على دراسة موضوع الزمن في اللّغة: فهمّ بنقل الموضوع من الزاوية النحويّة إلى الزاوية التداوليّة. لكن قبل ذلك، أفاض فيما ألقى في روعه من تخوّف الوقوع في المفارقات اللّسانيّة بل في تناقضاتها الفادحة الناجمة عن ذلك التغيير ذاته⁵. وفضلاً عن ذلك، يجب التذكير دائماً أنّ المنظور. أو زاوية المشاهدة. مصطلح كثير التداول حالياً في الأعمال المتعلّقة بالذكاء الاصطناعي وهو حقلٌ استشراقيٌّ بحث. وبين هذا الأخير والمصطلحيات أواصر قرابة ملحّة، لهذا أصبح المصطلح كثير الورود أيضاً في مجال المصطلحيات⁶. بل إنّ الذكاء الاصطناعي قد نشأ في أحضان اللّسانيات وتطوّر بفضل امتداداته إلى غيرها من الفروع العلميّة المتنوّعة⁷.

¹ طالب بن عثمان، علم المصطلح بين المعجمية وعلم الدلالة: الإشكالات النظرية والمنهجية، ضمن تأسيس القضية الاصطلاحية (تأليف مجموعة من الباحثين)، بيت الحكمة، تونس، 1989، ص 93.

² Anne Condamines et Josette Rebeyrolle, Point de vue en langue spécialisée, Meta, vol. 42, p.176.

³ من هنا جاء استقطاب المصطلحيات الاجتماعية لمفهوم السياق، يُنظر: Yves Gambier, Travail et vocabulaire spécialisés : prolégomènes à une socio-terminologie, Meta, vol.36, n°1, (p.08-15), p.08.

⁴ لمزيد من المعلومات حول هذه المبادئ، يُنظر: F. Neveu, Les problèmes traductionnels des dictionnaires terminologiques en sciences humaines : le cas des dictionnaires de linguistique, in Réflexions autour de dictionnaires bilingues et multilingues, Deuxième séance du séminaire 18 décembre 2008, La Maison de la Recherche en Sciences Humaines – MRSH – de l'Université de Caen.

⁵ J. Moeschler, Le temps dans la langue : de la grammaire à la pragmatique, Revue Langues, n° 1, Ed. John Libbey, sept. 1998, p.14-23.

⁶ A. Condamines et J. Rebeyrolle, Point de vue en langue spécialisée, p.174-176.

⁷ B. Portier, Linguistique et intelligence artificielle, Langages, n° 87.

2.4 الخطاب التعليلي والنجوع الارتباطي

ونقصد هنا بالتعليل التعليل اللغوي (التأيلي / الصرفي / الاشتقائي / المعجمي / الدلالي / التركيبي / الصوتي) بمفهوم (Motivation linguistique) المناقش لعلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول، والقائل بدلها بتشابكهما واقتراهما باسم ما ينقش في الكلم من آيات وجود كل منهما غير المنعزل عن الآخر وليس فقط في علاقة تلازم (سوسير) أو بعلاقة الضرورة (إميل بنفتيست). ويمكن للتعليل أن يعني أيضا التبرير أو الاحتجاج لعلاقته بهما وذلك في إطار جملة القرائن التي يتم استجلاؤها واستجماعها لتمكين التأويل على أقرب وجوهه الصحيحة.

وقد ساد التعليل في الخطابات المختلفة المحصّلة في حقول شتى. عموما، وبلغات معينة على الخصوص، نظرا للشروح المعجمية والمصطلحية والموسوعية الطاغية عليه، من باب قيد مصطلحه وتبسيط مفهومه وفك ألغازه في المتن وعلى الهامش. وكذلك هو المنزع الذي لم يبرح خطابات المنبثقة عن مختلف العلوم والقطاعات المعرفية المتنوعة الاختصاصات. ناهيك عن لسانيات المدونة التي هي من صميم البحث السياقي الأوج إلى التعليل والتبرير اللغويين. ذلك أن العلماء. أيا يكن اختصاصهم، على الرغم من العفوية التي قد تبدو في ميل بعضهم إلى التسمية البسيطة المفتونة باللغة العادية فهم يتحرّون التعليل الذي يجدونه في هذه الأخيرة ولا يمكن تصوّر إتقانهم لإجراء التعليل هذا من غير أيّ إطلاعٍ على الأسرار اللغوية ومن دون تحكّمهم في المنطق الذي يُسايّره. بل لهذا يفلح التوليد التأهيلي (Néologisme primaire) بينما يشقى التوليد الترجمي (Néologisme traductif). ذلك لأنّ سبل التعليل متفاوتة من لغة إلى أخرى، والعالم حرٌّ في أن يلمس السمة المعلّلة بالطريقة التي يريدها فيلتمس بها المفهوم المقصود. ولما كان من وظائف العلم أن يزيل الغموض فهو ينتقي الوسائل البصيرة باسم بعض التوصيات التي يتحكّم فيها بما في ذلك ظاهرة التعليل هذه وبما أنّه يزج دوما إلى حدّ كلّ مفهوم ومحتوى بتعريف جامع ومانع¹. وهناك تسميات كثيرة وضعت في العربية لمقابلة تسمية (Motivation) منها: التحفيز والتسيب.. الخ. وتبيننا تسمية (التعليل) لصلته بالعلة كما عرفها الشريف الجرجاني: « قيل: هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجا مؤثرا فيه »². وبشيء من التوسع نرجع على التراث العربي المكتنز في شأن ضبط مفهوم التعليل. فنستحضر أجمعها ما أورده التهانوي في كشفه: « هي مستعملة فيما يؤثر في أمر سواء كان المؤثر صفة أو ذاتا. وفي اصطلاح العلماء تطلق على معان منها ما يسمى علة حقيقية وشرعية ووصفا وعلّة اسما ومعنى وحكما، وهي الخارجة عن الشيء المؤثرة فيه، والمراد بتأثيرها في الشيء اعتبار الشارع إياها بحسب نوعها أو جنسها القريب في الشيء الآخر، لا الإيجاد كما في العلل العقلية »³.

وعلى كلّ يظلّ تعليل التسميات مبحثا هاما ورثته اللسانيات نفسها عن التراث النحوي عند العرب الذي تعمه هذه الخاصية. ومن أبسط أمثله تسمية القدماء للحروف بمختلف التسميات كلها وصولا إلى ما يدعى (الحروف المهملة) المطلقة على "حروف المعاني". في مقابل "حروف المباني". التي لا يعمل بعضها شيئا فيما بعدها (مثل بعض الأدوات) على غرار حروف الجواب (هل/لا/نعم.. الخ). ما يعني أن صفة الإهمال معللة في مقابل ظاهرة الإعمال⁴. هذا وتكمن علاقة التعليل بالتأويل فيما أشار إليه المفكر نصر حامد أبو زيد من وصفها أداة منهجية وهو يعترض على ظاهرة الجمع والتصنيف الصرفة التي لا بد أن

¹ ينظر: E. Cassirer, *Substance et fonction : Éléments pour une théorie du concept*, Trad. de l'Allemand par Pierre Causat, Ed. de Minuit, Paris, 1977, p.258.

² الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1998، مادة رقم 1002 / ص.111.

³ محمد بن علي التهانوي، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج.2، تحقيق علي دروج، نقل النص الفارسي إلى العربية عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية جورج زباني، تقديم وإشراف رفيع العجم، مكتبة لبنان، بيروت، 1996، ص.1206.

⁴ ينظر: ينظر: عباس حسن، النحو الوافي، ط.6، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص.71.

يتنزه عنها كل علم يقدّم في طبق الخطاب " النقدي " الذي يعد عنده عملية إذا كانت تفترض معياراً فهي تعتمد . علاوة على ذلك .
نوعاً من التعليل والتأويل¹.

2.4 الفاعلية والملكة النصية

إذا انطلقنا من كون الملكة النصية مجموع القدرات التي تسمح بتحقيق الاتساق في النص. من هنا فالملكة النصية تمسّ بطريقة أو بأخرى القدرات الحجاجية التي تتسرّب من لدن الممارسات الشفاهية المكيّنة في الفرد، والتي يكون هذا الأخير قد أخذ في تكوينها أو أخذت تتكوّن عند هذا الأخير منذ المنشأ. وبالتالي تتصلّ حتماً بلغة الأمّ. وتتطوّر كذلك عن طريق الممارسة الفعلية المؤدية إلى تخزين الاستعمالات على شكل أنماط يتضافر فيها الشفاهي والكتابي. بمعنى يتمّ إسقاط أحدهما على الآخر بما من شأنه أن يبني ملكة نصية ليست هي بشفاهية صافية ولا هي بكتابية مكتملة. بحيث تتداخل سمات الشفاهي بسمات الكتابي وفق مسارات ليس من السهل استكشافها بدون الترشيح بالرصيد المعرفي الذي تُفئده تعليمية النصّ.

إنّ الحديث عن النصّ هو حديثٌ عن مجالٍ تتداخل فيه علومٌ كثيرة ولا تزال تتوافد عليه مشارب فكرٍ مختلفة. من هنا تستدعي تعليمية النصّ عامةً والنصّ الأدبي على الخصوص الالتفات إلى تلكم العلوم التي تتفاعل وتتناصر ويستوجب اعتبارها طالما تستقي منها التعليمية عموماً وتعليمية النصّ الأدبي خصوصاً زادها المعرفي، وكلّ نصٍّ إلى المجال الذي استوفد منه المعرفة أقرب في ما يخصّ تعليميتها.

3.4 من الخطية إلى تعددية الأبعاد

1.3.4 الخطية: مزاياها ومتاعها

إن الخطية مقتضى مشروطٌ بوسيط الكتاب الورقي مقيس على ما تتمتع به اللغة من خاصية الخطية التي قال بها اللسانيون وعلى رأسهم فردينان دي سوسير. وقد تأقّف الإنسان من هذه الخطية فتصرف بمختلف الطرق كأن أبدع الدارجات والعاميات التي عمد بها. وفيها. إلى أسلوب التخفيف والاقتصاد والاسترخاء في وجه الانقباض الذي تفرضه الخطية ذاتها، وهذا شأن جميع اللغات البشرية.

إنّ القول بأن الخطاب الأدبي كغيره من الخطابات مقيّد بهذه الخاصية أمر ليس فيه ما يحتمل من الجدة، وكغيرها من القيود المتواترة هي قيود لغوية أو قواعد لغوية إذا فضلنا التبسيط والصراحة. لكن الإمعان في ضبط طبيعة القيود المفروضة من الخارج على هذا النمط الخطابي هو ما يتجلى من خلاله وجاهة القيد فيما يخص هذا الخطاب " الأدبي " المتراكم الخبرات والمنفتح على القراءات. وقد تغبطه في هذا باقي الخطابات عدا الكتب المقدسة التي تحمل رسالات أزلية. بيد أنّه أكثر القيود طغياناً وضغوطاً هي القيود الاجتماعية العرفية.

إلى هذا الحد لم نتقدم كثيراً في التحليل خاصة إذا تذكرنا أن اللغة اجتماعية بامتياز². غير أن ما يختفي في الطابع الاجتماعي من ضغوط الأخلاقي الذي كثيراً ما يتعارض معه الخطاب الأدبي الذي يفسح المجال للخيال ثم نظراً لطابعه التجاري في الأساس، وهذا يجعلنا نغير من رأينا تجاه الالتزام بالخطية التي تعلم الصبر والأناة أيضاً.

¹ ينظر: نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط.7، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005، ص.203. من هنا جاز للخطاب اللساني أن يتوغل في التعليل أكثر من اللسانيات. وكذلك يكمن التعليل في التعرف على مستوى ما يدعى " السمات النووية / Sèmes nucléaires " التي تحتويها التسمية من ناحية تأويلها المعجمي (التاريخي والاني معاً). ينظر: François Rastier, Systématique des isotopies, in Essais de sémiotique (Collectif), Ed. Librairie Larousse, Paris, p.83.

² ينظر: Louis-Jean Calvet, Sociolinguistique, 8^e éd. PUF (Coll. Que-sais-je ?), Paris, 2017, p.06.

إن الخطية تكفل قيد الحقول المعجمية ما يؤدي إلى قيد الحقول الدلالية. وهذا من الناحية التركيبية التزامنية أمرٌ يسوغ تعليم المكونات التركيبية لاسيما المركبات المسكوكة (Syntagmes figés)¹. أما إذا وهي تحسم المفارقات التي هي عبارة عن إطلاق ملفوظ يدل على عكس ما تدلّ عليه الجملة النحوية ذلك أن الملفوظ هو ما يحين في سياق ما. وهذا لا يتسنى فهمه إلا ضمن ذلك السياق الذي يطلع عليه المتعلم بفضل السرد الترابطي والافتراضي الذي يمكن المتعلم من التثقيف في مجال محدد.

2.3.4 اللاخطية: أُرِيحِيَّهَا وَنَجْوَعِهَا

يقابل الخطية مفهوم تعدد الأبعاد أو اللاخطية. في وسيط رقمي، يمكن برمجة هذه اللاخطية وترميزها عن طريق وصلات تشعبية ترابطية. أو بالأحرى ارتباطات تشعبية. مثلاً يقترح مفهوم " القصة الترابطية " على جهاز كمبيوتر قراءة غير خطية للأجزاء المرتبطة بواسطة الروابط. يتيح تصفح النص التشعبي لكل قارئ متابعة رحلة فريدة داخل القصة نفسها. يمكن أن تكون الارتباطات ثابتة، ولكن أيضاً دينامية (مشروطة أو عشوائية): إذا نقر القارئ مراراً على نفس الرابط التشعبي، سواء أثناء نفس مسار القراءة، أو أثناء قراءة متأخرة، فإنه لن يرى بالضرورة نفس الشظية المعروضة. أي يتقدم القارئ بوساطة النقر.

خلاصة

من مزايا البحث التوثيق إعادة الاعتبار للوحدة والتنوع في آن، أي يسهم في القضاء على تشتت الأعمال والبحوث التي تسعى إلى بناء المعرفة، في المجالات كلها وعلى كافة المستويات المعرفية وبمعظم اللغات التي تكفلها وتكفل بها، وتستجيب لسانيات المدونة لهذه الحاجة وكذا لضرورة تضافر الجهود فيما بينها وبين البحث التوثيقي والسياقي لتكوين مادة أصيلة: وهذا البعد كفيلاً بأن يقدم تصوراً موحداً. وليس أحادياً. أي منسجماً ومتسقاً لعالم المعرفة والحقيقة والواقع معاً وكذا لشهادة التاريخ ولمخلفات التراث.

تسعى لسانيات المدونة. من جهة أخرى. إلى إسناد تعريفات لمتن اللغة. أي للرصيد المعجمي. الذي تحصل عليه. من هنا يقع عمل التحري على المستوى الدلالي كما المعجمي حيث ينطلق اللساني المصنّف من أن الكلمات يعرف بعضها ببعض؛ ثم يربطها صاحب ذلك العمل. وهو يعي أنه ينطلق من الملموس. بالمسألة المعالجة في السياق الذي ترد فيه هذه الكلمات المقرونة بتلك التعريفات. هكذا إلى أن يصل إلى نوعٍ من التّصنيف للحالات التي يخوض فيها.

¹ ينظر: Martin Riegel, Jean-Christophe Pellat & René Rioul, *Grammaire méthodique du français*, 4^e éd. PUF, Paris, 1998. 380

أليات المساءلة النصية والتداولية في التراث البلاغي العربي القديم

منهاج البلغاء وسراج الادباء لحازم القرطاجني - نموذج

د. عبد الرشيد شادي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة - الجزائر

ملخص بالعربية:

يحاول هذا البحث الاجابة عن اهم المسائل الاساسية في التراث العربي القديم والتي انتدب لها حازم كتابه هي التأصيل لعلم الشعر من أجل الكشف عن جوهر الشعر العربي، وما أبدت فيه العرب من العجائب، عن طريق وضع قوانين كليّة تعرف بها أحوال الجزئيات، وهو أمر لن يتحقق إلا بتأصيل منهج جديد في البحث يستكمل ما ورد عند الأوائل من قوانين، ويتجاوزها بما يستجيب لخصوصيات الشعر العربي ولن يتأتى ذلك الا من خلال الحفر في شروطها السياقية والنصية الأصيلة، بتهيئة مقولات نصية وتداولية أفرزتها اللسانيات المعاصرة من خلال الوقوف عند مدى انسجامها مع النصوص العربية القديمة وذلك من خلال اهم المدونات العربية وذلك كمحاولة لتقديم تفسير بعض الأحكام التراثية المجحفة في حق عدة نصوص له واثبات قدرة مقولات بلاغية تراثية على مسaire النص في رحلته الزمنية وتحقيق النمط الاجناسي، عبر الياته التداولية والنصية تحديدا عند حازم القرطاجني في مدونته البلاغية وبصيرته النقدية - منهاج البلغاء وسراج الادباء.

الكلمات المفتاحية:

التراث العربي، علم الشعر، الشعر العربي، مقولات نصية وتداولية، اللسانيات المعاصرة، النصوص العربية، مقولات بلاغية تراثية، النمط الأجناسي، الآليات التداولية والنصية، الفكر النقدي والبلاغي العربي، الشروط السياقية.

English summary:

This research attempts to answer the most important issues that are fundamental in the ancient Arab heritage and commissioned by Hazem his book is the rooting of the science of poetry in order to reveal the essence of Arabic poetry, and the Arabs showed wonders, through the development of the laws of the college known by the conditions of particles, which will not Is achieved only by rooting a new approach in the research to complete what is stated in the first of the laws, and exceed them in response to the specificities of Arabic poetry will not come only through digging in the contextual terms and original text.

By creating textual and deliberative statements produced by contemporary linguistics by standing in harmony with the ancient Arabic texts through the most important Arabic blogs. This is an attempt to explain some of the negative historical provisions in the right of several texts and to prove the ability of traditional rhetorical statements to follow the text in its time journey, , Through his deliberative and textual determination of Hazem Al-Carthaginian in his blog rhetorical and his critical insight - the platform of Bologna and Siraj writers -

key words:

Arab heritage, poetry, Arabic poetry, textual and commercial quotations, contemporary linguistics, Arabic texts, traditional rhetorical statements, epigraphic style, deliberative and textural mechanisms, critical thought and Arabic script.

مقدمة:

يمتاز التراث بحضور مزدوج، نجد فيه الثابت والمتحول، فأما وجوده الثابت فيظهر من حيث كونه وجودا ماديا ملموسا، يتشكل عبر وجوده في رحاب المكتبات والخزانات وبطون الكتب وسطور المخطوطات التي تحفظه وعليه فقد سطرت بشكل معلوم ومحدود ومستقل ، واما وجوده المتحول الذي يمثل حافظته فكأنه مادة الا عن طريق هذا التراث، وتعاملنا معه عبر معرفة خاصة

ووعي ذاتي ينطوي على دراية وتوسع بهذا التراث الذي له خاصية التحول، فهو لا يهدأ على حال ولا يستقر على قرار حسب تنوع المعارف والثقافات والمناهج التي تدرسه، وقد تباينت النصوص التي فتحها البلاغيون العرب القدماء وتضاربت المناهج التي ركبها البلاغة العربية في سبيل بحثها عن انسجام النص وألياته ومسوغاته الدلالية وتداولية والنصية، وكانت النتيجة أن تماهت الأقاليم البلاغية بين علوم القرآن والنقد وتاريخ الأدب والنحو وعلم الكلام، وكل ذلك يعكس المرونة المنهجية التي اتسم بها البحث البلاغي منجبه، وشساعة الموضوعات والمصطلحات التي هي أولى بها منجبه أخرى، ومرجع ذلك في اعتقادنا هو اشتغالها على النص، ووفق هذا المنحى سارت البلاغة العربية اذ بنت دعائمها ومعالمها المنهجية على قاعدة الاهتمام بقضايا الافادة والسياق التي تنبثق من الاداء اللغوي وشروط تحقيق المقومات المقصدية للكلام، وهي كلها تندرج ضمن الاطار التواصلية والتفاعل النصي وكذلك مكنوناته المرتبطة بمقومات تداولية نصية صريحة، وذا استنطقنا الرصيد المعرفي الذي خلفه التراث البلاغي والنقدي العربي القديم، نجد ذخرا ثميناً من الافكار النيرة التي نظر لها البلاغيون العرب في مؤلفاتهم، حيث أسهموا في اجلاء وتفسير ووضع بعض أليات الاداء اللغوي، من حيث الفاعلية التواصلية والمحققات النصية، ولعل ذلك ما أسهم في التلاق المعرفي والانصهار المنهجي من خلال طروحات وتنظيرات الدرس التداولي والنصي القديم، ومحاولة تمكينه بخلق أدوات واستراتيجيات خطابية ناجحة وفعالة.

من هذا المنطلق، وجدت ان هذا الانسجام المعرفي، خليق بمعاينة فكرية ودراسة علمية منظمة، يمكن ان نسوق اشكالياتها بالطريقة التالية:

هل انطوت تنظيرات وأفكار البلاغيين والنقاد العرب قديما على تصورات متناسقة حول اللغة في سياق مقاماتها التواصلية والنصية؟

وما هي الاسس التنظيرية والاجرائية التي اعتمدها علماء اللغة العربية قديما في فكرهم البلاغي وتصوراتهم النقدية، والتي من شأنها التأسيس لدرس تداولي ونصي معاصر؟

وإذا كان حازم القرطاجني واحدا من أهم هؤلاء الذين تركوا بصماتهم في هذا الطرح فما هي اضافاته الباغية واستبصاراته النقدية التي يمكن تلمسها في مختلف المقاربات التداولية والنصية لفكره البلاغي والنقدي العربي القديم؟ وهل انطوت مباحث مدونته منهاج البلغاء وسراج الادباء على اسس معرفية وتنظيرية تتفق مع الليات التداولية والنصية المعاصرة؟

ومن هذا المنطلق ارتأيت أن يكون عنوان بحثي الذي ينطوي في هذا المنحى الموسوم ب:(أليات المساءلة النصية والتداولية في التراث البلاغي العربي) - منهاج البلغاء وسراج الادباء لحازم القرطاجني - أنموذج- والذي نرمي من خلاله إلى إعادة قراءة أهم المقولات البلاغية وشواهدا، من خلال الحفر في شروطها السياقية والنصية الأصيلية التي أنتجت قديما واختبارها على المكتسبات المتعلقة بالفكر العربي النقدي، اضافة الى تقاربها مع نصوص مختلفة، وفي المقابل تبينة مقولات نصية وتداولية أفرزتها اللسانيات المعاصرة من خلال الوقوف عند مدى انسجامها مع النصوص العربية القديمة وذلك من خلال اهم المدونات العربية وذلك كمحاولة لتقديم تفسير بعض الأحكام التراثية المجحفة في حق عدة نصوص له واثبات قدرة مقولات بلاغية تراثية على مسابرة النص في رحلته الزمنية وتحقيق النمط الاجناسي .

فالمهمة التي انتدب لها حازم كتابه هي التأصيل لعلم الشعر من أجل الكشف عن جوهر الشعر العربي، وما أبدت فيه العرب من العجائب، عن طريق وضع قوانين كليّة تعرف بها أحوال الجزئيات، وهو أمر لن يتحقق إلا بتأصيل منهج جديد في البحث يستكمل ما ورد عند الأوائل من قوانين ويتجاوزها بما يستجيب لخصوصيات الشعر العربي.

وإذا كان لكل باحث أسبابا ذاتية تدعوه الى اقتحام فكري لموضوع ما، فإنني أقر أن الدافع الاساسي الذي جعلني انتقي هذا الموضوع هو خدمة البحث اللغوي، لا سيما وأنه متعلق بترائنا اللغوي الذي لا يزال بحاجة الى جهود معرفية تنفض الغبار عنه، من أجل استيعاب ذخره المعرفي الثمين، أما عن الاسباب الموضوعية التي جعلتني انتقي هذا الموضوع بجعله محورا للدراسة فيمكن اجمالها في ثلاث نقاط هي:

1- من أجل الاستيعاب المعرفي الايجابي للمكونات والأسس الفكرية التي انطوى عليها التراث البلاغي العربي بصفة عامة، وعند حازم القرطاجني بصفة خاصة.

2- نفض الغبار عن التخريجات الناضجة والتصورات المعرفية العميقة المتعلقة بمسألة الانتاج اللغوي في الفكر البلاغي العربي، خاصة وأنها تنسجم مع الكثير من مقومات البحث اللساني المعاصر بما فيه البحث في التراث العربي القديم والمعاصر.

3- محاولة الربط المعرفي بين الفكر العربي قديما وحديثا من خلال التعرض لاهم المنجزات النقدية والبلاغية العربية، والتي تمثل الوجه الحقيقي للمعرفة الانسانية بشكلها العام والعربية منها على وجه الخصوص.

ومحاولة مني لأثراء هذه القضايا المتصلة بالإشكالية التي أنبني عليها موضوعنا، ارتأيت أن اقسام هذا البحث الى فصلين تتصدرها مقدمة، بالنسبة للفصل الأول فضلت أن اعالج فيه اهم المنعطفات النقدية والبلاغية التراثية العربية بصفة عامة، وعند اهم اعلام النقد والبلاغة العربية ممثلة في حازم القرطاجني من خلال مدونته المعرفية الرائدة -منهاج البلغاء وسراج الأدباء- التي تعد مقوما معرفيا واساسا تراثيا نقديا وبلاغيا حتى عدت محاولته رائدة في هذا الجانب من حيث الزخم المعرفي ومنبر حقيقي يعنى بالممارسة النصية والتداولية في التراث العربي القديم.

وذلك بالتعرض لاهم المقاربات التداولية في فكر حازم المتصلة بالظاهرة اللغوية البلاغية والنقدية العربية، ومحاولة رصد رحلة فكرية اعترت الفكر العربي في زمن من الازمنة، وذلك بتسليط الضوء على اهم المنجزات النقدية لحازم في بيان اهم اليات -مقاربه التداولية انطلاقا من الاصول التراثية العربية لمنجزاته البلاغية واستبصاراته النقدية.

وقد قسمت هذا الفصل بدروه الى مبحثين الاول منه اهتم بتحديد المفاهيم النظرية والالمام باهم الخصوصيات المرتبطة بفكر حازم البلاغي ومنجزاته النقدية، في حين خصصت المبحث الثاني للحديث عن اهم المقاربات التداولية من خلال مدونته المنهاج.

اما الفصل الثاني فقد وسمته بعنوان (المقاربات النصية عند حازم القرطاجني) من خلال كشف اهم المقاربات النصية له في التراث العربي القديم وتحديد عند حازم، هذا الذي شكل بمدونته المنهاج اساسا حقيقيا لانطلاقه فعلية عربية خصوصا لمنهج حديث يرتبط بمعايير التشكلات النصية، بناء على استقراء واستنطاق النصوص العربية القديمة خاصة عند هذا الاخير.

وقد قسمته الى مبحثين هو الاخر فالأول حاولت فيه ابراز السياقات النصية عند حازم بطريقة توظيفها، في حين خصصت المبحث الثاني لبيان اهم المقاربات النصية الحازمية في التراث البلاغي والنقدي لحازم القرطاجني، وفي الاخير خلصت الى خاتمة متعرضا فيها لاهم النتائج والاحكام المتمخضة عن هذه الدراسة.

ولما كانت الدراسات العلمية الاكاديمية ذات الطابع العلمي، لا تقوم الا على منهج معين، باعتبارها المنارة التي تأخذ على عاتقها السير بالبحوث نحو التنظيم المنهجي المحكم، فقد استعنت بالمنهج الوصفي التحليلي في عملية نسج خيوط هذا البحث، بحكم اني انطلقت من تنظيرات التراث العربي خاصة البلاغة العربية مرورا بتحليل واثراء ومناقشة مختلف التصورات المعرفية التي تنسجم مع ارقق واسمى فكر بلاغي ونقدي عربي من خلال مدونة حازم القرطاجني النقدية والبلاغية، وامت تضمنتها من افكار

، كما لا يخفى اعتمادنا على الية الاستقراء ، وذلك بقصد ادراك حقيقة ما احتوته هذه المدونة على تشعبها واهميتها فكان بذلك جانب الاستقراء، امرا ضروريا لبيان مضمون الوارد فيه من فكر نقدي وبلاغي عربي يصعب على الباحث كشف مغاويره واسراره دون الية الاستقراء والاستنتاج.

وكشف مكوناتها التي وجدت بين دفتي هذا الكتاب ولعل الحقيقة الساطعة التي لا ينبغي التغاضي عنها في هذا المقام ، تتمثل في أن التعاطي مع هذا الموضوع هو أمر صعب ، باعتباره يحتاج الى مجال زمني طويل ، كما أن طبيعة هذا الموضوع تعتبر شائكة نوعا ما لأنها ترتبط باتجاه لساني جديد لا يزال يخضع حتى الوقت الراهن لبعض الممارسات والمقاربات المعرفية لإيضاح معالمه بالنظر الى اتساع الدراسات النقدية والبلاغية المهمة بفكر حازم القرطاجني وتحديدًا بمدونته الرائعة.

الفصل الاول: المقاربات التداولية التراثية العربية – حازم القرطاجني :-

المبحث الاول: المفاهيم النظرية للمقاربة التداولية عند حازم القرطاجني:

1-مرجعياتها وألياتها :

عندما ننظر للظاهرة البلاغية باعتبارها ظاهرة لغوية متجسدة في خطاب ، ومتحققة ، خاضعة لشروط القول والتلقي فإننا نكون أمام خطاب تواصلي يمتاز بخصائص بنيائية وبرغامانية تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات الاخبارية السردية والحكاكية ، وبالتالي فإن مقارنة هذا النوع من النصوص سوف تكون مختلفة ، لأن التعامل النقدي في هذه الحالة سيكون من نوع خاص من التخاطب، إذ أن أية محاولة لرصد الصور الأسلوبية والبنيائية في القول البليغ ستجد نفسها أمام ظواهر بلاغية (أسلوبية وبنيائية وحجاجية) .

2-مظاهر التداولية بين المقامة الابلاغية والمقصدية الخطابية:

إن ما يميز بلاغية النص الأدبي عن غيره من المحققات النصية الأخرى، هو استناده إلى مرجعية أو سياق مشترك بين المخاطب والمخاطب، وبالتالي بروز قيمة القصديّة بالنسبة للذوات المتخاطبة وبذلك ينتهي القول الشعري إلى مجال التداولات¹، وهو مجال شاسع يسمح لنا بالقول أن هناك تداولية بلاغية، إلى جانب التداولية اللسانية والمنطقية والفلسفية. فالبلاغة تتحدد بكونها "فنًا"²، أي مجموعة من القواعد المعيارية التي تتيح الإقناع أولاً ثم التعبير الجيد لاحقاً ، ومن ثم نظر للبلاغة بقصدها أساساً التأثير في متلقي الخطاب وهو ما يكشف عن البعد التداولي والمقامي للبلاغة إذ يمكن للبلاغة –وبالرغم من طابعها المعياري- أن تصبح بلاغة وصفية³ ، بل أيضاً بلاغة تاريخية وتأويلية تعكس بصورة نقدية وضعية تلقي الشارح (للنص) ، إنها مؤهلة في هذه الحالة ، لتكوين أسس نظرية تداولية للنص⁴.

و -ضداً على عنوانه- ضمن كتب نقد الشعر، ومن القضايا النقدية التي تفتح بلاغته على الجمال التداولي بشكل عام.

ومن القضايا التي تكتشف هذا الانشغال:

أ- إلحاحه على وظيفة النص الشعري، بالنظر إلى مقاصد منجزه

ب -اهتمامه بالمقام التواصلي الذي يدخل في سياق التبليغ الخطابى

ج- انشغاله بقضية التداخل بين الخطابات ، من خلال المقارنة بين التخييل والتصديق

¹-بشار بن برد، الديوان، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، الجزء 4 ، الشركة التونسية للتوزيع، ماي 1976، ص 182

²-ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، الطبعة الثانية، مصر، ص 287.

³-حازم القرطاجني، ديوان منهاج البلاغة وسراج الأدباء ، تحقيق عثمان الكعاك، المكتبة الاندلسية ، د ط، دار الثقافة، بيروت، ص 51

⁴-هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشرق، د ط، دب، 1999 ، ص 29.

د-عنايته بالغرض بوصفه معياراً موجهاً في قراءة النص الشعري¹

إن نظرة حازم للنص الشعري من منظور تواصلية، هي ما دفعته إلى الاهتمام بالأطراف الثلاثة المؤسسة لعملية التواصل الأدبي ممثلة في المبدع المتلقي والنص، أما المتلقي فتمكن وظيفته في الاستجابة للمقاصد التي ضمنها المبدع نصه، في حين يقوم النص بوظيفة تركز على الخطاب من حيث الجودة والحسن، وهي الوظيفة البلاغية².

إن العناية بالمقام التواصلية تفضي إلى ضرورة ربط المقام بالمقام، وملائمته لمقتضى الحال، من أجل تحقيق المقاصد، وهو ما يجعل المقام يدخل في سياق «التبليغ الخطابي»³ بوصفه نسقا من القيم والإجراءات العملية الرامية إلى إحداث تغيير في الأنساق السلوكية والاعتقادية للمتلقي⁴.

يمكن تحديد المقام بأنه جملة الظروف العامة التي يتنزل فيها الخطاب "ويتركب من المتكلم والمستمع ومن أنساقها المعرفية والإرادية والتقديرية، ومن علاقاتها المختلفة"⁵.

وقد عني حازم بالمقام التواصلية بوصفه مقياساً بلاغياً يساعد على فهم النص وتقدير نجاعته حيث يطالب الشاعر بمراعاة الظروف المادية والاجتماعية التي يتم في إطارها إنجاز النص، يقول: يجب أن يقصد في مدح صنف من الناس إلى الوصف الذي يليق به وان يعتمد في مدح واحد، مما يصلح له.

وقد عني حازم بالمقام التواصلية بوصفه مقياساً بلاغياً يساعد على فهم النص وتقدير نجاعته حيث يطالب الشاعر بمراعاة الظروف المادية والاجتماعية التي يتم في إطارها إنجاز النص، يقول: يجب أن يقصد في مدح صنف من الناس إلى الوصف الذي يليق به وان يعتمد في مدح واحد، مما يصلح له من تلك الفضائل وما تفرغ عنه⁶.

ويدعو حازم الشاعر إلى مراعاة مقتضيات الأحوال الخارجية، حتى لو تطلب منه ذلك استعمال المبالغة في الوصف، وذلك حين يرى أن {الأحوال المقدره التي يتخيلها أهد من الأحوال التي وقعت فيبني قوله على الحال المخيلة الممكنة دون الواقعة، ليكون الكلام أشد موقعا من النفس وعلوقا بالقلب}⁷.

ومع حازم القرطاجي ستتحول البلاغة إلى ما يسميه هو نفسه "العلم الكلي" وهذا العلم البلاغي يسمو فوق صناعات اللسان الجزئية، فالبلاغة المعضودة "بالمنطق والفلسفة".

ويوضح الباحث {أن بلاغة حازم وإن توجهت إلى الشعر، فإنها بلاغة منفتحة على الخطاب التداولي من خلال بيان مدى تداخلهما وتخرجهما في الخطابين الشعري والتداولي}⁸.

إن ترتيب الفصول عند حازم خاضع لقوانين كلية يراعيها المتمرس بصناعة البلاغة، إذ ينبغي في ترتيب الفصول مراعاة المبدأ التداولي الهام: "ما يكون للنفس به عناية"، ثم الغرض الذي يوجه إليه الكلام، ويبدأ الشاعر بالاهم فالاهم، ليتلاءم ترتيب الفصول مع الشؤون النفسية للمتلقي.

¹ طه عبد الرحمن، الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، مجلة المناظرة، السنة 2، ع 4، مايو، دب، 1991، ص 691.

² محمد خطابي، لسانيات النص مدخل لانسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2006، ص 126.

³ ابراهيم خليل، نظرية النص والأسلوبية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997، ص 35.

⁴ الأهر الزناد، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1993، ص 126.

⁵ الهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية روبرت ديوجراندي وفولفغانغ ريسلر الطبعة الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999، ص 87.

⁶ حازم القرطاجي، مصدر سابق، ص 170.

⁷ المصدر نفسه، ص 82.

⁸ حازم القرطاجي، مصدر سابق، ص 56.

اذ يمكن للشاعر ان يترك الترتيب الاصلي اذا ما بدت " التفاتة ونسبة بين فصلين تدعوا الى تقديم غير الاهم على المهم "1، لكونه يحقق للنفس استراحة واستجداد او نشاط.

المبحث الثاني:

أهم المقاربات التداولية من خلال مدونته المنهاج:

-حازم القرطاجني ومبدأ التناسب بين الغرض والإيقاع الشعري:

يعتبر حازم بهذا المعنى مهتما بصناعة الشعر ، بالتركيز على الآليات التي تجودها ، وذلك بلغة فلسفية حكمية بالغة الدقة ، كيف لا وهو المطلع على مؤلفات الفلاسفة ؛كشيخه ابن رشد ، ومؤلفات الفارابي وابن سنا ، وفن الشعر لأرسطو وعلى كل حال فقد تناول ، المعاني في علاقتها بالمباني ، والإيقاع الشعري وعلاقته بالغرض والحالة النفسية للشاعر ويمكن أن نلخص كل هذا في التماسك النصي أو لسانيات النص أو التناسب؛ كل ذلك كان حازم يروم من ورائه ، صياغة نظرية متكاملة متماسكة لتحليل النص الشعري أساسا والنصوص النثرية عامة.

ولهذا لم يغفل حازم الوقوف عند الجودة في العمل الفني ومردها؛ والتي أرجعها إلى ثلاث قوى ضرورية أن تكون لدى المبدع وهي القوة الحافظة ، والقوة الصانعة والقوة المائزة ، وإذا تجمعت هذه القوى لدى الشاعر أمكن له أن يشيد قصيدته أحسن تشييد متى مخض المعنى في فكره نثرا ، واعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول عليه بلغة ابن طباطبا العلوي في كتابه عيار الشعر مما يزيك الفكرة التي يدافع عنها حازم في منهاجه ، فكرة التناسب بين الوزن والمعنى الذي يروم الشاعر إيصاله للمستمع /القارئ، على اعتبار أن كل معنى نريد التعبير عنه له إيقاعه الشعري فإيقاع الحزن ليس هو إيقاع الفرح والفخر ، وإيقاع النسيب والتغزل ، ليس هو إيقاع الهجاء والذم وقس على هذا ، يقول حازم " ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ، وما يقصد به الهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير وجب أن تحاكي المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس "2.

إن هذا النص من طبيعة الحال غني بالدلالات، وإن كان لم يثبت أن لكل غرض شعري وزنه الخاص .

ففي التناسب بين الغرض والإيقاع الشعري ، يربط حازم الألفاظ بالأغراض صارت نظريته أكمل وأتم وأجود؛ على اعتبار أن لكل غرض ألفاظه ، يقول حازم " وإنما وجب أن يستعمل في كل طريق الالفاظ

فيه عرفا، لأن ما كثر استعماله في غرض ما اختص به ، صار كالمختص لا يحسن إيرادها في غرض مناقض لذلك الغرض ، ولأنه غير لائق به لكونه مألوفاً في ضده وغير مألوف في غيره، وذلك مثل استعمال السالفة والجيد في النسيب ، واستعمال الهادي والكامل في الفخر والمديح ، ونحوهما ، واستعمال الأخدع والقذال في

الذم هكذا إذن يأتلف معنى القصيدة بمبناها وغرضها بإيقاعها الشعري حتى تكون وحدة متسقة منسجمة، وحتى تجتمع إذ ذاك للمستمتع حلاوة المسموع بحلاوة المفهوم كما نجد عند المتنبي الذي أجاد في التوفيق بين المعاني والمباني، والأغراض والإيقاع ولحازم في هذا الصدد " وكان أبو الطيب المتنبي يعتمد المراوحة بين معانيه ويضع مقنعاتها من مخيلاتها أحسن وضع، فيتم الفصول بها أحسن تنمة ويقسم الكلام في ذلك أحسن قسمة، ويجب أن يؤتم به في ذلك، فإن مسلكه فيه أوضح المسالك مما يجسد العلاقة الوطيدة بين المعنى والمبنى، التي توفرت أجودها عند المتنبي الذي اعتبره حازم قدوة للشعراء لمن أراد أن يجيد النظم.

1- المصدر نفسه، ص 289

2- حازم القرطاجني ، المصدر السابق، ص 234

الفصل الثاني:

أليات التحليل النصي عند حازم القرطاجني:

المبحث الأول:

السياقات النصية عند حازم وطريقة توظيفها:

لقد مثل النص الأدبي هاجسا بالنسبة للباحثين والعلماء العرب وغيرهم المهتمين بحقول الدراسات الادبية والنقدية واللغوية بشكل عام، حيث انه حظي بعناية كبيرة في مجال الدراسة والبحث وذلك باعتباره يشكل أهمية بالغة في الحركة الادبية والفكرية على وجه العموم ، فقد تعددت المناهج والمدارس وتعددت اوجه فهمه وتحليله ومعرفة ابعاده وأنساقه المعرفية ، وتنافست فيما بينها من أجل دراسته دراسة علمية منظمة ومعقدة ومفصلة لغرض اكتشاف بنياته وتراكيبه الفنية والادبية ، فكل منهج من المناهج يحاول مقارنة أي نص من زاوية مغايرة ، كما اننا نجد ان نصيبه في الدراسات النقدية والباغية واللغوية العربية قد شكل نقطة امتداد واسعة لفهمه الفهم الصحيح ، فقد حاول النقاد واللغويين العرب الاعتماد على مختلف المرجعيات الفكرية والنظرية لتقنين الاطار العام الذي يندرج تحته النص الادبي العربي خصوصا بكل اشكاله وصوره.

ومما لا شك ان التراث العربي القديم يحوي الكثير من النظريات البلاغية والاسلوبية والجمالية التي تساعدنا في تحليل النص واثبات نصيته ، وهي نظريات مهمة في هذا المجال ، ولا شك ان غريبتها واستثمارها مفيد للدرس اللساني النصي العربي .
ومعلوم ان التراث البلاغي العربي القديم اهتم بفكرة اعجاز القران الكريم ، بالبحث عن الخصائص المميزة للأسلوب القرآني عن الأسلوب الانساني، وان كان الجرجاني قد اغنى النقد العربي بنظرية النظم ، فان حازم القرطاجني اثرى النقد العربي ولسانيات النص بفكرة التماسك النصي ، أو التناسب بين الأغراض والأوزان ، وبين الايقاع الشعري والحالة النفسية التي يعبر عنها الشاعر ، ويعتبر مؤلفه-منهاج البلغاء وسراج الأدباء-بحق سراجا لمن اراد دراسة النقد العربي عامة ، ولسانيات النص في التراث النقدي العربي دون المرور بأهم العلماء الذين شيّدوا للنقد النصي .

المبحث الثاني:

أهم المقاربات النصية الحازمية في التراث البلاغي والنقدي العربي:

نجد أن حازم قد اهتم بالية التماسك النصي من خلال تطرقه لأشكال الترابط المعنوي ضمن أجزاء النص ، باستخدام عدد من المصطلحات تقترب من مصطلح التماسك ، كالتناسب والاقتران ، وحاول أن يوضح ذلك الترابط القائم بين أجزاء النص أو القصيدة من خلال حديثه عن قوانين الابتداء والتخلص والانتهاؤ بقوله:(واذا لم يكن البيت الثاني مناسبا للأول في حسنه غرض ذلك من بقاء المبدأ أو حسن الطليعة ، وخصوصا اذا كان فيه قبح من جهة لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب)¹.
فالمناسبة هنا تعني التماسك والربط الشكلي والمضموني معا، وفي قانون الانتهاؤ يشترط حازم القرطاجني أن تكون قائمة النص ، مرتبطة بقصد المتكلم من النص ، وأن يكون تأثيرها ايجابيا في ما قبلها من المعاني بانتلاف جملة، كما اهتم حازم بالتأليف والتلاؤم في الكلام ، حيث تكلم عن تلاؤم حروف الكلمة الواحدة ، وكذا كلمات الجملة الواحدة ، وأيضا الجمل بعضها مع بعض ، وبالتالي يشكل لنا هذا التلاؤم بين العناصر وحدة منسجمة يقول (ومن ذلك حسن التأليف وتلاؤمه ، والتلاؤم يقع في الكلام على

¹ - حازم القرطاجني ، ص 234

أنحاء ، منها أن تكون حروف الكلام بالنظر الى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها ، وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة ، وتلاصقها منتظمة في حروف مختارة ، متباعدة المخارج مرتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما¹. من خلال ما ذهب اليه القرطاجني نرى بأنه لم يغفل بذلك حتى على الانسجام الصوتي، والذي اعطى له مكانة عنده، لأهميته في الربط بين المعاني والاصوات، فلا شك ان أي محاولة استنطاقية لتراثنا البلاغي والنقدي العربي القديم، ترمي بنا الى نحو ذخر معرفي ثمين يمد جذور التلاقي المفاهيم، مع ما أقرته الدراسات النصية القديمة والمعاصرة، وهي تتعامل مع الظاهرة اللغوية بمختلف أشكالها وصورها، ويبرز هذا المقتضى بوضوح عند الوقوف المتفحص والناضح أمام تلك التصورات النصية والسياقات المتعددة للنص الواحد حسب حازم، الذي ينطلق من فكرة التناسب الشعري عنده ليصل الى أجزاء الوحدة المتعلقة بالنص ككل.

ومرد هذا الطرح المعرفي عند حازم هو الاعتقاد بوحدة العمل النصي في مختلف تفاعلاته المكونة له كما لا يخفى أن العمل الفني الادبي يستمد روحه الفنية من الاسس الجمالية الابداعية لأي نشاط أدبي بناء، وذلك حتى يصل الى مقارنة نصية أكثر نضجا مقارنة مع باقي المفاهيم النظرية التي تصاحب أي عمل جمالي فحازم يعتبر ان أي موقف تخاطبي في شكله النصي يظهر لنا عتبات نصية مختلفة، وانما تتشكل معارفها داخل النص الواحد وتحقق نمطيتها انطلاقا من اسسها التي تنطلق منها عملية تركيب النسق النصي.

يعتبر حازم من البلاغيين العرب الذين أدلو بدلوهم في سبيل اثراء حقل الدراسات الادبية النقدية والبلاغية العربية ، وامداده بتصورات تخدم صميمه ، وتأخذ بيده نحو التطور والانتظام المعرفي المنهجي بشكل جعل التنظيرات التي تبعث من جهده الفكري ، تلتقي لتلامس واقع بعض التنظيرات التي اقتصت بالدرس اللغوي التداولي والنصي العربي.

ولعل من ابرز الجهود النظرية التي تبعث من الادراك العميق والفطنة العالية لحازم القرطاجني والحاملة في طياتها ومضات تداولية نصية على السواء ، في حين خصصت المبحث الثاني لبيان اهم المقاربات النصية الحازمية في التراث البلاغي والنقدي لحازم القرطاجني، خاصة تلك التي وظفها في حديثه عن مجموع المقومات التواصلية والبنى النصية في مدونته الرائعة- منهاج البلغاء وسراج الادباء - حيث ضمن حديثه مثلا في القوى الشعرية، وأليات التواصل الباعثة على القول الشعري ، الامر الذي جعل نصيبه من الدراسات في جانب الحديث عن المقاربات النصية والتداولية أكثر حضورا .

وإذا كان مفهوم الاداء التواصلية التداولية قد مثل جانبا هاما في فكر حازم البلاغي وانجازاته النقدية ، فلا يخفى أن درايته بمقومات النصية ومحققات وجودها قد لازمتها هو الآخر ملازمة الغريم للغريم.

خاتمة:

ان من اهم المسائل الاساسية في التراث العربي القديم والتي تمثل فكر حازم النقدي والبلاغي في كتابه منهاج البلغاء وسراج الادباء ، هي التأصيل لعلم الشعر من أجل الكشف عن جوهر الشعر العربي، وما أبدت فيه العرب من العجائب، عن طريق وضع قوانين كليّة تعرف بها أحوال الجزئيات، وهو أمر لن يتحقق إلا بتأصيل منهج جديد في البحث يستكمل ما ورد عند الأوائل من قوانين، ويتجاوزها بما يستجيب لخصوصيات الشعر العربي ولن يتأتى ذلك الا من خلال الحفر في شروطها السياقية والنصية الأصيلة.

¹ - المصدر نفسه، ص 236

بهيئة مقولات نصية وتداولية أفرزتها اللسانيات المعاصرة من خلال الوقوف عند مدى انسجامها مع النصوص العربية القديمة وذلك من خلال اهم المدونات العربية وذلك كمحاولة لتقديم تفسير بعض الأحكام التراثية المجحفة في حق عدة نصوص له واثبات قدرة مقولات بلاغية تراثية على مسيرة النص في رحلته الزمنية وتحقيق النمط الاجناسي، عبر الياته التداولية والنصية التي تنطوي على قدرات فكرية واسس تركز في عمومها على الجوانب الخالدة في النقد والبلاغة العربية له، واذا كان من الممكن تحديد الاطر الفاعلة في الدرس النقدي والبلاغي العربي القديم عنده بناء على المنطلقات والاسس الفكرية، فان اهم النتائج المستنبطة في هذا البحث ما يلي:

1- المحققات النصية عند حازم هو ان النص تتحقق نصيته، أو تماسكه بشروط منها: أن تكون مواد الفصل مناسبة للغرض الذي يروم الشاعر التعبير عنه أن تكون حسنة الاطراد أن تكون متباينة النسيج هذا من ناحية التركيب النحوي أما منجهة الدلالة فإن حازما يقترح مناسبة الغرض لإيقاع الشعري و مناسبة الألفاظ للمعاني .

2- ان هذا التحليل ما هو الا نزر من فيض الناقد العربي، مما يدل على غنى التراث النقدي العربي، في حين خصصت المبحث الثاني لبيان اهم المقاربات النصية الحازمية في التراث البلاغي والنقدي لحازم، وإمكانية استثمار أفكار "لسانيات التراث" لإغناء لسانيات النص العربية الجديدة، في حين خصصت المبحث الثاني لبيان اهم المقاربات النصية الحازمية في التراث البلاغي والنقدي لحازم القرطاجني وقد اعتبره بعض الباحثين " أول ناقد عربي قدم تصورا كاملا للنص الشعري القديم " ويعتبر مؤلفه المنهاج مساهمة لإثراء المشهد النقدي العربي عموما .

3- تزخر "سياقات التداولية والنصية" في التراث العربي بمفهوم حازم ، بأفكار ونظريات لغوية صالحة لأن تستثمر كآليات لتحليل مجمل القضايا التراثية العربية القديمة بصفة خاصة الشيء الذي يدل على غنى التراث اللغوي بأفكار صالحة لأن تكون أصولا لنص عربي أكثر نضجا وتكاملا بالنظر الى الخصوصية العربية من جهة ، والمقصدية المتمكنة فيه كخطاب أكثر شمولاً لسياقاته المختلفة.

4- لا يسعنا في ختام الحديث في هذا الموضوع الا ان ننوه بموقع المنهاج في الدراسات اللغوية العربية التي تعنى بالبحث في التراث العربي ، فكونه مدونة بلاغية تثير قضايا نقدية هامة استقطبت اهتمام النقاد والبلاغيين لمعالجة كثير من المسائل النقدية التي تنهض بالقصيدة العربية وتبرز شعريتها ، لا يمنع هذا من اعتباره مدونة لغوية تناولت قضايا لغوية هامة كاللفظ والمعنى ، واحوال المتكلمين ومقامات التكلم، وانحاء التخاطب.

5- ان عملية النقد بصفة خاصة لا تتأسسالا اذا كان الناقد عارفا باللغة واسرارها ، ومدركا لمواطن الشعرية فيها فان حازما باعتباره ناقدا ، يمكن ان نطلق عليه بانه عالم في اللغة العربية لأنه استطاع بخبرته اللغوية وضع قوانين تعيد للقصيدة العربية شعريتها التي فقدتها في عصر ضعف الأدب.

فالفكر النقدي والبلاغي لحازم يشكل النواة الحقيقية لهذا التراث، الذي يشكل العامل الاساس في عملية استلهم الهمم خاصة في جانبه الابداعي الادبي، وتعاملنا معه عبر معرفة خاصة ووعي ذاتي، وكانه مادة هذا التراث له خاصية التحول، فهو لا يهدأ على حال ولا يستقر على قرار حسب تنوع المعارف والثقافات والمناهج التي تدرسه، وقد تباينت النصوص التي فتحها البلاغيون وتضاربت المناهج التي ركبها البلاغة العربية في سبيل بحثها عن انسجام النص نحويا ودلاليا وتداوليا.

ان ذلك يعكس المرونة المنهجية التي اتسم بها البحث البلاغي من جهة، ونظرا لاتساع الموضوعات والمصطلحات من جهة اخرى، ومرد ذلك هو الاشتغال على النص كاطر رئيسي، لذلك كان هذا البحث يبحث عن اعادة قراءة اهم المقولات البلاغية وشواهداها، من خلال البحث في شروطها السياقية والنصية ، التي انتجها قديما واسقاطها على تفاعلات متقابلة تتعلق بالمحاولة

الجادة والجريئة لتقديم تفسير نصوص مختلفة، وفي المقابل ايجاد مقولات نصية وتداولية افرزتها اللسانيات المعاصرة من خلال اهم المدونات التراثية البلاغية على مسايرة النص في رحلته الزمنية وتحقيق النمط الاجناسي، فالمهمة التي انتدب لها حازم كتابه هي التأصيل لعلم الشعر من اجل الكشف عن جوهر الشعر العربي وما ابدت فيه العرب من العجائب عن طريق وضع قوانين كلية تعرف بها احوال الجزئيات، وهو امر لن يتحقق بما يستجيب لخصوصيات الشعر العربي .

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب والمؤلفات:1-

- 1- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، الطبعة الثانية، مصر، 1955.
- 2- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلامي الطبعة الثالثة 1986، ص 51، 56، 82، 170، 234، 236، 289.
- 3- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل لانسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية 2006، 126.
- ص 354- ابراهيم خليل، نظرية النص والأسلوبية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997.
- ، 1993، ص 1265- الأزهر الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، ط1، المركز الثقافي
- 5- إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية روبرت ديوجراندي وفولفغانغ دريسلر الطبعة الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص 87.
- 7- بشار بن برد، الديوان، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، الجزء 4، الشركة التونسية للتوزيع، ماي 1976 ص 182.
- 9- طه عبد الرحمن، الاستعارة بين حسابا لمنطق ونظرية الحجاج، مجلة المناظرة، السنة 2، ع4، مايو، دب 1991، ص 691.
- 10- هنري شبليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري إفريقيا الشرق، دط، دب، 1999، ص 29.

2-المجلات والدوريات:

- 11-علي الغزاوي، التناسب بين الغرض والوزن في نظرية حازم القرطاجني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 13، 1991، 13، جامعة ابن زهر أكادير، ص 7

أصول تحليل الخطاب في رسالة (غاية الإحكام في آداب الفهم والإفهام) للطحلاوي.

د.محمد بن حجر

جامعة المدينة - الجزائر

ملخص:

هناك رسالة بعنوان (غاية الإحكام في آداب الفهم والإفهام) لمؤلفها الطحلاوي المتوفى سنة 1181 هـ (1767م) من علماء الأزهر، هي من نواذر الرسائل التراثية، لأنها ألّفت لتعليم طلبة العلم كيفية تحليل النص أو الخطاب، وهي بذلك تعطينا فكرة عن أصول تحليل الخطاب عند سلفنا من العلماء، لأنهم وإن مارسوا تحليل الخطاب تطبيقاً، فإنهم قلّ أن ألفوا في أصوله وكيفية نظرياً. ومدخلتي هي في بيان أصول تحليل الخطاب كما تصورها هذا العالم الأزهرى في رسالته، وبيان ما أضاف إليها شارحها العلامة الأمير المتوفى سنة 1233 هـ (1818م) في (ثمر الثمام شرح غاية الإحكام في آداب الفهم والإفهام)، مع التنبيه إلى أن هذا العمل الرائد وجد في تراثنا قبل أن تشيع أو ربما قبل أن تظهر اللسانيات الغربية، وقبل أن يشتغل أصحابها بلسانيات النص وتحليل الخطاب.

الكلمات المفتاحية: الخطاب - النص - الفهم - الإفهام.

Abstract :

'*Ghayato Al Ihkam Fi Adaab Al Fahm Wal Ifham*' is a work written by Tahlawi, one of Al Azhar university scholars who died in 1767 (1181H). This volume is one of the rare traditional theses, for it was edited in the sole aim of teaching students procedures of discourse analysis. It therefore supplies us with an idea of the inception of discourse analysis as it was developed by our ancient scholars. Although these scholars empirically practised discourse analysis, they rarely theorized about it.

My paper attempts to uncover the foundations of discourse analysis as they were conceived by this Azhar scholar along with the explanatory extension carried out by Al Amir, who died in 1818 (1233 H), in his *Thamar EtamamSharhGhayat Al Ihkaam Fi Aadab Al Fahm Wal Ifham*. It should be noted that this work had been produced well before the Western linguistics emerged to invest text linguistics and discourse analysis.

Key words: Discourse – text – understanding- explanation or explication

مقدمة:

إن أصول تحليل النص أو الخطاب في تراثنا العربي متوفرة بكثرة في أعمال النحويين والبلاغيين والمفسرين والأصوليين، ولكن العناية لم تكن بجمعها والتنظير لها بقدر ما كانت بتوظيفها وممارستها في دراسة النصوص عامة والنص القرآني خاصة. والرسالة التي اخترتها لتكون موضوع المداخلة هي من نواذر الرسائل التراثية، لأنها من الكتابات القليلة جدا التي خصصت لبيان أصول التحليل اللغوي، للطحلاوي الأزهرى المتوفى سنة 1181 هـ/1767م، والتي علق عليها فائراها بتعليقاته وملاحظاته العلامة الأمير الكبير المتوفى سنة 1233 هـ/1818م.

وهي رسالة رغم صغر حجمها وإيجاز عبارتها وخفة شرح شارحها أمت بأهم أصول التحليل اللغوي للنص أو الخطاب، وبخاصة تلك الأصول التي يخيل لغير المطلع أنها مما جاءت به اللسانيات الغربية فيما يسمى الآن بنحو النص وتحليل الخطاب، كالسياق الذي كثر الخوض فيه إلى أن صار نظرية، تتنازعها تيارات لسانية كثيرة.

وإن ندرة مثل هذه الرسالة في التراث العربي - حسب اطلاقنا - مرده قلة التأليف النظري في أصول تحليل النص أو الخطاب عند السلف لاشتغالهم بممارسة التحليل عمليا، والفهم تعليم طلبتهم ذلك تطبيقيا، فلم يروا أنهم في حاجة إلى التأليف النظري ما دام التطبيق جاريا في كل دروسهم ومع مختلف المتون التي تكون موضوع دروسهم.

ولذلك نجد العلامة الأمير وهو يشرح مقدمة الطحلاوي يقول: "ولما استشعر سؤالا هو: أن الطلبة المشتغلين بالعلوم قد تحقّقوا بهذه الآداب بتربية الأسيّاح لهم وحسن تبصّرهم، فهم يعلمون غيرهم كما تعلموا، فلا حاجة لهذا الوضع (أي: وضع رسالة في آداب الفهم والإفهام).. أجاب عنه بقوله: (وضعته لنفسه ولمثلي من المبتدئين، حملي على ذلك - وإن كنت لست أهلا - أن الطالب لا يعلم كيفية الفهم إلا بعد مدة طويلة، كل على حسبه)".⁽¹⁾

يؤكد ذلك قول الطحلاوي نفسه بعد هذا عن رسالته: "فرجوت الله تعالى في تسهيل الفهم على من فهم هذه الكلمات، وهي وإن كانت ظاهرة عند المحصلين، لكن لا يعلمها القاصر من المبتدئين"،⁽²⁾ وعلق عليه الأمير بقوله:

"الرجاء: تعلق بما أخذ في سببه، وقد أخذ في السبب بوضع هذا الموضوع (في تسهيل الفهم على من فهم هذه الكلمات) أي: تسهيله على نفسه وعلى غيره، وهو الإفهام، وتيسرُ فهم شيء قليل... أقرب من الصبر لقراءة كتب شتى في أزمنة مختلفة في فنون متغايرة، فإن ما جمعه - حفظه الله تعالى - في هذه الرسالة لا يتحقّق به الشخص إلا بذلك".⁽³⁾

ومع هذا فإنني أقول: إن التراث العربي في تحليل النصوص وغير ذلك من العلوم كبير وكبير جدا، ونحن إلى غاية الآن لا نعرف منه إلا النزر القليل، ولم نطلع على ما فيه من الذخائر إلا على البعض من الكل، وعليه فما زالت هناك كتابات في ضمائر مستسرة، ورسائل مخطوطة في مكتبات العالم مبعثرة غير معلومة.

وبنظرة ولو سريعة إلى أعمال المعربين من النحويين للنص القرآني أو غيره يمكن أن نلاحظ مدى العناية التي كانت لهم في تحليل الملفوظ - نصا كان أو خطابا - إلى مكوناته وتبيين علاقات مفرداته في الجملة وعلاقات الجمل في النص، ذهابا منهم إلى أن أهم خصائص النص هو وحدته الدالة على نصيته، وذلك يتمثل أول ما يتمثل في التماسك الذي يظهر بين عناصره ووحداته. وخالصة البحث عن مواضع الجمل ذات المحل من الإعراب وغير ذات المحل كما في كتب ابن هشام الأنصاري تبين لنا مدى اهتمام النحويين بالجمل في تسلسلاتها وعلاقاتها فيما بينها على مستوى النص كله.

وأما المفسرون فقد اهتم كثير منهم - وعلى الخصوص الرازي والبقاعي والسيوطي - ببيان وجوه ارتباط الآي فيما بينها في السورة الواحدة، ووجوه ارتباط بداية السورة بنهايتها، بل وارتباط السور فيما بينها، وذلك بتعيين العلاقات المعنوية والموضوعية بين الآي نفسها، رغم اختلافها - أحيانا - في مضامينها.

ولم يكن سياق الملفوظات المقصودة بالدراسة والتحليل غائبا عن أذهان النحويين أو البلاغيين ولا الأصوليين أو المفسرين، وكيف يغيب النظر في السياق الداخلي أو الخارجي عن النحويين - في عصر الفصاحة العفوية - وهم يشافهون الفصحاء في زمان ومكان معينين، وكيف يغيب عن البلاغيين وشعارهم الذي استهدوا به في دراساتهم هو (لكل مقام مقال) وهم يبحثون عن خصائص التراكيب ومطابقتها لمقتضى الحال، أم كيف يغيب عن أذهان المفسرين وهم يرون ضرورة العلم بأسباب النزول عند تفسيرهم لآيات الذكر الحكيم، وأما الأصوليون ففضلا عن مراعاتهم للسياق عند هؤلاء وهؤلاء فإنهم كثيرا ما يرجحون بين النصوص بمعرفة أسباب ورود الحديث.

(1)- الأمير المالكي (محمد بن أحمد)، ثمر الثمام شرح غاية الإحكام في آداب الفهم والإفهام، دون معلومات ص.95.

(2)- الطحلاوي (عمر بن يحيى)، غاية الإحكام في آداب الفهم والإفهام، دون معلومات ص.59.

(3)- ثمر الثمام ص.96.

تحليل نص رسالة الطحلاوي في آداب الفهم والإفهام:

تمهيد:

إن صاحب الرسالة اقتصر على ذكر المعنى وما يدل عليه وكيف يمكن تحليل الدوال للوصول إليه، والظاهر أنه قصد تحليل أي ملفوظ ذي معنى، باعتبار أن صاحبه أنشأه ليبلغ به ما يريد إلى غيره، وعليه فإن رسالته هي في تحليل النص كما هي في تحليل الخطاب، سواء كان بينهما فرق أم لا، وفي ذلك اختلاف معروف.

والذي يعيننا أن السلف من علمائنا عرّفوا النص كما عرّفوا الخطاب، ويمكن أن نذكر في ذلك ما جاء في (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم) للتهانوي، ففيه تعريف لكل منهما، يبصّرنا بما كان يعنيه بهما سلفنا، وذلك قبل أن تظهر لسانيات النص أو تحليل الخطاب في اللسانيات الغربية.

فالنص في (الكشاف) له عدة معان، أولها وهو أهمها بالنسبة إلينا هو كما قال الأصوليون:

"كل ملفوظ مفهوم المعنى، من الكتاب والسنة، سواء كان ظاهراً أو نصاً أو مفسراً، حقيقة أو مجازاً، عاماً أو خاصاً"،⁽¹⁾ وإنما سموا الملفوظ المفهوم المعنى نصاً: "اعتباراً منهم للغالب، لأن غالب ما ورد من صاحب الشرع نصوص، وهذا المعنى هو المقصود في قولهم: عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص..."

وليس المقصود - من قولهم (الكتاب والسنة) حصر ذلك الملفوظ فيهما، بدليل أن عبارة النص وأخواتها لا يختص بالكتاب والسنة".⁽²⁾

والخطاب معناه لغة كما في (الكشاف) أيضاً: "توجيه الكلام نحو الغير للإفهام)، ثم نقل إلى: (الكلام الموجه نحو الغير للإفهام) وقد يعبر عنه به (ما يقع به التخاطب)"،⁽³⁾ ثم نقل التهانوي عن الأمدي في (الإحكام) قوله في تعريف الخطاب: (الخطاب اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متبني لفهمه)".⁽⁴⁾

وبين محترزات هذا التعريف قائلاً: "فاحترز به (اللفظ) عن الحركات والإشارات المفهومة بالمواضعة، وب(المتواضع عليه) عن الأقوال المهملة، وب(المقصود به الإفهام) عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطاباً، وبقوله (لمن هو متبني لفهمه) عن الخطاب لمن لا يفهم كالتائم، والظاهر عدم اعتبار القيد الأخير؛ ولهذا يلام الشخص على خطابه من لا يفهم".⁽⁵⁾

تعريف المعنى:-

بدأ الطحلاوي رسالته بعنوان (المقدمة: في أقسام المعاني) ولم يعرف المعنى وعرفه الأمير لكن باختصار شديد، ولذلك يليق بنا أن نلتزم تعريفه عند التهانوي في (الكشاف) وذلك قوله:

"المعنى لغة: المقصود، سواء قصد أولاً، فهو إما مصدر بمعنى (المفعول)، أو مخفّف (مَعْيِي) اسم مفعول ك(مَرْمِيٍّ)، نقل في اصطلاح النحاة إلى (ما يقصد بشيء) نقل العام إلى الخاص. ولك أن تجعله منقولاً إلى المعنى الاصطلاحي ابتداءً من غير جعله مصدراً بمعنى المفعول، وقد يكتفى فيه بصحة القصد..."

ويقرب من هذا ما وقع في شروح الشمسية من أن: (المعنى: هو الصورة الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها اللفظ)، أي من حيث إنها تقصد من اللفظ، وذلك إنما يكون بالوضع. فإن عبر عنها بلفظ مفرد يسمى معنى مفرداً، وإن عبر عنها بلفظ مركب سمي معنى مركباً. فالإفراد والتركييب صفتان للألفاظ حقيقة ويوصف بهما المعاني تبعاً، وقد يكتفى في إطلاق المعنى على الصورة الذهنية

(1)- التهانوي (محمد بن علي)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: د.علي دروج، مكتبة لبنان ناشرون، د ط، بيروت، 1996م. 1695/2-1696.

(2)- نفس المرجع.

(3)- نفس المرجع: 749/1.

(4)- نفس المرجع.

(5)- نفس المرجع.

بمجرد صلاحيتها لأن تقصد باللفظ، سواء وضع لها أم لا، فالمعنى بالاعتبار الأول يتصف بالإفراد والتركيب بالفعل، وبالاعتبار الثاني بصلاحية الإفراد والتركيب".⁽¹⁾

ثم إن هناك مصطلحات تشارك المعنى في اللفظ وتخالفه في المقصود، وهي كما قال الكفوي (الكليات): "اللفظ إذا وضع بإزاء الشيء فذلك الشيء من حيث يدل عليه اللفظ يسمى (مدلولاً)، ومن حيث يعنى باللفظ يسمى (معنى)، ومن حيث يحصل منه يسمى (مفهوماً)، ومن حيث كون الموضوع له اسماً يسمى (مسمى)".⁽²⁾

أقسام المعاني:

قال الطحلاوي: "اعلم: أن المعنى أقسام:

منها: ما يدل عليه المفرد.

ومنها: ما يدل عليه مركب تقييدي، أو إضافي.

ومنها: ما يدل عليه مفردان فصل بينهما، ك(ما) و(إلا)، فإنهما يفيدان الحصر.

ومنها: ما يدل عليه الكلام.

ومنها: ما يدل عليه سياقه.

ومنها: ما يدل عليه مجموع جمل.

ومنها: ما يدل عليه صفة المعنى؛ كالإيهام في (ما)؛ كقوله تعالى: {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ}،

فإن الإيهام دال على التفخيم.

ومنها: ما يدل عليه حذف اللفظ، كالمعمول.

ومنها: ما يدل عليه تقديمه.

ومنها: غير ذلك.

والعلم المتعلق بالأول والثاني: تصور، وبغيرهما: تصور وتصديق.

وينقسم من وجه آخر إلى: منطوق ومفهوم".⁽³⁾

فالمعنى على رأي الطحلاوي وهو (الصورة الذهنية من حيث تقصد باللفظ) يدل عليه أشياء كثيرة، منها:

1- ما يدل عليها المفرد:-

أي ما يدل عليه اللفظ المفرد، والمفرد هو ما لا يدل جزؤه على جزء معناه، والمراد بالمعنى الذي يدل عليه المفرد هنا هو المعنى المعجمي للكلمة المفردة، وقد يكون للكلمة معنى عرفي أو شرعي أو اصطلاحي.

2- ما يدل عليه مركب تقييدي أو إضافي:-

والمركب هو ما يدل جزؤه على جزء معناه، ومعناه معنى تركيب، والمراد بالمركب التقييدي: "كل كلمتين جعلت ثانيتهما قيذا لأولاهما"⁽⁴⁾، وهو خمسة أنواع: الأول: مركب إضافي، والثاني: مركب بياني، وهو ثلاثة أنواع: مركب وصفي، ومركب توكيدي، ومركب بدلي، والثالث: مركب عطف، والرابع: مركب مزجي، والخامس: مركب عددي.

3- ما يدل عليه مفردان فصل بينهما:-

ك(ما) و(إلا) فإنهما يفيدان الحصر، وهو نوع من المركب الإسنادي، وسيدكره باسم الكلام، وإنما خص هذا التركيب بالذكر هنا لأنه أسلوب خاص يسمى أسلوب القصر، وهو: "تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص"⁽⁵⁾، وهو باعتبار الواقع حقيقي وإضافي،

(1). كشف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1600/2.

(2). الكفوي (أيوب بن موسى)، تج: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، د ط، بيروت، د ت: 842/1.

(3). غاية الأحكام، ص 61-62.

(4). ثمر الثمام، ص 103.

(5). الهاشمي (أحمد)، جواهر البلاغة، دار الفكر، د ط، بيروت، هـ: 1398، م: 1978، ص 179.

وباعتبار الطرفين قصر صفة على موصوف وقصر موصوف على صفة، والإضافي إما قصر أفراد وإما قصر قلب وإما قصر تعيين، وقد تكفل علماء البلاغة بتوضيح كل هذه الأقسام.

4- ما يدل عليه الكلام:-

وهو كما قال ابن جني: "كل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو (زيد أخوك)، و(قام محمد) و(ضرب سعيد) و(في الدار أبوك)، و(صه) و(مه)، و(رويد)، و(حاء) و(عاء) في الأصوات، و(حَسَن) و(لَبَّ) و(أَفَّ) و(أَوْه)، فكل لفظ استقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام".⁽¹⁾

5- ما يدل عليه مجموع جمل:-

وهذا يصدق عليه أنه كلام، لأن: "الكلام جنس للجمل، فإذا قال: (قام محمد) فهو كلام، وإذا قال: (قام محمد، وأخوك جعفر) فهو أيضًا كلام، كما كان لما وقع على الجملة الواحدة كلامًا، وإذا قال: (قام محمد وأخوك جعفر، وفي الدار سعيد) فهو أيضًا كلام؛ كما كان لما وقع على الجملتين كلامًا".⁽²⁾

ولا شك أن مجموع الجمل هو نص بالمعنى الذي اختاره كثير من اللسانيين النصيين المعاصرين سواء من الغربيين أو من العرب، إذ عندهم النص هو مجموعة من الجمل المتتابعة المترابطة التي تحمل معلومات يريد المتكلم أن يبلغها إلى السامع، في إطار تداولي محدد، وموقف اجتماعي معين، بغرض إفادته ما ليس عنده أو بغرض إعلامه بموقفه هو من أمر من الأمور، أو بغرض التأثير فيه وإقناعه بشيء حتى يعمله أو يعتقده.

6- ما يدل عليه السياق:-

"أي: سياق الكلام، بالمثلثة، بمعنى: سَوْقِهِ الشامل لسباقه - بِالْمَوْحَدَةِ - وَلِحَاقِهِ، ك (الشمس) الْمُفَسِّرَةَ لِلضَمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} فَإِنَّ سَبْقَ الْعَشِيِّ وَالْخَيْرِ - وَهُوَ صَلَاةُ الْعَصْرِ - وَلِحَوْقَ الْحِجَابِ مَعَ التَّوَارِي يَدُلُّ عَلَيْهَا".
هكذا شرح الأمير السياق، وضرب عليه مثالا بقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص:30-33]."

فالضمير في قوله تعالى (توارت) يعود على غير المذكور، ولكن السياق دل على أنه يعود على الشمس، وهو معنى قوله: "فإن سبق العشوي والخير - وهو صلاة العصر - ولحوق الحجاب مع التواري يدل عليها".⁽³⁾

وقد تنبه علماء الإسلام من مختلف التخصصات من قديم إلى معنى السياق ودوره في الكشف عن المعنى المراد في النص، ووظفه المفسرون أكثر من غيرهم، ومن ذلك قول سلطان العلماء العز ابن عبد السلام: "السياق مرشد إلى تبين الجملات، وترجيح الاحتمالات، وتقدير الواضحات، وكل ذلك يعرف بالاستعمال".⁽⁴⁾

7- ما يدل عليه صفة المعنى:-

"كالإبهام في (ما)؛ كقوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [الجن:10]، فإن الإبهام دال على التفخيم".⁽⁵⁾ "فكان العبارة لا تحيط به تفصيلاً".⁽⁶⁾ وهو كقوله تعالى: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [الجن:16]، وقوله: {فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} [طه:78].

(1)- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تج: محمد علي النجار، دار الهدى، ط2، بيروت، لبنان، د ت 17/1.

(2)- نفس المرجع 1/26-27.

(3)- ثمر الثمام، ص103-104.

(4)- ابن عبد السلام (عبد العزيز) الإمام في بيان أدلة الأحكام، تج: رضوان مختار بن غريبة، دار البشائر الإسلامية، ط1، د ب، 1407هـ، 1987م، ص159.

(5)- غاية الأحكام، ص61-62.

(6)- ثمر الثمام، ص105.

8- ما يدل عليه حذف اللفظ:-

كحذف المعمول في قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ} [يونس:25]، "فإن حذفه يدل على العموم، أي: كلُّ أحد"،⁽¹⁾ وكما قال محمد الشاوش: "إن من أهم مقومات ظاهرة الحذف قيامها على مقتضيات السياق بنوعيه المقالي والمقامي"،⁽²⁾ لأن الحذف لا يجوز إلا إذا كان في أحد السياقين ما يدل على المحذوف.

ذلك أن المتكلم يحاول دائماً في كلامه أن يختصر كلامه وأن يبذل أقل مجهود لتحقيق أكبر مردود، "والاختصار هو الاقتصار على الغرض مع حذف أو إضمار، والعرب لا يحذفون ما لا دلالة عليه، لأن حذف ما دلالة عليه مناف لغرض وضع الكلام من الإفادة والإفهام، وفائدة الحذف تقليل الكلام، وتقريب معانيه إلى الأفهام".⁽³⁾

9- ما يدل عليه تقديم اللفظ:-

"نحو: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة:5]، فإن تقديم المعمول للحصر، أي: لا نعبد إلا إياك"،⁽⁴⁾ وهذا يفيد أن التقديم والتأخير لهما دور كبير في تركيب الكلام وتحليله، وقد عني المتقدمون من النحاة بهذه الظاهرة ودرسوها في كثير من أبواب النحو، ويعتبر سيبويه أولهم في ذلك، ويبدو أن مبناهما عندهم على العناية والاهتمام.

من ذلك قوله في (هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول): "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك (ضرب زيداً عبد الله) لأنك إنما أردت به مؤخرًا ما أردت به مقدمًا، ولم تُرد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخرًا في اللفظ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدمًا، وهو عربيٌ جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهم يبيانه أَعنى، وإن كانا جميعاً يُهمَّانهم وَيَعْنِيانهم".⁽⁵⁾

وقد خص ابن جني التقديم والتأخير بحديث مطول، تعرض فيه لما يحسن تقديمه وما يقبح، وذكر أمثلة ذلك في أبواب نحوية مختلفة، وأنهى كلامه على ذلك بقوله: "فهذه وجوه التقديم والتأخير في كلام العرب، وإن كنا تركنا منها شيئاً فإنه معلوم الحال ولاحق بما قدمناه".⁽⁶⁾

10- دوال أخرى على المعنى:-

قال الأمير تعليقاً على قول الطحلاوي (ومنها غير ذلك): "كالدوام المأخوذ من اسمية الجملة، نحو: الحمد لله، والتجدد المدلول لِفعلِيَّتِها، نحو: {وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا} [غافر:13]، والحصر من تعريف طرفيها، وغير ذلك مما لو استقصي.. فُصِّي، حتى إن كيفية التكلُّم تدلُّ على المعاني عُرفاً. ألا ترى أنك إذا نطقت بقولك: (جاء زيدٌ) مُستفهِماً.. أتيت به على غير وجه الإخبار؟

وأما غير النطق من الدوال فلا ينحصر أيضاً".⁽⁷⁾

فرق ما بين المعنى الإفرادي والمعنى التركيبي:-

نبه الطحلاوي بعد كل ما سبق إلى أن العلم المتعلق بالمفرد وبالمركب بنوعيه التقييدي والإضافي تصور فقط، وأن المتعلق بغيرهما تصور وتصديق.⁽⁸⁾ والتصور هو حصول صورة الشيء في العقل، والتصديق هو تصور معه حكم، وهو إسناد أمر إلى آخر إيجاباً أو سلباً.⁽⁹⁾

(1)- ثمر الثمام، ص105.

(2)- الشاوش (محمد)، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، تونس، 1421هـ، 2001م، 1131/2.

(3)- ابن عبد السلام (عبد العزيز) مجاز القرآن، تح: دمصطفى محمد حسين الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، د ط، لندن، 1419هـ، 1999م، ص5.

(4)- ثمر الثمام، ص105.

(5)- سيبويه (عمرو بن قنبر)، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، د ط، بيروت، د ت. 34/1.

(6)- الخصائص: 390/2.

(7)- ثمر الثمام، ص105.

(8)- انظر: غاية الأحكام، ص62.

(9)- انظر: الرازي (محمود بن محمد)، تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية، وعليه حاشية الشريف الجرجاني، ومعه شرح الرسالة الشمسية

للكاتب، مطبعة مصطفى البابي الحايي، ط2، مصر، 1367هـ، 1948م، ص7.

وحصول صورة الشيء في العقل هو أن ترتسم منه صورة في العقل بها يمتاز الشيء عن غيره عند العقل، كما تثبت صورة الشيء في المرأة، إلا أن المرأة لا يثبت فيها إلا مُثُلُ المحسوسات، والنفس مرآة تنطبع فيها مُثُلُ المعقولات والمحسوسات⁽¹⁾.
ثم إن هذا التصور: "قد يكون تصورا واحدا كتصور الإنسان، وقد يكون متعددا بلا نسبة، كتصور الإنسان والكاتب، أو مع نسبة غير تامة أيضا، إما تقييدية كالحيوان الناطق، أو إضافية نحو: غلام زيد، وإما تامة خبرية كقولك: اضرب، وإما خبرية يشك فيها، فإن كل ذلك من قبيل التصورات الساذجة لخلوها من الحكم"⁽²⁾.

وفي التصديق لا بد أن يكون التصور متعددا، إذ لا بد من تصور المحكوم عليه والمحكوم به والنسبة الحكمية حتى يمكن اقتران الحكم به⁽³⁾.

وفي ظني أن الطحلاوي ما ذكر هذا - وهو من أوضاع المناطقة- إلا ليبين فرق ما بين المعنى الإفرادي والمعنى التركيبي، لأن المعنى الإفرادي هو معنى معجمي، أما المعنى التركيبي فهو معنى نحوي أي يدل عليه اللفظ المركب تركيبيا إسناديا على حسب ما تقتضيه طريقة العرب في التأليف.

دلالة المفهوم ودلالة المنطوق:-⁽⁴⁾

الدلالة:"هي على ما اصطلاح عليه أهل الميزان والأصول والعربية والمناظرة: أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر... والشيء الأول يسمى دالا، والشيء الآخر يسمى مدلول"⁽⁵⁾.

وقد قسم جمهور الأصوليين الدلالة إلى دلالة منطوق ودلالة مفهوم:

1- دلالة المنطوق هي:"ما فهم من دلالة اللفظ قطعاً في محل النطق"⁽⁶⁾.

2- دلالة المفهوم هي:"ما فهم من اللفظ في غير محل النطق"⁽⁷⁾.

وقسموا المنطوق إلى قسمين:

الأول:- ما لا يحتمل التأويل، وهو النص.

الثاني:- ما يحتمله، وهو الظاهر.

وقسموا الأول قسمين:

1- صريح إن دل عليه اللفظ بالمطابقة أو التضمن.

2- وغير صريح إن دل عليه بالالتزام.

وغير الصريح ينقسم إلى: دلالة اقتضاء وإيماء وإشارة.

1- دلالة الاقتضاء هي إذا توقف الصدق أو الصحة العقلية أو الشرعية عليه، مع كون ذلك مقصودا للمتكلم.

2- دلالة الإيماء هي أن يقترن اللفظ بحكم، لو لم يكن للتعليل لكان بعيدا.

3- دلالة الإشارة حيث لا يكون مقصودا للمتكلم⁽⁸⁾.

وقسموا دلالة المفهوم إلى قسمين:

1- مفهوم موافقة:- وهي "ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت موافقا لمدلوله في محل النطق"⁽⁹⁾.

"فإن كان أولى بالحكم من المنطوق به فيسمى فحوى الخطاب، وإن كان مساويا له فيسمى لحن الخطاب"⁽¹⁰⁾.

(1)- نفس المرجع.

(2)- نفس المرجع.

(3)- نفس المرجع.

(4)- انظر: محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، ط2، د ب، 2007م. ص87 وما بعدها.

(5)- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1/787.

(6)- الأمدي (علي بن أبي علي)، الإحكام في أصول الأحكام، تح: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، د ط، بيروت، دمشق، لبنان، 3/66.

(7)- نفس المرجع.

(8)- الشوكاني (محمد بن علي)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار المعرفة، د ط، بيروت، لبنان، د ت، ص178.

(9)- الإحكام في أصول الأحكام، 3/66.

(10)- إرشاد الفحول، ص178.

2- مفهوم مخالفة:- وهي "ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت مخالفاً لمدلوله في محل النطق"⁽¹⁾ إثباتاً ونفيًا، فيثبت للمسكوت عنه نقيض حكم المنطوق.⁽²⁾

ومفهوم المخالفة عند القائلين به - وهم الجمهور خلافاً للحنفية- عشرة أصنافي: مفهوم بالصفة، ومفهوم الشرط، ومفهوم الغاية، ومفهوم إنما، ومفهوم التخصيص بالأوصاف التي تطراً وتزول بالذكر، ومفهوم اللقب، ومفهوم الاسم المشتق الدال على الجنس، ومفهوم الاستثناء، ومفهوم العدد، ومفهوم حصر المبتدأ في الخبر.⁽³⁾

آداب الفهم والإفهام:-

تحت هذا العنوان بدأ الطحلاوي حديثه عن كيفية تحليل النص بقوله: "اعلم: أن فهم المعاني التي تحت الألفاظ يتوقف على: معرفة موضوعات المفردات لغة، وشرعا، واصطلاحا. ومعرفة العامل، وكم له من المعمولات. فإذا أردت فهم كلام فانظر في كل كلمة من حيث: معناها، وكونها عاملة أو معمولة. فإن كانت عاملة بحثت عن معمولها، فإن كان محذوفا نظرت إلى الحال، فهو بحسبه. وقد يفصل بين العامل ومعموله باعتراض، أو بتقديم المعمول، فلا بد من مزيد التأمل". فهو هنا يضع يد المتعلم على آليات تحليل النص - أي نص كان- وهي آليات تكشف عن المعاني الإفرادية والمعاني التركيبية، فأما المعاني الإفرادية فتتم بمعرفة المفردات وتحديد معانيها اللغوية والشرعية والاصطلاحية، وأما المعاني التركيبية فتتم بمعرفة البنى العاملة للنص.

فأول شيء يجب على محلل النص أن يعرفه هو معاني المفردات، فهي بحسب نوع النص الذي يحلله، أو تقول هي بحسب اصطلاح المتكلم، ففي نص شرعي يجب أن يراعي المعنى الشرعي، وفي نص لنحوي أو متكلم أو فقيه يجب أن يراعي المعنى الاصطلاحي، وإلا راعى المعنى اللغوي فقط سواء كان من نوع الحقيقة أو المجاز، أو من نوع المترادف أو المشترك أو الأضداد، وهذا يدل على أن المحلل يجب أن يأخذ في الحسبان لغة المتكلم أو صاحب النص.

وثاني شيء يجب على محلل النص أن يعرفه هو المعاني التركيبية، وهي الناشئة عن تأليف الألفاظ بعضها مع بعض وفق قانون العربية المستنبط من كلام العرب السليقيين، وذلك هو النحو في معناه الدقيق، فعليه أن يتفهم تركيب الجمل وأن يدرسها من حيث هي بنى عاملية، تتركب من عامل ومعمول ومخصص، وعلى هذا الأساس يجب أن يعرف أنواع العوامل وأنواع المعمولات، وذلك ما فعله الشيخ عبد القاهر الجرجاني في رسالة العوامل المائة.

الاعتراضيين عناصر الجملة أو بين الجمل:-

وقد يفصل المتكلم بين عامل ومعموله باعتراض، فيجب أن يعرف بداية الكلام ونهايته وما وقع بينهما مما يعترض به "الإفادة الكلام تقوية وتسديدا أو تحسينا"⁽⁴⁾ وقد عرّف سيبويه الاعتراض تعريفا جيدا كما قال محمد الشاوش فقال في (هذا باب من الاختصاص يجري على ما جرى عليه النداء): "...وذلك قولك: إنا معشر العرب نفعل كذا وكذا، كأنه قال: أعني، ولكنه فعل لا يظهر ولا يستعمل كما لم يكن ذلك في النداء، لأنهم اكتفوا بعلم المخاطب، وأنهم لا يريدون أن يحملوا الكلام على أوله، ولكن ما بعده محمول على أوله"⁽⁵⁾.

فقول سيبويه: "وأنهم لا يريدون أن يحملوا الكلام على أوله، ولكن ما بعده محمول على أوله"، يشمل الاعتراض بين عناصر الجملة أي البنية العاملة المعروفة عند النحاة، ويشمل الاعتراض بين الجملتين أي على مستوى النص المعروف عند البيانين، وهو الذي ذكره ابن هشام في المغني في الموضوع السابع عشر من مواضع الاعتراض بقوله: "السابع عشر بين جملتين مستقلتين نحو (فأثوهُنَّ

(1)- الإحكام في أصول الأحكام: 69/3.

(2)- إرشاد الفحول ص 179.

(3)- انظر: الإحكام في أصول الأحكام: 70/3.

(4)- الأنصار ي (ابن هشام)، مغني اللبيب. تج: محمد المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، ط5، بيروت، 1979 م. ص 506.

(5)- الكتاب: 233/2.

مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ} [البقرة: 222-223]... ومثلها في ذلك قوله تعالى {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ) أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [القمان: 14]."

وإنما وجب التنبيه على الاعتراض وفائدته لما في الخصائص لابن جني: "اعلم أن هذا القبيل من هذا العلم كثير قد جاء في القرآن وفصبح الشعر ومنثور الكلام. وهو جار عند العرب مجرى التأكيد، فلذلك لا يشنع عليهم ولا يستنكر عندهم أن يعترض به بين الفعل وفاعله والمبتدأ وخبره وغير ذلك مما لا يجوز الفصل فيه بغيره، إلا شاذاً أو متأولاً".⁽¹⁾

هذا وإن الاعتراض لا يخل بالتماسك النصي، بل على العكس، فهو من وسائل التماسك، لأنه لا يقع في الجملة أي البنية العاملة إلا بين متلازمين، ولا يقع في النص أي البنية ما فوق العاملة إلا بين متطالبيين، وعليه فإن الجملة المعترضة كلام مستقل بالإفادة، وفي نفس الوقت لا موضع إعراب لها، قال ابن هشام وهو بصدد تحقيق عدد الجمل المعترض بها بين جملتين من القرآن التي وقع فيها الخلاف بين الرمخشري وابن مالك وأبي حيان: "الكلام هنا ليس في مطلق الجملة، بل

في الجملة بقيد كونها جملة اعتراض، وتلك لا تكون إلا كلاماً تاماً".⁽²⁾

الحذف وشروطه وأدلتها:-

وحسب نظرية العمل فإن المتكلم قد يحذف العامل وقد يحذف المعمول، وقد يقدم المعمول، وقد يفصل بينه وبين عامله، فيجب على محلل النص أو الخطاب أن يراعي هذا الجانب، فلا يغفل عن معرفة الحذوف التي تقع في الكلام، لأن الحذف كثير وقوعه، ولأن له دوراً في بلاغة الكلام وهو الإيجاز والمجاز، ودوراً في تماسك النص والإحالة فيه.

وقد درس النحاة مسألة حذف العامل وحذف المعمول ومسألة تقديم أحدهما أو تأخيره والفصل بينهما، وكذلك فعل البلاغيون والأصوليون، كل حسب اختصاصه ودائرة عمله، وهذا ابن جني قد عقد لذلك باباً في الخصائص تحت عنوان (في شجاعة العربية) قال فيه: "اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف"، ثم قال في الحذف: "قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته".⁽³⁾

وذكر ابن هشام أكثر من أربعين نوعاً من الحذوف بأمثلتها من القرآن والشعر وكلام العرب وقال في شروط الحذف: هي ثمانية: أحدها:- وجود دليل حالي كقولك لمن رفع سوطاً: "زيداً" بإضمار اضرب، ومنه {قَالُوا سَلَامًا} [هود: 69]، أي سلمنا سلاماً، أو مقالي كقولك لمن قال: مَنْ أَضْرِبُ؟ "زيداً".⁽⁴⁾ ونبه إلى أن هذا إنما يحتاج إليه إذا كان المحذوف الجملة بأسرها أو أحد ركنيها أو لفظاً يفيد معنى فيها مبنية عليه.

ثم قال: "وأما إذا كان المحذوف فضلة فلا يشترط وجدان الدليل، ولكن يشترط ألا يكون في حذفه ضرر معنوي كما في قولك (ما ضربت إلا زيدا)، أو صناعي كما في قولك (زيدٌ ضربته) وقولك (ضربني وضربته زيد)".⁽⁵⁾

الشرط الثاني:- ألا يكون ما يحذف كالجاء، فلا يحذف الفاعل ولا نائبه ولا مشبهه.

الثالث:- ألا يكون مؤكّداً... لأن المؤكّد مريد للطول، والحاذف مريد للاختصار.

الرابع:- ألا يؤدي حذفه إلى اختصار المختصر.

الخامس:- ألا يكون عاملاً ضعيفاً، فلا يحذف الجار والجازم والناصب للفعل، إلا في مواضع قويت فيها الدلالة وكثر فيها استعمال تلك العوامل، ولا يجوز القياس عليها.

السادس:- ألا يكون عوضاً عن شيء، فلا تحذف (ما) في (أمّا أنت منطلقاً انطلقت) ولا كلمة (لا) من قولهم (افعل هذا إمّا لا) ولا التاء من عدة وإقامة واستقامة...

(1)- الخصائص: 336/1.

(2)- مغني اللبيب: ص 492.

(3)- الخصائص: 360/2.

(4)- مغني اللبيب عن كتب الأعراب: ص 786-787.

(5)- نفس المرجع.

السابع والثامن:- ألا يؤدي حذفه إلى تهيئة العامل للعمل وقطعه عنه، ولا إلى إعمال العامل الضعيف مع إمكان إعمال العامل القوي.⁽¹⁾

وفي كتاب (مجاز القرآن) للشيخ ابن عبد السلام فصل طويل في أنواع الحذف بلغ بها إلى تسعة عشر نوعاً، وذكر فضلاً عن ذلك أمثلتها من القرآن، وأدلة الحذف وأدلة تعيين المحذوف.

وهذه المحذوفات هي: حذف المضافات، والمفعولات والموصوفات والأقوال والشروط وأجوبة الشروط وجواب لو وجواب لولا والقسم وأجوبة القسم والمبتدأ والخبر وبعض حروف الجر والأفعال العاملة ومفاعيل المشيئة والإرادة وضمائر الموصولات وفعل الأمر والجملة والجملة الكثيرة.⁽²⁾

وعلى سبيل المثال فهو عند ذكر حذف المضاف قال: "وله أمثلة كثيرة، منها: نسبة التحليل والتحريم والكراهة والإيجاب والاستحباب إلى الأعيان، فهذا من مجاز الحذف، إذ لا يتصور تعلق الطلب بالأجرام، وإنما تطلب أفعال يتعلق بها، فتحريم الميتة تحريم لأكلها، وتحريم الخمر تحريم لشربها، وتحريم الحرير تحريم لاستعماله، وكذلك تحريم الذهب والفضة... إلخ.⁽³⁾ ثم قال - مع ذكر الأمثلة الكثيرة - : "وأدلة الحذف أنواع: أحدها: ما يدل العقل على حذفه والمقصود الأظهر على تعيينه.

الثاني: ما يدل عليه العقل بمجرد.

الثالث: ما يدل عليه الوقوع.

الرابع: ما يدل العقل على حذفه والعادة على تعيينه.

الخامس: ما تدل العادة على حذفه وتعيينه.

السادس: ما يدل عليه السياق.

السابع: ما دل العقل على حذفه والشرع على تعيينه.

الثامن: ما دل الشرع على حذفه وتعيينه.⁽⁴⁾

هذا وقد نبه ابن هشام في المغني إلى أمر هام وهو أن الحذف موضوع درس كل من النحوي والمفسر والبياني، وأن عادة علماء الإسلام ألا يخلطوا بين العلوم ولو كان موضوع الدرس واحداً، وهذا يهدينا إلى أننا إذا أردنا أن ندرس موضوعاً كالحذف فيجب أن ننظر فيه عند النحاة والمفسرين والأصوليين والبلاغيين جميعاً، حتى نلم بالموضوع من مختلف جوانبه، وحتى نساير في ذلك لسانيات النص الغربية وتحليل الخطاب، فهي إذ تدرس النص أو الخطاب تمزج في ذلك بين مختلف الدراسات اللسانية ولا تخصصها بدرس معين لا تخرج عنه.

قال ابن هشام: "الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة، وذلك بأن يجد خيراً بدون مبتدأ أو بالعكس، أو شرطاً بدون جزاء أو بالعكس، أو معطوفاً بدون معطوف عليه، أو معمولاً بدون عامل، نحو {لَيَقُولَنَّ اللَّهُ} {العنكبوت: 61}، ونحو {قَالُوا خَيْرًا} {النحل: 30}، ونحو {خَيْرٍ وَعَافَاكَ اللَّهُ}.

وأما قولهم في نحو {سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} {النحل: 81}، إن التقدير: والبرد، ونحو {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} {الشعراء: 22}، إن التقدير: ولم تعبدني، ففضول في فن النحو، وإنما ذلك للمفسر، وكذا قولهم: يحذف الفاعل لعظمته وحقارة المفعول أو بالعكس أو للجهل به أو للخوف عليه أو منه ونحو ذلك، فإنه تطفل منهم على صناعة البيان".⁽⁵⁾

ظاهرة التقدير:-

(1). مغني اللبيب، ص 786-797.

(2). انظر: مجاز القرآن، ص 6-42.

(3). مجاز القرآن، ص 6.

(4). نفس المرجع، ص 8-16.

(5). مغني اللبيب، ص 853.

قال الطحلاوي: "وقد يتم الكلام ولا يستقيم المعنى، فينظر: فإن كان فساده لازماً رد، وإن كان لعدم كلمة أو أكثر قدر بحسب الحاجة، ولا يزداد عليها"⁽¹⁾ وقال الأمير شارحا: " (وقد يتم الكلام) بأن تأخذ العوامل معمولاتها والإسناد أركانه (ولا يستقيم المعنى، فينظر: فإن كان فساده لازماً) لا يمكن التخلص منه (رد) الكلام، ولا يصح له مثال في كلام معتبر، (وإن كان) فساده الظاهري لعدم كلمة أو أكثر قدر بحسب الحاجة، ولا يزداد عليها) فإن الحذف تكلف ينبغي تقليله مهما أمكن، فيقال في قوله تعالى: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) [يوسف:82]، التقدير: واسأل أهل القرية، لا أهل تلك القرية"⁽²⁾.

وإذا كان الحذف يخضع لقواعد فلا يجوز أن يكون اعتباطياً دون موجب أو دليل فإن التقدير أيضا يخضع لقواعد ينبغي مراعاتها عندما يتطلبه تحليل النص أو الخطاب، ولذلك قال ابن هشام في بيان مقدار المقدر: "ينبغي تقليله ما أمكن لتقل مخالفة الأصل"⁽³⁾، لأن الإظهار هو الأصل والإضمار فرع عنه. وقال في بيان كيفية التقدير: "إذا استدعى الكلام تقدير أسماء متضايقة، أو موصوف وصفة مضافة، أو جار ومجرور مضمر عائد على ما يحتاج إلى الرباط، فلا يقدر أن ذلك حذف دفعة واحدة، بل على التدرج"⁽⁴⁾ أي: "إذا قام الحذف على حذف عنصرين أو أكثر قدر حذف العنصر بعد العنصر، ولا يقدر حذفهما دفعة واحدة"⁽⁵⁾ وقال: "ينبغي أن يكون المحذوف من لفظ المذكور مهما أمكن"⁽⁶⁾.

وقد وضع العز ابن عبد السلام قواعد في التقدير لعل أهمها ما ورد في قوله - بعد أن ذكر جملة من الآيات التي وقع فيها حذف-: "وكذلك جميع حذف القرآن من المفاعيل والموصوفات وغيرهما لا يقدر إلا أفصحها وأشدّها موافقة للغرض، لأن العرب لا يقدرن إلا ما لو لفظوا به لكان أحسن وأنسب لذلك الكلام، كما يفعلون ذلك في الملفوظ به"⁽⁷⁾.

وبعد أن مثل لكلامه بآيات كثيرة قال: وعلى الجملة فالمضاف قسمان: أحدهما ما يتعين تقديره كقوله تعالى {آمَنُوا بِاللَّهِ} [النساء:136]، تقديره: آمنوا بوحداية الله، ولا يقدر آمنوا بوجود الله، لأن الذين خوطبوا بهذا كانوا مؤمنين بوجوده، وأنه خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وأنزل من السماء المطر، فيقدر في كل مكان ما يليق به.

فإن كان الخطاب مع المشركين قدرت: فأمنوا بوحداية الله ورسوله، لأن الكلام مع قوم جحدوا الوحدانية، وإن كان الكلام مع اليهود كان التقدير: ولو آمن أهل الكتاب بدين الله، وإن كان مع النصارى جاز أن يقدر: آمنوا بدين الله وآمنوا بوحداية الله، وكذلك في الكفر تقدر في كل مكان ما يليق به، فيقدر في قوله تعالى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ} [البقرة:28]: كيف تكفرون بقدرة الله على بعثكم وقد كنتم أمواتاً فأحياكم، ويقدر في قوله تعالى {أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ} [هود:60]: ألا إن عاداً كفروا نعم ربهم"⁽⁸⁾.

ومن قواعد التقدير للمحذوف ما قال الطحلاوي: "وإذا احتتم اللفظ أكثر من معنى، وبعضه يحتاج إلى تقدير دون غيره.. فما لا يحتاج أولى، وكذلك ما يحتاج إلى أقل من غيره"⁽⁹⁾ لأن الأصل الإظهار، فالمعنى الذي لا يحتاج إلى تقدير أولى من المعنى الذي يحتاج إليه، وتقدير الأقل عند الحاجة أولى من تقدير الأكثر إذا كان الأقل كافياً في بيان المعنى ووضوحه.

أما أرجحية عدم التقدير إذا لم تكن إليه حاجة فلأنه الأصل، وفي ذلك قال محمد الشاوش تحت عنوان (الأصل عدم التقدير): "تقدير العنصر لا يكون إلا لحاجة ملجئة إليه، وقد اعتمد الأسترياذي هذا الأصل قاعدة للترجيح بين الأقوال... قال: وهو أولى لأن الأصل عدم التقدير بلا ضرورة ملجئة إليه"⁽¹⁰⁾.

(1) - غاية الإحكام، ص 64.

(2) - ثمر الثمام، ص 111-112.

(3) - مغني اللبيب، ص 802.

(4) - نفس المرجع، ص 803.

(5) - أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: 1167/2.

(6) - نفس المرجع، ص 804.

(7) - مجاز القرآن، ص 10.

(8) - نفس المرجع، ص 17.

(9) - غاية الإحكام، ص 64.

(10) - أصول تحليل الخطاب، 1166/2.

وأما أرجحية تقديم تقدير الأقل فـ"لأن اختصار المحذوفات أحسن من إطالتها، فلا يقدر ما فيه طول إلا عند الاضطرار إلى الإطالة، كقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهْرٍ} [البقرة:249]، تقديره: إن الله مبتليكم بشرب ماء نهر، وكقوله تعالى {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} [طه:96]، تقديره: فقبضت قبضة من أثر حافر فرس الرسول".⁽¹⁾

المشترك اللفظي والمشارك المعنوي:-

قال الطحلاوي: "وإذا كان اللفظ مشتركاً نظرت لمعناه واحداً واحداً، فما كان مناسباً للمعنى حملته عليه. وإذا كان كلياً، فإن كان المراد منه جميع الأفراد الموجودة فقط، أو الموجودة والمقدرة، أو فرداً غير معين فلا إشكال. وإن كان المراد فرداً مخصوصاً تؤمل المعنى ليظهر، فينظر في الأفراد فرداً فرداً، فما يقتضيه المعنى فسر اللفظ به".⁽²⁾

وقال الأمير شارحاً: "وإذا كان اللفظ مشتركاً (اشتركا لفظياً - كما هو المراد عند الإطلاق - (نظرت لمعناه) ... يعني لمعانيه (واحداً واحداً) ... أي واحداً فواحداً (فما كان مناسباً) من معانيه (للمعنى) الذي سيق له الكلام أو لأن يكون معنياً من اللفظ (حملته عليه). وأشار للمشارك المعنوي بقوله (وإذا كان كلياً، فإن كان المراد منه جميع الأفراد الموجودة فقط، أو الموجودة والمقدرة، أو فرداً غير معين فلا إشكال) حيث دل الدليل على المراد من ذلك. (وإن كان المراد فرداً مخصوصاً تؤمل المعنى) المسوق له الكلام (ليظهر) ذلك المخصوص (فينظر) بعد معرفة ما سيق له الكلام (في الأفراد فرداً فرداً، فما يقتضيه المعنى فسر اللفظ به) وقد يتضح الدليل على تعيين المخصوص المراد ابتداءً، فلا إشكال".⁽³⁾

والأمر المرجوع إليه في تحديد معنى المشترك اللفظي أو المعنوي هو السياق والقرائن، وفي معنى هذا قال العز ابن عبد السلام: "إذا كان الاسم مشتركاً ولم يظهر في أحد مسمياته فمن العلماء من يحمله على جميع مسمياته، فعلى هذا تكون لفظة الرب في قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:2] جامعة لمعنى الإلهية والملك والسؤدد والإصلاح، ومنهم من يحمله على بعض مسمياته، فإن كان في السياق ما يعينه ويدل عليه حمل الكلام عليه، وإن لم يكن في السياق ولا في قرائن الأحوال ما يدل عليه فهو محمل مراد الله منه أحد مسمياته على التعيين عنده، فمعنى قوله: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الكهف:14]: إلهنا ومعبودنا ملك السموات والأرض، وقوله: {رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ} [المائدة:114] مناسب لحمله على المصلح، لأن إنزال المائدة من جملة الإصلاح، ومناسب للملك، لأن الملك هو القائم بأرزاق عبيده، وفي ربطه بالسيد والمعبود بعد".⁽⁴⁾

أنواع تفسير الألفاظ:-

قال الطحلاوي: "واعلم أن التفسير إما بالمطابق، وإما باللازم، وإما بالمثل".⁽⁵⁾ فالمطابق هو ما وضع له اللفظ، واللازم أي اللازم لما وضع له، قال الأمير: "وكانه أدرج التفسير بالجزء، كتفسير الإنسان بالناطق في هذا، فإن الجزء لازم لكل".⁽⁶⁾ ثم قال: "وإما بالمثل (جزئياً كان نحو: الإنسان كزيد، أو مبايناً مشابهاً نحو: العلم كالنور".⁽⁷⁾

وهذا عودة من الطحلاوي إلى ذكر المعاني المعجمية لألفاظ النص أو الخطاب، لأن التفسير كما قال السيوطي نقلاً عن الراغب الأصفهاني: "أكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها"،⁽⁸⁾ وطريقة تفسير المفردات تكون بإحدى الطرق التي ذكرها المصنف، إما بالمرادف، وإما بلازم المعنى، ومن جملة ما يدل عليه اللفظ بالتضمن، وإما بالمثل، أي بوضع المفردة المراد تفسيرها في جملة، فيكون هذا من باب التفسير السياقي.

الزائد والأصلي من الألفاظ:-

(1). مجاز القرآن. ص 10-11.

(2). غاية الأحكام. ص 64.

(3). ثمر الثمام. ص 113-114.

(4). مجاز القرآن. ص 505. 506.

(5). غاية الأحكام. ص 65.

(6). ثمر الثمام. ص 114.

(7). نفس المرجع.

(8). السيوطي (عبد الرحمن)، الإتيان، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، طبعة 1394هـ، 1974م. 4/192.

قال: "وقد يفسد المعنى ببعض الألفاظ، لاعتقاد كونه أصليا، فطريق معرفة صحته أو فساده أنه إن كان لا يأتي زائدا أصلا فالمعنى لازم الفساد، أو لا، فالمعنى صحيح واللفظ زائد".

وذلك كحروف الجر، فمنها ما لا يزداد ومنها ما يزداد، وما يزداد لا يكون الغرض منه إلا تقوية الكلام وتأكيده، كقوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، فإن (ما) زائدة، والمعنى صحيح، بل فوق الصحيح، وكقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8]، فإن الباء أيضا زائدة، فالمعنى أيضا صحيح بل بليغ.

ولكن الأمير الشارح بعد أن بين أن الزائد في الكلام الذي لا يمكن أن يأتي حسب قواعد العربية زائدا أصلا لا يقع ممن به اعتداد ضرب المثل بقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] فقال:

"(أو لا) بأن كان يأتي زائدا) كالكافي قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وإلا.. فسَدَ بَثْبُوتِ الْمَثَلِ، وقيل: (مثل) بمعنى وَصَفَ وشَأْن، وقيل: من باب: مثلك لا يبخل، أي: فأولى هو، وقيل: يلزم من نفي مَثَلِ مِثْلِهِ نفي مَثَلِ له، وإلا كان هو مثلاً لمِثْلِهِ، لأنه معلومُ التَحَقُّقِ، والغرضُ أنه لا مِثْلَ مِثْلِهِ، فهو على حَدِّ: ليس لأخ زيد أخ، أي: لا أخ لزيد".⁽¹⁾

المجاز والحقيقة:-

قال: "وإذا كان اللفظ مجازا نظر في هذا المعنى المجازي وغيره من معاني ذلك اللفظ، ليعلم المعنى المتجاوز عنه، فقد يكون المتجاوز معنى حقيقيا، وقد يكون مجازيا، وقد يتعين كل من المعنى المجازي والمتجاوز عنه، وقد لا يتعين. والتعين إما: لقريئة، أو اتحاد المعنى".⁽²⁾

ومدار كلامه هنا على وجوب تحقق المحلل للنص أو الخطاب من معنى اللفظ هل هو حقيقة أم مجاز أم مجاز المجاز، وذلك لأن اللفظ إذا استعمل فيما وضع له في اصطلاح به التخاطب فهو حقيقة، وإذا استعمل في غير ما وضع له فهو مجاز، أي تجوز به من المعنى الحقيقي إلى معنى آخر لم يوضع له اللفظ، ولكن وجدت علاقة سوغت هذا التجوز أو الانتقال، شرط أن تكون هناك قريئة دالة على هذا التجوز.

وقد ذكر كثير من علماء البلاغة أنواع المجاز، وبالغوا في استقصائها، وأنواع العلاقات وأوصلوها إلى خمس وعشرين علاقة، كما نهوا إلى أنواع القرائن الدالة على التجوز، وضربوا على ذلك كله الأمثلة من القرآن وكلام العرب شعرا ونثرا.

وأما مجاز المجاز فهو كما قال العز ابن عبد السلام: "هو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر، فتجوز بالمجاز الأول عن الثاني لعلاقة بينه وبين الثاني، مثال ذلك قوله: ﴿وَلَكِنَّ لَا تُوعِدُوهُمْ سِرًّا﴾ [البقرة: 235]، فإنه مجاز عن مجاز، فإن الوطاء يتجاوز عنه بالسر، لأنه لا يقع غالبا إلا في السر، فلما لازم السر في الغالب سمي سرا، ويتجاوز بالسر عن العقد، لأنه سبب فيه، فالمصحح للمجاز الأول الملازمة، والمصحح للمجاز الثاني التعبير باسم السبب الذي هو السر عن العقد الذي هو سبب كما سمي عقد النكاح نكاحا لكونه سببا في النكاح.

وكذلك سمي العقد سرا لأنه سبب في السر الذي هو النكاح، فهذا مجاز عن مجاز، مع اختلاف المصحح، فمعنى قوله: ﴿وَلَكِنَّ لَا تُوعِدُوهُمْ سِرًّا﴾ [البقرة: 235]: لا تواعدوهن عقد النكاح".⁽³⁾

التوابع ومتبوعاتها:

قال: "وإذا كان توابع فلا بد من معرفة متبوعها".⁽⁴⁾

والتوابع المعروفة في العربية خمسة وهي: التعت والتوكيد والبذل وعطف البيان وعطف النسق، وقد سبق له أن عبر عنها بالمركبات التقيدية، وإنما نبه عليها هنا لما يحتاج إليه المحلل من العلم بها.

(1)- ثمر الثمام، ص 115.

(2)- غاية افحكام، ص 65.

(3)- مجاز القرآن، ص 255.

(4)- غاية الإحكام، ص 65.

وقد أفرد محمد الشاوش للعطف فصلا في كتابه الممتع (أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية) وعرض بالذكر والتحليل إلى هذه التوابع والفوارق بينها، وخص عطف النسق بمزيد بحث اقتضاه حديثه عن الوصل والفصل، واعتبر عطف الجملة على الجملة نواة لنحو النص.⁽¹⁾

نحو الجمل (إعراب الجمل وأشباه الجمل):-

قال: "ولا بد من النظر في كل جملة بعد النظر في المفردات، ليعلم أي جملة هي"،⁽²⁾ أي: "ولا بد من النظر في كل جملة) إن تعددت الجمل (بعد النظر في المفردات، ليعلم) جواب (أي الجمل هي)، ألها محل من الإعراب أو لا؟ وعلى كل فمن أي نوع، كالصفة والصلة".⁽³⁾

وهذا ما يسمى بنحو الجمل، أو إعراب الجمل وأشباه الجمل، ونحو الجمل هو الدرس النحوي الذي يشتغل على النص وليس على الجملة فقط، وبه تتبين العلاقات التي تكون بين الجمل، والروابط اللفظية والمعنوية التي تمثل سبك النص وحبكه أو اتساقه وانسجامه.

وقد غفل عن هذا الدرس النحوي الذي يمكن أن نسميه بنحو النص أكثر من تكلم في لسانيات النص أو نحو النص، ظنا منهم أن النحو العربي هو نحو جملة فقط، وتقليدا منهم في ذلك للغربيين، لأن هؤلاء - فعلا - نحوهم التقليدي نحو جملة، ولذلك رأوا أنهم وجدوا فضاء رحبا في نحو النص المبتدع عندهم والحديث النشأة لديهم.

ولعل المعربين من علمائنا قديما وحديثا هم أكثر الناس اشتغالا بنحو الجمل أي نحو النص، إذ أعربوا القرآن إعرابا مفصلا: مفردات وجملا، وبينوا وجه تعالق الجمل ذات المحل والجمل غير ذات المحل، وكتب إعراب القرآن خير شاهد على ذلك، وهكذا فعلوا بالشعر العربي، فقد أعربوا بعض عيون الشعر والقصائد المشهورة أيضا إعرابا مفصلا، بينوا فيه الجمل بنوعها، ووجه التعالق بينها، وخير شاهد لذلك هو ما فعله العلامة ابن مرزوق الحفيد في (إظهار صدق المودة في شرح البردة).
الخاتمة:-

ما زال نص الطحلاوي متواصلا، وليس بالإمكان مواصلة شرحه وبيان كل ما فيه، ولكن على رأي المثل يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، أعني يكفي أننا حاولنا الإلمام بأكثر قضايا تحليل النص التي وردت فيه، لأن الغرض كان إعطاء صورة واضحة عما احتوى عليه من أصول التحليل كما تصورها سلفنا، قبل أن تظهر لسانيات النص وتحليل الخطاب عند الغربيين. وأظن أننا وفيينا الغرض حقه من الكشف والبيان، وإن كان مثل هذا الموضوع لا تكفي فيه ورقة بحثية كهذه التي بين يدي القارئ، لأن تراثنا العربي والإسلامي كبير وضخم، ولا تزال الأبحاث جارية في استكشاف مجاهله، والتنقيب عن ذخائره، والمستقبل كفيل بالتدليل على ذلك.

والذي خرجنا به من هذا البحث أن علماءنا - قديما على الخصوص - كانوا على وعي بمعنى النص أو الخطاب، وعلى وعي بكثير من أصول التحليل وإجراءاته من أجل تفكيكه وبيان معانيه وكشف معانيه، وكانوا يمارسون تحليل الخطاب ممارسة تدل على حذق وحصافة تامتين، ولا شك أن أول نص عنوا به هو القرآن الكريم.

وهذا يعني أن عنايتهم كانت منصبه على الجانب التطبيقي في التحليل دون الجانب التنظيري، ولذلك قلت الأعمال التنظيرية فيه، ذلك أن الفكر العربي المسلم كما قال الحاج صالح رحمه الله مرارا وتكرارا كان فكريا إجرائيا، يهتم بكيفية حدوث الوحدات اللغوية لا بماهيتها، خلافا للفكر اليوناني قديما والفكر الغربي حديثا.

ومع ذلك فقد وجدت أعمال تهتم بالتنظير للتحليل، وهي وإن كانت قليلة فإنها تكفي للبرهنة على سبق علمائنا إليه، وما رسالة الطحلاوي إلا نموذج من النماذج التي حفظها لنا التاريخ، وقد حاولنا التعريف بمضمونها وما احتوت عليه من مباحث في أصول تحليل الخطاب.

(1)- انظر: أصول تحليل النص في النظرية النحوية العربية، 1/423.

(2)- غاية الأحكام، ص 65-66.

(3)- ثمر الثمام، ص 117.

المصادر والمراجع:

- 1- الأمير المالكي (محمد بن أحمد)، ثمر الثمام شرح غاية الأحكام في آداب الفهم والإفهام، دون معلومات.
- 1- الأنصاري (ابن هشام)، مغني اللبيب. تح: محمد المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، ط5، بيروت، 1979م.
- 1- الأمدى (علي بن أبي علي)، الإحكام في أصول الأحكام، تح: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، د ط، بيروت، دمشق، لبنان،
- 1- التهانوي (محمد بن علي)، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: د.علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، د ط، بيروت، 1996م.
- 1- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، ط2، بيروت، لبنان، د ت.
- 1- الرازي (محمود بن محمد)، تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية، وعليه حاشية الشريف الجرجاني، ومعه شرح الرسالة الشمسية للكاتب، مطبعة مصطفى البابي الحاي، ط2، مصر، 1367هـ، 1948م.
- 1- السيوطي (عبد الرحمن)، الإتقان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، طبعة 1394هـ، 1974م.
- 1- الشاوش (محمد)، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، تونس، 1421هـ،
- 1- الشوكاني (محمد بن علي)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار المعرفة، د ط، بيروت، لبنان، د ت،
- 1- الطحلاوي (عمر بن يحيى)، غاية الأحكام في آداب الفهم والإفهام، دون معلومات.
- 1- ابن عبد السلام (عبد العزيز) الإمام في بيان أدلة الأحكام، تح: رضوان مختار بن غربية، دار البشائر الإسلامية، ط1، د ب، 1407هـ، 1987م.
- 1- ابن عبد السلام (عبد العزيز) مجاز القرآن، تح: د.مصطفى محمد حسين الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، د ط، لندن، 1419هـ، 1999م.
- 1- الكفوي (أيوب بن موسى)، تح: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، د ط، بيروت، د ت: 842/1.
- 1- محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، ط2، د ب،
- 1- الهاشمي (أحمد)، جواهر البلاغة، دار الفكر، د ط، بيروت، 1398هـ، 1978م.

التماسك النصي بين القدماء والمحدثين.

د. سليمان بوراس

جامعة المسيلة - الجزائر

ملخص:

لقي مصطلحا الاتساق والانسجام المتناولين لقضية التماسك النصي في الدراسات اللسانية النصية عناية كبيرة من لدن الدارسين في هذا المجال، وما كان ذلك إلا للمكانة المركزية للمصطلحين العلميين في هذا الباب، فما من مؤلف في اللسانيات النصية إلا ويتحدث عنهما، ولا من مؤلف إلا وبين دفتيه حديث عن ذلك، فمن علمائنا الأولين نجد برهان الدين البقاعي وأسامة بن منقذ (ت 588هـ) كما نجد عبد القاهر الجرجاني والزركشي وحازم القرطاجني والسيوطي وغير هؤلاء كثير. وتأتي هذه المداخلة لتبين للدارس مفهوم التماسك النصي من خلال الاتساق والانسجام من وجهة نظر القدماء ومن وجهة نظر المحدثين، ولتقول إن ما يشتغل عليه الدرس اللساني النصي الحديث ما هو إلا اجترار لمفاهيم النصية العربية القديمة، كما تهدف المداخلة إلى الغوص في مفهومي الاتساق والانسجام من وجهة نظر لسانية حديثة متوقفة عند مفهوم الاتساق وأشكاله من إحالة وربط بالحروف وحذف واستبدال، كما تتناول الانسجام من حيث مؤشرات التي يقوم عليها من موضوع للخطاب وتناسق وعلاقات داخل النص.

الكلمات المفتاحية :

اللسانيات النصية / الاتساق / الانسجام / القدماء / المحدثون

Abstract :

The terms of cohesion and coherence have been considered so important by the linguistic Studies texts .in this field .it was only by for its great importance that it has by scientists. There is no linguist who didn't tackle it .among them we alboyqaai ,oussama in almonqid,(588ad).as we find abdelkaheer aldjorjani, azzarkachi,hazime alkrtajeni asouyoti and many others.

And comes this interference to to show the importance of the text unity through coherence from both old people's point of view or new people's point of view comes the new text depends on the old Arabic ones.as it aims to the deepest understanding from the new point of view is stopped at the notion of harmony and its form as adding letters, deleting letters, or changing them as it tackles Harmony and its forms .

Key words

Linguistic texts / cohesion / coherence /harmony/eldest/newest.

لا أحد ينكر أن الدرس الأول عند المسلمين كان درسا قرآنيا تعددت زواياه و مناحيه، فقد فسروه ثم تناولوا إعرابه وبلاغته ثم درسوا جمالياته وتماسكه " فإذا عنايتهم تنصب على دراسته، وإذا به كأنه سبيكة واحدة تأخذ آياته وسوره بعضها برقاب بعض، بحيث لا يوجد بين أجزائه تفكك ولا ضعف" (1)، ثم امتدت الدراسات الى غير القرآن و إذا الموضوعات اللسانية الحديثة كالانسجام و الحبك و السبك تطرح حينها، ومن الأمثلة التي يمكن أن تكون دليلا على الذي نذهب إليه في هذا الباب، أن نجد أسامة بن منقذ الفارس العربي المسلم (ت 588هـ) يهتم بهذا الموضوع اللغوي، مسجلا بابا بعنوان: (باب الفك والسبك) في كتابه: البديع في نقد الشعر، يتناول فيه تعريف السبك بقوله: " وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت بعضها ببعض ، من أوله إلى آخره كقول زهير (بسيط) :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضارب ، حتى إذا ما ضاربوا أعتنقا

ولهذا قال : خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض" (1) كما سجل، فصلا سماه الانسجام قال فيه : اعلم أن الانسجام أن يأتي كلام المتكلم شعرا من غير أن يقصد إليه، وهو يدل على فور الطبع والغريزة ، مثل قول ابن هرمة لبعض الحجاب :

بالله ربك إن دخلت فقل له هذا ابن هرمة واقف بالباب²

ولعل من أهم الكتب التي تناولت الموضوع أيضا لحازم القرطاجني (ت 684 هـ) في كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، فهو مثلا يتحدث عن كلام في الشعر فيقول: " فأما المتصل العبارة والغرض، فهو الذي يكون فيه لآخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقه من جهة الغرض، وارتباط من جهة العبارة " (3)، وليس لقوله: " لآخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقه، من جهة الغرض وارتباط من جهة العبارة " إلا أن يفسر على أنه ما نسميه اليوم الاتساق والانسجام .

والمطلع على كتاب الزركشي (ت: 744 هـ) "البرهان في علوم القرآن" يجد أنه في كثير من مواضعه في الجزء الأول خاصة يتحدث عن موضوعات هي في الحقيقة إلى الحديث عن الانسجام كموضوع من موضوعات لسانيات النص أقرب، ومن ذلك قوله و هو يتحدث عن علم المناسبة : واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول والمناسبة في اللغة المقاربة وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله ومنه النسب الذي هو القريب المتصل بالأخوين وابن العم ونحوه⁴، فهو في هذا يعرفنا على علم المناسبة الذي لم نجد له حضورا واسعا في دراساتنا التراثية غير أن الذي وجد منها كان ذا دلالة مميزة في على لغة النص، والواقع أن علم المناسبة جاء مرتبطا بالنص القرآني المقدس خاصة، فقد وجدنا علماءنا الأولين يتحدثون عنه غالبا مربوطا بالآيات القرآنية، وفي ذلك يقول الزركشي: المناسبة أمر معقول؛ إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها والله اعلم إلى معنى ما رابط بينهما : عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ؛ كالسبب والمسبب والعللة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه⁵، ويقول أيضا: "المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعللة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه⁶، و منها قوله : وقال الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، لئلا يكون منقطعاً وهذا النوع يهمله بعض المفسرين، أو كثير منهم، وفوائده غزيرة، قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المرديدن : ارتباط لأي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه؛ فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه⁷

ولعلم المناسبة في الدراسات النصية أهمية كبيرة فقد جاء في البرهان للزركشي قال بعض مشايخنا المحققين المحققين : قد وهم من قال : لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا؛ فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سورة كلها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كل ما أفتى، ولا كما نزل مفرقا، بل كما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين

1 - أسامة بن منقذ البديع في نقد الشعر تحقيق أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد الجمهورية العربية المتحدة دت د ط ، ص 162 ، جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، ص : 78

2 - أسامة بن منقذ البديع في نقد الشعر ، ص 131

3 - حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، ص : 290

4 - الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط3، 1984-1404، ج 1 ص 35، ينظر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، البرهان في تناسب سور القرآن، دار ابن الجوزي الطبعة الأولى 1426، ص 65، ينظر حذيفة عبود مهدي التناسب في القرآن الكريم مجلة سر من رأى المجلد 11 العدد

43 السنة 11 كانون الأول 2015، ص 159

5- الزركشي، البرهان في علوم القرآن البرهان ج 1 ص 35

6 السيوطي الإقتان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية ج 3 ص 323

7 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن البرهان ج 1 ص 36

أسلوبه ، ونظمه الباهر فإنه: كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ قال: والذي ينبغي مي كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة، ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم؛ وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها و ما سيقنت له¹

كما تجدر الإشارة إلى أن ما خلفه الأقدمون من تراث يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنواع تراث لغوي و تدرج فيه البلاغة والنحو و تراث نقدي وتراث ديني فيه التفسير وعلوم القرآن⁽²⁾، ونبدأ بكتب الإعجاز التي كانت موضوعا بلاغيا، والتي كان علماءنا تناولوا فيها نقاط كثيرة من مقولات علم اللغة النصي على الرغم من أنهم لم يكونوا يهدفون إليها وإنما كان تناولها عارضا، ونمثل لهذا الصنف بعالمين جليلين هما ابن قتيبة من خلال كتابه تأويل مشكل القرآن والباقلاني من خلال كتابه إعجاز القرآن.

أما إذا رجعنا على التماسك النصي فلا بد أن نميز بين الترابط اللفظي والترابط الموضوعي، فأما الشكلي اللفظي فهو ما يسميه أهل هذا الاختصاص بالاتساق وأما الموضوعي فهو ما يسمى الانسجام وهذان المصطلحان نود التفصيل فيهما وتبين أشكاليهما، فأما الاتساق فقد عني البلاغيون العرب به الموضوع عناية كبيرة لما له من أهمية في الدراسات اللغوية التي كانوا بصدد إنجازها، أو التعامل معها، ويسجل الدكتور إبراهيم خليل ذلك بقوله: "فالبلاغيون العرب اعتنوا بالكشف عن الترابط القائم بين سلسلة الأقوال المؤلفة لفقرة أو مجموعة أجزاء من العمل الأدبي، ونجد هذا واضحا فيما كتبه حازم القرطاجني (684هـ) الذي سلط الضوء على العلاقات الترابطية لأجزاء القصيدة"⁽³⁾، ولعل من أهم النقاط التي كان البلاغيون العرب معنيين بها في باب الدراسات البلاغية، قضية اللفظ و المعنى، وقضية النظم؛ وتلك النظرة صائبة جدا إذ أن الكلام لن يكون أبدا مؤديا ما يريده المبدع أو المتحدث، ولن يصل فيه الدارس أو السامع إلى دراسة اللفظ أو دراسة المعنى أو دراسة النظم، ما لم يكن موافقا للنسق المطلوب في اللغة، "فالتركيب الذي يفهم منه المقصود الأعظم هو ناتج عن التفاعل بين اللفظ الحامل، والمعنى القائم والعلاقات التي تربط أجزاء هذا التركيب"⁽⁴⁾، وكان تراثنا قد زخر بكثير من الأفكار في هذا الباب، خاصة مع عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم، "فقد نظر إلى القرآن الكريم نظرة كلية باعتباره نصا واحدا، وذلك بعرضه سؤالا مؤداه: ما الذي أعجز العرب من النص القرآني؟"⁽⁵⁾، وكذلك مع حازم القرطاجني، وغيرهما من فطاحلة التفكير اللغوي العربي، الذين سجلوا في نيزد قليلة من إشاراتهم الموثقة في أعمالهم، ما يمكن لنا نحن اليوم أن نعتز به اعتزازا كبيرا،

وللاتساق من المنظور اللساني أشكال متعددة، حددها علماء لسانيات النص، وبينوا كيف تكون هذه الأشكال مؤدية للاتساق النصي، ومن أشهر الذين اهتموا بهذا الموضوع وإليه يرجع أغلب الباحثين في ميدان لسانيات النص - خاصة باب الاتساق والانسجام - الثنائي هاليداي ورقية حسن في كتابهما (الاتساق في الإنجليزية) وهو الكتاب الذي بين فيه المؤلفان أوجه الاتساق في اللغة الإنجليزية، وبغض النظر عن تطابق تلك الآراء والنظرات مع العربية أو عدم تطابقها، فإننا نورد كثيرا من آراء العالمين لأنها في رأينا تمثل أحسن ما يمكن أن نعتمد عليه، مقتدين بالذين سبقوا في هذا الميدان وأهم هذه الأشكال:

الشكل الأول الإحالة

تغير بدءا من دخول المصطلح إلى ميدان لسانيات النص، فالمفهوم التقليدي لها هو تلك العلاقة الموجودة بين الأسماء ومسمياتها ألسنت حين تقول: "شجرة" قد أحلت المخاطب إلى شيء ينمو على الأرض له أوراق وجذع وأغصان؟، ألسنت تلفت نظره من عندك إلى هذا الشيء غير الموجود أمامك؟ إننا لولا هذه الإحالات التي تغنينا عن كثير من المتاعب لكننا ملزمين بأن يحضر المتحدث منا ما لا يستطيعه، حتى يمكنه التواصل؛ إنه حين يقول مثلا: جرت السفينة في البحر، لولا الإحالة لكان المتحدث

1- نفسه ج 1 ص 37

2- ينظر عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1986م، ص: 36.

3- إبراهيم خليل في اللسانيات ونحو النص، الطبعة الأولى 2007 دار المسيرة، عمان، الأردن، ص: 185

4- مصطفى السعدني المدخل إلى بلاغة النص، ص: 23

5- صبعي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج 1، ص: 226

مجبرا على إحضار البحر وإحضار السفينة أو على الأقل لن يكون قادرا على تلفظ هذه العبارة ما لم يكن على شاطئ البحر، لكن والحال هذه فإن المتحدث بطريق الإحالة يتحدث عن أشياء هي في ذهن السامع، وما على السامع إلا أن يعمل فكره ليفهم المعنى، وما عليه إلا أن يستفز ذاكرته ليحدث التواصل .

ويقسم الدارسون الإحالة إلى أقسام انطلاقا من موقع التواجد وانطلاقا من قربها وبعدها عن المرجع وانطلاقا من سيقها أو لحوقها ثم تقسم اعتبارا للألفاظ التي أحدثتها، فأما من حيث موضع التواجد فهي تنقسم إلى إحالة خارج النص أو خارج اللغة و إحالة داخل النص أو داخل اللغة، و أما من حيث سبق المرجع فتقسم إلى إحالة على السابق وإحالة على اللاحق، وأما من حيث القرب والبعد فتقسم إلى إحالة قريبة وإحالة بعيدة، أما من حيث الأشكال اللفظية فلإحالة ألفاظها التي يعتد بها وهي الضمائر وأسماء الإشارة و(أل) وأدوات المقارنة، وتتميز الإحالة بأنها تخضع لقيود دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه⁽¹⁾.

ويمكن أن تتمثل هذه الأشكال في الإشارة أو الكنايات : و هي " مفهوم لساني يجمع كل العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة على المقام من حيث وجود الذات المتكلمة أو الزمن أو المكان ، حيث ينجز الملفوظ والذي يرتبط به معناه ، ومن ذلك : الآن ، هنا ، هناك أنا ، أنت ، هذا ، هذه"⁽²⁾ ، كما يمكن أن تتمثل في الضمائر: تعد الضمائر أفضل الأمثلة على الأدوات التي يستعملها المتكلمون للإحالة على كيانات معطاة، فلو أردنا تحري الحقيقة، على ماذا يحيل ضمير المفرد الغائب (هو) لو أخذ منعزلا لما وجدنا له معنى خاصا يتفرد به ولا يرتبط فيه بلفظ آخر ، بل نجده يشير دوما إلى المرجع الذي يعود عليه"⁽³⁾، وتتمثل أيضا في أسماء الإشارة فإن أسماء الإشارة تحدد مواقعها في الزمان والمكان داخل المقام الإشارات. وهي تماما مثلها لا تفهم إلا إذا ربطت بما تشير إليه⁽⁴⁾، كما تتمثل في أدوات المقارنة وتكون المقارنة عن طريق أسماء التفضيل

الشكل الثاني: الربط بالأداة: يعد النظر في وجوه الربط بالأداة بين الجملتين أن حضور أداة الربط مشروط بالخلاف بين الجملتين أو المقطعين المتصلين أو المتباعدين، ومصطلح الخلاف يجمع عددا من الوجوه.⁽⁵⁾، منها تعاقب في الذكر : (الفاء) (ثم) ومنها تعاقب على أساس السببية: ويدخل تحته في العربية أدوات الشرط، ومنها تعاقب على أساس إضافة عنصر إخباري جديد : (في)، ومنها تعاقب على أساس الترديد والذكر: (أو)

الشكل الثالث إعادة اللفظ (التكرار):

هي واحدة من الطرق التي تلجأ إليها اللغة للربط والتي استعملتها اللغات كثيرا و " تعد إعادة اللفظ في العبارة السطحية التي تتحد محتوياتها المفهومية و إحالاتها من الأمور العادية في المرتجل من الكلام"⁽⁶⁾ وإعادة اللفظ له شروطه التي تجعله مؤديا للوضوح ، لا مؤديا إلى الغموض ، فإذا كان اللفظ مكررا بشكل كبير ، وكان المرجع غير واحد ، فإننا في ذلك الوقت قد جعلنا المستمع أو القاري يتيه في غمرة البحث عن المرجع ، ولذلك " تتطلب إعادة اللفظ وحدة الإحالة...ولكنها قد تؤدي إلى تضارب في النص حين يتكرر المشترك اللفظي مع اختلاف المدلولات (جينز فيل سن)⁽⁷⁾ وللإعادة صور متعددة منها الإعادة الصريحة ، والإعادة من خلال الضمير ، والإعادة الضمنية .

1 - محمد خطابي ، انظر لسانيات ، النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص: 17

2 - الأهر الزناد ، نسيج النص ، ص: 116

3 - ج ب براون ، و ج بول ، تحليل الخطاب ، ترجمة محمد لطفي الزليطني و منير التريكي ، ص: 256

4 - الأهر الزناد ، نسيج النص ، ص: 117

5 - الأهر الزناد ، نسيج النص ، ص: 56

6 - روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان ، ص: 303 ، انظر صلاح الدين صالح حسنين ، النحو و الدلالة ، ص: 236.

7 - روبرت دي بوجراند ، النص و الخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان ص 303

الإعادة الصريحة : ويسمى بعضهم التكرار المحض⁽¹⁾ وهو متعلق باستعمال المتكلم لتعابير معينة في وضعيات معينة يفرضها عليه المقام وهي التي تحدث عنها كلاوس برينكر لما قال: إذ يكرر تعبير معين (كلمة أو ضميمة مثلا) من خلال تعبير أو عدة تعبيرات في الجمل المتتابة للنص"⁽²⁾ ، وهذا التكرار نوعان :
تكرار مع وحدة المرجع أي أن يكون المسمى واحدا .
تكرار مع اختلاف المرجع .

الإعادة غير الصريحة : وتسمى أيضا التكرار الجزئي⁽³⁾ وذلك حينما يكرر المتحدث الأمر المتحدث عنه لكن بغير لفظه بل بالمرادف مثلا ، ومن صورها :
الإعادة من خلال الضمائر :

تتمثل الإعادة بالضمير في أن يتطلب المقام لفتا لنظر القارئ أو المستمع ، ليكون متابعا لسياق مترابط متكامل ، بأن يعيد حديثه ولو بجزء منه متمثلا في ذكر الضمير المحيل إلى الأصل ، وقد مر بنا الحديث عن الضمائر كواحدة من أنواع الإحالة الإعادة الضمنية : وهي إعادة لا يلجأ فيها المتكلم إلى ذكر اللفظ مرة ثانية ، ولا إلى ذكره بالضمير وإنما يتحدث عنه ضمنا ، و من أمثلة التكرار:

يقول توفيق زياد⁽⁴⁾:

بأسناني

سأحي كل شبر من ثرى وطني

بأسناني

ولن أرضى بديلا عنه

لو علقت من شريان لشرياني

أنا باق

أسير محبتي لسياج داري

للندی ، للزنبق الحاني

أنا باق

ولن تقوى علي

جميع صلباني

أنا باق

سأحي كل شبر من ثرى وطني

بأسناني .

الشكل الرابع الحذف :

هو: "علاقة داخل النص، بحيث يوجد العنصر المفترض في النص السابق، وهذا يعني أن الحذف عادة علاقة قبلية."⁽⁵⁾ أي أن العنصر المحذوف يشكل علامة دلالية مع العنصر السابق تحدث اتساقا ما بين أجزاء النص. "فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم بيانا إذا لم تبين"⁽⁶⁾ ، وقد قسم هاليداي ورفيقه حسن الحذف إلى ثلاثة أنواع هي: الحذف الاسمي: الحذف الفعلي الحذف داخل شبه الجملة: مثل: كم ثمن هذا القميص؟

1 - الأهر الزناد نسيج النص ، ص: 107

2 - كلاوس برينكر ، التحليل اللغوي للنص ، ترجمة سعيد حسن بحيري ، ص: 38

3 - الأهر الزناد نسيج النص ، ص: 107

4 - نقلا عن فاروق شوشة ، جمال العربية كتاب العربي العدد 52 ابريل 2003 ص 72

5 - محمد خطايي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 21.

6 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 155 .

خمسة جنيمات⁽¹⁾، والحذف في الحقيقة لا يختلف عن الاستبدال إلا بكون الأول استبدال بالصفير فالاستبدال يترك أثرا في حين أن الحذف لا يترك الأثر، وذلك يعطي للقارئ مادة يستطيع من خلالها أن يكتشف العنصر المقصود، والذي يعين على ذلك هو أن النص بناء يقوم على التماسك والاتساق وهذان العاملان يساعدان منثنى النص على الاختصار، وعدم الإطالة بذكر معلومات فائضة

الشكل الخامس الاستبدال:

وذلك أن يستبدل المتحدث لفظا بلفظ آخر له المدلول نفسه، وهو ركيزة مهمة في بناء أي نص على المستوى اللساني⁽²⁾،

الشكل السادس التحد يد:

مما ينسب إلى أداة التعريف أنها تتقدم العبارات الدالة على ما سبق ذكره، كما ينسب إلى أداة التنكير أنها تسبق ما لم يذكر من قبل⁽³⁾ يدخل تحت هذا الباب (أل) العهدية في العربية

الانسجام

عني علماؤنا الأولون عناية كبيرة بهذه القضية اللغوية، و من الذين تناولوها عبد القاهر الجرجاني (471) الذي كان متأثرا بجهود الباقلائي (403) المهتم أكثر بالإعجاز، وقد عمد الجرجاني إلى ربط العلاقة بين المكون النحوي والمكون الدلالي، ومن المهتمين أيضا بذلك ابن رشد (595)، وحازم القرطاجني (684)، وكذلك الإمام الشاطبي (790)، كما كان لعلماء التفسير أثرهم في هذا الميدان ومنهم الزركشي والسيوطي (911) والطبري ومن علماء العصر الحديث سيد قطب و سعيد حوى .

-أدوات الانسجام

1-التأويل:

يحتاج القارئ لكي يفهم النص المقروء إلى جهد تأويلي يمكنه من رصد العلاقات الخفية الرابطة بين أجزاء النص، خاصة إذا كان للفظ الواحد مفاهيم قد تتغير ولا يضبط مفهومها حتى يعرف السياق الذي وردت فيه و التأويل كما قال صاحب اللسان (نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ) ولعل هذا هو المفهوم الذي ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في المعنى ومعنى المعنى، ونمثل لهذا المظهر بقول الشاعر عثمان لوصيف: في قصيدة له بعنوان " الطيب صالح"⁽⁴⁾

يا عنتره العبسي

هذا موسم الهجرة...قم

قم تهاجر عبر هذا الأزرق الممتد

حتى نهتدي نحو الشمال

نحن أبناء الجنوب الحي

أبناء اللهب

أرضنا تزخر تيرا

ورحيقا ينسكب

والمجاعات...

المجاعات...

هنا تنخر مثل السوس في أعظمتنا

يا...للعجب

1 - أحمد عفيفي: نحو النص، ص 127.

2 - فتحي رزق الخوالدة، تحليل الخطاب الشعري، ص: 70، انظر أحمد عفيفي نحو النص، ص 122

3 روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان ص 307 انظر أحمد عفيفي نحو النص، ص 114

4 - الفكرة مأخوذة من رسالة ماجستير تقدم بها الطالب يعي شريف عبد الرزاق بعنوان " الاتساق والانسجام في شعر عثمان لوصيف

فنداء الشاعر في بداية هذه القطعة يجعلنا نفكر في الذي يعنيه عثمان لوصيف بقوله عنتره العبسي، غير أن العنوان الذي هو الطيب صالح وبعض كلمات القصيدة كقوله موسم الهجرة إلى الشمال، وقوله نحن أبناء الجنوب الحي يجعلنا نقول: إن الذي يقصده الشاعر هو الطيب صالح الشاعر السوداني صاحب موسم الهجرة إلى الشمال.

2- السياق

إنه يعني الانزلاق من المستوى التحليلي إلى مستوى آخر يتعلق بظروف إنتاج الخطاب، فالمرسل والمتلقي وزمان النص ومكان إنتاجه والحالة النفسية للمرسل أو المتلقي كلها عوامل محددة للسياق وفي المثال الموالي نتبين دور السياق في تحديد المعاني الحقيقية للنص، وإليك النص التالي من الرسالة السابقة الذكر رسالة الاتساق والانسجام في شعر عثمان لوصيف .

يتهاوى من رصيف لرصيف

ثم يعدو من نزيف لنزيف

ساحبا خفي حنين

طاوي البطن

يصوم الدهر من غير ثواب

حاملا أدوية أو وصفات

لكناريتها... تلك العليلة

فإذا ما خيم الليل

كرها إلى كوخ

من القصدير والألواح

حيث البرد ... والبق

وحيث القطط الكسلى الذليلة

إننا إذا عرفنا السياق الذي ولد فيه النص فهنا أن الكناري المقصود ليس حيوانا بل هو شيء آخر ، وإذا عرفنا أن النص ولد بالجزائر العاصمة يوم 19-12-1996، وعرفنا أن هذا التاريخ يمثل مرحلة المعاناة للشاعر مع زوجته المريضة وأن هذا التاريخ بالضبط كان متواجدا فيه بالعاصمة لمعاجة الزوجة، وهذا يجعلنا نقر أن السياق له دور في فهم النص وفي تبين انسجامه .

3- الفهم المحلي :

يرتبط هذا المفهوم بما ورد قبله إذ أن المتلقي أو السامع يكون في هذا مجبرا على أن لا يوسع فهمه للسياق بل يجب أن يكون فقط وفق الذي يناسب المقام فهو كما يقول محمد خطابي : يعتبر تقييدا للطاقة التأويلية لدى المتلقي ، ويكون ذلك حينما يقدم الكاتب حيزا زمانيا أو مكانيا وهنا سوف يتفاعل معه القارئ بمعرفة الحيز غير أن الكاتب يغير هذا الحيز وفق ما يرسمه في نصه أو عن شخصيته أو عن حوادث الموضوع حينذاك يجد القارئ نفسه ملزما بالالتزام بالحيز المذكور ، ومن ذلك قول الشاعر

الفلسطيني سميح القاسم

ياعدو الشمس ..

في الميناء زينات وتلويح بشائر ..

وزغاريد وبهجة

وهتافات وضجة

والأناشيد الحماسية وهج في الحناجر

وعلى الأفق شراع

يتحدى الريح .. واللج .. ويجتاز المخاطر

إنها عودة بوليسيز

من بحر الضياع ..

عودة الشمس وإنساني المهاجر

ولعينها وعينيها .. يميننا .. لن أساوم ..

وإلى آخر نبض في عروفي

سأقاوم ..

سأقاوم

فالفهم المحلي يحد من طاقتنا التأويلية التي ربما تجعلنا نذهب بعيدا حينما نسمع كلمة يوليسيز، فإذا ضبطنا القوة التأويلية كنا محل بحث عن المقصود ووجدنا أن المقصود هو الشعب الفلسطيني المشرذ المبعد عن وطنه .

4-القياس

يقول براون ويول (يمثل مبدأ القياس إحدى الأدوات الأساسية التي تمكن السامعين والمحللين من تحديد فهمهم داخل السياق ، فهم يفترضون أن كل شيء سيبقى على ما كان عليه ماداموا لم يعطوا إشعارا خاصا بتغيير إحدى الخصائص ،...فهو يحدد للقارئ أو السامع إطارا مضمونا إلى حد ما لعملية الفهم .

5-العلاقات:

ينظر عادة إلى العلاقات التي تجمع أطراف النص أو تربط بين متوالياته (أو بعضها) دون وسائل شكلية تعتمد في ذلك عادة على أنه علاقات دلالية⁽¹⁾ مثل علاقات العموم والخصوص، السبب/ المسبب، المجلد/ المفصل، وهي علاقات متواجدة عبر مساحة النص محققة تماسكا دلاليا بين بنياته، كما أنها لها دور الإخبارية من أجل تحقيق درجة معينة من التواصل. "بيد أن النص الشعري قد يوجي بعدم الخضوع لهذه العلاقات، ولكنه ما دام نصا تحكمه شروط الإنتاج والتلقي فإنه لا يتخلى عن هذه العلاقات."⁽²⁾ لأنها قائمة في بنيته الدلالية التي تربط النص أو أجزائه عبر هذه العلاقات المعنوية.

6- موضوع الخطاب:

ويعرّف الموضوع على أنه:"نواة مضمون النص حيث يسمي مسار الأفكار القائم على موضوع أو عدة موضوعات في نص ما، ويتحقق موضوع النص إما في جزء معين من النص أو نجرده من مضمون النص وذلك بطريق العبارة المفسرة الموجزة المختصرة."⁽³⁾

ولقد أضاف الدارسون إلى موضوع الخطاب مفهوم التخاطب الذي يقتضي اثنين في العملية التخاطبية وبخاصة في النص الشعري باعتباره خطابا متعدد الأصوات، ويظهر ذلك من خلال حوارية مقطعية داخلية، بحيث يساهم كل مقطع في علاقته بسائر المقاطع في بناء موضوع الخطاب، ولذلك قال مورجان:"أن المواضيع لا توجد في الجمل، بل لدى المتكلمين."⁽⁴⁾ ويطلق لفظ "الحوارية" على البعد التفاعلي للغة، أكان شفويا أو مكتوبا، و "الحوارية التفاعلية تحيل كذلك على التجليات المتنوعة للتبادل الكلامي." فالمشاركون يعبر عنهم بالأسماء أو الضمائر والأحوال والصفات والأماكن و الأزمنة. وقد اقترح الباحثان يول وبروان مفهومين فعالين في تقييد موضوع الخطاب، وفي جعله أكثر ارتباطا بإطاره العام وهما: "قاعدة الوجهة وإطار الموضوع". هذا الأخير الذي يتمثل في الملامح السياقية التي تنعكس على النص بوصفه البناء الشكلي الذي يتمثل فيه القول، وتستمد الخصائص السياقية كتبديل الشفرة والعلاقات القائمة على مبدأ توزيع الأدوار في العملية التواصلية والأدوات الاشارية مثل:"أنا" و "أنت" و "هنا" و "الآن" - بطبيعة الحال من السياق المادي فهي تقع خارج النص، ومنها ما يستمد من داخل الخطاب نفسه. أما قاعدة الوجهة فهي مبدأ تداولي ينضبط به التخاطب، وهو في معناه اللغوي هو "مقابلة الوجه للوجه". وفيه يعتمد المتخاطبان على مبادئ كالتعاون والتعفف لتخفيف حدة الخطاب التهديدي حتى تسهل عملية التبادل التخاطبي وهو يقابل "مبدأ

1 -- محمد خطابي: لسانيات النص ص 268

2 - المرجع نفسه: ص 269.

3 - كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص، ترجمة سعيد حسن بحيري ، ص 72.

4 - براون ويول: تحليل الخطاب، تر محمد لطفي الزليطلي ومنير التريكي، ص 86.

التأديب عند لاكوف من جهة أخذه بالجانب العملي من التهذيب.⁽²⁾ وعليه فإن العملية التخاطبية تنبني أساسا على السياق الذي يحصر الموضوع في إطار محدد وواضح والجانب التأديبي الذي يجعل من الخطاب يأخذ طابعا تفاعليا بين المشاركين.

7-التغريض

يعتبر العنوان وسيلة قوية للتغريض، ويعرفه بروان و بول: "بأنها نقطة بداية قول ما". فالتغريض في الخطاب يقوم بالبحث في العلاقة التي تربط موضوعه بالعنوان، ذلك أن العنوان وسيلة تعبيرية ممكنة عن الموضوع، كما أنها أداة إبراز لها قوة خاصة. "فلو وجدنا اسم رجل مبرزا في عنوان النص توقعنا أن يكون ذلك الشخص محور الحديث (...)" و أن العناصر المبرزة لا تمدنا فقط بنقطة الانطلاق نبي حولها كل ما يمكن في صلب الخطاب، بل إنها تمدنا كذلك بنقطة الانطلاق نحد من إمكانات فهمنا لما يلحق."

ويتعلق التغريض بالعنوان وبالجملة الأولى ، وكيف أن هذين يبقيان ماشيين في خيط رفيع يؤديان دورا خفيا هو دور الربط بين أجزاء القصيدة أو النص ، ففي القصيدة الموالية نشتم رائحة الخضوع والذل ، إذ يقول أمل دنقل في ديوانه العهد الآتي في قصيدة بعنوان "صلاة"⁽²⁾

أبانا الذي في المباحث نحن رعاياك باق

لك الجبروت . وباق لنا الملكوت . وباق لمن

تحرس الربوت

تفردت وحدك باليسر . إن اليمين لفي الخسر

أما اليسار ففي العسر . إلا الذين يماشون

إلا الذين يعيشون يحشون بالصحف المشتركة

العيون .. فيعيشون .. إلا الذين يشون وإلا

الذين يوشون ياقات قمصانهم برياط السكوت

تعاليت . ماذا يهكم ممن يذمك؟ أليوم يومك

يرقي السجين إلى سدة العرش ..

والعرش يصبح سجنا جديدا . وأنت مكانك . قد

يتبدل رسمك واسمك

لكن جوهرك الفرد

لا يتحول . ألصمت وشمك . والصمت وسمك .

والصمت - حيث التفت - يزين ويسمك . الصمت

بين خيوط يديك

المشبكتين المصمغتين يلف

الفراشة والعنكبوت

أبانا الذي في المباحث . كيف تموت

وأغنية الثورة الأبدية

ليست تموت؟

فإذا أخذنا سطرها الأول تبين لنا فعلا ذلك الذل من خلال قوله : أبانا الذي في المباحث نحن رعاياك، وإذا نظرنا إلى العنوان أيضا وجدنا لمعناه تواجد فيها

1 - بول وبروان: تحليل الخطاب، ص 161.

2 - محمد حماسة عبد اللطيف ، الإبداع الموازي ، ص 46

8- البنية الكلية:

يهتم التحليل النصي بالبنية الكبرى المتحققة بالفعل وهي "بنية مجردة تقارب بموضوع الخطاب الذي يعتبره فان دايك مفهوما عمليا." (1) أي أنها كامنة وحاضرة في البنية الموضوعية للنص «وهي تتسم بدرجة من الانسجام والتماسك وهذا التماسك ذو طبيعة دلالية» (2).

أما كيفية تحديد البنية الكبرى للنص، فإن الملاحظ أن القراء يختارون من النص عناصر مهمة تتباين باختلاف معارفهم واهتماماتهم وأرائهم، وعليه يمكن أن تتغير البنية الكبرى من شخص إلى آخر باختلاف المرجعية الثقافية والنقدية والمنهجية. أما قواعد الوصول لهذه البنية الكبرى للنصوص فهي كما يشرحها فان دايك تتمثل فيما يلي:

1- "الحذف أو الاختيار. 2- التعميم. 3- التركيب أو البناء.

فالحذف: تحذف من متتالية قضايا جميع القضايا التي ليست شروطا لتفسير القضايا اللاحقة في النص.

التعميم: استبدال متتالية قضايا بالقضية التي تنطوي عليها كل واحدة من قضايا المتتالية.

التركيب: استبدال متتالية قضايا بقضية تحيل إجمالا إلى الحدث ذاته الذي يحيل قضايا المتتالية برمتها. (1)

هذه العمليات لا يمكن أن تعمل إلا على أساس معرفتنا للعالم، التي تجعل من إدراكنا الذهني للنص وفق الخلفية الثقافية والمعرفية، ومنه تم تطبيق هذه القواعد.

إن البنية الكبرى للنص ترتبط بموضوعه الكلي، إذ تتجلى في ضوئها تلك الكفاءة الجوهرية لمتكلم ما، والتي تسمح له بأن يجيب عن سؤال مثل: عمّ كان الكلام؟ أو: ماذا كان هدف هذا الحوار؟ والذي يحدد إطار البنية الكلية هو المتلقي، لأن مجال التماسك ينتهي إلى مجال الفهم والتفسير الذي يضيفه القارئ

لا يعتمد فحسب على استرجاع البيانات الدلالية التي يتضمنها هذا النص، بل يقتضي أيضا إدخال عناصر القراءة التي يملكها المتلقي.

المراجع

- 01- إبراهيم خليل في اللسانيات و نحو النص ، الطبعة الأولى 2007 دار المسيرة ، عمان ، الأردن
- 02- ابن خلدون المقدمة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت لبنان 2004.
- 03- ابن منظور لسان العرب ، طبعة 1994، دار صادر بيروت
- 04- أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي الطبعة الأولى 2001 مكتبة زهراء الشرق القاهرة
- 05- الأزهر الزناد ، نسيج النص ، الطبعة الأولى 1993، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب
- 06- ج ب براون و ج بول تحليل الخطاب ، ترجمة محمد لطفي الزليطني و منير التريكي ، الطبعة الأولى ، 1997 ، النشر العلمي و المطابع ، جامعة الملك سعود ، السعودية
- 07- جميل عبد المجيد ، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، دت ، دط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

مصر

- 08- حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، دت ، دط ، دار الكتب الشرقية
- 09- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان ، الطبعة الأولى 1997 ، عالم الكتب ، القاهرة مصر
- 10- الزركشي ، محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط3، 1984
- 11- سعيد حسن بحيري علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 2010-1431.

(1)- محمد خطابي: لسانيات النص، ص 283.

(2)- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 328.

- 12 السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق ، علي محمد النجاوي ، طبعة 1973 ، دار الفكر العربي مصر
- 13 صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، الطبعة 1 ، 2000، قباء للطباعة و النشر والتوزيع القاهرة مصر
- 14 صلاح الدين صالح حسنين النحو و الدلالة ، طبعة 2005 توزيع مكتبة الآداب
- 15 صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص
- 16 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ط)، 1424-2003.
- 17 فاروق شوشة جمال العربية ، كتاب العربي العدد 52 ، أبريل 2003
- 18 فتحي رزق الخوالدة تحليل الخطاب الشعري ، الطبعة الأولى 2006، أزمنة للنشر والتوزيع عمان الأردن
- 19 الفيروزبادي القاموس المحيط ، مادة دار الكتاب العربي دت ط
- 20 كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، ترجمة سعيد حسن بحيري، الطبعة الأولى 2005، مؤسسة المختار ، القاهرة، مصر
- 21 محمد حماسة عبد اللطيف ، الإبداع الموازي دار غريب القاهرة طبعة 2001
- 22 محمد خطابي لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، الطبعة 2 ، 2006، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب
- 23 مريم فرنسيس ، في بناء النص و دلالاته ، طبعة 1998 ، وزارة الثقافة ، سوريا
- 24 مصطفى السعدني الطبعة المدخل إلى بلاغة النص ، الأولى ، 1994، توزيع منشأة المعارف الإسكندرية مصر.
- 25 مناع القطان ،مباحث في علوم القرآن ، الطبعة 11 سنة 200 مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر العربي.



برنامج المؤتمر الدولي المتخصص:

الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية (بين التأصيل والإنجاز)

27-28 فبراير 2019م

الموافق لـ 22-23 جمادى الآخرة 1440هـ

جامعة يحي فارس المدية (الجزائر) كلية الآداب واللغات

فعاليات الافتتاح: 09:00-11:00س

- ❖ تلاوة آيات من القرآن الكريم
 - ❖ الاستماع إلى النشيد الوطني الجزائري.
 - ❖ كلمة مدير الجامعة، أ د حميدي يوسف والإعلان الرسمي عن افتتاح الأشغال
 - ❖ كلمة السيد رئيس المؤتمر أ د مكي محمد
- في التعريف بأهم محددات المؤتمر ومقولاته العامة وبنياته الأساسية

برمجة الجلسات

اليوم الأول 27 فبراير 2019م

القاعة: محمد بن أبي شنب.

الجلسة الأولى: 11:00-11:55س.

رئيس الجلسة: أ.د. حبيب مونسي

البلد/ الجامعة	عنوان المداخلة	المحاضر	التوقيت
جامعة الجزائر	مدخل إلى الممارسة النصية في المدونات التراثية	أ.د. جمعي لخضر	11:15-11:00
جامعة سيدي بلعباس الجزائر	بلاغة الكتابة عند بشر بن المعتمر	أ.د. حبيب مونسي	11:30-11:15
جامعة عجمان الإمارات	نحو التأصيل لنظرية الكتابة الإبداعية في التراث العربي	أ.د. ماهر مهدي هلال	11:45-11:30
جامعة الجزائر 2	الممارسة التداولية في الدرس الأصولي، مقارنة تأصيلية	د. نصيرة غماري	11:55-11:45

الجلسة الثانية: (12:00-13:05 سا)

رئيس الجلسة: أ.د. عيد بلبع

التوقيت	المحاضر	عنوان المداخلة	الجامعة/البلد
12:15-12:00	أ.د. عيد بلبع	أثر القرآن العظيم في توجيه المدونات التراثية نحو الممارسة النصية	جامعة المنوفية مصر
12:25-12:15	أ.د. عماد أحمد الزين	علماء أصول الفقه المسلمين تطبيقات في أسس الحجاج اللساني	جامعة الإمارات
12:35-12:25	د. علي أحمد عمران	البنية الأسلوبية في ديوان الحسين بن الضحاك، دراسة في البنية الصرفية والتركيبية	الجامعة الأهلية البحرين
12:45-12:35	د. نواف بن أحمد حكيم	ترجيحات الإمام السهيلي النحوية في كتابه نتائج الفكر في ضوء النظرية اللسانية	جامعة النجرا السعودية
12:55-12:45	د.محمود ريان	الأبعاد الدلالية للتناصات القرآنية قراءة في تناسب الآيات والسور للبقاعي	جامعة المنوفية مصر
13.05-12:55	أ.د. يوسف مقران	لسانيات المدونة(المتون) وفضلها التوثيقي على البحث السياقي فاعلية النص المترابط	جامعة تيبازة الجزائر
الجلسة الثالثة			
من 13.05 14.00 رئيس الجلسة خليفاتي محمد			
13.15 / 13.05	أ.د. خليفاتي محمد	دور السياق من خلال آيتي الدين والرهان	جامعة المدي الجزائر
13.25/ 13.15	د. نسبية العرفي	بين البلاغة الأدبية والبلاغة الحجاجية ، مجالات التقابل والتقاطع في مصنفات البلاغة العربية	جامعة الجزائر2
13.35 /13.25	أ.د. أمينة أدرودور	تماسك النص في اللسانيات الحديثة والتراث اللغوي العربي	جامعة الرباط المغرب
13.45 /13.35	أ.د. نعيمة بوزيدي	استراتيجيات التناول البلاغي عند عبد الله بن المعتز، قراءة في كتاب البديع	جامعة البليدة الجزائر
فترة المناقشة 14.00 /13.45			

القاعة: مجمع المخابر

الجلسة الأولى: (12:00-13:05 سا)

رئيس الجلسة: أ.د. زوقاي محمد

التوقيت	المحاضر	عنوان المداخلة	الجامعة/البلد
12:15-12:00	أ.د. ذهبية حمو	تداولية الضمني في الخطاب الساخر عند ابن المقفع، مثل الحمار الذي طلب قرنين فذهبت أذناه أنموذجا	جامعة تيزي وزو الجزائر
12:25-12:15	د. أحمد بوصبيعات	الجهود الدلالية عند علماء الأصول (الرسالة للإمام الشافعي أنموذجا)	جامعة الجلفة الجزائر
12:35-12:25	د. صحرة دحمان	قراءة للمقولة التراثية (لكل مقام مقال) في إطار نظرية الوضع	جامعة الجزائر

2	والاستعمال العربية.		
جامعة تيارت الجزائر	تأطير دلالة التناس في تأويل النص القرآني لدى علماء التراث	د. أحمد عرابي	12:45-12:35
المدرسة العليا بوزريعة الجزائر	الرتبة النحوية، قرينة نصية ودلالة قصديّة	د. بركاهم العلوي	12:55-12:45
جامعة الجزائر 2	الشعر العربي، حقيقته وجوهه، قراءة محمد العمري لتصور ابن وهب الكاتب المنظر البلاغي	د. هندا بوسكين	13:05-12:55
الجلسة الثانية: (13:05-14:15 سا)			
رئيس الجلسة: أ.د. محمد السعيد عبدلي.			
البلد / الجامعة	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
الجامعة الأهلية البحرين	الخطاب التداولي في مقامات الحريري	أ.د. علي عبد النبي فرحان	13:15-13:05
جامعة الشلف الجزائر	أسلوب الفنقلة في المنجز الأصولي، التأصيل والإنجاز، رسالة الشافعي أنموذجا	د. فايزة طيبي أحمد	13:25-13:15
المدرسة العليا بوزريعة الجزائر	نظرية النظم سبقت مفاهيم الحداثة، الجرجاني مؤسس مفاهيم الشعرية	د. عمر عاشور	13:35-13:25
جامعة النعامة الجزائر	أثر السياق في توجيه المعنى، دراسة مقارنة بين التراث البلاغي والدراسات الغربية المعاصرة	د. محمد الصالح بوضياف	13:45-13:35
جامعة ديالي العراق	ملامح التحليل الأسلوبي في القول الشعري، دراسة في المنجز النقدي لعبد القاهر الجرجاني	د. سعد جمعه صالح الديلمي	13:55- 13:45
فترة المناقشة			14:15-13:55

اليوم الثاني: 28 فبراير 2019م

القاعة: محمد بن أبي شنب

الجلسة الأولى: (09:00-10:00 سا)

رئيس الجلسة: د. محمد بن حجر.

البلد / الجامعة	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة المدية الجزائر	أصول تحليل الخطاب في رسالة (غاية الإحكام في آداب الفهم والإفهام) للطحلاوي	د.	09:10-09:00
تونس	في تأصيل المنهج التراثي، فعل الشرح نموذجاً	د. ثريا السوسية النيفير	09:20-09:10
جامعة القصيم السعودية	المقاصد الدلالية للحذف بين لسانيات النص وأصول الفقه	د. سليمان بن محمد النجران	09:30-09:20
جامعة الناظور	مظاهر الاتساق والانسجام في النص الشعري القديم (واحر قلباه)	د. يوسف تغزاوي	09:40-09:30

المغرب	للمتني ، نموذجاً		
الجامعة الهاشمية الأردن	التنصص في المدونات البلاغية	أ.د.ثناء عياش	09:50-09:40
المدرسة العليا بوزريعة الجزائر	السياق ودلالته عند علماء الأصول	أ.د. نصرالدين بن زروق	10:00-09:50

الجلسة الثانية: (10:00-11:00 سا)

رئيس الجلسة: د. عيد بلع

البلد	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة الرياض السعودية	الأنساق الثقافية وصورة المرأة في أخبار النساء لابن الجوزي	أ.د. ميساء خواجا	10-10-10:00
الجامعة الإسلامية العراق	تقنيات النسق الإبلاغي في الخطاب القرآني سورة المنافقون أنموذجاً	د. فاطمة عبد الأمير السلامي	10:20-10:10
جامعة فاس المغرب	الممارسة النصية عند الإمام السهيلي من خلال كتابه الروض الأنف، دراسة تطبيقية	د. عبدالوهاب بافلح،	10:30-10:20
جامعة معسكر الجزائر	نظرية النسج على المنوال لدى ابن خلدون، من منظور التعالقات النصية	د. مختار بن قويدر	10:40-10:30
جامعة بشار الجزائر	استراتيجيات لانسجام النصي في علوم القرآن، علم المناسبة أنموذجاً	أ.د.رشيد عمران	10:50-10:50
جامعة بومرداس الجزائر	الإشارات النصية عند ابن الزبير الغرناطي ، ملاك التأويل نموذجاً	د.خليدة بن عياد	11:00-10:50

الجلسة الثالثة: (11:00-12:30 سا)

رئيس الجلسة: د تومي السعيد

البلد/الجامعة	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة بومرداس الجزائر	المقولات السياقية بين علوم القرآن والنظريات التداولية، مسارات الدلالة وطاقت الاستدلال	أ.د. عائشة هديم	11:10-11:00
جامعة بوزريعة الجزائر	التراث اللساني ومعايير التماسك النصي، قراءة في كتاب تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان لحميد الدين الفراهي	د. فتيحة بلغدوش	11:20-11:10
جامعة المدينة الجزائرية	ذاكرة النص التراثي استقصاءاً للتعالقات النصية في المتن الأصولي	د. محمد مكي	11:30-11:20
جامعة تيسمسيلت	المقاصد الشرعية للمكلفين في ضوء المقاربة النصية، موارد الحكم الفقهي من خلال مدونة الموافقات للإمام الشاطبي	د بوعرارة محمد	11:40-11:30

جامعة البليدة الجزائر	من تجليات الاشتغال النصي في مدونات علماء التفسير سورة المائدة أمودجا	د. مراد العربي	10:40-10:30
جامعة الشلف الجزائر	أثر التكرار في التماسك النصي عند علماء الإعجاز القرآني، الباقلاني نموذجاً	د. فتوح محمود	10:50-10:40
جامعة المدينة الجزائر	ملاحم معايير دي بوجراند النصية في تفسير ابن الزبير الغرناطي	د. الصديق قوري	11:00-10:50

الجلسة الثالثة: (11:00-12:00 سا)

رئيس الجلسة: د. كمال بخوش

البلد	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة المدينة الجزائر	البنية النصية في القرآن من خلال التفاسير دراسة لمسألة الانسجام الحجاجي في حوار موسى عليه السلام وقومه (يونس، من 75 إلى 78)	د. كمال بخوش	11:10-11:00
جامعة زالنجي السودان	شرح دلالات الألفاظ في المعجم العربي، دراسة دلالية نقدية	د. عباس محمد أحمد عبد الباقي	11:20-11:10
جامعة سطيف الجزائر	الفصول الكلامية، رؤية تراثية مبكرة في استراتيجيات التكامل النصي (حازم القرطاجي نموذجاً)	د. هادية رواق	11:30-11:20
جامعة تيسمسيلت الجزائر	الوعي بالظواهر النصية في المدونة لنقدية العربية القديمة (عيار الشعر) لابن طباطبا أمودجا	د. بشير دردار	11:40-11:30
جامعة الأغواط الجزائر	الأبعاد الحجاجية في الممارسة النصية عند المتصوفة ترجمان الأشواق نموذجاً	د. عائشة عبيزة	11:50-11:40
جامعة البليدة الجزائر	التناسب في القراءة السياقية في توجيه المتشابه اللفظي، ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي	د. جميلة قوجيل	12:00-11:50
العراق	تقنيات النسق الإبلاغي في الخطاب القرآني تقنية التركيب المقصود أمودجا	د. فاطمة عبد الأمير راضي السلامي	12:10-12:00
	فترة المناقشة		12:30-12:10

برمجة الورشات

اليوم الأول: 27 فبراير 2019م

التوقيت	المحاضر	عنوان المداخلة	البلد
12:00-	د. أحمد فجر	تجليات وحدة النسق في سورة الفاتحة	جامعة المدينة
12:10		من خلال كتاب إشارات الإعجازي لبديع الزمان النورسي	الجزائر
12:10-	د. مريم بوجناح	الاتساق والانسجام النصي في التراث اللساني البلاغي، كتاب سر الفصاحة	المدرسة العليا
12:20		لابن سنان الخفاجي أنموذجا	بوزريعة الجزائر
12:20-	د. حازم ذنون	التماسك النصي في علاقة المقارنة	جامعة الموصل
12:30	إسماعيل		العراق
12:30-	د. سعاد طبوش	التماسك النصي ، مفهومه ومقالاته في الدرس النقدي العربي	جامعة جيجل
12:40			الجزائر
12:40-	د. عقال فاطمة	التناسق الأسطوري والديني في الرواية الجزائرية، رواية هابيل لمحمد ديب	جامعة المدينة
12:50	الزهراء	أنموذجا	الجزائر
12:50-	د. فاطمة حجار	معياري السبك الصوتي في المدونات النقدية التراثية ، دراسة في كتاب البيان	مركز البحث
13:00		والتبيين للجاحظ	تلمسان الجزائر

13:00-	أ. د. لبصير نور	تمفصلات التماسك النصي وجذوره في مدونات علوم القرآن، خلفيات	بومرداس
13:10	الدين	المقاربة وإشكالات التأسيس	الجزائر
13:10-	د. سامية بن زروق	جذور الدراسة النصية في التراث البلاغي والنقدي	جامعة المدينة
13:20			الجزائر
13:20-	د. سليمان بوراس	التماسك النصي بين القدماء والمحدثين	جامعة المسيلة
13:30			الجزائر
13:30-	د. سليمان بن	مفهوم النصية بين عبد لقاهر الجرجاني و(فان ديك)	جامعة غرداية
13:40	سمعون		الجزائر
13:40-	د. هامل شيخ	أثر المرجعية اللسانية في التأسيس للمقاربات النصية ، دراسة في التأصيل	جامعة عين
13:50		والبدايات	تيموشنت
			الجزائر
13:50-	د. بهية بلعربي	آليات التماسك النصي من خلال علوم القرآن، التفسير الكبير ومفاتيح	جامعة الجزائر
14:00		الغيب لفخر الدين الرازي	2

جامعة الجزائر 2	تراسل النصوص في حلية المحاضرة، لابن لمظفر الحاتمي	د عيسى مروك	-13:10 13:20
جامعة الجزائر	آليات المساءلة النصية والتداولية في التراث البلاغي العربي القديم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني أنموذجا.	د عبد الرشيد شادي	-13:20 13:30
جامعة تبسة الجزائر	النص اللغوي عند علماء الأصول	د. عليّة بيبة	-13:30 13:40
جامعة مستغانم الجزائر	معايير الدرس اللساني النصي في البلاغة المغاربية، كتاب ابن البنّاء العددي أنموذجا	د. حكيم بوغازي	-13:40 13:50
جامعة باتنة الجزائر	الدلالة القرآنية وثنائية اللفظ والمعنى في مدونات القرآن والتفسير	د سعاد رواج	-13:50 14:00
رئيس الجلسة الثالثة: د. محمد سرير			الجلسة الثالثة: (14:30-13:00)
جامعة البليدة الجزائر	المنطلقات النصية في التراث اللساني العربي	د عقيلة أرزقي	-14:00 14:10
جامعة المدية الجزائر	القصيدة ودورها في التحليل الإعرابي في كتاب سيبويه(باب التقديم والتأخير في الجملة)	د صليحة فيلاي	-14:10 14:20
جامعة تيسمسيلت الجزائر	ملاحج جماليات التلقي في المدونة النقدية العربيّة	د تلي سامية	-14:20 14:30
جامعة خنشلة الجزائر	قراضة الذهب لابن رشيق بين التناص والتلاص	د حلايمية دلال	.14.30 14.40
جامعة الجزائر 2	تقصي أثر الاستلزام الحواري في مفتاح العلوم للسكاكي	د نعيمة زايدي	-14:40 14:50
			-14:00 14:30
فترة المناقشة			
اليوم الثاني: 28 فبراير 2019م			
الورشة الأولى: (09:00-12:45 سا) القاعة: قاعة الاجتماعات (صحورية عقيلة)			

لجلسة الأولى: (10:00-09:00) رئيس الجلسة الأولى: أ. د. حاكم عمارية

جامعة سعيدة الجزائر	نظرية النحو في ضوء التداولية والحجاج، كتاب سيبويه أنموذجا	أ. د. حاكم عمارية	-09:00 09:10
جامعة تيزي وزو الجزائر	ملاحج التفكير التداولي النحوي عند الأندلسيين أبو القاسم السهيلي أنموذجا	د سميرة زهية عثمان	-09:10 09:20

جامعة أم البواقي الجزائر	الامتدادات التداولية في المدونات التراثية عند الأصوليين وعلماء النحو، قراءة في موافقات الشاطبي وشرح الرضي لكافية ابن الحاجب	د. صابر كنوز	-09:20 09:30
جامعة بومرداس الجزائر	تناسق المعاني في النسق القرآني من خلال كتاب تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي	د لامية قداش	-09:30 09:40
جامعة البويرة الجزائر	من تجليات فاعلية المناسبة في مقارنة النص القرآني تفسير سورة الشمس في نظم الدرر للبقاعي	د وهيبة غاني	-09:40 09:50
جامعة الجلفة الجزائر	النظرية النقدية العربية في التراث آليات الإنتاج المعرفي والاستقصائي	د. كمال بن عطية	-09:50 10:00
الجلسة الثانية: (10:00-11:00) رئيس الجلسة الثانية : سعدودي الشاذلي			
جامعة سوق أهراس الجزائر	شروط الخطاب الإقناعي عند الجاحظ	د. سليمة محفوظي	-10:00 10:10
جامعة الأغواط الجزائر	البنية التركيبية للنسيج النصي بين التراث اللغوي العربي ولسانيات لنص، قرينة التضام أنموذجا	أ. طه الأمين بودانة	-10:10 10:20
جامعة المدية الجزائر	الصورة الحجاجية من منظور البلاغة العربية والبلاغة الجديدة	د. باية بووزة	-10:20 10:30
جامعة الجزائر	تمظهرات التناسق في الممارسة انقدية العربية	د سعاد أوقاس	-10:30 10:40
جامعة الجلفة الجزائر	الأبعاد النصية في التراث البلاغي العربي، عبد القاهر الجرجاني أنموذجا	د كريم مبروكي	-10:40 10:50
جامعة البليدة الجزائر 2	الاتساق كملح لسانيات النص في التراث العربي القديم	د مزهودي حنان	-10:50 12.00

الجلسة الثالثة: (11:00-12:45) رئيس الجلسة الثالثة : د. حورية مدان

جامعة المدية الجزائر	الحذف ودوره في تحقيق التماسك النصي، قراءة تأصيلية من خلال المعاني اللغوية المثبتة في دلائل الإعجاز للجرجاني	د . بوعيشاوي فايزة	-11:00 11:10
جامعة المدية الجزائر	التفكير الأسلوب في التراث العربي	د شريفة مختيش	-11:10 11:20
جامعة غرداية الجزائر	الممارسة النصية في كتاب ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي	د يوسف بن أودينة	-11:20 11:30
جامعة المدية الجزائر	الاتساق النصي في البرهان في علوم القرآن	د. سهام عماد	-11:40 11:50

جامعة الشلف الجزائر	مظاهر الاتساق والانسجام في قصيدة أراك عصي الدمع	د مكى خديجة	-11:50 12:00
جامعة المدية	التماسك النصي في لامية العرب للشنفرى	د سارة بوطويل	-12:10 12:20
جامعة البويرة الجزائر	التناص الديني في شعر المدح لحسان بن ثابت نماذج مختارة	د حفصة العزاوي	-12:20 12:30

فترة المناقشة 12.45/12.30

الورشة الثانية: (09:00-12:30 سا) القاعة: المدرج (L2)

الجلسة الأولى: (09:00-10:00)			
رئيس الجلسة الأولى: د. بن علي عبد السلام			
التوقيت	المحاضر	عنوان المداخلة	البلد
-09:00 09:10	د. زهرة عميري	دراسة ابستمية سياقية لمفهوم النسق في الخطاب الأصولي	جامعة الجزائر 2
-09:10 09:20	د هشام يحيى	جذور وملاح التماسك النصي عند النقاد القدماء (عيار الشعر) لابن طباطبا أنموذجا	جامعة المدية الجزائر
-09:20 09:30	د بوعيطة صبرينة	الضمي في كتاب البخلاء للجاحظ، مقارنة تداولية معرفية	جامعة تبسة الجزائر
-09:30 09:40	د. ليلى قاسحي	جماليات التناص الديني في ديوان (ترجمان الأشواق) لابن عربي	جامعة الجزائر 2
-09:40 09:50	د. زوليخة يحيى	جذور التناص في المدونة النقدية العربية التراثية، وصلته بالسرقات الأدبية-قراءة في مؤلف العمدة لابن رشيق القيرواني.	جامعة المدية الجزائر
-09:50 10:00	د. سعيدة سعدودي	مظاهر التماسك النصي بين الدراسات اللسانية الحديثة والدراسات اللغوية العربية التراثية	جامعة بومرداس الجزائر
الجلسة الثانية: (10:00-11:00)			
رئيسة الجلسة الثانية: د سهام دويفي			
-10:00 10:10	د. سهام دويفي	الفاصلة القرآنية وأثرها في تماسك النص القرآني من خلال المدونات اللغوية التراثية	جامعة المدية الجزائر
-10:10 10:20	د. عقيلة لعشي	إرهاصات نحو النص في التراث العربي القديم	جامعة تيزي وزو الجزائر
-10:20 10:30	د. سعاد نكاع	النص بين قصدية المؤلف والوعي بالمتلقي في التراث النقدي العربي	جامعة مستغانم الجزائر
-10:30 10:40	د. هجيرة بوسكين	عتبات النص: النص الموازي بين التنظير النقدي الغربي والممارسة النصية التراثية العربية	جامعة خميس مليانة الجزائر

جامعة البويرة الجزائر	الانسجام النصي بين التراث العربي والدرس الغربي الحديث	د. غنية لوصيف	10:40- 10:50
جامعة المدية الجزائر	معياري المقبولية في المدونات التراثية	د. راضية عزيزي	10:50- 11:00
الجلسة الثالثة: (11:00-12:00) رئيسة الجلسة الثالثة: د. عائشة جمعي			
جامعة المدية الجزائر	البلاغة العربية من التعليمية إلى التداولية، البلاغة والسياق	د. العشمي عائشة	11:00- 11:10
جامعة المدية الجزائر	التناص عند ابن رشيق في كتابه لعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده	د. زهرة العيدي	11:10- 11:20
جامعة المدية الجزائر	المقامية بين الموروث البلاغي العربي واللسانيات التداولية	د. أم هاني رحمانى	11:20- 11:30
جامعة المدية الجزائر	تناسب الآيات والسور عند المفسرين، وعلاقته بالتماسك النصي من منظور لسانيات النص	د. فاطمة عويمر	11:30- 11:40
جامعة المدية الجزائر	نحو الجمل ودوره في التماسك النصي، نماذج من شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك	د. مريم قطيع	11:40- 11:50
جامعة المدية الجزائر	المقبولية في التراث النقدي والبلاغي عند الجاحظ، نماذج مختارة من كتاب البيان والتبيين	د. أسماء بن سليمان	11:50- 12:00
	المنجز النقدي العربي المعاصر في التأصيل التراثي للمصطلح النقدي "التناص" أنموذجا	د. زهير طوارفية	12:00- 12:10
	فترة المناقشة 12.30 / 12.10		12.10

